سلانيكي مصطفى أفندي

تاريخ سلانيكي

٩٧١ - ١٠٠١ هـ/ ١٥٦٣ - ١٥٩٣ م







ترجمة : د. أحمد حنفي عبد الرحيم

تقديم : أ.د/ سيد محمد السيد محمود

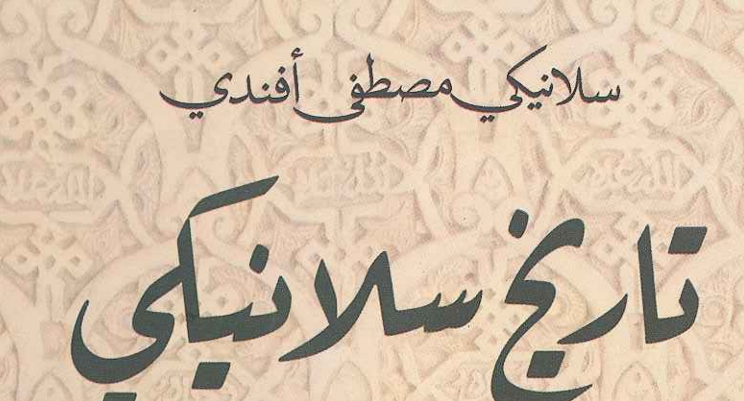


سلانيكي مصطفى أفندي

تاريخ سلانيكي







سلانيكي مصطفى أفندي

تاريخ سلانيكي

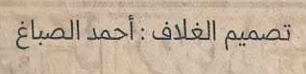
د. أحمد حنفي عبد الرحيم



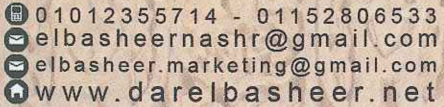

- ولد في محافظة سوهاج عام 1968م.
- حصل على درجة الليسانس من قسم اللغات الشرقية (تركي) كلية آداب سوهاج - جامعة أسيوط عام 1991م.
- عُين معيدًا بقسم اللغات الشرقية - كلية آداب سوهاج في 14/4/1996م
- حصل على درجة الماجستير في الآداب من كلية آداب سوهاج في 22/2/1999م.
- عُين مدرسًا مساعدًا بقسم اللغات الشرقية- كلية آداب سوهاج في 24/3/1999م.
- حصل على درجة الدكتوراه في الآداب من كلية الآداب - جامعة عين شمس في 11 أغسطس عام 2009م
- عُين عضو هيئة التدريس بقسم اللغات الشرقية كلية الآداب - جامعة سوهاج في 22/2/2010م

doctor ahmed hanafy@gmail.com

تصميم الغلاف : أحمد الصباغ


ISBN 978-977-278-833-0




01012355714 - 01152806533
elbasheernashr@gmail.com
elbasheer.marketing@gmail.com
www.darelbasheer.net



تاريخ سلانيكي

(٩٧١-١٠٠١هـ/ ١٥٦٣-١٥٩٢م)

الطبعة الأولى
1442 هـ
2021 م

اسم الكتاب: تاريخ سلانيكي
التأليف: د. أحمد حنفي عبد الرحيم
موضوع الكتاب: تاريخ
عدد الصفحات: 464 صفحة
عدد الملازم: 29ملزمة
مقاس الكتاب: 24x17
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 2020/17253
الترقيم الدولي: 978-977-278-833-0








elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com


01152806533 - 01012355714

تاريخ سلانيكي

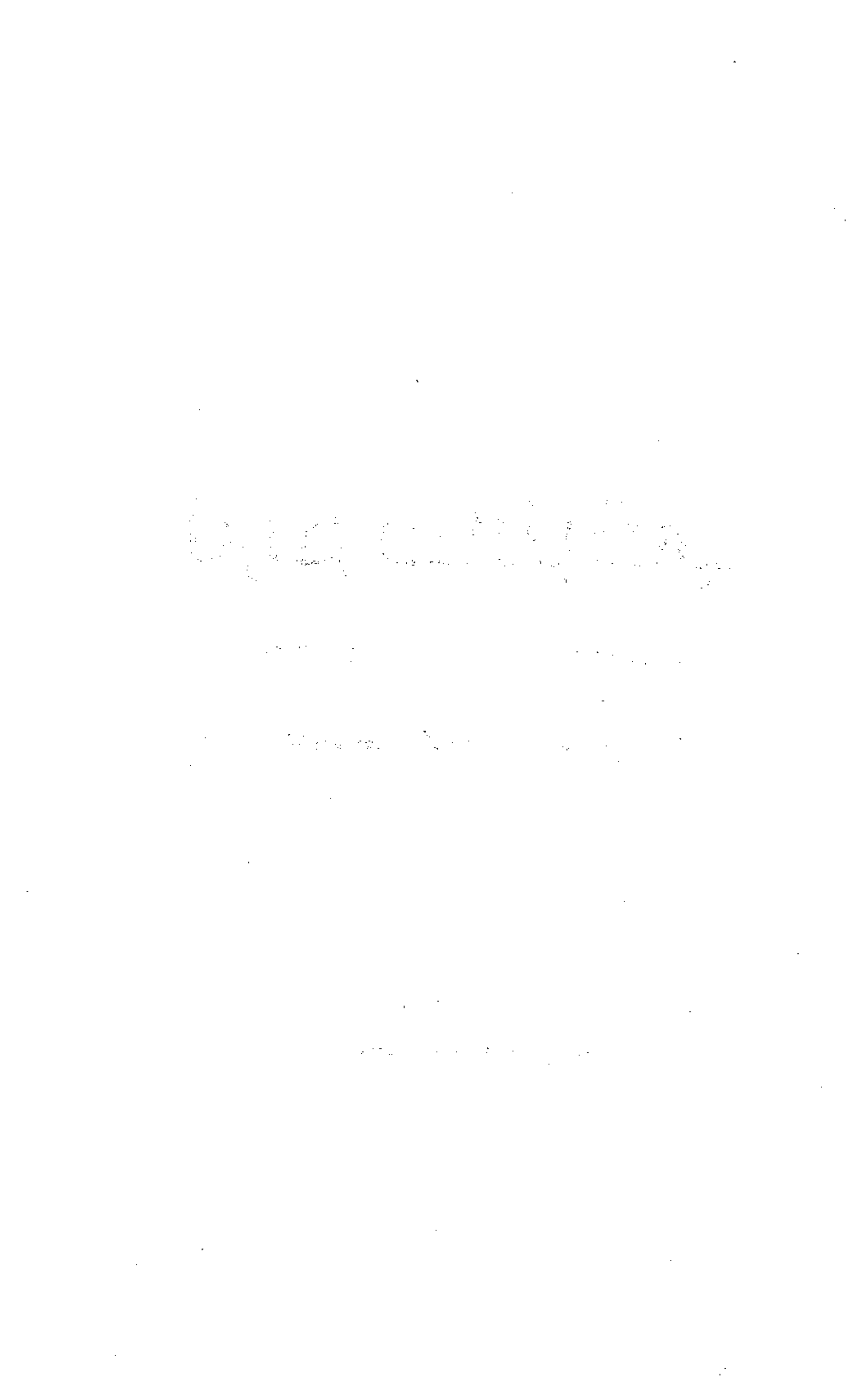
(٩٧١ – ١٠٠١هـ/ ١٥٦٣ – ١٥٩٣م)

لمصطفى أفندي سلانيكي

تأليف

د. أحمد حنفي عبد الرحيم





تقديم

لقد لعبَ الأتراكُ العثمانيّون دورًا عظيمًا في توجيه حركة التاريخ والحضارة الإسلامية على مدَى ستّة قرون متواصلة خلالَ العصر العثماني، ومن ثمّ فإنّ المصادر الأصيلة لتاريخ وحضارة الدّولة العثمانية التي حرّر معظمها باللّغة التركية العثمانية؛ لا تعتبر إرثًا للمسلمين الأتراك فقط، وإنّما ميراثًا لجميع المسلمين على وجْه الأرض، ينبغي عليهم نقلُه للأجيال الجديدة، وحمايته من العَبثِ والمحافظة عليه من الضّياع.

ففي الوقتِ الذي كانت فيه المؤسّساتُ الاستشراقيّة تقوم بنقلِ المصادر التاريخية والحضارية العثمانية إلى مختلف اللّغات الأوروبية بشكلٍ كامل أو مُخْتصر، ولأغراض متعدّدة؛ فإنّ المؤسّساتِ العلميّةَ في منطقتنا العربية، لم تبْدِ أيّ نشاطٍ جادّ ومخطّط لنقل هذا التراث إلى العربية حتّى الآن؛ ولذلكَ لم يتمكّن الكثيرُ من المؤرّخين والباحثين العرب من الاستفادة المثلى من النتاج التّاريخي والحضاري العثماني، ومِن ثمّ الردّ على الشّبهات والافْتراءات التي لا يزال يطرحها بعضُ المُستشرقين وتلاميذهم حولَ تاريخ الدّولة العثمانية وحضارتها من خلال المصادر العثمانية الأصيلة.

واليوم، وعلى الرّغم من بدْء اهتمامِ المؤرّخين والباحثين، سواء في مصر أو في الأقطار العربيّة الأخرى بالتّاريخ العثماني وحضارته، ومحاولة إعادة كتابته من جديد، فقد وجدوا أنفسَهم مضطرّين للرجوع إلى آثارِ ذلك الصّنف من الباحثين الأجانب والمستشرقين بسبب عدم تمكّنهم من الاطّلاع على المصادر العثمانية المحرّرة باللغة التركية العثمانية، ومن ثمّ لم يتمكّنوا من تفنيد شبهاتِ هؤلاء المُستشرقين، ونقد أطروحاتهم نقدًا موضوعيًّا؛ ولذلك، استمرّ حتّى اليوم انتشارُ الكثير من تلك الأفكار الخاطئة عن الدّولة العثمانية، تاريخها وحضارتها، سواء بين الأفراد العاديين أو بين الباحثين أنفسهم.

وهكذا، مثلما نجحَ التّحالف الغربي في القضاء على الدّولة العثمانية واحتلال أراضيها وتقاسم أمْلاكها خلال الرّبع الأوّل من القرن ٢٠م، نجحت حركةُ الاستشراق أيضًا في النّيْل منها بتغْريب الشّعب التركي عن لغتِه وحروفه العربيّة، ومن ثمّ عنْ تُراثه المحرّر بالتركية العثمانية، وبوضْع الحواجز النفسيّة بين الأجيال الجديدة من الشّعوب المسلمة وبين النتاج التاريخي والحضاري العثماني. والحقيقة أنّ النّواةَ التي وضعتْها مدارسُ الاسْتشراق في الجامعة المصرية تحتَ اسم قسم اللّغات الشرقية قدْ لعبت دورًا هامًّا في حظْر دراسة التاريخ والحضارةِ العثمانَية إلّا في إطارِ اللّغة الأدب العثماني، إذْ راحت ترسّخ لدى الدارسين والباحثين في قسم اللغة التركية وآدابها مفهومَ أنّ الدّراسة الأكاديمية فيه تقتصرُ – فقط – على اللّغة والأدب، ولا مجال لدراسة تاريخ الدّولة العثمانية وحضارتها من خلال مصادرها الأصيلة إلّا في إطار اللّغة والأدب التركي العثماني.

ولمّا كنتُ من أوائل الذين تخصّصوا في التّاريخ والحضارة العثمانية من خريجي أقسام اللّغات الشرقية بالجامعات المصرية؛ فقدْ عانيت غايةَ المُعاناة لاكتساب الاعتراف بدرجة الدكتوراه في الفلسفة التي حصلتُ عليها في تخصّص التّاريخ العثماني وحضارته عند عودتي إلى مصرَ ورغبتي في الانْتساب لأحدِ أقْسام اللّغات الشّرقية، وذلك بسببِ عدم اعتراف المجلس الأعلى للجامعاتِ بمصرَ بتخصّص التّاريخ والحَضارة العثمانية في أقسام اللّغات الشّرقية. وكان تدخّلُ أحدِ الأساتذةِ المهتمّين بالتّاريخ العُثماني بقسم اللّغة التركية بعد طولِ مُعاناة؛ سَببًا في إدخالِ هذا التخصّص ضمنَ تخصّصات أقسامِ اللّغات الشّرقية بالجامعات المصرية.

والحقيقةُ أنّ المعاناةَ التي تعرّضت لها خلالَ هذه الفترة كانت سببًا من أسبابِ تبلور فكرة مشروعِ ترجمة المصادر التّاريخية والحضارية العثمانية إلى اللّغة العربية، فقمتُ بتحرير أكثرَ ورقةٍ بحثية حول دور الترجمة في تحقيق التواصل الحضاري في العالم الاسلامي، وضرورة ترجمة التّراث التّاريخي والحَضاري العُثماني للّغة العربية، والردّ على شُبهات حول التاريخ العثماني وحضارتِه وغيرها. وفي نفس الإطار

حاولتُ محاولةَ العاجز في وضْع خطّة متواضعة لترجمة التّراث التاريخي العثماني للّغة العربية مُعتمدًا في ذلك على الدّفَعة الأولى من خرّيجي قسم اللغة التّركية النّجباء بكلية الآدابِ جامعةِ سوهاج.

ويُسْعدني اليومَ أنّ أقدّم أحدَ مَصادر التّاريخ العثماني المحرّرة بالتركية العثمانية للقارئ العربي، وهو تاريخُ سلانيكي، لكاتب الدّيوان مصطفى سلانيكي (ت.١٥٩٩م)، إذ قام الباحثُ النّجيبُ الدكتور أحمد حنفي عبد الرحيم بترجمة هذا الأثر، ودراسته دراسةً أكاديميّة رصينةً، نال بها درجةَ الماجستير تحت إشرافي من قسم اللّغات الشرقية بكلية آداب سوهاج عام ١٩٩٨م. والحقيقة أنّ الدكتور أحمد حنفي كان من طليعةِ طلبة العلمِ الذين استجابوا لمشروع ترجمة المصادر التّاريخية العثمانية إلى العربية، وشاركوا فيه بالتَخصّص في التاريخ العثماني، فكان له فضْلُ السبق في وقتٍ تراجعَ فيه الكثيرون من طلبة العلمِ عنِ السّير في هذا الطريق الصعب.

وتأتي أهمية هذا الأثر لأنّ مؤلّفه مصطفى أفندي سلانيكي كان قد عاصرَ مرحلةَ مخاض انتقال الدّولة من مرحلة الازْدهار إلى مرحلة الضّعف، فعاصر السنواتِ الأخيرةَ من عهد سليمان القانوني وبدْء مرحلة السّلاطين الضّعاف خلال عهود سليم الثاني ومراد الثالث، وأنه تقلّب خلال هذه المرحلة الانتقالية في العديدِ من الوظائف في دواوينِ الدّولة، إذ أتاح له قربُه من جهازها الإداري الاطّلاع على أوضاعها الدّاخلية والتّغييرات التي طرأت عليها، وشارك في العديد من حملاتها العسكرية الهامّة؛ الأمرُ الذي مكّنه من تسجيل وقائعها بكلّ تفصيل، ومن ثمّ يعتبر تاريخه مرآةً صافية عكستْ صورة الدّولة العثمانية خلال مرحلة مهمّةٍ من مراحل تطوّرها خلال الربع الأخير من القرن١٦م.

وكان الباحثُ قد قسّم دراسته إلى قسمين: الدّراسة والترجمة، إذْ تناول في الدراسة الأوضاعَ العامّةَ للدولة العثمانية خلال النّصف الثاني من القرن ١٦م، والسّيرة الذاتية لمصطفى سلانيكي، والوظائف التي تولّاها وأثرَها في كتابتِه التاريخية، والمصادرَ التي

اعتمد عليها في تأليف أثره؛ أمّا القسمُ الثّاني فتناول فيه ترجمةَ النّص العثماني إلى العربية.

وإنّني إذْ أقدّم مصدرًا عثمانيًا جديدًا باللّغة العربية للقارئ العربي، لأرجو أن نكون بصدور هذا الأثرِ قد ساهمْنا في وضع لبنَةٍ جديدة من لبِنَات مشروع ترجمة التّراث التاريخي والحضاري العثماني في موضعها اللائق.

وعلى الله قصدُ السّبيل،

أ.د. سيد محمد السيد محمود

كلية الآداب– جامعة الإسكندرية

العاشر من رمضان– القاهرة

الأربعاء ٢٩ يناير ٢٠٢٠ م

مقدّمة الباحث

(الحمدُ لله ربّ العالمين، والصّلاةُ والسّلام على أشرف الخلق، وخاتمِ النّبيّين، سيّدنا محمّد، وعلى آله وأصْحابه، ومَن تبعَه بإحسان إلى يوم الدين).

وبعد..

يتناول موضوعُ الدّراسة واحدًا من المصادر الأساسية للتاريخ العثماني بالترجمة والبحث. وقد كان الباعثُ وراء اختيار هذا الموضوع أنّ أغلب مصادر التاريخ العثماني- الذي يمثّل حقبةً هامّة من التاريخ الإسلامي- محرّرةً باللغة التركية العُثمانية، وأنّ المهتمّين بالدّراسات العثمانية لا يجدون أمامَهم سوى الاعتماد على الدّراسات الغربية التي اعتمدتْ بدوْرها على هذه المصادر، فجاءت أبحاثُهم أحاديّة النّظرة والاتجاه، لا تعبّر عن الحقيقة في معظم الأحيان، وأنّ القيام بالمساهمة في نقل مثل هذا التّراث العثماني إلى اللّغة العربية، ودراسته النّقدية اللازمة لها؛ إنّما هي مهمّة مُلقاة على عاتق العارفين باللغة التركية.

وهكذا وجدَ الباحثُ نفسه مَعْنيًّا بالقيام بهذا الدور، فشمّر عن ساعد الجد، وراح يبحثُ في التواريخ العثمانية لعلّه يقع على مراده، حيث وقع اختيارُه على «تاريخ سلانيكي» ليقومَ بنقله للغة العربية، ودراسته دراسةً أكاديمية محايدة.

والذي دفع الباحثَ لاختيار هذا الأثر لترجمته ودراسته هو أنّه يعتبر من المصادر الأساسية في التّاريخ العثماني التي تناولت فترةً زمنية هي بمثابة مفترق الطّرق بين ازدهار الدّولة العثمانية وبدْءِ ظهور عوامل الضّعف فيها، امتدت ما بين عامي ٩٧١-١٠٠٨هـ/ ١٥٦٣-١٦٠٠م، وأنّ مؤلفه «مصطفى أفندي سلانيكي» عاصرَ هذه الفترة، وشاهدَ أحداثَها، وعمل في مختلف دواوين الدّولة كأحد إداريّيها، وأنّه يُعتبر واحدًا من المؤرّخينَ القلائلِ الذين كشفوا مظاهرَ ضعف الدّولة العثمانية في وقتٍ مبكّر، وحذّروا من حدوث التّغيرات في كيانها، وأنّ تاريخه يعتبر ترجمةً عمليّة لأحداث تلك الفترة.

وقد اقتصرَ الباحثُ على ترجمةِ ودراسة كتاب تاريخ سلانيكي المطبوع والمنْشور باللّغة التركية العثمانية في استانبول عام ١٢٨١هـ، والذي يحتوي على أحداثَ الفترة الممتدّة من ٩٧١هـ/ ١٥٦٣م حتّى عام ١٠٠١هـ/ ١٥٩٣م.

ولّما كانت هذه الفترةُ- التي تبلغُ نحو ثلاثين عامًا مُتصلةً- تصوّر بكلّ واقعيةٍ كيفيةَ انتقال الدّولة العثمانية من مصافّ الدّول العظمى إلى مصافّ الإمبراطوريات التي تقاوم عواملَ الانهيار، فقد خصّها الباحثُ بالاهتمام.

وإذا كان الباحثُ قد اعتمد في دراستِه على تاريخ سلانيكي المطبوع بالأحرف التّركية العثمانية، فقد استفادَ كثيرًا من النشرة الحديثة بالأحرف اللاتينية التي قام بها البروفسور «محمد إيبشرلي» في استانبول عام ١٩٨٩م، والتي تصلُ بالأحداث حتّى عام ١٠٠٨هـ/ ١٦٠٠م.

وإذا كان «أحمد رفيق» قد كتبَ مقاله عن «مصطفى سلانيكي» وأثره، ضمن كتابه القيّم «عالمروصنعتكارلر» (استانبول عام ١٩٢٤م)، وإذا كان البروفسور «محمّد ايبشرلي» قد كتب بحثًا باللغة الإنجليزية حول سلانيكي وتاريخه في مجلة «Tarih Enistitüsü Dergisi» (العدد التاسع ١٩٧٨م)؛ إلّا أنّهما تركَا العديدَ من القضايا حول سلانيكي وتاريخه مفتوحةً للبحثِ والدّراسة؛ لذا تعدّ هذه الدراسةُ الأولى من نوْعها التي تناولت هذا الأثر.

ولّما كانت الدراساتُ الحديثة عن هذا الموضوع قليلة؛ فإنّ ذلك يرجع- بحسب ما يعتقدُه الباحث- إلى نُدرة المصادر التي تحدّثت عن سلانيكي وأثره؛ لذا اعتمد الباحثُ على «تاريخ سلانيكي» نفسه حيث سعى لاسْتنطاق كلّ عبارةٍ فيه ليصيغ منها بحثًا اعتمدَ على المنهج النقدي التحليلي.

وفيما يتعلّق بالجزء الثّاني- وهو النصّ العثماني المترجم للعربية- فقد حرص الباحثُ عند نقله لهذا النّص على أن يتتبّع منهجًا أكاديميًّا يقوم على التزام نقل المعْنى الذي يقصده المؤلفُ دون الإخلالِ بالنص، والمحافظة على لغة المؤلف وأسلوبه دونَ المَساس بالعبارات والتّراكيب العربية والفارسية التي جاءت في النص العُثماني،

ووضْعها بين علامات مميّزة، والتقيّد بالنص التركي للاصطلاحات والألقاب والأسماء عمومًا دونَ المَساس بها شكلًا ومضمونًا، ووضع الكلمات والأدوات التي تدخّل بها الباحثُ لربط المعنى في النّص بين علامات خاصّة. كما أنّ الباحث لم يتقيّد بمصدرٍ ما أوْرده من تعريفاتٍ بالحاشية؛ لأنّه أراد أن يذلّل ما أُبْهِم من معانٍ في المتْن، وليس الهدف الأساسيّ التعريف بهذه الاصطلاحات والأسماء تعريفًا شاملًا كما وردَ في الدّراسة. وقد حاول الباحثُ أن ينقل شكلَ وروح النّصِّ التركي للعربية قدْرَ استطاعته.

وقد استفادتِ الدّراسة من تاريخ سلانيكي المنشور للبروفسور «محمد ايبشرلي» في تذليل الأخطاء المطبعيّة التي وردت بالنص العثماني، وذلك بمقارنتها بما ورد في تاريخ سلانيكي المنشور بالأحرف التركية اللاتينية والمحقّق؛ حيث وجد الباحث خطأً مطبعيًّا إثرَ اكتشاف سقوط نحو ثمانِ صفحات (من ٢٤١ – ٢٤٨) من النصّ المطبوع باللّغة التركية العثمانية، ولمّا لم تكن هناك طبعةٌ أخرى لتاريخ سلانيكي موضوع الدراسة غير طبعةِ عام ١٢٨١هـ تخلو من هذا الخطأ المطبعي؛ فقد أكملها الباحثُ من تاريخ سلانيكي المنشور باللغة التركية الحديثة.

هذا وقد قسّم الباحثُ موضوعَ بحثه إلى جزأين؛ هُما: الدّراسة، والترجمة. استهلّ الجزءَ الأوّل (الدراسة) بالحديثِ عن الحالة العامّة للدولة العثمانية خلال عصْر المؤرّخ (النّصف الثاني من القرن الـ ١٠هـ/ ١٦م)، ثمّ تناول السيرة الذاتية للمؤلّف، ووظائفه، وأثرها على كتابتِه التّاريخية، ومنهجه، وأسلوبه في تدوين أثره، ومصادره التي اعتمدَ عليها، ومكانة المؤرّخ بين المؤرّخين معاصريه، ثمّ مكانة تاريخ سلانيكي بين التواريخ العثمانيّة.

أمّا الجزءُ الثاني، فيتناول ترجمةَ النّص العثماني إلى اللغة العربية، وفي الخاتمة رصدَ الباحثُ النّتائجَ التي توصّلت إليها الدراسة، ثمّ أتبعها بقائمةِ المصادر والمَراجع التي اعتمدَ عليها في هذا البحث.

وختامًا.. أتقدّم بأسْمى آيات الشّكر والعرفان إلى **الأستاذ الدكتور/ سيد محمد السيد**- أستاذ اللّغة التركية بكلية الآداب، جامعة الإسكندرية؛ الذي أشْرفَ على هذا البحث، وقدّم لي العونَ حتّى تمّت مناقشته.

ولا يفوتني في هذا المقام أنْ أشكر كلَّ مَن آزرني طوال فترة إعداد هذه الدّراسة، وأخصّ بالشكر **الأستاذ الدكتور/ شعبان ربيع طرطور**- أستاذ اللغة الفارسية، والعميد الأسبق لكلية آداب سوهاج، **والأستاذ الدكتور/ محمد شلبي**- أستاذ اللغة التركية بكلية الآداب ، جامعة المنوفية.

سوهاج في ١/ ١/ ٢٠٢٠م

د. أحمد حنفي عبد الرحيم
كلية الآداب، جامعة سوهاج

الجزءُ الأوّل

(الدّراسة)



الحالةُ العامّة للدّولة العثمانية خلالَ الفترة ما بين (٩٧١-١٠٠١هـ/١٥٦٣-١٥٩٣م) كما صوّرها المؤرخ مصطفى سلانيكي

أوّلًا: الحالةُ السياسية:

لقد تنوّعت الوقائعُ والأحداث التي ذكرها سلانيكي خلال هذه الفترة، تنوعًا غير مخلٍّ بجانبٍ من جوانب تلك الأحداث؛ بحيث يُمكن لِمَن يطالع ما أورده مؤرّخنا من أخبارٍ أنْ يستخلص الوضعَ العام الذي كانت عليه الدّولة العثمانية خلال هذه الفترة. فقد عرضَ لأحوال الدّولة الداخلية وعلاقاتها الخارجية. وسوف نحاول- من خلالِ هذا العرض- إبرازَ الحالة السياسيّةِ العامّة التي كانت تعيشها الدّولة العثمانية في فترةٍ تمتدّ لأكثر من ثلاثة عقود زمنية.

في الحقيقة، أنّه على الرغم من أنّ الدّولة العثمانية بلغت أقصى اتساع وكيان سياسيّ لها خلال هذه الفترة؛ إلّا أنّ هذه الفترة- أيضًا- أرْخَت بظلالها على بداية المِحْنَة الحقيقيّة التي أودتْ بالدّولة إلى الضعف والاضطراب في كافّة مؤسّساتها.

لقد وضعَ السّلطان سليمان القانوني (٩٢٧-٩٧٤هـ/ ١٥٢٠-١٥٦٦م) النواةَ الأولى لجعل الدّولة العثمانية دولةً عالمية، تقوم سياستها على المحافظة على عملية التّوازن بين الشرق والغرب، فبعد أن أثبتَتِ الدّولة العثمانية وجودَها السياسي في الشّرق؛ بدأت تجدّد فاعليتها مرّةً أخرى في التوجّه صوب الغرب؛ حيث ظهرت كعنصرٍ توازنٍ جديد في أوروبا، ولعبت دورًا هامًّا في ميدان الدبلوماسية الأوروبية، إلى جانب نجاحِها العسكري[1].

---

(١) انظر: Fridun M. Amecen، «Kurlstan Küçük kaynarcaya Osmanli Devleti ve medeniyeti Tarihi»، Editor: Ekmel- Eddin Ihsanoglu، Istanbul، 1994، Cild 1/33.

وممّا ساعد على قيام الدّولة العثمانية بهذا الدّور وظهورها كواحدة من ثلاث إمبراطوريات- الهابسبورج، روسيا القيصرية، الدّولة العثمانية- لها تطلّعات عالمية؛ تتبعها عن قربٍ للتطوّرات التي حدثت في أوروبا آنذاك[١].

وقد أبرزَ المؤرخون العثمانيون عصرَ القانوني باعتباره نموذجًا ينبغي الاقتداء به؛ نظرًا لما تحقّق فيه من انتصارات عسكرية وتقدّم سياسيّ في الشرق والغرب، فكان لذلك أثرٌ واضحٌ على الأوضاع الدّاخلية للدولة ألتي طرأت عليها تطورات ملموسة في تشكيلاتها، وعلى التقدّم الذي حدث في كافّة مؤسساتها؛ حيث أبرزت ملامح إنجازات القانوني[٢]، وعكست صورةً حيّة لقدرة الدّولة على مواجهة الأزمات. وقد أشار سلانيكي لذلك في تصويره للموقفِ الحازم للسلطان «سليمان» من حادثة السّيل الذي هطلَ على استانبول في صفر ٩٧١هـ/ سبتمبر ١٥٦٣م باعتباره مثالًا للسياسةَ الجادّة في هذا العصر، ولقدرة السلطان على مواجهة مثل هذه الأزمات بقوله: «إنّ الدّولة في أيّام دولة السلطان سليمان سوف يمكنها تفادي كلّ أنواع المِحَن والمشقّات، ولكنْ بمرور الأيام فإنّ الحالة في عهود الأولاد الكرام، والسّلاطين العِظام الذين سيأتون بعد ذلك؛ ستكون مشكلةً عسيرة»[٣].

ولّما كان البحرُ المتوسّط يمثّل ثاني أكبر جبهات الدّولة العثمانية ضدّ الأوروبيّين، وأنّ السيطرةَ عليه وتأمينه كانت تعدّ من ركائز نجاح هذه السياسية القائمة على التوسّع نحو الغرب؛ رأى القانوني أنّ الاستيلاء على جزيرة «مالطة» ضروريّ نظرًا لأهميتها في مواجهة أطماع أسبانيا في تونس، ولمواجهة تحالفها مع فرسان القديس يوحنا في هذه الجزيرة[٤].

---

(١) فيما يتعلق بالتطورات التي حدثت في أوروبا آنذاك، وتتبع الدّولة العثمانية لها. انظر:
Ismail Hakki uzun Çarsili, Osmanli Tarihi, cu2 III / 2 Kism, 2 Bass، Ankara, 1977, S. 138, 152, 153, 189.

(2) Fridun M. Amecen, «Kurlstan Küçük kaynarcaya Osmanli Tarihi ve medeniyeti », 133/.

(٣) مصطفى افندي سلانيكي، تاريخ سلانيكي، مطبوع، استانبول، ١٢٨١هـ، ص ٦.

(٤) سيد محمد السيد، دور مصر الإستراتيجي في الحوض الشرقي للبحر المتوسط خلال القرنين ١٦ – ١٧م، مجلة كلية الآداب بسوهاج، العدد ١٥ أبريل، ١٩٩٤م، ص ٢٠٦.

وقد فصّلَ سلانيكي القولَ عند حديثه عن خروج حملة مالطة، منذ استصدار فرمانٍ همايونيّ بخروجها، والاستعدادات التي اتّخذت لخروجها، وحتى عودتها سالمةً دون أن يتمّ الفتح[١].

ومِن ناحية أخرى، اعتبرت حملة سيكتوار[٢] نقطةَ تحوّل في السياسة الدولية، وقد أشار سلانيكي إلى ذلك موضّحًا إرهاصاتِ الضّعف التي انتابت العلاقات العثمانية المجريّة في أواخر عصر القانوني، وما صاحبها من محاولات الخروج على الدّولة، وما حدث من تطور سياسي على هذه الجبهة، ومبينًا موقف الدّولة تجاه هذه الأحداث. فذكَرَ مؤرّخُنا كيف اعتذر حاكمُ المجر بالحجج الواهية عن دفْع الجزية للدولة؛ نظرًا لنزاعِه مع أمراء الحدود بقوله: «جاءت الأخبارُ من قبل حاكم المجر بتعلّله بالحجج الواهية عنْ دفع الجزية قائلًا: «إنْ شاء الله علينا إرسال جزية سَنتين معًا»[٣].

وبيّن المؤرخُ التحالفَ الذي أبرم بين المجر والخروات عام (٩٧٤هـ/ ١٥٦٦م) وعقدهم عقدًا يقضي برفع الملكية عن النمسا على أن تكون سيكتوار تابعةً لأمراء المجر والخروات، وبشرط تعيين زرنجوف ملك الخروات حاكمًا عليها[٤].

وراحَ المؤرّخُ يوضّح موقف الدّولة تجاه هذه التطورات؛ حيث استدعى الوزير الأعظم[٥] صقوللو محمد باشا (تولى الوزارة العظمى ٩٧٣-٩٨٧هـ/ ١٥٦٥-١٥٧٩م)

---

(١) تاريخ سلانيكي، ص ٧ - ١٤.

(٢) سيكتوار: مدينة في بلاد المجر شرق بودين بنحو ٢٣٠كم، فتحها السلطان القانوني عام ٩٧٤هـ/ ١٥٦٦م. انظر: Ismail Hami Danismend, Izahli Osmanli Tarihi kronolojisi, Istanbul, 1972, 524/II, 452.

(٣) تاريخ سلانيكي، ص ١٤، ١٥.

(٤) المصدر السابق، ص ٢٨.

(٥) الوزير الأعظم: هو وكيلُ السلطان المطلق في كافة شئون الدولة، وأصبح منذ عصر الفاتح يرأس الديوان الهمايوني بصفة دائمة نيابة عن السلطان؛ علاوة على رياسته ديوان العصر الذي كان يقوم فيه بإتمام أعمال الديوان الهمايوني. انظر:
Mehmet Zeki Pakalin, Osmanli Tarihi Deyimler ve Terimler Sozlüzgü, Istanbul, 1971, cuz III/594.

سفير المجر في استانبول، وأعلمه بعزم السلطان القانوني على تأديب حاكمهم[١]، ولّما علم القانوني بنشوب نزاع بين أمراء المجر والخروات واللاتين بسبب اختلاف اللغة؛ حُررت الرسائل بلغة كلّ قوم، وألقاها الجواسيس في أماكن تجمّعاتهم، فأصبحت سببًا لحدوث الانشقاق بينهم.

وفي أثناء ذلك؛ لمّا علم حاكم «اردل»[٢] «يانوش أوغلو استيفان» بخروج السلطان القانوني على رأس الحملة؛ خرج هو على رأس وفد عام ٩٧٤هـ/ ١٥٦٦م محمّلًا بالهدايا لتقديم فروض الولاء والطّاعة للسّلطان[٣]؛ إلّا أنّ السلطان كان قد خرجَ فعلًا إلى حملةِ المجر التي تمخّضت عن إعادة السيادة العثمانية على هذه الجبهة.

وفي عصر خلفاءِ القانوني، بدأت سياسةُ الحروب المتواصلة نحو الشرق والغرب تفقدُ ثقلَها، فكان تقاعسُ سليم الثاني (٩٧٤-٩٨٢هـ/ ١٥٦٦-١٥٧٤م) في القيام بدوْره المَنوط به في قيادةِ الجيوش، ووجوده كصورةٍ شكلية في الحكم، وانْغماسه فيَ اللّهو والملذّات، وتدخل رجال السراي في شئون الدولة، مظاهر تشير إلى بدْء أفول نجم الدّولة العثمانية[٤].

وعلى الرّغم من ذلك، استطاعت الدّولة مدَّ حدودها السياسية بفضل حسن تدابير الجيل الذي ربّاه القانوني، والذي يمثّله الوزير «صوقوللو محمد باشا»، وتوجيهه لدفّة السياسة الداخلية والخارجية للدولة عقب وفاة القانوني في ميدان «سيكتوار» (٩٧٤هـ/ ١٥٦٦م)؛ حيث استطاع أن يسيرَ بالدولة على درب الأمان قرابةَ أربعة عشر عامًا[٥].

---

(١) تاريخ سلانيكي، ص ١٥.

(٢) اردل: إيالة تقع جنوب شرق المجر، وألحقت برومانيا اعتبارًا من ١٩١٨م. انظر:
Midhet Sertoglu, Osmanli Tarihi Lugati, Istanbul, 1986, S.100.

(٣)() ذكر سلانيكي ذلك في سرد لأحداث توجه الحملة إلى بلاد المجر، انظر: سلانيكي، ص٢٦.

(4) Ismail Hakki Uzuncarsil, Osmanli Tarihi, III/1 Kism, Ankara, 1983, s. 119, 121

(٥) كامل باشا، تاريخ سياسي (د.ت)، الجزء الأول، ص ٢٤٩.

وقد أشار سلانيكي إلى الدّور الذي قام به هذا الوزير في أوّل أزمة داخلية واجهت الدولة، فذكر التّدابير التي اتّخذها لإخفاء خبر وفاة القانوني؛ حتى لا تتأثر حالةُ الجند، وتحبط معنوياتهم أثناء حصار قلعة سيكتوار، وكيف استطاع «صوقللو محمد باشا»- بحُسن تصرّفه- أنْ يمنع وقوعَ الهزيمة بالجيش العثماني[1]، ويأخذ بيده إلى تحقيق النّصر العسكري، وكيف قام بإرسال رسالة لولي العهد «سليم الثاني» في «كوتاهية»[2] للمجيء إلى الآستانة، وتولّى السلطة لحسم الصراع مع أخيه «بايزيد الثاني»، وكيف استطاع- أيضًا- أن يستميل أفراد الفرق الثائرين المطالبين بالرواتب والترقيات، ويخمد فتنتهم قبل استفحالها؛ مشيرًا إلى ذلك بقوله: «أرسل حضرةً الصدر الأعظم محمد باشا تذكرةً مُفصّلة ومشروحة لحضرة الجناب الشّريف حامي الخلافة، جاء فيها: «إنْ شاء الله الرحمن، عندما نصل بجنازة المرحوم والمغفور له السّلطان سليمان، فلتنصَب المظلاتُ ذات الأربعة أعمدة أمام الخيمةِ الهمايونية، ولينصَب عرشُ الدّولة الجديد القادم من استانبول فيما بين شارات الطوغلر، ذلك العرشُ الذي ينبغي أن يكون المرحومُ والمغفور له قد أعدّه للسّلطان سليم خان وشرّفه به ...... »[3].

وقد أبرز سلانيكي- أيضًا- بعضَ ردود الأفعال التي نتجت عن وفاة القانوني في أنحاء الدّولة؛ حيث أشار إلى بعض حركات العصيان ومحاولات الخروج على الدّولة خلالَ هذه الفترة، فبيّن كيف تزعمت عشائرُ «آل مطهر» في اليمن محاولات الانفصال عن الدولة، وردود فعل الإدارة العثمانية الحاسمة تجاه هذه الحركة بتجْهيز الحملة على اليمن عام ٩٧٥هـ/ ١٥٦٧م[4]، وأشار إلى محاولات بعض أمراءِ مصر لإثارة الفتنة هناك أثناءَ خروج الحملة صوْب اليمن، وكيف استطاعت الدّولة إخماد هذه الفتنة، والضّرب بيدٍ من حديد على أيدي العصاة[5].

---

(١) تاريخ سلانيكي، ص ٤٨.

(٢) كوتاهية: سنجاق في غرب الأناضول يحده من الشمال بروسه، ومن الجنوب آيدين، وقره حصار، ومن الشرق أنقرة. انظر: شمس الدين سامي، قاموس الأعلام، استانبول، ١٣١٤هـ، ج ٥/ ٣٩١١.

(٣) تاريخ سلانيكي، ص ٦٤.

(٤) المصدر السابق ، ص ٩٦.

(٥) المصدر السابق، ص ٩٦ - ٩٨.

ومِن ناحيةٍ أخرى، لمّا كانت سفنُ التّجار والحجاج العثمانية تتعرّض لهجمات القَراصنة الأوروبيّين مُتّخذة بعض جزر البندقية- وعلى رأسها قبرص- وكرًا لها، فقد رأتِ الدّولة فتحَ هذه الجزيرة التي كانت تمثّل مانعًا هامًّا على الطريق بين مركز الدّولة وولاياتها في شمال أفريقيا، وخاصّة مصر. وقد ذكر سلانيكي كيف أنّ البنادقة قد نقضوا المعاهداتِ والصلحَ القائم بينهم وبين العثمانيين بجعل جزيرة قبرص- التابعة لهم- مأوًى لهؤلاء القراصنة بقوله: «وأثناء فتح جزيرة قبرص، عندما نجا رجالُ سلطان الأرض والزمان حضرة السلطان سليم خان السلطان سليم خان طال بقاه الذين أرسلهم من أجل إحضار المؤن والجياد التي أرادها من ديار مصر أثناء ولايته للعهد، نجَوْا من هياج البحر على أثر هبوب الرياح الشديدة، استولى الأعداءُ الذين لا دينَ لهم على جيادٍ وسائرِ أمتعة المسلمين، وذلك في الوقت الذي كانوا فيه على صلحٍ مع المسلمين»[1].

وبيّن المؤرّخُ كيف جرّدتِ الدّولة العثمانية حملةً عظيمة لفتح هذه الجزيرة عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م[2]، وكيف حدثَ تحالفٌ بين البنادقة والأسبان، انتهى بتشكيل أسطولٍ أوروبي لاستعادة الجزيرة[3]، وكيف وقعتِ الهزيمةُ بالأسطول العثماني في «اينه بختي» ٩٧٩هـ/ ١٥٧١م[4].

وإذا كانت هذه الهزيمة قد فتحتِ الطّريقَ لإحداث هزّةٍ عنيفة لنفوذ البحرية العثمانية في البحر المتوسط؛ إلّا أنّ إعادةَ تشييد الأسطول العثماني وخروجه في الموسم التالي أجبرَ الحلفَ الأوروبي على التّراجع عن مياه تونس، وقد أشار سلانيكي إلى تلك الخطوة التي أقدمَتْ عليها الدّولة بتجريد حملةٍ بحريّة عُرفت باسم «خلق الواد» عام ٩٨٢هـ/ ١٥٧٤م لإعادة فتح تونس بقوله: «إنّ هذه الحملة تمكّنت من فتح تونس، والاستيلاءِ على قلعة خلفَ الواد من أيدي الأسبان»[5].

---

(١) تاريخ سلانيكي، ص ١٠٠.

(٢) المصدر السابق، ص ١٠٠ – ١٠٢.

(٣) المصدر السابق، ص ١٠٤ –١٠٥.

(٤) المصدر السابق، ص ١٠٤ – ١٠٦.

(٥) المصدر السابق، ص ١٢٢ – ١٢٣.

وعلى الجبهةِ الشّرقية لم تحدثْ أيّ تغييرات سياسية خلال هذا العصر؛ عدا بعض المراسلات التي لم تنقطعْ بين الطرفين، وقد ذكر سلانيكي كيف استمرّ الصلحُ ممتدًا خلال هذه الفترة، فأشار إلى مجيء السفير الصفوي «قوليخان» من قبَلِ الشّاه «طهماسب»[١] عام ٩٧٥هـ/ ١٥٦٧م محمّلًا بالهدايا للتهنئة بجلوس السّلطانَ سليم الثاني على العرش، وبرسالة عزاءٍ في وفاة القانوني[٢].

وخلالَ عصر السلطان مراد الثالث (٩٨٢ - ١٠٠٤هـ/ ١٥٧٤-١٥٩٥م) تفاقمتْ مظاهرُ الضعف في الدّولة العثمانية، وكانت حركات العصيان والخروج على السّلطان التي قامت بها بعضُ الفرق العسكرية في مركز الدولة، وبعض الأمراء في الولايات؛ مِن أهمّ هذه المظاهر التي أشار إليها سلانيكي في كتابه.

ومرّةً أخرى يُبرز سلانيكي دورَ «صوقللو محمد باشا» في تسيير سياسة الدولة؛ الدّاخلية منها والخارجية، خلال هذه الفترة، فقد لعبَ صوقللو دورًا هامًّا لانتقال السّلطة بين «آل عثمان» عقبَ وفاة سليم الثاني عام ٩٨٢هـ/ ١٥٧٤م، حيث أرسل لوليّ العهد «مراد خان» الموجود في مغنسيا رسالةً للمجيء لتولية العرش خلفًا لوالده، وأشار سلانيكي إلى ذلك بقوله: «أرسل بمعرفة الوزير الأعظم «محمد باشا الحازم» الخطاب الذي يُحيط علمًا ببشارة السلطنة إلى مغنسيا»[٣].

ولمّا كانت عملية انتقال السّلطة في الدّولة أرضيةً مناسبة لظهور بعض آثار هذا الاضطراب، فقد ذكرَ المؤرّخُ أنّه على أثر تولية مراد الثالث الحكم، ثار أفراد الفرقِ مُطالبين بالرّواتب والترقيات؛ إلّا أنّ «صوقللو محمد باشا» استطاع استمالتهم بحُسْن سياسته، وأخمد ثورتهم بقوله: «استمال الوزير الأعظم «محمد باشا» ثورة اليولداشيه

---

(١) طهماسب: ابن الشاه إسماعيل المشهور مؤسس الدّولة الصفوية، خلف أباه في حكم الدّولة الصفوية عام ٩٥٣هـ، حكم ٥٤ عامًا حتى توفي عام ٩٨٣هـ عن عمر يناهز ٦٥ عامًا. انظر: شمس الدين سامي، قاموس الأعلام، ج ٤ / ٣٠٣٠.

(٢) تاريخ سلانيكي، ص ٨٨ - ٩٥.

(٣) تاريخ سلانيكي، ص ١٢٤ - ١٢٥.

بلسانه العذب قائلًا: «ما الأمر أيّها اليولداشيه، قولوا مرادكم، كلامُكم مُجاب، لقد قال سلطانُنا- خلّد اللهُ خلافته- بناءً على القانون تأخذ الفرقتان الرّئيسيتان خمسَ أقجات، وفرقتان أربع أقجات، وفرقتان ثلاث أقجات، وأحضروا دفاترَ السّلطان محمد الثاني، واطّلعوا على هذا»[١].

ولمّا عاد أفراد السرپاهية من حملة الشرق (٩٩٦هـ/ ١٥٨٨م) قاموا بتزييف العملة، وثاروا مُطالبين بدم بعض رجال الدّولة بسبب عدم إعطاء رواتبهم المتأخّرة، وقد أشار سلانيكي إلى حادَثةِ العصيان هذه، وكيف استطاع السلطان بنفسه مواجهةَ ثورتهم[٢].

ومِن خلال هذين الحدثَيْن، وكيفية علاج الدّولة لهما، يمكننا أنْ نقرّر أنّ السّياسة الداخلية للدولة خلالَ هذه الفترة، كانت تقوم على تسكين الأوضاع المُتفاقمة، ولم تتمكّن من علاجها علاجًا جذريًّا.

ومرّةً أخرى عكست حركاتُ عصيان بعض أمراء الدّولة وخروجهم على سلطة السلطان، وصعوبة القضاء على حركاتهم؛ عكستِ الحالةَ الداخلية للدولة والسياسة التي اتّبعتها الإدارة المركزية لمواجهة هذه الأوضاع.

فقد أبرزَ سلانيكي كيف أنّ أمير چلدر «منوچهر مصطفى باشا» ارتدّ عن الإسلام، وخرجَ على سيادة الدّولة (٩٨٥هـ/ ١٥٧٧م)، حتّى أنّ أمير أمراء أرضروم «محمد باشا»، وأمير أمراء ديار بكر «خادم محمد باشا» لم يستطعَا القضاءَ عليه، فجرّدت الدّولة حملةً بقيادة «فرهاد باشا» إلى الشرق لمواجهة هذا الخطر[٣].

كما أشار المؤرّخُ إلى خروج خان القرم «محمد كراي خان» (٩٩٢هـ/ ١٥٨٤م) على سيادةِ الدّولة؛ حيث تمكّن عثمان باشا من إخمادِ فتنة، بقوله: «حادَ خانُ القرم

(١) المصدر السابق، ص ١٣٥.

(٢) نفس المصدر، ص ٢٥٣ – ٢٥٥.

(٣) تاريخ سلانيكي، ص ١٧١.

«محمد كراي» عن طريق أجدادِه العظام، وعصى سلطانَ الإسلام، ومال إلى الطّغيان....»[١].

وهكذا لم تكنْ سياسة الدول العثمانية تجاه حركات عصيان مثل هؤلاء الأمراء تعرفُ المُلاينة؛ نظرًا لأنّ كليْهما كان يعكس دعمًا خارجيًّا ضدّ السلطنة العثمانية، فكان لزامًا مواجهته بكلّ صرامة.

ومِن ناحيةٍ أخرى، فقد كانت سياسةُ الدّولة الخارجية في هذا العصر امتدادًا لسياستها في عصرِ سليم الثاني؛ حيث ظلّتِ الهدنةُ قائمةً على الجبهة الغربية إلّا مِن بعض المُناوشات السّياسية التي حدثتْ حول لهستان «بولندا»، وبدأت جبهاتُ الشّرق الصّفوية والأوزبكية، والشمال الرّوسية تتصدّر سياسة الدّولة الخارجية خلال عصرِ مراد الثّالث.

فعَلَى الجبهةِ الشّرقية، وعلى أثرِ وفاة سليم الثاني، وتولية مراد الثالث السلطنة، بعثَ الشّاه «طهماسب» سفيرَه «طوقماق خان» للتّعزية في وفاة الأول، والتهنئة باعتلاءِ الثّاني العرش (٩٨٢هـ/ ١٥٧٤م)[٢]؛ إذ كانت معاهدةُ الصّلح التي عُقدت بيْنتِ الطرفيْن في عهد القانوني لا تزال ساريةَ المفعول؛ إلّا أنّه عقب وفاة الشاه طهماسب حدثتْ تطوّراتٌ داخلية في إيران كان لها بالغُ الأثر في اضطراب أوْضاعها السّياسية، ومن ثمّ في إعادةِ تقييم الدّولة العثمانية لسياستها مع الصفويّين مرّةً أخرى. وقد أشار سلانيكي لذلك تفصيلًا، فبيّن ملامحَ هذه الاضطرابات وأثرها على سياسة الدّولة الشرقية خلال هذه الفترة[٣].

وقدْ أشار بعضُ المؤرّخين إلى العوامل التي دفعتِ الدّولة العثمانية لتجريد حملةٍ نحو الشرق؛ انحصرت في:

---

(١) المصدر السابق، ص ١٧٦ – ١٧٨.

(٢)() نفس المصدر، ص١٤٠.

(٣) تاريخ سلانيكي، ص ٨٨ – ٩٥.

- تحريض أمراء الحدود، وبالخاصّة أمير أمراء «وان»[1] «كوسه خسرو» على اسْتثمار هذه الأوضاع المُضطربة في إيران، وتجريد حملةٍ في أسرع وقت مُمكن تكون وجهتُها بلاد فارس.
- إيقاظ المؤيّدين للحملة للفتاوى السّابقة التي استُصْدرت في عصر سليم الأول بخصوصٍ وجوب جهادِ أهل السنة لأصحاب المذهب الشيعي.
- استنجاد أهلِ السّنة في شيروان[2] وداغستان بالدولة العثمانية لمقاومة انتشار النّفوذ الشيعي إليهم[3].

وقد تتبّع سلانيكي أحداثَ الحملة ووقائعها، وأشار إلى أنّه لمّا ظهر تفوّقُ الجيش العثماني على الصفويّين؛ جاء «منوحهر» المعروف باسم «قاري أوغلو» من مشاهير الصفويّين، وسلّم للقائد «لالا مصطفى باشا» مفاتيحَ قلاع ولاية كورجستان ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م[4]، وذكر سلانيكي بأنّه أثناءَ تواجد الحملة في الشرق، طلب السّفيرُ الصّفوي «إبراهيم خان» المقيمُ في استانبول العودة لبلاده، فسمحَ له في ٩٩٢هـ/ ١٥٨٤م بقوله: «إنّ هذا السفير كان مقيماً في استانبول منذ أكثر من عاميْن حينما جاء حاملاً رسالة الشاه»[5].

كما ذكر المؤرّخُ الآثارَ التي أحدثتها الانتصاراتُ العثمانية على الصفويّين في تبريز[6]، وكيف وقعَ الانشقاقُ في صفوف الصفويّين، وأسر الكثيرُ من أمرائهم، ومنهم وكيلُ

(١) وان: إحدى الولايات العثمانية وتتشكل من ثلاثة عشر سنجاق، أُلحقت بالدولة العثمانية أثناء حملة العراقين للقانوني عام ١٥٣٣-١٥٣٤م. انظر: شمس الدين سامي، قاموس الأعلام، استانبول، ١٣١٦هـ، ج ٦/ ٤٦٧٣.

(٢) شيروان: ولاية تقع جنوب غرب بحر الخزر، فتحها العثمانيون عام ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٣/ ٣٨٢.

(3) Ismail Hami Danismend, Izahl Osman L, Tarihi Kronolojisi, III/ 17.

(٤) تاريخ سلانيكي، ص ١٤٧.

(٥) المصدر السابق، ص ١٨٠.

(٦) تبريز: مركز أذربيجان في إيران، كانت مقرًا لعرش الصفويين قديمًا، فتحها العثمانيون عام ٩٩٣هـ/ ١٥٨٥م. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٢/ ١٣.

سلطنتهم «شاه رخ ميرزا»، ولجوء رئيس الحرس المدْعو «محمد»، وصاحب الدّراية «جبار قولي بك» بإرادتها إلى القائد «فرهاد باشا»؛ حيث تمكّن القائدُ من الاستفادة منهما في وضْع خططٍ وتدابيرَ لمواجهة الصفويين في عام ٩٩٤هـ/ ١٥٨٦م[١].

وأخيرًا أشار المؤرّخُ إلى طلب الصفويّين الصلح لعدّة مرّات، وإرسالهم ولي عهْدِهم «حيدر ميرزا» كرهينةٍ حتّى يتمّ تنفيذ بنود الصلح المُبْرم عام ٩٩٥هـ/ ١٥٨٧م، بقوله: «لا ينقطع الشاه الضّالّ عنِ التوسّل برسائل الرجاء المفصلة والمشروحة من أجل طلب الصّلح بشكل مستمر، وتأتي رسائلُه نصّها: «لماذا لا تصْلحون بيننا في عتبةِ ذلك السلطان. أيوجد في تقاليد أيّ دين وأيّ سلطنة أنّ طالبَ الصّلح يُرَدّ ولا يُقبَل!، وينبغي أن نسلم له ابنَ ابننا حيدر ميرزًا كرهينة للصلح»[٢].

وعلى الرّغم من ذلك لم يكفّ الصفويّون عن التعدي على أراضي حاكم مملكة «كيلان» حتّى أنّه اضطرّ للاستعانة بالدولة العثمانية من سطوتهم، وقد أشار مؤرّخُنا إلى ذلك بأنّ سفير حاكم كيلان «خان أحمد» جاءَ للآستانة حاملًا رسالة «خان أحمد» الذي عرضَ فيها أن يهبَ نصفَ مملكته للعثمانيّين مقابل حمايتهم له مِن سطوة الصفويّين (٩٩٩هـ/ ١٥٩١م)[٣]؛ حتّى أنّ سلانيكي كلّف بضيافة حاكم كيلان «خان أحمد» الذي جاء هاربًا وملتجئًا للآستانة بعد أنِ احتُلّت بلادُه من قِبَل الصفويّين (١٠٠١هـ/ ١٥٩٢-١٥٩٣م)[٤].

وعلى الجبهةِ الشمالية، استمرّت العلاقات الوطيدة بين الدّولة العثمانية وخانات الأوزبك[٥] لمواجهة التعدّيات الصفوية في الشرق، والروسية في الشمال.

---

(١) تاريخ سلانيكي، ص ٢١٣.

(٢) تاريخ سلانيكي، ص ٢٢٦.

(٣) المصدر السابق، ص ٣٠١.

(٤) نفس المصدر، ص ٣٤٤.

(٥) كانت هذه العلاقات قد بدأت منذ ظهور الدّولة الصفوية الشيعية، وسعى السلطان سليم الأول لتطويق هذه الدّولة من ناحية الشرق. انظر: سيد محمد السيد، لمحات من تاريخ العلاقات بين الدّولة العثمانية وممالك آسيا الوسطى والقوقاز الإسلامية، كتاب أبحاث المؤتمر الدولي في آسيا الوسطى والقوقاز الماضي والحاضر والمستقبل، تحت رعاية جامعة الأزهر في الفترة من ٢٨-٣٠ سبتمبر ١٩٩٣م، ص ٨٨.

وقد أشار سلانيكي إلى ذلك في سياقِ ذكره لمجيء سفير الأوزبك «عبد الله خان» لمركز الدولة، وإحاطته الدّولة علمًا بأنّ ابنَ خان القرم المقتول «محمد كراي» قد هرب، ولجأ إلى الرّوس الذين نصّبوه أميرًا على قلعة «استراخان[١]»، وجمع حولَه أتباعه. ويقترح السفيرُ ضرورةَ فتح استراخان التي كانت موضع أطماع الرّوس آنذاك[٢]، فصدرَتِ الأوامرُ بالتّجهيز لحملة «استراخان».

وقد أشار المؤرّخُ سلانيكي إلى الدّورِ الذي لعبته الدّولة العثمانية من خلال خانات القرن في لهستان (بولندا)، وذلك في الوقت الذي كانت تتصارع فيه الدولُ الأوروبية على كسب نفوذ روسيا والنمسا وفرنسا لها هناك[٣]؛ حيث ذكر بأنّ خان القرم طلب الإذنَ من الدّولة العثمانية بالهجوم على لهستان؛ إلّا أنّه لم يؤذن له بسبب حماية حاكمِها، ولّما قامت طائفة الـ«قزاق» بالهجوم على قلعة «أوزي» التابعة للدّولة؛ أذنَ له بالهجوم، وألحق بهم الهزيمة[٤].

ثانيًا: الحالةُ العسكريّة:

لقدْ كان لعلاقات الدّولة العثمانية مع الشرق والغرب خلال النصف الثاني من القرن (١٠هـ/ ١٦م) أثرٌ واضحٌ في إحداثِ العديد من التطورات العسكرية على جبهاتِ القتال، كما كانَ لأوضاع الدّولة الإدارية والمالية والاقتصادية المضطربة، وبُعْدِ السّلاطين عن قيادة الجيوشِ، وندرَةِ القوّاد ذوي الكفاءات العسكرية الفذّة

(١) استراخان: مدينة تقع في شمال بحر الخزر. انظر:

Midhet Sertoglu, Osmanli Tarihi Lugati, S. 96.

(٢) فيما يتعلق بالصراع العثماني الروسي حول استراخان، انظر: سيد محمد السيد، لمحات من تاريخ العلاقات بين الدّولة العثمانية وممالك آسيا والقوقاز، ص١٢.

(٣) فيما يتعلق بالتطورات السياسية في لهستان خلال هذه الفترة. انظر:

Fridun M. Amecen, «Xv, xv1. asirlrda Osmanli Devletinin Dogu ve Bati Siyaseti», Istanbul' da 9 – 11 kasim 1996 'da hazirlanan xv.xv 1. yuzyilin Turk asri yapan Degerler milletler arasi Sempozu'nda verilen Tablig. S. 10 – 11.

(٤) تاريخ سلانيكي، ص ٢٥٧.

خلال هذه الفترة؛ الأثرُ البالغُ في ضعف المؤسسة العسكرية. وما حقّقته من نتائج ضعيفة على جبهات القتال.

لقد مثّلت الفترةُ التي تناولها المؤرّخُ البداية الحقيقية لبروز مظاهر الضعف منذ السّنوات الأخيرة من عصر سليمان القانوني؛ حيث انعكست هذه المظاهرُ بوضوح على المؤسّسة العسكرية في الدّاخل وفي الخارج، فلم يكنْ إصدار القانوني الأوامر لخروج حملةٍ بحرية تكون وجهتها مالطة، ولم يكن- أيضًا- خروجُه على رأس حملة إلى سيكتوار في أواخر حياته؛ إلّا للإعلان عن أنّ الدّولة العثمانية مازالت قويّة، وأنّ جيوشها مازالت تحقّق الانتصارات، ومن ثمّ تتحطّم المقولةُ التي راحت تنتشر في أوروبا حولَ بدء ضعف الدولة.

وهكذا أشار سلانيكي إلى هاتين الحادثتين، وأطنب فيهما القول، فذكر الملابساتِ التي خرجت من أجلها الحملةُ إلى «مالطة» تحت قيادة «بيالة باشا»، والتي عادتْ على أثرها دونَ تحقيق الهدف من خروج الحملة[1].

ولمّا تطرّق للحديثِ عن حملة «سيكتوار»، لم يترك صغيرةً ولا كبيرة إلّا وأسهب فيها القولَ، منذ خروج السّلطان من حاضرة الدولة، وحتّى اتخاذه الإجراءات لمحاصرة قلعة «سيكتوار» نفسها، ثمّ راح يفصل دقائق عملية الحصار، وذلك على الرّغم من وفاة السلطان في هذه الأثناء، حتّى تمّ فتحُها بقوله: «انطلق صوتُ دويّ عظيم وكأنّه يوم القيامة، وتصاعد ترابُ برج القلعة، وسورها، وأشجارها إلى السماء. وهلكَ رجالٌ ليس لهم حصرٌ ممّن كانوا متواجدين في الداخل والخارج قريبًا من القلعة، وكانوا يطلبون النّجاة، وهُدم سورُ القلعة، فتعقّبهم أهلُ الإسلام بأسلحتهم ومهمّاتهم صائحين «الله.. الله»، وفي لحظةٍ واحدة كان الأعداءُ الموجودون فيها مقهورين، وبعض الذين نجوا منهم وصلوا للقلعة الداخلية بجوار قائدهم «زرونجوق»، واستولى المسلمون على أكثرَ من مائة قطعةٍ من مدافع «بدالوشقه»، و«قولنبورنه»، و«شاهي»، و«ضربزن»، و«شقه لوز»، التي لا مثيل لها إلى جانب الباروت»[2].

---

(١) تاريخ سلانيكي، ص ٧ – ١٤.

(٢) المصدر السابق، ص ٤١، وفيما يتعلق بتفاصيل حملة سيكتوار انظر: نفس المصدر، ص ١٨ – ٥٩.

والأمرُ الجديرُ بالاعتبار هنا أنّ هاتين الحملتيْن: البحرية «مالطة»، والبرية «سيكتوار» لمْ تحقّقَا الأهدافَ العليا التي خرجتْ من أجلها، واكتفتا بنتائجها المُتواضعة؛ حيث قفلتَا عائدتيْن إلى مركز الدّولة ليبدأ عصرٌ جديد، وسياسة عسكريّةٌ جديدة، في الدّولة العثمانية.

واتّسم عصرُ سليم الثاني- على الرّغم من أنّ القيادة السياسية المتمثلة في «صوقوللو محمد باشا» قد حاولتْ قدْرَ المستطاع المحافظةَ على النفوذ الدولي للدّولة العثمانية في الشرق والغرب- بالاضطرابِ العسكري. ومردودُ ذلك أن جنود الدّولة لم يكونوا على ميْلٍ للسّلطان الجديد الذي لم يكن حريصًا على قيادة الجيوش؛ بل ترك شئونَ الدّولة العسكرية بيَدِ الأمراء، فانعكست خلافاتهم على حالة الاستقرار في المؤسّسة العسكرية من ناحية، وعلى نتائج المعارك التي كانوا يَخوضونها من ناحية أخرى.

وهكذا افْتُتح عصرُ السّلطان سليم الثاني بخروج الجند عليه مُطالبين بعطائهم وترقياتهم؛ حيث لم تعدْ له هيبةٌ بينهم[(١)].

ولّما ظهرت حركاتُ العصيان آل مظهر في اليمن عام ٩٧٥هـ/ ١٥٦٧م وأرادتِ الدّولة تجريدَ حملة للقضاء على هذه الحركة؛ ظهر الخلافُ بين أمراء الدّولة؛ ممّا أجبرها على تغييرِ قيادة الحملة أكثر من مرّة[(٢)].

وقد أعدّتِ الدّولة العثمانية لفتح جزيرةِ قبرص إعدادًا عسكريًّا جيدًا، واستطاعت- بعدَ معاركَ طاحنة- فتحَها؛ حيث يذكر سلانيكي في سرْدِه لأحداث استيلاءِ جندِ الإسلام على قلاع جزيرة قبرص قولَه: «وصلَ جندُ الإسلام أمام القلعة المَتينة والحصنِ الحصين المعروفَ باسم «لفقورسه»، وشرعوا في محاصرتها، ونصَبوا حولها المدافع، وأقاموا التّحصينات، وبدأت الفيالقُ في الحرب والقتال، ولم يكنْ هناك

(١) نفس المصدر، ص ٧٣ - ٧٤.

(٢) تاريخ سلانيكي، ص ٩٥.

إمكانيةٌ لإيصال المساعدات من سائر القلاع إلى المتحصّنين داخلها، ولمّا حمي وطيسُ المعركة والقتال الشّديد، واستمرّ خمسةً وأربعين يومًا متوالية، صارَ الأعداء- بعوْن الله- طُعْمةً لسيفِ المسلمين البتّار، فلم يحدث هذا القتال في أيّ حرب قط. في الحقيقة تحقّق النصر والظّفر، واستولى جيش الإسلام في هذه الغزوةِ على الغنائم والأسرة بصورةٍ لم ترَ أو يُسْمع مثلُها في أيّ تاريخ قط»[1].

إلّا أنّ هذا الفتح كلّفها خسارةً فادحة تمثّلت في فقْدِ أسطولها في معركة «اينه بختي» عام ٩٧٩هـ/ ١٥٧١م[2]. وفي تزلزل مكانتها البحرية في حوض البحر المتوسط أمام أوروبا. وعلى الرّغم من أنّ الدّولة استطاعتِ إعادة تشكيل أسطولها البحري خلال عام واحد، ممّا عكس القدرة الفذّة التي كانت لا تزال تتمتع بها في إعدادِ الحملاتِ خلالَ هذه الفترة؛ إلّا أنّ هزيمة «اينه بختي» شجّعت إسبانيا لإعادة احتلال تونس، فاضطرّتِ الدّولة للدّفاع عن مكانتها البحرية هناك بتجريد حملةٍ لاستعادتها، وحصار قلعتها خلق الواد (٩٨٢هـ/ ١٥٧٤م)؛ حيث يذكر سلانيكي أنّ هذه الحملة- بقيادة سنان باشا، والقبطان قليج علي باشا- تمكّنت من الاستيلاء على قلعة خلق الواد، وتحقيقِ النّصر على الأعداء بقوله: «لم ينْجُ أيّ فردٍ من الأعداء الموجودين في قلعة خلق الواد، وفي سائر قلاع تونس؛ حيث قهروهم بسيفِ الإسلام، ومَحَوا بالألغامِ القلعة، وأصبح مُحالًا أن يقيم فيها الأعداء من بعد»[3].

وفي عصر السّلطان مراد الثالث، اتّبع السلطانُ سنّةَ سلفه في العزوف عن قيادةِ حملات الدّولة العسكرية؛ ممّا أضعف هيبتَه أيضًا لديهم.

وعلى الرّغم من ذلك كان السلطانُ يخضع في توجيه سياسة الدّولة العسكرية لطائفةٍ من رجال الدّولة خالفت نائبَ السلطانِ المطلق الصدر الأعظم «صوقوللو محمد باشا»، فعكس هذا اضطرابَ مصدرِ القرار الاستراتيجي في الدولة.

---

(١) نفس المصدر، ص ١٠٢.

(٢) نفس المصدر، ص ١٠٤ - ١٠٦.

(٣) تاريخ سلانيكي، ص ١٢٣.

فعلى الرّغم من معارضة «صوقوللو» لحملة الشرق[1]؛ أصدر السلطانُ أوامره بالإعدادِ لها وخروجها.

ومِن ناحيةٍ أخرى كان الجيشُ العثماني- وبالخاصة فرق الـ«قابوقولو»[2]- قد فقَدوا قياداتهم المتمثلةَ في السّلطان نفسه، ممّا جعلهم يتجرّؤون على الخروج على سلطتِه في أحيانَ كثيرة تارةً مُطالبين برواتبهم المتأخّرة، وتارةً أخرى مُطالبين ببعض الامتيازات.

لقد انعكس هذا الاضطرابُ في اتّخاذ القرار العسكري في مركز الدّولة على النّتائج العسكرية التي حقّقتها حملاتُ الشّرق التي وجّهتها الدّولة إثرَ بعضها البعض، فعلى الرّغم من خروج الحملة عام ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م تحت قيادة «لالا مصطفى باشا»، وتحقيقِه لبعض الانتصارات في «تفليس»[3]، وفي «شيروان»[4]؛ إلّا أنّ الأوضاع في مركز الدّولة اضطرّته للعودة إليها تاركًا قيادة الحملة لـ«عثمان باشا» الذي استطاع الاستيلاءَ على «تيمور قبو»[5] (٩٨٨هـ/ ١٥٨٠م). ومرّةً ثالثة يتسلّم قيادة الحملة «فرهاد باشا» (٩٩٣هـ/ ١٥٨٥م)[6]؛ حيث عاد «عثمان باشا» للآستانة بعد إخماد فتنةِ خان القرم. ومرّةً رابعة يتسلّم القيادة «عثمان باشا» بعد توليتِه صدرًا أعظمَ،

---

(1) M. Tayyib Gökbilgin, mehmet pasa (Sokullu) Islam Ansiklopedisi (I.A), cuz 7603/.

(٢) قابو قولو: اسم لجيش الدّولة المركزي من المشاة والفرسان، وهو جيش عامل يعطي مرتبات دورية من خزينة الدولة، ويطلق عليه أيضًا اسم «دركاه عالي قوللري»؛ أي خدم الباب العالي. انظر: midhet Sert oglu، s ١٧٤.

(٣) تفليس: مدينة قديمة قرب جرزان. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٢/ ٣٥.

(٤) فيما يتعلق بالانتصارات التي حققها لالا مصطفى باشا في الشرق. انظر: تاريخ سلانيكي، ص ١٤٦-١٤٩.

(٥) تيمور قبو: يطلق عليها باب الأبواب، وهي مدينة دربند الواقعة على الساحل الغربي من بحر الخزر متاخمة لجبال قفقاسيا. انظر: شمس الدين سامي، قاموس الأعلام، ج٢/ ١١٧٨.

(٦) تاريخ سلانيكي، ص ١٨٨.

ويتمكّن من فتح تبريز في ٩٩٣هـ/ ١٥٨٥م؛ حيث يذكر سلانيكي هذا الفتحَ بقوله: «لم يكتبْ في صحيفة العصر مثل هذا النصر، فقد شاهدتْهم الآلافُ من أعيَن الفلك، فخروجُ سلطان مملكة وقائدِ عساكره من مقرّ عرشه، وهذه الدّرجة من القتال التي أظهرها، وانتصار الجيش هكذا، وعودتهم سالمين غانمين؛ لم يحدثْ في إيران وتوران، ولا في الشّرق أو الغرب. فهذا الأمرُ محْضُ عناية الله»[1].

وللمرّةِ الخامسة تُعهَد القيادةُ لـ«فرهاد باشا». وعلى إثر فشل الصفويّين في استرداد تبريز، تبدأ مراسلاتُ الصّلح مع العثمانيّين؛ إلّا أنّ «فرهاد باشا» يتمكّن من فتح كنجه عامَ ٩٩٦هـ/ ١٥٨٨م[2]؛ لتسفرَ في النهاية هذه السلسلةُ من حملاتِ الشّرق عن عقد الصّلح بين الطرفين.

ثالثًا: الحالةُ الاجتماعية:

لقد كانَ لبدْء ظهور إرهاصات الضّعف في مؤسّسات الدولة أثرٌ واضحٌ على الحالةِ الاجتماعية للدّولة العثمانية خلالَ هذه الفترة. فقد عاش سلانيكي أحداثَ هذه الفترةِ العصيبة، حيث شارك فيها الأمّةَ انتصاراتها وأفراحها، وجاشت عواطفُه واضطربتْ نفسُه لمصائبها وملمّاتها.

ولذلك قدّم لنا المؤرّخُ لوحةً مفصّلة لمختلف طوائف المجتمع في عصره؛ ابتداءً بالسّلطان نفسه، ووزرائه، وأمرائه، ومرورًا بطائفة العلماء والقضاة والمدرسين، وانتهاءً بطوائفِ الرّعية والجند؛ حيث استطاع مِن خلال نقدِه المباشر لهذه الطوائف مُجتمعةً ومُفردة أن يعرضَ لنا صورةً عامّة للأوضاع التي أخذت في التردي من سيّئ إلى أسوأ في أنْحاء الدّولة عمومًا، وفي مركز الدّولة على وجه الخصوص.

فقد أومأ سلانيكي إلى غياب القدوةِ في المجتمع المتمثّلة في السلطان؛ حيث أشارَ إلى أفعال السّلطان «سليم الثاني» غير اللائقة بمكانته في الدولة؛ ممّا أدّى إلى اقتداءِ

(١) تاريخ سلانيكي، ص ٢٠٣.

(2) Mustafa Efendi Selaniki, Tarih- I Selaniki, Nsr. M. Ipsirli, Istanbul, 1984, cu2 1206/.

الجند والرّعية به بقوله: «نسيَ هؤلاء الذين كانوا كالرّياح العاتية غمّ غدِهم بسبب ما كانوا فيه من شغب وسُكر وطرب. وكان رجالُ الدّولة يشاهدون مع مُرتادي الحانات أماكنَ السُّكْرٍ والأوكار التي تدوّي بأصوات الثمالى في عهد السّلطان سليم خان[١].

أيضًا أشارَ المؤرّخُ إلى عدم مواجهة السّلطان مراد لمرض الرشوة الذي تفشى في المجتمع؛ الأمرُ الذي جعل مصالحَ الدّولة في عصره لا تنقضي بحالٍ إلّا بالتّعامل بهذه العادة السيئة[٢].

كذلك اهتمّ سلانيكي بإبراز الآثار الاجتماعية التي خلّفتها الكوارث الطبيعية التي تعرّضت لها استانبول على الرعيّة، فيصفُ حالةَ أهالي استانبول عقب هطول سيل جارف عليها عام ٩٧٤هـ/ ١٥٦٦م بقوله: «بحكمة ربّ العالمين» لمّا ظهرت سطوةُ السيْل القاهرة؛ أصبح الناسُ في حالةٍ من الضّنك والاضطراب والحيرة، حيث ظهرتْ عليهم آثارُ المحْنة العظيمة والتّعب والمشقّة الشديدة... الحكمُ لله العليّ الكبير[٣].

كما ذكرَ سلانيكي مظاهرَ عديدةً لفساد مجتمع الأمراء، وانتشار الفتن بينهم للحصول على المناصب واهتمامهم بجمع الأموال[٤]، وأشار بقوّةٍ إلى الطائفة المَنوط بها نشرُ العدل بين طوائف المجتمع، وهي طائفةُ العلماء والقضاة؛ حيث أوضحَ اختراقَ الفساد لمؤسساتهم، وانصرافَهم عن مسئولياتهم، وتفرّغَهم لإحاكة الدّسائس بقوله: «حرض القضاة، العلماء والشعراء، ولمّا أحاط الوزير الأعظم علمًا بأنّ الباعثين على الفتنة جاءوا لسراي السلطان محمد، واندَسّ المدبّرون بينهم، في الحال أمرَ بالقبض على سبعةِ قضاة، وأودِعوا الحبسَ في القلاع السبع»[٥].

---

(١) تاريخ سلانيكي، ص ١١١.

(2) Selaniki Mustafa Efendi, Tarih-i Selaniki, s. 306, 418, 511

(٣) تاريخ سلانيكي، ص ٤-٦.

(4) Selaniki Mustafa Efendi, Tarih-i Selaniki, s. 418

(٥) تاريخ سلانيكي، ص ٢٦٩.

ولم يكنِ الفسادُ قاصرًا على طائفة معيّنة؛ بل انتشر – أيضًا – بين كتبة الدّيوان، وطالَ فرمانات السلطان؛ حيث قام بعضُ الكتّاب بمسح مضمون الفرمانات وتزويرها لتحقيق مصالحَ شخصيّة لهم، وقد أشار المؤرخ إلى ذلك بقوله: «ظهرت طائفةٌ من الكتّاب قاموا بمسْح الخطوط المدوّن بها الأوراق المختومة، وكتبوا فيها ما أرادوا، وعُلمت أحوال الذين قاموا بهذا التّلبيس والتزوير»[1].

وأشارَ سلانيكي إلى الجند، وعدم رغبتهم في نيْل ثواب الجهاد، وأوضح الفساد في مجتمعهم من خلال ذكره لحادثةِ مقتَلِ أحدهم أثناء الاحتفال بختان وليّ العهد محمد الثالث»[2].

ومِن ناحيةٍ أخرى فقد عكس سلانيكي في تاريخه صورةَ رعايا الدّولة في استانبول من خلال العديدِ من المواقف التي أشار إليها، فذكر إسراع الرعية لمشاهدةِ مراسيم استقبال ضيوف الدّولة، وأيضًا مشاركتهم في الاحتفالات الدينية كالمولد النبوي[3] والأعياد[4]، ومناسبات الزواج[5]، أو احتفال ختان أحد أفراد الأسرة السلطانية[6]؛ حيث أفاض مؤرّخُنا في إبراز الحالة المتردّية التي وصلت إليها الرعيّةُ من خلالِ تفصيله لتصوير مراسيم استقبال وليّ العهد الصفوي «حيدر ميرزا» بقوله: «في ذلك اليوم، تزيّن الجيشُ بصورة زائدة، وخرج لاستقبال ولي العهد الصّفوي «حيدر ميرزا»، ودنا أميرُ أمراء الأناضول «محمد باشا زاده حسن باشا» إلى آسكدار، واستقبلَه، واستمرّتِ الضّيافةُ حتّى المساء، وامتلأت جميع الدكاكين والأسواق برجالٍ ونساء وصغار وكبارِ استانبول.. وتمّت الضيافة العظيمة»[7].

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٧٢.

(٢) نفس المصدر، ص ١٦٧.

(٣) تاريخ سلانيكي، ص ٢٣٧.

(٤) المصدر السابق، ص ٢٣٧.

(٥) نفس المصدر، ص ١٦٢، ١٦٣، ٢٠٥، ٢٠٦.

(٦) نفس المصدر، ص ١٦٤ – ١٦٨.

(٧) تاريخ سلانيكي، ص ٢٦١، ٢٦٢.

وهكذا رسمَ مؤرّخُنا صورةً حيّة للمجتمع العثماني بكلّ طوائفه خلال هذه الفترة.

رابعًا: الحالةُ الإداريّة والمالية:

أثّرت حالةُ الضّعف والاضطراب التي مرّت بها الدّولة العثمانية خلال هذه الفترةِ على الوضْع الإداري والمالي العام؛ تأثيرها على الأحوال السياسية والعسكرية والاجتماعية في مختَلف مؤسّسات الدولة، فما مِن شكّ أنّ عمل كافّة مؤسسات الدّولة قد ارتبطتِ ارتباطًا أصيلًا في حركة عملِها- وفي مواردها المالية- بالحالةِ الإدارية والمالية العامّة للدولة.

فلقدْ كان لضعف شخصيةِ السّلاطين، وبُعدِهم عن مباشرة شئون الدّولة الإدارية والمالية، وتدخّلِ السّراي والمقربين في أمور الدولة، وحركةِ التّعيينات والعزل في مناصب الدولة، وغلبَةِ الرّغبات الشخصية في تسيير دفّة الإدارة في مركز الدّولة وفي الولايات، وزيادةِ مصْروفات الدّولة في حملاتها الضعيفة، وفي القضاء على حركات العصيان؛ كان لكلّ هذا دورٌ في تفاقم الأوضاع الإدارية والماليّة خلال النصف الثاني من القرن (١٠هـ/ ١٦م) عمومًا، واعتبارًا من عصر السّلطان سليم الثاني على وجه الخصوص.

وقد حرصَ سلانيكي- بحُكم وظائفه التي كلّف بها- على تتبّع فرمانات العزل والتّعيين في الديوان؛ حتّى أنّه يُمكننا القول بأنّ تاريخه يعدّ سجلًّا لهذه الفرمانات خلالَ عصره، نذكرُ منها قوله: «صدرَ فرمانٌ بالإحسان على أغا علوفجيان يسار بوظيفةِ رئيس السلحدارية، وعلى رئيس الجبه جيه «جوبان سليمان» بوظيفة آغاء العزباء اليسار، وصدر فرمانٌ بالإنعام على «أحمد أغا» بوظيفة رئيس الجبه جيه، وعُيّن كاتب الينى جري «إلياس جلبي» دفتردار ولاية قره مان، وصدر فرمان بتوجيه وظيفةِ كاتب الينى جري إلى الكاتب محمد أفندي في شهر محرم الحرام سنة ٩٩٩هـ/ أكتوبر ١٥٩٠م[١].

---

(١) تاريخ سلانيكي، ص ٢٧٢.

ومن خلال هذه المادّة الوثائقية الغنيّة يُمكننا أنْ نقرّر أنّ الدّولة العثمانية قد شهدتْ مرحلةَ استقرار إداريّ نسبيّ خلال فترة صدارة «صوقوللو محمد باشا» التي امتدّت نحو أربعة عشرَ عامًا. وإذا كان سلانيكي قد أشار بشكلٍ مباشر إلى حالة الاضْطراب الإداريّ في صدر حديثه عن الدّور السلبي للحكام وإداريي الدّولة في إسنادِ المناصب لغير الأكْفاء[1]، وفي انتشار الرّشوةِ في الجهاز الإداري؛ إلّا أنّ حركةَ عزل وتعيين الوزراءِ العِظام بعد وفاة «صوقوللو محمد باشا»- حيث تمّ تعيينُ أحدَ عشر وزيرًا خلال فترة حُكم مراد الثالث- قد أشارت إلى حالة الخللِ هذه، وغياب سياسة إداريّة عُليا تسير على نهجها المؤسّسةُ الإدارية في البلاد. وقد أشار سلانيكي إلى ذلك بقوله: «إنّ بابَ الرّشوة الذي فُتح علامة تشيرُ إلى عدم بقاء الدّولة»[2].

ومِن ناحيةٍ أخرى كان انتشارُ الفتنِ والدسائس- سواء في مركز الدّولة أو في ولاياته- مِن أهمّ عوامل هذا الفسادِ الإداري، وقد ذكر المؤرّخُ ذلك من خلال ما أوردَه من عروضِ أمير أمراء مصر «سنان باشا» على السّلطان الذي جاء في بعضِها بأنّ القبطان قليج علي باشا ظالمٌ ومُحتال[3]. وفي بعضها الآخر أنّ مصطفى باشا الذي عُيّن قائدًا لحملة اليمن قامَ بإتلاف الخزينة، وغير جديرٍ بالقيادة[4].

لقد كان السّببُ الرئيسي لحالةِ الاضطراب المالي التي شهدتها مؤسسات الدّولة خلال هذه الفترة؛ عدمَ قدرةِ موارد الدّولة على مواجهة مصاريفها؛ حيث كانت خزينة الدّولة قد تأثّرت من انقطاع الأموال والغنائم التي كانت تأتي من البلدان المفتوحة نتيجة توقّف حركات الفتوحات، إلى جانب المصروفات الطّائلة التي أهدرت بسبب الحملاتِ الطويلة والمتزامنة في الشرق إبّان عهد مراد الثالث.

---

(١) المصدر السابق، ص ٣٣٩.

(٢) تاريخ سلانيكي، ص ٢٧٢.

(٣) نفس المصدر ، ص ٢٠٩.

(٤) المصدر السابق، ص ٩٥.

وقد أشار مؤرّخنا إلى ذلك موضّحًا أنّ هذه الحملات استنزفت أموال الخزينة[1]. كذلك كانت حركاتُ العصيان التي قام بها أفرادُ الفرق مظهرًا واضحًا مِن مظاهر قصور خزينة الدّولة الميرية في الإيفاء حتّى برواتب الجُند الدّورية.

كما كانت الاحتفالاتُ والضّيافات التي أقامها السّلاطين؛ مظهرًا من مظاهر البذخ الذي كان له الأثرُ السّلبي على الخزينة الميرية، حيث ذكر سلانيكي بأنّ الاحتفالاتِ التي لم يكنْ لها مثيل، والتي أقيمَتْ لاستقبال السّفير الصفوي «حيدر ميرزا» الذي كُلّف بضيافته، وكذلك الاحتفالات التي أقيمَت في عهد «مراد الثالث» بمناسبةِ ختان ابنه «محمد الثالث»؛ قدْ ألقَت بظلالها القاتمةِ على الخزينة حتى أنّه قد خُصّص قلم مُحاسبات خاصّ في الديوان لهاتين المناسبتيْن، بقوله: «بناءً على تخْصيص قلم مستقلّ من أجل مصاريف الاحتفال الهمايوني بختان ولي العهد «محمد الثالث»؛ صدرً فرمانٌ بتعيين كلّ مِن «قره بالي بك» أمينًا، «وحمزة بك» ناظرًا لمصاريف الاحتفال، وقبل خمسة أشهر من هذه المناسبة السلطانية سُلّمت للأمين والنّاظر المذكورين خمسون كيسًا من الأموال من الخزينة العامرة على دفعات من أجلِ لوازم واحتياجات الاحتفال الهمايوني»[2].

كلّ هذه الأسباب أدّتْ بالخزينة والمؤسّسة المالية إلى الانهيار خلال هذه الفترة، فواكبَ ذلك حركة الاضطراب الإداري في الدولة؛ الأمر الذي يعكس لنا الحالةَ العامّة للدولة العثمانية خلال هذا العصر.

وبناءً على ما سبق شكّلت الظّروف السياسية والعسكرية والاجتماعية والإدارية الحالةَ التي كانت عليها الدّولة العثمانية في النصف الثاني من القرن الـ١٦ الميلادي، وحملت الدّولة من مرحلة قوّةٍ وازدهار لتطلّ بها على مشارف مرحلة جديدةٍ من الضّعف والانهيار، عاش مؤرّخنا فيها أحداثَ هذه الفترة الحرجة في التّاريخ العثماني، وتأثّرت بها نشأتُه، وتشكّلت بعواملها شخصيّتُه.

(1) Selaniki Mustafa Efendi, Tarih-i Selaniki, cuz/1, s. 428- 432.

(٢) تاريخ سلانيكي، ص ١٦٥.

السِّيرةُ الذّاتية للمؤلف:

واجهَ الباحث مشكلة ندرةِ المعلومات عن حياةِ المؤلف؛ سواء من حيث مسقط رأسه، وتاريخ مولدِه، وعائلته، أمْ من حيث نشأته وتعليمه. والسّببُ في ذلك راجع إلى أنّ المؤلّف لم يؤرّخْ لنفسه ولحياته، يُضاف إلى هذا أنّ المؤرخين المعاصرين له لم يذكروا شيئًا عنه، أمّا الباحثون المحدثون فقد اعتمدوا على الإشاراتِ البسيطة التي ذكرها المؤلف؛ لذا فقدِ اسْتفاد الباحثُ من النّذر اليسير من المعلومات التي وردتْ في ثنايا كتاب تاريخ سلانيكي.

فمؤرّخُنا هو «مصطفى أفندي»[1]، ويُعرف بسلانيكي؛ نسبةً إلى مدينة سلانيك[2]؛ حيث وردَ هذا الاسمُ في حديثه عن نفسه بينما كان يقرأ القرآنَ الكريم أثناءَ تشييع جنازة السّلطان سليمان القانوني[3] في ربيع الأول ٩٧٤هـ/ سبتمبر ١٥٦٦م بقوله: «كنّا ستة حفّاظ نقرأ القرآنَ الكريم؛ السّلحدار مصطفى، و....»[4].

وفي ضوءِ ما ذكره المؤلّفُ عن مشاركته في حملة سيكتوار ٩٧٤هـ/ ١٥٦٦م يُمكن القول بأنّ تاريخَ مولدِه كان في أواخر العقدِ الخامس وأوائل العقد السادس من القرْن

---

(١) أفندي: تعني «سيد» واستخدمها العثمانيون لقبًا للشخص المتعلم، وأُطلقت أيضًا على موظفي الدّولة مثل القضاة، وعلى كُتاب الخزينة السلطانية، وهي مأخوذة من الكلمة اليونانية (Efendis)، وكانت أيضًا مستخدمة عند السلاجقة، وأُلغي لقب أفندي رسميًا عام ١٩٣٤. انظر:

Midhet Sertoglu, Osmanli Tarih Lugati, s. 94.

(٢) سلانيك: مدينة تجاري في اليونان تقع على خليج سلانيك في بحر إيجه، وتعتبر ثاني أكبر المدن اليونانية، فتحها العرب عام ٢٩٢هـ/ ٩٠٤م، ثمّ فتحها العثمانيون في عهد بايزيد الأول عام ٧٩٦هـ/ ١٣٩٤م، وكانت تمثل مصدرًا عظيمًا من مصادر دخل الدّولة العثمانية، تعرضت عام ١٨٠٧ للهجوم الإنجليزي، وغدت منذ أوائل القرن العشرين مرتعًا للماسونية، وفي الحرب اليونانية التركية عام ١٩١٢م خسرت تركيا سلانيك، وسلمها حاميها حسن باشا للجيش اليوناني، وتشتهر سلانيك بصناعة المنسوجات وبالآثار القديمة. انظر:

M. Tayyib Gökbilgin Selanik, Islam Ansiklopedisi (I.A), cuz 10, S. 337349-.

(٣) السلطان سليمان القانوني: هو ابن السلطان سليم الأول، حكم الدّولة العثمانية من ١٥٢٠ حتى ١٥٦٦م.

(٤) انظر: مصطفى أفندي سلانيكي، تاريخ سلانيكي، ص ٦٢.

العاشر الهجري/ السّادس عشر الميلادي؛ لقوله: «وكنتُ أثناءَ الحملة أذهبُ معَ فريدون بك إلى خيام الوزراء العظام»(١).

أمّا عنْ عائلته، فلم يذكُرِ المؤرّخُ شيئًا عنها سوى أنّ والده كان مقيمًا في سلانيك، وأنّه توفّي بها عام ٩٧٢هـ/ ١٥٧٤م؛ لقوله: «على إثْرِ ورود خبرِ وفاة الوالد في سلانيك، التمست عذرَ صلةِ الرّحم لأخذ الإذن والإجازة للذّهاب إلى سلانيك»(٢).

لم يصرّح المؤلّفُ بأيّ شيء عن طفولته وصباه، وبأيّ مدرسةٍ التحق، وعلى أيْدي مَنْ مِن الأساتذة تعلّم، ومِن أيّ المصادر حصّل علمه، وإن كان يتّضح من أثره أنّه تربّى في محيطٍ ديني، ونشأ في بيئةٍ علميّة بدلالة حفظه للقرآن الكريم، وملازمته لمجالس العلم يومَ أنْ كان يخدمه القائد «شمس أحمد باشا» ثمّ الوزير الأعظم «صوقوللو محمد باشا»، ومرافقته للأصحاب ذوي الطّباع الحميدة أمثال القاضي «عشرتي أفندي»، ومحاسبجي التيمار «قيطاس زاده أحمد أفندي»، و«خدايبي أفندي»؛ لقوله: «ولم أستطع الافتراق عن خدمة المُشار إليه «شمس أحمد باشا»، والتّحاور معه، وكذلك لم أفترقْ عن صُحبة أصحاب الطّباع الحميدة أمثال القاضي عشرتي أفندي، و........، و.........»(٣).

لذا أثّرت هذه البيئةُ العلمية والمحيطُ الدّيني الذي نشأ فيه مؤرّخُنا في تشكيل ملامح شخصيّته، وقد برزتْ سماتُها فيما سرده من وقائع؛ حيث كان لعقيدته الرّاسخة دورُها في تقييمه للأحداث ونظرته إليها، فمثلًا حينما تخاذل الجيشُ العثماني أمام القزلباش، واهتمّوا بجمع الغنائم؛ أشار سلانيكي إلى أنّ هذا كان بيَدِ الله تعالى؛ الذي أرادَ بهم خيرًا عندما صرف عنهم العدو، ولم يجعله يطلع على حالِهم المشتّت، وحفظهم من هزيمةٍ محقّقة، وألحق الهزيمةَ بعدوّهم القزلباش، فأشار المؤرّخُ إلى هذا بقوله: «الحمدُ لله أنّ العدو لم ينظرْ لحال جيشنا الحريص على حُطام الدنيا والسّالب والطّامع، وكان

(١) المصدر السابق، ص ٤٨.

(٢) انظر: مصطفى أفندي سلانيكي، نفس المصدر، ص ١١.

(٣) انظر: مصطفى افندي سلانيكي، نفس المصدر، ص ١١.

في حفظه وأمانته اعتبارًا لحرمة فخْر الأنام، وإلّا لما بقي أحدٌ بجانب القائد، وكانت الهزيمةُ ستلحق بهم، فحفظهم اللهُ من أمرٍ لا محال»[1].

وأيضًا تظهر عقيدتُه الثّابتة في تنزيهه لله- سبحانه وتعالى- عن الشرك، وذلك أنّه حين سمع أنّ أهل خروات يناجون الله قائلين: «الربّ عيسى وأمّه مريم!!»[2] تألّم ألمًا شديدًا لذلك.

والحقّ أنّ تديّنه وثباتَ عقيدته كان صفةً عامّة تحكم جميع تصرفاته، ويتضح ذلك جليًّا في حرصه على المحافظةِ على أمور الدين، ونلمسها في عواطفه تجاه أهلِ الخير والصّلاح والفضيلة حبًّا، وتجاه أعداء الدين والدولة العثمانية نفورًا، فهو يحمدُ الله أكثرَ من مرّةٍ عند انتصار الجيش العثماني على القزلباش[3]. وتكرار لفظة «الحمدُ لله» تبيّن لنا مدى ارتباطه بالذات الإلهية.

وأيضًا يتّضح هذا في حفظِه للقرآن الكريم وتلاوتِه له. وتتجلّى عند مؤرّخنا صفةُ الصّبر على البلاء فيما ذكره عن نفسه بأنّه شاهد الدنيا بقلبٍ مجروح لما وقع عليه من ظُلم حكّام العصر، فعزلُه المتكرّر من الوظائف بلا جرم أو سببٍ ارتكبه، جعلَه يمقتُ الظّلمَ، ويتجلّد بالصّبر، وينظر إلى قضاء الله، فهو يُعلم أنّ الذي عُين خلفه في وظيفة كاتبِ السپاهية؛ سرعان ما عُزِلَ منها، وبسبب الافتراءات التي لفّقها لسلانيكي؛ كان هذا الجزاء الإلهي، وخلالَ وقتٍ قصيرٍ ظهر الحقّ[4].

أمّا صفةُ التّواضع عند سلانيكي فتظهر جليّةً في وصفه لنفسه بأنه: «عبد وضيعٌ لا يملك إلّا الافتقارَ إلى الله». ويتّضح ذلك- أيضًا- في العديد من الألفاظ التي يصفُ بها ذاته مثل «الفقير» أو «الحقير»، أو «المنحدر من الثرى» وغيرها[5].

---

(١) انظر: مصطفى افندي سلانيكي، نفس المصدر، ص ٢٥١.

(٢) انظر: مصطفى افندي سلانيكي، نفس المصدر، ص ٣٨.

(٣) انظر: مصطفى افندي سلانيكي، نفس المصدر، ص ٢٥١.

(٤) انظر: تاريخ سلانيكي، ص ٢٥٨، ٢٧٣، ٢٧٤.

(٥) انظر: تاريخ سلانيكي، ص ١١، ٤٨، ٤٩، ٥٩، ٧١، ٢٥٨، ٢٦١، ٢٧٣.

وعلى الرّغم من رسوخ عقيدة سلانيكي إلّا أنّه ثبتَ من خلال حواره مع حاكم كيلان «خان أحمد» أنّه كان عالمًا بالتّنجيم؛ لذا طلب حاكمُ كيلان من سلانيكي أنْ يحدّثه عن علم حركات النّجوم بقوله: «لو ناقشتنا قليلًا عن علومنا التي عرفناها وفهِمْناها من أحكام الاتّصالات والعلاقات الناتجة عن حركات النجوم»[١].

ولقد أثّرت عقيدتُه في تركيب شخصيّته، فجعلته يميل إلى العدل، ويحثّ على الاستقامة، ويكره الظلمَ؛ بدليل نقدِه للفساد الذي استشرى في مؤسسات الدولة؛ حيث ذكر أنّ زمام الملك صارَ في عام ١٠٠١هـ بأيدي الجهلة، وأن مباشري مصالح المسلمين غيرُ لائقين ولا مستقيمين[٢].

ويؤكّد ذلك- أيضًا- حرصُه على إظهار السّلوك غير السوي للحكام بسبب رغبتِهم وصراعهم على مال الرّشاوى، وابتلائهم بالطّمع في قوله: «بسبب رغبة وصراع الحكّام الذين ملاذُهم الإسلام على مال الرّشوة وابتلائهم بالطمع؛ صاروا أسرى الغضب والسخط الإلهي»[٣].

وكان لصفاتِه العقلية أثرٌ عامٌّ على شخصيته، فقد برزت فطنتُه وذكاؤه وحسن تصرّفِه في الأوقات العَصيبة، فعندما كلّفه الوزيرُ الأعظم «صوقوللو محمد باشا» بالذّهاب مع «فريدون بك» إلى الوزراء لإقناعهم بعقد الديوان، استطاع سلانيكي بحنكتِه أنْ يُخفي السببَ الحقيقيّ لعقده أثناء حواره مع كلّ وزيرٍ منهم؛ حتى لا تتأثّر حالةُ الجند بوفاة السّلطان سليمان القانوني الذي توفّي فجأة أثناء حملةٍ سيكتوار التي خرج إليها[٤].

ومِن خلال ما كتبه سلانيكي في أثره، نلمسُ أنّه كان يميل إلى المسالمة والنّشاط والعمل الدّؤوب دونَ كسلٍ فيما كان يكلَّف به من مهام[٥].

---

(١)() انظر: المصدر السابق، ص٣٥٠.

(٢) انظر: تاريخ سلانيكي، ص ٣٣٩.

(3) Selaniki Mustafa Efendi, Tarih-i Selaniki, cuz/1, s. 418

(٤) انظر: سلانيكي ، تاريخ ، ص ٤٨.

(٥) انظر: سلانيكي، تاريخ ، ص ٢٦١.

يضافُ إلى ذلك أنّه لم يكنْ منعزلًا عن المجتمع، وإنّما شارك النّاسَ أفراحهم وأحزانهم، فقد روى لنا في أثره العديدَ من المواقفِ التي تدلّ على تسجيله لحالة الفرحةِ لدى الشعب لتحقيقه النّصر على الأعداء في سياق حديثه عن عودة القائد عثمان باشا منتصرًا من حملة الشرق عام ٩٩٢هـ[1].

أو نقله لحالة الحزنِ والأسى لأيّ مكروهٍ يُصيب الأمّة في حديثه عن انتشار وباءِ الطّاعون (٩٩٣-٩٩٦هـ) في استانبول الذي أبكى وأحرق أفئدةَ المسلمين، وأسقى كأسَه للأطفال والكبار بقوله: «في هذه السنوات استشرى وباء الطاعون في استانبول، وبسبب عدم بقاء شخصٍ غير مبتلى به أصبح رعايا الدّولة محترقي الفؤاد بالآهِ والحسرة، وقدّم ساقي الأجلِ لهم كأسَ الموت»[2].

وهكذا نستشفّ من المعلومات التي وردت في كتاب «تاريخ سلانيكي» ما ينمّ عنْ شخصيته التي كانت متديّنة متّزنةً في تصرفاتها، تحسّ بنبض الحياة السياسية والاجتماعية، فسجّلَ الأحداثَ السياسية بحُكم مشاهدتِه لها، ونقل لنا إحساسَ ومشاعر النّاس، وما تعرّضوا له من غير تهويلٍ أو تضخيم، ومن غير تعتيم أو تقْتير، فكان شاهدًا أمينًا على عصره.

أمّا عن تاريخ وفاته فلم يذكرِ المؤرّخون المعاصرون لسلانيكي شيئًا عن وفاته. وإنْ كان الباحثون المحدّثون[3] يرجّحون أنّه توفّي بعد التاريخ الذي توقف عنده في تدوين أحداث أثره في شوال ١٠٠٨هـ/ أبريل ١٥٩٩م؛ حيث انقطع فجأة عن إكماله، وأنّ وفاته كان في استانبول[4].

---

(١) انظر: سلانيكي، تاريخ، ص ١٧٨، ٢٦١.

(٢) انظر: سلانيكي، تاريخ، ص ٢١١.

(٣) انظر: أحمد رفيق، عالملر وصنعتكارلر، استانبول، ١٩٢٤م، ص ٤٩.

(٤) انظر: بورصه لي محمد طاهر، عثمانلي مؤلفلري، استانبول، ١٩٤٥، ج٣/ ٦٨.

الوظائفُ التي شغلها المؤرّخُ وأثرُها على كتابتِه التّاريخية وتسجيلُه الوقائع:

تدرّج سلانيكي في العديدِ من الوظائف في سلْك المحاسبات، فقد شغل في بدايةِ عمله بالجهازِ الإداري للدّولة وظيفةَ ناظر مقاطعة الحرمين الشريفين[1] (١٥٦٦- ١٥٨٠م) عقب عودتِه من حملة سيكتوار على بلاد المجر.

وفي عام ٩٨٨هـ/ ١٥٨٧م، عُيِّن دواتدار[2] لقوله: «عملت في وظيفة داوتدارية النّشانجي محمد باشا أربع سنوات، ورأيته كالبحر الزّاخر في الكرم[3].

في عام ٩٩٥هـ/ ١٥٨٧م، أُحسن على سلانيكي بوظيفةِ كاتب فرقة السّلحدارية[4]، وخرج بهذه الوظيفة لحملةِ كنجه عام ١٥٨٨م كأحد أفراد معيّة الوزير الأعظم فرهاد باشا[5]، وظلّ شاغرًا لهذه الوظيفة حتّى تمّ ترقيتُه إلى وظيفةٍ كاتبِ فرقة السپاهية عام ١٥٨٨م[6].

وعلى أثر عزْل سلانيكي من وظيفةِ كاتبِ فرقة السپاهية، أسند إليه الوزير الأعظم سنانَ باشا[7] مهمّةَ القيام على ضيافة السّفير الصفوي حيدر ميرزا[8] في عام

---

(١) ناظر مقاطعة الحرمين الشريفين: يقوم بتحصيل عائدات الأوقاف المتعلقة بمقاطعة الحرمين، وتعتبر هذه المقاطعة من أقلام الباب الدفتري، ويقوم أيضًا بمباشرة المعاملات المتعلقة بقيود الصرة التي ترسل للحرمين كل عام. انظر:
Mehmet Zeki Pakalin, Osmanli Tarih Deyimeri ve Terimleri Sozlugu, cu2, II/578.

(٢) دواتدار: تعني حامل الدواه ويقوم صاحبها بكتابة الأوامر التي تُملى عليه، وبحفظ جميع المستندات الخاصة بالوزراء وأركان الدولة، وشعار هذه الوظيفة على هيئة دواه، وقد توارثها العثمانيون عن السلاجقة الذين نقلوها عن العباسيين انظر: M. Zeki Pakalin, CUZI/ 434.

(٣) انظر: تاريخ سلانيكي، ص ١٦١.

(٤) تاريخ سلانيكي، ص ٢٣٥.

(٥) فرهاد باشا: تولى الوزارة العظمى في عهد السلطان مراد الثالث ١٥٩١-١٥٩٢م.

(٦) كاتب فرقة السپاهية: يقوم بنفس الوظائف التي كان يقوم بها كاتب فرقة السلحدارية؛ إلا أنه مقدم عنه في المرتبة. انظر: m. zeki, Pakalin, cuz. III/230

(٧) سنان باشا: تولى منصب الوزير الأعظم خمس مرات في عهد السلطان مراد الثالث.

(٨) حيدر ميرزا: هو ابن حمزة ميرزا ولي عهد إيران، الذي كان على عداء مع العثمانيين، وجرت بينهما حروب ومحاولات للصلح. انظر: تاريخ سلانيكي، ص ٢٢٣

٩٩٨هـ/ ١٥٨٩م لقوله: «في شهر صفر من عام ٩٩٨هـ أعلمني سنان باشا بأنّ ابن شاه العجم قادمٌ مع هيئة سفارته من ديار الشرف إلى الآستانة، وعليك أن تقومَ بمهامّ ضيافته»[١].

وفي عام ٩٩٩هـ/ ١٥٩١م، كلّف الوزير الأعظم فرهاد باشا، سلانيكي بوظيفة روزنامجي[٢] لقول المؤرّخ: «شرعت في هذه الوظيفة التي كلّفني بها الوزيرُ الأعظم «فرهاد باشا».

ولم تكنْ وظيفةُ روزنامجي هي الوظيفةَ الوحيدة التي أسندها «فرهاد باش» إلى سلانيكي؛ بل وجّه إليه- أيضًا- وظيفة محاسبجي الأناضول[٣] التي سرعان ما فقدَها في أعقاب عزل «فرهاد باشا» من منصب الوزارة العظمى في رجب ١٠٠٠هـ/ أبريل ١٥٩٢م؛ لقوله: «وعلى الفور، تمّ عزلي من وظيفة محاسبجي الأناضول[٤] في التاريخ المذكور»[٥].

في ربيع الآخر ١٠٠١هـ/ يناير ١٥٩٣م، عهد الوزير الأعظم «سياوش باشا» إلى سلانيكي مهمّةَ استقبال وضيافة الخان أحمد حاكم كيلان[٦].

---

(١) انظر: تاريخ سلانيكي، ص ٢٦١.

(٢)() روزنامجي، هو الشخص الذي يباشر الأوامر المتعلقة بالخزينة، ويسجل الوارد والصادر منها يوميًا من تحصيلات المقاطعات والأوقاف ورسوم الجزية، ويفحص أعمال الديوان الدفتري، ويقوم بتوزيع الرواتب على مختلف الفرق العسكرية والإدارية في القصر السلطاني. انظر:
M. Zeki Pakalin, CUZ III/ 60.

(٣) انظر: تاريخ سلانيكي، ص٢٥٨.

(٤) محاسبجي الأناضول: يقوم بمراجعة حسابات الأوقاف المتعلقة بالأناضول، وفحص تذاكر براءات الأمراء وإصدارها، وأيضًا مراجعة جميع دفاتر محاسبات ولايات الأناضول ماعدا أرضروم. انظر:
Ismail Hakki uzun Çarsili, Osmanli Devletinin Merkez ve Bahriye, Teskilati, Ankara, 1948, s. 347

(٥) انظر: تاريخ سلانيكي، ص ٣١٢.

(٦) انظر: تاريخ سلانيكي، ص ٣٤٩.

في عام ١٠٠٣هـ/ يناير ١٥٩٥م، كُلِّف سلانيكي بوظيفة «مقابلة جي»[١] للإشراف على توزيع إنعام جلوس السلطان محمد الثالث (١٥٩٥-١٦٠٠م) وأيضًا توزيع رواتب الجُنْد العائدين من حملة الشرق[٢].

في رمضان ١٠٠٤هـ/ إبريل ١٥٩٦م، عهد الوزير الأعظم «داماد إبراهيم باشا»[٣] إلى سلانيكي وظيفة كاتب الروزنامه[٤] السلطانية.

أمّا آخرُ الوظائف التي شغلها مؤرّخُنا مصطفى أفندي سلانيكي، فهي وظيفة محاسب أوقاف السّلاطين[٥] خلال الفترة (١٠٠٤-١٠٠٦هـ/ ١٥٩٦-١٥٩٨) حيث لم يردْ في أثره «تاريخ سلانيكي» ما ينمّ عن شغله لأيّ وظيفة بعد هذا التاريخ.

أمّا عن أثرِ الوظائفِ التي شغلها المؤرّخُ على كتابته التاريخية:

فقد كان لشغلِ مصطفى أفندي سلانيكي للعديد من الوظائف في دواوين الدّولة، ومشاركته في بعضِ الحملات العسكرية مثل حملتي سيكتوار ٩٧٤هـ/ ١٥٦٦م، وكنجه ٩٩٦هـ/ ١٥٨٨م؛ الأثرُ البالغ على كتابته التاريخية، وتسجيله للأحداث التي وقعت أمامَه، أو التي شارك فيها، فقد أتاح له تواجده بالقرب من الجهاز الإداري للدولة؛

---

(١) مقابلة جي: يقوم بتحرير دفاتر رواتب جند العاصمة، وتقييدها بدفاتر الخزينة السلطانية، واستخراج الأموال الخاصة بالرواتب، ثمّ يقوم بإرسال صورة هذا الدفتر إلى قلم الروزنامجية. انظر:
Ismail Hakki uzun Çarsili, s. 341.

(2) Selamiki, Asr: M. Ipsirli, CUZ II/ 443.

(٣) داماد إبراهيم باشا: تولى الوزارة العظمى في أبريل ١٥٩٦/ أكتوبر ١٥٩٦م، وعاد لمركز الدّولة من مصر محملًا بالهدايا بعد أن أجرى فيها الإصلاحات التي كلف بها وتزوج عائشة سلطان ابنة السلطان مراد الثالث. انظر: تاريخ سلانيكي، ص ٢٠٥، ٢٠٦.

(٤) روزنامه: هي الدفاتر المخصصة لتقييد الواردات والمصروفات اليومية أو الوقائع اليومية، ويسمى الشخص المكلف بها روزنامجي. انظر:
Ismail Hakki uzun Çarsili, Gecen Eser, s. 370- 371.

(٥) انظر: Selaniki, Nsr: M. Ipsirli, cuz II/594

الاطّلاع عن قرب عن أحوالها، وتشخيص نقاط الضعف فيها، وهو ما جعله لا يتوقّف عن نقدها وتسجيلها وعرضها بالتفصيل؛ حيث مكّنه تواجدُه بالديوان من الاطّلاع على فرمانات العزل والتعيينات ودفاتر الرؤوس[١]، وأوردَها لنا في أثره. ومن ثمّ يعتبر ما كتبه مرآةً صافية انعكست عليها صورةُ المجتمع العثماني، ممثّلًا في إدارته، وبرزت ملامحه بكلّ دقائقها.

فنطالعُ تأثيرَ مشاركة سلانيكي في الحملات العسكرية على كتابته؛ ممّا دوّنه عن استعدادات الدّولة لحملةِ مالطه عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م، وكيف أنّ أمير أمراء الروميلي آنذاك «شمسي أحمد باشا» قد استعدّ لها بفتح مخازن أسلحته لخدمة، وزيّن جندَه الذين لا يحصى عددُهم بأنواع الزينة والبهاء، واستعرض موكبَه بالعظمة، وخرجَ للحملة في يوم بهيج[٢].

وحينما خرج لحملة سيكتوار بوظيفة سلحدار في معيّة الوزير الأعظم «صوقوللو محمد باشا» عام ٩٧٤هـ/ ١٥٦٦م، انعكست آثارُ مشاهداته لمجريات أحداثِ الحملة على التسجيل الدقيق لوقائعها من خلال المواقف التي عاشها وشاهدها؛ بل وتسجيله للحوار الذي كان يجري بين رجال الدّولة، وكان مستمعًا له، أو طرفًا فيه[٣].

ويظهر أثرُ شغل سلانيكي لوظيفة ناظر مقاطعة الحرمين الشريفين، فيما كتبه عن الإنجازات الثمانية التي تمّت في عهد السلطان سليم الثاني (٩٧٤-٩٨٢هـ/ ١٥٦٦-١٥٧٤م) وهي: فتح اليمن (٩٧٥هـ/ ١٥٦٧م)[٤]، فتح جزيرة قبرص

---

(١) دفاتر الرؤوس: هي الدفاتر التي يسجل فيها معاملات الإنهاء في الخدمة لكافة موظفي الدّولة الذين يتقاضون رواتب عن وظائفهم باستثناء أمير الأمراء وأمير السنجاق، وأصحاب التيمار والزعامات. انظر:

m. zeki pakalin, cuz III/72.

(٢) انظر: تاريخ سلانيكي، ص ١١.

(٣) انظر: المصدر السابق، ص ٥٠.

(٤) انظر: نفس المصدر، ص ٩٥.

(٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م)[١]، بناء مسجد سليم الثاني (٩٨٢هـ/ ١٥٧٤م)[٢]، وترميم مسجد آيا صوفيا[٣]، إنشاء جسرٍ عظيم على منطقة حكمجة كبير[٤]، تأمين ميناء آناوارين وتحصينه[٥]، الاستيلاء على قلعة خلق الواد بتونس[٦]، (٩٨٢هـ/ ١٥٧٤م)، إنشاء ثلاثمائة وخمسين قبّةً حول الكعبة[٧].

ثمّ إنّ تولّيه لوظيفة «دواتدار» من عام ٩٩٢-٩٩٥هـ/ ١٥٨٤-١٥٨٧م) وضع تحتَ يدِه تحرير جميع الأوراق الخاصّة بالوزراء وأعيان الدولة؛ حيث أتاحت له التّواجد في مناسباتٍ سُلطانية عديدة جرتْ أحداثها في مركز الدولة، وقام بتسجيلها تفصيلًا في أثره.

ويمكنُ تقسيمُ كتاباته أثناءَ شغله لوظيفة دواتدار إلى ثلاثة أقسام:

أ. كتابات المناسبات الرّسمية: كتسجيله للهدايا القيّمة التي أحضرها الوزيرُ باشا العائدُ من مصر بعد أنْ أجرى إصلاحات بها[٨]. وقيامه بتقييد الخلع الفاخرة والأمتعة في مناسبة زواج «عائشة سلطان» ابنة «رستم باشا» من «فريدون بك»[٩]، كذلك وصفه الاستعدادات التي أُجريت للاحتفال بختان وليّ العهد السلطان «محمد بن السلطان مراد الثالث»[١٠].

ب. كتابات خاصّة بالعزْل والتّعيينات: كتسجيله لفرمانات العزل والتعيين المتكرّر لأصحاب المناصِب من وزراء وأمراء، والتي عكستْ مظهرًا لعدم الاسْتقرار الإداري في الدّولة والحالة المتردّية خلال هذه الفترة.

---

(١) انظر: نفس المصدر، ص ١٠٠.
(٢) انظر: نفس المصدر، ص ١٢٠.
(٣) انظر: نفس المصدر، ص ١٢١.
(٤) انظر: نفس المصدر، ص ١٢١.
(٥) انظر: نفس المصدر، ص ١٢١.
(٦) انظر: نفس المصدر، ص ١٢٢.
(٧) انظر: نفس المصدر، ص ١١٩ - ١٢٠.
(٨) انظر: المصدر السابق، ص ١٩٥، ١٩٦.
(٩) انظر: المصدر السابق، ص ١٦٣.
(١٠) انظر: المصدر السابق، ص ١٦٤ - ١٦٧.

ج. كتابات خاصّة بأحداث الدّيوان ومركز الدّولة وشاهدها مثل: اجتماعات الدّيوان للتّجهيز لحملة ازدرخان[١]، وتوجّه القائد فرهاد باشا لحملة الشّرق، وعودة سنان باشا من حملة الشرق[٢].

ويسّرت له وظيفةُ كاتب فرقة السلحدارية عام ٩٩٥هـ/ ١٥٨٧م، ثمّ كانت فرقة السپاهية عام ٩٩٦هـ/ ١٥٨٨م؛ الاتّصالَ بالدّيوان، واطّلاعه على العروض المقدمة فيه حولَ شئون الدولة، والإحاطة علمًا بالتطوّرات على الجبهات[٣]، ووضعت أمامَه الوثائق المتعلّقة بفرقتي السلحدارية والسپاهية، وسجّلها تفصيلًا في أثره[٤].

وقد مكّنته مهمّةُ القيام على ضيافة السفير الصفوي «حيدر ميرزا» (٩٩٨-٩٩٩هـ/ ١٥٩٠-١٥٩١م) من تصوير استقباله له وإكرامه إيّاه، فروى الاحتفالاتِ التي أجريت للضّيف[٥]. وأثناء تأديته لهذه المهمّة قدّم لنا صورةً للفساد الإداري مِن خلال تتبّعه لحركات عصيان الانكشارية في مركز الدولة، أو الجلالي في الأناضول[٦].

وأتاحتْ له وظيفتَا «روزنامجه»، و«محاسبجي الأناضول»؛ تسجيلَ الأزمات المالية التي عاشتها الدّولةُ العثمانية بسبب ما حدث من خلل في ميزانيتها نتيجة الحروب والحملاتِ المتعدّدة التي خاضتها[٧]، وعدم قدرتها على الوفاء برواتب الجنْد المتراكمة[٨].

---

(١) انظر: المصدر السابق، ص ٢٣٠.

(٢) انظر: المصدر السابق، ص ١٧٢.

(٣) انظر: المصدر السابق، ص ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٥٢، ٢٥٥.

(٤) انظر: المصدر السابق، ص ٢٤٥.

(٥) انظر: تاريخ سلانيكي، ص ٢٧.

(٦) انظر: المصدر السابق، ص ٢٥٧، ٢٩٤.

(٧) انظر: نفس المصدر، ص ٢٣٠، ٢٣٨.

(٨) انظر:

Tarih-i Selaniki, NSR: m. Ipsirli, 1292/

ومكّنته وظيفةُ «مقابله جي» التي أشرفَ من خلالها على توزيع رواتب الجند، وإنعام الجلوس السلطاني (١٠٠٢-١٠٠٣هـ/١٥٩٣-١٥٩٤م) من مشاهدة حركات عصيانِ أفراد الفرق العسكرية المطالبين بالرواتب، وكذلك إنعامات الجلوس السّلطاني؛ حيث قام بتقييدها بالدّفاتر وتوزيعها عليهم[1].

كذلك أتاحت له وظيفةُ محاسب أوقاف السلاطين (١٠٠٤-١٠٠٦هـ) من معرفة حال أوقاف الدّولة عن قُرب، وتشخيص حالة الضّعف التي تمرّ بها، والفساد المَعْمول به في إدارتها بسبب الرشوة[2].

(١) انظر: مرجع سابق، ج ٢ / ٤٣٣، ٤٧٧، ٥٤٥.

(٢) انظر: نفس المصدر، ج٢/ ٧٤٠.

منهجُ سلانيكي في تدْوين تاريخه:

المنهجُ التّاريخي هو الشّروطُ والقواعد التي يجب مراعاتُها عند معالجة أيّ حدثٍ تاريخي؛ سواء بالكتابة أو بالنّقل والرواية، وهو الطريقة التي يتبعها المؤرخ في تدوين أحداثِ عصره، والشّكل الذي يصوغ فيه مصادره، ويخلع على الباحث صفات العلمية والموضوعية والتكامل والوحدة[١].

وقدِ اسْتخدم مؤرّخُنا سلانيكي المنهجَ الحولي في تدوين تاريخه، فكان يستهلّ الحدثَ بذكر السّنة والشهر الذي وقعَ فيه، كقوله في افتتاحية أثره: «في يوم الاثنين الموافق سلخ محرم الحرام وغرّة صفر الخير الواقع في سنة إحدى وسبعين وتسعمائة من تاريخ الهجرة النبوية للنبي r»[٢].

وأحيانًا كان يذكرُ تاريخَ الحدث بعد انتهائه، كقوله: «حُرّر فرمان مفصّل ومشروحٌ لأمير أمراء مصر «سنان باشا»، ونُبّه وأُكّد عليه في أوائل ذي الحجة سنة ٩٧٤»[٣].

وجاء عرضُه لمُجْريات أحداث الحملات والأخبار الواردة من الحدود والإيالات، ومضمون فرمانات العزل والتّعيين؛ مسلسلًا تسلسلًا زمنيًّا حسب وقوعه. ثمّ أدخل الموضوعات المختلفة بينها مُسْتطردًا بها الحدث الأصلي، كما جاء في قوله: «أرسل أفرادٌ من الجاويشية والسّعاة إلى كلّ ناحيةٍ بالأحكام، نصُّها: «فلتكونوا مستعدّين وجاهزين بالأسلحة اللّازمة لمواجهة العدو، ومهيّئين للتوجّه إلى المكان المكلّفين به، في شهر رجب ٩٧٣هـ. وفي هذه الأثناءِ استدعى حضرة الصدر الأعظم محمد باشا سفيرَ المجر[٤].

---

(١) انظر: محمد صامل السلمي، منهج كتابة التاريخ الإسلامي (د.ت)، دار طيبة للنشر، ص ١.

(٢) انظر: تاريخ سلانيكي، ص٢.

(٣) انظر: المصدر السابق، ص ٨٧.

(٤) انظر: تاريخ سلانيكي، ص ١٥.

وقد خضعَ تتبّع سلانيكي للأحداث تتبّعًا زمنيًّا للعديد من الاعتبارات التي كان له أثرٌ عظيم في تناولِه لهذا المنهج، ومِن هذه الاعتبارات تتبّعه الزمني لعصر كلّ سلطان؛ حيث ذكر الأحداثَ مفصّلةً في عصري مراد الثالث (١٥٧٤- ١٥٩٥م)، ومحمد الثالث (١٥٩٥-١٦٠٠م) في حين أنّها لم ترقَ إلى هذه الدرجة من التّفصيل في عهدي سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦م)، وسليم الثاني (١٥٦٦-١٥٧٤م)، ولم يخلّ بمنهجه هذا تنوّعُ وتداخل ما تناوله من أحداث ووقائع تتّسم بالشّمولية، إذ قدّم لنا صورةً تنبض بالحياةِ لأحوال الدّولة والمجتمع في هذا العصر من كافّة نواحيه السّياسية والعسكرية والإدارية والمالية[1]، ولم يقتصر على جانبٍ بعينه.

وممّا يؤكّد حرصَ سلانيكي على اتّباع المنهج الحولي في سرده للوقائع التّاريخية؛ أنّه على الرغم من تدْوينه الفترة المبكّرة من تاريخه في وقت متأخّر، إلّا أنّه راعى التّسلسلَ الزمني للأحداث، حيث كان يشيرُ إلى تداعيات هذه الأحداث في المستقبل، كتعليقِه على قول الوزير الأعظم «علي باشا» فيما يتعلّق بحادثة السّيْل عام ٩٧١هـ: «في الحقيقة أنّ الوزير بتصريحه هذا يكون قد شخّص المحنةَ التي ستحلّ بالسلطنة بعد ثلاثين عامًا، وأخبر بها»[2].

وقد ألزمَ المنهجُ الحولي سلانيكي فيما كتبه، من وضع عناوينَ مستقلّة لكلّ حدث، سواء كان حدثًا أصليًّا أو حدثًا يستطرد به الحدثَ الأصلي، ممّا يجعل القارئ مُدركًا لتسلسل الحدثِ في حالة استمراره، وانقطاعه في حالة استقرائه، كما جاءَ في سرده لأحداثِ مجيء سفير إيران «طوقماق خان» للآستانة قوله: «مجيء سفير شاه العجم طهماسب حاكم روان ونخجوان طوقماق خان للآستانة»[3]. ثمّ يستطردُ بحدثٍ آخر وهو عودةُ السّلطان مراد خان بالسّعادة من الصيد للمدينة بقوله: «تشريف سلطانِ

(١) انظر: الحالة العامة للدولة العثمانية خلال هذه الفترة، ص١-٣٤ من هذا البحث.

(٢) انظر: تاريخ سلانيكي، ص ٦.

(٣) انظر: تاريخ سلانيكي، ص ١٤٠.

الأرض والزّمان السلطان مراد خان بالسعادة من الصيد للمدينة»[١]. ثمّ يعود ويستكمل الحدثَ الأصلي بقوله: «مجيء السفير المذكور طوقماق خان إلى الدّيوان الهمايوني لتقديم الرسالة والهدايا، وإقامة الضيافة له»[٢].

يتّضح ممّا سبق اتّباعُ سلانيكي للمنهج الحوْلي في تدوينه لأحداث عصره، وجديرٌ بالذّكر أنّ هذا المنهج كان متّبعًا في كتابات المؤرخين السابقين، وسائدًا بينهم، وإن كان بعضهم قد اتّبعَ المنهج الموضوعي[٣].

وعلى أيّة حالٍ فقد تميّز المنهج الحولي عند سلانيكي بعدّة مميّزات، منها:

أ. تقديم وجهة نظره (نقده).

ب. عقده المقارنات التاريخية.

ج. أمانته في نقل الأحداث.

د. مراعاته التسلسل المنطقي للوقائع.

هـ. حرصه على إبراز مراسيم السلطان والدولة في المناسبات المختلفة.

و. خلوّ تاريخه من تراجم الشخصيات.

ز. تأريخه للأحداث الهامّة بحساب الجمل.

أ. تقديم وجهة نظره (نقده):

تميّز سلانيكي في طريقةِ عرضِه للأحداث بأنّه لم يقف منها موقفًا سلبيًّا، وإنما أدْلى فيها برأيه، وقدّم وجهةَ نظره وتجاوزَ بها إلى النقد. وقد أثّرت على المؤرخ في نهجِ هذا الاتجاه عدّةُ عوامل، أهمّها:

---

(١) انظر: تاريخ سلانيكي، ص ١٤١.

(٢) انظر: تاريخ سلانيكي، ص ١٤٢.

(٣) فيما يتعلق بالمنهج الموضوعي في تدوين التاريخ. انظر: عبدالعليم خضر، المسلمون وكتابة التاريخ، المعهد العالي للفكر الإسلامي، ١٩٩٣م، ص ٩٠، ٩١.

١. اضطراب أحوال الدّولة في الفترة التي عاصرها المؤرخ وتأثيرها العميق عليه:

لقد أحزن سلانيكي التّدهورُ المتزايد في مؤسّسات الدّولة خلال عصر مراد الثّالث (١٥٧٤-١٥٩٥م) والذي تفاقمت آثاره في عصر محمد الثالث (١٥٩٥- ١٦٠٠م)، وذلك بعد أن عاصر فترة مزدهرة أواخر عصر القانوني (١٥٦٣-١٥٦٦م)، ومستقرّة نوعًا خلال عصر سليم الثاني (١٥٦٦-١٥٧٤م)، فتتبع المؤرّخُ الأحداثَ في هذه الفترة، وعرض تقييمًا لها، وأدلى فيها بوجهة نظره. ممّا عكس حالة الدّولة المضطربة والإرهاصات التي انتابتها، والتي كانت بداية تشير إلى عدم بقائها، فمثلًا تتبّع سلانيكي حركاتِ العصيان التي قام بها أفراد البلوكات، والتي كانت سببًا لنشوء الضّعف في المؤسسة العسكرية، كذلك نقد علماء الدين والقانون لأنّهم تركوا الأمرَ بالمعروف، وأزْكوا نارَ الفتنة بتحريضهم على ذلك. يُضاف إلى ما سبق أنّ سلانيكي أبرز عيبًا خطيرًا بدأ ينتشر في مؤسسات الدولة؛ ألَا وهو الرّشوة التي كانت سببًا مهمًّا من أسباب ضعف الدّولة وعدم بقائها. ثمّ إن سلانيكي سلّط الضّوءَ على الحكم، وأوْضح وصولَ غير المؤهلين له، وهُمُ الذين انْشغلوا عنه باتّباع أهوائهم.

وعرضَ لحالة الجند وعدم رغبتهم في نيْل ثواب الشهادة؛ بالإضافة إلى أنّ الحروبَ الطويلة في الشرقِ أرهقت كاهلَ الخزينة بالأموال المتزايدة؛ ممّا أدّى إلى خرابها.

٢. تجاربُ سلانيكي الشخصية في دواوين الدولة:

كان عزلُ سلانيكي المتكرّر من الوظائف التي شغلها، والاتهامات والافتراءات التي قُذف بها؛ سببًا لجعْله في حالة قلقٍ مستمرّة، وخيبة أملٍ تجاه مستقبل الدّولة العُثمانية، وقد أثّرت تجاربه هذه في طريقةِ تفكيره، ونظرته للوقائع من حوله.

وهكذا كان تقديمُ سلانيكي لوجهةِ نظره ونقده يستندُ على خبرته كرجلٍ إداري ملمٍّ بمُجريات الأمور، ومشاركٍ في أحداث عصره، فكان دائمًا يربط بين مظاهر حالة الفساد وأسبابها، سائلًا الله أنْ يُحسن أحوالَ الحكام والرعية والمسلمين، يؤكد ذلك تلك النماذجُ النقدية التي ساقها في تاريخه تحت عناوين: «حسب أحوال العصر»،

أو «الشكوى من أحوال العصر المتقلّب»، كقوله تحت عنوان: «الشكوى من أحوال العصر»: «في الحقيقة لمّا غابت الحميّةُ في جند الإسلام، وحلّ الضعف بالإسلام في نفوسهم، وصار أكثرُهم طالبين حطّام الدنيا؛ تصرّفوا ناقضين العهد لأقصى درجةٍ بشأن شرف الدين، ولم يتجنّبوا ارتكاب الحرام قطعًا، وأصبحوا مُستغرقين في المعاصي، وربّما صاروا يرتكبون العصيان المطلق، واختاروا المُنكرات، وتركوا الأمرَ بالمعروف. خلاصةُ القول إنّ سبب هذه الأفعال أنّ حكّامنا لم يكونوا على عدلٍ وإنصاف، ولمّا كان بابُ الرّشوة مفتوحًا دخل من ذلك الباب سواء غير ذوي الاستحقاق، أو الذين لا يعرفون الحقّ، وجاء الأداني والأراذل لمقام الحكومة، ونال الجهلةُ وعديمو الأخلاق الاعتبارَ، وأراقوا دمَ الكبد سُدى، وصار الذين حصّلوا درجةَ الكمال والمعرفة بنور أعينهم، والأشخاص ذوو الدراية صاروا أذلّاء العصر، وتزايد تدريجيًّا التغييرُ والتّبديل في سلك العلماء، أمّا علماءُ الدين الذين هُم زمرةُ أهل اليقين؛ فصار الأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر لديهم واحدًا، وراحَ الرعايا يقلّدون العلماءَ والمشايخ، ولما يحلّ التّغيير بهؤلاء؛ فهذا يكون علامة مِن علامات يوم القيامة»(١).

ب. عقدُه المقارنات التاريخية:

ومِن خصائص منهج سلانيكي الحولي الذي اتّبعه في تدوين أحداث تاريخه تلك المقارناتُ التي عقدها بين حادثةٍ أو حالة ما، يؤرّخ لها في ذلك الوقت، وما كانت عليه في الماضي. وقد أبرزت هذه المقارناتُ الوضعَ الذي آلت إليه حالةُ الدّولة في عصر المؤرّخ، من ذلك مقارنته بين عادات احتفالات المناسبات السّلطانية في الماضي، وبيْن هذه العادات في عصره جاء فيها: «لم تشبه الاجتماعاتِ التي حدثت سابقًا في عصور سلاطين آل عثمان- رحمهم الله- اجتماعات هذا الختان قطعًا، فكان السّلاطين السابقون يجلسون إلى صدر السعادة بالذّات، وكان جميعُ أركان الدّولة وعلماءُ الدين يعقدون مناقشاتٍ علميةً، ومجلس عالٍ، حيث كانت الأوامرُ تصدرُ بالتّنبيه على

(١) انظر: تاريخ سلانيكي، ص ١١١.

العلماء، نصُّها: «فلتفسروا الآياتِ القرآنية من القرآن الكريم والفرقان العظيم». ولكنْ في هذا الاحتفال لم يستطع كلّ مِن خواجه أفندي ومفتي الأنام «معلول زاده أفندي» وآخرون؛ الاتّفاقَ والاتحاد في الرّأي، وسقطوا في مشكلةِ الوقوف والجلوس، فكان عدمُ صفاء الخاطر مانعًا قويًّا لتكرارِ ما كان يحدُث من علماء الدين من قبلُ في مثل هذه المناسبات»[1].

ج. أمانتُه في نقل الأحداث:

تحرّى سلانيكي الدقّةَ في نقله وتسجيله للأحداث، ولعلّ ذلك راجع إلى أنه لم يكنْ معرّضًا لأيّ ضغط، وكان يكتبُ بحريّة، غير متأثّر بتيار الدولة، ولا يميل لطرفٍ على حساب آخر، ومِن هناك كان يعرض وجهةَ نظره بحيادٍ وصدق، وكان حبُّه للدّولة وحرصُه على سلامتها سببًا لنقده أوضاعها آملًا إصلاحها، فلم يُسلم بالوضع السيّئ الذي آلتْ إليه، ولكن نقَدَه، ولم يكنْ في ذلك مرائيًا. كقوله: «جاء الجهلاءُ غيرُ المؤهّلين وغير اللائقين، وجلسوا على صدر الحكومة، وظهر الظلم والظّلماتُ في الدنيا، وتفشّتِ الرّشوة بين الحكام علانية، وأصبح محالًا مباشرة أيّ مصلحةٍ دونَ رشوة. اللّهمّ احْفظنا»[2].

ولّما كانت الأمانةُ صفةً من صفاتِ وسمات شخصيته، فقد لعبت دورًا في عرض وقائع أثره التي اسْتقاها من مصادرَ أمينة، فعندما سمع ونقل عن مصدر يذكر أنَّه سمعَ عن فلان[3]، ولّما شارك يوردُ ما يدلّ على مشاركته[4]، وفي المشاهدة يقول: شاهدت[5].

---

(١) انظر: تاريخ سلانيكي، ص ٦، ٣٣٩.

(٢) انظر:

Tarih-i Selaniki, NSR: m. Ipsirli, cuz, 1356/

(٣) انظر: تاريخ سلانيكي، ص ٦٣.

(٤) انظر: المصدر السابق، ص ٥٩.

(٥) انظر: نفس المصدر، ص ٥٩.

وتتجلّى دقّته وأمانته- أيضًا- في عدم تسليمه بأيّ خبر؛ إنّما كان يناقش الأخبار، ويتحرّى دقّتَها، وعندما يضطرّ إلى إيراد أخبار يشكّ في مصدرها؛ يضع كلمة «غالبًا»، أو «الله أعلم»، أو «ربما»[١].

د. مراعاتُه التّسلسل المنطقي للوقائع:

لقد عاشَ سلانيكي أحداثَ عصره التي رواها، وكان مطّلعًا على مجرياتها، وسرد دقائقِ وقائعها، فقدّم لنا نموذجًا فريدًا لم نجدْ فيه تقديم حدثٍ عن آخر أو تأخيره. فقد راعى مؤرّخُنا التّسلسلَ المنطقي لما يدوّن من وقائع، فعندَ عرضه لحملةٍ ما يقدّم بأسبابها وملابساتها، ثمّ الإعداد والخروج لها، ويتتبّع أحداثها حسب وقوعها دونَ خللٍ أو تداخل، حتّى العودة لمركز الدولة. يدلّ على ذلك عرضه لحملة سيكتوار منذُ الإعداد لها والخروج إليها وأحداث سيْرها حتى عودتها للآستانة[٢].

هـ. حرصُه على إبراز مراسيم السّلطان والدولة في المناسبات المختلفة:

حرصَ سلانيكي على إبراز مراسيم العزاء[٣]، وتولية السلطان[٤]، وخروجه في المواكب والحملات[٥]، وكذلك أطْلعنا على مراسيم الدّولة في المناسبات المختلفة، كالديوان[٦]، واستقبال السفراء[٧]، والاحتفالات السلطانية[٨].

وأيضًا يتّضح إبرازُه لهذه المراسيم، مع ذكر عبارة «بموجب القانون»[٩]، أو «بناءً على العادات»[١٠]؛ ممّا يبيّن حرصَه على عرض التشكيلات الإدارية للدولة العثمانية.

(١) انظر: نفس المصدر، ص ٣٣، ٤١، ١٠٧، ٣٤٨.
(٢) انظر: تاريخ سلانيكي، ص ١٨ - ٥٩.
(٣) انظر: المصدر السابق، ص ٦٦، ٦٧، ١٢٨.
(٤) انظر: نفس المصدر، ص ٨١، ١٢٦، ١٢٧.
(٥) انظر: نفس المصدر، ص ١٨، ١٩.
(٦) انظر: نفس المصدر، ص ١٢٧.
(٧) انظر: نفس المصدر، ص ٨٩ - ٩٠.
(٨) انظر: نفس المصدر، ص ١٦٤-١٦٨.
(٩) انظر: نفس المصدر، ص ٦١.
(١٠) انظر: نفس المصدر، ص ٦٢.

و. خلوّ تاريخه من تراجم الشخصيات:

خلا أثرُ المؤلِّفِ من إيراد تراجمَ للأشخاص كما نجدُ عند غيره من المؤرخين، ولعلّ ذلك راجعٌ إلى كونه مهتمًا بإظهارِ الحالة العامة للدولة، وأنّه لو كتب تراجم لهؤلاء لا يضيف جديدًا؛ بدليل أنّه عندما كان يرى أنّ تناوله لسيرة الأشخاص سيضيف جديدًا كان يعرض لها من خلال الأحداث كالسلاطين[١]، والنشانجي محمد باشا[٢]، وفريدون بك[٣].

ز. تأريخُ سلانيكي للأحداث الهامة بحساب الجُمل:

لقد حرصَ المؤرّخُ على تأريخ بعض الأحداث الهامّة بحساب الجُمل، أو التّأريخ الشعري؛ أي بوضع تاريخ لكلّ حادثة في آخر سطر من القصيدة، واصطلحَ على تسميته بالجُمل؛ لأنّ محورَهُ حروفُ الهجاء بترتيب: (أبجد هوز حطّي كلمن سعفص قرشت ثخذ ضظغ)، وتحتسب حروفه من الألف إلى الطاء للآحاد التّسعة، ومن الياء المثنّاة إلى الصّاد للعشرات، وهي تسعة حروف على التّرتيب، ومن الكاف إلى الظّاء لآحاد المئات التسع أيضًا. وجعل حرف الغين للألفِ كما هو واضح في الجدول التالي[٤]:

أ–١	ب–٢	ج–٣	د–٤	هـ–٥	و–٦	ز–٧
ح–٨	ط–٩	ي–١٠	ك–٢٠	ل–٣٠	م–٤٠	ن–٥٠
س–٦٠	ع–٧٠	ف–٨٠	ص–٩٠	ق–١٠٠	ر–٢٠٠	ش–٣٠٠
ت–٤٠٠	ث–٥٠٠	خ–٦٠٠	ذ–٧٠٠	ض–٨٠٠	ظ–٩٠٠	غ–١٠٠٠

(١) انظر: نفس المصدر، ص ١٢٥.

(٢) انظر: نفس المصدر، ص ١٦١.

(٣) انظر: نفس المصدر، ص ١٦٢، ١٧٢.

(٤) انظر: محمد بن فهد القعر، التأريخ بحساب الجمل، مجلة الدارة، العدد الرابع، ١٤٢٦هـ، ص ٤٠ – ٤٦.

كما جاء في قوله: «ارتحال ايلدي قطبُ العلماء»[1] في مناسبة وفاة شيخ الإسلام يحيى أفندي. وقوله: «حمد لله ينه آلندى حصارى قبرسك»[2] في مناسبة الاسْتيلاء على جزيرة قبرص، وقوله: «شمشير إسلام»[3] عند اعتلاء السلطان «مراد الثالث» العرش.

وهكذا يتّضح لنا أنّ سلانيكي اتّبع في عرضه لأحداث أثره المنهجَ الحولي، ولم يخلّ بمنهجه هذا ما أورده من تفصيل أو استطراد، وكان لرغبته في التأريخ لأحداث الدّولة العثمانية من خلال موقعه في جهازها الإداري؛ دورٌ عظيم في اتّخاذه الطّريقة الحوليّة في التدوين. فأحيانًا كان يسجّل الأحداثَ التي يشاهدها بنفسه، أو يسمعها، وأحيانًا أخرى كان يقدّم لنا مفهومَ ما يقع تحت يدِه من وثائق مكتوبة. وكان في تتبّعه لهذه الأحداث السياسية والعسكرية والاجتماعية والإدارية خلالَ هذه الفترة؛ حريصًا على التّرتيب الزمني لهذه الأحداث، وتحري صدق الخبر الذي يورِدُه، ونقد ما يستدعي النقد.

ومهْما يكنْ من أمر، فقد استطاع سلانيكي تطبيقَ المنهج الحولي دون أيّ خللٍ في أثره؛ حيث حرصَ على إيراد الأحداث المتعاقبة والمتزامنة في تسلسل زمنيّ منْطقيّ. فعندما يوردُ حدثًا ثمّ يتزامنُ هذا الحدث مع حدثٍ آخر، يبدأ وقائع الحدثِ الثّاني بعبارة: «وفي هذه الأثناء»، ثمّ يعود مرّةً ثانية لاستكمال الحدث الأول زمنيًّا. وقد برزَ هذا المنهجُ الحولي في تتبّع المؤرّخ للأحداث في مركز الدولة، وعلى جبهات القتال خارجها في نفس التوقيت، وبشكلٍ مُتتالٍ.

---

(١) ترجمتها: رحل قطب العلماء، وتساوي بحساب الجمل تاريخ سنة ٩٧٨هـ. انظر: تاريخ سلانيكي، ص ١٠٤.

(٢) ترجمتها: حمدًا لله تمّ الاستيلاء على جزيرة قبرص، وتساوي بحساب الجمل تاريخ سنة ٩٨٧هـ. انظر: المصدر السابق، ص ١٠٢.

(٣) ترجمتها: سيف الإسلام، وتساوي بحساب الجمل سنة ٩٨٢هـ. انظر: تاريخ سلانيكي، ص ١٢٩.

فمثلًا لم يذكرِ الأحداث بشكلٍ سنويّ فقط، وإنّما إذا تيسّر له تاريخ الشهر أو اليوم ذكَرَه[1]. كما أنّه أحيانًا ما كان يذكر «أوائل»[2]، أو «أواسط»[3]، أو «أواخر الشهر»[4].

ومِن ناحيةٍ أخرى، إذا عجزَ عن تحديد التاريخ الشهري أو اليومي يذكر عبارة «بعده»[5]، أو «قبل مرور فترة طويلة»[6].

ويُمكننا وضعُ نموذج لهذا المنهج الحولي من خلال أحد العصور التي أوردها المؤرّخُ في أثره، ولنأخذ على سبيل المثال عصر «سليم الثاني»؛ حيث بدأ سلانيكي وقائعَ هذا العصر بإيراد العديدِ من الأحداث عام ٩٧٤هـ تحت عنوان: «حكايت»[7] دون أن يذكرَ لها تاريخًا محددًا نظرًا لأنّها كانت متزامنة في أحيان، ومتتابعة في أحيان أخرى.

كما أنّه مِن الملاحَظ أنّه تناول بعضَ الأحداث مقدّمًا إيّاها بكلمة «قصة»[8]، وغالبًا كان يتتبّع في أحداثها الترتيبَ الزمني.

وفي نهايةِ العصر لخّص سلانيكي أهمّ إنجازات «سليم الثاني» بشكل زمني؛ حتّى وصل لنهاية هذه الأحداث بفتح تونس عام ٩٨٢هـ/ ١٥٧٤م.

وبذلك وفّقَ سلانيكي في عرضِ وقائع وأحداث تاريخه متتبّعًا المنهج الحولي.

---

(١) انظر: تاريخ سلانيكي، ص ١٠٢، ١٠٤، ١٢٣.

(٢) انظر: المصدر السابق، ص ٨٧.

(٣) انظر: نفس المصدر، ص ١٠٧.

(٤) انظر: نفس المصدر، ص ١٠٠.

(٥) انظر: نفس المصدر، ص ١٠٢.

(٦) انظر: نفس المصدر، ص ١٠٩.

(٧) انظر: نفس المصدر، ص ٥٩ – ٨٧.

(٨) انظر: نفس المصدر، ص ٩٧ – ١٠٤.

السّماتُ الفنيّة لأسلوب سلانيكي في تدوين تاريخه:

الأسلوبُ هو نسقُ الكلام الذي يعبّر عن إحساس الكاتب وفكره، والسمات الإبداعية لكتابته، وقدرته على التّأثير في المتلقي. ويظهر في استخدام الكاتب للأنماطِ والتراكيب اللغوية، وانتقائه الألفاظ والكلمات، وطولِ وقصر الجمل، والبساطة أو التكلّف، ويتّضح- أيضًا- من استخدامه للدلالات والإيحاءات والتّعبيرات(١).

وقبلَ الحديث عن أسلوب المؤلّف في الكتابة؛ يجدرُ بنا الإشارة إلى سمات النّثر التاريخي(٢) في النّصف الثاني من القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، وهي:

١. الازدحامُ بالبديع والصّور البيانية من استعارات وتشبيهات وسجع وكناية.

٢. استخدامُ كلمات وتراكيب اللغة العربية والفارسية بكثرة.

٣. الميلُ إلى التكلّف والإنشاء وتنميق العبارة، واختيار اللفظ.

٤. تداخلُ الجُملِ مع بعضها البعض.

أمّا عن أسلوبِ مؤرّخنا في كتابة النّثر التاريخي كواحدٍ من كتّاب هذه الفترة، فيمكنُ تقسيمه إلى ثلاثة موضوعات:

أوّلًا: السّمات الفنية لأسلوب سلانيكي في الكتابة.

ثانيًا: قواعد اللغة، ومدى التزامه بها.

ثالثًا: الجُملة كنموذجٍ متكامل لأسلوب سلانيكي.

---

(١) انظر: رجاء عيد، البحث الأسلوبي، الإسكندرية، ١٩٩٣م، ص ٢٣.

(2) Nihad Sami Banarli, Turk Edebiyati Tarihi, Istanbul 1971, CUZ/ 604.

أوّلًا: السّماتُ الفنيّة لأسلوب سلانيكي في الكتابة:

يلمسُ القارئ لتاريخ سلانيكي أنّ أسلوبه في الكتابة قد تميز بالخصائص التالية:

١. السّهولة والوضوح.

٢. استخدام الصور البيانية.

٣. ذكر الاستشهادات المختلفة.

٤. إيراد الأقوال على ألسنة المتحدثين.

٥. الإكثار من استخدام التراكيب العربية والفارسية.

٦. الإكثار من استخدام أداة الربط (كه)، وأداة الربط (ديو) بمعنى وصفي.

٧. ذكر أحداث الماضي بصيغة الحاضر.

٨. استخدام الصيغة العطفيّة (يب) أو (وب) مضافًا إليها اللاحقة الخبرية (در).

وتظهرُ السّهولة والوضوحُ غالبة على أسلوب كتابة سلانيكي؛ حيث تتضح من خلال استخدامه للجُمل القصيرة التي تتيح للقارئ سرعةَ تتبّع الحدث وإدراكه. وهي إمّا جُملٌ قصيرة حوارية أوردَها المؤلّفُ على لسان متحدّثيها، أو جُملٌ قصيرة قصدَ بها تقييمَ حدثٍ معيّن كقوله:

«في الحقيقة، ليس هناك فضيلةٌ ذاتُ أجرٍ وثواب عظيم كفضيلة توفير الماء، لكنْ بجريان هذا الماء أُقيم سبيلٌ في كلّ مكان باستّانبول، وجاءت ممالك العرب والعجم، وكانت سببًا لكثرةِ وازدحام الناس، وأصبح إيصالُ الذّخائر والمأكولات لولاية استانبول عسيرًا، وأصبح مؤكّدًا وقوع العساكر المنصورة في ضائقة»[1].

وقد اتّسمَ أسلوبُ سلانيكي- كغيره من كتّاب النثر في هذه الفترة- بالإكثار من استخدامِ الصّور البيانية كالاستعارات والتشبيهات والسجع والكناية،

(١) انظر: تاريخ سلانيكي، ص ٦.

ولهذه الصور البلاغيّة أثرُها في تصوير إحساس الكاتب، وإخراج الشيء الغامض في صورة حسيّة، ومخاطبتها للنّزعة الوجدانية لدى القارئ، وهو ما يضفي على الأسلوب رونقًا وجمالًا، وقد أورد الكاتبُ كثيرًا من الاستعارات كقوله: «لم تكن عينُ الأيام قد رأتْ هذه الهزيمة التي لحقتْ بالعدو»[1] في وصفه للانتصار الذي حقّقه العثمانيون على الصفويّين في شيروان عام ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م، وهي استعارة مكنية؛ حيث شبّه الأيام بإنسانٍ له أعينٌ يشاهد بها هذا النّصر، وأتى بالمشبّه وحذف المشبّه به، وجاء بشيء من لوازمِه وهو العين.

واستخدمَ الكاتبُ التّشبيهات كقوله في وصف أمير أمراء الروميلي «أحمد باشا»: «أسد ساحةِ الحرب، وغضنفر عرصةِ القتال، وفارس الميدانِ الفصيح»[2].

وذكر سلانيكي الكناياتِ في مواضعَ كثيرة من أثره، منها قوله: «هؤلاء الذين كانوا رياحًا عاتية، كانوا يعيشون غمّ غدِهم بالشّرب والطرب كالصبية؛ بينما كان الشّيوخ على توبة....»[3] في وصف مُرتادي أماكن السّكْر في عصر سليم الثّاني، حيث رمز بكلمة الصّبية كنايةً عن الجُند والشعب، وبكلمة الكبار كناية عن رجال الدولة.

واستخدمَ الكاتبُ السّجع (التجنيس المحقّق) وهو ما اتّفقت فيه الأحرف الأخيرة في الوزن في مواضعَ كثيرة، كقوله: «مرور أيام وكرور أعوام»[4]، وقوله: «آلات حرب وقتال وأدوات جنك وجدال»[5].

يتّضح من الأمثلة السّابقة دورُ الصّور البيانية في إكساب الأسلوب جمالًا وبلاغةً وموسيقى لما تبرزُه من أشياءَ معنويّةٍ في صور حسيّةٍ تؤثّر في وجدان المتلقّي.

---

(١) انظر: المصدر السابق، ص ١٥١.

(٢) انظر: نفس المصدر، ص ٩١.

(٣) انظر: نفس المصدر، ص ٨٢، ٨٣.

(٤) انظر: تاريخ سلانيكي، ص ٢٣٨.

(٥) انظر: المصدر السابق، ص ١١٩.

وأمّا ما يتعلّق بالاستشهادات المُختلفة، فقد اهتمّ المؤرّخُ كغيره من مؤرخي تلك الفترةِ بإيراد الاسْتشهادات التي كان لها دورُها في توثيق المعنى الذي يريده وتقريبه للقارئ، فاستشهدَ سلانيكي بآياتِ القرآن الكريم والأحاديث النبوية باعتبارهما مصدريْن أساسيّين للتشريع الإسلامي كقوله: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾[1]، وقوله أيضًا: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾[2].

أيضًا استشهد بالأحاديثِ النّبوية في قوله: «عدلُ ساعةٍ خيرٌ من عبادة سبعين سنة»[3]، وقوله: «خيرُ النّاس أنفعُهُم للناس»[4].

كذلك استشهدَ الكاتبُ بالشّعْر في قوله عند حديثه عن توجّه السلطان سليمان القانوني على رأس جيشٍ قاصدًا فتحَ بلاد المجر عام ٩٧٤هـ/ ١٥٦٦م:

جلسَ السّلطانُ كالجبل على ظهر الجواد   جلس كالجبل المُحاط بالرياح العاتية[5]

كذلك يمتلئ الكتابُ بالمصاريع الشّعرية من تركية وفارسية، وعربية؛ تأتي كتعقيب للحدث أو تكملةً له، ويكتب عند استشهاده بالمصرع كلمة «مصرع»، أو حرف الـ «ع»؛ كقوله: « ليس ممكنًا بيان المعاني التي تشاهد»[6].

إلى جانب ذلك استشهد المؤلفُ بالكثير من الأمثال والأقوال المأثورة، وجاء بها للموعظةِ والحكمة، وتأكيد المعنى لدى القارئ؛ كقوله: «لسانُ الشعراء خزينة الله في الأرض»[7]، وقوله: «الولدُ سرّ أبيه»[8].

---

(١) كذلك انظر: نفس المصدر، ص٨٦، والآية ٥٩ من سورة النساء.

(٢) كذلك انظر: نفس المصدر ، ص ٤٩، والآية ٢ من سورة يوسف.

(٣) أخرجه الديلمي مسند الفردوسي، ج ٢ / ٥٢٣ رقم الحديث ٤١٣٥.

(٤) عزاه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين، ج ٦/ ١٧٣ للبيهقي شعب الإيمان.

(٥) انظر: تاريخ سلانيكي، ص ١٨.

(٦) انظر: المصدر السابق، ص ٩٠.

(٧) انظر: نفس المصدر، ص ١٥٥.

(٨) انظر: نفس المصدر ، ص ٩٧.

أمّا استخدامُ الكلمات والتّراكيب العربية والفارسية، خاصّة بعد قرنٍ من دخول الألفاظِ والتّراكيب العربية والفارسية للغة العثمانية كنموذج لمراحل تطور اللغة التّركيةِ العثمانية، فقد استخدمها سلانيكي بكثرةٍ في أثره حتّى أنّه أحيانًا ما يوردُ جُمَلًا كاملةً باللّغة العربية؛ كقوله: «يا إلهي ويا صمدي! من عندك مددي، وعليك مُعْتمدي، يا عالِم السّر والخفيّات، يا فتّاح القلوب ويا كشّاف الكروب، ويا علّام الغيوب، ويا ستّار العيوب! اللّهم انصرِ الإسلامَ وأيّد المسلمين، واخذل مَن خذل الدّين، وانصر مَن نصر الدين»[1].

وهذا يدلّ على مدى درايته باللّغة العربية، وهي سمةٌ من سمات كتابة النثر التّاريخي في تلك الفترة.

ثانيًا: قواعدُ اللّغة ومدى التزام سلانيكي بها:

استخدم الكاتبُ جميعَ أشكال قواعد اللغة التركية العثمانية، فقد استخدم كلّ أنواع الجُمَل؛ إلّا أنّه أكثرَ مِن استخدامِ الجُملة البسيطة، الجملة الترتيبية، الجملة المركبة، الجملة المعقدة:

أ) الجملةُ البسيطة (القصيرة)[2]:

استخدمَ المؤلّفُ الجُملةَ البسيطة في أثره بكثرةٍ في سياق ما أورده من حوار على ألسنةِ المتحدّثين، والنموذج التّالي يبيّن كيفية استخدام المؤرخ للجمل البسيطة من خلال شكل الجُملة المتتابعة، كقوله في وصف أحداث حملة سيكتوار: «وبدأ جندُ الإسلام يسلكون الطريقَ من ناحية الحيّ الواقع خارج أسوار المدينة، وأعدّ جند الأناضول تحصيناتهم حتّى ملئوا بها الأرض، ونصبوا مدافعهم صوب القلعة الدّاخلية وأبراجها، فهدموها، وفي الليلة التّالية ألقوا كراتٍ من اللهب على حيّ الأعداء الملاعين، فهرَبَ الموجودون في داخل الحي من ناحية الجسر، ودخلوا القلعة»[3].

---

(١) انظر: تاريخ سلانيكي، ص ٥٢، ٥٣، ١١٢.

(٢) للتفصيل انظر تقسيم الجملة:

Muherrem Ergin: Turk Dil Bilgisi, Istanbul, 1977, s. 289.

(٣) انظر: تاريخ سلانيكي، ص ٣٨.

فتنوّع شكلِ الجُملة ما بين فعليّة واسمية أدّى لجعل أسلوب الكاتب يتّسم بالحيويّة، وساعد ذلك على جذبِ انتباه القارئ بصفة مستمرّة.

ب) الجُملة الترتيبيّة:

يغلبُ على أثرِ الكاتب الجُملةُ التّرتيبية؛ نظرًا لكونه نثرًا تاريخيًّا، وهي عبارة عن جُملٍ بسيطة تنتهي كلٌّ منها بصيغة العطف (يب) أو (وب). نذكر على سبيل المثال قولَه أثناءَ سردِه لأحداث توجّه الأسطول العثماني صوْبَ جزيرة قبرص لفتحها عام ٩٧٨هـ: «بعد مرور عشرين يومًا، أدّى الوزير «لالا مصطفى باشا» صلاةَ عيد ذي الحجة في جامع بشكطاش، وذبح جندُ الإسلام أضحياتهم الواجبة حسبةً لله، وكان جميعُ أبطال الحرب والقتال مستعدّين ومجهزين بوسائل المعركة والقتال؛ حيث أبحرتْ مائة وعشرون سفينةً من سفن الأسطول، وهي مملوءة بالأسلحة والمهمّات الحربية، وتوادع عسكرُ الإسلام مع أقربائهم»[1].

ج) الجُملة المركّبة:

يلاحَظ أنّ أسلوب سلانيكي يحتوي على مختلف أشكال الجملة المركبة (الجملة المتداخلة، الجملة ذات أداة الربط (كه)، الجملة الشرطية).

د) الجُملة المعقّدة:

استخدمَ المؤرّخُ الجُملة المعقّدة التي تحتوي على صيغ الصلة، وأدوات الربط وصيغ زمنية، وأقوالٍ وألوان بيانية... كما جاء في قوله: «في اليوم السابع عشر من حملة سيكتوار، كان صاحبُ العظمة السلطان حامي العالم؛ عاقدًا النية والعزيمة لتفقّد كافّة الفيضانات، وما تمّ بناءً على الوجه المذكور؛ بحكمة الله، في تلك الليلة قام «علي برتوك» المعهود إليه بموجب الفرمان السلطاني؛ الإشراف على تشييد السّفينة التي أمر السلطان ببنائها؛ قام بإمرار سفن الأسطول السلطاني من المكان الذي تلتقي فيه الأنهارُ بالبحر الأسود، والمعروف باسم «تيمور قبو»، حيث حمل معها القارب

(١) انظر: تاريخ سلانيكي، ص ١٠١.

السّلطاني المذهب، والذي كان يركبه حضرةُ السلطان حامي العالم في استانبول. وفي تلك الليلةِ السعيدة أحدثت أصداءُ المدافع والبنادق ضوضاءَ في الآفاق، وأوجعت أصواتها الجبالَ والصّحاري، فردّدت صدى الصوت»[١].

فهذا النّموذجُ من الجُملة المعقدة أبرزَ قدرةَ الكاتب على استخدام أنماط من الجُمل بشكلٍ متداخل، وبيّنت تمكّنه من ناصية اللغة في عرض الأحداث، ومسايرته لشكل الكتابة وسماتها الأسلوبية في هذه الفترة من القرن السادس عشر الميلادي.

(١) انظر: تاريخ سلانيكي، ص ٢٩.

مكانةُ سلانيكي بين المؤرّخين العثمانيّين:

قبلَ الحديث عن مكانة سلانيكي بين المؤرّخين العثمانيّين معاصريه، تجدر بنا الإشارةُ إلى نشأةِ حركة التّأريخ لدى العثمانيين وتطورها:

١) المصادرُ الأولى لكتابة التاريخ العثماني:

تحدّث كثيرٌ من الباحثين عنْ نشأة كتابة التّاريخ العثماني، وذكروا أن هذه النّشأة لم تكنْ واضحةً حتّى العقد الأوّل من القرن الخامس عشر الميلادي؛ بل إن المؤرّخين العثمانيّين قد اعتمدوا في تدْوينهم لأحداث تاريخهم، إمّا على الآثار التّاريخية التي تناولتْ تاريخ الأناضول، وحرّرها مؤرّخو الإمارات التركمانية في الأناضول، وإمّا على ما دوّنه المؤرّخون العرب في حوليّاتهم.

٢)الكتاباتُ الأولى للتّاريخ العثماني:

لعلّ أوّلَ أثرٍ تحدّث عن وقائع أحداث العثمانيين، وصلَ لأيدينا حتى اليوم منظومةٌ للشّاعرِ «أحمدي» مُعَنونة بـ «داستان تواريخ ملوك آل عثمان»، وهي الجزء الذي ذيّل به منظومة «اسكندرنامه»، وكتبَ باللغة التركية الأناضولية[1]، وتأتي أهميةُ هذه المنظومة في أنّها توضّح فتراتٍ مُبهمةً من التاريخ العثماني.

وتأتي بعد ذلك عدّةُ منظومات عُرفت باسم «تقاويم السراي»، وهي ثلاثة تقاويم؛ الأوّل منها يعود لعام ٨٤٨هـ/ ١٤٤٤م، والثاني لعام ٨٥٠هـ/ ١٤٤٦م، والثالث لعام ٨٥٦هـ/ ١٤٥٢م، وقام الباحث «نهال آتـز» بنشرها في استانبول عام ١٩٦١م.

---

(١) اللغة التركية الأناضولية: هي اللغة التي كتبت بأحرف عربية، وظهرت في الأناضول لأول مرة خلال القرن الـ ١٣م، وتتميز بخلوها من الكلمات العربية والفارسية، وسميت بهذا الاسم تمييزًا له عن التركية العثمانية التي ظهرت خلال النصف الثاني من القرن الـ ١٥م. انظر:
Muherrem Ergin: Turk Dil Bilgisi, Istanbul 1997, s. 17.

٣)حركةُ التّأريخ العثماني منذ النصف الثاني من القرن ٩هـ/ ١٥م حتى أواخر القرن ١٠هـ/ ١٦م:

جديرٌ بالذّكر أنّ الظّهور الأوّل لكتابة التاريخ العثماني في النصف الثاني من القرن ١٥م كان بدايةً لمراحل متتابعةٍ لكتابة تاريخ دولةٍ امتدّت بها الأحداث حتى مطلع القرن ٢٠م، فلقد شهدتْ هذه الفترة انتفاضةً في حركة كتابة التاريخ العثماني تطوّرت وازدهرت بتطوّر الدّولة العثمانية، وتشجيع السّلاطين- أمثال الفاتح وبايزيد الثّاني، وسليم الأوّل، وسليمان القانوني، وسليم الثاني- الكُتّاب على التأليف والتّأريخ لوقائع الدّولة العثمانية، فأخذ المؤرّخون العثمانيون يسجلون صفحاتٍ مشرقةً لانتصاراتهم وفتوحاتهم شرقًا وغربًا، وكان غالبيةُ الذين سجّلوا أحداث التاريخ العثماني من رجال الدولة، وقوّاد الجيوش، ومن العلماء المتديّنين، فتعدّدت الآثار التي كتبوها، وتنوّعت خلال هذه الفترة، ويمكن تقسيمُ الآثار التاريخية العثمانية التي كتبتْ حتّى النصف الثاني من القرن ٩هـ/ ١٥م إلى ثلاثة أقسام:

أ. تواريخ عامّة للدّولة الإسلامية، وقد تنوّعت هذه التواريخ ما بين تواريخ ألفت بالتّركية العثمانية ، أو الفارسية، أو العربية.

ب. تواريخُ خاصّة بالدولة العثمانية فقط.

ج. تواريخُ خاصّة بعصر سلطان أو تتعلق بواقعة معينة، أو حملة.

ونعرضُ- بشيء من التّفصيل- لكلّ قسمٍ ممّا سبق:

أوّلًا: تواريخُ عامّة للدولة الإسلامية، مثل:

١. «دستور نامه» لأنوري (ت١٤٨١م) الذي روى فيه التاريخ الإسلامي العام منذ النّشأة، وحتّى عصر محمد الفاتح، وكتبه بالتركية العثمانية، وأهداه إلى الوزير الأعظم «صوقوللو محمد باشا».

٢. بهجت التّواريخ لـ «شكر الله» (ت ١٤٨٨م) كتبه بالفارسية عام ١٤٥٧م من أجل «محمد باشا ولي»، صدر أعظم السّلطان محمد الفاتح، وهو يحتوي على تاريخ العالم الإسلامي العام، وقسّمه إلى ثلاثة عشر قسماً، الثامن منها يحتوي على التاريخ العثماني حتى جلوس الفاتح ١٤٥١م.

٣. «جهاننما» لـ «نشري» (ت ١٥٢٠م) تناول فيه تاريخ العالم الإسلامي العام، وكتبه بالتّركية العثمانية، وقسّمه إلى ثمانية أقسام، القسم الخامس منها يختص بالتاريخ العثماني، وقسّم هذا القسمَ إلى ثلاثِ طبقات؛ الطبقة الأولى عن أولاد «أوغوز خان»، والثّانية عن «سلاجقة الروم»، والثالثة عن «آل عثمان»، وروى التاريخ العثماني حتى عصر «بايزيد الثاني».

٤. «مرآة الأدوار ومرقاة الأخبار»[1] لـ «مصلح الدين محمد لاري» (ت ١٥٧٢م)، كتبَه بالفارسية، وقسّمه إلى عشرة أقسام، ويتضمّن المدخل قائمة بأسماء المصادر التي اعتمدَ عليها، وختم كلّ عصرٍ بذكر رجال الدّولة والعلماء المُعاصرين، وروى فيه تاريخَ العالم الإسلامي العَام حتى وفاة القانوني عام ١٥٦٦م، وقام خواجه سعد الدين (ت ١٥٩٩م) بترجمته للتركية.

٥. «همه جامع التواريخ» لـ«محمد زعيم» (ت ١٥٧٧م) كتبه بالتركية العثمانية، وقسّمه إلى خمسة أقسام، وقسّم الأقسامَ إلى مجموعات، ثمّ إلى مقالات، ويقع التّاريخُ العثماني في المجموعة الرّابعة من القسم الخامس، وينتهي بتصوير أحداث هجوم مصطفى باشا قائدِ الجيش العثماني المتجه لإيران، وقدمه لـ «صوقوللو محمد باشا».

٦. «العليم الزاخر في أحوال الأوائل والأواخر» لـ«مصطفى جنابي» (ت ١٥٩٠م) ويقعُ في اثنين وثمانين قسماً، ويعتبرُ من أفضل التواريخ الإسلامية التي ألفت، وكتبَه بالعربية.

(١) مخطوط في مكتبة آيا صوفيا باستانبول برقم ٢٠٨٥. انظر:
Franz Babinger, Osmanli Tarihi yazarlari ve Eserleri, Ankara 1982, s. 105.

٧. «كنه الأخبار» لـ«مصطفى عالي» (ت١٥٩٩م) روى فيه أحداثَ التاريخ الإسلامي العام منذ بدء الخليقة وحتى عصره.

ثانيًا: التّواريخ الخاصّةُ بالدولة العثمانية:

ويتناول مؤلفو هذه التّواريخ الأحداثَ من بداية ظهور الأتراك على ساحة التّاريخ، وتأسيس دولتهم، ويستمرّون في سرد الأحداث حتّى عصر كلّ منهم، بصورةٍ عامّة غير مفصّلة في البداية، وتزداد تفصيلًا كلّما اقتربنا من عصر كلّ مؤلّف، وهناك من المؤّلفات ما تقتصر أحداثه على فترة محددة. ومن هذه الآثار:

١. «تواريخ آل عثمان» لـ«عاشق باشا زاده» (ت بعد ١٤٨٤م)، وهو يعتبر أوّلَ تاريخ يتناولُ أحداثَ الدّولة العثمانية بشكل كامل، ويذكر فيه معلومات عامّة بخصوص الوزراء وشخصيات السّلاطين، والعلماء السابقين، وأنهى تاريخه بالأحداث التاريخية الواقعة في عصري محمد الفاتح وبايزيد الثّاني.

٢. «هشت بهشت» لـ«إدريس البتليسي» (ت ١٥٢١م)، كتبه بالفارسية، وبأمر من بايزيد الثاني الذي كلّفه بكتابة تاريخ مستقلّ بالعائلة العثمانية حتى ذلك اليوم، ويعتبر تاريخُه هذا أقوى تاريخ، لَما فيه من معلومات تاريخية، كما أنّ البتليسي هو أوّلُ مَن أدخل الأسلوبَ الإنشائي المزخرف في كتابة التاريخ العثماني، قلده فيه كتاب النثر العثماني اللاحقون، وكتب ابنه أبو الفضل ذيلًا لهذا الأثر.

٣. «تاريخ آل سلجوق وآل عثمان» لـ«إياس باشا» (ت١٥٣٩م) روى فيه تاريخ السّلاجقة، و«قرمان اوغلولري»، وتاريخ الحكام العثمانيّين حتى أواسط القرن العاشر الهجري/ السّادس عشر الميلادي.

٤. وظهرَ العديدُ من الكتب التاريخية التي حملت اسم «تواريخ آل عثمان» ومن أشهر مَن كتبوا «تواريخ آل عثمان» «كمال باشا زاده» (ت ١٥٣٥م) وروى فيه تاريخَ العائلة العثمانية من جلوس بايزيد الثاني عام ١٤٨١م حتى حملة «موهاج» للقانوني ١٥٢٦م، و«تواريخ آل عثمان» لـ«رستم باشا» (ت١٥٦١م) روى

فيه التّاريخ العثماني حتّى عام ١٥٦٠م، و«تواريخ آل عثمان» لـ «لطفي باشا» (ت١٥٦٤م) روى فيه أحداثَ تاريخ آل عثمان حتى عام ١٥٥٣م.

٥. أيضًا من التّواريخ الخاصّة بالدولة العثمانية «تاريخ نشانجي» لـ «محمد نشانجي» (ت ١٥٧١م) سردَ فيه تاريخَ آل عثمان من عثمان إلى سليمان (١٥٦١م).

٦. وهناك «تاج التّواريخ» لـ«خواجة سعد الدين» (ت١٥٩٩م) أرّخ فيه للتاريخ العثماني منذ النّشأة وحتى عصر سليم الأول[1].

٧. إلى جانب «تاريخ سلانيكي» لـ« مصطفى أفندي سلانيكي» موضوع الدراسة.

ثالثًا: التّواريخُ الخاصّة:

وهي إمّا أن تتعلّق بعصر سلاطين معينين، أو تتعلّق بواقعة أو حملة أو موضوع ما، وهي كثيرةٌ في الآثار التّاريخية العثمانية؛ نذكر منها: «سليم نامه»، وأشهر مَنْ كتبوا آثارًا حملتْ هذا المسمّى، «شكري» (ت ١٥٢٣م)، و«كشفي» (ت ١٥٢٤م)، و«جلال زاده» (ت ١٥٦٧م)، و«سجودي» (توفي أثناء سلطنة القانوني)، وهناك العديدُ من الآثار التّاريخية التي سجّلت وقائع وغزوات عصر القانوني، وحملت اسمَ «سليمان نامه»، ومن أشهر مَن كتبوا «سليمان نامه» «مطرقجي نصوح» (عاش إبّان عصر القانوني، وصور أحداث حملة هذا السلطان على بلاد المجر (موهاج ١٥٢٦م)، وفترة حكمه حتى عام ١٥٤٧م، و«فردى» (عاش في عصر القانوني أيضًا)، وتناولَ فيها وقائعَ عصر القانوني حتى عام ١٥٤٢م، و«غباري»، وتناول أحداث عصر القانوني، وكتبها بالفارسية.

بالإضافة إلى ذلك هناك آثارٌ تاريخية تناولت أحدثَ فترة سلطان بعينه؛ مثل: «طبقات المالك ودرجات المسالك» لـ«جلال زاده» تناولَ فيه أحداث ووقائع عصر القانوني[2]، و«تاريخ السلطان محمد خان» لـ«طورسون بك» (توفي بعد ١٤٩٩م).

---

(١) النسخة مخطوطة من تاج التواريخ في مكتبة آيا صوفيا باستانبول برقم ٣٠٤٢/ ٣. انظر:
Franz Babinger, s. 137.

(٢) مخطوط هذا الأثر محفوظ في مكتبة آيا صوفيا باستانبول برقم ٣٢٩٦. انظر:
Franz Babinger, s. 113 -114.

وجديرٌ بالذّكر أنّ التّواريخ الخاصّة بالدّولة العثمانية بعضها ألّف بأوامرَ مباشرة من السّلاطين أو رجال الدّولة، وبعضها حرّره كتّاب رسميّون كالشاهنامجي[1]، فقد اكتسبت كتابة التّاريخ العثماني خلال هذه الفترة- النصف الثاني من القرن السّادس عشر الميلادي- نمطَ «الشاهنامه»[2]، وهذا النوعُ عادةً ما يبرز إنجازات السّلاطين والدولة كالشاهنامه التي نظمها «شهدي» (الذي عاش إبان عصر الفاتح)، وكتبها بأمرٍ منه، وتتكوّن من عشرة آلاف بيت، ونظم «فتح الله عارف» (ت١٥٦٢م) شاهنامه لسليم الأول من ثمانية آلاف بيتٍ صوّر فيها بطولاته، وجاء بعدَه «أفلاطوني شيرواني» (ت١٥٦٩م)، ثمّ «سيد لقمان» (توفي بعد ١٦٠١م) الذي خطا بكتابةِ التّاريخ على نمط الشاهنامه خطًا واسعة نحو تكامله، فقد كتب وقام بتصوير ما كتبه من أحداثٍ تاريخية، والدّليل على ذلك ما وصلنا من تصاوير هذه الشاهنامات.

وأيضًا «تعليقي زاده» (ت١٥٩٩م) الذي كتب ثلاثة آثار على نمط الشاهنامه، أو آثار تتعلّق بحملةٍ أو غزوة ما مثل: «فتوحات سليمانية» لـ «حريري» (ت ١٥٣٣م) الذي صوّر فيه فتوحات القانوني، وقدّمه له، و«تاريخ مصر الجديد» لـ «صالح بن جلال»، و«غزوات خير الدين باشا» لـ «سنان جاوش» (عاش في عصر القانوني)،

---

(١) الشاهنامجي: هو الموظف الرسمي الذي يُعين من قبل الدّولة لكتابة الشاهنامه، ويعرف أيضًا باسم «شاهنامه خوان»، ويتواجد بمعيته كاتب ومجلد ومذهب، وأول من عُين في وظيفة شاهنامجي في الدّولة العثمانية هو «فتح الله عارف» إبان عصر القانوني، وآخر من تولاها هو «حسن حكمي»، وأُلغي هذا المنصب في عام ١٦٦٣م حين استبدل السلطان مراد الرابع هذا المنصب بكتاب الوقائع (وقعة نويس). انظر:

M. zeki Pakalin, Osmanli Tarihi Deyimleri ve Terimleri Sozlugu, Istanbul 1971, cuz III/318.

(٢) الشاهنامة: تطلق على الكتابات المنثورة والمنظومة التي تتناول الأحداث التاريخية بأسلوب أدبي لإظهار القيمة الفنية والأخلاقية للتاريخ، وترجيح لغة البلاغة والإطناب للمعنى. وقد بدأت كتابه الشاهنامه في قرون الإسلام الأولى. انظر:

Bekir kutukoglu, Sahnameci Lokman, P.D. Bakir kutukogluna Armagan, Istanbul, 1991, s. 41.

و«فتح نامه قلعة جربه» لـ «ندائي» (عاش في عهد سليم الثاني)، و«البرق اليماني في فتح العثماني»[1] لـ «قطب الدين المكي» (ت ١٥٨٢م).

ممّا سبق يتبيّن لنا خطوات كتابة التاريخ عند العثمانيّين، بدءًا من النشأة وحتى النّصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي، فقد واكب هذا التطور حركة الفتوحات والتوسّعات التي ازدادت تدريجيًّا في كلّ مرحلةٍ من مراحله؛ حتى بلغَ فنّ كتابة التّاريخ عند العثمانيّين مرحلة ازدهاره في أواخر القرن السادس عشر الميلادي، وظهرَ ذلك جليًّا من خلال المؤلّفات التاريخية العثمانية التي عرضنا نماذجَ منها.

---

(١) مخطوط هذا الأثر محفوظ في مكتبة نوري عثمانية باستانبول برقم ٣٠٨٥. انظر:
Franz Babinger, s. 99.

مكانةُ سلانيكي بين المؤرّخين العثمانيّين معاصريه:

تنوّعت حياةُ سلانيكي بين الارتباط بالدّيون والمشاركة في الحملات، فلم تقتصرْ علاقات سلانيكي على أهل الدّيوان، وطائفة العسكر فحسب؛ بل اتصلت برجال الدّولة، وعلماء عصره.

فلقدْ هيّأت له نشأته في كنف أفنديه «شمسي أحمد باشا»، وحضوره مجالس علمِه، ثمّ انتقاله لمعيّة الوزير الأعظم «صوقوللو محمد باشا»، وأيضًا تواجده معه في الحملات العسكرية؛ مثل «حملة سيكتوار»، ثمّ التحاقه بمعية «فرهاد باشا» في حملة «كنجه»، وكذلك الوظائف العديدة التي شغلها في الديوان، والمهمات التي كُلّف بها (ضيافة السّفراء)؛ هيّأت له فرصة التعرف على كبار رجال الدولة، وقواد الجيوش، وأهل الديوان والعلماء، ومجالسة السفراء الذين كُلف بضيافتهم، فأكسبته هذه العلاقاتُ والتنقلات ما بين مركز الدّولة والحملاتِ قدراتٍ متعدّدةً جعلته يسجل الأحداثَ كلّما أتيحت له الفرصة، سواء بالمشاهدة أو بالسماع عن هؤلاء الأشخاص، ومن ثمّ أثّرت هذه العلاقات على ميلِه لكتابة التاريخ. وقبل أن نتحدث عنْ مكانة سلانيكي بين المؤرّخين المعاصرين له نعرضُ للعوامل التي جعلت من سلانيكي مؤرّخًا.

فقد تجمّعت عدّةُ عوامل ساهمت في تشكيل شخصيّته، وجعلته مؤرخًا يحتل مكانةً هامّة بين مؤرخي عصره، من أهمها:

١) نشأته:

لقد أثّر المحيطُ الدّيني الذي نشأ فيه مؤرّخُنا، وحفظه للقرآن الكريم، وترعرعه في محيط السّراي، ومجالس علم أركان الدّولة الذين انتسب إليهم، ومصاحبته لذوي الطّباع الحميدة من أصحابه الذين تحدث عنهم؛ أثرت هذه النشأة المتدينة في تكوينِ رؤيةٍ تاريخية خاصّة به، فعرض لنا وجهة نظره بأمانة، ونقد الأحداث بلا خوف، فكان لذلك بالغُ الأثر في خلقه مؤرخًا متميزًا.

٢) وظائفه:

أثّرت وظائفه التي شغلها في دواوين الدّولة بشكلٍ واضح على كتابته، فجعلته قريبًا من مُجْريات الأحداث؛ سواء في مركز الدولة، أو في الحملات التي خرج إليه. ومن ثمّ انعكس هذا التّأثير على روايته الدقيقة للأحداث.

٣) مشاركتُه في الحملات ومشاهداته للأحداث:

لقد أثّرت مشاركة سلانيكي في الحملات وقربُه من موقع الأحداث في شخصيّته التاريخية؛ حيث جعلتاه مُحيطًا علمًا بما يحدُث حوله، فهذه المشاركة والمشاهدة تنبعان من خلفيّة رجلٍ إداري حريصٍ على تتبع مجريات الأحداث، وأكسبتاه قيمةً عالية سمتْ بمكانته بين مؤرّخي عصره، ووضعت تحت يده مصادر غنيّة استقى منها ثقافة تاريخية واسعة أثْرَت مؤلّفَه.

٤) شغفُه وحسّه التّاريخي:

كان سلانيكي مُولعًا بتتبّع أحداث التاريخ، وظهر ذلك في تدوينه قصص تحت عنوان «حكايت»[1].

٥) ثقافتُه التاريخية الواسعة:

اكتسبَ سلانيكي ثقافةً تاريخية واسعة تتّضح من تحليله للأحداث، وتقييمه لنتائجها، وشغفه بتتبّع مجريات التاريخ من خلال مناقشاته مع كثير من السفراء والحكّام الذين جاءوا لمركز الدّولة، وكُلّف بضيافتهم، حتى أنّ أحدهم وصفه بأنه شخصٌ متتبّع لأحداث التاريخ[2].

هذه هي العواملُ التي ساهمت في تشكيل شخصية سلانيكي، وتكوينه كمؤرخ، ولكي نقفَ على مكانة سلانيكي بين المؤرّخين العثمانيّين نعرض لأهمّ المؤرخين المُعاصرين له،

---

(١) انظر: تاريخ سلانيكي، ص ٥٩.

(٢) انظر: تاريخ سلانيكي، ص ٢٤٩.

وقد وقع اختيارُ الباحث على ثلاثة مؤرّخين كممثلين لهذه الفترة (النّصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي) لاشتراكهم مع سلانيكي في العمل في الديوان، أو في المشاركة في الحملات، وتماثل رغباتهم في تتبع الأحداث التاريخية وتسجيلها، وعبّر كلٌّ منهم في أثره عن وجهة نظره من خلال موقعِه الإداري ، وما توفّر لديه من مشاهدات ووثائق تاريخية:

١) مصطفى عالي (٩٤٨-١٠٠٨هـ/ ١٥٤١-١٥٩٩م):

هو مصطفى بن أحمد بن عبد المولى حلبي، ولد في «غاليبولي»، وتلقى تحصيلَه من العلم على يدِ معلّمه «سروري»، وبعد أن قدّم لولي العهد «سليم الثاني» كتابه المعروف بـ «مهروماه» لازمه، وأصبح كاتبًا في ديوانه عام ١٥٦٠م، ثمّ عُين في ١٥٦٨م كاتبًا في ديوان «حلب» بوساطة «لالا مصطفى باشا» المربي القديم لولي العهد سليم الثاني الذي عرفه؛ بينما كان في «قونيه» قائمًا بخدمة ولي العهد، وعندما كُلف «لالا مصطفى باشا» بقيادة حملة اليمن ١٥٦٧م، وتوجه إلى مصر، ذهب عالي معه بوظيفة كاتب ديوان، ولكن سرعان ما عاد مع أفنديه الذي عزل من قيادة هذه الحملة بسبب الافتراءات التي لفقت له، وفي ١٥٧٠م عُين كاتبًا مرة أخرى في معيّة «مصطفى باشا» الذي كُلف بقيادة حملة «قبرص» ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م وقدّم للوزير الأعظم «صوقوللو محمد باشا» كتابه المعروف بـ «هفت مجلس»، ثمّ عمل كاتبًا لديوان «فرهاد باشا» أمير أمراء البوسنة، وفي ١٥٧٧م أُلحق بمعية القائد «لالا مصطفى باشا» الذي كُلف بقيادة حملة الشرق إلى كورجستان وشيروان ككاتب ديوان، وسجّل مشاهداته لأحداث الحملة في كتابه «نصرت نامه»، وبعد عودته من الحملة ومقابل الخدمة التي أظهرها عين دفتردارًا[١] لحلب، وعقب وفاة حاميه «لالا مصطفى باشا»، لم يلقَ عالي اهتمامًا، لكن

(١) الدفتردار: هو وكيل السلطان المطلق في الشئون المالية، ومسئول مسئولية مباشرة أمام السلطان والوزير الأعظم عن ميزانية الدولة. وفي بداية نشأة الدّولة العثمانية كان يوجد دفتردار واحد، وعقب اتساع فتوحات الدّولة انقسم إلى قسمين: «دفتردار الروميلي» ويعرف باسم «باش دفتردار»، و«دفتردار الأناضول»، ولكلّ منهما ديوان خاصّ به ينظر فيه الأمور المحولة إليه من الديوان الهمايوني، ولكل ولاية دفتردارها. انظر: M. Zeki Pakalin, 1411/.

عندما صور الاحتفال بختان ولي العهد مراد الثالث في مؤلّفه «جامع البحور»، عُيّن في ١٥٨٥م دفتردار لـ «أرضروم»، ثمّ انتقل لبغداد بنفس وظيفة دفتردار، وفي عام ١٥٨٩م وجهت إليه وظيفةُ دفتردار «سيواس»؛ إلّا أنّه لم يبقَ في هذه الوظيفة فترة طويلة، وفي عام ١٥٩٢م عُيّن كاتب فرقة الييني جري[1].

وفي يناير ١٥٩٥م، عُيّن كاتب فرقة الييني جري مرة ثانية، وفي سبتمبر ١٥٩٥م أصبح أميرًا على سنجاق «أماسيا»، ثمّ أميرًا على سنجاق جدة في عام ١٠٠٦م، وتوفي أثناء شغله لهذه الوظيفة.

كتبَ عالي ما يقرب من ثلاثين كتابًا، منها: «نادر المحارب» الذي ألفه عام ١٥٥٩م، وروى فيه أحداثَ حرب «قونيه» بين بايزيد وأخيه سليم الثاني، وكتبه بلغة معقّدة من أجل إظهار قدرته الأدبيّة، وكتب أيضًا «مناقب هنروان»، وله أيضًا «نصيحة السّلاطين» التي ألقى فيها الضوءَ على العيوب الاجتماعية، ونقد النظم الإدارية كرجُلِ دولة، وكتب كذلك «حالات القاهرة من العادات الظاهرة»، ويعتبر «كنه الأخبار» أهمَّ آثار عالي على وجه العموم؛ حيث أرخ فيه للتاريخ العام منذ الخليفة وحتى عصره.

٢) «فريدون بك» (وفاته ٩٩١هـ/ ١٥٨٣م):

ليسَ هناك أيّة معلومات عن مولده وأصله، فقد نشأ «فريدون بك» في كنف الـ «دفتردار» «جيفي زاده عبد الله جلبي»، وفي عام ١٥٥٢م دخل في معية الوزير الأعظم «صوقوللو محمد باشا» ككاتب حتى وصل إلى كاتب ديوان، واشترك «فريدون بك»

---

(١) كاتب الييني جري: الشخص الذي يباشر قيود السجلات؛ سواء الرواتب أو البيانات الخاصة بفرقة الييني جري، وهو من الأعضاء الدائمين في ديوان الييني جري، وحتى عصر الفاتح كان يتم اختياره من ضباط فرقة الييني جري، وتعيينه وعزله يكون بمعرفة الوزير الأعظم، ويأتي في مراسم التشريفات بعد رئيس الكتاب. انظر: المصدر السابق، ج٢/ ٢١٤.

في حملة السلطان القانوني (سيكتوار) بوظيفة كاتب السر[1]، وفي ١٥٧٠م عُيّن رئيسًا للكتّاب[2].

وفي ١٥٧٣م، نال وظيفة «نشانجي»[3]، وعقب تولية مراد الثالث العرش ١٥٧٤م، قدّم له كتابَه المعروف بـ «منشآت السلاطين» الذي احتوى على ١٨٨٠ وثيقة اعتبارًا من تأسيس الدّولة العثمانية، وحتّى جلوس مراد الثالث على العرش، وبعد عام تعرّض لغضب السّلطان، فعزله من منصبه في عام ١٥٧٦م، وفي عام ١٥٧٧م عُيّن أمير سنجاق «سمندره»[4]، ثمّ انتقل لمنصب أمير سنجاق «كوستنديل»[5]. وفي عام ١٥٨١م استدعاه السّلطان للآستانة، وعُين نشانجي مرة أخرى، وفي عام ١٥٨٢م تزوّج من «عائشة سلطان» ابنة «رستم باشا»، وتوفي في عام ١٥٨٣م[6].

---

(١) كاتب السر: الموظف المكلف بتقديم أحكام التلخيصات المرسلة لحضرة السلطان، فبعد أن يكتب الخط الهمايوني من قبل السلطان يقوم بإرساله بعد وضع الختم عليه. انظر:

M. Zeki Pakalin, 2214/.

(٢) رئيس الكتاب: هو الشخص الذي كان يشغل وظيفة رئيس كتاب وأقلام الديوان الهمايوني حتى أواخر القرن السابع عشر، ويحوز على أهمية بالغة لوقوفه على معاملات الديوان؛ رغم أنه ليس من أعضاء الديوان، ويعتبر رئيس الكتاب من معية منصب النشانجي الذي هو من أكبر رؤساء أقلام الديوان، وعندما يترقى رئيس الكتاب يصبح نشانجي. انظر:

M. Zeki Pakalin, 325/.

(٣) النشانجي: ويعرف باسم الطغرائي نظرًا لوضعه الطغراء «خاتم السلطان» الذي يحتوي توقيع السلطان على الفرمانات والمنشورات السلطانية، وهو من أعضاء الديوان الدائمين، ومن أعماله المكلف بها فحص مدى توافق قوانين الدّولة وقراراتها مع الشرع الإسلامي، وإعداد العقود والبراءات التي تمنح للوزراء، والرسائل الموجّهة لملوك الدول الأخرى، والنظر في تحريرات الأراضي ودفاترها. انظر: نفس المصدر ج ٢/ ٦٩٧.

(٤) سمندرة: مركز في يوغسلافيا جنوب شرق بلغراد، على نهر طونه، كانت عاصمة لملوك الصرب القدامى. انظر:

Ismail Hami Danismend, Izahli Osmanli Tarihi kronolojisi, 3612/.

(٥) كوستنديل: مركز بسنجاق صوفيا في بلغاريا. انظر: شمس الدين سامي، قاموس الأعلام، ج ٥/ ٢٩٢١.

(٦) انظر: تاريخ سلانيكي، ص ١٦٢، ١٧٢.

٣) خواجه سعد الدين (٩٤٣-١٠٠٨هـ/ ١٥٣٦-١٥٩٩م):

هو «سعد الدين محمد بن حافظ جمال الدين» ، فارسي الأصل، ولد في استانبول، وقضى عمره فيها، جاء والده إلى استانبول أثناء حملة چالدران، ودخل في خدمة السراي، وكتب «خواجه سعد الدين» «سليم نامه»؛ مستفيدًا من الحكايات والقصص التي سمعها عن والده بخصوص سليم الأول، وفي عام ١٥٧١م أُرسل «خواجه سعد الدين» إلى «مغنسيا» كمعلم لولي العهد «مراد خان» والي «مغنسيا»، ومنذ ذلك الحين لُقب بـ «خواجه» أي معلم، وبعد أن أعتلى مراد السلطنة في ١٥٧٤م لُقب بـ «خواجه سلطاني» أي المعلم السلطاني، وبهذه الصفة دخل في الأمور السياسية للدولة، وفي عام ١٥٩٨م نال منصب شيخ الإسلام، وتوفي في عام ١٥٩٩م.

كتب خواجه سعد الدين كتابه «تاج التواريخ» الذي أرّخ فيه للتاريخ العثماني منذ النّشأة وحتّى عصر سليم الأول ، وكتبه بأمر السلطان مراد الثالث.

علاقةُ سلانيكي بمعاصريه:

ارتبطَ سلانيكي بعلاقاتٍ مع معاصرين من المؤرّخين ؛ سواء عن قرب، أو من خلالِ المواقف التي جمعَتْ بينهم، ولم يُشرِ المؤرّخُ بشكل مباشر إلى هذه العلاقة، ولم يصرّحْ أحدٌ من هؤلاء المعاصرين لذلكَ أيضًا، لكن مِن خلال تناولنا لسيرة أهمّ المؤرّخين المعاصرين لسلانيكي نستطيع أن نبرزَ هذه العلاقة من خلال تواجدهم في مُحيط واحدٍ كالديوان، أو مركز الدولة، أو الحملات، ومن مشاركاتهم في أحداثِ الفترة التي عاشوها، وما دوّنوه من آثار.

فنلاحظُ أنّه بينما كان «عالي» يعملُ دفتردار الروميلي في الديوان؛ كان «سلانيكي» متواجدًا في الدّيوان بوظيفة كاتب فرقة السلحدارية، وسجل سلانيكي في كتابه تعيين «عالي» دفتردار للروميلي[1]. وفي الوقت الذي كان فيه «عالي» يعمل كاتبَ فرقة الييني جري عام ١٥٩٤م تواجد «سلانيكي» في الديوان بوظيفة «مقابله جي».

---

(١) تاريخ سلانيكي، ص ٢٣٨.

ومِن خلال هذه المقابلة يمكن القول أنّهما كانا على معرفة ببعضهما، كذلك نلاحظُ من سيرة حياة «فريدون بك» أنّه قد شارك في حملة سيكوار، وتحدث سلانيكي عن علاقته بفريدون بك أثناءَ هذه الحملة في مواقف كثيرة نذكر منها: ذهابهما سويًّا بتكليف من الصّدر الأعظم «صوقوللو محمد باشا» إلى كلّ واحد من الوزراء العظام لإبلاغهم بعقدِ الديوان. وذكر أيضًا أنّه كان أحدَ شهود مجلس عرس «فريدون بك»، وقام بتقييد الخلع الفاخرة، والأقمشة التي أحسنَ بها في هذا العرس، وكان هو «سلانيكي» أحدَ الذين نالوا الشّرف بخلعتين أحسن عليه السلطان بهما[1]، ممّا يظهر لنا العلاقة التي ربطته بمعاصره فريدون بك.

ومِن خلال الكتاب موضوع الدّراسة لم يشِرْ سلانيكي إلى علاقة ربطت بينه وبين معاصره خواجه سعد الدين.

وبناءً على هذا يمكننا القول بأنّ سلانيكي يحتلّ مكانة متميزة بين معاصريه.

(١) المصدر السابق، ص ١٦٣.

مكانةُ تاريخ سلانيكي بين التواريخ العثمانية

احتلّ «تاريخ سلانيكي» الذي احتوى خلاصةَ تجارب مؤرّخنا مكانةً بين التواريخ العثمانية، فلقد أرّخ سلانيكي لفترة تمتدّ من (٩٧١-١٠٠٨م/ ١٥٦٣-١٦٠٠م) وكان شاهدًا لأحداثها، وجمع أثرُه مميزاتٍ سمتْ به بين التواريخ العثمانية، وجعلته يمثّل مرحلةً من مراحل كتابة التاريخ العثماني، حيث سجّل فيه سلانيكي وقائعَ الحملات، وأحداثَ مركز الدّولة التي وقعت في عصره، إلى جانب عرضِه لمضمون العروض المرفوعة من أمراء الإيالات التابعة للدولة، والتطورات الواقعة على الجبهات. فعرض صورةً تنبض بالحياة لحالة الدّولة العثمانية من كافة النواحي.

كما صار «تاريخ سلانيكي» مصدرًا أساسيًّا لِمَن جاء بعده؛ حيث قدّم فيه رؤيته الخاصّة، ومثّل حلقةً من حلقات التاريخ العثماني.

ومِن هنا تظهر أهمية تاريخ سلانيكي، وربما يرجع ذلك للأسباب الآتية:

١. عرض سلانيكي لفترةٍ حسّاسة في التاريخ العثماني، وهي تمثّل مرحلةً انتقالية بين ازدهار الدّولة وقوّتها، وبدء إرهاصات ضعفها، يعتبر فيها مرجعًا لدراسة هذه الفترة من الناحية السياسية، والعسكرية، والاجتماعية، والإدارية، والمالية.

٢. يعتبر «تاريخ سلانيكي» مِن أوائل التواريخ العثمانية التي أظهرت مفاسدَ العصر، وعرض لمظاهر الخلل، وبين العلل التي استشرت في كافة مؤسسات الدولة.

٣. يعتبر «تاريخ سلانيكي» سجلًّا لفرمانات وأوامر العزل والتعيين والقيود الإدارية في هذه الفترة، فأورد بعض مضمونها أو نصوصًا منها بشكل متتابع، وخاصة في عهد مراد الثالث، وساعده على ذلك أنه عمِلَ كاتبًا ودواتدارًا، ومسجلًّا في الدّيوان في كثير من الفترات.

٤. يعتبر «تاريخ سلانيكي»- أيضًا- سجلًّا لحركات العصيان التي قام بها أفرادُ الفرق، والتي كانت مظهرًا من مظاهر إرهاصات الضعف في المؤسسة العسكرية في الدولة، فهو مِن شاهدي العَيان لهذه الحركات، وكان يكلَّف بمهمّة توزيع العلوفات عليهم، وقام بتسجيل ذلك في كتابه.

٥. سجّل سلانيكي أحداث الصراع الصفوي العثماني، فأورد وقائع حملات الشرق التي شارك فيها، والفرمانات التي صدرت بشأنها، ورسائل الصلح التي أرسلها الصّفويون لمركز الدولة.

٦. أوضحَ سلانيكي في كتابه الظواهر الطبيعية التي أصابت «استانبول»، وتأثير هذه الظواهر على الحياة الاجتماعية، والاقتصادية، والمالية في البلاد، كالسيْل، والحرائق، والزلازل، والطاعون.

٧. وصفَ سلانيكي الاحتفالاتِ التي كانت تقام في المناسبات؛ كجلوس السّلاطين على العرش، ومناسبات الاحتفالات السلطانية.

التّأثيرُ والتأثّر:

تأثّر سلانيكي في تسجيله للوقائع وعرضِه للأحداث بالطريقةِ الحوليّة، فكان تابعًا للمؤرّخين السّابقين في استخدام هذه الطريقة، واعتمد في كتاباته التاريخية على مشاهداتِه العينية، بالإضافة إلى الوثائق المكتوبة والروايات المنقولة، ولم يستعنْ بأيّ تاريخ مكتوب.

كما تأثّر المؤرّخون الذين جاءوا بعدَ سلانيكي بكتابه؛ حيث صار مصدرًا للمؤرّخين الذين جاءوا بعده، ومن هؤلاء المؤرخين الذين تأثّروا بتاريخه واقتبسوا منه: «صولاق زاده»[1]، وفي كتابه «تاريخ صولاق زاده»[2]؛ ما يوضّح هذا الاقتباس

(١) صولاق زاده: هو صولاق زاده محمد همداني، ولقب باسم «مثقالي زاده»، من مؤرّخي النصف الأول من القرن السابع عشر الميلادي، جاء إلى استانبول مع والده من «اسكود» (مدينة في يوغسلافيا) وكان والده في رتبة «صولاق باش»؛ لذا لُقّب بـ«صولاق زاده»، ونشأ في كنف مراد الرابع، ونال إحدى الوظائف في القصر. انظر:

Franz Bebinger, s. 223.

(٢) تاريخ صولاق زاده: تناول فيه صولاق زاده الأحداث منذ نشأة الدّولة العثمانية، وحتى جلوس السلطان مراد الرابع على العرش عام ١٦٢٢م، وطبع في استانبول عام ١٩٢٨ه. انظر: المرجع السابق ، ص ٢٢٣.

أحيانًا في شكْل رواية، وأحيانًا أخرى دون أيّ إيضاح، ونلاحظ هذا من خلالِ نقْله لحادثة السّيل الذي هطلَ على استانبول في غرة صفر ١٥٦٣م[1].

ومِن هنا يمكن القول بأنّ تاريخ سلانيكي يحتلّ مكانةً مهمّة بين التواريخ العثمانية، بتمثيله حلقةً من حلقات كتابه التاريخ العثماني، وإكماله مواضع قصور المؤرّخين السّابقين، واعتماد اللاحقين عليه، فهو يعدّ وثيقةً تاريخية لدراسة هذه الفترة من التاريخ العثماني.

(١) تاريخ صولاق زاده، استانبول، ١٢٩٨هـ، ص ٥٦٨.

مصادرُ سلانيكي في تدوين تاريخِه:

تنبع أهميةُ كتاب تاريخ سلانيكي من المصادر التي اعتمد عليها في تدوينه، فالمصادرُ هي المادة التي يستقي منها المؤرخ وقائعه وأحداثه وتشكل كتابه. وأوثق المصادر أهمية هي الأحداث التي شاهدها الكاتب وشارك فيها، وقد ارتبطت نشأة مؤرخنا، ومشاركته في الحملات، ومحيطه الإداري ووظائفه، ارتباطًا وثيقًا بمصادره التي تنوّعت بين مصادرَ متعلقة بالناحية العسكرية، وأخرى بالنواحي الإدارية والاجتماعية والمالية، وهذا التنوع في المصادر صفةٌ ميّزت تاريخه الذي يروي الظروفَ السياسية والحملات العسكرية والاجتماعية والإدارية والمالية للدولة خلال الفترة التي تناولها.

وتنقسم المصادرُ التي اعتمد عليها مؤرخُنا فيما كتب بين: مصادر مرئية، ومصادر مكتوبة، ومصادر سمعية.

وممّا لا شكّ فيه أنّ لمشاركة سلانيكي في الأحداث سواء في مركز الدولة، أو في الحملات التي خرج إليها؛ بالغ الأهمية على روايته الدقيقة لمجرياتها، سواء بالمشاركة أو التواجد الشخصي في مواقع الأحداث أو المشاهدة.

كذلك مكّنته علاقاتُه برجال الدّولة الذين انتسب إليهم والقوّاد الذين تواجد في معيّتهم، والسفراء الذين كلّف بضيافتهم؛ مكّنته من الاطّلاع على دقائق الأخبار التي كانت تتردّد في دهاليز السّراي العثماني، فروى لنا أحداثَها بالتفصيل، وأدلى برأيِه فيها نقدًا إيجابيًّا وسلبيًّا.

ويُضاف إلى ذلك أنّ وظائفه التي تولّاها في سلْك الماليات؛ أتاحت له فرصةَ الاطّلاع- عن قرب- على وثائق الدّولة المالية؛ كالفرمانات، والأوامر، والتّشريفات، والعروض الخاصّة بأفراد البلوكات، ممّا كوّن لديه مادّة خصبةً استمدّ منها مادةَ تاريخه.

كما كان لتواجده في مواقعِ الأحداث، ومعايشته لردود أفعالها في المجتمع؛ أثرٌ عظيم في إحاطةِ سلانيكي علمًا بانْعكاسات وقائع الأحداث على المجتمع، فلم يتردّدْ في تسجيلها.

وبذلك توفّرت لديه مشاهداته العينية، ووثائقه المكتوبة، والروايات المسموعة كمصادرَ أساسيةٍ لتاريخه.

وسوفَ نعرض لمصادر سلانيكي عرْضًا من حيث أهمية المصدر، ولما كانت المصادرُ المرئية هي أهمَّ وأوثقَ المصادر، فتأتي في مقدّمة مصادره؛ نظرًا لأنّ المؤرّخ شاهدَ وعاش أحداثَ تاريخه.

١) المصادرُ المرئية:

يتّضح من خلال الجزء الذي قام الباحثُ بترجمته أنّ الكاتب كان شاهد عيان للأحداث التي رواها في كتابه؛ كأنْ يقول مثلًا: «وكنت [أنا] الفقير أيضًا شاهدًا للمجْلس الواقع في ١٢ ربيع الأول ٩٩٠هـ»[١].

أو أنْ يشير إلى تواجده في مواقع الأحداث، كقوله: «بينما كان «أرسلان باشا» آتيًا إلى الميدان، قال شخصٌ يُدْعى «إياس آغا» للباشا المرقوم (أرسلان): توجّه إلى الله بالتّوبة والتوحيد. «وحضرت أنا الفقيرُ المملوء بالتّقصير هذه الواقعة»[٢].

وأشارَ إلى مشاركته في الأحداث بقوله: «أنا عبدُك نصحتُهم. وقلت: ليس هذا وقتَه، فهناك وقتٌ لذلك»[٣].

ومِن الأمثلة السّابقة يتّضح أنّ المؤرّخ كان شاهدًا لأحداث عصره، ومتواجدًا ومشاركًا فيها.

---

(١) انظر: تاريخ سلانيكي، ص ١٦٣.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٤.

(٣) نفس المصدر، ص ٥٥.

٢) المصادرُ المكتوبة:

لم يعتمدْ سلانيكي في تدْوينه لتاريخه على ما كتبه المؤرّخون السابقون، فلم ينقلْ عنهم لأنّه اقتصرَ على تدوين الأحداث التي تقع في عصره فقط، وكان مشاهدًا لها، أو مشاركًا فيها. وعلى أيّة حالٍ فقد اعتمد على مصادرَ أخرى مكتوبةٍ تمثّلت في الآتي:

أ. العروض[1]:

كانت العروضُ- وما تحويه من معلومات- مادّةً خصبة استفاد منها سلانيكي فيما دوّنه في تاريخه، يؤكّد ذلك قولُه في سرده لأحداث حملةِ كنجة ٩٩٦هـ: «في ذي الحجة سنة ٩٩٢هـ، جاءت العروض المفصّلة من القائد الأعظم «عثمان باشا»، نصّها كالتالي: عندما علم الجنودُ الذين اتّحدوا مع أبناء الخان الخائن المقتول؛ بخبرِ العسكر الذين سيتوجّهون إليهم، تراجعوا عن قرارهم، وبينما كانوا يهْربون، تعقّبهم جندُ الإسلام؛ حيث صار رجالُ العدوّ المعتمدون، والذين تعقّبهم جندُ الإسلام، ولحقوا بهم؛ صاروا طُعمةً للسّيف، ونال «اسلامكراي خان» مرامَه بالجلوس على عرشِ المملكة، وأصبح جميعُ جيش التّتار مُنقادين للأمر السلطاني، فلمّا تمّت إطاعتهم وانقيادهم لجيشِ الإسلام؛ لم يعدْ هناك ضرورةٌ للعبور صوب «كفه»[2]؛ حيث تمّت المصلحة بحسبِ المراد[3].

ونلاحظُ من المثال السّابق- الذي يعتبر نموذجًا لواحدٍ من العروض التي وقعتْ تحتَ يدِ سلانيكي- أنّ مؤرّخَنا قامَ بتلخيص محتوى هذا العرض المرفوع للسّلطان،

---

(١) العرض: الطلبات الآتية إما من الأمراء والقواد للآستانة لإحاطة السلطان علمًا بها، وإما أن تكون مرفوعة من الرعايا للسلطان، وبعد تلخيص محتوى العرض، تُصنف حسب الاختصاص، والهام منها - يعرض على السلطان الذي كان يستمع إلى العروض يومين في الأسبوع في حجرة تعرف بحجرة العرض. انظر:

Midhat Sertoglu, s. 20

(٢) كفه: ميناء في جزيرة القرم، وصار ولاية تابعة للدولة العثمانية. انظر: المصدر السابق ، ص ١٨٢.

(٣) انظر: تاريخ سلانيكي، ص ١٨٧.

وقدّم به بقوله: «مفصّل عرضلر كلوب» (أي جاءت العروض المفصلة)، وأنْهاه بقوله: «ديو عرض ايلدكده» (أي عندما عرض قائلًا).

ب. الفرمانات:

كانت الفرماناتُ إحدى المصادر المكتوبة التي اعتمد عليها سلانيكي فيما كتبَه، فأوردَ مقتطفاتٍ من نصوصها أحيانًا، واقتصر على الإشارة إلى مضمونها أحيانًا أخرى، وكانَ مِن عادته ذكرُ مضمون الفرمان أوّلًا، ثمّ يعقّب بقوله: «صدر فرمان نصّه».

وقدْ أورد سلانيكي كثيرًا من مآلِ الفرمانات المتعلّقة بالناحية العسكرية نذكر منها قوله: «في ربيع الأوّل من السنة المرقومة ٩٩٣ه، صدر فرمانٌ لحضرة القائد فرها باشا، نصّه: «الآن، عليك أن تقابل الصّدرَ الأعظم والقائد الأكرم عثمان باشا، وتقوم بالتّنبيه الصارم عليه بأنّ أمور العسكر المنصورة المتعلّقة بحملة الشرق، قد عُهدَتْ إليه، وعلى أمراءِ الأمراءِ والزعماء وجميع الجند أن يرجعوا إليه، ويمتثلوا لأمره، وبعدَ التقابل معه عليكَ بالمجيء إلى الآستانةَ»[1].

أمّا فيما يتعلّق بفرمانات العزل والتّعيين فقد أورد سلانيكي كثيرًا منها بشكل مُتتابع، حتّى أنّه يمكن القول بأنّ أثره يعتبر سجلًّا للعزل والتعيينات خلال هذه الفترة، فنراه يذكرُ تحتَ عنوان: «عزل وتنصيب الدفتردارية» قولَه: «في عيد شوال من السّنة المذكورة ٩٩٨هـ، صدر فرمانٌ بعزل دفتردار الأناضول «مصطفى جلپي أفندي»، ودفتردار الشّق الثاني «دلبند زاده محمود جلپي» بلا سبب، ويتعين أمين المدينة «كاتب محمود بك أفندي» دفتردار الشّق الثاني، ويتعين «محمود أفندي» المعزول من سيواس «دفتردار الأناضول، وبالإحسان على «مصطفى جاوش» المعزول عن وظيفة «أمين غلطة» لمرتبة «أمين المدينة».

كما نلاحظُ أنّ سلانيكي لم يقتصرِ اطّلاعُه على فرمانات الدّولة العسكرية والإدارية فحسب؛ بل إنّه كان يورد العديدَ منَ الأوامر والفرمانات التي تتعلق بمختلفِ شئون

(١) انظر: المصدر السابق، ص ١٨٨.

المجتمع العُثماني الأخرى، ومِن ذلك إيرادُه جزءًا من الفرمان الذي صدرَ إلى الوزير الأعظم «سياوش باشا» لتشييع جنازة الشيخ «أحمد صادق طاشكندي»، نصّه: «عليكَ بتعظيم جنازةِ العزيز وتكريمها، وأنْ تقوم بدفنه بجوار قبره حضرة أبي أيوب الأنصاري»[1].

تبيّنُ هذه الأمثلةُ السابقة اعتمادَ سلانيكي على الفرمانات التي أوردها كاملة حينًا، أو أجزاء منها أحيانًا أخرى، وإنّما كانت مصدرًا من لتدوين تاريخه، وهو ما يؤكّد ويوثّقُ الأحداثَ التي يذكرها.

ج. دفاترُ التّرقيات والماليات:

تعتبر دفاترُ التّرقيات والماليات التي وقعت تحتَ يدِ سلانيكي بحُكم عمله ووظائفه في سلْك الماليات؛ مادّةً خصبة اعتمد عليها كمصدرٍ لتدوين تاريخه، وعلى الرّغم من ذلك لم يذكُرِ المؤرّخُ منها إلّا ما قام بتدوينه بنفسه أثناء قيامه بمهامّ عمله. كما جاء في قولِه تحت عنوان إحضار دفاتر ترقيات أفراد الفرق: «بموجب الفرمان عالي الشّأن كان مقيدًا في دفاتر الحصر (يوقلمه)[2] توزيع ترقيةٍ مقدارُها اثنان آقجة على كلّ فردٍ من فرق أبناء السپاهية والسلحدارية «وعلوفجيان يمين»[3] الذين تواجدوا في حملة «تبريز» من قبْل، والذين صاروا يولداشيه[4]، وسُجّلت الترقية للّذين أدّوا خدماتهم

(١) انظر: تاريخ سلانيكي، ص ٢١١.

(٢) دفاتر الحصر: هي الدفاتر التي تقيد فيها تعداد الجنود في وقت الحرب من أجل توزيع الإنعام عليهم، أما الجنود غير الموجودين فتحدد قيودهم بشكل ثابت. انظر:
Midhet Sertoglu, s. 370

(٣) علوفجيان يمين: الفرقة الثانية من فرق جند الباب (قابو قولو)، وتأتي بعد فرقة السلحدارية، وتتكون من ١٢٠ بلوك، ويتواجدون في الحرب على يمين السلطان، وأيضًا يكلفون بحراسة الوزير الأعظم وأركان الدولة، وأسلحتهم عبارة عن سيف ورمح، وأيضًا من وظائفهم انتظار الخزينة في مكان نزول الجيش. انظر:
Mehmet Zeki Pakalin, III/ 550.

(٤) يولداش: بمعنى رفيق، وبهذا الاسم يخاطب الجندي زميله في فرقته. انظر:
Midhet Sertoglu، s. 370

المطلوبة منهم، وأخذوا رواتبهم المخصّصة لهذا الشّأن كاملةً بلا قصور.. وسُلّمت دفاتر السپاهية إلى «محمد حلبي»، ودفاتر السلحدارية إلى هذا الفقير «سلانيكي»، وكانت أسامي جندِ جيش الإسلام ألفيْن وتسعمائة وثلاثين فردًا، ينقصون سبعين فردًا عن فرقة السلحدارية الذين يقدّر عددُهم بثلاثة آلاف فردٍ في غرّة محرم الحرام»[1].

كذلك استعانَ سلانيكي بدفاتر التّرقيات التي اطّلع عليها، ومنها ذلك الدفتر الذي وردتْ فيه ترقياتُ الفرق؛ حيث ذكر في سياق قوله: «فبحسب تعداد فرقة اليني جري البالغ اثني عشَرَ ألفًا وثلاث أفراد؛ ينبغي ترقية الجنود ذوي اليومية التي مقدارها ثلاث آقجات إلى خمس آقجات، والخمس آقجات إلى ثمانية، والثمانية إلى تسعة، وقد بلغ تعدادُ الفرق الستة خمسة آلاف وثمانمائة وخمسة وثمانين نفرًا؛ حيث أُحسن بترقية مقدارها خمس آقجات على أبناء السپاهية والسلحدارية، وبترقية مقدارها ثلاث آقجات على جند فرقتي علوفجيان يمين ويسار، وبترقية آقجة واحدة على أفراد الإصطبل العامرة، وأفراد المطبخ العامرة، وعلى جند الجبه جيه والمدفعية....»[2].

وإلى جانب ذلك مثّلت دفاترُ التشريفات[3] أحدَ المصادر المكتوبة التي اعتمد عليها سلانيكي في تدْوين تاريخه، وأحيانًا كان يذكرُ ما يحرّره في دفاتر التشريفات كتفصيلةِ دفتر تشريفات «إبراهيم باشا»، والسفير الصفوي «طوقماق خان»، وأمير أمراء اليمنِ المعْزول، وأحيانًا كان يشيرُ إلى ذلك دون أن يذكر محتوياتِ ما كان يحرّره كتقييده الهدايا والخلع المبذولة في عرس «فريدون بك»[4].

(١) انظر: تاريخ سلانيكي، ص ٢٣٥.

(٢) انظر: تاريخ سلانيكي، ص ٦٨.

(٣) دفاتر التشريفات: هي الدفاتر التي يقوم بتحريرها افندي التشريفات، ويسجل فيها كل ما يتعلق بالتشريفات وبروتوكولات الإدارة، وكيفية تطبيقها أثناء مراسيم الدّولة في السراي وفي الدواوين. انظر:

Bas Bakanlik Osmanli Arsivi Kataloglar, Rehberi, Ankara, 1995, s. 130, 131.

(٤) انظر: تاريخ سلانيكي، ص ١٦٣.

وهكذا يتّضح أنّ وظائف سلانيكي في سلْك الماليات أتاحت له فرصةَ الاطّلاع على فرمانات الماليات والترقيات والتّشريفات الخاصّة بعمله في محاسبات الفرق.

د. الرّسائل:

تعتبرُ الرسائلُ الواردة من الأمراء والسّردارية لمركز الدّولة من الوثائق التي اطّلع عليها سلانيكي، ومن ثمّ مثّلت مادّةً حيّة اعتمد عليها في تصوير العديد من الأحداث تصويرًا حيويًّا منقولاً من موْرد الحدث نفسه، وقد أورد مضمون تلك الرّسائل في مواضعَ عديدة من أثره؛ ومِن ذلك قوله في مناسبة وصول الرسائل من بعض الأمراء المكلّفين بمهامّ الحراسة في البحر تفيد ملاقاة الأسطول الهمايوني بعدوّ الدين، وإلحاق الهزيمةِ به في ربيع الأول ٩٧٩هـ مفهومها: «لمّا أقام أمراءُ البندقية علاقةَ صداقة مع إسبانيا اللعينة، وبذلوا الأموال الكثيرة، وجمعوا المحاربين لتجهيز الأسطول بناءً على اتفاقهم واتحادهم؛ في هذه المرّة أقسموا بعقيدتهم الباطلة بمواجهةِ أسطول أهل الإسلام الذي خرج للبحر، وعقدوا عهدًا وميثاقًا بذلك، وقالوا سننتقم لجزيرة قبرص»[١].

ويتّضح من النّص السابق حرصُ الكاتب على إيراد مضمون الرسائل التي وقعتْ تحتَ يدِه كمصدرٍ من مصادر كتابه.

٣) المصادرُ السمعية:

مثّلت الرّواياتُ التي سمعها سلانيكي من رجالات الدّولة بحكم علاقاته الوطيدة بهم؛ أحدَ مصادره فيما كتبه في تاريخه، وإنْ كان لم يعتمدْ عليها اعتمادًا أساسيًّا، ومِن ثمّ لم نصادفْ إلّا بعض النّماذج القليلة التي تسب روايتها إلى أحد رجال الدّولة، منها ذكره حكاية رُويَت عن الوزير الأعظم «رستم باشا» أثناء سردِه لأحداث السّيْل الذي هطلَ على استانبول في عام ٩٧١هـ بقوله: «نُقلت عن حضرة الوزير العالم الصّادق صدر أعظمِ العصر «رستم باشا» حكاية غريبة تدلّ على ذكائه وفراستِه فيما

---

(١) انظر: تاريخ سلانيكي، ص ١٠٤.

يتعلّق بالفكرة المقصودة وبنتيجة التدبير الخاص بأمور الملك والأمة تقول: «إنّه عندما كان حضرة السلطان...»[1].

ويلاحَظ أنّ الروايات التي نقلها لم تكنْ في أغلبها معلومةَ المصدر، ومن ثمّ أشارَ إليها بعبارات: «شيوع بولدي أي أشيع، حكايت اولندي أي حُكي، نقل وحكايت ايلديلر أي نُقل وحُكي، ثقاتدن... سماع اولندى أي سمع من الثقات روايته».

وممّا سبق يتّضح أنّ المصدر السمعي لم يكنْ مصدرًا أساسيًّا؛ حيث إنّه لم يكنْ على مستوى المصدريْن؛ المرئي والمكتوب، فهو محدود، واعتمد عليه سلانيكي اعتمادًا مساعدًا.

وهكذا يتّضح أنّ سلانيكي لم يعتمدْ في كتابةِ تاريخه على مصادر تاريخية مكتوبةٍ فيما سبق عصره، وإنّما اعتمد في ذلك على المصادر المرئية والمصادر المكْتوبة المتمثّلة في الوثائق كالعروض والفرمانات، ودفاتر الترقيات والماليات والرّسائل، وكان هذان المصدران أساسيّيْن فيما كتبه، وظهر لنا- أيضًا- اعتمادُه في تدوينه لتاريخه على مصدرٍ غير أساسي تمثّل في الروايات التي سمعها.

---

(١) انظر: تاريخ سلانيكي، ص ٥.

الجزءُ الثّاني
(التّرجمة)

هذا سجلّ لأحداثِ العصر والوقائع التي جرتْ في عهد سلطنة السلطان «سليمان خان»- خلّد اللهُ تعالى خلافتَه- مقيد في تلك الأوراق المبعثرة، فليتها تصيرُ بمرور الأيام علامةَ أملٍ وسببًا للدّعاء، وبالله العصمةُ والتوفيق. حُرّر في شهر صفر سنة إحدى وسبعين وتسعمائة.

إنّه في يوم الاثنين سلخ محرم الحرام، وغرّة صفر الخير الواقع سنة إحدى وسبعين وتسعمائة من تاريخ الهجرة النبوية للنبيr ، وفي وقت السحر، تفضّل حضرةُ السلطان حامي العالم «سليمان خان»- أبّدَ اللهُ تعالى سلطنته- بالتوجّه للصّيد في نواحي «حلقة لودره»[1]. ولمّا بدتْ بشائر الأمطار في الأطراف والنّواحي تفضّل بالنزول وتشريفِ حديقة الأمير «اسكندر چلبي» بالقرب من القرية المعروفة باسم «أيا استفانوس» الواقعة على ساحل البحر. وفي تلك الأثناء كانت الأوضاعُ الفلكية وحركاتُ الأجرام السّماوية تجري على نحْوٍ لم يُسمع به، ولم يرَ مثلُه في أيّ عصر، فبدأت بالبرق الخاطف والصواعق العجيبة والمهيبة، وحُجب الفلك الدّوار بصوت الانفجار، وبدأت الآفاقُ تميل، وبسبب الرياح الشديدة هطلتِ الأمطارُ الغزيرة التي لم تنقطعْ لمدّة يوم وليلة. ونظرًا لشدة الرياح والأمطار نزلت الصّواعقُ أربعًا وسبعين مرّة. وبعد صلاة الظهر جرى السيْلُ مثل البحر من «حلقه لودره»، فأهلك كلَّ موجودٍ في الأماكن التي مرّ بها من إنسان وحيوان، وأحاط- كما كان متوقّعًا- بحديقة الأمير «اسكندر چلبي» ودخل السّراي، وأوشك أن يهدمَه من قواعده. وحاصرَ السيْلُ حضرة السلطان حامي العالم، فامتدّ من باب

(١) حلقة لودره: جدول ماء يجري في مركز Bekirkoy في استانبول.

«آغاي أندرون»[١] حتّى وصل لسدٍّ مرتفع قوي، وبعد أنْ نجَا السّلطانُ بإصعاده إلى المخزن العلويّ، وصل التضرّعُ لحدّ المذلّة، وأُدّيت سجداتُ الشكر والحمد، وُبذل المالُ الوفير، ونُحرت الذّبائح صلة للرحم، وصدقة للمستحق.

(بيت)

سجدت لله تعظيماً مراتٍ عديدة وجعلت الكبش أضحيةً عظيمة[٢].

وملأ سيلُ الأمطار العظيم- الذي كان يهطلُ باستمرارٍ في تلك الليلة- أعينَ دعائم «كمرلر» مجاري المياه «صويولي» التي أُنشئت من جديد؛ ملأها بالقمامة تمامًا، وأصبح كلّ وادٍ كالبحر، وبتدفّق المياه المتجمعة من فوق دعائم مجاري المياه على أساساتها أُلحقَ الضّررُ ببنائها، ونتيجة لذلك تهدّمت من أحد أطرافها. ومعَ حدوث أصوات مروّعة أثناء الليلِ انْهارت دعامةُ مجرى المياه المعروفة باسم «مغلاوة»، كما حطّمت سائر الدعائم، واختلطت مجاري المياه كلٌّ منها بالأخرى، وتجمّعت أوراقُ الأشجار والقمامات التي حملتها مياهُ السّيل من قمم أشجار «چنار»[٣] الموجودة في «كاغد خانه»،

(١) آغاي اندرون: أي أغوات القصر المتواجدين في خدمة السلطان، وأهمهم:

أ. أغوات الباب: وهم أعلى آغوات القصر، وكان يتم اختيارهم في الأزمنة الأولى من الأغوات البيض، ووظيفة آغا الباب المحافظة على القصر ومرافقة السلطان دائمًا عند خروجه بإستثناء خروجه للصيد، وفي عهد مراد الثالث تدني منصبه بسبب اكتساب الأغوات السود الأهمية، وكان آغا الباب يتقاضى في النصف الثاني من القرن ١٦م يومية قدرها ٩٠ آقجة، بالإضافة إلى ١٨ ألف آقجة سنوية.

ب. آغا الخزنجية: وهو رئيس خدم الخزينة الهمايونية، ويقوم بنظارة الشئون المالية المتعلقة بها.

ج. آغا الأنبار (المؤن): يتواجد في الخدمة الهمايونية أثناء سفرة السلطان، ويقوم بنظارة موظفي المؤن، والمحافظة على أدوات السفرة.

د. آغا السراي: ويقوم بالمحافظة على الحجرات الـ«خاص» الصغيرة والكبيرة التي تعرف باسم «اندرون همايون».

هـ. آغا «خاص اوده» وآغا السلحدارية وجوقة دار والـ«ركاب دار»، وكتخدا البوابين، ورئيس الجاويشية، ورئيس البوستانجية....

(٢) «نيجه كز سجده كوسفند دلى قربان ايتدم».

(٣) چنار: نوع من الأشجار الضخمة طويلة الأفرع ذات ثمار ، ومعمرة.

وأغرق السيل الذي وصل لنهر «كاغدخانه»[١] حيَّ «حضرة أبو أيوب الأنصاري»[٢] عليه رحمة الباري؛ حيث ارتفعتِ المياه فيه قدْرَ ذراع، وذلك في الوقت الذي كان في القبر الشريف في موْضع مرتفع جدًّا، وفاض خليجُ استانبول ومضيق غلطة[٣]، بمياه «السيل المذكور»، فلم تتحمّلْه القصورُ والمنازل ذات الأسقف المخروطية الواقعة على ساحل البحر؛ فتهدّمت، أمّا التي كانت أكثرَ استحكامًا فقد بقيَتْ سالمة. ولمّا تدفّقت مياه قناة السراي العامرة بشدّةٍ في البحر تغيّر لونُه وطعمُه لمدّة أسبوع، وذلك على الرّغم من جريانه، ولو كان هناك جسرٌ موجود في حي «سلوري»[٤]، أوْ كانت هناك جسور أخرى في مناطق «چكمجه صغير وكبير»[٥]، و«حرامي دره»[٦]، أو في أيّ مكانٍ آخر؛ لمّا تحمّلت تلاطمَ مياه السيل العظيم الذي حدث، ولخربَت، وبحكمة ربّ العالمين لمّا ظهرت سطوة السيل القاهرة، أصبح الناس جميعًا في حالةٍ من الضنْك والحيرة والاضْطراب، فجُهّزت السّفن لعبور الناجين؛ حيث ظهرتْ عليهم آثارُ المحنة العظيمة والتّعب والمشقة الشديدة، و«الحكمُ لله العلي الكبير».

تتمّةُ القصّة

وفي هذه الأثناء، وصل «حضرة خليفة» وجه الأرض والزمان «السلطان سليمان خان» مع حضرات الوزراء الكرام من كافّة الأركان أصحاب الدّولة والسعادة؛ وصل لتفقّد الأماكن التي انْهارت فوق دعائم قنوات المياه، وأحْسَن على «سنان آغا» رئيس معماري العالم، ومهندسي العصور بـ «خلعة فاخرة»، ومهْما بذل من الأموال الكثيرة في هذا الخصوص بناءً على الطور المحبوب، والأسلوب المرغوب يتفضّل

---

(١) كاغد خانه: نهر يصب في خليج استانبول.

(٢) حي أبي أيوب الأنصاري: اسم حي في استانبول نسبة إلى أبي أيوب الأنصاري المدفون فيه، وهو من الصحابة الكبار.

(٣) مضيق غلطة: يقع على الساحل الشمالي لخليج استانبول.

(٤) حي سلوري: يقع في شمال استانبول.

(٥) جكمجه صغير وكبير: مركز نهران في مركز جتالجه باستانبول.

(٦) حرامي دره: نهر يصب في مرمرة جنوب قرية Kucuk Cekmece بنحو ٦ كم الواقعة في نهاية Cekmece Buyuk.

السلطانُ بقوله: «إنّه مقبولٌ لدى سعادتي»، ولمّا صدر الأمر السلطاني موصيًا بأن تبذلَ جماعة الرؤساء[١]، والعزبان[٢]، والفورسا[٣] الذين كانوا تحت إمرة حضرة القبطان «بيالة باشا» ومعلمي اليني جري «يكجري» الموجودين تحت رئاسة «آغا اليكجري»[٤] (يكجري آغاسي) «على آغا» والخدم الأشداء من غلمان الأعاجم؛ بأنْ تبذلَ جهدَها بالتناوب، وأنْ يُعطوا ترقياتهم ورتبهم بحسب القانون، شرعوا في الحالِ بإعداد أدوات ووسائلَ بناءِ قنوات المياه بهمّة عالية، في شهر ربيع الأول سنة واحد وسبعين وتسعمائة.

تتمّةُ القصّة

وقبلَ ذلك كان الشّخصُ المعروف باسم «صوفي علي بك» يعمل في منصب رئاسة الجبه جيه، ثمّ في منصب «كتخدائية القبو جيلر»[٥]، وبعد ذلك أصبح معلّمَ «لالا»[٦] حضرة الأمير المحظوظ واللائق بالتاج والعرض والمقضي المرام «السّلطان سليم خان»- طاب بقاهُ ونال ما تمنّاه- بدرجة «سنجق»[٧]. وقد أعدت هذه

---

(١) الرؤساء: لقب يطلق على أمراء البحر في القرن الـ ١٧م، وبدءًا من أوائل القرن الـ ٢٠م استخدم بدلًا منه نقد قبطان.

(٢) العزبان: يطلق على عسكر المشاه الخفيف، وموضعهم أثناء الحرب في المقدمة، وبدءًا من القرن ١٦م، كلفوا بحراسة القلاع، وقسم منهم يعمل في الأسطول العثماني.

(٣) الفورسا: هم أسرى الحرب المأمورين بالتجديف على السفن.

(٤) آغا الييني جري: أعلى ضابط في فرقة الانكشارية- إحدى فرق المشاة- وذو علوفة يومية سبعين آقجة.

(٥) كتخدية القبو جيلر: أعلى فرد في البوابين، ويأتي بعد رئيس البوابين، ويتواجد في الديوان الهمايوني، وحتى النصف الثاني من القرن ١٧م، كانت وظيفته أخذ خاتم السلطان من الوزراء المعزولين، وتسليمه للصدر الأعظم الجديد، وجمع العرضحالات المقدمة للسلطان، وأحيانًا يتواجد تحت إمرة الصدر الأعظم في الأيام التي لا ينعقد فيها الديوان.

(٦) لالا: تطلق على من يعلمون ويربون السلاطين العثمانيين، وكان السلاطين يخاطبون وزراءهم بهذا الاسم.

(٧) سنجق: علم من قماش حرير يرفع على رمح عند الأتراك في وسط آسيا، ويتّخذ رمزًا للبطولة والشجاعة، وفي بادئ الأمر كان علم العثمانيين أبيض وفي القرن ١٥م أصبح أحمرَ، وفي عهد القانوني كان الأصفر والأحمر، وفي عهد سليم الثالث الأحمر وعليه هلال وثلاث نجوم، وفي عهد محمود الثاني غير الييني جري اسمه من بايراق إلى سنجاق، وهو درجة إدارية في التشكيلات العثمانية.

التّجهيزاتُ بجهدِ شخصٍ مجدّ وساعٍ كهذا، واكتملت، ودخلت إلى استانبول مائة وعشر ماسورة «لوله» ماءً صافي مثلَ الزّلال، وكانت كلّ ماسورة منها عبارة عنْ أربعة مواسير تقليدية، وعندما جرى الماءُ في المواسير تصدّق السلطانُ على «صوفي علي بك» وأحْسَن عليه بإمارة أمراءِ مرعش[1] مقابلَ خدمته هذه، وذلك في الوقت الذي كان فيه أميرُ سنجق «ترحاله»، وبذلك يكون قد نال مراده. وحاصل الكلام أنّه بسبب الآفة السّماوية- المقصود: السّيل الجارف- أصبحت دعائمُ مجاري المياه خربَةً من مواضع كثيرة. ونتيجة لهذا صار الناسُ جميعًا في درجة عاليةٍ من الضّجر والحيرة، ولّما كانت هذه الأيام حارة، فقد صار المسلمون متعطّشين للماء الذي كانت قرْبةُ الجوادِ الواحد منه تباع بخمسة عشر آقجة[2]، ولّما كانوا في حالةٍ من الضيق، وفي كامل الاحتياج؛ لم تتمكّن الآبار والعيون من دفْع ضرورة العطش هذه؛ وهكذا عقدَ حضرة سلطان الأرض والزمان عزمه، وبذل وافرَ الإحسان لإرواء أكبادِ الإنسان والحيوان العطشى؛ وذلك بتقديم المال الوفير، فنالَ الأجرَ الجزيل، ووضع في أنحاء الدّولة نواةَ السّلوك الحسن، والاسم الشهير، والعلامة المميّزة في سنة تسعمائة واثنين وسبعين هجرية/ ١٥٦٤م.

تتمّةُ القصّة

نُقلتْ عن حضرة الوزير العالم الصادق صدر أعظم[3] العصر «رستم باشا» حكايةٌ غريبة تدلّ على ذكائه وفراسته فيما يتعلّق بالفكرة المقصودة، وبنتيجة التدبير الخاصّ

---

(١) مرعش: مدينة على الثغور بين الشام وبلاد الروم.

(٢) آقجة: سكها السلطان أورخان في بورسة عام ١٣٢٧م واسْتُخدمت حتى عام ١٦٨٧م، وعلى أحد وجهيها «لا إله إلا الله» مع أسماء الخلفاء الراشدين، وعلى الوجه الآخر اسم الحاكم، وفي عهد يلدرم بايزيد وضع عليها تاريخًا، وكانت تزن في عهد أورخان ١٦ قيراطًا من الفضة عيار ٩٠، وانخفضت قيمة الآقجة خلال القرن ١٧م.

(٣) الصدر الأعظم: هو وكيل السلطان في كافة شئون الدولة، بالإضافة إلى رئاسته لديوان يعرف باسم «ديوان العصر» (ايكندي ديواني)، وفيه يقوم بإتمام أعمال الديوان الهمايوني، وكان ينوب عن السلطان في قيادة الحملات، ويتقاضى مقابل خدمته مقاطعة أرض علاوة على دخول أخرى.

بأمور الملك والأمّة تقول: «إنّه عندما كان حضرة السلطان الفلكي الوقار يقومُ بالصّيد في أغلب الأوقات في نواحي مياه «كاغدخانه» اكتشف آثار الأبنية الطّينية، والماء الجاري الذي كان مُستخدمًا في عصر الكفّار؛ حيث كان الماء يأتي، ويملأ أحواضَ البساتين الموجودة داخلَ استانبول، ومن ثمّ أصبح معلومًا لدى السّلطان أنّه: لمّا ادّخر الكفارُ هذا الماءَ انتفعوا به، ثمّ أنه عندما فسد بمرور الشّهور والأعوام؛ تُرك؛ ومنذُ أن أصبحت استانبول من نصيبِ أهل الإسلام صارتْ هذه المدينة معمورةً وآهلة؛ نظرًا لكثرةِ ووفرة وازدحام الناس فيها.

وعلى أثرِ ظهور الحاجةِ لتوفير الماء أمر حضرةُ السلطان فلكي الوقار بإحضار الأستاذ العظيم، والمشهور باسم «كرز نيقوله»، والذي اختبرت مهارته في البناء؛ إحضاره من أجل هذا الخصوص. وكان السّلطان كثيرًا ما يجده أثناء الصيد في هذا المكان، وعندما سمع جناب الوزير صافي الضميرِ ما أمر به السلطان فيما يتعلق بأحوال طريق مجرى الماء؛ أمر بإحضار الذمي المذكور، وأُشيع بأنّ الوزير قد حبسَه سرًّا لبضعةِ أيام. ولمّا وصل الخبر إلى مسامع حضرة السلطان على أثرِ تناقله بين ألسنةِ الناس عقدَ ذات يومٍ في منطقة «كاخدخانه» مجلسه «آياق ديواني»[1].

وعندما سُئل الپاشا[2] المشارُ إليه بخطابِ عتاب، عن سبب حبس الذمي المعهود إليه تنفيذُ طريقِ الماء؛ أجاب بصدق قائلًا: «في الوقت الذي لم يكن لدى عبدِك فيه علمٌ بالأمر، كان عليّ أن أفتح الطريقَ لمتابعة كافّة مصاريف الخزينة في عزّ الحضور الهمايوني، وبذلك حُبس الذّمي لبضعةِ أيام من أجل الوقوف على صدق واستقامة ما بسطه من مقدّمات، وليرى، ولنجعله يتكلّم؛ لنعلم على أيّ نحوٍ سيتمّ هذا الأمر، وقد تمّ التحقّقُ من أنّه «الباشا» قد ختم الكلام بقوله: «في الحقيقة ليست هناك فضيلةٌ

(١) آياق ديواني: ومعناه ديوان القدم؛ لأن المجتمعين فيه كانوًا وقوفًا على الدوام، وهو ديوان يعقد خارج الديوان السلطاني، ويرأسه الصدر الأعظم، وهو اجتماع طارئ خاص تمس الحاجة فيه إلى حل سريع حاسم.

(٢) پاشا: لقب يطلق على ذوي المناصب كالوزراء في الدّولة العثمانية، وبعد إلغاء فرقة الينى جري في عام ١٨٢٦م، منح بدلًا منه لقب جنرال، وفي القرن ١٩ منح هذا اللقب لذوي المناصب من رجال الدولة.

ذات أجر وثواب بلا حدّ كإحضار الماء، لكن يا سيدي بجريان هذا الماء سوف يقامُ سبيل (جشمة) في كلّ مكان من استانبول، وعندما يصبح الماء مجانيًّا يأتي الرّعايا الموجودون في الأطراف والنواحي، وعلى الخصوص عوامُّ ممالك العرب والعجم، ويستقرّون في استانبول، ويصبحون سببًا لكثرة وازدحام الناس، ونتيجة لذلك يصبحُ إيصال اللّحم والخبز وسائر الحبوب والمأكولات لهذه الولاية أمرًا عسيرًا، ويصير من المؤكّد تعرّض معيشة العساكر المنصورة لأزمةٍ شديدة، وبهذا الشكل تختلّ أسعار البيع والشّراء بين المسلمين، وتضطرب الأسعار، وتمتلئ استانبول بالفاسدين، ولن يكونَ غريبًا إذا هجرت طائفةُ الفلاحين أراضيها، وتركتها، وأن الدّولة في أيام دولة السّلطان سليمان سوف يمكنها تفادي كلّ أنواع المحن والمشقات، ولكن بمرور الأيام فإنّ الحالة في عهودِ الأولاد الكرام والسلاطين العظام الذين سيأتون بعد ذلك ستكون مشكلةً عسيرة، وقد تمّ تسجيلُ ذلك في هذه المجلة في سنة تسعمائة واثنتين وسبعين، وفي الحقيقة، أنّ الوزيرَ بتصريحه هذا يكونُ قد شخّص الضائقةَ التي ستحلّ بالسلطنة بعد ثلاثين عامًا، وأخبر بها.

ما أجمل المتـــاع مـــا بقيـــت   المعرفـة خاليـة مـن نقـد العالـم
يظهـر عاليــــًا علـى العالــــم   الشخص الذي يكون عاقلًا بأمر العالم
يـضيء الضمـــير بــــرأي الوزراء   ويكفـــي عمـــــل الملـــوك[1]

تجهيز الأسطول الهمايوني بهمّةٍ عالية بنيّة فتح

قلعةِ الكفّار الخاسرين المتينة التي تقع في جزيرة مالطة

وتوجّه السّردار[2] «مصطفى باشا» والقبطان «بيالة باشا» إليها.

---

(١)

جه نيكو متـاعيب كاراكهي   كزين نقـــد عالـــم بهاداتهي
بعالم كي ســـر بـــر آرد بلنـد   كه ازكار عـــالم بود هوشمند
زرأى وزيـــران روشن ضمير   شودكار شاهان كفايت بذير.

(٢) سردار: الاسم الذي يطلق على الصدر الأعظم المتوجه للحرب بدون السلطان كقائد للجيش في وقت الحملة.

في عام تسعمائة واثنين وسبعين من تاريخ الهجرة النبوية، وبحلول موسم البحر[1]؛ خرج القبطان «سنان باشا» تمساح البحر العظيم، وشقيق «رستم باشا»- السّابق الذكر- على رأس أربعة سفن «قدرغة»[2]، وصلتْ للمرسى الدائم لسفن أهلِ الإسلام الذين يستعدّون للحملة البحرية.

وبعوْنه تعالى أظهروا القوةَ القاهرة لضرب السيف البتّار، وفجأة كسرتهم الحربُ الغدّارة، فسحبوا أحمالَهم بصعوبة، وسناجقهم للترسانة العامرة الموجودة في الآستانة التي هي آية السّماء، وكانت الرياحُ شديدةً بحيث دفعت فتنهم وأذاهم من فوق سطح البحر، ومنذ البحر، ومنذُ ذلك الوقت أتمّ الكفارُ- الذين مأواهم جهنم- تحصينَ قلاعهم المنحوسة، واستعدّت أساطيلهم، وكان أسرى المسلمين يعيشون في أنينٍ وعذابٍ نتيجة لهذه المحنة.

وفي هذه الأثناء، لمّا وصل الخبرُ بأنّه بينما كانت بارجة بوستانجي باشي (رئيس البوستانجية)[3] آتيةً ومحمّلة بالتّجار والحجاج؛ قام الكفّار الأذلاء بشنّ هجوم عظيم على السفينة، واستولوا عليها؛ لم يبقْ هناك شخصٌ بلا بكاء وعويل بسببِ تلكَ المصائب المذكورة، حيث عقد ديوان يعرف بـ «آياق ديواني»، ونوقشت فيه أحوالُ مالطة مع وكلاءِ الدّولة والسلطنة، والوزراء العظام، وعندما جاء حضرة السّلطان الذي عساكره كالأنْجم إلى السراي الهمايوني، وأصدر قراره بناءً على الرّأي الصائب الذي أبداه كلٌّ منهم؛ أرسلَ تذكرةً شريفة مفصلة للصدر الأعظم علي باشا، يقول فيها: «عليك أن تتوجّه للتّرسانة العامرة، وتأمر بإحضار القراصنة وأمراء البحر

(١) موسم البحر: يوافق بداية الربيع؛ حيث تذوب الثلوج، وتتخذ التدابير الأمنية لمواجهة القراصنة في كافة أرجاء الدّولة العثمانية.

(٢) قادرغة: نوع من السفن الحربية تسير بالمجاديف والشراع، ويقوم بتحريك المجداف أربعة من السجناء، ولها ١٩٨ مجدافًا، وعلى متنها ٤ مدافع متوسطة الحجم، و٨ صغيرة الحجم، ومائة محارب.

(٣) بوستانجي باشي: رئيس فرقة البوستانجية، ومهمته الحفاظ على سواحل مرمرة، والبحر الأسود، وخليج استانبول، ومرافقة السلطان في تجواله بحديثة القصر، وقيادة دفة قاربه.

(رئيسلر) القدامى مع القبودان «بيالة باشا»، وتعقد الديوان العالي، وتوفّر وتجهّز سفن الأسطول بكافة احتياجاتها.

أمّا التذكرة[1] الهمايونية الأخرى التي أُرسلت إلى القبودان «بيالة باشا» فقد جاءَ فيها: «إنّه لمّا عقدتُ نيّتي وعزيمتي على الخروج للغزو بأسطولي الهمايوني هذه المرّة أيضًا؛ فعليك بذلُ كلّ ما في وسْعك لتوفير وإعداد أسباب وآلات المهمات بفكر عميق، ورأي رزين، وألّا نتوانى دقيقةً واحدة في السعي والاهتمام في مباشرةِ إعدادً البارود، ومهمّات الحرب بالقدْر الكافي، ولتكن جاهزًا ومهيّأ، والمأمول من ألطاف الباري التي لا نهاية لها أن يتمّ النّصرُ والظفر على عدوّ الدين، وأن يكون عسكرُ الإسلام منصورين ومظفّرين.

في يوم الخميس الموافق غرّة شهر رجب، جاء الصدر الأعظم علي باشا[2] صاحب الشّوكة والوقار إلى الترسانة، وعقد الديوان العالي، ونثر الجواهر بدلًا من الكلام على الأجناد اليقظين والقراصنة الأعلام المعروفين باسم «أوجاق زاده» في محميّة «غلطة» القديمة التي كانت منارةً عظيمة في فنّ الملاحة، وقال: «ينبغي عدمُ الخروج بأقلّ من ثلاثمائة سفينة وعشرين قطعة مدفع، كلّ واحدةٍ منها تستطيع قذف اثنين وثلاثين وقية، ومائة وعشرين قطعة مدفع «قولنبورة»[3]، ومدفع «ضربزن»[4]، سلطاني، وخمس قطع «مدفع هوائي»، وعشرين ألف قنطار بارود، وأربعين ألف قذيفة مدفع، وعشرة آلاف مجرفة وفأس، وخمسين بارجة مدفع، وسفن خيل، وذلك لضرب القلعة، وألّا يقصروا في توفير وإعداد الحبوب والبكسمات، والمواد الغذائية، وسائر اللوازم والمهمات الضرورية لعسكر الإسلام، وأرسلوا المقدار الذي نريده منها، ولنحمل أثقالنا، والنصرُ بيَدِ الحقّ تعالى».

---

(١) تذكرة: تطلق على الأوراق الرسمية المتداولة بين الدوائر الرسمية في الدّولة العثمانية، كما تطلق على البيانات التي يقدمها رئيس الكتاب عن نفسه لكتاب الديوان الهمايوني.

(٢) علي باشا : تولى الوزارة العظمة خلال الفترة (١٥٦١ – ١٥٦٥م).

(٣) قولنبورة: نوع من المدافع القديمة المستخدمة على البر وعلى السفن.

(٤) ضربزن: نوع من المدافع الصغيرة ذات شكل عريض، وأكبرها يسمى شاهي.

ولكنْ مهما أعدّ مِن أثقال وأحمال المعركة والجدال والحرب والقتال بحسب المقْدار المطلوب، فإنّ ذلك سيكون سببًا لقوّة قلب الغزاة المجاهدين، فأظهروا بالغ الاهتمام في كلّ خصوص، ولا يقصروا، وعلى أثر تجهيز الحملة كما ينبغي، وإصدار حضرة السلطان حامي العالم فرمان «بأنّ أيّ شخص يرغب في الترقي والمنصب علاوةً على المنافع الأخرى من الراغبين لأجر وثواب الغزو والجهاد من خدم القابوقوللر[1]؛ فليخرج للحملةِ برضا السلطان»، فسجّل رجالٌ كثيرون رغبتَهم من كلّ طائفة من خدم مركز الدّولة (آستانة)، وصاروا بحّارة في الأسطول، وأراد مصطفى باشا شقيق الوزير المكرم «قزل أحمد لو شمس باشا» أنْ يصبح قائدًا لعساكر الإسلام، فصدَرَ الأمرُ بتعيينه بلا تردّد، باعتباره معقولًا ومناسبًا. وبعونه تعالى اقترن اسمُه بمختلف الفتوحات الجليلة، وقام عامّةُ النّاس بالدعاء والرجاء من الله تعالى أنْ يجعل عدوَّ الدين مقهورًا ومنهزمًا، وعسكر الإسلام منصورين ومظفّرين. وعند ظهور شرفِ الشّمس في يوم «نوروز خوارزم شاه» من شعبان السنة المذكورة، جاء العساكرُ المنصورة مع القائد الذي شعاره النصر؛ جاءوا منظّمين ومزيّنين بالهيبة والوقار إلى سُدّة السّلطنة، وعندما قابلهم الوزراءُ العظام مع جملة أركانِ الدّولة، واستقبلوهم، وسلموا عليهم بالعزة والوقار؛ توجّهوا لمجلس جناب السّلطان رفيع المقام. ولم ينحنوا له، وخرجوا بالخلع الفاخر والسيوف المرصّعة بالذّهب، ورفرفت راياتُ الفتح التي آياتها الإسلام، ودقّت طبول ونفارات السلطنة، وأرشدهم أعيانُ الدولة، فتوجّهوا إلى سفينة النزهة السلطانية «باشدارده»[2]، الموجودة بميناء «امين»[3]. وبموجب القانون المعمول به

(١) قابوقوللر: تشكل هذه الفرقة من الأسرى صغار السن بعد إتمامهم تدريبهم العسكري، وتعليمهم الإسلام في فرقة أولاد العجم، بعدها يسجلون في إحدى فرق القابوقوللر (المشاة، اليني جري، الجبة جيه، والمدفعية والعربجية)، وفي حالة ترقية أحد من هذه الفرقة ينتقل إلى فرقة الفرسان (سواري)، وكان هؤلاء المشاة والفرسان يشكلون النوّاة الأساسية في الجيش العثماني، ويعطون مرتبات دورية من خزينة الدولة، ويُطلق عليهم أيضًا اسم خدم الباب العالي.

(٢) باشدارده: سفينة خاصة بالسلاطين، وكان لونها ولون مجاديفها وشراعها أخضر، ويعين لها رئيس.

(٣) أمين: ميناء أمام «يكي جامع» الواقع في استانبول.

دخل حضرات الوزراء العظام معهم إلى الباشداردە، وساروا نحو «بشكطاش»[١].
وكان سفن الأسطول الهمايوني مزينةً بجيش من أبطال الحرب بكل عظمة ووقار؛ حيث أثنى رعايا الدّولة عليهم عند سيْرهم وتجْوالهم. وكان كلّ واحدٍ من هؤلاء الأبطال الذين كانوا كالوحوش والنمور موشّحًا بأسلحته ومهماته بمهابة وصلابة، فبَدوا في زينة ونظام، وفي ذلك اليوم رفعوا الهلب من ميناء « بشكطاش» على التوّ، وخرجوا جميعًا، ورسا الموكبُ أمام السراي العامرة. وعندئذ أطلقوا المدافع، وبسبب وضع ألواحٍ حديدية انتشر صدى صوتها في المكان، ولم يخرج الصدر الأعظم من الباشداردهً؛ حيث ذهبوا معًا حتّى وصلوا أمام سراي «يدى قله»[٢]، وهناك تباحثوا بحيث إنهم لم يتركوا شأنًا من شئون الدّولة الهامّة مشكوكًا فيه ومشوشًا، وعند توديعه إياهم، وخروجه، قال ودموعُ عينه تنهمر: «أمراؤنا الممكّنون، يظنّون أنّ قلعة «مالطة» مصنوعةٌ من الحلوى، ويريدون أكلها. وإنّ قلبي لا يشعر بالارتياح تجاه تفكيرهم وتصرّفاتهم، فهي لا توافق طبعي، وليس هناك كلامٌ آخر يقال. وقد أدركت أن نصيحتي لم تصلْ لآذانهم، فليجعل الحقّ- سبحانه وتعالى- العاقبة خيرًا، وهكذا لم أرَ تشتّتهم، فالمولى- فقط- يعلمُ ما سوف أصلُ إليه، فعليك أنت أنْ ترى، فسوف يرى هؤلاء كيف ستكون النهاية».

وكانت قد صُرفت أموال كثيرة من خزينة القصر من أجل الأسطول الهمايوني؛ إلّا أنّ حضرة قائدِ الحملة وقائد الأسطول (القبودان باشا) كرّر وطلب الأموال من خزينة الدّاخل مدّعين أنّها لا تكفي، ومن أجل هذا تكدّر الخاطر العاطر المبارك لحضرةِ السّلطان صاحب الشوكة، وكان عليه ألّا يرد طلبهم، ويأمر بإرسال الذهب مِن خزينة الدّاخـل بالأكياس، ولكنْ قال يومًا لأمير الإسطبل «ميراخور»[٣]

---

(١) بشكطاش: مركز في استانبول على ساحل الروم ايلي.

(٢) يدي قوله: وتعني القلاع السبع، وهي تشغل جزءًا من سور استانبول، وتقع في مكان يحمل نفس الاسم، وكان يحبس فيها رجال الدّولة من الوزراء والأمراء عقابًا لهم.

(٣) ميراخور: أعلى أمير في الإسطبل، وهو من آغوات الركاب السلطاني، ويتولى نظارة المراعي والأحراش المتعلقة بالإسطبل، وإلى جانب راتبه يعطى مقاطعة، وبدءًا من القرن السابع عشر الميلادي كان يرقى بدرجة وزير.

«فرهاد آغا»: ضاقتْ نفسي بسبب طلبِ حماك الأموال باستمرار، وخرج من فمي كلامٌ غريب بحسْب طبيعتي البشرِية، ولا أعرف هل ستصادفُ أعمالهم تلك نجاحًا، فندمتُ بعد ذلك. لكنْ ما الفائدة؟ فالندمُ لا ينفع. هذا الكلامُ قد ورد أيضًا على لسان السّلطان محمد الثاني (الفاتح)، وقال: فلْتَرَ ماذا يجبُ علينا أن نفعل؟ فقد أجبرني حماك على الكلام، ولكن لم يقلْ بأنّه تقيّد بكلمته؛ بل كتم ذلك. وقد أتيح للفقير-سلانيكي- الاستماع لكلمةِ الحقّ التي عندما رويت؛ قلت: ليكن ما قاله السّلطان، فقالوا: لم يذكر!

(خروجُ أمير أمراء الروميلي «أحمد باشا» إلى مقاطعةِ «صوفية»[1] بموجب الفرمان عالي الشأن، وتوديعُ أركان الدّولة للموْكب)

في أواسط شهر ذي القعدة من سنة اثنتين وسبعين وتسعمائة، خرج أميرُ أمراء الرّوميلي[2] «أحمد شمس باشا» قاصدًا مقاطعة «صوفيه» ومن قبل كان قد تمّ التّنبيه والتأكيدُ بشكل مُحْكم على الأمراء والزعماء[3]، وأصحاب التيمار[4]، للاستعداد للحملة،

---

(١) صوفيا: مركز بلغارستان (بلغاريا).

(٢) أمير أمراء الروم ايلي: أعلى درجة أمير أمراء في الدولة، ويرتقي إلى هذه الرتبة أمير أمراء الأناضول الذي يدنوه في الرتبة، وإذا ما رقي أحدهما صار وزيرًا، وكانا يشتركان في المشاورات في الديوان الهمايوني، واعتبارًا من القرن السابع عشر الميلادي كان من يتبوأ هذين المنصبين في درجة وزير.

(٣) الزعماء: أصحاب الزعامة، وهي أرض زراعية تعطى لذوي الخدمات الطويلة والعلوفات العالية، وعندما يترقى صاحب التيمار يعطى زعامة، ويبلغ خراج الزعامة ما بين عشرين ألف إلى مائة ألف آقجة، ويأخذ أصحاب الزعامة العشور والرسوم السنوية الخاصة بالدولة، وذلك مقابل الخدمات العسكرية التي يقومون بها.

(٤) أصحاب التيمار: يعتبر نظام التيمار سربًا لتشكيل سباهية التيمار التي تعد الدعامة الأساسية للدولة العثمانية، وتبلغ قيمة التيمار من ١٠٠٠: ٩٩,٩٩٩ آقجة، وكان كل صاحب تيمار يقوم بتجهيز مجموعة فرسان للخروج للحملات بحسب قيمة تيمارهم، ويخرجون للحملة تحت قيادة أمير السنجق، ونظام التيمار لم يكلف الدّولة أية أعباء؛ إلا أنه في أواخر القرن السادس عشر الميلادي اضطرب هذا النظام العسكرية، ممّا أدى إلى وجود خلل بالمؤسسة العسكرية التي قامت عليها الدولة.

وكانت الأحكامُ الشّريفة قد وجّهت إليه بما يلي: «لتستعد ولتتجهّز ولتكنْ مهيئًا ومسلّحًا بوسائل مواجهة العدو، ولتنتظر الأمر السلطاني في موقعت». ولمّا كان الأميرُ المشار إليه من ذرية خالد بن الوليد- رضي اللهُ عنه-، وكانت درايتُه بالحرب معروفةً كضوْء ولمعان الشمس؛ فقد فتح في ذلك اليوم السعيد أبواب خيمةِ الخدم والحشم، وظهر الجندُ بعدد النّجوم متزيّنين، وبدا الموكب على درجة عاليةٍ من البهاء والعظمة؛ حيث خرجوا جميعًا في يوم بهيج، أمّا أهالي استانبول فكانوا عاشقين للنّزهة والتّجوال، ولم يشاهدوا خروجَ أميرٍ أمراء منذ فترة طويلةٍ على هذه العادات المحبوبة والتقاليد المرغوبة، فرفعوا أصواتهم بأنواع المدائح والثناء والأدعية المقبولة، فدبّ الخوفُ والرهبة في قلوب عدوّ الدّين والدولة، وكوتِ الحسرةُ أكبادَهم، فتحيّروا واضطربوا. وبحسب المراسيم القديم قام جميعُ أركان الدولة، وأعيانُ السّلطنة، والوزراء العظام، والعلماء الكرام، والمشايخ ذوي الاحترام، وسادات الأنام بتوديع أمير الأمراء خارج باب «ادرنه»[1]، ودعا كلّ الأنام للقائد المشار إليه بأدعيةِ الفتح والنصر، وودّع بعضُهم بعضًا، ولكن كان قد حلّ الضّعف العام بصحّة الوزير الأعظم «علي باشا»، حيث اضطرب أكثر بسبب عدم تواجده مع أركان الدّولة، وبينما كان متحاملًا على المرض ساعيًا لإلقاء نظرة أخيرة على جندنا؛ أُحيط علمًا بأنّ حضرة الصدر الأعظم اختار الرحيلَ للآخرة متأثرًا بمرض «الخناق» في المنزل الثاني من «جتالجه»[2]، وأنّ خاتم الصدارة أُنعم به على حضرةِ الوزير «محمد باشا»، ولم يكن ممكنًا لدى هذا الحقير الذي لا شأن له (سلانيكي) الافتراقُ عن خدمة حضرة القائد، والحديث إليه في مجلسه الشريف.

وبينما كان سلانيكي مكلّفًا بخدمة تلاوة سورة «الفتح» وقتَ التمجيد في سراي حضرةِ الوزير الأعظم الجديد «محمد باشا»؛ وصلَهُ خبرُ وفاة الوالد في «سلانيك»، ومن ثمّ التمسَ عذرَ صلةِ الرّحم لأخذ الإذن والأجازة، ولم يفترق في هذه الرحلة عنْ

---

(١) أدرنة: تقع في استانبول على الجانب الأوروبي.

(٢) جتالجة: مركز في ولاية استانبول.

مصاحبة ذوي الطّباع الحسنة، وأصحاب القلوب أمثال: دفتردار التيمار[1] «قيطاس زادة أحمد أفندي»، والمرحوم «خيالي بك زاده عمر بك»، والقاضي عشرتي أفندي، والكاتب «خدايي أفندي».

ومعَ تزايد أيام السّرور توجّهوا سويًّا لمقاطعة «صوفيه»، متنزهين ومشاهدين المَراعي الخضراء، وكانت صحراء صوفيه مليئةً بالعساكر التي مآثرها النصر، فنزلوا بها، وبعد أنِ استراحوا عدّةَ أيام، جاء الـ«جاوش» «يوكرك عبدي» من جاويشية البلاط العالي[2]، وكان شقيقًا لحضرة أفندينا «شمسي باشا»، والـ«جاوش سلام» التّابع لحضرة القائد الأكرم «مصطفى باشا» المتجه إلى مالطة، جاء لمركز الدّولة بالبشرى، وكان «يوكرك عبدي» قد أرسل صاحبَ الفهم الثّاقب، والفراسة المدعو «جاوش منصور» إلى مجلس أخيه أميرِ الأمراء المشار إليه «شمسي باشا» برسالةٍ خاصّة، وبينما كان «شمسي باشا» في حوارٍ حول علوم المعارف بودٍّ حَسَن مع أربابِ الوقوف في المرعى المعروف بـ «وينوش»، جاء الجاوش المذكور، ووصل، وعندما سُئل عن سببِ قدومه أخبرَ قائلًا: «اقترب جندُ الإسلام بالأسطول الهمايوني نحوَ جزيرة مالطة بالسلامة والعافية، وأقاموا رصيفًا للميناء، وأبرروا دون تعب أو مشقّة، وشرعوا في إقامة المتاريس، وفتحوا ذلك الميناءَ في غضون بضعة أيام. وبعدَه ضُربت القلعةُ الحصينة المعروفة بـ «سترمه»[3]، واشتعلت الحرب، واحتدم القتالُ ليلَ نهار. وفي النّهاية تشوّشت الرؤيةُ لديهم جميعًا، فقاموا بهجوم شامل على عجلةٍ وبلا اتّفاق

(١) دفتردار التيمار: الشخص الذي يتواجد في كل إيالة، ويقوم بإدارة جميع الأعمال المالية المتعلقة بالتيمار بناءً على دفتر تحرير تلك الولاية.

(٢) جاويشية البلاط العالي: تعبير يطلق على جاويشية الديوان الهمايوني، ووظيفتهم السير أمام السلطان أثناء خروجه للصلاة، وحمل الفرمانات المهمة وتوصيلها، ونفي أو قتل أحد موظفي الدّولة الكبار، وكانوا يرسلون للدول الأجنبية مع هيئة السفارة، وفي الحملات كانت وظيفتهم الذهاب مع السلطان، وتهيئة الطريق له، وبينما كان عددهم ٢٠٠ فرد في عصر الفاتح وصل في القرن ١٨م إلى ألف فرد، وكانوا يتواجدون تحت رئاسة آغاهم.

(٣) سترمه: اسم قلعة بجزيرة مالطه.

موحّد على قرار. وعندما تمّ الهجوم فُتحت القلعةُ بعون الله تعالى، ولكن كَمْ من القلاع كانت سببًا في أنْ شرب العديدُ من المشهورين بالإقدام من العسكر المنصورة المؤهلين شرابَ الشّهادة، وصاروا بها سعداء.

من جملة هؤلاء: أمير أمراء «طرابلوس»(١) غرب «طرغود باشا»، و«سهيل بك» أمير «قوجه ايلي»(٢) المنتسبون لسنان باشا، والكثيرون غيرهم. وشرحَ الوضعَ بقوله: «وفيما بعدُ حوصرَت قلعة «مالطة»– المقصودة بالذات– من كلّ جانب بشكل هالَه، وكانت قد نُصبَت المدافعُ حولها، وإنْ شاء الله تعالى عن قريب سوفَ تأتي أخبارُ الفتح والنصر متعاقبة. وقرأت الرسالة، وبعد أنْ أصبح الحالُ والمقال معلومًا تفضّل حضرة «شمسي باشا» بقوله: «جاوش آغا، وكيف حال أخي؟». فأجاب منصور: «سيدي، إنّ أخاكم بطلٌ ومقْدام، وقائد بتلك الدرجة التي لا تقبل الوصف والبيان، يفتح الصدر، ويقف في أماكن إطلاق المدافع والبنادق، وعندما كنا نقول مُندهشين يا إلهي ماذا تفعلُ يا سيدي؟ كان يردّ قائلًا: لو كان الموت مقدرًا فَمَا الفائدةُ من الاحتراز؟! وإن لم يكن مقدّرًا فما الضّرر؟! وبردّه هذا يكون قد وصلَ لقمّة درجة التوجّه والتوكّل على الله تعالى بشكل لا يوصف. قال «شمسي باشا»: «أنتم لم تفهموا مقصدَه. إنّه يريد القول: هكذا أريدُ أنْ أصبح شهيدًا وأفوز بالجنة»، وأضافَ قائلًا: كان نتيجة لنشأته منذ الصّغر في الركاب الهمايوني لحضرة السلطان صاحب الشوكة، وبينما كان خادمًا ذا خبرة لدى السلطان ووزيرًا مفضلًا عن جميع الوزراء، وكان مستحقًّا للانتساب له؛ أصبح سردارًا، وبذلك صار بعيدًا عن عيْنه، ومهْجورًا من قلبه. وفي هذه الأثناء، ذي الحجة، أواخر سنة اثنين وسبعين وتسعمائة هـ– ١٥٦٤م–، وبسبب عدم تيسّر الفتح لجند الإسلام الذين كانوا في حملة قلعة مالطة؛ مرّ الموسمُ بالقيل والقال، والحكايات المختلفة بين الجنْد، ولمّا بقي من الموسم وقتٌ قليل سُحبتِ المدافع، وأخذت للسفن.

---

(١) طرابلوس غرب مركز السنجق القديم لولاية بيروت، يقع على بعد ٦٥ كم من شمال شرق بيروت.

(٢) قوجه ايلي: ولاية أزمير، واشتق هذا الاسم من «اقجه قوجه» الذي هو من فاتحي تلك الناحية.

وعند أتخذ القرار بالرحيل والذّهاب منح «زونام يونام» اللّعين الذي أُسر مع أسطوله أثناءَ فتح قلعة «جربة»[1] من قبل الأمان بإحسانٍ من حضرة القبطان «بياله باشا». وذاتَ ليلة، أخلى الأعداءُ جانبَ البحر من الأغيار، وانتهزوا الفرصة، واقتربوا بالسّفن من الناحية الخلفية من جزيرة مالطة، متّجهين إلى القلعة المعروفة باسم «مدنية»[2]، ونشروا جنودَ السواري والمشاة، وفاجئوا القبطان الذي كان في حراسةِ البحر، فأدركته العنايةُ الإلهية، وأحيط حضرة القائد العالي الشأن علمًا بقرب وصول الكفار، وحتّى يمكنه إظهارُ ضربة سيفه للأعداء ألحق إليه أشخاصًا كثيرين في الجزيرة؛ حيث أعلن النّفير العام لجند الإسلام هناك، فوقف لحصر الجنود من السّحر حتّى وقت الظهيرة، ثمّ نظّم فرقتَه، وبينما كان يستعدّ للمعركة علمَ الكفّارُ الملاعين أيضًا بهذا التّدبير الموصوف بالشجاعة، وندموا لخروجهم خائفين مُرْتجفين، وبينما كانوا يستعدّون للتقهقر ثانية، بدأت طائفةُ الجبناء الذين كانوا مندسّين بين جند الإسلام في الصّياح والاستغاثة بقولهم: «أيّها الجند جاء الكافرُ وأغار»، وعندما ظهرتْ طلائعُ جيش الكفّار الملاعين، أعرض الجند عن الحرب، ولم ينظر أحدٌ خلفه، وتركوا القائدَ وحيدًا. ومن ناحية أخرى، لمّا رأى الكفارُ الملاعين تفرّقَ الجيش العثماني أسرعوا بالهجوم حتّى وصلوا للسفن.

كانت قوى الفارّين قد خارتْ بسبب الوهم، فلم يتمكّن الذين وصلوا لشاطئ البحر من إيجاد سفنهم، ونجا الذين وصلوا أحياء، والذين كانت لا تزال لديهم طاقة، ولحق عدوُّ الدين بالآخرين، فأهلكهم، ودخل صاحبُ اللوم والتوبيخ للجند فارّين ناكثينَ للعهد، غيرَ ثابتين هكذا». وجاءت الأخبارُ الموحشة بأنّه عاد خائبًا خاسرًا، وتناقلت هذه الأخبار في مركز الدولة، وكانت باعثًا على بكاء أهل الإسلام بحسْرة.

---

(١) جربه: جزيرة مشهورة بالأهمية العسكرية، تقع في خليج كابس، الواقع بين تونس وطرابلوس غرب.

(٢) مدنية: مركز جزيرة مالطة، وبعد حملة الترك عليها سنة ١٥٦٥م سميت بـ Citta Valetta.

(مصرع) قالوا: حلت نكبة «كمرك، وجلاير»[1]

المقصودُ أنّه قد شاع أنّ «محمد چلبي» المعروف باسم «كمرك ظريف»، والذي كان من أتباع القائدِ المشار إليه، كان أمينًا على «غلطة»، وكان أيضًا في منزلة صديق «جلاير زاده»، الذي كان شخصًا موضعَ سخرية من أصحاب مقاطعات «الزعامة». وفي الحادي والعشرين من محرم الحرام لسنة اثنتين وسبعين وتسعمائة هـ- ١٥٦٤م-، وبحلول الموسم (موسم الربيع) عادت سفنُ الأسطول الهمايوني سالمة، ودخلت الميناء، فحمدًا ثمّ حمدًا.

نبّه وأكّد على حضرة القبطان «بياله باشا»، وصدر الفرمان الهمايوني موصيًا إيّاه بأنْ يسعى لإحضار لوازم الأسطول كاملة، وأمر بجمع الـ «عوارض»[2]، والمجدّفين، ووجّهت أحكام حامي العالم الشريفة بذلك إلى الممالك المحروسة في سنة ٩٧٣هـ.

وفي هذا العام، لم يصل مبلغ خمسة وثلاثين ألف «غروش»[3] من الجزية المقرّرة التي تردُ من قِبَل الكافر حاكم «أنكروس»[4] لمركز الدولة؛ حيث جاءت الأخبارُ من عنده بالأعذار والحججِ الواهية بقوله: «إنْ شاء الله لنرسل جزية السنتين معًا».

ولّما بدأ نزاع ملك أنكروس مع أمراء الحدود بقوله: «إنّ كنائسنا وساحات أسواقنا الموجودة على الحدود المنصورة كانت تقام مرّةً كلّ عام، وأنتم تمنعون جماعتَنا ممّا

---

(١) شومي كمرك وجلاير بود.

(٢) عوارض: اسم الضريبة التي كانت تحصل بسبب الحرب، وفي الأحوال غير العادية، وبدءًا من القرن ١٦م أصبحت تعطى كمقدار من المال، أُطلق عليها نقود العوارض (عوارض آقجة سي)، وهناك العوارض الديوانية التي كانت تحصل في بادئ الأمر ٢٠ آقجة؛ حتى وصلت إلى ٣٠٠ آقجة، إلى جانب أوقاف العوارض (عوارض وقفي) وتحصل بخصوص الأوقاف المخصصة للصرف على المحتاجين من الأهالي، ومن أجل جمعها كانت تستخدم أصول مختلفة في كل إيالة تابعة للدولة.

(٣) غروش: الأموال الأجنبية المستخدمة في الدّولة العثمانية، وتسمى الذهبية منها بالقروش الحمراء، والفضية منها قروش، وفي القرن ١٦ كانت قيمة القروش ثماني آقجات.

(٤) انكروس: بلاد المجر.

اعتادت عليه»، فقام أمراءُ الحدود بإحاطة مركز الدّولة علماً بأخبار إنشائهم لقلعة «كوله»[1]، و«طمشوار»[2]، وتحصينها، وإحكام تشييد قلعة «سكنوار» أيضًا، وعندما استمع حضرةُ سلطان الزمان والمكان السلطان «سليمان» لأسباب عصيان وطغيان كَفَرة أنكروس، ولأعذارهم في هذا الخصوص؛ نبّه وأكّد بشدّة على حضرات الوزراء العِظام بأنّه «تقرّرت النية والعزيمة للقيام بحملة عظيمة إلى ولاية أنكروس (المجر)، وعليكم أن تكونوا على الاستعداد والاهتمام في إعداد التّجهيزات»، وأرسل الأحكامَ لأمير أمراء الأناضول، وقرمان[3]، وروم ايلي، فأرسل أفرادًا من الجاويشية والسّعاة إلى كلّ ناحية منها بالأحكام، نصّها: «لتكونوا مستعدّين وجاهزين مع المعدّات اللازمة لمواجهة العدو، ومهيّئين للتوجّه إلى المكان المكلّفين به في شهر رجب سنة ٩٧٣هـ».

وفي هذه الأثناء، استدعى حضرةُ الصدر الأعظم «محمد باشا» سفير أنكروس، وتفضّل قائلًا له: «توجّه «سموز باشا»[4] المقيم هنا حتّى الآن إلى الديوان العالي. إنّ سلطاننا المعظّم- أعزّ اللهُ أنصاره- مستعدٌّ وجاهز للخروج للحملة، فلم يزلْ سراجُ سلاطين آل عثمان متوهّجًا بزيت كبدِ عدوّ الدين، ومنذ القدم أخضعوا حكام أنكروس لسلطانهم، وقهروهم، وأنتُم تعلمون أنّ إعطاءه المهلة لكُم من محْض كرمه ولطفِه، فأسرِع، ولا تتردّد. اذهب لتجهيز الجزية، ها هو ذا حضرة سلطاننا المعظم، واضعٌ قدمَه في سرج الرّكاب موشكًا على الخروج للحملة مع عساكر الإسلام». فتوسّل الرسولُ إليه، ورجاه قائلًا: «إذا كان المقصود هو الخراج، فعلينا إرساله، وإذا كنتُم معجبين بالقلاع فخذوها، أمّا إذا أردتم البلاد فأعلمنا، وعلينا إحضار خطابًا مختومًا من ملكي بناءً على أمركم، لكن سماع هذا السّفير لم يقترن بالقبول، وشرع في الإعداد للوازم الحملة في التاريخ المذكور.

---

(١) كوله: قلعة تقع في بلاد المجر.

(٢) طمشوار: قلعة تقع على بعد ٣٥٥كم جنوب شرق بودين على نهر جرب في بلاد المجر.

(٣) قرمان: مملكة أبناء قرمان التي تشكل ولاية في الدّولة العثمانية ومركزها قونيه.

(٤) سموز باشا: هو الصدر الأعظم سموز علي باشا، وتولى الوزارة العظمى سنة ١٥٦١م إلى سنة ١٥٦٥م.

(تعينُ حضرة الوزير الثاني المشير صاحب التدبير «برتو باشا»سردار، وخروجُه من مركز الدّولة مع ثلاثة آلاف جندي والـ«سكبان باشي»[1]، وآغوات فرق «بلوكات»[2] اليمين واليسار لفتح قلعة «كوله»[3]).

في يومِ سعيد مِن أواخر شهر شعبان الشّريف في سنة ٩٧٣هـ، عُين مع حضرةِ الوزير الثّاني «برتو باشا» ثلاثة آلاف جندي من الّيني جري «يكي جري» الشّجعان تحت قيادة آغا «سكبان باشي» وفرقة «علوفة جيان يمين»[4] برئاسة آغاهم، وعموم فرقة عزباء يسار[5] بقيادة آغاهم، وتسعمائة جندي «يولداشي»[6] أكفاء تحت إمرة كتخدا جماعات «السلحدارية»[7]، وثلاثة وستون فردًا من آغوات الجاويشية[8]،

---

(١) سكبان باشي: قائد السكبان- إحدى فرق الّيني جري-، ودرجته تلي رئيس الّيني جري، ويخلفه إذا ما غاب عن استانبول، ويتولى رعاية شئون الأمن فيها، وبعد القرن ١٧م تدنت أهميته، فإذا رقي أصبح أمير سنجق.

(٢) بلوك: يطلق على الاتحاد الذي يشكل أصحاب الخدمة في التشكيلات العثمانية، وأهمها بلوكات الّيني جري، ويرأس كل بلوك رئيس يعرف بـ «آغا البلوك»، ورئيس آغوات البلوكات يسمى «باش بلوكباشي».

(٣) كوله: مركز في ولاية قارص.

(٤) علوفة جيان يمين: الفرقة الثانية من الفرق القبوقللو، وتأتي بعد بلوك السلحدارية، وتتكون من ١٢٠ بلوك، وفي الهجوم تكون على المؤخرة اليمنى لبلوك الساهية الذين يسيرون يمين السلطان، ووظيفتهم الإقامة مع علوفة جيان يسار في مكان الجيش لانتظار الخزينة.

(٥) عزباء يسار: تتشكل فكرة العزباء اليسار من فتيان الأناضول غير المتزوجين، وهم جند المشاة الخفيف في الجيش العثماني، وموضعهم أثناء المعارك في المقدمة؛ حيث يتعرضون للهجوم الأول، وبعد مطلع القرن ١٦م بدأت هذه الفرقة تكلف بحراسة القلاع في الثغور البحرية والبرية، كما كان جزءًا منهم ينضمّ للأسطول العثماني، وبلغ عدد بلوكات العزباء خلال القرن ١٦م ٩٢ بلوك.

(٦) يولداش: بمعنى رفيق، وبهذا الاسم كان يخاطب الجندي زميله في فرقته.

(٧) كتخدا السلحدارية: هو أكبر أمير موجود في بلوك السلحدارية المتواجد خارج مركز الدولة.

(٨) آغا الجاويشية: رئيس جاويشية الديوان الهمايوني، ويقوم بتنفيذ الأحكام الخارجة من الديوان، وأعمال التشريفات في القصر، والنظر فيما يرفع من شكاوى، وفي عام ١٨٣٦م شكلت بدلًا منه نظارة الدعاوى.

وصدر فرمان الخروج للحملة التي دليلها النصر. واجتهد الجواسيس ذو العلوفات في التدبير والتجهيز لهذه الحملة فيما بينهم، وأخبر كلّ واحد ممّنْ كان في الخدمة في الآستانة بتحصّن خمسة آلاف جندي من جيش الكفّار مثيري الحرب- بمحض رغبتهم- داخل القلعة المتينة المعروفة بـ «كله» التي أنشأها الكفّار الملاعين الناكثين للعهد في وسط بحيرة على حدود «طمشوار»، وبأن الكافر المجْرم المدعو بـ «قراجين اوغلو»، الخرواتي[1] الأصل، صار سردارًا عليهم، وهُم مجهّزون بكامل المؤن والمهمّات الحربية والأسلحة والبارود، وأنّهم يسعون لتحصين القلعة المذكورة باستمرار.

وهكذا زيّن حضرةُ القائد الأكرم «برتو باشا» موكبَه بالعظمة والحشمة والزينة والبَهاء، وودّعه جميعُ أركان الدولة، وتمّ تسجيل ألف وخمسمائة فردٍ من فرقة الـ «قول أوغلو» (أبناء الخدم) في فرقة «سباهي زاده»[2] أبناء السپاهية، وجعل لهم دفترًا، وبعونه تعالى عندما تيسّر الفتحُ والفتوح وأتمّوا العمل المكلّفين به، ذهبوا للالتحاق بفرق الجيش بموجب الفرمان السلطاني، والواقع أنّ زينة وبهاء هذا الموكب، برزت للجميع، وخرج الرجالُ الأبطال الشجعان والأكفاء في فرقة السپاهية، وأبناء الرّجال المؤدبين بآداب الدولة، وعادات السلطنة، والذين لو كانت مهنة الحرب والقتال صنعةً لأيّ شخص، فإنّها جديرة لأنْ تكون ميراثًا لهؤلاء؛ خرجوا مع القائد وتوجّهوا للحملة، ليوفقه الحقّ تعالى للفتوحات الجليلة؛ آمين بمرحمة سيد المرسلين.

وفي هذه الأثناء، في شهر شعبان الشريف، كان حضرة أمير الأمراء صاحب العزّ والاحتشام «محمد باشا» المفضّل عن «اليمين» قد صارَ من الأعيان باجتهاده، وخدمته في منطقة الحدود المنصورة منذ فترة طويلة، وظهرت كفاءته الفائقة، وعندما جاء لمركز الدّولة أحضر للأركان التّحفَ والهدايا، وبناءً على القانون القديم قدّم في

(١) خروات: كرواتيا حاليًا.

(٢) سباهي زاده: أي أبناء السپاهية من الذكور، وبعد بلوغهم يضموا إلى بلوك السواري، ويخصّص جزء للسباهي من يومية أبيه، ولو توفي والده يضم لبلوك السواري.

الديوان الهمايوني من الهدايا تسعة أضعاف، وأنواعًا عديدة من تحف الهند، والسّند، وقافلتين تبلغان ثمانية عشر رأس خيلٍ بلوازمهم الكاملة والمزينة، وجياد يمنية ومصريّة أصيلة وممتازة، وأيضًا الخوذَ الحديدية والتروس ولوازم الـ «جبه خانه»[1] الفريدة التي أبدعتها مهارةُ أساتذة العالم، والتي تليق بالملوك، وكذا الغلمان حِسان الوجوه، والسّجاجيد المصرية، والأقمشة النفيسة، وذلك بأعداد لا حصرَ لها، ولم يستطع الخدمُ مطابقتها ومقارنتها بما هو موجود بدفاتر تشريفات الوزير الأعظم «سليمان باشا» الذي فتح بلاد اليمن وعدن من قبْل؛ حيث كانت هدايا «محمد باشا» أعلى بكثير.

واستحسنَ عقلاءُ أرباب الديوان فعلَه هذا، وأثنوا عليه بقولهم: «إن عبودية الخادم لسيّده تكون ممكنةً فقط بهذا الشكل». ونال الشرف بالخلعة الفاخرة، ودخل للسّلطان مع الوزراء العظام، وغبرَ وجهَه لمقام عرش السلطنة العالي، الأمرُ الذي يليق به دائمًا.

تتمّةُ القصّة

وبينما كان المُشار إليه «محمد باشا» آتيًا من اليمن إلى مركز الدّولة مرّ على «كوتاهية»[2]، بلاط حضرة ولي العهد السعيد، واللائق بالتاج والعرش السلطان «سليم»، وقدّم إليه أنواعَ التحف والهدايا القيمة؛ حيث خرجا سويًّا للصيد، وأظهر الخضوعَ للرّكاب الهمايوني، وعندما اقتربا من بعضهما البعض، وتفضل حضرة وليّ العهد بالاستفسار عن عدّة أمور متعلّقة بأحوال ولاية اليمن، وديار العرب، كانت إجاباتُ الوزير المُشار إليه جاهزةً على كلّ موضوع؛ نظرًا لإحاطته واطّلاعه الكامل بتلك الأمور، ولمّا كان «محمد باشا» ذا قدرة وتمكّن، ومعروفًا ومشهورًا بالجَلَد والشجاعة؛ سُرّ وليُّ العهد من بيان كلامه، وقدم وعرض تلخيص الأمر على السلطان

(١) جبه خانه: مخزن حفظ الأسلحة والمهمات الحربية، وكان موضعه خلف مسجد آيا صوفيا.

(٢) كوتاهية: سنجاق في غرب الأناضول.

بأنّ رغبة الوزير المذكور هي أحقيته بإمارة أمراء ديار مصر، وذلك في شكل خطابٍ سلطاني مَفاده: «إنّ عدم وجود شخصٍ كفء مثل هذا في مقام الحكومة غيرُ جائز»، فصدرَ الفرمان بتوجيهِ إمارة أمراء مصرً إلى المشار إليه، ولمّا كانت علاقة «كليون علي باشا» مع قاضي مصر ودفترداره سيئةً لزمَ عزلُه. في أوائل رمضان الشريف (سنة ٩٧٣هـ/ مارس ١٥٦٦م).

(خروجُ حضرة خليفةِ الزّمان السّلطان «سليمان خان» بذاته معَ أركان الدّولةِ وأعيان السّلطنة من دار السلطنة العليّة بنيّةٍ وعزيمة فتحِ ممالك أنكروس).

في ساعةٍ مباركة ولحظةٍ ميْمونة من يوم الاثنين الحادي عشر من شهر شوال المكرّم سنة ٩٧٣هـ/ أبريل ١٥٦٦م، وبينما كان جميعُ أركان الدولة، وأعيان السّلطنة الوزراء العِظام، والعلماءُ الكرام؛ يترقّبون وينتظرون مع الجند- الذين كانت أعدادُهم كالأنجم، وعاقبتُهم النصر- عند العتبة التي مقامها سدرة، ارتدى حضرةُ خليفة الأرض والزمان الثيابَ البيضاء، وامتطى جوادًا فلكيّ الخطى، وهلاليّ الحذْوة، بكامل الزينة ولوازم الحرب، وهو قائم كالسرو مثل منارةٍ من النور على رأس جميع العسكر المنصورة حيث خرج على هذا النحو.

جلسَ السلطانُ كجبلٍ على ظهر الجواد السّريع

جلس كالجبـــل المُحـــاط بالريـــاح العاتية[1].

(نثر) وكان الخدمُ والحشم ذوو الرقم السّعيد قد اصْطفوا حوله بلوازم مواجهة العدو، اصطفّوا وهُم في زينةٍ وبهاء لا يوصف.

ونتيجة الكلام أنّه عندما نظر حضرةُ خليفة وجه الأرض بعين العطف والرحمة إلى يمينه ويساره؛ رفع رعايا الدّولة أكفَّ الضّراعة بدعاءٍ مُرْتجل إلى مقام الله- عزّ وجلّ- الغني المدبّر، ورفعوا دعاءهم إلى الملأ الأعلى: «اللّهم انْصرِ الإسلام، وأيّد المُسلمين، واخذلْ مَن خذل الدّين، وانصرْ مَن نصر الدين». ووقفَ أربابُ الدّعاء عندَ مفارق الطرق، وراحوا يدعون، وجاء عسكرُ الإسلام فوجًا فوجًا، ومرّوا، وكان الصدرُ الأعظم في ذلك الوقت «محمد باشا»، وكان الصّدرُ الثّاني هو «برتو باشا» الذي عُيّن سردارًا، وتوجّه للحمْلة. وكان الصدرُ الثالث هو «فرهاد باشا»،

---

(١) چو كوهي به بشت نشت چو كوهي كه برباد صرصر نشت.

والصدر الرّابع «أحمد باشا»، والصّدر الخامس هو «قزل أحمد لو مصطفى باشا»، وكان أيضًا صدرُ الروم ايلي أعلم العلماء «حامد أفندي»، وصدر الأناضول هو «عبد الله بن عبد الله» الشّهير بـ «برويز أفندي». وفي ذلك اليوم نبّه على كلٍّ من آغا الينى جري «يكي جري آغاسي»، «علي آغا»، ورئيس الدفتردارية «باش دفتردار»[1] «مراد چلبي»؛ حيث صدرَ الأمرُ بأنّه عليهم أن يتحرّكوا من المنزل، وأن يقيموا في منطقة «حلقة لويكار»، وليلاقوا- إنْ شاء الله تعالى- الرّكاب الهمايوني في منزل «بلغراد»، وليصل الدّفتردار «مراد أفندي» بالخزينة العامرة إلى «أدرنه» المحروسة، ولينتظر بها، وعلى أمير أمراء الأناضول سابقًا «إسكندر باشا» صاحب التدبير المشهور بالشّجاعة، الذي أُصدر الأمرُ ببقائه في المحافظة على استانبول المحمية، ودفتردار الأناضول «حسن چلبي»، ودفتردار الشق الثاني «بالغ أوغلو علي چلبي»؛ أنْ يقوموا مع كتبةِ الخزينة العامرة، وجماعة أهل الحرف المكلفين بخدمة الحماية، وليقيموا بها باستانبول، وليصبح البوستانجي باشى «داود آغا» رئيسًا للسفن التي تتجوّل في الميناء للمحافظة بعد ذهاب حضرة القبطان «بياله باشا» للحملة مع الأسطول الهمايوني؛ متوجّهًا صوب البحر، ولحق حضرة شيخ الإسلام «أبو السعود أفندي» بالرّكاب الهمايوني[2] أمام سراي السلطان «محمد الفاتح» المعروف باسم «كاربان»، وانفصل عنه بالقرب من جامع «علي باشا»، وانضم أيضًا الـ «قائم مقام»[3] «اسكندر باشا»، وصار بصحبةِ

---

(١) رئيس الدفتردارية: وكيل السلطنة المطلق في الشئون المالية، وناظر خزينة الدفاتر المالية، وينظر في صادرات وواردات الدولة، وحتى مطلع عهد السلطنة كان هناك دفتردار واحد، ومع اتساع الدّولة انقسم هذا المنصب إلى قسمين: الروم ايلي، والأناضول، وعُرف دفتردار الروم ايلي باسم «باش دفتردار» أي رئيس الدفتردارية.

(٢) الركاب الهمايوني: استخدمت كلمة ركاب على من يتقرب من السلطان، ويكون في معيته، وأطلقت على هؤلاء الذين يتواجدون في معية السلطان أثناء الحملة، فيقال: «دفتردار الركاب»، «ميراخور الركاب»... وتنتهي مهمة هؤلاء بمجرد عودة السلطان أو القائد من الحملة.

(٣) قائم مقام: الشخص الذي يوكل وينوب عن الحاكم، ويقوم بالإدارة والمحافظة على المركز في غياب السلطان.

الرّكاب حتى باب «ادرنه قپو»[1]، كما لحقه قاضي استانبول مولانا قاضي زاده «أحمد أفندي»، وسار مع الركاب قليلًا، وكان المنزلُ عند مرعى رستم چلبي»[2].

ووقف أركانُ الدّولة، وأعيان السلطنة، والعلماء العظام، والمشايخ الكرام لأداء سلام الوداع، وسلّم حضرةُ السلطان فلكي الوقار- أعزّ اللهُ أنصاره- على الجميع بالتّواضع والانحناء، ومرّ الرّكابُ برايات الإسلام التي آياتها الفتح، وعندما نزل الجميعُ أقام الخيمة التي مُحيطها الفلك، واستراحوا، وحطّ حضرات الوزراء العظام بعيدًا عن الجيش الهمايوني، كلٌّ بحسب درجته، ولكن نزل حضرة الصدر الأعظم «محمد باشا» في مكانٍ قريب من الجيش، وذلك في ١١ شوال سنة ٩٧٣هـ / أبريل ١٥٦٦م.

ونظّم شعراءُ العصر وبلغاءُ الزمان، وبخاصة «عبد الباقي أفندي»- سلّمه الله- منظومةً للحملة التي سبيلُها النصر، وأنشأ مولانا «فوزي أفندي»، ومولانا «نوالي أفندي، ومولانا القاضي «عبيدي چلبي» درًا مكنونًا، حُرّر وسُجّل بعضه في هذا التاريخ:

(نظمُ باقي أفندي)

يا سلطانَ الجَمال لتكنْ على وصلة بربيع العالم

يا أيّها الربيع السلطاني أرسل إليّ ما أتجوّل فيه

يا إلهي في لحظةٍ واحدة صار العالمُ ربيعًا وتيسّرت المشاهدة

ليجعل اللهُ التجوّلَ على وجه الأرض جوادعزمك

سرْ وشاهدْ بلاد الـــروم، ولتصحبك السعـــادة

فالقـــامةُ هيفـــاء كالعلم، وذيـــل ثوبه ظاهر

(١) ادرنه قپو: باب في سور استانبول.

(٢) مرعي رستم چلبي: يقع خارج سور استانبول.

بالفتح والنّصر بدا وادي أشجار السرو كالنسيم

فلتهتـــزّ بـــدلال كتبخيـــر الجاريـــة

وليمْـــحُ مـــاءُ سيفـــك فضلاتِ الدنيا

وليعجـــل دم العـــدو وجـــه الأرض بستانا

فليتجوّل بهرام[1] محطّم العدوّ وليقل لك

أحسنتَ ألـــفَ مـــرّة يا بطل ميدان الوغى

دعاؤنا يا «باقي» فليعصـــم البـــاري اللهُ تعالى

ملك الدنيا السّلطانَ العادل سليمان شاه من الخطأ[2]

---

(1) بهرام: بطل إيراني قديم في زمن كاوس ابن كودرز.

(2) بهار عـــالم وصلتده أول سلطان خوبـــاني

تماشا أيتديكم كوندر بكانوا فوروز سلطاني

بهار اولدى دم سير وتماشا در خداوندا

سمند عزمك ايتسون عرصه عالمده جولاني

يوري روم ايللرين سيرايت خرامان ايله يانكجه

علم كبي سهى قامـــت نكار باك داماني

نهار سروباغ آسا نسيم فتح ونصرتدن

صالنسون ناز ايله نيزك خرامـــاني خراني

جهانك خاروخاشا كن كوتور سن آب شمشيرك

كلستان ايلسون روي زميني دشمنك قاني

فلكده سيرايدوب ديسون سكا بهرام خصم افكن

هزار احسنت أي روز وغانك مردميداني

دعامز اولدر أي باقي خطادن صاقلسون باري

قداوند جهان سلطـــان عادل شه سليماني

(ولَهُ نظمٌ آخر)

أجـــرى الخنجـــر حكـــمـــه كسهـــــم جفنـــــك
رأى العـــــدو سيف غمـــزك، وبسرعــــة اخترقه الخنجر
تزعزعـــت قامـــــةُ العدو مثــــل سيـــف الكافـــر
وعلق السّلطــــــان فاتــــح الدنيا والخنجر في خصره
إنّ ورق زهرة السوسن لا يظهر في المرعى، والهلال الجديد لا يلوح في السماء
الأرض والسمــــاء تشهـــر السيــف على أعداء الدين
فلتصْغِ أيّها السلطان لحظة في دنيـــا مجلس الخمر والكأس
ليرويَ الخنجـــر كـــأس الفنـــاء للعـــدو لفترة
لتغرق أجســـاد العـــدو كاملـــة كغاطـــس السفينة
ليجتثّ الخنجـــر فروع الأرغـــوان[1] في حديقة النصر
فنثرها على عتبـــة ملك الملـــوك في طريـــق النصر
وحـــزام مرصّـــع كالفلك وخنجـــر مذهب كالبدر[2]،

---

(١) الأرغوان: زهرة معروفة بلونها الأحمر، وتسمى «أرجوان».

(٢) ايدركن تير مزكانك كبى حكمن روان خنجر
كوروب شمشير غمرك كندودن كچدى همان خنجر
عدونك تيغ كافر كبي لرزان ايتدي اندامن
ميانينه طاقندى خسره كيتي ستان خنجر
جكنده برك سوسن كوكده ماه نو دكل بيدا
جكر اعدادى دين اوزره زمين وآسمان خنجر
شهابردم مى وجامك جهان بزمنده كلنسون
ايچرسين دشمنه جام قنايي برزمان خنجر
عدونك قيلسون اندامن سرا اياقنه مستغرق
بتورسون باغ نصرتده نهال ارغوان جنجر
نثار ايتدى غزا يولُنده دركاه شهنشاه
مرصع بركمر كردون مه نوزرنشان حنجر
تضرع دمنى كلدى جناب حقه أي باقي
ايلنوب فتح آيتن ازربردلين قيلسون روان خنجر.

(نظمُ عبيدي چلبي)[1]

ليكنْ هـــذا الثوبُ ذو النسج الذهبي ورديّ اللون ثوبَك

لتكنِ الشّمس والقمر بالنسبة لك جندين عن يمينك ويسار

ليكـــنْ لـــــواء عـــدلك رفيقًا لفلـــك الأفـــــلاك

ليكـــنْ رأس منـــــزل السعـــادة منزلك الدائـــم

أنتَ على عـــرش الدّولـــــة سلطان البحـــر والبـــر

ليكـــنْ سفيرك الذي هو نسيـــم الهمة في كلّ لحظة لطيفًا

عندما عقدت العـــزمَ على غزو الأعـــداء سيئي الطباع

صار سيـــفُ النصـــر بجـــوارك شعلة عتادك

أحســـن، فأن نـــور عبيده الموافقيـــن المـــراد

ليكنْ سراجُـــك المنـــير في مركـــز الدنيـا »،ذه

(١) بوطاق لا جوردي رزيفت اوطاقك اولسون

مهربله مع اوكنجه ايكي صو لاغك اولسون

چـــرح بزينه همسر اولـــوب عدلك

سر منزل سعادت دائم قوناغك اولسون

سلطان بحر وبرسن دولت سريري اوزره

هر دم نسيم همت جا اولاغك بك اولسون

أعـــداء بدنهاده عـــزم سفـر قليجق

تيغ ظفر يانكجه يالن يراغك اولسون

لطيف ايت عبيدينك سن اويار مرادي شمعن

بوتكيه جهانده يانار چراغك اولسون.

(نثر)

ونزلوا قربَ طريقِ مجرى ماء، وعبروا منه إلى منزل «چتالجة، وسلوري»[1]، وقطعوا المنازلَ والمراحل. وفي اليوم الحادي عشر نُصبت في ساحة الصلاة في أدرنة المحميّة- حُميَت عن البليّة- خيمة حضرة السلطان فاتح الدنيا، فأقاموا بها ثلاثة أيام، وفي اليوم الرّابع رحلوا، وذهبوا، وفي تلك الليلة، وعند المنزل، شوهد هلالُ غرّة ذي القعدة، وغالبًا لم يخرجْ حضرةُ خليفة الأرض من العربة، وعندما وصلَ للمنزل للاستراحة، سلّم- أيضًا- على أركان الدّولة من العربة، ثمّ نزل من الخيمةِ السّلطانية إلى أسفل المظلّة، وعندما كان حضرة الصدر الأعظم «محمد باشا» يحلّ بكلّ منزل، لا يستقرّ فيه؛ بل كان يهيّئ المنازل والممرات الأمامية، ويمهّد الطّرق للعربةِ السّلطانية، وبسبب مرض «النقريص»[2] الذي أصاب السّلطان في مرحلةِ شيخوخته، أحيانًا ما كان يحلّ الضّعفُ بالمزاج السلطاني الشّريف، وبجسده اللطيف.

ولذلك كان حضرةُ الوزير المحيط بالأمور يُعبد طرق المنزل. وفي الثالث عشر مِن شهر ذي القعدة، نزلوا في موضعِ مُبارك جدًّا بالقرب من حي «تاتار بازاري»، وعندما أحضرَ خدم الباب الـ «قبوجّيلر»[3] رسائله الشّريفة التي نصّها: «ولد في سنجاق «مغنيسيا»[4] ابن محبوب ومحظوظٌ لحضرة الأمير مراد ابن حضرة وليّ العهد اللّائق بالتّاج والعرش «سليم خان» طال بقاؤه ونال مُناه، أخبروه بالبشرى، وعندما أعلموه بطلب مراد خان من حضرة السلطان صاحب السعادة اختيار اسم المولود الشّريف تيمّنًا وتبرّكًا؛ فرح حضرةُ السلطان عالي المقام وسُرّ، وحمِدَ الله تعالى،

---

(١) سلوري: مركز في شمال استانبول.

(٢) النقريص: أي مرض النقرص، وهو يصيب كبار السن بآلام في أصابع القدم، نتيجة الإفراط في تناول اللحوم.

(٣) قبوجيلر: أي البوابين، وتطلق على بوابي القصر، وينقسمون إلى بوابي الباب السلطاني، ووظيفتهم الوقوف على باب السلطان، وبوابي العتبة العالية، ومهمتهم حراسة الأبواب، ويعرف رئيس البوابين باسم «قبوجيلر باشي».

(٤) مغنيسيا: مركز بولاية صاروخان في الدّولة العثمانية.

وشكرَه شكرًا كثيرًا، وسُمع مِن الثّقات قولهم: «لقد اعتادَ أجدادنا الكرام على تسميةِ اسم «محمد بن مراد»، فليكنِ اسْمُه الشّريف «محمد»، حرّر في ١٣ شهر ذي القعدة سنة ٩٧٣هـ / مايو١٥٦٦م.

وفي أواسط شهر ذي القعدة الحرام أصبحت صحراء «فلبه»[1]، موضع خيام عساكر الإسلام، وبعد الإقامة بها يومًا رحلوا، وعبروا ممرًّا جبليًّا ضيقًا بمشقة شديدة، وبسبب كثرةِ وشدّة الأمطار نزلوا في صحراء «احتيمان»[2]. وفي أواخر شهر ذي القعدة وصل الرّكابُ إلى صحراء صوفية، وأقاموا بها يومًا، ثمّ رحلوا في اليوم التّالي، وتنقّل الرّكاب من منزلٍ لمنزل حتى حطّ حول مياه «نيش»[3] الدافئة، فأمرَ حضرةُ السلطان حامي العالم بجلب الماءِ لداخل الخيمة السلطانية. وبعد أنْ أقاموا «بنيش» يومين للرّاحة والاستجمام؛ رحلوا.

وظهرَ بين عسكر الإسلام جماعةٌ ضالّة من قطّاع الطرق، واللصوص، وعلى حينِ غفلةٍ سرق هؤلاء أسلحةَ ولوازم الجند الثمينة من خيامهم، وعندما شبعوا من هذا صاروا يهتفون «هاي هوي». وأشهرُ العصاة الذين أدركوا أنهم سينجحون في التغلّب على أهالي المنزل المتوجّهين للمرعى في الأماكن المتطرفة أشهروا سيوفهم، وبدءوا في نهْب وسلب الخيام، وعندما وصل هذا الخبر السيئ لمسامع حضرةِ صاحب الوقار السّلطان حامي العالم؛ نبّه وأكّد على خدمه من الوزراء العِظام بخطابٍ توبيخ صارم قال فيه: «لا بدّ ويجبُ إيجاد هؤلاء»، وعلى أثر ذلك وعدَ آغا الينِي جري «يكيٍ جري آغاسي» «علي آغا» جند الينِي جري «يكي جري»، والمكلّفين بخدمة الحراسة في المنطقة الممتدة من «نيش» وحتى «بلغراد»، وعددهم بالتّرقيات، فوجدوا قطّاع الطّرق واللصوص الذين عُرفوا وذاع صيتهم منذ فترة، وأحضروهم، وأمرَ الوزيرُ الأعظم- أيضًا- بإحضار السپاهي الحقير والمعروف باسْم «حاللو معلفره وي اورن بك» الذي كان مِن أرباب التيمار، وشجّعه بإعطائه مهلةً للبحث عن العصاة.

(١) فلبه: مركز السنجاق القديم في بلغارستان.

(٢) احتيمان: حي في بلغارستان، شمال غرب فلبه بنحو ٨٥ كم.

(٣) نيش: مدينة في يوغوسلافيا.

وفي خلال بضعة أيام عثرَ المذكور- أيضًا- على ملاذ أهل الفساد واللّصوص، دناةِ الأصل، وهجمَ على جماعتهم، وألقى القبض على أكثرهم، واقتصّوا منهم في كلِّ منزل، فحلَّ الأمنُ والاستقرار بعساكر الإسلام، وعند منزل بلغراد شوهِدَت غرّة هلال شهر ذي الحجة، فوصلت إليها القافلة مرورًا بكلّ المنازل في تسعةٍ وأربعين يومًا، وأقاموا بها ثلاثةَ أيام. وفي اليوم الذي وصلوا فيه كان الهواءُ صافيًا كالقلوبِ الوضّاءة، وارتدى حضرةُ السّلطان حامي العالم الثيابَ المذهّبة، ولبس الخوذةَ الذّهبية، وسعدت «الرعايا والبرايا»، وفرحوا بدرجة لا يمكن وصفُها أو بيانُها، ونثر السلطانُ بيده المباركة عليهم الذهبَ الوفير.

وبسببِ فيضان نهر «طونه»[1] لدرجة عظيمة، فلم يعدْ ممكنًا إقامة جسر بأيّ صورة، وعندما شكَا رعايا الدّولة بالصّياح والهتاف الشديد من «بيرام بك» الذي كان دفتردار مركز الدّولة سابقًا، وأمير سنجق «سمندره»[2] حاليًا، وعرضوا شكْواهم على السلطان؛ لم يُصغِ إليها حضرةُ السلطان صاحب الكرم والعطف، وأصدرَ فرمانًا هذا نصُّه: «الآن عهدتُ إليه بالخدمة، وليس هؤلاء ممّن يمكنهم أن يرْضوا ويشكروا أحدًا، فليقطعوا أشجار الغابة، وليعبروا الطريق، وليقام جسر أمام قلعة «بوكردلن»[3]. وعندما أعبرُ مع خدم بابي، فليعبر بالسّفن آغا الينى جري «يكجري آغاسي»، والدفتردار مع الخزينة العامة، وعساكر الروميلي، وعساكر الأناضول، وقرة مان إلى الأرض المواجهة، ولصحراء «سرم»[4]، وعليّ أن أكون مستعدًّا عند الوصول، وأحذرَ؛ فإنّ هذا ليس مقام الحجج والأعذار، فينبغي أن تكونَ على يقظةٍ تامّة.

---

(١) طونه: أكبر نهر في شرق أوروبا.

(٢) سمندره: مدينة «سمندرلو» في يوغوسلافيا.

(٣) بوكوردلن: القلعة التي أنشأها محمد الفاتح في بلاد الصرب من أجل تشديد الحصار على بلجراد.

(٤) سرم: صحراء مساحتها ٧٠٠٠ كم٢ تقع بين نهر طونه، ونهر صوه أمام بلجراد.

ورحلوا، وأحسن على «أورن بك»؛ الذي ألقى القبض على اللصوص، برتبة جاوش[1]، وكان قد قبض على أربعة أشخاص من اليولداش المفسدين، وبناءً على القانون القديم صدر فرمانٌ بإلحاقهم بجماعة أبناء السپاهية بيومية قدرها ثلاثُ عشرة آقجة، وفي اليوم الذي رحلوا فيه انهمرتِ السّيول، وعبروا بمشقّة وتعب شديديْن بسبب كثرة الأمطار؛ حتّى أنّ الرياح الشديدة التي سحبت الخيمة السّلطانية لمسافةِ منْزلين شقّت البعير إلى شقّين، وعلى إثر هذه المحنة وصل حضرةُ السّلطان حامي العالم بالركاب لموضع هذا المنزل، وسعوا لنصب الخيام، ولمّا لم يجدْ خيمته، نزل في خيمة الصدر الأعظم «محمد باشا»، وأقام بها، وبسبب هطولِ الأمطار الغزيرة في تلك الليلة، لم يرحلوا، وحطّوا في ذلك الموضع، وفي اليوم التّالي صفَا الجوّ، وجفّت رطوبته.

وعندما قال بعضُ آغوات الداخل «ايج آغالر» عن الـ «ميراخور»فرهاد آغا»: «سلطاني، جاءت دوابّ وأحمال كلّ طوائف جند المركز للمنزل مُعتقدين أنّ هذا الموضعَ هو الموضعُ المناسب»، ونصبوا خيامهم لكن حتّى الآن لم يأتِ جند فرهاد آغا الميراخور»، فنظر السلطانُ بحدّة، وقال: «بهذا الإدراك للأمور ستكون خادمًا للسّلطنة، ولكن ماذا سيحدث؟ تُرى، هل سيحدث مثلما حدثَ لخيامنا وأحمالنا الأخرى؟ وطلب السلطان أمير الإسطبل السلطاني «فرهاد آغا»، وسأله: « كم بقي من الدّوابّ على ذلك المصعد، وعلى طريق التلّ الذي تمّ المرورُ عليه أمس؟ فقال المذكور: لتكنْ فداءً لسلطاننا». وعندما قال: «بقيت خمسمائة رأس من البعير الميرية فقط». أجاب السّلطان: «الحمدُ لله تعالى، رزاق العالم، وخلاق بني آدم»، أمرَ بإحضار غذاء، ونصيب الوحوش والطيور لهذا المنزل والمكان بين يد شخص عاجز، ذليلٍ مثلي، فنحرَ في سبيل الله جميعَ الإبل الموجودة شكرانًا لنعم ربّ العالمينَ،

(١) جاوش: أوجد هذه الوظيفة «ييلدرم بايزيد»، وهو موظف يقوم بعدة وظائف في الديوان، ويتواجد في معية الحكام وسائر إدارات الدّولة العثمانية، وينقسم الجاويشية إلى جاويشية الديوان الهمايوني، وجاويشية ديوان خانه الترسانة العامرة وجاويشية القصر والجاويشية الخدم.

وأمَرَ بالأضحية. وتمّ الأمر على هذا النحو، وقطعت أشجار الغابات من مواضعَ لم يكن قد مرّ بها الجند في أيّ تاريخ قط، ومرّوا في طريق الحرب، وعند المنزل الرّابع وصلوا بعوْن الله وتوفيقه بالقربِ من قلعة «بكوردلن».

ولّما أقام «بيرام بك» سالفُ الذّكر من السفن جسرًا عظيمًا، وتم تجهيزه وإعداده، جاء الخبرُ بأنّ حضرة السلطان عالي المقام، مرّ بالعساكر المنصورة، وعبر بلا تعب، وأنّ جميع عساكر الروميلي والأناضول، وقره مان، وآغا الييني جري «علي آغا»، والدفتردار «مراد أفندي» مع الخزينة العامرة؛ عبروا أيضًا إلى صحراء «سرم»، وصدرَ الفرمانُ الهمايوني على هذا النحو: «ينبغي تنظيم فرق كافة العساكر مع أمراء الروم ايلي والأناضول وقره مان، وفرق أمراء الألوية، ومقاطعات «زعامت»، وأرباب التيمار بكامل الأسلحة والذخائر والدروع، ومن ثمّ يقوم حضرة السلطان حامي العالم مع أركان الدولة، وأعيان السّلطنة بإلقاء السلام، وينبغي مشاهدتهم لهذا الموكب على هذا الحال»، ومن قبْل كان قد أُرسل أصحابُ الخبرة من الجاويشية بهذه الأوامر؛ حيث تمّ التنبيه والتأكيد عليهم جيدًا، كما أُرسل سائقو الجند عسكر سوروجيلر[1] لكلّ ناحيةٍ على وجه السرعة.

ومنذُ السّحر تزيّن خدمُ الباب «قپوخلقي»[2] بكامل الزينة والبهاء، وارتدى حضرةُ السّلطان- أيضًا- الثّيابَ المذهّبة، وامتطى جوادًا أبقًا مزينًا كلّه بالمرصّعات، وعندما رفرفتْ راياتُ الإسلام التي آياتها فتح علا صوتُ الطبل، ونفير العزّة والعظمة، وألقى السلطانُ السّلامَ مُلتفتًا إلى يمينه ويساره، وذاك أمير الروميلي حضرة «شمسي أحمد باشا» كان يقفُ على الجانب الأيمن، وأتمّ- بالكاد- مراسيمَ المواكب مع أمراءِ

---

(١) عسكر سوروجيلر: العسكر المكلفون بجمع أولاد العجم المسيحيين، والإتيان بهم لمراكز الدّولة؛ حيث يربون في فرقة «عجم أوغلاني» أي أولاد العجم تربية دينية عسكرية ينخرطون بعدها في سلك الجندية.

(٢) قپوخلقي: أي خدم الباب، وتطلق على كل من يقوم بخدمة الصدر الأعظم والوزراء، ويتشكلون من خمس طوائف، خدام الصدر الأعظم، وخدام القصر، وخدام الخارج، والمتفرقة الذين يقومون بمهام مختلفة، وخدم الحريم والجواري، وتم إلغاء هذه الطائفة عام ١٨٢٨م.

الطّريق حتّى ميدان تجمّع الطيور. وعلى الجانب الأيسر وقفَ أميرُ أمراء الأناضول حضرة «زال محمود باشا»، وكان قد استمرّ في الموكب مع أمرائه حتّى ميدان تجمّع الطيور أيضًا.

وكان أميرُ أمراء «قرمان» «جركسي سليمان باشا»- أيضًا- قد أعدّ منزلًا فسيحًا لأمرائه وموْكبه، وكان ذلك اليوم المُحتشم يصادف يومَ التّروية[1]،... وحطّوا في موضع معروف باسم «زمون»[2]، ونودي في هذا المنزل بأنّ: «عيد الأضحى سيُقضَى هنا»، وأثناءَ انعقاد مجلس الوزير الأعظم المعروف باسم «ديوان العصر» (ايكندي ديواني)[3] جاءت رسلُ ملك «اردل»[4] يانوش اوغلو استيفان» برسائل كان نصُّها: «أنّه سيأتي غدًا، وسيخرج من «طونه بالزوارق». ولمّا أخبروا المجلس بذلك، ثمّ التّنبيه والتّأكيد التامّ على العساكر المنصورة، وخرجوا في يوم «عرفة» بالعظمةِ والوقار لاستقباله. ولمّا جاء، وقد عانوا من الانتظار الطويل بسبب وصوله متأخرًا، أُظهر الاهتمامُ والتقدير التّام بالمذكور «استفيان»؛ حيث نُصبت له الخيمةُ الحمراء، وبُذلت أنواعُ النّعم الوفيرة، وفي اليوم التالي انعقد «الديوان العالي»[5]، وجاء استيفان المذكور

(١) يوم التروية: اليوم الثامن من شهر ذي الحجة من السنة الهجرية.

(٢) زمون: موقع حصين على نهر طونه، في مواجهة بلجراد.

(٣) ايكندي ديون: أي ديوان العصر، وسمي بذلك لأنه يعقد بعد صلاة العصر، ويعقده الصدر الأعظم، وفيه يقوم بإتمام أعمال الديوان الهمايوني التي لم تكن قد تمت، ويحول ما يتعلق منها بأعضاء الديوان لبحثها في دواوينهم الخاصة.

(٤) اردل: الجزء العثماني من ترانسلفانيا التي تشكل القسم الغربي من رومانيا اليوم.

(٥) الديوان العالي: هو المجلس الأعلى للدولة، ويعقد تحت رئاسة السلطان، ويضمّ كلّ من الوزير الأعظم، ودفتردار الروم ايلي والأناضول، وقاضي عسكر الروم ايلي والأناضول، والتوقيعجي، والروزنامجي، وآغا الييني جري كأعضاء دائمين، وفيه ينظر في الشئون المالية والإدارية والسياسية والشرعية، كما تعرض فيه الشكاوى للبتّ فيها، وحتى عصر الفاتح كان يعقد كل يوم، ومنذ أوائل القرن ١٦ م أصبح يُعقد أربع مرّات أسبوعيًّا (السبت، والأحد، والاثنين، والثلاثاء)، وأيضًا ترك السلطان رئاسته للوزير الأعظم؛ حيث كان يقوم بمراقبة أعمال الديوان من خلال حجرة العرض.

مع ثلاثمائة فردٍ كانوا من الفرسان «آتلو»[١]، والمُشاة «يايا»[٢] طوال القامة، وذوي الثّياب المزينة لتغير الوجْه لمقام سرير السّلطنة، وانعقد الديوانُ في ظلّ هذه الازدحام الشديد. وكان «خدم الباب» على تلك الدّرجة من الزّينة والعظمة والهيبة والبهاء التي لا يمكن وصفها.

ولم يكنْ هناك قدرةٌ على حصر عساكر الروميلي والأناضول، وقره مان، وأمراء أمرائهم، والزّعماء، والسپاهية، وعندما دخل الملك «استيفان» المذكور مع حضراتِ الوزراء ذوي الحشمة لشرف المثول أمام السلطان، رفع طاقيته المجوهرة والمرصّعة بناءً على عاداتهم، فجثا على ركبتيْه أمام النظر الهمايوني للسلطان حامي العالم، وجلس، فأمر حضرةُ السّلطان صاحب السعادة قائلًا: «لينهض»، فنهضَ مُمتثلًا لأمره، وسار خطوتيْن، وجلس مرّةً أخرى، فوصل عند الدرجة الثالثة بيْن رجال الدولة، وغبر الوجْه مرّةً أخرى عند تراب قدم السلطان الذي هو كالدواء، ولمّا نهض أمسك حضرة الصدر الأعظم «محمد باشا» كرسيًّا صغيرًا مزيّنًا ومرصعًا باللؤلؤ، وأجلسه، وفي الخارج اعتذرَ الملكُ المذكور للترجمان «إبراهيم بك» وقال: أذهلني الموقفُ العظيم، ولم تكنْ لي قدرة على التعبير»، وعندما قال في حضرة السّلطان: «الآن أنا الخادمُ ابن الخادم القديم، والأمرُ لحضرة سلطاني»، أجاب السّلطانُ بقوله: فليبْقَ في الولاية، وليباشرْ أمورَ المملكة»، ثمّ خرج، وعندما تفرّق الدّيوانُ العالي قال السلطان: «إنّ المقصود هو تضليلُ عساكر عدوّ الدين، والمرادَ هو الوصولُ لمكانٍ آخر».

ونادى المنادون قائلين: «غدًا الرّحيل». ومن هذا المكان، توجّه أمير أمراء «قرمان» «سليمان باشا» مع جميعِ عساكره المدجّجين بالسلاح، والمجهّزين صوْب «بودين»[٣]

(١) آتلو: أي الفرسان، وهم أحد بلوك فرقة اليني جري، ووظيفتهم الإحاطة بالسلطان، وأسلحتهم عبارة عن: الأقواس، والحراب، والبنادق، والسيوف.

(٢) يايا: أي المشاة، ووجدت قبل تشكيل فرقة الييني جري، حيث أوجدها جاندارلي قره خليل، ووظيفتهم علاوة على خروجهم للحملات حماية الأمن في مؤسّسات الدّولة وحراسة القلاع، وفي حالة ترقيتهم ينقلون لفرقة الفرسان، والسباهية.

(٣) بودين: مقر عرش بلاد المجر.

لحراستها. وكان قد أُبلغ «بأنّ هناك تفتيشًا دقيقًا، وبناءً عليه ينبغي أن تكونَ على يقظة»، فأقيمَ جسرٌ عظيم بالقرب من قلعة «واردين»[١]. وبينما كان العساكرُ الذين كانت أصواتُ حركاتهم كصوتِ تلاطم أمواج البحر يتوجّهون صوب قلعة «اكراي»[٢] لفتحها، وكان كثيرٌ من العساكر المنصورة يعبرونَ الجسرَ المذكور، وفي الوقت الذي كانوا قد قرّروا فيه الهجوم على نواحي قلعة «يانق»[٣]، و«قومران»[٤]، في الحال تحوّلت النيّةُ والعزيمة، وقام الجاويشية بالتّنبيهِ التّام على المسئولين عن الأحمال وعلى كافّة العساكر بأنّه قد صدر فرمانٌ نصّه: «ليقام جسرٌ أمام قلعة «دلقوار»[٥]. وبذلك أمر العساكر بالرّجوع على وجه السرعة، وعند المنزلِ الثالث، جاء العساكرُ الذين مرشدُهم النصر، وتجمّعوا بكثرة وازدحام شديديْن، وامتلأت خزائنُ كلّ فرقةٍ بنِعَم وفيرة تزيد عمّا لدى الجيش الهمايوني، فلم يُبَع الشّعيرُ بأكثر من عشرة «آقجة»، وكان الخبزُ واللحم المبذول، والأمن والأمان متوفرينَ لدرجةٍ عظيمة، وخلال بضعة أيام تمّ إقامةُ هذا الجسر، وبينما كان يُظنّ أنّ الجسر يبعدُ عن منزل السّلطان بمسافةِ منزلين؛ استطاع «علي أغا» رئيس بوابي الرّكاب الهمايوني «ركاب همايوني قبوجي باشي»[٦]، والمتقدم بالخيمة السلطانية؛ أنْ يجعله يبعدُ لمسافةِ منزل واحدٍ فقط. فلمّا نصبت الخيمة الهمايونية على رأس الجسْر هكذا ظهر الغضبُ السّلطاني، وأصدر فرمانًا نصّه: «لتقطَع رأسُه».

وعندئذٍ سعى الصدرُ الأعظم حضرة «محمد باشا» صاحب التدبير لتخليص المذْكور «علي آغا» من سطوةِ السّلطان القاهرة؛ حيث قدّم له عرضًا جاء فيه الآتي:

---

(١) قلعة واردين: قلعة في مدينة واردين في بلاد المجر.

(٢) قلعة اكري: قلعة على نهر اكرى شمال شرق بودين بنحو ١٣٧كم.

(٣) قلعة يانق: قلعة في المكان الذي يلتقي فيه نهر «طونه» بنهر «را» في شمال غرب المجر.

(٤) قلعة قومران: قلعة في مركز سنجاق العثمانيين المسمى «قومران» في بلاد المجر.

(٥) قلعة دلقوار: قلعة في مركز دلقوار الواقع جنوب «بودين» بنحو ٢٢٠كم عند ملتقى نهر «كونه» بنهر «وقا» في بلاد المجر.

(٦) ركاب همايوني قبوجي باشي: آغا باب السراي الذي يتواجد في معية السلطان أثناء ركوب جواده.

«سلطاني، بسبب عدم نصب ذلك الخادم الخيمةَ في المكان الذي صدر الأمرُ به بناءً على الفرمان الهمايوني، وبسبب مخالفة الأمر السلطاني صار مستحقًّا للعقاب. ولكنْ بحكمة الله تعالى، فإنّ وجود خيمة السلطان في هذا المؤضع كان سببًا في إلقاءِ الخوف والرّعب الشّديد في قلب عدوّ الدين والدولة. وبينما كانوا يظنّون أنّ حضرة السلطان فاتح الدنيا رجلٌ مُسنّ وغير قادر، قالوا: «فكيف أنّ رجلًا غيرَ قادر هكذا يجعل المنزلي منزلًا واحدًا، ويأتي من المنزل الفلاني إلى «دلقوار»، ويقيم به..!؟ وعندئذ أصدر فرمان نصّه: «فليعطي سنجقًا حسنًا بحسب طريق ترقيته».

وفي اليوم التّالي عبروا الجسر، وجاءت الأخبارُ من أمراء الحدود المنصورة بأنّ: اللّعين المشهور باسم «اورزرنجوق»، والمعروف بالقوة والقدرة قد أعاد بناء قلعة سكتوار التي كانت معْمورة، والموجودة في داخل «خروات» بتحصينات كاملة، وأغلق أكثر من ثلاثةِ آلاف من الفرسان «آتلو»، والمشاة «يايا» الأشداء المؤهّلين على اللّعين المدجّج بالسّلاح أغلقوا القلعة على أنفسهم، ولمّا عرضوا وأعلموا أنهم عقدوا عهدًا واتّفاقًا يقضي برفع الملكيّة عن طائفة النمسا بناءً على اتفاق جميع أمراءِ المجر والخروات بشرطِ تعْيينه أوزرنجوق[1] ملكًا، على أنْ تكون سكتوار تابعةً للمجر والخروات. فصدر فرمانٌ نصّه: «في الحقيقة إنّ إخماد هذه الفتنة أهمّ من كلّ شيء، وبذلك تقرّر العزمُ والتوجّهُ صوبَ قلعة «سكتوار»، وفي هذه الأثناء بينما كان «محمد بك» أمير سنجق «ترحاله»[2]، والمترقّي عن منصب رئاسة «جاشنكير»[3]، يعبرُ نهرَ «دراوه»[4] بالسفن، نصب «أوزرنجوق» له كمينًا؛ حيث أغارَ فجأةً على الأمير

(١) أورزرنجوق: حاكم خروات «كرواتيا».

(٢) ترحاله: مركز السنجاق القديم لبلاد اليونان.

(٣) جاشنكير: ويعني سفرجي، وهو من الخدم الخارجي للقصر، وقسم من السفرجية يقوم بالإشراف على المأكولات السلطانية، والآخر يقوم بتوزيع الأكل المطبوخ ذواقة الخاصّة، والثالث يقوم بإقامة السفر وتقديم الأطعمة، وعندما يترقى خدم حجرات القصر من حجرة الخزينة والمطبخ يصبح جاشنكير.

(٤) دراوه: نهر كبير يصب في «طونه».

«محمد بك»، ونهب وسلبَ خزينته[1] كاملة، وخربها. وشاعَ الخبرُ بأنّ «محمد بك» قد لجأ مع فرديْن من الخدم المجروحين لقلعة «شقلوش»[2]، فنجا.

وفي هذه المنازلِ استمرّت الأمطار والسيولُ تهطل بشدّة؛ حتى نفدتْ طاقةُ الإنسان والحيوان، وطغى المطرُ لدرجة عظيمة، ولم يعدْ هناك قدرة للتوجّه إلى أية ناحيةٍ قط، وتضرّع المضطرب والحيرانُ بقوله: «مدد يا الله الأمان»، وفاضت مياه نهري «دراوه، وصاوه»[3]، وطغت، وصارت الدّنيا كلها كالبحر، ومن ثمّ صدر فرمانٌ بإقامة جسرٍ عظيم بالقرب من قلعة «أوسك»[4]، فجمع عساكر الروميلي والأناضول الأخشابَ والأشجار التي وجدوها في الأطراف والنواحي، وحملوها.

وأقام أبطالُ الينى جري «يكيجري»[5] جسرًا طولُه أربعة آلاف وثمانمائة ذراع، فربطوا مائة وثماني عشرة سفينة بعضها ببعض حتّى النهر الرئيسي الذي كان مصبًّا للماءِ الجاري. وفي اليوم السّابع عشر كان صاحب العظمة حضرة السلطان حامي العالم عاقدًا النيّة والعزيمة لتفقّد كافّة أنواع الفيضانات، وما تمّ من بناء على الوجْه المذكور. وبحكمة الله في تلك الليلة قام «علي برتوك بك» المعهود إليه بموجب الفرمان الهمايوني الإشرافَ على السفينة السلطانية الخضراء «باشداردِه» التي أمر حضرة السلطان فاتح الدنيا ببنائها، وعلى ثلاث سفن «قادرغه» مجهزة، والأعلام المزينة،

---

(١) خزينته: المقصود بها في جميع أحماله، وأمتعته من أموال وأثقال.

(٢) قلعة شقلوش: قلعة في شقلوش الواقعة جنوب « بجوى» بنحو ٣٥ كم في بلاد المجر.

(٣) صاوه: نهر يتدفق في «طونه» أمام بلجراد.

(٤) قلعة اوسك: قلعة في مدينة اوسك الواقعة في يوغوسلافيا.

(٥) الينى جري: كانت هذه الفرقة تغذى بالغلمان العجم الذين أتموا تدريباتهم حسب كفاءتهم، وكل جندي يتقاضى يومية آقجتان، وينقسم الينى جري إلى بلوكات، وعلى رأس كل بلوك «بلوكباش»، والقائد العام لهذه الفرقة يعرف بـ «آغا الينى جري»، أمّا نائبه فيدعى «كتخدا»، وللفرقة رئيس يعرف بـ «أفندي الينى جري»، وأفراد هذه الفرقة يتقاضون رواتبهم كل ثلاثة شهور في ديوان الغلبة، ووظائفهم حماية الأمن في مركز السلطنة؛ علاوة على وظائفهم العسكرية في الحملات، وحمايتهم لقلاع الدّولة في الثغور بطريق المناوبة، وفي حالة ترقيتهم ينقلون إلى سواري القابوقولو أو سباهية التيمار.

والرايات؛ قامَ بإمرار سفن الأسطول الهمايوني المشهورة بأنواع الصّنايع، ومهارات التّصنيف، من المكان الذي تلتقي فيه الأنهار العظيمة بالبحر الأسود، والمعروف باسم «تيمور قبو»؛ حيث حمل معها الزورق السلطاني المذهب، والذي كان يركبُه حضرةُ السلطان حامي العالم في استانبول. وفي تلك الليلة السّعيدة أحدثت أصداء المدافع والبنادق التي انطلقت من هذه السفن ضوضاءَ في الآفاق، وأوجعت أصواتُ مدافع الأفراح والابتهالات الجبال والصحاري، فردّدت صدَى الصوت.

وبهذه المَهابة بكتْ أكبادُ وأعين أعداءِ الدين، وظهرت البطولات الكامنة في شخصيّة الأمير «علي برتوك» المذكور، وأخذ موقعَه المميز بين العساكر، وأصبح بطلَ الميدان، وركبَ صاحب العظمة حضرة السلطان الذي جنده كالنجوم، ركب الزّورقَ المذهّب، وتفقّد الجسرَ المقام على بحر «طونه» من كل جانب، فأحسن على الصنّاع المهرة بالمكافآت الوفيرة والمال الكثير، ثمّ تفضّل بالنزول والراحة في خيمة آغا الينى جري «يكيجري آغاسي»، وأنعم على حضرة الـ «آغا»[1] بخلعة فاخرة، وذهب وفير، ونال «علي برتوك» - أيضًا - من الألطاف العلية السلطانية. وأمر السّلطان بألّا يتبقى أحدٌ من أمراء الأمراء على مراتبهم، وأنْ يعبروا بالليل، وألّا يتوانوا في ذلك، فأصبحَ لنا هناك طريقٌ للعبور مع خدم الباب «قبو خلقي» أيضًا. وأضاف: «يا علي آغا، ينبغي أنْ أراك، وليبيّض وجهك، فأنت لائقٌ بمقام الخدمة».

وفي هذه الأثناء كان حضرةُ الوزير «أحمد باشا» مكلّفًا بالإشراف على إقامة الجسْر، وعندما تمّت المهمّة، وبينما كان يأمل بالألطاف العلية السلطانية أنْ يصبح آغا الينى جري «يكيجري آغاسي» فقد جُرح فؤاده بسبب تعيين «علي آغا» للمنصب المذكور.

وقدْ وقعت رؤيةُ هلال محرم الحرام في سنة ٩٧٤هـ/ يوليو ١٥٦٦م، وذلك عند إتمام إقامة جسر «أوسك». اللّهم بارك لنا ولجميع المؤمنين والمؤمنات»، وبعد مرورِ وعبورِ أمراءِ الأمراء عليه لمدّة يومٍ وليلة، وعندما لحقوا بعساكر الباب «قبو عسكري» المناوبين،

---

(١) آغا: تطلق على موظفي القصر وفئة الكتخدا والأعيان من الأهالي والقواد الشجعان، وأعيان النواحي والأشراف، وهي صفة للأصالة والعراقة.

كان قد تيسّر العبور على الجسر المبارك قبل غروب شمس العالم المشرقة. واستمرّت ظلمةُ الليل إحدى عشرة ساعة، ثمّ أشرقت الشمس، فأتمّوا عبورَ الجسر بمشقّةٍ عظيمة في غضون ساعةٍ من الزمان، فحمدوا الله كثيرًا، ومنذ السّحَر بدأ حضرة السلطان فلكي الوقار عبورَ الجسر بجيش الإسلام حيث أتمّ عبورَه بعد أذان العصر. وفي تلك الليلة أطلقت جندُ طائفة «اللوندات[1]، والأوباش» النارَ على القرى والمراكز الواقعة في الأطراف والنواحي، واستمرت غاراتُهم لفترةٍ طويلة، ولهذا اشتعلتْ نارُ الغضب الهمايوني، فقام بإرسال مائة فردٍ من جندِ الباب «قپوجي» مدجّجين بالسلاح مع «كلابي آغا» كتخدا البوابين، وأمرهم قائلًا: «عليكم أنْ تقبضوا على الأشخاص الموجودين في الأماكن التي تنطلق منها النّيران، وتقتلوهم». وأرسلَ للصدر الأعظم تذكرةً شريفة مع تهديد، واصطحب هو معه الجاويشية الشّجعان مع رئيس الجاويشية، وبموجب الفرمان الذي جريانه كالقضاء الصّادر من الطّرفين؛ السلطان والوزير الأعظم، وورد فيه: «فلتواري أجساد الذين أضْرَموا في النّواحي النيران، في الثرى». لم ينْجُ إلّا أشخاص قليلون مِن الأشقياء الموجودين، وأعدَمَ عددًا كبيرًا منهم.

(عبورُ حضرةِ السّلطان حامي العالم بالعساكر المنصورة مِن الجسر المُقام على «أوسك»، والأحداثُ التي وقعت آنذاك، وعاقبةُ أمر أمير أمراء «بودين» أرسلان باشا، ومحاصرةُ قلعة «سيكتوار»، والأحداثُ التي وقعتْ حتّى تيسّر الفتح).

في غرّة محرم سنة ٩٧٤هـ/ يوليو ١٥٦٦م صدرَ الفرمان: «بألّا يسبب تنافسُ أمير الأمراء، وآغا الييني جري في ذلك المكان؛ المُضايقةَ لخدم مركز الدّولة ولأركان السّلطنة، وأنْ يسيروا ويتقدّموا، وعندما وصلوا لميناء قلعة «موهاج»[2]، صدرَ فرمانٌ

---

(١) اللوندات: تنقسم إلى لوندات السفن، ولوندات البر، ولوندن السفن هم أفراد السفن البحارة، أو المحاربون، ودخلوا لخدمة الدّولة بعد النصف الثاني من القرن ١٦م، واعتبارًا من القرن ١٧م خرجوا كمحاربين مشاة حاملي بنادق، وتواجدوا بشكل دائم على السفن. أمّا لوندات البر فنالوا أهميتهم بعد أن باشروا خدمتهم كسواري، ويسمون «قابلي لوندي» للذين يخدمون في باب الوزير أو أمير الأمراء، و«قابسز لوند» لما عداهم، ويرسلون للحرب في معية أميرهم.

(٢) قلعة موهاج: فتحها القانوني عام ١٥٣٤م، وتقع في مدينة موهاج الواقعة على الساحل الغربي لطونه في بلاد المجر.

بأن يسحب عساكرُ الأناضول مدافعَ القلعة الثقيلة بأزواج من الجاموس الميري، وأنْ يلحقوا بقلعة سيكتوار في أوائل محرم سنة ٩٧٤هـ، كما صدرَ الأمرُ أوّلًا بأنْ يحاصر عساكر الروميلي قلعة «سكتوار»، ثمّ صدر فرمانٌ آخرُ بسحب مدفع «فوجيان» المشهور والمعروف، والذي كان مدفعًا نادرًا في عصْره، وكان قدِ اسْتولى علَيه «خسرو بك، وفرهاد بك» مع غزاة الروميلي من أيدي الكفّار الخاسرين بالضّرب والحرب في معركة «طابور» سنة ٩٥٠هـ من قلعة «أردون»، ونصبوا الخيمةَ الهمايونية في الأماكن التي يتوفّر فيها العُشب والماء، والواقعة على الأطراف والأكناف المرتفعة الموجودة في المؤخّرة قائلين: «إنّ نواحي قلعة «شقلوش» عبارةٌ عن جداولَ وتلالٍ، ومستنقعاتٍ ذات أحراش وبحيرات». وفي هذا المنزل سحب أميرُ أمراء «بودين»؛ «أرسلان باشا» عساكر الحدود المنصورة، والمدافع بشكلٍ فضولي، وبلا صدور أمر بذلك، وضربوا قلعةً متينة من قلاع العدو معروفة باسْم «بولاته»[1] لمدّة أسبوع، فلم يستطيعوا الاستيلاءَ عليها، وجاء من عندِ الملك اللّعين أربعة آلاف من جندِ السّواري «آتلو»، والمشاة «يايا» الملاعين المسلّحين بالبنادق؛ جاءوا بالعرباتِ إلى القلعة، فلمّا أبلغه جواسيسُه المدرّبون أنه تقرّر فجأة الهجومُ ليلًا، والإغارة؛ نهضَ في الحال وغادر القلعة المذكورة، وألقى المدافعَ في الماء، وقذفوا في الماء عددًا من الخيام القديمة، وسائر الآلات؛ حيث ظلّت على هذا النحو.

وفي تلك الليلة عندما تخلّى المسلمون عن الحمية تخاذلوا، وأثناء هروبهم لم يصادفوا عساكرَ الكفّار المزعومين، وحاصر الكفار، قلاع «تاتا[2]، وبسبرم[3]» التي كانت من قلاعِ أهل الإسلام، ونقبَ كفّار النمسا «نمچه» الأرضَ كالفئران؛ حيث وجدوا منافذَ للدّخول إلى القلاع، ومع حلولِ الليل دخلوا القلعة فجأة، وفاجئوا أهلَ الإسلام المتواجدين بها، وألحقوهم بالشّهداء، وعندما جاء الخبر بأنّ الأعداء

(١) قلعة بولاته: قلعة في مدينة «بولاته» في بلاد المجر.

(٢) قلعة تاتا: قلعة في مدينة «تاتا» الواقعة جنوب شرق مدينة «قومورن» بنحو ١٩كم في بلاد المجر.

(٣) قلعة بسبرم: قلعة في بلاد المجر.

أَسَرُوا عيالَهم وأطفالهم، ووصلَ هذا للسمع الهمايوني السلطاني؛ وجّه للصدر الأعظم خطابًا مع العتاب، قال فيه: «إنّ الاستعدادات التي قمتَ بها مع أمير أمراء «بودين» كانت تدابيرَ وتجهيزات كثيرة، فما الذي حدث هذا؟»).

وعندئذٍ أجاب بقوله: «سلطاني المعظّم، مرّات عديدة أرسلت فيها الأوامر الشّريفة والرسائل والرجال المعتمدين إلى «أرسلان باشا»، أحيطه علمًا بأنّ حضرة صاحب السّعادة السلطان حامي العالم، وقد وصل إلى حدود الممالك، وأنّه لا يوجد أيّ خبرٍ حتّى الآن من عندك»، إلّا أنّه لم يرد منه في المقابل أيّ خبرٍ قط.

ولكنّ المذكور كان قد أثبت المقدرةَ والشعرة من قبل، وكان جندي أوجاق[1]، قدّم خدماتٍ كثيرة، وأبلى بلاءً حسنًا في سبيل السلطنة، ولم يكنْ هذا هو المرجو منه. وعندما قيل: «والأمرُ لحضرتكم يا سيدي»، كان قد صدر الفرمان النّافذ كالقدر على هذا النّحو: «ليذهب خمسةُ أفراد من البوّابين، ورئيس الجاويشية «جاوش باشى»، المعروف بـ «بورنسز» مع خمسةِ أفرادٍ من الجاويشية، وليقطعوا رأسه، وليأتوا بها». وعندئذٍ أعلن الصدرُ الأعظم في «ديوان العصر» (ايكندي ديواني) قائلًا: «الأمرُ لسلطاني».

وجاءَ كتخدا باب «قپوكتخدا» الأمير «أرسلان» للمكان الذي سننطلق منه. وعندما سأله الصدرُ الأعظم: «هل جاء أيُّ شخص من عندِ سيّدك قط؟ وماذا هناك مِن أخبار؟».

أبرزَ كتخدا البابَ لجناب الوزير الأعظم رسالة جاء فيها: «بلى، جاءت الرّسائل، وقد ترك الأميرُ العساكر، ومنذُ يوم خروجه هذا انقضت ثلاثة أيام، وسيصلُ فجأة إلى المنزل الذي سيتمّ الوصولُ إليه غدًا، فهناك أمورٌ سوف يعرضُها». وعندئذٍ أرسل الصّدرُ الأعظم الرسالةَ نفسَها إلى السلطان صاحب السّعادة، وعندما أُحيط علمًا

---

(١) جندي اوجاق: «اوجاق» تعبير يستخدم بخصوص تشكيل فرقة اليني جري، و«جندي اوجاق» أي جند أحد تشكيلات اليني جري.

بمضْمون الرسالة كان أميرُ الأمراء قد ترك عساكرَ الحدود؛ بينما كان الملك- ملكُ النمسا- في جيشِه، وجاء لعرض الوضع على الجيش الهمايوني.

وعندما صدرَ الأمرُ للصّدر الأعظم بأنّه: «عليك أن تعدّ الجلاد في الحال عندما يأتي المذكورُ إلى خيمتك فلتقطع رأسَه». إلّا أنّ حضرة الصدر الأعظم عرضَ الأمرَ مرّةً أخرى على السّلطان بقوله: «فلتأمر بأمركم السلطاني أن يكون الاجتماعُ غدًا، وأن يعقدَ الدّيوان الهمايوني، إنّه أميرٌ للأمراء، ولينفذ أمركم الشريف في الدّيوان، وكان «أرسلان باشا» من قبل قدْ أثار غضب السلطان بكلمات غير لائقة، وبالقدح والذّم في حقّ الوزير الأعظم، فلمّا قام بخداعه، أرسل صاحب العظمة حضرةُ السلطان فلكي الوقار للصّدر الأعظم الخطابَ المذكور، وأمره قائلًا: «عليك أن تقرأه ثمّ تحرقه». وأضافَ بقوله: «لتكن خلعة سلطنتي على كتفك، وينْبغي أن يزولَ من وجه الدنيا ذلكَ الجسدُ القذر الذي أراد وضعَ وصمة العار عليه، وأنْ ينال جزاءه، وعليك أن تنفّذ أمري».

وفي اليوم التّالي أعلن بأنّ الاجتماع سيكون في المنزل الموجود على ساحل البحيرة في النّاحية الأخرى من «شقلوش»، وبالفعل تمّ النزولُ فيه، وعند وقت صلاة الظّهر توجّه «أرسلان باشا» لخيمة حضرة الصدر الأعظم مع خمسة عشر فردًا من رجاله الضّخام الشّداد المجهّزين بأسلحة القتال، وذوي النياشين، فوضع كرسيًّا صغيرًا في خيمة الدّيوان، وجلس عليه، بينما كان الصدر الأعظم في الداخل، وجاء الجاويشية من الخيام، فخرجَ كلُّ الناس للمشاهدة قائلين: «هل هذا الرجلُ مجْنون؟ ترى ما هو سببُ تركه العسكر، ومجيئه إلى هنا»، واجتمعت الهيئة العليا، وفي هذه الأثناء- أيضًا- خرج حضرةُ الصدر الأعظم، ورأى «أرسلان باشا»، فقال له: «ما الخبر؟ لماذا جئت؟ لَمن عهدت أمورَ الجيش؟ ماذا تقول؟! لقد أحسن عليك حضرةُ السلطان حامي العالم بإمارةِ الأمراء. يا حسرةً على اسمك يا هو!! أأنت مجنون؟! أمر حضرةُ السلطان بإعدامك، فقد جعلت الكفّار يتكالبون على قلاع أهل الإسلام بسبب سوءِ تدبيرك،

يا رئيس الجاويشية اعْزله لأنّه ملعون يا هو!. وبسرعة أمسكَه رئيسُ الجاويشية عديم الدين مِن حزامه، وجذبَه كما قال الصدر الأعظم؛ قائلًا: «الأمرُ للسّلطان».

فأخرجَ «أرسلان باشا» من تحت كمّه عرضين قائلًا: «لديّ عروض لسلطاني»، فأخذهما الصدرُ الأعظم، ثمّ أنّه لم يجدِ الجلاد «قاسم»، ووجد تابعه «طور علي». وبينما كان المذكورُ يجثو تحتَ المظلّة، صاح حضرة الصدر الأعظم: «ذلك النّجسُ الذي في النّاحية الأخرى». وفي الوقت الذي كان فيه الصدر الأعظم يخرج للميدان، قال الشخصُ المدْعو «إياس آغا» للباشا المذكور: الآن بقي للباشا المذكور فقط الشّيء الذي ترى فيه الثبات في هذه الدنيا، فلتتوجّه للآخرة بالتوبة والتوحيد».

وقد حضرتُ أنا الفقيرُ المملوء بالتقصير (سلانيكي) هذه الواقعة، ثمّ عاد الصّدرُ الأعظم، وقال للجلّاد: «أمسك قبضةَ السّيف اللامع التي تصوبها نحوه بإحْكام، وخلّصْه بسرعة»، والحقيقة ضربَه بالسيف بقوّة- رحمة الله عليه-، وفي تلك اللّيلة حزنوا عليه، وجعلوه ينتظر. وصادروا للخزينة الميرية جواده، وسجادته، وخدّامه، وكافّة مصاريفه الموجودة في عربته ذات النّوافذ «قوجي»[1]، وأكوابه، وأقداحه الذهبية.

وصدرَ فرمانٌ بتوجيه منصب إمارة الأمراء الخاصّ به بكامل حاشيته للأمير «مصطفى» أمير «البوسنة»، ثمّ وُضع جسدُه في العربة، وشُيّع لجوار أبيه، وقام والد المرحوم بالدّعاء السّيئ على المذكور، حيث نقلوا عنه أنّه قال: «أنت لا يمكنك أن تنالَ نصيبًا من ثواب مُجاهدينا، فإنك تعرّضت لغضب السلطان، وأوضحوا بأنه كانت قد شوهدت كراماتٌ كثيرة لوالده بين الغزاة المجاهدين- رحمة الله عليه-.

وبعدَ ذلك في اليوم الذي كان من المقدّر أن يتمّ الوصولُ فيه لصحراء قلعة «بجوي»[2] في المنزل الثّاني صدر الأمرُ بإعداد الموكب. ولذلك فتح حضرات الوزراء

(١) قوجي: نوع من العربات القديمة ذات النوافذ المغطاة بستائر من الداخل، وذات عجلات أربع.

(٢) صحراء قلعة بجوي: تقع أمام قلعة بجوي الواقعة في بلاد المجر.

العظام مخازن أسلحتِهم وذخائرهم. وأظهروا القوّةَ والقدرة، وأبرزوا العظمة والهيْبة التي كانت لأهلِ الإسلام؛ حيث قاموا بتوزيع ملابسهم ودروعهم الحديدية، واسْتَعرضوها، وتمّ تزيينُ موكبِ لحضرة الصدر الأعظم «محمد باشا» الذي كان يتقدّم، وتحتَ راية الجيش كان رجاله خمسةَ أشخاص من حفظة القرآن الكريم ذوي الأصواتِ الحسنة يتلون سورةَ «الفتح»، على «قورد بك»، و«حسن بك» من أولاده الكرام أولاد الصّدر الأعظم، وفرهاد آغا» رئيس فرقة العلوفجية، وجند المتفرقة، ومرّ سلطانُ الأقاليم السبعة[1] بالعربةِ فشاهدَ هذا المنظر، وسلّم عليهم. ففي الجانب الأيسر استعرضَ صهرُ وليّ العهد السلطان «محمد»، حضرة «فرهاد باشا» فرقته، وفي الجانب الأيمن استعرض صهر حضرة السلطان حضرة «أحمد باشا» فرقته بكلّ عظمةٍ وشوْكة؛ حيث لم يعدْ هناك شخصٌ لم يستحسن هذا المشهد.

واستعرضَ حضرة «مصطفى باشا»- أيضًا- الموكبَ الذي أثار الاستحسان أيضًا على أسلوب المتقدّمين، وفي صحراء «بجوي» الواقعة عند ذلك المنزل، أحاطت طائفة الينى جري «يكيجري طائفة سي» بالخيمة الهمايونية بحسب القانون، وتركوا الباب، وحطّوا في ذلك المكان، وأعلن أنّ «المنزل التالي سيكون هو قلعة «سكتوار».

وصدرَ الأمرُ بأنْ تبقى الأحمال في المؤخّرة، وأن يتقدّم الموكب، وصار موكبُهم مصداقًا للآية: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ﴾[2]، وقرأ قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[3]، وسُحبت سبعُ عشرة قطعة مدفع «بدالوشقه»[4]، وسُيّرت مائتان وثمانون قطعة مدافع «ضربزن» الملكي بالعربات، وامتدت مواكبُ اثني عشر ألفِ من أبطال الينى جري المحاربين، النّاثرين للنيران في الطريق الهمايوني لمسافةٍ تصلُ حتّى فرسخيْن،

---

(١) سلطان الأقاليم السبعة: بناءً على تقسيم القدماء قسموا الدنيا إلى سبعة أقاليم، وهنا جعل الكاتب السلطان سليمان حاكمًا على هذه الأقاليم السبعة.

(٢) الآية ١٧ من سورة النمل.

(٣) الآية ٥٦ من سورة المائدة.

(٤) بدالوشقه: نوع من المدافع كان يستخدم قديمًا.

وذلك بموجب الأسلوب والقوانين الموافقة للقاعدة القديمة للدّولة، ولم يدخلْ أيّ أحدٍ بينهم، فساروا على هذا النحو، وأعقبهم آغوات الجاويشية، وآغوات الجاويشية الجاشنكيرية «جاشنكير آغالر»[١]، وجند المتفرقة حتّى بداية درجة «الطوغ»[٢]، وكان كلّ واحدٍ منهم مجهّز ومنظّم، وكانوا يسيرونَ في هيبةٍ واحتشام، والأبطال المتوحشون بأسباب وآلات الحرب، ويرتدون الملابس المزيّنة «ما لا كلام» فيه، والمجرّدون من أغطية الشتاء، والمزيدون بالبهاء.

وبعدَ ذلك سار حضراتُ الوزراء العظام، وآغوات الركاب الهمايوني[٣]، وأربعمائة فردٍ من خدم الـ «صولاق»[٤] على حسب مراتبهم.

وفي ذلك اليوم، امتطى حضرةُ صاحب العظمة السلطان فلكي الوقار- أعزّ اللهُ أنصاره، وخلدت خلافتُه- جوادًا ذا وجهٍ كالفيل، وهجوم الأسد، وحركة الريح، وقوّة الحديد. وعندما تحقّق الظّفرُ للجناح الأيمن والنّصر للجناح الأيسر بسبب الهيبةِ من هذا المشهد، ونتيجة للكرّ والفرّ آلافِ المرّات، اقترب حضرة الوزير المكرّم «فرهاد باشا» من الرّكاب الهمايوني، فصدر إليه الأمرُ التالي: «عليك أن تضمّ إليك أمير أمراء

---

(١) جاشنكير آغا: أمير الجاشنكيرية- السفرجية- ووظيفته في أيام خروج السلطان بالموكب، الدخول تحت إبط السلطان لإنزاله أو لمساعدته على النزول من الجواد وإركابه.

(٢) الطوغ: ذؤابة أو خصلة تصنع من ذيول الخيل، وتستخدم شعارًا مميزًا لدى الأمراء والحكام، وانتقلت من السلاجقة التيموريين إلى العثمانيين، وكان في رأس حاملها هلال فضي، ويحمل أمير السناجق واحدة، وأمير الأمراء اثنين، والوزير ثلاثة، أمّا السلطان فيحمل ست طوغات، وكان الصدر الأعظم أو القائد يحمل معه طوغات السلطان إذا خرج للحملة.

(٣) آغوات الركاب الهمايوني: الآغوات الذين يسيرون بجوار جواد السلطان، ويطلق عليهم آغوات الركاب الهمايوني، وهم آغا الينى جري، وكتخدا البوابين، ورئيس البوابين، ورئيس الجاويشية، وآغوات السپاهية والسلحدارية والعلوفجية، والعزب، والجبه جيه، والمدفعية، وسائقي عربات المدافع، وأمير الاسطبل، ورئيس الجاشنكيرية والمير علم.

(٤) صولاق: الجند الذين يختارون من صفوف الينى جري لشجاعتهم، ووجد هذا التشكيل في عهد ييلدرم بايزيد، ووظيفتهم في الحملة الإحاطة بالسلطان، والإمساك بزمام جواده، وبالسهام لحمايته.

الأناضول «زال محمد باشا» بعساكره، وتقيم الخنادق وتنصب المدافعَ صوْب إحدى جهاتِ القلعة المذكورة، وأن تطلقها».

وبعدَ ذلك، دنا من الركاب الهمايوني حضرةُ الوزير «قزل أحمد لو مصطفى باشا»، فأمره السّلطان: «عليك أن تلحقَ بك أخاك أمير أمراء الروميلي «شمس أحمد باشا» بعساكره، وأن تقيمَ الخنادق من النّاحية الأخرى للقلعة، ثمّ تضرب بالمدافع». وأمرَ بتوفير فرقةٍ من أيّ مكانٍ آخر، وإعطائها لآغا اليني جري «يكيجري آغاسي»؛ «علي آغا»، وأن يعطوا لجند اليني جري «يكيجري» مدفعَ قوجيان» للحراسة عند هذه الخنادق.

وامتلأتِ الصّحاري والتلالُ بعسكر الإسلام، وكانت من الكثرة والازدحام على نحْوٍ لا يمكن تسجيلُه وبيانُه. وبالحكمة الإلهية عندما صعدوا فوقَ ربوة مرتفعة ظهرَ لهم أنّ القلعة المذكورة تقعُ فوق هضبة في الصحراء الممتدة؛ حيث كانت تحاطُ بالأحراش والمستنقعات، أمّا بناؤها وبرجها وسورها فكان ظاهرًا بوضوح، وباهرًا للغاية. فكانت مقامةً على قاعدةٍ متينة، كما كانت قلعتها الداخلية[1] حصينة لدرجة أنّ مَن يراها يقف متحيّرًا ومُندهشًا، ويقول: «إلهي! ماذا ينبغي على الإنسان أن يفعل حتّى يمكنه التغلبُ على هذه القلعة».

وكان الكفّارُ الملاعين قد غطّوا وزيّنوا بعضَ قلاعهم بالكساء الأحمر، وكسوا قممَ أسوار بعض أبراجهم أيضًا بمعدنِ القصدير وبالأخشاب، وطلوا بناءها بالفضة بغرض التّزيين، وكانوا قد أحاطوا الأحياءَ الواقعة خارج القلعة بالمياه والخنادق، وأقاموا هناك جسرًا، وكانت أرضُ القلعة المحصّنة بالأبراج والأسوار الخارجية، والتي تسير العرباتُ من فوقها واسعة للغاية، ومُحْكمة جدًّا، وكان محاربوها مجهّزين بالسّلاح الكامل، أمّا فرق المجر، والخروات، والنمسا المسلحون بالبنادق، فكانوا

---

(١) القلعة الداخلية: تطلق على القلاع الصغيرة التي تُنشأ على الأماكن المرتفعة، أو في وسط بعض المدن، ويطلق عليها أيضًا اسم «بالاحصار»، وتنشأ لغرض الاختفاء، أو الحماية للحاكم عند ظهور عصيان في المدينة. انظر: اللوحة رقم ٥.

أيضًا في غايةِ الكمال، وكانوا قد جمعوا فيها أنواعَ النّعم الكثيرة جدًّا؛ بحيث أصبحوا في غيرِ حاجةٍ للاتّصال بالخارج لمدّة عام كامل، وأحيط علمًا من المُرْشدين الذين وقعوا في الأسر، وكانوا يقولون: «إنّ «زرنجوق» لم يقم هذه القلعة على هذا النّحو، وليستولي التركُ عليها إن استطاعوا، وكانوا يشيعون بأنّ الأسلحة والمهمّات والبارود الموجود في القلعة الدّاخلية زائدةٌ عن الحدّ، بحيث لا يمكن وصفُها وبيانها.

ولم يتوقّفِ الكفّارُ طرفةَ عيْن عن العمل الدّائب، ولم يتوانوا لحظةً واحدة عن الإطلاقِ المتواصل لمدافع «شقه لوز»[1]، وللبنادق، ومدافع «ضربزن»، وقولبنورنه»، و«بدالوشقه»، ولم يجعلوا أحدًا يقترب ناحية القلعة؛ إلّا ويتعرّض للضّرب والهلاك. وفي الموضع الذي نزل فيه حضرةُ السلطان حامي العالم من فوْق جواده، حيث استراحَ في الخيمة الهمايونية الخاصة به؛ أطلق الكفارُ الذين مأواهم جهنمُ قذيفةً كبيرة من القلعة على العساكر المنصورة، فعمّ حريقُها الميدان، معلنةً قولهم: «أهلًا وسهلًا بكم».

وبعدَ ذلك أطلقوا من القلعة مدفعًا مروّعًا- أيضًا- على المنزل الذي كان مستودَعًا لعرباتِ المدافع ولمخازن الأسلحة العامرة «جبه خانه عامرة»، وكأنهم يريدون أنْ يقولوا: هذه هي الأسلحةُ التي نستطيع أن نحاربكم بها، فأنتم لا تستطيعونَ رؤيتها، فلتسمعوا صداها، إنّهم يطلقون علينا في داخل «خروات» «رزنجوق».

وقد يكون مرادُه من هذا أن يقول: «إنّني تحصّنت بالقلعة للاعتقاد بأن الوقوف في مواجهةِ سلطان «عظيم الشأن» هكذا لا جدْوَى منه، وبقصد الحصولِ على خاتم الإمبراطورية الخاصّ بولاية أنكروس (المجر). وعندما حلّ الليلُ في ذلك اليوم تمّ التّنبيهُ والتأكيد على العساكر المنصورة، وصدر فرمانٌ يقول: «ليقوموا في هذه الليلة بتجْهيز مدافع القلعة المعْروفة باسم «كوب»، وأيضًا مدافع «ضربزن»، وبعد أداء كلّ الموجودين من جند الييني جري، المدفعية، والجبه جيه، وأمراء الأمراء، والأمراء،

---

(١) شقه لوز: نوع من المدافع القديمة أكبر حجمًا من مدفع الـ «ضربزن».

وحاملي البنادق، وطائفة الـ«سكبان»[١]، وطائفة «آوجيلر»[٢]؛ أدائهم صلاةَ العشاءِ فليعمّروا بنادقهم؛ ليقم أيّ عددٍ من فرق إطلاق النار يستطيع الوصول إلى عدوّ الدينِ بالإطلاق عليهم، وليوقدوا الشموعَ على أسنّة ما لديهم من رماح، ولتعدّ خيام عسكرِ الإسلام، ولتزيّن؛ ونبّه عليهم بالقول: «على كلّ شخصٍ أن يجهّز مع ناقتِه وبغله وسائر حيواناته، وأنْ يكون في غاية الحذرِ من أن يؤخَذ علًى غرّة».

ورُفع الأذانُ في كلّ جانب، فقاموا بأداء الصلاة، وبعد التوجّه إلى الله بالمناجاة والدّعاء الخالص أُشعلَ فتيلُ المدافع من أحدِ الجوانب، فأذهل ضجيج المدافع والبنادق الذي كرجة يوم القيامة، أذهل العفاريت والشياطين الموجودة في جبل قاف[٣]، فخارت قوّتُها، واستمرّ هتاف جند الإسلام بقولهم: «الله.. الله»، وأطلقوا المدافعَ بضعَ مرّات على عدوّ الدين، فرأى الكفّارُ الأذلّاء رأي العين ما أصابهم بإغواءِ إبليس اللّعين بسبب غرورهم واستكبارهم، فتحقّقت لديهم الهزيمة «علمَ اليقين». والحقيقة أنّه على الرغم من أنّ هذه الآلاف من أعين الفلك قدِ اطّلعت على ضجيج وضوضاء هذه المعركة إلّا أنّه ليس معلومًا أنّها كانت قد سمعت خبرًا على هذا النّحو من قبْل.

وفي نصفِ الليل أطلق عسكرُ الإسلام المدافعَ ثانية على عدوّ الدين المتحصّنين في داخل قلعة «سكتوار»، فأطلق الكفارُ- أيضًا- بالحمية الجاهلية مدافعَهم وبنادقهم، ودقّوا طبولهم، ونفاراتهم، ومزاميرهم، وآلاتهم الموسيقية، ورفعوا بالصّياح والهتاف صدَى عبارة «يازوز ماريه» إلى الملائكة في عنان السماء؛ يعني حاشا لله تعالى، يرجون المددَ بقولهم: «الربّ عيسى وأمُّه مريم»، وظلّوا يتصايحون متيقّظين حتّى الصباح.

---

(١) سبكان: معناها «الذين يمزقون صفوف العدو»، وفي عصر مراد الأول كان تشكيلًا يتواجد في معية السلطان عند خروجه للصيد، وخلال القرن ١٦م أصبحت أحد بلوكاته مشاة الييني جري، وظائفها في الحرب هي نفس وظائف الييني جري؛ حيث يقومون بتوفير الأمن وحراسة القلاع.

(٢) آوجيلر: هم جند السكبان الذين يحيطون بالسلطان عند خروجه للصيد ويرافقونه.

(٣) جبل قاف: ارتبط في الأدب الديواني بأساطير الشرق، وبعضهم استخدمه للدلالة على جبل قفقاسيا.

وفي البداية، ومع نزول عساكر الروميلي في نواحي الغابات، قاموا بنصْب شباك التّحصينات، وقبلَ كلْ شيء بدءوا يسلكون الطريق مِن ناحية الحيّ الواقع خارجَ أسوار المدينة، وأعدّ عساكرُ الأناضول- أيضًا- شباكَ تحْصيناتهم؛ حتّى أنّهم ملئوا بها الأرض، ونصبوا مدافعهم وشباك تحْصيناتهم المتينة، ووجّهوا مدافعهم صوبَ القلعة الداخلية وأبراجها، وقباب أجراس كنائسها المتينة والمزينة؛ فهَدَموها.

وفي الليلة التّالية، قذفوا بأيديهم كراتٍ من النار على حيّ الكفّار الملاعين، فهربَ الموجودون في داخل الحيّ من ناحية الجسر، ودخلوا القلعة، وفي الحال أسرع عسكرُ الروميلي وطائفةُ الييني جري «يكيجري» لداخل الحي قائلين: «إنه الفتح»، فأخمدوا النّيران، واتّخذوا فيها تحصينات ذات مواقع مرتفعة، ونصبوا عليها مدافعَهم من نوع الـ «بدالوشقه»، كما كانوا يرغبون من قبل، وبدءوا في إطلاقها.

وفي اليوم العشرين من شهر محرم، شرعوا في القتال، ومع استمرار الحرب والدّمار الشّديد، أقامت فرقةُ الأناضولي في اليوم الحادي عشر جسرًا فوق البحيرة؛ حيث امتدّ هذا الجسرُ لأسفل القلعة، وجهّزوا السلالم والألغام استعدادًا للقيام بالهجوم، فقام حضرةُ الصدر الأعظم مع أتباعه من هذه الفرقة بالهجوم، وأظهروا عظيمَ الإقدام والبذل؛ إلّا أنّه لم يكنِ الفتح مقدّرًا.

وبحكمةِ الله تعالى أصبح كأسُ الشّهادة قدرًا لكثير من الغزاة، واستشهد الذواقة «جاشنكير» «سعيد آغا» أمامَ الصدر الأعظم، وفي الحال تناقلت من يدٍ ليدٍ حمائل سيفِه الذّهبية، ولم يعدْ لها وجود، وأطلق العدوّ- الذي عاقبتُه الخسران- من القلعة على عساكر الإسلام عددًا من المدافع والقذائف لم يحدثْ في حرب أيّ قلعة قط، وجذب الكاتب «فريدون بك»[1] حضرة الصدر الأعظم من الموضع الذي كان يقفُ فيه بتهوّر؛ حيث سقطت في الحال قذيفةُ مدفع من جهة القلعة في المكان الذي كان يقفُ فيه الصدر الأعظم محطّمةً ما حوله، فألحقَ عددًا كبيرًا من الرجال بالشّهداء، ولمّا لم تبدَ ملامح الفتح في ذلك اليوم، ومع انحناء الجسر أيضًا بسبب ازدحام العسكر؛

---

(١) فريدون بك: صاحب الأثر المعروف باسم «مشآت السلاطين»، وعمل نشانجيًا في عصر مراد الثاني.

أجْبروا على العودة إلى الخنادق، وجاءت تذكرة شريفة من حضرة السّلطان صاحب الشّوكة لحضرة الصدر الأعظم؛ نصُّها: «فلتحذر، فإني لست راضيًا على الاختفاء في الخنادق، ولا على القيام بالهجوم على هذا النحو، وعليك تجهيزُ أسباب الحرب والقتال الهامّة واللازمة لعساكر الإسلام، ولقوادهم الموجودين بجانبك، وعليك أن تكون متّحدَ النّية والوجهة حسن التدبير مع الجنود والقواد؛ لأنّ هذه القلعة ألهبَتْ قلبي، وأتمنّى من الله أن تشتعلَ نارًا، وأضاف قائلًا: «أعطيت رتبةً متفرّقة بأبي العالي «دركاه معلا متفرقة لغي» لكاتبك «فريدون بك»».

وكان قد أمرَ بتخصيصها له قائلًا: «صارت رتبة المتفرقة ذو شأن واعتبار عظيم بين مراتب الدولة، وأصبح ترتيبُها العاشرة بين أصحاب مقاطعات الزعامة «زعامتلولر»، وينبغي ألّا يزيد عددُ الذين يتولّونها عنْ أربعين شخصًا من أصحاب العلوفات؛ مثل أبناء السّلاطين «سلطان زاده»[1]، وأبناء الوزراء «وزير زاده»، وكافة آغوات فرقة الذواقة «جاشنكير آغالر» المتخرجين من الحرم الهمايوني. ولم يخرج «خسرو كتخدا» مع الصّدر الأعظم من الخندق، وجاهدًا معًا في الفيلق حتى يوم الفتح.

ومِن ناحيةٍ، لمّا صدر الأمرُ من فرقة «مصطفى باشا» شقيق أمير أمراء الروميلي «روميلي بكلر بكيسي» بأن يقوم أفرادُ كلٍّ مِن بلوك السلحدارية، وبلوك العلوفجية اليمين؛ بقطْعِ الحطب من الغابات، وأنْ يحملوه وينقلوه حملًا إلى أطراف خندقِ القلعة، نقل عَسكرُ الإسلام بحماس الدّين المبين الحطبَ كالجبل، وقام أبطالُ الروم ايلي والشّيخ «نور الدين زاده أفندي»[2] بإيضاح فضائل الجهاد؛ حيث تقدّموا معًا للهجوم، إلّا أنّه لم يتيسّر تحقيقُ النصر، والاستيلاء على القلعة من فوقِ هذا الحطب. وأطلق الكفارُ نيران مدافعهم، فألحقوا رجالًا كثيرين من عسكر الإسلام بالشهداء، وفرّقَ حطامُ الحطب الجند. فملأ أبطال اليني جري من أفراد فرقة آغا الينى جري

---

(١) سلطان زاده: تطلق على الذكور من أبناء السلاطين، وبموجب قانون الفاتح كانون توجه لهم إمارة أمراء، وبعد عصر التنظيمات لقبوا بـ «سلطان زاده».

(٢) نور الدين أفندي: عالم كبير ومتصوف، كلف كواعظ في حملة سيكتوار.

الذين هُم مثل سمنادره[1] النار، الأجولة بالتراب والتبن، وأقاموا بها برجًا يمكنُهم منه الضّرب على القلعة، وصعد عليه مائة جندي «يولداش»، فثقبوا صدورَ أعداء الدين بطلقات البنادق. وفي هذا المكانِ شربَتْ- أيضًا- الكثيرُ من القلوب العطاشَى من كأسِ الشّهادة.

وفي هذه الأثناء، وبحكمةِ ربّ العالمين هطلت أمطارٌ شديدة، وملأت بمائها الخَنادق، ولم تعدْ هناك قدرةٌ لأحدٍ على التحرّك، فخارت قوى عساكر الإسلام، وواجهوا أعلى درجاتِ الحيرة، وعندئذ حانتِ اللّحظات التي يقبل فيها الدعاءُ والاستغاثة عندَ عرش الرحمن، فقام الكفّارُ مُنتهزين الفرصة بإطلاق قذيفة مدفع على مدفع الـ «قوجبان» المنصوب عن فرقة آغا الييني جري، فأبطل أحد جوانبه، ولم يتمكّن عسكرُ الإسلام من الاسْتفادة من المدافع المنصوبة عند فرقة «نصوح آغا» المترقّي من رتبة الآغا الخامسة[2]، فتركوها. ونصب «كوجك أحمد آغا» أمير سنجاق «كوستندل»- كوستندل سنجاق بكي- مدفعيْن ظاهرين، وعلى أثر إطلاقهما لمدّة يوم وليلة، علا صوتُ استغاثة الكفار صائحين: «أمان الأمان»، وفي اليوم التّالي شوهدَ الكفارُ وقد أخذوا ينقبون من وسط أسوار القلعة.

وخلاصةُ القول، ففي العشرينِ من شهر صفر الذي كان يوافق يوم الخميس، وفي وقت الصّحوة الكبرى دقّت طبولُ الهدنة بين الطرفين، وبينما كان كلّ شخص يتناول طعامَه في الخنادق، ويتوضّأ، ويستعدّ لاستئناف المعركة؛ يقوم أحد رؤساء بلوك الييني جري (يكجري بلو كاشي) بالوضوء في الخندق، ويقول لجنوده اليولداشية ما يلي: «رأيت هذه الليلة رؤيا جميلة، رأيت أنّني سأصبح شهيدًا، لكن هذه القلعة سوف يتمّ الاستيلاءُ عليها أيضًا». ثمّ يوصي قائلًا: «عليكم أن تعطوا ابنتي فاطمة الموجودة في

---

(١) سمنادره: مفردها سمندر، وهو حيوان خرافي يعيش في النار في الأساطير الإيرانية القديمة.

(٢) رتبة الأغا الخامسة: هي وظيفة أمير طائفة العسكر المكلفون بحراسة القلاع، وبالخدمات المتأخرة وقت اللزوم كمساعدين لقوات المحافظة الدائمة كالعزب، والفرسان الموجودين في القلاع.

منزلي للـ «اوده باشي»[١]؛ «محمد باشا». وكان قد أعدّ قنبلتيْن ذوي إشارة، وقام بإلقاء القنبلتيْن راكبًا على سلّم قديم ومكسور، وأخذ عددًا كبيرًا من اليولداشيه، وقال: «سوف يخرج الدخانُ من فتحة الـ «مازغال»[٢] الموجودة في المقدّمة. احترق قلبي، ولنُرِي اللهَ هذا العمل. وليكن ما يكون»، ووصل لأسفل القلعة، وأسند السلّمَ أسفل فتحة الـ «مازغال»، وصعد عليه، وعندما نزع فتيل القنبلة، وقام بقذفِها من الفتحة انفجرتا في الـ «جوربجي»- رئيس بلوك الينى جري المذكور-، فسقط، واستشهد، الحكم لله.

ربّما كان موجودًا تحت البرج البارود والمتفجرات في أكياس، فبمجرد أنْ أطلقت القنبلة انْطلق في الحال دويّ عظيم، وكأنّه يوم القيامة، وتصاعد تراب البرج وسور القلعة وأشجارها إلى السّماء. الله أكبر من كلّ شيء. وهلك رجال ليس لهم حصرٌ ممّن كانوا متواجدين في الداخل والخارج قريبًا من القلعة، ويرغبون في النّجاة قائلين: «هاي مدد»[٣]، وفُتحت فتحةٌ للدخول للقلعة، وتعقب أهل التوحيد بأسلحتهم ومهمّاتهم الحربية صائحين: «الله.. الله». وفي لحظةٍ واحدة كان الكفار الموجودون فيها مقْهورين، ونجا نحو مائتا شخص من الكفار الدّناة بصعوبة؛ حيث وصلوا إلى القلعة الداخلية بجوار «زرونجوق»، واستولى المسلمون على أكثر من مائة قطعة من مدافع «بد الوشقة، وقولبنورنه، وشاهي، وضربزن، وشقه لوزلر» التي ليسَ لها مثيلٌ مع البارود، ولم يتخلّ الملاعين عن الحرب والقتال ثانية بسبب عنادِهم وغرورهم؛ حيث استأنفَ القتال مرّةً ثانية حول الأسلحة والذخائر التي استولى عليها المسلمون. واستشهد الكثيرُ من أهل الإسلام.

---

(١) اوده باشي: أي رئيس الحجرة، وهو أقدم ضابط في بلوكات اوجاق الينى جري، ويأتي بعده كتخدا الحجرة، ويتواجد بصورة دائمة في الأوجاق مع بلوكه، وفي وقت الحملة يقيم في الخيمة التي تعرف باسم «خيمة البلوك»، ويتجمع حوله أفراد الحجرة بخيمهم.

(٢) مازغال: فتحة في جدار القلعة واسعة من الداخل، وضيقة من الخارج لضرب القذائف.

(٣) هاي مدد: تقال في مقام الاستغاثة.

وبحكمةِ ربّ العالمين في تلك الليلة، وبينما كان الرجال والقادة والجواسيس الأبطال الذين كانوا من فرقةِ جندِ حدود «بودين» المنصورة، وفرقة أمير أمراء «قرة مان» (قرة مان بكلر بكيلري) بينما كانوا قادمين يخرج واحدٌ من الأبناء السبعة المَلاعين لـ «زرونجوق» المحاصر في قلعة «سيكتوار» يخرج مع جواسيسه (يوناقلر) المَهَرَة الذين كانت لهم رايةٌ تحمل علامةً على شكل أسد، وكانوا يُعرَفون بها بين الخروات من جيش الملك اللّعين من أجل الاستخبار عن والده، فهجم عليهم عند مركز الحراسة، فهزموهم وحطّموهم، وأسروا اثنين منهم أحياء، وكان أحدهما «بوروزران»، والآخرُ حاملَ علم «بيرقدار»، فأسروهما، وأحضروهما. وفي ذلك الوقت جعلوهما يتكلمان.

ولّما أحاط الجواسيسُ من ذوي الرواتب العثمانيين علمًا بأن هناك نزاعات نشبتْ بين أهل النمسا (نمچه) والمجر والخروات، واللاتين بسبب اختلاف اللغة، حُرّرت الرسائل بلغاتٍ تخالف لغةَ كلّ قومٍ وقبيلة، وذلك بتدبير كلّ من الترجمان «إبراهيم بك»، و«مصطفى كتخدا كتخدا بابٍ حضرة لالا قره مصطفى باشا»، وكاتب السّر «فريدون بك»، ثمّ ألقاها الجواسيسُ في أماكن تجمعهم في الطابور، فأصبحت سببًا للعداوة والشّقاق الشديد بينهم.

ولّما اتّفق أمراءُ المجر والخروات على عداءِ أمراء النمسا قائلين: «كان الملك المذكورُ قد تعهّد بإرسال المددِ مع العسكر إلى «زرونجق»؛ إلّا أنّه لم ينفّذ ما تعهّد به، وذلك حتّى يهلك رجل يشتهرُ بالبطولة هكذا في ميدان القتال». قال الجواسيس: إنّ وقوع الفرقة والشّقاق أصبح مؤكّدًا، وأصبح أثرُ هذه الخطابات محقّقًا، فقام المسلمون باتّخاذ تدبيرٍ بهدف أسر «زرونجق» اللّعين حيًّا، فنصبوا أمامَ القلعة علم جيشِ خروات الذي يحمل شكلَ الأسد، وأطلقوا النّفيرَ بالطريقة التي علمها المعلم «بوزيران» لتلامذته الموجودين بالداخل، فأطلق أولئك التلاميذُ نفيرهم أيضًا من الدّاخل مع النداء والهتاف، وصاحوا.

وفي هذا الموضع كتبوا على لسان ابن «زرونجق» رسالة بأوصاف غريبة بلغة خروات، ثمّ قذفوها بسهم صوبَ القلعة الداخلية؛ حيث كتب قائلًا: «والدي صاحب السّعادة، من أجل حصارك في سبيل الدّين المسيحي في هذه القلعة، وحمايتك اسم وشرف الدّين والدولة في سبيل حضرة «عيسى ومريم»، لم أتمالك إرادتي من أجل معرفةِ أخبارك، فبينما كنت أتجسّس مع أبطالي الشجعان من أجل الاستخبار عنك، سقطتُ جريحًا، ولم يبقَ هناك موضعٌ سليم بي، فأصبحت أسيرًا، ويجب عليَّ أن أكونَ فداءً لك، فقد أوصل جناب الحقّ الخالق حالي الآن إلى هذه الدرجة. وقبل أنْ أموت رأيت بعيني حالَك وأحوالك، وبطولتك وشجاعتك بين المسيحيين، فقلت: إنّ مواجهة هذا السّلطان العالي الأصل وعساكره، ومحاربتهم؛ أمرٌ لائق فقط بشأنك الصّبور، ولذاتك التي تتحمّل الآلام والمحن، ونظرًا لعدم إبقاء كبار الخروات والمجر لعهدهم بخصوصِ ملك النمسا، ولعدم إرسالهم المدد؛ فإنّ هناك كلامًا كثيرًا منهم في شأنك، أمّا صاحبُ التدبير حضرة «محمد باشا» وزير سلطنة آل عثمان هذه، ذو الوجْه الطّلق، والحديث العذب، المقبول لدى السلطان العالي المقام، والمنفّذ لأوامره، فليُطِل اللهُ في عمره ودولته كثيرًا، والمشهور بين الخروات باسم «صوقوللو اوغلو» قد أحْسَن معاملتنا، وشمل برعايته قلوبَنا المحطّمة، وأظهر اللّطفَ والكرم الكثيرَ تجاهنا. وقال لي اكتبْ رسالةً إلى أبيك، وانصحه. فماذا تكون نتيجةُ هذا الغرور والعناد، ها هو الأمرُ قد تمّ. وليس هناك شهرة أكثر من هذه، فليأت؛ وليخرج، وعلى أنْ أحصل له على المراتب العالية، من صاحب العظمة حضرة السّلطان حامي العالم، وربّما إنْ شاء الله تعالى أحصل له على مملكة وإمبراطورية عرش المجر.

وبناءً على الوجْه المشروح، قذفوا الرّسالةَ بالسهم صوب باب الكنيسة، فوصلت. فلمّا قرأها والدُه صدّقها. وفي الحال كتبَ بلغته مرّة أخرى على ظهر الرّسالة ما يلي: «ابني نور عيني، وفلذة كبدي، ما أسعد أنّك ذقت جرحَ العدو لك، وواجهت بأسَ العساكر، وأصبحت أسيرًا، وأظهرت ما في قدرتك، وأعلنت بين النّاس أنّك ابني، أحطتُ علمًا برسالتك، وفهمتها. فقد كان أجدادُنا وذريتنا على رأسَ أهل البطولات.

إنّ إعلان كلمة «أنا ضعيف» لأحدٍ أمرٌ ليس لائقًا بنا، فإنّه عار، ولا يليق بدولتنا طلبُ السلامة على هذا النحو. أراد حضرة الباشا «صوقوللو محمد باشا» منّي قلاعًا كثيرة، وإنّهم لو قطعوا أذني قطعًا لما أعطيتها لهم. وأعاد قذف الرسالة مرّةً أخرى للخارج، وعندما صار مضمونُها معلومًا لدى جند الإسلام؛ تقرّر عقابُ الابن على غرور وعنادِ الملعون، فأعلن النّداء على جميع العساكر المنصورة، بأنّه: «عليهم جمْعُ كلّ ما هو موجود من أشجار «جالي وجربي» والأخشاب والعروق في جميع نواحي القلعة، وإشعال النّار فيها.

وفي يوم الجمعة، ومنذُ وقت السحر، شرعوا في جمعها، وبدءوا في إشعال النّار في الفترة الواقعة بين الصّلاتين- المغرب والعشاء-، فأشعلت النيران في تلك اللّيلة، واندلع اللهبُ إلى عنان السماء.

وفي اليوم الثّاني والعشرين من شهر صفر الموافق يوم السبت، ومنذ وقت السّحر فتح «زرونجق» بابَ القلعة الداخلية الموجودة فوق الجسر، ثمّ تقدم أمام جنده الملاعين، وبصحبتِه نحو ثلاثة آلاف من جندِ الكفّار من ذوي البنادق والسيوف والحراب صائحين: «هاي هوى»، فأطلقوا نيرانَ البنادق في كلّ اتجاه على عساكر الإسلام، ثمّ خرج، وسار، وبينما كان يتقدّم وعلى رأسه طاقيّتُه القطيفة، وحول صدرِه سلسلته الذهبية، وفي يده سيفُه المذهّب والمرصّع، أصابت رصاصة ذات خمسة دراهمَ من رصاصات فرقة جند الييني جري صدره، وتبع ذلك الهجوم خلفه.

وفي طرفة العين صارَ مع عساكره طعمةً للسّيف، ومن ثمّ خطف أبطال الييني جري الملعونَ المذكور على الفور، وحملوه فوق رؤوسهم، وقبل أن تخرج روحه الخبيثةُ من جسده النّتن، وضعوا وجهَه في وضع السّجود على زناد مدفع «قوجيان»، وضربه أحدُ جند الييني جري ببلطةٍ قويّة على قفاه، ووضع «محضر آغا»[1] رأسه الدّنيئة بطاقيته القطيفة، وسلسلته الذهبية وضعها في صرة، وأخفاها اليولداشية من أمامِ الآغا،

(١) محضر آغا: أحد الضباط الأعيان في فرية الييني جري، ويأتي قبل كتخدا الييني جري، ووظيفته تنفيذ الأوامر الصادرة من الوزير الأعظم، والقيام مع أفراد بلوكه بحراسة دائرة الوزير الأعظم.

ثمّ أرسلوها للخيمة السّلطانية. ولم تبقَ هناك لفترة طويلة أيضًا؛ إذ أرسلها السلطانُ مع كتخدا البوابين «كلابي آغا» إلى خيمة حضرة الصدر العظم، وأصدرَ إليه فرمانٌ، نصُّه: «عليك أن ترسلَها لجيش الملك، وأن تسأل عن متاعه».

وفي هذه الأثناء أحضروا المرشِد، وقبض عددٌ ممّن كان يحمل الرأس على كتخدا المذكور، وحافظ خزينته، وحامل كأسه؛ يعني ساقيه، أحياء. وعندما قالوا: «لو حلقت شعورهم، وقصصتَ لحاهم، وعرضوا على السّلطان هكذا، يكون أمرًا لائقًا». وعندما رأوا سيّدَهم المقرّب تصايحوا، فتفضّل حضرةُ صاحب الدّولة بسؤال المذْكورين عن أمواله ومتاعه وزينته بواسطة التّرجمان «إبراهيم بك»، وكان هؤلاء الكفّارُ جماعةً معاندة ذات حديثٍ جافّ، فأجابوا بعنفٍ ونكيرٍ قائلين: «تحصّن أكثر من ثلاثة آلاف مع البطلِ المعروف، وكان لديه مائة ألف من عملة المجر الذّهبية، ومائة ألف من القروش، وعربات من نوع «قوبه وقطانه»[1]، فأمر بتوزيعها جميعًا، ولم يبقَ في أيِّ صندوق لوازن تقدر حتى بخمسة آلاف ذهبية، وأنّ خزينة البارود ممتلئة تمامًا، إلّا أنّهم الآن أشعلوا فيها النيران. وربما لا يبقى في نواحيها مِن هؤلاء العسكر أيّ فرد؛ حيث هلكوا جميعًا، فكانت حربًا عظيمة ستقعُ لو لمْ تشعلوا فيها النيران، وعندئذ كنتُم لا تستطيعون الاستيلاء على القلعة قطّ؛ فقد دنّسها جيش النمسا، ولم يبق أيّ شيء لكم تفعلونه، وسوف ترون ما قلته الآن». وعندما راح يؤكّد كلّ فردٍ من الثلاثة كلامَ الآخر، قال الصدر الأعظم لرئيس الجاويشية: «هاي الغوث يا جاوش آغا! هل تسمع ما يقوله هؤلاء الكفار؟ إنّه هراء. فهذا الأمرُ قد خطر ببالي في وقتٍ سابق. فاذهب لقواد الجيوش». فركب رئيسُ الجاويشية مع الجاويشية، وبينما كانوا ذاهبين، وقبل أن يصلوا لمنتصف الطريق أحاط القائد وأتباعُه علمًا بالأمر، فلمّا تنبّهوا كانوا قد صاروا قريبين، وفي الحالِ فجأة خرج صوتٌ كرجفة يوم القيامة بواسطة طائفة «تاراججي» الذين أحاطوا علمًا بالأمر، ولم يمكن منعُهم. وظننا كأنّ الفلك الأخضر قد خرج عن مداره، فاضطرب حالُ الناس جميعًا بسبب إطلاق النيران، ولم

(١) قطانه: نوع من العربات القديمة.

يبقَ في القلعة الداخلية أثرٌ يمكن أن يكون مقرًّا ومكانًا، فقد تطايرتِ القلعة في الهواء، واختلطت بذراته.

وأطلقوا البارودَ في الهواء على مَن كان موجودًا قربها، ولم يحيطوا علمًا بالأمْر، ولم ينجُ سوى خمسة عشر رجلًا من عدّة آلاف من الرجال سقطوا جميعًا في البحيرة ذاتِ الأحراش التي كانت تقع على أطراف القلعة. لكنْ هؤلاء الناجون صاروا بلا منفعة تُرْجى منهم؛ حيث إنّهم لم يعمروا.

وفي هذا اليوم، جاء جميعُ القوّاد إلى خيمة الوزير الأعظم قائلين: «لتكن الغزوة مباركة»، ثمّ انعقد الدّيوان العالي، وجاء للخيمة الهمايونية كلٌّ من دفتردار الأموال «مراد چلبي»، وأمير التّوقيعات السابق «مير توقيعي»[1]، ورئيس المتفرقة «متفرقة باشي» «جلال زاده»، ورئيس الكتاب «محمد چلبي» مع جميع كتبة الديوان الهمايوني[2]، وحرّرت رسائلُ الفتح إلى حكّام الممالك المحروسة، وإلى السلاطين ذوي الاحترام الذين كانوا يحْكمون في أطراف ونواحي الأقاليم، وكتبت الأحكام الشّريفة لبشارة الفتح إلى كلٍّ مِن حضرة الشريف حاكم الحرمين الشريفين، وسعادة «كراي خان» خان «قريم»، ووالي ولاية الشرق شاه العجم الشاه «طهماسب»، وولي العهد المحفوف بالسّعادة حضرة السلطان «سليمٍ» الموجود في مركز الدّولة للمحافظة على ولايةِ الملك والسّلطنة، وإلى أمير أمراء كلٍّ من: «اليمن، ومصر، والشام، وحلب، وديار بكر، وبغداد، والبصرة، وشهرزور»[3]، ولحسا»، والرؤساءِ والحكام النّصارى الموجودين في البحر الأبيض، وإلى أمِير أمراء الجزائر؛ حيث أُرسلت بالبريد مع الجاويشية المهرة والمعتمدين. فأنعم وأُحسن بالترقيات على مَن كلّف بالخدمة أثناءَ فتح القلعة ممن كانوا على درجة اليولداشية «يولدشلق»، فنالوا مرادهم.

---

(١) مير توقيعي: النشانجي.

(٢) كتبة الديوان الهمايوني: الكتاب الذين يقومون بالخدمة في الديون الهمايوني، وينقسمون إلى قسمين قسم ذي رواتب وقسم تيمار وزعامة، وذوو الرواتب أكثر أهمية، ووظيفتهم أثناء الحرب ملازمة السلطان أو الوزير الأعظم في خروجه للحملة، ويباشرون وظائفهم في الديوان.

(٣) شهرزور: هي كركوك مدينة عراقية جنوب مدينة الموصل بنحو ١٦٠كم.

وفي الحال لم يضيّعوا الوقت، فأمر الصدرُ الأعظم بتطهير مكان القلعة الممتدّة، وحتّى يمكن تأسيس القلعة الداخلية، والقلعة الخارجية، والخنادق العميقة والأبراج، وفتحات المدافع بأسلوبٍ آخرَ مُحْكم؛ أمر بقطع الـ«دنبالر»، والـ«بالوانلر» من أجل أن يصبحَ طولُها وعرضُها أكثرَ من ذراعين، وبذلوا ما في وسعهم في السّعي والاهتمام لإحضار لوازم بناءِ القلعة كاملة، وشرعوا في إنشاء القلعة والجامع الشّريف، والمنبر اللطيف، والمحفل، وشاع بأنّ صاحب السّعادة حضرة السلطان حامي العالم لديه رغبةٌ في أداء صلاة الجمعة في جامع القلعة، شاكرًا الله لتحقق الفتح والنّصر، وموزّعًا الأنعام والإحسان، وباذلًا الصدقات الكثيرة في اليوم الذي سيتمّ فيه بناءُ القلعة إن شاء الله تعالى، وبدأ هذا الخبر يشيع، وجاهد السلطان ثلاثين يومًا مع عساكر الإسلام، إلّا أنّه انتشرت بين الناس وترددت العديد من الأنباءِ التي تقول بأنّ الفتور والضّعف قد حلّ بصحته الشريفة، وجسده اللطيف.

وفي هذه الأثناء، رحل رئيس الخزيندارية[1] «سنان آغا» من دار المحنة إلى دارِ السّرور بعد أنْ لازم الفراشَ أيامًا كثيرة، وفي مدينة «بجوي» اختار الـ«ميرتوقيعي»، والدفتردار السابق «محمد بك» رحلة الآخرة متأثرًا بمرض التسمم، ورحلَ أيضًا أميرُ أمراء ولاية البصرة «درويش علي باشا»، وأحضر السعاة خبر وفاتهم وأبلغوها، ومن أجل توجيه هذه المناصب المحلولة التي توفّيَ أصحابُها كان من الضّروري عقدُ الدّيوان. لكن كان الوزير الأعظم يعمل بجد، وسعى على الدوام في بناء القلعة؛ حيث اهتمّ بإكمال وسائل البناء التي أمر بجمعها.

وفي هذه الأثناء، وفي ليلة الثاني عشر من ربيع الأول استدعى حفّاظ القرآن الكريم للخيمة الهمايونية، وقرأ الحافظ «محمود چلبي» القرآن احتفالًا بذكرى المولد النّبوي الشريف، وبذلت النّعمُ الوفيرة، والإحسانات الكثيرة، وفي الليلة التالية قرئَ القرآنُ بهذه المناسبة أيضًا في خيمةِ حضرة الصدر الأعظم، ثمّ توجّهوا إلى الله بالدّعاء،

---

(١) رئيس الخزندارية: هو أمير حجرة الخزينة التي هي من حجرات القصر، ويقوم بنظارة الشئون المالية المتعلقة بالخزينة، ووظيفته في الحملة مرافقة السلطان بالخزينة.

ونودي بأنّه: «في يوم الجمعة سوف تؤدّى الصلاةُ في جامع القلعة، وستكون جماعة عُظمى، وسوف يقوم الشّيخ «نور الدين زاده أفندي» بالوعظ وإسداء النّصائح والتضرّع بالدّعاء، لكن أعلن بأنّ حضرة السلطان لا يستطيع الخروج لأنّ قدميْه المباركتين تؤلماه.

ومِن وقت السحر، جاء الوزراءُ العظام وأركان الدّولة إلى الجامع الشريف، وكانت الكثرةُ والازدحام فوق الحدّ. فتلَا الحفّاظ القرآنَ الكريم، ثمّ نهض الشيخ نور الدين وألقى الخطبة؛ حيث حمدَ كثيرًا مقامَ العزّة، وشكره شكرًا لا حدّ له. وبعد الصّلاة تضرّع الجميعُ إلى الله، وعرضوا حاجاتهم آملين قبولَها؛ حتى إنه قيل: «لو كانتْ هذه الصلاة قد أدّيت مع حضرة الذات السلطانية، وتمّت مباشرة المصالح الكثيرة فيها، وبذلت النّعم؛ لكان أمرًا لائقًا. وعلى الفور بدأ المنادون في النداء قائلين: «أيّها الأمراء والآغوات! غدًا سيعقد الديوان، وعليكم بالحضور». عندئذ حلّ الصّمتُ بكلّ شخص، وأصبحوا جميعًا مشغولين بالتجهيز لعقد الديوان.

وفي هذه الليلة، أرسل حضرة الصدر الأعظم كاتب السر «فريدون بك» إلى خيمة كلّ فردٍ من حضرات الوزراء العظام على انفراد، ووكله في ذلك قائلًا: «فليعبّروا عن آرائهم، ومقترحاتهم، وتفكيرهم، وتدبيرهم، وتجهيزهم. وإن شاء اللهُ تعالى، بناءً عليها يجب أن نتشاورَ غدًا في خيمة الديوان»، وكنت أذهب أنا هذا الحقير- سلانيكي- على ضوء القمر مصاحبًا المذكور «فريدون بك» لتحديد خيام الوزراء العظام له. فوصلنا أوّلًا لخيمة «فرهاد باشا»، وعندما قلنا له: لقد أرسل حضرة الصدر الأعظم كاتبَ السّر «فريدون بك» لمقابلتك، ردّ قائلًا: «فليتفضّل»، فتوجّهنا للدّاخل، وبمجرّد أنْ وصلنا، قال «فرهاد باشا»: «هاي مدد»، مجيئك طيب، عجبًا! لقد قام الصّدر الأعظم بالتجهيز لعقد الديوان، كيف تحدث هذه الأمور؟». ثمّ بكى وهَذَى بكلام غيرِ لائق. فقلتُ أنا العبد: «أليس معقولًا عقد الديوان؟ كيف كانت تناقش أحوالَ السابقين؟ ألا تعلم؟ ألم تطّلع على التواريخ؟ ألطف وأحسن في القول.

وكنْ على الفهم الفَطِن الذي يحفظ العرضَ الشريف للدين المبين، فلتحضر الأرواح الطيّبة لرجال الله، وليحفظها الخالق «ذو الجلال»، ولينصرها. إن المقصود هو حُسنُ التوجّه والتّوكل على الله بخالص النّية. فأجاب قائلًا: «أنت غليظ الطبع، لما أمّلك وغمّك؟» فخرجنا من خيمته، وعندما وصلنا لخيمة حضرة الوزير «أحمد باشا»، لم يكن المومَأ إليه على غفلةٍ من الأمر، وكان جاهزًا ويقظًا، وفي حالة تفكيرٍ وحيرة. وعندما قيل له: «جاء «فريدون بك»، ويريد مقابلتك؛ تفضّل قائلًا: «فليأتِ». وبعدَ السّلام قال: «أيّها الأخ هل قلبُكم من الحجر، أم من الحديد؟ ما هي أحوالُنا التي تستوجب عقدَ الديوان؟ ما العمل الذي فعلتموه؟ وأي يوم ننتظر؟ لماذا تضعونَ الخزينة العامرة مع الدّفتردار على السفينة، ولا ترسلونها؟! إن الذي سيحدُث قد حدث، والآن أنا أرسلت جميعَ لوازمي، وحضرت».

وعندما قلتُ أنا العبد: «سلطاني! إنّ تدبيرك واستعدادك هذا سيكون قطعًا باعثًا على القيل والقال الكثيرَ بين الناس، فبأيّ شكلٍ تصرف الوزراء العظام عندما حدث حالٌ كهذا للسّلاطين السابقين؟ والأمرُ ليس بعيدًا، كيف حدث عند جلوس سلطاننا؟ وماذا فعل الوزراء عندئذ؟ لو قلت: «الحمد لله! إنّ سلطاننا لائق لعامة الناس لا يكذبك أحد، ويصدّقون على قولك قائلين: «إنّه صحيح»، ألطف وأحسن، واترك التردّدَ وعدم الثبات، وكنْ «قويَّ القلب»، فنحن موجودون أمام عدو الدين، وينبغي علينا السعيُ لإتمام الأمر، وإتمام بناء القلعة، فلتقاوم، وها هو حضرة سلطاننا على وشك المجيء والوصول».

أجابَ قائلًا: «إنّ مجيئه هنا ليس طيبًا، ولا تستطيعون إحضاره، فمدبّروه لا يشبهون أحدًا. اصبرْ، وعليك أن ترى لتكن النّهاية خيرًا، وعلينا أن نرى غدًا ما سوف يحدث».

وعندما أصبح هذا- أيضًا- على علم بالأمر، توجّهنا لخيمة حضرة الوزير العزيز «قزل أحمد لو مصطفى باشا»، فلمّا أحيط علمًا بمجيئنا، استقبلنا وعانقني،

وضمّني لصدره قائلًا: مجيئك طيب، وخطوتك مباركة، فلييسّر الحقّ تعالى جميعَ أعمالنا الصّعبة بكرمه، سمعت خبرًا بأنّه الآن هُزم جيشُ الملك، وتشتّت، وتمّت تدابيرُكم وتجهيزاتكم الحسنة». ثمّ دعا له بخير، وقال: «ليمدّ الحقُّ تعالى صاحبَ الدّولة بالقوة، ولييسّر له أعماله، لقد وقعتْ على كاهله جميع أمور الدين والدولة، فالجميعُ ينظر إليه، وعلى كلّ حال فإنّ نتيجة هذه الحملة كان لا بدّ وأن تصير على هذا النّحو». ثمّ قرأ آية: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾[1]، وأضاف قائلًا: «إن شاء الله تعالى سأحضر للدّيوان غدًا، والآن عليكم أن تسعوا لتوفير وسائل البناء لليني جري لإكمال القلعة». فقلتُ أنا العبد: «سلطاني، أرسل الجاوش بالحكم الشريف لأخيكم حضرة أمير أمراء الروميلي؛ حيث جاء نصّه: «عليك أخذ القدر الذي طلبته من العسكر المنصور، وأنْ تحاصر قلعة «بريوفجه»، ونجدّ ونسعى في ضمّها». أمّا هو فقد قال: «لقد حلّ الشتاء، واشتدّ، وأنّ العساكر أحاطوا علمًا بالوضْع، وقالوا: بأمر مَن سنذهب؟». عندئذ قلت: «هل هذا هو الوقت الذي يمكن أنْ تقول فيه هذا الكلام؟ إنّ فتى المدينة هذا على الفطرة، والآن اجعلني قائدًا، وأرسل الحكمَ بذلك، أسرع به إليَّ، فإذا تحدّث بكلمة، فعليّ أنْ أقطع رأسه، وأرسلها لخيمةِ الصّدر الأعظم». فاستحسنَ الصّدرُ الأعظم هذا القول، وقال: «الحقّ أنّه وزيرٌ قويّ القلب، صادق القول».

وفي اليوم التّالي، انعقد الدّيوان العالي، وجاء جميع أعيان الدّولة وأركان السّلطنة، ونُصبت خيمة الديوان، وأقيمت اثنتا عشرةَ مظلّة ذات دعائم.

ومنذُ وقت السّحر اصطفّ أفراد جميع طائفة اليني جري، وأفراد البلوك «بلوك خلقي»[2]، كلٌّ حسْب رتبته؛ حيث وقفوا بكامل كثرتهم وازدحامهم الهائل. وبحسب

---

(١) الآية ٢ من سورة يوسف.

(٢) بلوك خلقي: أي أفراد البلوك، وتطلق على فرسان خدم الباب، وكانوا يتشكّلون من ستة بلوكات، وعددهم ٤٠٠ فرد، وازداد هذا العدد بمرور الوقت، وتمّ التّنكيل بهم في عصر مراد الرابع بسبب عصيانهم، وفي عصر القانوني كان قسم من هؤلاء يستخدم في تحصيل الجزية.

القانونِ القديم، قدّم الطعام، ثمّ دخل آغا الينى جري «علي آغا» الديوان، وخرج دون أنْ يمكث فيه، وختمَ كلامه قائلًا: «أيّها المجاهدون، إنّ صاحب العظمة حضرة السّلطان حامي العالم يدْعو لكم بقوله: «فلتكونوا سعداء الطّالع، ولتكن وجوهكم ناضرة، ولتكن غزوتُكم مباركة، ولتكونوا رفاقَ سلاح، ولتكملوا القلعة، فما بقي إلّا القليل، ولتوزيع ترقيات ومراتب وعطايا على الجميع، فهي مقبولة لدي، ولينالوا دعائي لهم بالخير»، ثمّ قال لأمير إسطبله: جهّز الجواد، وعندئذ قالت الطائفة المرقومة: «وكيف سيوزّع عطاءنا؟ فامتطى جواده وهو يردّ عليهم بقوله: «أنا كفيل بكلّ شيء على العين والرّأس، فلتنفّذ رغبة السلطان، وعلينا الآن الوصول للقلعة».

ولم ينزلْ أمام الخيمة، وإنّما استبدل قفطانه وعمامته وهو فوق الجواد، ثمّ توجّه صوْبَ بناءِ القلعة مباشرة، وتعهّد- أيضًا- أمير أمراء الأناضول حضرة «زال محمود باشا» بإيصال موادّ البناء للقلعة، وأمر أمير أمراء الروميلي أيضًا بإطلاق النّفير، وأعلن قائلًا: «فليأتِ الرّاغبُ لثواب الجهاد إلى قلعة «بريوقجة»، وعلى الفور، رحَلوا في ذلك اليوم، وذهبوا في ١٤ شهر ربيع الأولى سنة ٩٧٤هـ/ سبتمبر ١٥٦٦م، وكان قد تمّ إقرار ذلك أمام جميع أعيان دولة الوزراء العظام، وأمراء الأمراء، و«الصدرين أفنديلر»[١]، والدفتردار، والنشانجي «جلال زاده»، وعين رئيس الأنبار[٢] «كيلارجي باش»؛ «يوسف آغا» رئيسًا لموظفي الخزينة «خزيندار باشي»، وعين آغا السراي[٣] في استانبول «محمود أغا» رئيسًا للأنبار بدلًا منه، وأمروا بالحضور. وكان مرضًا شديدًا قد حلّ بـ «يعقوب آغا» أغا الباب «قبو آغاسي» ولما أخبر رئيسُ الأطباء

(١) صدرين أفنديلر: قاضي عسكر الروم ايلي، وقاضي عسكر الأناضول.

(٢) رئيس الأنبار: أمير أفراد القصر الذين يقومون بتجهيز وحفظ الأطعمة واللحوم والفاكهة، وجميع الأشياء اللازمة لمائدة السلطان، وتوفير شمع القصر، وكان عددهم ثلاثين، وأكبر ضباطهم رئيس الأنبار، وإذا ترقى يصبح رئيس الخزينة.

(٣) آغا السراي: من آغوات الخدم البيض، والمساعد الأول للآغا في باب السعادة، وظيفته الإشراف على نظافة السراي وإصلاح الأماكن المحتاجة إلى إصلاح، ولو كلف بالخدمة خارجًا كان يترقى لأمير سنجاق أو أمير أمراء.

«قيسوني زاده» بأنّ حالته ميئوس منها بقوله: «بحسب الطب، غير قابلٍ للعلاج»؛ بقيت خدمةُ الحرم الهمايوني قاصرةً على «يوسف آغا» فقط.

وعندما لزم الرحيلُ خرج الوزراءُ العظام من قاعة الديوان، ودخلوا من باب السّرادق، ولمّا كان عرش السلطنة خاليًا جاء السلحدار «جعفر آغا»، والـ«جوقدار»[1]؛ «مصطفى آغا»، وآغوات الداخل، وبدأوا يجيبون على ما يوجه إليهم من أسئلة.

إنّ تاريخ الوفاة الشّريفة لحضرة سعيد الحيات، وشهيد المهات المرحوم والمغفور له- شهيد طريق الحق السلطان سليمان سنة ٩٧٤هـ/ ١٥٦٦م. وعندما بقيَت أربعُ ساعات حتّى الصباح من ليلة السبت الموافق الثاني والعشرين من صفر، جعلت هذه المحنة طائرَ الرّوح كثير الفتوحات يحلّق طائرًا من قصور هذه الدّنيا؛ حيث سكن «دار الجنان». وكانت مدّة سلطنته ٤٨ سنة، وعمره الشريف ٧٤ سنة، وقام طبيبُ الـ «خاصه»[2] السلطانية «قيسوني زاده»، والإمام السلطاني «درويش أفندي»، والـ«ركابدار»[3] «مصطفى آغا»، و«موسى آغا»، و«حسن آغا»، واثنا عشر رجلًا آخرين؛ قاموا بغسل جسدِه المبارك، وتكفينه، ثمّ أدوا صلاة الجنازة عليه، ووضع أمانةً تحت العرش بالتّابوت المرسل، وعندما قالوا: «إنّنا سنكون مشغولين اثني عشر يومًا بالتّسبيح والتهليل وتلاوة القرآن الكريم، وإتمام الخاتمات، لم يكنْ هناك أيّ تردّد في ردّ الآخرين بقولهم: «فليتعهّد كلّ شخص بالدعاء له، والثّناء عليه باكيًا منتحبًا، وليخرجوا للولايات، وليبدءوا في مباشرة مهامّ أمور السّلطنة وقضايا الدين والدولة»،

(١) جوقدار: ثالث أكبر الآغوات في «الخاص اوده» التي هي من حجرات القصر، واستحدثت وظيفة الـ «جوقدار» في عصر السلطان محمد چلبي، ووظيفته في الموكب الذهاب خلف السلطان راكبًا جوادًا، وحمل شمسية الحماية من المطر، وأيضًا الذهاب مع السلطان إلى الجامع، وفي المناسبات السلطانية الأخرى، ولو كلّف بالخدمة خارجًا يترقى إلى أمير أمراء.

(٢) خاصه: تعبير يستخدم بخصوص الخدمات المخصوصة بالسلاطين والسراي.

(٣) ركابدار: الضابط الرابع لـ «خاص اوده»، ويأتي بعد الـ «جوقدار» وعلى الرغم من أنه كان قبله في مراسم قانون الفاتح؛ إلا أن «جوقدار» تقدم عليه بعد ذلك، ووظيفته مرافقة السلطان في تنزهاته البحرية والبرية، ولو كلف بالخدمة خارجًا يترقى إلى أمير أمراء.

وفي هذه الأثناء لم تتحمّل القوة النفسية لآغا الباب «قبو آغاسي» «يعقوب آغا» تلكَ الآلامَ والحسرة السلطانية، فترك هذه الدنيا الفانية أيضًا، وفي اليوم الرابع وصل الخبرُ بأنّهم فتحوا قلعة «بريوفجة». ولما وصل عسكر الروميلي إلى القلعة كان الكفّارُ قد أضرموا النار فيها بأيديهم، وتركوها، ثمّ لاذوا بالفرار، فأوردَ عسكر الإسلام بالسيف البتار الذين لحقوا بهم من خلفهم أوردوهم دارَ البوار، ثمّ رفعوا تقاريرهم بأنّهم شرعوا في إصلاح الأماكن الخربة من هذه القلعة.

وكان حضرةُ الصدر الأعظم متردِّدًا في تعيين رئيس الخزيندارية «خزيندار باش»؛ «يوسف آغا» للباب، فلمّا قال ليوسف آغا: «إن محمود آغا القادم من استانبول مؤدّب، ويتّصف عنك بصلاح النّفس، وأن وظيفة آغا الباب له، وأنه علاوة على كفاءته واستحقاقه لهذه الوظيفة فإنّه صاحب خبرة أقدم منك»، بدأ «يوسف آغا» يطلق كلماتٍ كثيرةً وغير لائقة، وعندما كُشف سرّ وفاة السلطان صار الصّدر الأعظم مضطربَ الحال للغاية، ولمّا جاءت بعضُ الرسائل أيضًا من استانبول بدأ العسكرُ الموجودون في الجيش الهمايوني في نقل الحوادث الغريبة؛ بحيث كانت الأخبارُ المرويّة في حالةٍ متّصلة كاتصال سلاسل قمم الجبال العالية.

وفي الوقت الذي سلّم فيه المرحوم والمغفور له السلطان سليمان الروح لخالقها، أصبح معلومًا لدى العقلاء من خلالِ مفهوم الرسالة التي أحضرها كتخدا البوابين «قبوجيلر كتخداسي»؛ «كلابي آغا» باسم «الخط الهمايوني»[1]، مع الليل من سلحدار الخاصّة «جعفر آغا»، إلى أي درجة كان السلطان عاجزًا، وعلى الفور غبّروا وجْهَ الدّعاء بتراب المذلّة، وقالوا: «يا مالك الممالك نجّنا من المهالك، أنت الأبديّ الباقي، وكلّ شيء هالك». وتضرعوا وتأهّلوا لمقام الحقّ تعالى، ورفعوا لمقام العزّة صيحة: «يا إلهي ويا صمدي مِن عندك مددي وعليك معتمدي».

وبينما كانوا يردّدون مع عسكر الإسلام في «دار الحرب»: «يا عالم السرّ والخفيّات» إنّ العون والعناية منك؛ آملين وراجين كرمه سبحانه، جاءت من

---

(١) الخطّ الهمايوني: الاسم الذي يطلق على أوامر السلطان المكتوبة.

استانبول الرّسائلُ المفصلة؛ حيث ذكروا فيها كيفية الجلوس الهمايوني، وكانوا قد أبلغوا «حسن جاوش» الذي ارْتقى من رتبة البوّابين، والذي توجّه لبشارة ولاية «حلب» بواحدةٍ من رسائل أحكام البشارة التي كانت قد حرّرت عند فتح القلعة من قبل، أبلغوه بقولهم: «عليك إيصالُ رسالتنا لحضرة لي العهد السلطان «سليم خان» الموجود في صحراء «صجانلو» الواقعة على الطريق، وأنْ تحيطه علماً بما نحن فيه من العافية والسلامة».

وبحكمةِ ربّ العالمين وصل «حسن جاوش» المذكور إلى استانبول في غضون ثمانية أيام، وخلال أربعة أيام، وفي وقت الضّحى وصل إلى مقاطعة حضرة ولي العهد آتيًا من استانبول، وقال: عليّ أن أذهب ببشارة حلب، وأبلغ بأن هذه هي الرّسالة الشريفة لحضرة الصدر الأعظم، وبينما كان يقوم بتسليمها لآغا الباب، وإعلامه بخبر فتح القلعة، وبالصّحة والسّلامة، وبينما كان قاصدًا الانصراف والذّهاب، وصلت الرّسالةُ لليدِ الشّريفة لحضرة ولي العهد المحظوظ، واللائق بالتاج والعرش السّلطان «سليم»، عندئذٍ فتح وليّ العهد الرسالة التي تحيطه علماً بأمر السّلطنة، والتي أرسلها حضرة الصدر الأعظم، ولما تفضل بالاطّلاع عليه وجد أنّها مكتوبةٌ بخطّ الصدر الأعظم، فقرأها، وعندما أصبح مفهومها معلومًا لديه قال لآغا الباب: «سلْ عن اسم الجاوش القادم». فأجاب: «إنّ اسمه حسن»، فأعطاه بناء على القانون المعمول به مصاريفَ الطريق، وأرسله إليه قائلًا: «والآن، فلتراعي حقوقَه كاملة». وذهب.

وعلى الفور استدعى حضرة «خواجة عطا الله أفندي»، و«لالا حسين باشا»، وتفضّل بالتّنبيه عليهم قائلًا: «ينبغي علينا الهجوم على كوتاهيه، فلتتجهزوا بجيادكم الشّجاعة»، وأمر أميرَ الإسطبل «خسرو آغا» قائلًا: «جهّزوا جيادكم الشجاعة للهجوم، إنّ هذا الوقت لا يقاس به أيّ وقتٍ آخر».

وفي اليوم السّابع من شهر ربيع الأوّل حملوا بالهجوم، وعند المنزل الثاني، وعندما اقترب وقتُ الصّلاة من يوم الجمعة، حلّوا بكوتاهية، وبينما كان الأفندي المعروفُ باسم «فيض الله فقيه»، والذي كان خطيبًا لجامع القلعة الجديد الموجود بالقرب من

السراي العامرة هناك، والموصوف بالزهد والصلاح؛ بينما كان متوجهًا لأداء الخطابة، رأى حضرةَ وليّ العهد آتيًا على الطريق، فوقف للتسليم عليه، وعندما اقترب وليُّ العهد بالسّعادة، وألقى السلام، قال له: «لقد جاء الخبر بأنّ المرحوم والمغفور له، والدي السّلطان انتقل إلى رحمة الرحمن، فعليك أن تدعو باسْمي في الخطبة الشّريفة، وأنْ تعلم هذا النبأ لجماعة المسلمين». فغبر الـ «خطيب أفندي» أيضًا الوجْهَ للركاب الهمايوني، ودعَا له. وعلى الفور لم يقيموا هناك في ليلة ذلك اليوم؛ بل مضوا، وسلكوا طرق استانبول، وذهبوا.

وفي الموضع الذي أدّوا فيه صلاةَ الصّبح تجمّع المتقاعدون والآغوات من ذوي الوظائف الذين خدموا في ركابه الهمايوني، وراح أمير الإسطبل ميراخور «خسرو آغا» يمنع الذين يُريدون عرضَ الحال على السلطان، ويعيقهم قائلًا لهم: «اصْبروا، حتّى تغييره الجواد الاحتياطي»، وبعد فترةٍ جدّد السلطان الوضوء، ثمّ أمر بتغْيير الجواد، وعندئذ حرّر الآغوات عرض حالٍ مشترك بمطالبهم، وقدموا له السجلّ قائلين: «يرجى ويؤمل من سُلطاننا صاحب العظمة والسعادة الأمرُ بتخصيص مراتبنا بحسب طرق ترقياتنا»، فقرأ السلطان هذا العرضحال، وعاتب أميرَ الإسطبل «خسرو آغا» مخاطبًا إيّاه بقوله: «هل وصلت إلى مركز الدّولة، وجلست على العرش بدلًا منه، ثمّ التقيت بأركان الدولة، وعلمت كيف صارت أحوالنا؟ لم يضعْ «آل عثمان» جهدَ وخدمةَ أيّ شخص حتّى الآن؛ ألا يوجد بينكم رجلٌ يعرفُ الأدب، وصاحبُ فراسة؟! قلت (سلانيكي): «أنا عبدك نصحتهم، وعندما قلتُ لهم: «ليس هذا وقته، وأنّ لهذا الأمر زمانَه». إلّا أنهم عاندوا، ولم يسمعوا كلامي يا سلطاني». فمزّق السلطانُ العرضحال، ودفعه إليَّ، فرأيت أن أسامي كلّ مِن آغا أبناء السپاهية[1] «سباهي أوغلنلري آغاسي»؛ «فرهاد آغا»، ورئيس فرقة العلوفجية «عمر آغا» قد مزّقت، فقلت لهم: «إنّ الخير لا يحلّ بكم أبدًا لأنّكم سبّبتم الألمَ لحضرة السلطان حامي العالم»، وفي الحقيقة حدث ما قلت.

---

(١) آغا أبناء السپاهية: رئيس أحد بلوكات تشكيلات السواري (السباهية) التي تعتبر أحد ستة بلوكات الييني جري.

وفي يوم الاثنين الرّابع عشر من شهر ربيع الأول، ومنذ وقت السحر حطّوا في منطقة «قاضي كوي» الواقعة على ساحل «أسكدار»[1]، وفي مواجهة القسطنطينية المحميّة، وأرسل وليّ العهد «علي جاوش» المعروف بنفسه لحضرة «إسكندر باشا» أمير أمراء الأناضولي «أناضولي بكلر بكيسي» السابق، والذي كان مكلّفًا بمهمّة حراسة استانبول، وقال: عجبًا لقد جئنا لهذا الموْضع، ولم يظهر أيّ خبر أو أثر حتّى هذا الوقت، تُرى ما السّبب»؟! فعندما وصل «علي جاويش» إلى إسكَندر باشا، وأبلغه بالأمر؛ ردّ «إسكندر باشا» بقوله: «لماذا يقول هكذا ؟ ليس لدينا أيّ علم عن هذه القصّة، وإلّا فإنّه ينبغي أن نتحرّك إليه فورًا». وعندما عاد الجاوش ثانيةً، وأحاطَ جنابَ السّلطان علِماً بالأمر، قال السّلطان: «لكن؛ لينظر جيدًا للخطابِ القادم إليه من أعلى. إنّ خبرًا على هذا النّحو لا يصرح به، وإنما يكون كناية، فليترك حماقته، وليفتحْ عينه، وليطبق مفهوم الرسالة التي جاءت إلى رئيس البوستانجية «داود آغا»، وليعمل بموجبها». وفي الحقيقة فإنّ جميع الكرامات السّلطانية التي لاحتْ لخاطره الشريف صارت حقيقةً مؤكّدة.

وكان قد جاء في الرّسالة التي جاءت لرئيس البوستانجية ما يلي: «إن شاء الله، عليك أن تكونَ يقظًا مع آغا السّراي العامرة، وعليك أن تترقب وتتصنّت على ما يحدُث على الجانب الآخر، وأن تنظّف وتطهّر السراي العامرة، وفي ذلك اليوم، عليك أنْ تخرج البوستانجية[2] لحدائق النّواحي المحيطة بطريق «ايمجه»، وأنْ تخلي السراي، وأن تكون صاحب بصيرة، وألّا تقصّر في الخدمة، وعندما يأتي إليه الصّاحبُ عليك أن تسلّم كلّ شيء له».

وأرسل البوستانجية «بوستانجيلر» إلى «ايمجه» لحثّ بعض بستانية الحدائق على العمل، ومرّت ستّةُ أيام منذ مجيء الخطاب، وعندما قرأه رئيس البوستانجية،

(١) اسكدار: مدينة في استانبول تقع على ساحل الأناضول.

(٢) البوستانجية: ينقسمون إلى قسمين؛ الأول: يسمى بوستانجية الخاصة، وهم من المنسوبين للقصر، ويقومون بالحراسة وأعمال النظافة في القصر، والقسم الأخير: وظيفتهم القيام بنظافة حدائق القصر وحراسته.

وأصبح مُحْتواه معلومًا لديْه، جهّز منذُ وقت السّحر الزورق الخاص مع البحارة، وتوجّه رئيس البوستانجية «داود آغا» على جناح الاسْتعجال إلى حديقة «اسكدار»، وأثناء تسْيير القارب بالمجْداف ببطء على ساحل البحر، أصدر حضرة السلطان «سليم خان» فرمانًا لأمير إسطبله «خسرو آغا» نصُّه: «عليك تجهيز جوادي الأغبر بطاقم مرصّع، كما ينبغي، وأنْ تكسوه بالماس المجوهر، وترسله للقصر المواجه بزورقٍ من نوع «برمة»، وأنْ تنتظر هناك، وينبغي أنْ أجدَك موجودًا عنده».

وفي وقت الضّحى من يوم الاثنين الرابع عشر من شهر ربيع الأول، عندما وصلَ السّلطان بالسّعادة والإقبال لميناء «اسكدار» وبجواره كلٌّ من «لالا حسين باشا»، ومولانا عطا الله أفندي، والنديم «جلال بك»، وسائر الآغوات، وطائفة حاملي الـ «طوغلر[1]»، والـ آلاي بيراغي»، و«اليدكلر»، و«الصولاقلر»، غبّر رئيسُ البوستانجية «داود آغا» أيضًا الوجهَ بتراب قدمه المباركة، ودخل بين يدي السلطان، وأنزلَه للقارب، وعندما صدرَ الأمرُ بالتحرّك أطلقت المدافع من «الطوبخانة» العامرة، وذاع خبرُ الجلوس الهمايوني في أرجاء المدينة، وبدأ الناس في الهتاف في كلّ مكانٍ قائلين: «عهد السلطان سليم خان». وبمجرّد أن ظهر أمام القصر الجواد المزيّن بالبرداء المرصّع، وذلك بموجب الفرمان الهمايوني، جاء حراس القصر، وعندما سألوا قائلين: «ما أصلُ هذا الجواد؟ ومَن تكون أنت؟ وبأمر مَن جئت؟ ألا تعلم أينَ يكون هذا المكان؟» أجاب قائلًا: «أعلمُ يقينًا أنها حديقة عرش سلطنة سلطاننا حضرة السلطان «سليم خان» ابن السلطان سليمان، وأنتم حارسوه، وخادموه، أمّا أنا فأميرُ إسطبله؛ جئت بناءً على أمره وفرمانه». فردّوا عليه بقولهم: «ولكنّ والده.. كيف حالُه؟». عندئذٍ قال: «إنّه سيأتي بنفسه مع آغاك، ولو تستطيعون السؤالَ عمّا تريدون؛ اسألوا، ولسوف تحاطون علمًا بالأمر».

---

(١) حاملة الطوغ: يتواجدون في بلوك السلحدارية، وعددهم عشرون شخصًا، ووظيفتهم في أوقات الحرب حمل شارات طوغ السلطان.

وعندما رأى البوستانجية «بوستانجيلر» الزورق، حلّ بهم السكوت، وجاء وليّ العهد بالزورق، واقترب وتقدّم رئيسُ البوستانجية بين يديه، وأخرجه من الزورق، وعندما دنا السّلطان للركوب على الجواد، أمسك رئيس البوستانجية غاشية مطرزة من يدِ الـ «ميراخوار آغا»، وجذبها، وعنّفه بشدّة قائلًا: «ليست هناك خدمة طريقك للترقية، إنّها خدمتي أنا».

وعندما قال حضرةُ السّلطان لرئيس البوستانجية: «لا تزدْ أيّها الآغا، ولسوف يعْتني بطريق ترقيتِك أيضًا». قال رئيس البوستانجية: «سلطاني، إنّ هذا الشخص لا يعرفُ المكان الذي سيتمّ الوصولُ إليه، ولم ينشأ في الحرم الهمايوني، فليكن منكسرَ الخاطر، وفي المؤخّرة». فرَدّ السلطان بقوله: «من أجل خاطري أرشد أنت عن الطّريق». فأجابَ قائلًا: «فرمان (أمر) سلطاني»، فأرشدهم، وعندما وصل السّلطانُ بالجواد للمكان الذي سوف يتمّ الوصول إليه؛ حضر آغا السراي «سراي آغاسي»، وفي الموْضع الذي نزلَ فيه السّلطان من فوق جواده، دفعه للأمير آخوار «خسرو آغا»، وأخرج بيدِه المباركة الذّهبَ من جيبه حفنةً حفنة، وأكّد عليه قائلًا: «هذا المقدارُ لا يكفي، جهّز قدرًا آخرَ من الذّهب، وأرسله إليّ، وعندما يتحرّك جوادي من الحديقة وحتّى باب الميناء، ويصل منه للباب الهمايوني، ويأتي منه الإصطبل العامرة؛ ينبغي عليك الإحسانُ على الناس بخمسات وعشرات من العملاتِ الذّهبية». فنفّذ فرمانه الشريف، وكانت رعايا الدّولة عطاشى لإحسانه، وكان «الميراخور آغا» قد ذكرَ لهذا الفقير (سلانيكي) قوله: «ظهر الفكر الصائبُ والرّأي الثاقب لوليّ العهد»، ثمّ أحضر الجواد المذكور للإسطبل الخاص الموجود في الإسطبل الداخلي، وربطه، وعندما جلس السلطان على عرش السلطنة السّلطاني، جاءت «مهرماه سلطان» التي هي مِن السّلاطين المكرّمة قبل الجميع، والتقتْ به، وتكدّرت بنار الحسرة والفُرقة، واحترق فؤادها حزنًا على وفاة القانوني، وبكتْ وتأوّهت، ولم يأمرِ السّلطان بفتح الخزينة العامرة ، واقترض من السلطانة المومأ إليها خمسةَ آلاف من العملة الذهبية.

وجاء إلى الديوان الهمايوني كلٌّ من شيخ الإسلام ومفتي الأنام «أبو السعود أفندي»، و«إسكندر باشا» المكلّف بمهمّة المحافظة على استانبول، وقاضي استانبول «قاضي زاده أفندي»، ودفتردار الأموال «كوجك حسن جلي»، و«يالق زاده علي چلبي»، والعلماءِ المتقاعدين، والمدرّسين الكرام، ومدرّسي الصّحن»، وغيرهم؛ جاءوا للتّهنئة بالجلوس على العرش، فغبّروا الوجهَ لمقام العرش الذي مصيره العالم، وبناءً على القانون العثماني القديم خرج السّلطانُ لزيارة القبور، وابتدأ أولًا بزيارة قبر حضرةِ «أبي أيوب الأنصاري» رضي الله عنه؛ حتّى وصل لقبور أجداده العظام من سلاطين «آل عثمان» (رحمةُ الله عليهم)، وعند كلّ قبرٍ تصدّق بثلاثين ألف آقجة.

وعندما تمّ مرور ثلاثة أيام، خرجَ في يوم الخميس؛ حيث توجّه للالتقاء بأعيان الدّولة، وأركان السّلطنة، والعساكر المنصورة، ثمّ عزم على الرحيل، فقطعوا جميعًا المنازلَ والمراحل، وأقاموا يومًا في «أدرنة» المحروسة، وعبَروا من صحراء «فلبه»، و«صوفيه»، ورحلوا إلى حدود «بلغراد أنكروس»، التي تستغرق نحو ثلاثين يومًا من منزل التّجار باستانبول، وصلوا إليها في خمسة عشرَ يومًا فقط، وفي هذه الطرقات قام أربابُ الحقد والحسد بحسب طباعِ البعض، والشّقاوة التي جبلوا عليها؛ قاموا برفْعِ العروض المملوءة بالافتراءات المتنوّعة في حقّ أركان الدّولة للركاب الهَمايوني، فلم يَلتفتْ حضرةُ السّلطان، فلكي الوقار، ولم يهتمّ بأيّ منها، وأحرق هذه العروض التي قدمت، وقال: «لا أسمعُ للشّكوى، ما لم يتواجد الخصمان معًا»، ودخلوا إلى بلغراد، وأعلموا جانبَ الصدر الأعظم بأنهم نزلوا في منزل «بيرام بك»؛ حتّى إنّهم عندما أعلموه بقدوم السّلطان المحفوف بالعزّة إلى قلعة «دلقواره» الواقعة على ساحل نهر «داراوه» في نهاية صحراء «سرم»؛ كتب أيضًا الوزير الآصف[1] الرّأي «محمد باشا» عارضًا على السلطان ما يلي: إذا تفضّل سلطاني بالتشريف بالسّعادة والإقبال، والمجيء إلى العساكر المنصورة؛ فإنّ طائفة الخدم[2]، «قول طائفة سي» سوف يطلبون

---

(١) الآصف: نسبة إلى آصف بن برخيا وزير سليمان عليه السلام.

(٢) طائفة الخدم: تطلق على المنسوبين لفرقة الإنكشارية.

أنعام الجلوس بناء على قانون أجدادكم العظام، أمّا إلى هنا فلم يؤت بخزينة بالمقدار الذي يمكن أن يكفي، فمجيئكم بأنفسكم بين أعداء الدين، وعودتكم مرّة ثانية، وذهابكم؛ ليس مناسبًا، علاوةً على أنّ الحملةَ قد انتهت، وانْتهى الموسمُ أيضًا؛ حتّى أنّ التّشْتية قد تعذرت، فقد أصبحت مدينة «بلغراد» التي فتحت أثناءَ جلوس المرحوم والمغفور له على العرش مدينةً عظيمة، وإذا تفضّل السّلطان بالاستراحة فيها بالعزّة والسعادة لكان يتيسّر تحصينُ القلعة المذكورة أيضًا بقوّة الفال السّلطاني، كما كانت توزّع العلوفات، وبعوْن الله في أوائل شهر ربيع الآخر، ومن ثمّ يتمّ التّنبيه على الجيش بأنّ الرحيل بعد ثلاثة أيام، وهكذا يتمّ خلال بضعةِ أيام تغبيرُ الوجه لمقام العرش الذي مصيره العالم».

وعندئذٍ رحلَ السّلطان صاحبُ البصيرة من «دلقوار». ومرّة ثانية أصبح معلومًا لدى الصّدر الأعظم بأنّ الإقامة في منزل «بيرام بك» (بيرام بك خانه سنده) الواقع في «بلغراد» قد لاقى القبولَ السّلطاني، ولم يبقَ كلامٌ لم يُقَل بين العساكر المنصورة أيضًا. ولم يعدْ هناك شخصٌ غير عارف بوفاةِ المرحوم السلطان سليمان، وقالوا: «الحكمُ لله العليّ الكبير»، وراح عساكرُ الإسلام يتناصحون، ولم يروا أنّ كشف سرّ موْت القانوني لائقًا، وكانوا مترقّبين لإكمال بناء القلعة المذكورة.

حكاية

ذاتَ يوم بينما كان هذا الحقيرُ (أنا سلانيكي) المنحدر من الثّرى يتجوّل في الجيش الهمايوني، صادفتُ شخصًا عديمَ الخُلق من الذين هُم كالرياح الشعواء، وكان صاحبَ صيتٍ واسع في فنّ الرّمل، فجلست بجانبه، وأمسكت قرعته، وحاولتُ التّنبؤ بطالع «زرونجق» اللّعين، وقصدت قائلًا: «عجبًا! هل ستؤخذ هذه القلعة، ويسقط أميرُها؛ سواء حيًّا أو ميتًا في أيدي أهلِ الإسلام، ويتحقّق النصر». وعندما ألقيتُ القرعة حسبَ الرّمال المذكورة النقاط، ونظرَ لوجي، وقال: «هاي هي»، هذا رملٌ عجيب كأنّ هذه القلعة انقلعت من موضعها، وصعد غبارها إلى السّماوات، واختلطت بذرّاته، وسقط الحاكمُ الموجود داخلها في أيدي العساكر، ومُزّق كما تمزَّقُ قطعةُ القطن، في الحقيقة شاهدنا تمثيلَ وبيان هذا المنظر المذكور، ورأيْناه رأيَ العين.

حكايةٌ أخرى

ومرّةً أخرى في هذه الأثناء، التقيتُ مع بعضِ الأحبّة؛ حيث وصلْنا لخيمة الرّمال المذكورة، وأمْسَكنا قرعته، وبدأتُ أنا الفقير، وقلت: «إنّ هناك ضعفًا كاملًا بالمِزاج الشّريف، والجسد اللّطيف لحضرة السّلطان فاتح الممالك. يا ترى! هل ستعودُ الصّحة والعافيةُ له؟ ويتيسّر لنا التحرّك بالسلام من هذا الموضع.

ثمّ أتمّ المُحتال المذكورُ حسابَ النقاط، ونظر لي، وقال: «أنتم تبحثون عن حالٍ عظيم، لقد أصبحَ المرض والصّحة أمرًا واحدًا، ومثال هذا كأنّ عمود الخيمة قد انْكَسر، فأصبحتِ الخيمة ترتكزُ على نصفِ عمود، فيحضرون عمودًا جديدًا، ويُعاينون الوضعَ لنصبه حيث كان ينبغي أن تنصبَ جميع الخيام».

وقد صودف أنّه عندما سمع في حضرة الصّدر الأعظم بأنّ: «الرمّال المذكور الموجود في الجيش الهمايوني يتحدّث بالرموز على هذا النّحو لأفراد الجند»؛ أرسل الصدرُ الأعظم الدّلاء متحرّيًا وباحثًا عن الحقير المذكور، وعندما عثر عليه توادع سلانيكي مع أحبّائه، وذهب قائلًا: «ينبغي ألّا يمنحه الأمان قط، وإذا كان قد سقط قبلَ الآن بيوم واحد، لقال البائس: «رأيتُ في الرّمل أنّهم جاءوا لهدم خيمتي على رأسي، فهربتُ ونَجوْت. في الواقع أنّ الهروب كان ضروريًّا، وإلّا كانوا يهدمون خيمة جسدي».

(حكاية)

ومِن قبْل، بينما كانت حربُ القلعة مُحتدمة، قال حضرة الصدر الأعظم لأحد أفراد الدّراويش المجاذيب: «انظرْ يا عزيزي! كيف يجاهد عسكرُ الإسلام في كلّ ناحية، فقمْ أنتَ أيضًا بعملٍ حَسن، توجّه إلى ميدان القتال، وقاتل. أين وعدكم معَنا؟! فلتكنْ حريصًا على التوجّه». وأخرج حفنةَ ذهبٍ من أجل مصاريف مهماته. عندئذ قال المجذوبُ المذكور: «كأنّ تراب القلعة أذري إلى السماء، وسقطت من السّماءِ النيران على جيش الملكِ اللّعين، فرحلَ مِن هناك، وأقمنا بذلك قلعة جديدة، فاحذرْ من الغفلةِ حتّى يأتي حاكمُ عساكر الإسلام، وفي الحال كانت الجذبة قد غلبتْه، فقام من المجلس شاطحًا، وذهب.

وفي هذه الأثناء، وعندما مرّ على هذا الحوار ثلاثة وعشرون يومًا، وقع ما أومأ وأشارَ إليه المجذوبُ بعينه صراحة، وعندئذ جاء المجذوبُ المذكور لزيارة حضرة الصدر الأعظم، وقال له: كيف حالك؟ وارتدى الثياب السوداء، ووضع لوازمَه، وربط أدواتِ ضربه وحربِه، وجواده أمام الخيمة، وعندما قال له حضرة الصّدر الأعظم: «يا عزيزي، إنّ هناك أمرًا يهمّنا، لو عجلت بعمل استخارة لنا من أجلِه، ورأيت ماذا سوفُ يظهر». أجاب المجذوب: نحن على الدّوام لا نفرغ لحظةً عن الاستخارة، ولكنّ علمَ الرّمل يكون حقّ أمركم المهمّ. فينبغي أن نستخدم الرّمل». وألقى القرعة، وعندما حسبَ النّقاط، قال: «إنّ الشخص الذي تريدونه شخصٌ فالُه عظيم، وكوكبُه عالٍ، ورفيع وعظيمُ الشأن، أشقر تقريبًا. أما طلبه فثقيلٌ جدًّا عليكم حتّى بينما كان قد جاء بالهجوم لموضِع قريب، بناءً على أمركم يعودُ مرّة أخرى، ويقف وينظرُ إليكم ثانية، فهو مترقّبٌ لإشارتكم برغبة شديدة، وهكذا حدث ما قاله المجذوب، والعلمُ عند الله الودود.

وفي اليوم الثالث من شهر ربيع الآخر سنة ٩٧٤هـ / أكتوبر ١٥٦٦م خرجت العلوفاتُ عند القلعة، فتوقّفوا لتوزيعها، وفي اليوم الخامس، أُخرجت الخيمة الهمايونية، وأُعلن نداءُ الرّحيل، ووُجّهت الأحكامُ الشريفة إلى أمير أمراء الروميلي، وأمير أمراء الأناضولي؛ حيث نُبّه وأُكد عليهم بأنّه: «ينبغي عليكم الاهتمامُ بحراسة الأماكن التي فُتحت، وألّا يعطي الإذن والأجازة للعساكر، ما لم يحلّ موسم الشتاء «روز قاسم»[1]، وفي اليوم السّادس، بناءً على القانون القديم، وقاعدة السلطنة سارَ أركانُ الدّولة وأعيانُ سلطنة من الوزراء العظام محاطين بالتابعين والأمراء الاحتياطيّين وعساكر الصولاقلر؛ ساروا مجهّزين ومزيّنين بشارات الـ «توغ، وشايته» أمامَ العربة، فصفّق الجاويشية، وقويَ صيتُ وصدى الطّبل والنقارة والنفير، ووصلتِ الضّوضاء إلى عنان السّماء، ورفرفت راياتُ الإسلام التي آياتها الفتح؛

(١) روز قاسم: اليوم السادس والعشرون من تشرين الثاني في التقويم الإيراني، الموافق بداية الشتاء.

متوجّهين إلى استانبول دارِ السّلطنة العليّة، وبناءً على الوجه المذكور كان آغا الينى جري يتقدّم يومًا عن الموكب، ثمّ يستريح، فمرّوا من صحراء «ميحاج»، وعند المنزلِ السّادس عبروا الجسرَ العظيم الموجود فوق نهر «صاوه»، والذي كان قد أقيمَ من قبْل، ثمّ حطّوا عند المنزل المعروف باسم «حوتين» الذي انتصر وظفر عنده من قبْل «فرهاد بك، وخسرو بك» من الأمراء المشْهورين ذوي الاقتدار في المعركة التي نشبَتْ مع فرقة جيشٍ من الهرسك مشهورة باسم «قوجبان» فحققوا هناك الفتوحاتِ الجليّة. وفي هذا المنزل السّادس كان الشّخص المدعو «حسن آغا»، وهو مِن غلمان «خاص أوده»[1]، بوسنوي الأصل، فايق الطول، ذو وجه أبيض، وأنف صقر، ولحية خفيفة، وصحّة معتلّة، وبرقبته رباط عنق؛ كان يُلقي السّلامَ من داخلِ العربة على يمين ويسار العساكر المنصورة.

(ع)

قالوا له: «إنّك تشبه لذلك السّلطان من أوّل نظرة»[2].

وكان رعايا الدّولة لا يشكّون في كوْنه السلطان، وخلال ذلك اليوم، وفي ديوان العصر، أذّن حضرة الصدر الأعظم لآغوات البلوك بقوله: «إنّه تقرّرت إجازة، وليتواجدوا داخلَ المدينة، وليكنْ «محمد آغا» آغا أولاد السپاهية المتناوبين، ويكفي ثلاثُ آلاف جندي مناوبٍ من اليولداشيه، وبقى حضرة السلطان وحيدًا مع آغوات الرّكاب الهمايوني بطريق الصيد».

---

(١) خاص أوده: أول وأهمّ حجرات القصر، أسسها الفاتح، وكانت سعتها ٣٢ شخصًا، وأمر «ياوز سليم» بإنشاء «خاص اوده» على أن تكون تابعة للحجرات الداخلية، وأخذ قسمًا من طائفة «اسكي» (أقدم طائفة في التشكيلات) وألحقها بـ «خاص أوده» ووظائف أفراد الـ«خاص أوده» كنس وتنظيف الحجرات، وسائر الخدمات المتعلقة بالسلطان، ومصاحبته عند اللزوم، ويأتي على رأس أمرائها «خاص أوده باش» و«الجوقدار»، و«الركابدار».

(٢) بر باقمده أو شاهه بكزرسن.

وفي هذه الليلة، صدر الأمرُ بأنْ يرحل الـ «مير علم»[1] «صاغر رضوان آغا» بالسّناجق؛ حيث أدّى صلاةَ العشاء، ثمّ دقّ طبله ونقارته، ورحل. وفي الليلة التي اقتربَ فيها حضرةُ السّلطان للمنزل الرابع من بلغراد، تفضّل حضرة الصدر الأعظم بالتّنبيه على حفظةِ القرآن الكريم قائلًا: «ها هي السّناجق قد رحلت، وينبغي عليكم جميعًا قراءةُ سورة «يس» تارة، وسورةَ «الفتح» وسورة «الكهف»، وبقدر ما تيسر من القرآنِ العظيم بجوار العربة، وتارةً عليكم بذكر الله، ولو قرأتم الأحاديث الإلهية لسعِدَ حضرةُ السلطان كثيرًا».

وعندما قلتُ- أنا- هذا الحقير (سلانيكي): «أمر حضرة سلطاني، ولكنّ الموضعَ قرب العربة موضعٌ مبارك، هل يتركون فيه فقيرًا مثلي؟ حتى أنه إذا تساءل كلُّ واحدٍ من الأغوات: «مَن هُم هؤلاء؟ لكان أمرًا ضروريًّا». قال الصدر الأعظم: «أنا وكّلت هذا الأمر لرئيس البوّابين «سنان آغا» بحيث لا يجعل أحدًا يتحدّث هكذا، ويرعاكم».

وفي الحقيقة، وقبلَ بزوغ الصباح بأربع ساعاتٍ تمّ الرحيل، وكنّا ستّة حفّاظٍ للقرآن: الحافظ «كوجك محمود»، والسلحدار «مصطفى»، والمؤذن «مراد باشا»، و«سباهي زادة منلا قاسم»، و«سباهي أحمد»، وعلوفجي اليمين الحافظ «أحمد». وعندما وصفنا نحن السّتة، تحدّث عساكر الـ «صولاقلر» قائلين: «أنتم رجالٌ تتواجدون هناكَ على غير المعتاد، هذا ليس مكانكم الذي يجب أن تسيروا فيه». أما نحنُ فقد بدأنا بذكْرِ الله، ومع حلولِ اللّيل كان المكان ناحية الغابة قد صار مؤثرًا جدًّا.

في الواقع، لم يكنْ قد بقي شخصٌ غيرُ عارف بوفاة المرحوم السلطان سليمان، وحتّى هذا الوقت كان خبرُ موت المرحوم قد أخفي لفترةٍ امتدّت لثمانية وأربعين يومًا.

---

(١) مير علم: رئيس البلوك الذي يحتوي سناجق جماعة الموسيقى العسكرية، وبواسطته ترسل السناجق والطوغات من قبل السلطان للوزراء والأمراء، وكان يتواجد عند مقابلة السلطان للسفراء، وكان رجال الدولة، وهو من آغوات الركاب الهمايوني، وفي الموكب كان يمسك بعنان جواد السلطان، وفي وقت الحملات يسير أمام السناجق، وعندما يترقى يصبح أمير سنجاق، وألغيت هذه الوظيفة في ١٨٣٢م.

لكنْ لمّا كُشف السرّ وأعْلِن، أثرت حسرة موت السلطان حامي العالم الذي جلس على عرش العزة منذُ ثمانية وأربعين عامًا، وبكلمات الحزن بدأ كلّ شخص في التأوّه والبكاء والصّياح، وتباكوا ناحبين «هاي هاي»، وتأوّهوا. ووصلوا لتلك الدّرجة التي توقّفوا عندَها عن المسير، وبدءوا في الصّياح قائلين: «هاي سلطان سليم خان».

واجتمعَ الوزراءُ العِظام، وندِموا لكشْفهم خبر وفاته. وقالوا: «كان الأولى الذهابُ بناءً على الحال السّابق- أي إخفاء خبر وفاته-». وفي نهاية الأمر، جاء حضرةُ الوزير الأعظم «محمد باشا»، وتحدّث إليهم بقوله: «أيّها الإخوة، أيّها الرّفاق، لماذا لا تسيرون؟ ينبغي أن نسير، إنّه سلطانُ الإسلام على مدى هذه السنوات، وينبغي أن نجلّه بالقرآنِ الكريم، إنّه جاهَدَ، وقام بهذا العددِ من الغزوات، وجعل ولاية المجر (أنكروس) «دار السّلام»، وأطعمنا جميعًا بنعمتِه وإحسانه، فهل يكون هذا جزاءه الذي ينبغي علينا أن نحملَه على رؤوسنا؛ ها هو ابنُه سلطانُنا السلطان «سليم خان» ينتظرُكم في «بلغراد» منذُ سبعة عشرَ يومًا، أوصاه المرحومِ الغازي- رحمة الله عليه- بتوزيع عطاياكم وترقياتكم، وستخرج بالكامل، وسنأخذُها جميعًا، والآن لا توقفوا حفظةَ القرآن عنِ التّلاوة، وينبغي علينا قراءةُ القرآن العظيم، وأن نستأنف السّيْر». فقلنا: إنّ القرآنَ دواءٌ لآلامِنا، وإنّ القرآن مصدرُ ديننا وإيماننا، فينبغي أن نذهبَ بالإيمان وقراءة القرآن». كان الصّباحُ قد اقترب عندما وصل المسير لساحل صحراءِ «سرم»، فراحَ الوزراءُ العِظام يؤدّون الصلاة جماعةً في كلّ ناحية منها، ويتضرّعون إلى مقام الحقّ بالدعاء.

وبينما كان الحفظةُ يقرءون القرآنَ بصوت عالٍ بجوار العربة، وصلوا إلى منزل معروف باسْم «متروجه» عند المنزل الثالث. وفي هذا الموضع وصل الشيخ «نور الدين زاده أفندي» مع أتباعه من المتصوفة، وتجاوز الهجومُ مقدرة الركب، وأصبحنا خائري القوى، فنزلنا بهذا المنزل.

حكاية

في هذا المنزل، أرسل حضرةُ الصدر الأعظم محمد باشا تذكرةً مفصّلة ومشروحة لحضرةِ الجناب الشّريف لحامي العالم جاء فيها: «إن شاء اللهُ الرحمن عندما نصلُ بجنازة المرحوم والمغفور له، فلتُنصَب المظلّات ذات الأربعة أعمدة أمامَ الخيمة الهمايونية، ولينصَب عرش الدّولة الجديد القادم من استانبول في ما بيْن شارات الـ «طوغلر» ذلك العرش الذي ينبغي أن يكون المرحوم والمغفور له قد أعدّه لسلطاني «سليم خان»، وشرّفه به، وعرض ذلك قائلًا: «تفضّلت يا سلطاني بالجلوس الهمايوني بالسّعادة والإقبال، وغبّر عبيدك من أركان الدّولة الوجهَ لمقام عرش السّلطنة، كلٌّ على حسبِ درجته، وعلى كلّ حالٍ فإنّ سماع طائفة الخدم ضمْنَ كلامكم المبارك الشّريف خبر هباتهم وترقياتهم بناءً على قانون أجدادكم العِظام منذ القدم؛ هو مِن عادات مقرّرة بينهم، فلينعم بها عليهم جميعًا، وأنهم يريدون سماعَ قولكم: «مقبولٌ لديّ في هذا الأمر». وعلى الخصوص فإنّ رجال الدّين الموجودين داخل طائفة الينى جري قد أقرّوا هذا، وبناءً على قوانينهم القديمة قامَ جاوشيتهم برفْع أيديهم لمقام العزّة، ودعوا لرفاقهم الذين ارتقوا من الأوجاق، وأيضًا لسلاطين «آل عثمان»، وأمّن جميعُهم على الدّعاء بقولهم: «آمين» بحسب أصولِهم القديمة، فإنّ الخير والبركة في هذا التقليد، وبعد ذلك ينبغي أن تؤدّى صلاةُ الجنازة، ويتلقّى العزاء، وفي اليوم التالي ينعقدُ الديوانُ في القصر، فيقوم أركانُ الدّولة مرّةً ثانية بتغْبير الوجْهِ لمقام عرش العزة للتهنئة بالجلوس على العرش، وينعم عليهم بالخَلَع». وعندما وصلت التّذكرة، وعرضت على النّظر الهمايوني أمرَ باستدعاء «خواجه عطا الله أفندي» أوّلًا، ثمّ قرأ التذكرة قائلًا: «أرسل حضرة الباشا تذكرةً إلينا، ويقول إنّ العمل بهذا الشّكل المشروع فيها يكون مناسبًا، فما رأيك؟». فلم يُجِب هو- أيضًا- بسبب دهشته، واستغراقه في المعنى المقصود، ثمّ قال: «ليسَ هناكَ حاجةٌ للعمل بهذا الشّكل، فقد أصبح أمر الجلوس ظاهرًا. إنما مرادُه هو جعلُ الحاكم محكومًا، ثمّ أمر السّلطان بإحضار «لالا حسين باشا»، وقال له: «جعل الوزير الأعظم التدبيرَ بهذه الصورة، فما رأيك؟».

فأجاب أيضًا قائلًا: «إذا جلستَ في استانبول، ولم تأتِ إلى هنا، فماذا كانوا سيقولون؟ هل كانوا أيضًا سيقومون باتّخاذ أيّ تدبير؟».

وبعدَ ذلك عندما أحضر الصاحب «جلال بك»، وأعلمه بمفهوم التذكرة، أجاب صاحبُ الخُلق الحَسن قائلًا: «منذُ القدم كانت تسمع كلمة، وصارت مثلًا واقعًا: «لا يعْتلي آل عثمان عرش السّلطنة مادام أنّ الخادم لا يستطيع أن ينجو من حدّ السّيف، وقد كانت هذه حقيقة، فعندما يحضر وارثُ الملك فإنّ هذه المقولات جميعَها تكون عبثًا». ولم يفكّروا جيدًا في النتيجة، وقالوا كلامًا بلا علم عن أحوال الدولة.

وفي هذه الأثناء، جاء رئيسُ البوّابين بخيمة المرحوم والمغفور له، وعلى الفور عندما حضر رئيس الخيمه جيه[1] «أوطاقجي اشي» على عجل إلى المنزل، وأعلمَ الصدرَ الأعظم بأنّه: «عندما نزلوا على الموضع المشهور باسم رابيه «خونكار»، وأتمّوا نصبَ الخيمة، شاهدَهم حضرة السلطان «سليم خان»- خلّد الله ملكَه- مِن استراحته، وفي الحال أصدر فرمانًا لأمير الإسطبل «خسرو آغا» بتجْهيز الجواد، ورحلَ بخدّام الحرم الهمايوني الذين أعدادهم كالنجوم، وامتطى الجواد، ودخلَ للخيمة الهمايونية، واستراح فيها». نظر حضرة الصدر الأعظم إلى الكاتب «فريدون بك»، وقال: «لو شرح الوزير صاحب المشورة الأحوالَ المتعلقة بأمور الملْك، ثمّ عمل حضرةُ السلطان، وتشاور برأي الآخرين؛ ستكون النتيجةُ اختلالًا على هذا النّحو؛ لأنّ الآخرين لا يحيطون علمًا بالأحوال، ولا يكتمون، فالخطأ عند هؤلاء». وكان يتناجى قائلًا: «أمّا سلطاننا فينبغي ألّا يتحدّث إلى شخص بلا حاجة، وألّا يرغب في التحدّث، أمّا طائفة الخدم فقدِ اعْتادت أن تسمع مِن كلام السّلطان شخصيًّا عند جلوس السّلطنة كهذا، وفي هذا الوسط، فليتناجى «محمد لالا» بقلبه، فلماذا يستدرجُ لهذه الأحوال؟». فقال «فريدون بك»: «ليكنْ دخولُه للخيمة الهمايونية مباركًا».

---

(١) رئيس الخيمه جيه: الذي كان يرأس أمر صناعة البارود أثناء بداية الجيش العثماني، واستخدم بدلًا منه في الوثائق مصطلح «بارود باشي».

وينبغي أن نكتب تذكرةً إليه نصّها: «ينبغي أن ينصب عرش الدّولة في ميدان السّلطنة، وأن يكون القانونُ القديم لطائفة الخدم منظورًا بعيْن الرعاية، وينبغي أن تُجاب طلباتُهم، فلا يتحمّل ندم العاقبة، فينبغي أن نقول هذا». وعندما أعدّ «فريدون بك» الورقةَ والقلمَ لكتابتها، منعه حضرةُ الوزير الأعظم، وقال: «بناءً على كوني وزيرًا، فإنّه معلوم وجائزٌ أن يتصرف السلطان كيفما يريد، عندئذ سيكون كلامك خطأً». فسكت «فريدون بك».

وفي اليوم التّالي رحلوا من المنزل، وارتدى أركان الدّولة ثياب العزاء، وتُوّج عساكرَ الصولاقلر بشاراتهم، ولفّوا المناديل على خوذهم، وارتدى الجاويشية والجاشنكيرية وسائر الآغوات الثياب السوداء، وارتدى أشخاص طائفة الـ«بيزبانلر»[1] الثيابَ الـ«جول»، وعبَر أهالي مدينة بلغراد الجسرَ بالبكاء والأنين، وقابلوهم، وارتدوا ثوبَ العزاء الـ«جول»، وذكروا الله تعالى، وسبّحوه وهلّلوه وهُم يبْكون. وعندما رأى كلُّ واحدٍ القلنسوة «مجوزة»[2] ذات الذؤابة بالتابوت داخل العرب؛ صاحوا: «هاي هوى» كالبعير المسْعورة، ووحّدوا الله بقولهم: «لا إله إلا الله»، ثمّ تقدّموا الجنازة. وعلى أحد السّواحلِ تمّ نصبُ المظلّات العالية أمام الخيمة الفلكيّة النطاق. وعدما رفعوا غطاءَ العربة، وظهر تابوت السلطان الغازي «سليمان خان» عليه الرّحمةُ والغفران؛ أصبح العساكرُ ذوو مآثر النصرة مُضطربين وحيارى لأحوال الدنيا الفانية، وبكوا وتأوّهوا بحُرقة.

وفي هذا الموْضع، وبينما كانوا ينظرون في دهشةٍ وحيرة، خرج فجأة حضرةُ السّلطان عالي المقام وحامي العالم مثلما تطلعُ الشّمس التي تضيء العامل من برج الأسد، خرجَ باستحياء وخجلٍ شديد مرتديًا ثوبَ العزاء، ورداء «أطلس» ذا رائحة المسك،

(١) بيزبانلر: الأفراد الطرش والخرس الذين يتواجدون بشكل مجموعة- ثلاثة أو أربعة- في عنابر الخزينة، ومخازن المؤن من حجرات القصر، ويمسكون النوبة دائمًا على باب السلطان، ويرتدون طربوشًا مرصعًا، وهم أذكياء جدًّا، وينفذون رغبات وأوامر السلطان من أبسط إشارة بطرف العين.

(٢) مجوزة: نوع من القلنسوات القديمة، أسطوانية الشكل، وقمتها حمراء اللون، وأطرافها ملفوفة بالشاش.

وصديري «سليمي» ذا قماش « چوقة» الأسود، ومتوشّحًا بعباءة العزاء، ووصل أمام العربة مُلقيًا السّلامَ على يمينه ويساره بتبَخْتر لطيف، وحركات التّواضع المرغوبة. وعندما رفع يديْه المباركتين لمقام العزّة، ودعا؛ بكى كثيرًا بدموع العين، وملَكَتْه الحيرةُ الزائدة. وعلى الفور طلب حضرة الصدر الأعظم قائلًا: «أين خواجة أفندي؟». أجاب قائلًا: «ربّما كان يرتدي ثوب العزاء». فأمر بإحضاره، فصادفَ خواجه أفندي الجنازة، وعندئذ احتضن الصدرُ الأعظم لمربي جناب السّلطان، ووقف على الجانب الأيمن منه، وتقدّم هو (السلطان) أيضًا مع الوزراء العظام، وسائر الأركان إلى الجانب الأيسر لخواجة أفندي، وصاروا صفًا، ورفع المؤذّنون تكبيرات الآذان، وبعد أن أدّوا الصلاة، وأتمّوا دعاء الجنازة؛ رفع حضرةُ السلطان الفلكي الوقار يديْه مرّةً ثانية لعرش الحقّ، وبعد أن دعا كثيرًا، توجه للخيمةِ الهمايونية مُلقيًا السّلام على أركان الدّولة وعامة الرعايا، وعندئذ صاحت طائفةُ الخدم رافعين الصّوت، وقائلين: «كنّا قد نلْنا الرعاية، وبحث أمر عطائنا بناءً على قانونِنا القديم، فكيف سيكون الحالُ الآن؟». وتوجّهوا إلى الوزراء العظام بالقول: «لماذا فعلتَ هكذا؟ إنّكم بعد ذلك قد تواجهون العنت، ومرّةً أخرى سنكون عندئذٍ نحن المذنبين؛ سواء على «باب أدرنة»، أو على باب السراي، وسوف تكونون أنتم مثلنا حاليًا، فليكن خيرًا».

فرَدّ عليهم الوزراءُ قائلين: «عندما يدخل السلطانُ قصرَ أبيه، ويأخذه ويسير فيه؛ سنعرفُ كيف نتغلّب عليكم، (نعرف كيف نسيّركم)». وتناقشوا بحدّة كثيرًا. ثمّ انشغلَ حضرات الوزراء العِظام في إرسال جنازة المرحوم والمغفور له لقبره في استانبول؛ حيث رافق الجنازة حضرة الوزير «أحمد باشا»، و«علي باشا» القادم من مصر، و«فرهاد آغا» المترقّي من وظيفة أمير الإسطبل، والشيخ «نور الدين زاده أفندي» مع متصوّفته. وجاء حضرةُ الصدر الأعظم، وعقدوا الديوان وهم مرتدون ثيابَ العزاء. وحضر أعيانُ دولة حضرة السلطان واحدًا واحدًا، وقبّلوا يَدَ السلطان. ومِن قبل كان مولانا «خواجه عطا الله أفندي»، وحضرة «لالا حسين باشا» قد وصلا معَ آغوات سائر الأركان؛ حيث وقفوا على الأقدام، وأخبر كلّ واحدٍ منهم عن اسْمه. وبعد ذلك تقدّم منفردًا المتفرّقة «جلال بك» المقرب من حضرة السلطان،

ودفتردار التيمار سابقًا، وتفضّل بتحية السلطان بإجلال. وبينما كان هؤلاء يأملون منه الاهتمام والاعتبار الزّائد عن الحدّ؛ زاد اهتمامُه بهم عن حدّ المعقول، وزاد القيلُ والقال بين طائفة الخدم، وداخل المدينة، فتقدّم الوزراءُ بالعروض قالوا فيها: «إنّ الطائفة عديمةَ الخلق القادمة مع السّلطان قد تحدّثت بكلام تجاوز الحدّ، وإنّهم يُثيرون الفتنة، فينبغي ألّا يبقوا بيننا، وإلّا فإنّنا سوف نجرّد السيوفَ، ونكسر هؤلاء بأنفسنا كعُدَماء الأخلاق». وفي بعض الأسواق وأماكن البيع والشراء، ضربوا الدناة بشدّةٍ قائلين: «يا هو اضربوا السّفلةَ»، وبدءوا في سحْب أجسادهم النّتنة. وعلى الفوْر، وفي تلك الليلة نُشر الجاويشية في أرجاء المدينة بناءً على الحكم الشريف الصّارم الموجّه إلى «لالا حسين باشا»، ودقّوا نفيرهم ورحلوا إلى استانبول، وقالوا: «الاستراحة لمدّة خمسة أيام».

وانعقدَ الدّيوان العالي ثلاثةَ أيام، وارتدى أركانُ الدّولة خلع التعزية والتهنئة، وخرجتْ إنعاماتُ الجلوس الهمايوني، وأحسنَ على رعايا البلوك بألف آجقه، وعلى اليني جري بألفي آقجة، فاعترضَ اليني جري قائلين: «إنّ قانوننا ينصّ على أنّ إنعامَ الجلوس ثلاثة آلاف آقجة، وإنعامَ الحملة مقدارُه ألف آقجة أيضًا. وإن لم تحضر الخزينة كاملة، فمرّةً ثانية يتبقّى لنا باقٍ. وبحسب تعداد فرقة الإنكشارية البالغ في ذلك الوقت اثني عشر ألفًا وثلاثةَ أفرادٍ ينبغي ترقية الجنود ذوي اليومية التي مقدارُها ثلاثة آقجات إلى خمسة آقجات. والخمسة آقجات إلى ثمانية، والثمانية إلى تسعة، قد بلغ تعدّد البلوكات الستة[1] في ذلك الوقت خمسة آلاف وثمانمائة وخمسة وثمانين نفرًا؛ حيث أحسن بترقية مقدارها خمس آقجات على أبناء السپاهية والسلحدارية، وبترقية مقدارها ثلاثة آقجة على جند فرقتي علوفجيان يمين ويسار، وبترقية مقدارها أربع آقجات على فرقة عزباء يمين ويسار، وبترقية آقجة واحدة على أفراد الإسطبل العامرة، والمطبخ العامرة، وجند الجبه جيه، والمدفعية، وبترقية خمس آقجات على

---

(١) البلوكات الستة: بلوكات اوجاق الينى جري، وهي: السپاهية، والسلحدارية، وعلوفجيان يمين ويسار، وعزباء يمين ويسار.

أفراد الخزينة العامرة، وأرباب الأقلام، وأفراد «مشاهره خوران»، وبترقية آقجة واحدة على الطلاب، وبترقية مقدارها آقجة واحدة على جماعة أهل الحرف، ونالوا إنعامات قدرها خمسمائة آقجة، وأُحسن بإنعام قدره مائتان وخمسون آقجة على صبية السايس، وقالوا: «أخذها الذين تمكنوا من الأخذ، وبقي الذين لم يأخذوها لأخذها في استانبول، وفي اليوم الخامس رحلوا، وتوجّهوا إلى استانبول المحميّة، ونزلوا على صحراء «سمندره». وفي هذا اليوم اقترب صدرُ الروميلي «حامد أفندي»، وصدر الأناضولي «برويز أفندي» من الركاب الهمايوني، وسارًا بصحبة الركاب لمسافة طويلة.

وفي هذا المنزل صدرت تذكرةٌ همايونية لحضرة الوزير الأعظم، وصدر فرمان بعزلِ اثْنين من الأفندية قضاة العسكر «قاضي عسكر افنديلر»، وبالإحسان على قاضي استانبول، مولانا قاضي «زاده أحمد أفندي» بوظيفة صدر الأناضولي، وبالإنعام على «حسن بك أفندي» المعزول من مصر، والمتواجد في خدمة المرحوم رستم باشا بمنصب قاضي استانبول، وأيضًا صدر فرمان بالإنعام على قاضي «كوتاهية» «قپوجي باشي عبد الله آغا زاده منلا چلبي أفندي» بوظيفة قاضي «بروسه». وقد أشيع بأنّ هذه السّلسلة من التّعيينات تمّت بمعرفة «خواجه عطا الله أفندي».

وذكر أنّ الـ«قاضيعسكر أفنديلر» قالوا: «كان المرحوم والدكم قد منع شربَ الخمر على أعضاءِ الرّكاب الهمايوني، فينبغي أن يكون ممنوعًا في عهدكم الشّريف». واجتهد الوزيرُ الثاني حضرة «برتو باشا» المعيّن قائدًا على قلعة «كوله»؛ بينما كان أمير أمراء «طمشوار» من قبل، اجتهد في الخدمة التي كلف بها، وبذل جهدًا عظيمًا مع عسكر الإسلام، وفتح القلعة المذكورة، وبناءً على العهد والأمان الذي عقدوه أخرجوا من القلعة أمير «قراجين» الذي كان من مشاهير أمراء خروات، ولكنْ لم يتمالك عسكر الإسلام أنفسهم من الهجوم على أحماله وأثقاله، ولمّا لم يؤذَن لهم بالهجوم عليه فقد أدّى ذلك لوقوع النزاع بينهم، وبينما كان المذكور ذاهبًا مع الجواسيس المهَرة، لم يلتزم العسكرُ الانضباط، ولحقوا به مِن خلفه، وهزموه، وطرحوه أرضًا، وسلبوه ونهبوه،

وعندما أحضوروا الأمير المذكور حيًّا بعد فتح قلعة «كله»، كانوا قد عرضوه على الرّكاب الهمايوني مع آغا علوفجيان اليسار جاشنكير الروميلي المعروف باسم «مصطفى آغا»، ثمّ أرسلوهم. وعندما جاءوا اضطرب حال حضرة الوزير الأعظم، وعاتبهم بشدّة قائلًا: «عيّنتم صاحب الاسم الحسن في وظيفةِ القيادة، وأصبح نقضُ العهد موجودًا في أيّ أمّة، كيف سيكون حال العساكر المخالفين للأمر الشّريف للحقّ تعالى، والناقضين العهد والأمان في الدنيا والآخرة؟ ستروْن جزاءهم». وتحدّث الوزير الأعظم إلى الأمير المذكور بلغة لطيفة وبتطييب خاطرٍ قائلًا: «لماذا أحضرتموه هنا؟ مَن طلبه منكم؟ كان يجب أن تدفنوه في إحدى القلاعٍ، والآنَ بماذا ينبغي عليّ أن أجيب إذا سُئلت؟». ثمّ تلطّف بقوله: «صل، وضَعْه في قلعة «بلغراد». وأرعاه أكثر ممّا يريد، ولنعرض على السلطان أحواله عند العودة، ولنرغّبه خلالَ هذه الفترةِ في الإسلام، فينبغي أن تصبح طائفة «بوليكه» من المسلمين».

وكان المذكورُ قد أظهر السرورَ الكثير، ودعا للصدر الأعظم بلُغَته. وعندما وصلَ المذكورُ لبلغراد قبل أنْ يحين وقتُ العودة كان قد مات كافرًا، وذهب لنار جهنّم، وقد رووا- على طريقِ الحكاية- جميعَ هذه الأحوال الواقعة، والوقائع التي صدرتْ عن طائفة الينى جري.

وعندَ المدينة المعروفة باسم «براكن»، جاء المشار إليه حضرة الوزير صاحب التّدابير للركاب الهمايوني، ودنا منه، وسار بصحبته مسافة طويلة، وقطعوا المنازل والمراحل، وأقاموا يومًا في «صوفية»، وزاروا سفيرها، وأقاموا يومًا كذلك في مدينة «فلبه»، ودخلوا حمّاماتها، وذهبوا من طريق «استاينمقه»، ولمّا وجدوا بها الحدائق والمتنزّهات الكثيرة، أقاموا فيها أيضًا يومًا، واغتنموا فرصة التّمتع بنعمها.

وفي أواخر جمادى الآخر، وصلوا إلى «أدرنه « المحمية، وأقاموا بها يومين، وعندما مرّت جنازةُ المرحوم والمغفور له السلطان «سليمان خان غازي»، استقبلها عامّةُ الرعايا والبرايا في القرى والمراكز والمدن بالآه والأنين والصراخ، وتضرّع علماؤها وصلحاؤها إلى مقام الأحدية، بالدّعاء والثناء، فلا يردّ عند مقام العزة أدعية أرباب

المصائب بالكلمات المؤثّرة. وخصوصًا عندما وصل نعشه إلى استانبول، تضرّع العلماءُ العظام والمشايخُ الكرام، وأدّى شيخُ الإسلام وحضرة مفتي الأنام «أبو السعود أفندي» الصّلاةَ مرّة ثانية بالإقبال والإعزاز، وتذكر أهالي استانبول الأيامَ التي نعموا واغتنموا فيها في ظلّ عدْله وشفقته، وجاء الخبرُ بأنه دُفِن بمزيدِ الأسى في مرقده المنور، يعني في قبره المطهر.

وقُرأت بهذه المناسبة سبعةُ فقرات من مرثية «تركيب بند» لمولانا «عبد الباقي أفندي»، وأحضروا عامّةَ الرعايا للبكاء، والحقيقة أنّهم تأثّروا واحترقوا بالكلام البليغ للطّبقة المثقّفة الذي لا يصدر إلّا عنهم، وعلى أثر أزمة للشّعير المخصّص لإبل الإسطبل العامرة صدر فرمان بعزل أمين الشعير[١] «أربه أميني» «علي چلبي»، وتعْيين «ذهني بالي چ لبي» المترقي من وظيفة أمين المطبخ[٢] (مطبخ أميني) أمينًا للشّعير.

وفي المنزل الثّالث عشر جاء صاحبُ العظمة حضرة سلطان الأرض والزمان إلى «حلقة لوسراي» الواقع بالقرب من استانبول، ونزل فيه، ونزل حضرة الصدر الأعظم في مزرعتِه، وأقام كلُّ واحدٍ من سائر أركان الدولة، واستراحوا، وفي اليوم التّالي تجمّع جميعُ الرعايا، وهم مهيّئون بالهيبة والعظمة لدخول السلطان إلى المدينة بالعزّ والإجلال.

(حكاية)

وفي تلك اللّيلة، بينما كان هذا الفقير (سلانيكي) يرحلُ من المنزل متوجهًا إلى سوقِ استانبول مع بعض الأصدقاء مبكّرًا، صادفوا عند القرية المشهورة باسم «ليتوروز» جماعةً كثيرة من طائفة الييني جري، فأشعلوا المشاعل، وأوقدوا الشموع،

---

(١) أمير الشعير: من رجال القصر، ويحمل رتبة خواجه كان»، ووظيفته توفير وتأمين العشب والشعير، واحتياجات الحيوانات بإسطبل القصر، وفي وقت السلم كان يجلس في القصر، وفي الحملات كان يؤمن أكل الحيوانات.

(٢) أمين المطبخ: تطلق على مدير اللوازم العامة للمطبخ، ووظيفته تأمين وتوفير الاحتياجات المتعلقة بالطعام الذي يطهى يوميًا.

وعقدوا المجلسَ العالي، وقرّروا في محادثاتهم في ظلّ مجلس الودّ وآلات الحرب ما سوف يفعلونَه غدًا، وتحدّثوا بشجاعة، وكانت تدابيرهم واستعداداتهم على نحو ما كانَ في عهد «محمد باشا» وزير السّلطان «محمد خان غازي»، و«مصطفى باشا» وزير السلطان بايزيد من قبل بأن اتّحد اليولداشية ببعضهم كالمدافع المرصوصة، ولم يتفرّقوا، ولم يستطعْ أحدٌ بأنْ يدخل بينهم. وعندما شُوهد ما اتّفقوا عليه أخبرنا بأنّه: «لا يفلح قصدُ هؤلاء على أيّ حال، وأنّنا رجعنا مع كاتب الديوان الهمايوني «غنايي چلبي»، ووصلنا إلى كلّ مِن «محمد چلبي أفندي» رئيس الكتاب، وكاتب السّر «فريدون بك» عند المنزل، وروينا ما حدثَ وسمعناه، وعندئذ امتطى الاثنان جواديْهما في الحال، وجاءا. وعند السوق أحضروا الزّجاجات والشراب، واشتدت حرارةُ الحديثة بشكل طبيعي، وسمع كلامهم بأنّهم قالوا علنًا: «ليدخلوا من باب الميدان، وليقفوا أمامَ الحجرات القديمة، أو يغلقوا بابَ السراي العامرة».

لكنْ ما الفائدة؟ فقدْ وصلوا للسّراي العامرة عند اقتراب الصباح، وأحاطوا حضرة الوزير الأعظم- أيضًا- بما حدث، لكن لم تكنْ هناك إمكانية لتدارك هذا الأمر بأيّ صورةٍ قط. ومنذ وقتِ السّحر كانت علومُ الشريعة المصطفوية لامعة وساطعة مثلَ الشّمس التي تضيء العالم في الجبهة النورانية لكلّ من حضرة «إسكندر باشا» المكلّف بمهمّة حراسة استانبول، وحضرة القبطان «بياله باشا» القادم بالأسطول الهمايوني، وشيخ الإسلام ومفتي الأنام حضرة «أبو السعود أفندي» من بين العلماء الأعلام، واصطفّ سائرُ العلماء العِظام أكثرَ اللهُ تعالى من أمثالهم إلى يوم القيامة، ووقفوا صفًّا صفًّا؛ حيث كانوا في انتظار حضرة خليفة المكان والزمان، وبعدَ قليل جاء السّلطان فلكي الوقار، صاحب رداء العدالة مملوءًا بالعظمة والوقار، وكانت المراسيمُ السلطانية لائقة به، ولمّا حلّ محلّ سلطان الدنيا السلطان سليمان النّائل للمرام، والمحظوظ والجالس على سرير السلطنة منذ ثمانية وأربعين عامًا، قال الذين رأوه عندَ النظرة الأولى: «إنّه لائق ومناسبٌ للسلطنة». وقاموا بالدّعاء له، والثناء عليه.

وخلاصةُ القول، عندما وصل مولى الموالي مفتي الأنام «أبو السعود أفندي» للركاب الهمايوني؛ مسحَ السّلطانُ بيدِه المباركة على عمامته، ولمّا تفضّل برعايته على هذا النّحو استحسَنَ رعايا الدّولة هذا التصرّفَ قائلين: «إنّ هذا التكريم، وذلك الاحترام، لم يحدثْ حتّى من السلاطين السابقين».

وقام كلٌّ مِن «بياله باشا»، و«إسكندر باشا»، وسائر أعيان الدّولة بتغيير الوجه للرّكاب الهمايوني، وبناءً على القانون القديم، قام جاويشية البلاط المؤيد بالسعادة بالتّصفيق مُثْنين على السّلطان، ثمّ صاروا حتّى أنّه لم يكن هناك قدرة على التحرك بسببِ كثرةِ وازدحام الناس. وتقدّم عساكرُ الإسلام المحفوفين بالزّينة والبهاء كأزهار الرّبيع رويدًا رويدًا في عظمةٍ ووقار؛ تقدّموا إلى «ادرنه قپو»، ولم يسمح عساكر الإسلام بدخول أحدٍ من الخارجين بين فرق الينى جري؛ حيث توقّفوا عند موضع يُعرف بـ «شاهراه» يقعُ عند رأس الحجرات القديمة أمامَ جامع «شهرزاده»، ولما كانت أعدادُهم لا تُحصَى، قالت أفرادُ طائفة الينى جري: «علينا أن نقف». فوقفوا أكثر من ساعة، وعندما قيل: «ما حقيقةُ الأمر؟ سيروا أيّها الرفاق». أجابوا قائلين: «اصبروا توجد أمامَنا عربةُ المرعى». وعندما وصلوا أمامَ حمّام السلطان «بايزيد خان»، قال «برتو باشا»: «أيّها الرفاق إنّ هذا ليس لائقًا». فكان هذا الكلام ثقيلًا على المذكورين، فقالوا: يا هو! انتشر الفساد، وظهرتِ الفتنة. هل هؤلاء خدمُك؟ هل أنت القائد حتى تقول هذا؟ فضربه أحدُهم بالحربة، ولكن لم يضربه بقصد قتله، فسقط من أعلى جواده، وتدحْرَجت القلنسوة من فوق رأسِه، وفي الحال عندنا قال القبطان «بياله باشا»: «ماذا تفعلون أيّها الرفاق؟ أليس هذا عيبًا؟ هل تكون المعاملة على هذا النّحْو؟». أجابوا قائلين: «إنّك أحدُ آغوات العزب البحارة «عزب آغاسي». فقل لنا ما أسلوبُك؟». فأوقعوه أيضًا من فوْق جواده، ولاذَ بالفرار ماشيًا صوب ناحية «كلخن»، وضربوا «فرهاد باشا» وجواده بدبشك البندقيّة أيضًا. وبدأت ريحُ الفساد في الهبوب، واجتمعت طائفةُ الـ «يدكلر»، والـ «صولاقلر» ذوي شارات الـ «طوغ» والمتشحون بالثياب، ووقفوا.

وعلى الفور، أخرج حضرة الوزير «أحمد باشا»، وحضرة «محمد باشا» الذهبَ حفنةً حفنة من جيوبهم، واشتروا كرامتَهم قائلين: «تلطّفوا أيها الرفاق، فأجاط بكلّ واحدٍ منهم مائة أو مائتان من جندِ اليني جري، وأحضروهم وهُم يتحدّثون إليهم حتّى باب السراي العامرة.

وفي هذا اليوم، لم يمتطِ حضرةُ الوزير «مصطفى باشا» الجواد، وقد تمارض، ولفّ آغا اليني جري «علي آغا» على رقبته منديلَ عسكر المشاة (بياده)، وكلما قال: «هاي مدد» أيّها الـ «يولداشلر» غدرتُم بي. لماذا تفعلون هكذا؟ تلطّفوا وأحسنوا». أجابوا قائلين: «في الحقيقة أنت أمرتَنا بأنْ نأكل البقسماط المسكر في طريق ذهابنا للحملة، لكنّك تريد زيادة أموال الخزينة للسلطان الجديد، ولمحمد باشا أيضًا. إن هذا مُحال، وربّما أنت أيضًا لا تنحو. اصبر، وعليك أن ترى»، وذهبوا. إلّا أن فرق الييني جري الذين تقدّموا إلى الأمام، حرّكوا أركان الدّولة عن أماكنهم، ودخلوا لنواحي السّراي العامرة فرقةً فرقة، وبلوك بلوك. لكن بقي حضرات الوزراء العظام في الخارج، وأغلقوا البابَ الهمايوني، وتحفّظوا على رجال كثيرين في الداخل، وأحاطَ أكثرهم أيضًا بالوزراءِ العظام في الخارج، وكانوا مترقّبين لخروج حضرة السّلطان فلكي الوقار، وعندما جاء حضرةُ السلطان عالي المقام أمام الحمام السّلطاني، أنزل الييني جري الوزراءَ العظام من فوق جيادهم، وساقوهم معًا بسراويلهم وسيوفهم، وأحضروهم لحضرة السلطان، ثمّ تصايحوا قائلين: «ليوزّع.. ليوزّع عطاؤنا بناءً على القانون القديم». وعندما قال «محمد باشا» وحضرات الوزراء العظام: «سلطاني المعظم، إنّ هؤلاء لن يكونوا مبسوطين ما لم يسمعوا من لسانكم الشّريف المبارك! إنّكم ستوزّعون عليهم عطاياهم. فلتحسن عليهم بها، ولتخمد هذه الفتنة، فلتتفضّل بالحديث إليهم». قال السّلطان: «لو يوجد بينهم عالم باللغة التركية، فليأتِ، ولتتحدّث معه». ومع هذا أيضًا لم يتجاسروا على مواجهة النظر الشريف لجناب السّلطان المؤيّد بالعظمة، وتفضّل السلطانُ نهاية الأمر قائلًا: «فلتعط جميع عطاءاتهم وترقياتهم، فهي مقبولةٌ لدي». عندئذ عاد الوزراء العظام، وامتطوا جيادَهم، وبحثوا عن وسيلة لفتح باب السراي العامرة.

وعندما قال الوزراءُ العظام للجند: «افتحوا الباب، لقد أنعم صاحبُ السعادة حضرةُ السلطان على جميع رجاله بعطاياهم، الحمدُ لله انتهت كافّة مصالحكم، فقد سمعَ جميع اليولداشيه هذا الخبر. فلْيطِلِ الحقُّ سبحانه وتعالى عُمرَ سلطاننا سنين عديدة. افْتحوا الباب». ردّ اليولداشيه: «لن يكون هناك خير، إنّنا لم نسمع هذا». وكان حضرةُ السلطان في الانتظار في جامع «آيا صوفيا» حتّى وقت أذان العصر، بعدَ ذلك فتح الباب بعد طولِ رجاء، فدخلوا. والحمدُ لله، فقد نهبت المدينة على هذا النّحو، ولكن لم يستخدَم فيه السيف؛ إذا لم يكنِ الاعتقاد السابق عبثًا، وإذا لم يدخل غرض النّفس في الأمر؛ لكان ينبغي ألّا يحدث هذا القدر من نقصان الكرام. وقالوا: «الحمدُ لله على دين الإسلام». وذهب كلُّ شخصٍ لمسكنه في أواخر جمادى الآخرة سنة ٩٧٤هـ/ ديسمبر ١٥٦٦م».

وبعدَ ذلك عندما أدّى أميرُ الأمراء الذي بقي في الخارج خدمتَه في غضون بضعةِ أيّام حتّى يوم «قاسم»، وجاء؛ نفذت من استانبول المحمية المأكولاتُ بسبب الكثرةِ والازدحام، واكتظّتِ المدينةُ بالناس، واجتمع زعماءُ وأرباب تيمار «الأناضولي»، و«قرة مان»، وكانوا منذُ القِدَم قد أدخلوا رعيتهم وأبناء الرعية لبلوكات آستانه السّعادة ولسائر المقاطعات، وأحْسَن على معظمِهم، وربّما صاروا من أهل «البراءة»[1]، ونالوا مقاطعات «تيمار»، وتوسّلوا للموجودين من الأمراء، وقبلوا ذيلَ أثوابهم، وبناءً على القانون القديم وعاداتِهم السّابقة طلبوا حقوقهم، فأحضروهم للدّيوان الهمايوني أمام الوزراء العظام، وعندئذ أحدثوا ضوضاءَ عظيمة، وعندما قالوا: «لا بدّ وأن ترعوا وتنظروا في أحوالنا. وتعرضوها على السلطان»؛ أصدر فرمان إلى حضرةِ أمير التوقيعات «جلال زاده»، فأصبح أبناءُ الرعية في مقام رعيه، وسجّلوهم في الدّفتر السلطاني بحسب أسمائهم، فخرجوا على ذلك. وبينما كان هؤلاء مجموعة من العوام، فقد تقلّدوا السيوف، وعرضت أسماء العدد الذي ألحق منهم بالخواصّ السّلطاني؛

(١) البراءة تطلق على الفرمانات المحددة بسبب إعطاء تعيين لأي وظيفة، وأحيانًا يستخدم بدلًا منها كلمة «متور»، وتطلق أيضًا على وظائف القائدية.

حيث قرأت على مقام السّرير العالي، وعندئذ قال صاحبُ العزّة حضرة السلطان حامي العالم: «لقد تعدّى أخي بايزيد، وجمع الجيش ضدّي، وبينما كان آتيًا أخبرنا حضرةُ والدي المرحوم- الذي مأواه المغفرة- بالوضْع، وعرضْنا عليه، فقال صادرًا خطًّا همايونيًّا: «إنّ عسكر طائفة الـ «چفت بوزان»، الذين حملوا عليك، والذينَ قيّدت أسماؤهم طائفة من الرعايا. وينبغي عليك أنتَ- أيضًا- أنْ تسجّل طائفةً ذات مرتّبات يومية من الرعايا المجندين لركوب الجياد والمؤهّلين لارتداء ثيابِ الحرب، وعليك أن تواجهه، فإنّ عدمَ قدرة طائفة مثل هذه على مواجهة السّيف، وهروبهم، وإنكارهم يتساوى. وبسبب أنّه المرحوم والدي تفضّل بالحديث بذلك، فقد عملْنا بالوصية». وحدث استحسان أركان الدّولة وعامّة الرّعايا لصدور الفرَمان عالي الشّأن والموافق للقانون المنيف الذي جاء فيه: «لتسجّل أسماء الرعايا قبلَ الحرب، فإنّ «بقيّة السيوف» المحاربين محتاجون لتسجيل بدل الولاية الأماكن المتواجدين بها، في دفاترنا، وليوزّع على الرعايا الموجودين خارجَ الدفتر بدل الولاية، وفيما بعْد لو وجِدَت لهم حقوقٌ سابقة قبل تسجيلهم في دفاترنا بإحدى طرقِ الترقية؛ فليأخذوها. لكنْ بعد أن يسجّلوا في دفاترنا، لا يكونوا رعيّة، وليسجّل بدل الرّعية خارج الدفتر». في أوائل شهر رجب المحرم سنة ٩٧٤هـ/ يناير ١٥٦٧م.

وفي هذه الأثناء، كانَ حضرةُ القبطان «بياله باشا» قد أبحر من قبل بالأسطول الهمايوني في عهدِ المرحوم والمغفور له السلطان سليمان. وعندما أحرق قلاع وحصونَ أعداءِ الدّين الواقعة على سواحل «بوليه»، واستولى على الغنائم الكثيرة؛ أحضر هدايا الجلوس الهمايوني، وقدّم في الديوان الهمايوني الهدايا المرغوبة، والغلمان حِسانَ الوجوه الذين لَاقوا الإعجابَ من جميع أهل الديوان؛ حتى أنه لم يسجّل في دفاترِ التّشريفات من الأقمشة الإفرنجية، وأقمشة «جوقة» الملونة للسابقين؛ مثل هذا المتاع الفائق.

ولمّا فتح «برتو باشا» القلعةَ وهو يتولّى منصب القائد أيضًا، قدّم بناءً على القانون هدايا الجلوس الهمايوني مضاعفةً عشْرَ مرّات. ولكن كانت وسط الحال، وجاء السّفراءُ من قبَلِ الملوك والحكّام والسلاطين العظام الموجودين في أطراف وأكناف

الدنيا برسائل التّعزية والتهنئة، وسجدوا عند مقام السلطان عارضين العبوديةَ والإخلاص، وقدّموا تحفَهم وهداياهم اللائقة، وجاءت من أقصى الأرض الأموالُ الكثيرة، والتّحفُ التي لا حصرَ لها. ورجت شرذمة من الأشخاص- مثل عرب البادية، وداغستان، وكورجستان- أنْ تشملهم العنايةُ السّلطانية أكثر من خدم وحشم السّلطان القادمين مع حضرته، وجعلوا خدّام السلطنة القدامى خاضعين لهم، واستولوا على المُلك، وقالوا مثل المُغتصبين للحقّ: «المناصب والأموال لنا. ومحالٌ أنْ يوزّع علينا بإنصاف هؤلاء، فلنسرع في دخول بيوتهم، وليكن ما يجب أنْ يكون». مثلًا بدأت طائفةٌ من الشّرذمة سيئة الاعتقاد في القول: «يا هو اضرب أتباعَ (معاوية)». واجتمع أراذلُ النّاس في مكان واحد قائلين: «نحن أيضًا نريد أخذ مثلما تأخذ طائفةُ الخدم القدامى من التّرقيات والمراتب. ألم يكن تهذيب نفوسنا وانتظارنا هذا القدرَ من الوقت من أجلِ هذا اليوم؟». وقالوا: إنّنا نعلم جوابكم الشافي لنا، أو ما سوف نقومُ به من عمل». وعندما تهيّأ عرش السلطنة، سجّل كالعادة لآغوات الخدم ومتفرقهم، وجاشنكيريتهم، وجاويشيتهم، وجنود البلوك، وسائر خدمهم وحشمهم، والذين ذهبوا معه بتكليف من سدة السعادة كُلّ في منصبه؛ علاوة على الإحسان على كلّ منهم بالإنعام والترقية.

لكنْ خرجوا معًا من مركز الدولة، ودخل الأفراد جميعًا ماعدا الثلاثمائة وخمسين فردًا من الذين ذهبوا، فصاروا أكثرَ من ثمانية آلاف شخص، وكان معظمُهم- أيضًا- سُفهاء، ولصوصًا، ومُحتالين. أمّا آغواتهم فهُمُ الذين نالوا درجة اليولداشية في معركةِ وليّ العهد؛ حيث حصلوا على الأموال الكثيرة قائلين: «إنّ الفرصة سانحة». وقد سجّلت أسماء الرعايا ما دونَ العاشرة، وأصبح آغا أبناء السپاهية، وآغا العلوفجية «عمر آغا»، وهو من آغوات البلوك مظهرًا للالتفاتات العليّة السلطانية؛ حيث كانوا قد تقرّبوا للسلطان على إثر تواجدهم داخل المجلس أحيانًا، ونالوا مرادَهم عنده، وقدّمت طائفةُ السّفهاء العروض؛ حيث ذكروا فيها كلامًا سفيهًا، وفي أحدِ الأيام، وبينما كان حضرات الوزراء العظام خارجين من الدّيوان الهمايوني؛ اعترضتْ طائفةُ السفهاء حضرةَ الصدر الأعظم «محمد باشا» وهو بالموكب، وأطالوا اللّسان عليه

وشرَعوا في سبّه وضربه؛ حيث جرحوا أشخاصًا كثيرين بضربهم بالحجارةِ والعصيّ، وفي النهاية عوقب هؤلاء بأشد العقوبة، وبعد أنْ ظهر أنّ محرّضيهم كانوا آغواتهم أيضًا، لم ينكر معظم هؤلاء، وفي الديوان العالي ضربت رقابُ الذين أقرّوا واعترفوا بعصيانه، وتمّ صلبُ ثلاثة أيضًا من أفراد طائفة الـ«كشتكير» الأقوياء، وصدرَ فرمانٌ بأن تبقى في الخزينة العامرة علوفات «ما دون العاشرة» من الأشقياء البالغين ألفًا وخمسمائة نفرٍ، وأنْ توجّه الأحكامُ الشّريفة إلى مقاطعات التيمار من الزّيادات التي لا تصلح للخواص الهمايوني في الولايات التي أصدر فرمانًا بتحرير أراضيها. واستطاع عددٌ من ذوي الصفات الدّنيئة للطّائفة المشئومة التي كانت سببًا لنشْر الفساد بين الناس، استطاعوا النجاةَ من العقابَ في أواخر رجب سنة ٩٧٤هـ/ يناير ١٥٦٧م.

وفي أواخر شهرِ رجب سنة ٩٧٤هـ صدر فرمانٌ بإلحاق مقاطعات «خواص» مقدارُها أربعمائة ألفَ آقجة بقبوطانية (قبوانلق) القبطان حضرة «بيالة باشا»، وحرّر له الحكم[1] الشّريفُ المُطاع في العالم بلقبِ الوزارة؛ على أن يكون وزيرًا مشيرًا، ثمّ أرسل إليه.

وصدرَ فرمانٌ بضرورةِ حضور أمير أمراء الأناضولي «أناضولي بكلربكيسي» حضرة «زال محمود باشا» مع حضرة السلطان إلى استانبول، ودخول سراي «إبراهيم باشا» السّابق مرّة أخرى؛ حيث أرسل إليه حكمٌ شريف بلقب الوزارة، وردَ فيه: «ينبغي عليك المجيء والجلوسُ في منصب الوزارة، ثمّ صدر فرمانٌ بتوجيه إمارة الأناضولي «لالا حسين باشا». وأصبح الدفتردار «عبد الغفور أفندي» دفتر دار رابع[2] بشغله وظيفة أقلام مقاطعات خاصّ الشهزاده التي تبلغ خمسين حملًا، ثمّ تولّى إدارتها. وخلال وقتٍ قصير أصبح دفتردار الأناضولي- أناضولي دفترداري- «مويتاب زاده أحمد أفندي» دفتردار مصر المحميّة بدرجة سنجاق، وألحق للشقّ

(١) حكم: الأمر المكتوب الصادر عن السلطان.

(٢) دفتردار رابع: هو الشخص الذي يباشر محاسبات ومصروفات الجيش الجديد المستحدث على الطريقة الأوروبية.

الأناضولي بقلم «عبد الغفور أفندي» بوظيفة دفتردار الأناضولي، وأنال أعلم العلماء المتبحّرين حضرة مولانا «عطا الله أفندي» الشّرف بالخلعة الفاخرة، ومن أجل الإحسان عليه بالوظائف الوفيرة، صدر فرمانٌ بأن يقوم بتقصي وظائف معلم المرحوم والمغفور له السّلطان «سليمان خان»، مولانا «خير الدين أفندي»؛ حتى توجه له أضعاف مُضاعفة من هذه الوظائف. وخصّصت له وظيفة ذات مائتين وخمسين آقجة يوميّة، ومقاطعة ذات سبعين آقجة، وكذلك سائر المأكولات والمشروبات بلا حدّ، وملك سراي المرحوم الوزير «علي باشا»، ولمّا تمّ التفتيش على مقاطعةِ زعامة «خيالي بك» التي اكتتبَ بها برّأه، ووجد أنّ دخلها مائتي ألف آقجة؛ صدر فرمانٌ بأن تصبح مقاطعة زعامة «جلال بك» بمائة وعشرة آلاف، وأن يضاف إليها مائتان وعشرة آلاف من مقاطعات الزعامة الصالحة والمحلولة بحيث تصير البراءة الخاصّة بها بمبلغ قدره ثلاثمائة وعشرين ألف آقجة.

وصدر فرمانٌ- أيضًا- بإرسال الخلعة الفاخرة والإنعامات الوافرة إلى الجناب الذي مأواه الجنّة، والذي مقامُه الفضيلة مولى الموالي شيخ الإسلام «أبي السعود أفندي»، وبالإحسان عليه بترقية تقدّر بمائة آقجة على مخصّصاته التي تقدّر بخمسمائة آقجة يوميّة، فأصبح ستمائة آقجة يومية. في غرة شعبان الشريف سنة ٩٧٤هـ/ فبراير١٥٦٧م.

وفي أواسط الشّهر المرقوم، ولمّا كان من الضروري ترقية الذين كانت خدماتهم جديرةً بالمكافأة، في الحرم المحترم لحضرة المرحوم والمغفور له السلطان «سليمان خان»؛ وجّهت وظيفة أمير الإسطبل التي يُديرها رئيس البوابين فرهاد آغا «لخسرو آغا»، وعندئذ، رُقي «فرهاد باشا» بسنجاق «ملاطية»، وصدر فرمان بتوجيه وظيفة رئيس البوّابين إلى سلحدار الخاصّة «جعفر آغا»، ورضي الـ«ركابدار» مصطفى آغا، والـ «خاص اوطه لو»؛ «موسى آغا»، و«حسن آغا»، وآخرون، واختاروا وظيفة المتفرقة ووظيفة الذواقة (جاشنكيرلق) ووجهت الترقيات لجميع الذين ذهبوا للحملة وغيرهم، ونال الخدّام واجبو الاحترام الذين أتوا مِن بعدُ؛ نالوا مرادهم بحسب مرتبة كلّ واحدٍ منهم.

وعندما اعْتلى حضرةُ السلطان عرشه كان اليولداشيه الحراس في حجرات الينى جري عددًا قليلًا؛ حيث جاءوا مُسْرعين من النّاحية الأخرى، فدخل الـ «جورنلر» الذين يعرفون باسم «آوجي سكبان» مباشرة إلى حجرات الينى جري.

وعندما خرج حضرةُ السّلطان حامي العالم لزيارة القبور، سار رئيس السكبان بدلًا من آغا الينى جري (يكيجري آغاسي) فقام جنودُه اليولداشيه بتقديم جواده أمام عساكرِه من الـ «صولاقلر»، فأصبح مقرّبًا لطائفة الينى جري الذين ساروا معه، وأثّرت في نفسه المشاعر التي أشعلوها وألهبوها بنار الهمّة والحميّة، وقالوا: «انتهزت طائفة الـ «يومليلر الفرصة»، وتعاهدوا، وأكّدوا الاتّفاق فيما بينهم قائلين: «مِن الآن فصاعدًا ينبغي ألّا يبقى بيْننا في الحجرات جند «قوريجبي» أقلّ من اليولداشيه الذين يبلغ عددُهم ألفَ نفر، وأنّ هذا شرطنا قبل كلّ شيء على الإطلاق، وينبغي أن تسجل أسماؤهم، فلا تمكث بيننا طائفةُ الأجانب المعروفة باسم الـ «چورن»، وليذهبوا، فلا تراهم أعينُنا، وإلّا فسيأخذهم الشيطان». في الحقيقة لم يستقرّ– أو يسترِح– السكبانُ الذين أتوْا بينهم تحت اسم «يوملو»؛ حيث ارتقى بعضُهم لدرجة صاحب التيمار، وبعضهم الآخر ذهب إلى النواحي باسم الخدمة والمنْصب، ولم يتركوهم بينهم قائلين: «شيء في غير موْضِعه»، وبقوا على حالهم، وانْزَوى كلُّ واحدٍ منهم في ناحية، وذهبوا، واتّفقت زمرة الينى جري (يكجري) وأعلنوا العصيانَ قائلين: «هذه المرّة، ينبغي زيادة علوفات كلّ من «كتخدا بك»[١]، و«باش جاوش»، و«كتخدا يري»[٢] والمحضر، وجميع آغوات الأوجاق». فنفّذ كلامهم.

خلاصةُ القول: حولوا على الخزينة العامرة مصاريف إضافية قدرها سبعة آلافٍ وخمسمائة وثلاثين آقجة يومية لفرقة الينى جري فقط، وتمّ تنفيذ طلباتهم في أواخر شهر شعبان سنة ٩٧٤هـ/ فبراير ١٥٦٧م.

---

(١) كتخدا بك: من أكبر فرقة الينى جري، ويأتي بعد آغا الينى جري.

(٢) كتخدا يري: الشخص الذي ينوب عن الكتخدا.

وفي اللّيلة الخامسة عشرة من رمضان الشريف المبارك، وبناءً على القانون القديم، جاء آغا الينى جري مع جميع خدم القصر لمائدة أنعام حضرات الوزراء العِظام، واعتادت مائدةُ الأنعام أنْ تبدأ أولًا من حضرة الصدر الأعظم، وتنتهي عند حضرة القبطان «بياله باشا» بالتّناوب، فهي العادة القديمة، والضيافة العالية، والمصروفات العظيمة التي لا تهمل من عامٍ إلى عام، وبناءً على استمرار العناية بهذا الأسلوب المرْغوب في السّلطنة العليّة، وبموجب العادات المعهودة، وضع الينى جري بثيابهم المزيّنة الوزراء في موْضِع الحمقى أمامَ أعيان الدولة، وخلال المعركةِ السّابقة تجرّءوا على قذْفِهم بالكلام غير اللائق، وربما جاء الأبطال الشّجعان الجسورون الذين أخذوا العملاتِ الذّهبيةَ «فلوري»[1] حفنًا حفنًا بإطالة اليدِ؛ جاءوا بموجب الصّدفة، ولمّا جلسوا أمامهم على المائدة تحادثوا مع الآغا الجالس بجانبهم، وأصبح معظمُهم معروفين في كلّ مكان، فقد كانوا يصطادون الأرانب بالعربة بحسب عاداتهم، ولم يكن أيّ شخصٍ منهم يعلم شيئًا عن الآخر، وتمّ الانتقام من المفسدين؛ كلّ بحسب ذنْبِه، والاقتصاص منهم.

وشوهدتْ غرّة شهر شوال المبارك، فليكن مباركًا على حضرة خليفة وجه الأرض والزمان، وعلى جميع أمّة محمّد.

وبناءً على قانون العثمانيّين القديم؛ عمل أعيان الدّولة وأركان السلطنة بموجب قانون الدولة؛ حيث حضر أركانُ الدّولة إلى الديوان الذي عنوانه العدالة، ووقفوا كُلّ في مكانه.

ومنذُ وقت السّحر اعْتلى جنابُ السلطان عالي المقام- الذي جنده كالأنجم- عرشَ السّلطنة، وصفّق جاويشية البلاطِ المؤيدين بالسّعادة مهنئينه. وعندما وصل أعلمُ العلماء مولانا «خواجه عطا الله أفندي» قبل الجميع لمقام العرش الذي مصيره العالم؛ نال التّوقيرَ والإعزاز والاحترام كما ينبغي، وغبّر اثنان من الخدم المكرمين

(١) فلوري: الاسم الذي أطلقه العثمانيون على العملة الذهبية المعروفة بنفس الاسم، والتي سكّت في أوروبا قبل القرن ١١م.

ذوي الثّياب السوداء والقلنسوات، من أولاد «تاتار خانيه»؛ الوجْهَ لمقام العرش العالي أيضًا. وبعدَ ذلك، وعندما اكتمل متفرقة جاشنكرية البلاد المعلا (دركاه معلا متفرقه لري وجاشنكيرلري)، وقف حضراتُ الوزراء ذوو المقام العالي، وجاءوا على التّرتيب؛ حيث غبّر كلّ مِنَ الصّدر الأعظم «محمد باشا»، و«برتو باشا»، و«أحمد باشا»، و«مصطفى باشا»، وأمير أمراء الرميلي «أحمد باشا»، والوزير المكرم القبطان «بياله باشا». وصدر الروميلي «قاضي زاده مولانا أحمد أفندي»، وصدر الأناضولي- أناضولي صدري- «مولانا معلم زاده أفندي»، ودفتر دار الأناضولي «حسن أفندي»؛ غبّروا جميعًا الوجْهَ لمقام عرش السّلطنة، ووقفوا عند مقام السّلطنة على الجانب الأيمن مِن السّلطان. بعد ذلك- وبمجرّد أن تحرّك أعلمُ العلماء حضرة مولانا «أبا السعود أفندي» قائد العلماء العظام متقرّبًا من مقام عرش السلطنة- تحرك حضرة خليفةِ الزمان خطوةً نحوه، وأكرمه وقدّره. وجاء سائر علماء الدين ومدرسو «صحن ثمان»[1] على مراتبهم، وصاروا محطّ عيْن العناية السلطانية. وفي اليوم الثالث كان الهواء برّاقًا صافيًا كالقلوب المنيرة حيث صدرت تذكرةٌ همايونية من قبل حضرةِ السّلطان فاتح الدنيا لجانب حضرة الوزير الأعظم، في مضمونها الذي نثره الدّر، أصدر فرمانًا نصّه: «أنّه كلّما قام أجدادي العظام من آل عثمان- نوّر اللهُ مرقدَهم- بالغزو والجهاد، وحقّقوا الفتوحات، كان السماحُ بإعلان التسلية والطرب والشّرب والتزيّن لإشاعة السّرور والترويح عن النفس؛ كيدًا في عدوّ الدين والدولة، هو قانونٌ قديم- على أيّة حال- لم يتيسّر لأحدٍ من الملوك قط- الغزو الذي قام به السّلطانُ المغفور له للعالم، وعلى الخصوص فقد تيسّر مقام السلطنة السلطاني للجنابِ الذي مآبه خلافتنا السّلطان سليم، والآن عليك أن تأمر بالإعلان على أهل استانبولَ من أجل الزينة». وبينما كان حضرة الوزير الأعظم متوجّهًا لكتابة جواب على هذه التّذكرة يقول فيها: «إنّ علماء الدين لا يبيحوا هذا، ولا يروه جائزًا؛

(١) صحن ثمان: المدارس التي أنشأها السلطان محمد الفاتح، وتدرس بها أكبر الدروس.

لأنّ منكراتٍ كثيرةً قد تندرج تحته»؛ منعه الكاتبُ «فريدون بك»، وقال له: «لماذا تتمسكون بخلافِ الأمر، إنّ مزاج الرعايا لا يتحمّل التّكدير في كلّ وقت. فهناك حاجة إلى الانبساط، فقد يكون الخيرُ فيما يتوجّه إليه القلب الشريف لسلطان العالم، وأنّه جائز.

إنّ خاطره هو شفافية تجلي الملك

وكلّ ما يرى هو إلهام من الحق[1]

(نثر) إنّ لجام القلوب موجودة في يدِ قدرةِ «ستّار العيوب وغفّار الذنوب»، فلا يسمح بالمنكرات، ولتؤكّد بالتّنبيهات الصارمة على آغا الينى جري، وعلى آغوات وكتخدائية سائر البلوك، وليسيطر حاكمُ كلّ بلوك وضابطه على عساكره بالعصا التي في يده. وليجازَى الذين يرتكبونَ المظالم بالقسطاس كما ينبغي، ولينفّذ الأمر والفرمان السلطاني، ولتجد وتسعى لجعلِ الضّمير السلطاني المنير مسرورَ البال، وقد حضرتُ أنا هذا الحقير الذي لا شأنه (سلانيكي هذا الحوار)؛ حيث قال الوزير الأعظمُ لرئيس الجاويشية: «عليك بالتنبيه على المنادين».

وفي الحقيقة، كان الناس قد صاروا عطاشى جدًّا للسّرور والسعادة المؤقتة لهذه الدّنيا المتقلّبة، وظهر الناسُ في طورٍ آخر، وازدانت استانبول، وغلطة، وتزخرفتا بالعوام الهوام على نحْو ما، وزيّنوا الدّنيا المرأة، وجعلوها عروسًا من جديد، ورفعوا أصواتَهم إلى عنان السّماء، ونسي هؤلاء الذين كانوا كالرياح العاتية، بالشغب والشّرب والطرب، كالصّبية الذين بلغوا؛ نسوا غمّ عذهم، وبينما كان الكبار (من المفترض أن يكونوا قريبين من التّوبة)، جعلوهم يشاهدون مع مرتادي الخرابات، أماكنَ السّكر والأوكار التي تدوّي بأصوات الثّمالى في عهد السلطان «سليم خان» قائلين: «صلاة العشاء».

(١) خاطري شاهك تجلي جاميدر   هرنده كم كور نسه حق الهاميدر

مِن أشعار المرحوم «خيالي بك»: (بيت):

مهْما كان لازمًا أن تكون الدّنيا مذمومة، فالخمر ثانية

فلتوضعِ الْخرقة والسّجادة ثانية، ولنقلب للرهن[1].

وفي هذه الأثناء، بينما كان أربابُ التّأريخ متفقين على التفكير في وضع تاريخ للجلوس الهمايوني، وقع لبعضهم تاريخ «مدمن خمر» (=٩٧٤هـ) وكان واحدًا من أهلِ اللّغَة قد قال: «خطبه وسكه منقلب اولدى» (=٩٧٤هـ)، وقال الناس أيضًا تواريخ فارسية وتركية منها:

(بيت)

الآن، أنا الذي أصبحت ظلّ الخالق

دار الحقّ سلطانية بلا اشتباه

عندما صار التّاجُ والعرش من نصيب سليم

كتبت تاريخ «از ظل إله» [= ٩٧٤][2].

وله:

أصبح عرشُ السلطنة ميسّرًا لسلطاننا

بحمدِ الله تربّع سلطانُنا على خلق الدنيا

يا سليمي من أجل مَن وصل فيض الحقّ؟

قلت تاريخ «ظل آلهز» [=]٩٧٤[3]

---

(١) نوله مذموم جهان اولدى ايسه - دور اوله رهنه قوله خرقه وسجاده ينه.

(٢) منكه بودم سايه بروردكار
باد شاهي دا د حق بي اشتباه
جون ميسر شد سليمي تاج وتخت
كرده ام تاريخش ازظل اله.

(٣) سرير سلطنت اولدو ميسر
بحمد الله جهان خلقينه شاهز
اير شدي فيض حق جونكم سليمي
ديدم تاريخي ظل آلهز (٩٧٤هـ).

وكانت القصيدةُ التي قالها مولانا «عبد الباقي أفندي» للتّهنئة بالجلوس السلطاني قدْ كانت مسلمة وممتازة وفائقة على سواها، وصارت مثلَ السبعة المعلقة، أمّا التّاريخ الذي قاله مولانا «فوزي أفندي».

قالت الأرواحُ على روح المرحوم السلطان

شرفت ديارُ القدس بخير مقدم

عهدت خلافة الدنيا لِمّن؟

مَن يعلم الخليفة «مِن بعد نسل آدم؟».

ألم يسجّله التاريخ؟ ألم يظهر هذا الشخص؟

أصبح السلطانُ سليم محظوظَ الدنيا[1].

قال مولانا «جوهر أفندي» (بيت):

عندما رحلتْ روحُه (القانوني) من الدنيا الفانية

نصحَ السّلطان «سليمان» ابنه «سليم خان» وقال

احذرْ أن تكون مغرورًا، فلا تجعلك هذه الدّولة تنخدع بالدنيا

فإنّها لم تدمْ لا لـ«افرى دون» ولا لـ «سام ونريمان» أنفسهم

يا سليمي اعدلْ وأنْصِف هذا التاريخ منّا يكفي لك

فلتعلم أنّ مُلك الدنيا لم يبق لسليمان[2].

---

(١) مرحوم بادشاهك روحينه ديمش ارواح
قيلدك ديار قدسي تشريف خير مقدم
دنيا خلافتيني كيمه سپارش ايتدك
كيمي بيلور خليفة من بعد نسل آدم
تاريخ ايدوب ايتمش ظاهر دكالمي بوكيم
سلطان سليمم اولدى صاحبقران عالم.

(٢) جهان بي بقادن روح باكى رحلت ايتدكده
ديمش سلطان سليمان پند ايدوب اوغلى سليم خانه
صقين مغرور اولوب بودولت دنيايه آلدانمه
نه افرى دونه قالمشدر نه خود سام ونريمانه.
سليمم عدل وداد ايت ساكه يزدان بويتر تاريخ
بيلورسين قالمدى باقي جهان ملكي سليمانه

وفي هذه الأثناء، عندما رجا الوزيرُ يقظَ الضمير واللائق حضرة «قزل أحمد لو مصطفى باشا» الذي كان من خدم السّلطان المرحوم والمغفور له، وطلب العناية بخصوص الإحسان عليه من العواطف العلية السلطانية بمعاش التقاعد بطريق ترقيته عارضًا الحالَ على الركاب الهمايوني، وطلب الإذن له من أجل الطواف ببيتِ الله الحرام، وزيارة روضة حضرة سيد الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام، وتضرّع وتوسّل؛ وأعطى مائة ألف آقجة زيادةً عمّا كان يأخذه، حتّى أصبح مُتقاعدًا بمعاشٍ قدرُه ثلاثمائة ألف آقجة، وصدرت تذكرةٌ همايونية بذلك، نصّها: «فليُمنح مائة وخمسين ألف آقجة من أموال الجمرك نقدًا، وليصدر الحكمُ الشريف بتمْليكه مائة وخمسين ألف آقجة من الموضع الذي يريده، ومن مقاطعات الخواصّ التي يُديرها؛ على صورةِ تقاعد». ونال الإذن السّلطاني بالذهاب للحج الشريف، وجاءَ إليه خطٌّ همايوني جاءَ فيه: «فليذكرنا بالدّعاء لنا بالخير، فإنّنا نستمدّ الدعاء والثّناء من سكّان بيت الله». وكان قد قام بإصلاح سراي المرحوم «أحمد باشا» الذي أقامَ به، والذي كان ذا بهاء، وببيع جميع زينةِ وزارته، ووسائلها، وأثقالها، وحول أموالها نقدًا، وكان مجموعُها يقدّر بمائة وعشرة آلاف من العملة الذهبية، وعندما دعا بالصّفاء والشّوق والتوجّه الكامل بالنيّة الخالصة إلى الله قائلًا: «إنْ شاء الله الرّحمن» أعطيت نصيب أوْلادي وأنسابي، وأتمنّى أن أقسّم بيدي نصيبَ فقراء الحرمين في سبيل الله، وأن يدفن جسدي في الأرض المقدسة، فأتمنى أن يتيسّر هذا، وأرجو أن يتيسّر- أيضًا- مجيء طائفة الـ «بوليكه» إلى الروم، وقد حضرت أنا أيضًا- هذا الفقير (سلانيكي)- هذا الموقف، حيث توادع «أحمد لو مصطفى باشا» مع أحبّائه وخلّانه، وتقصّي خيراته وحسناته الموجودة في حي «بولي»، وفي بعضِ الأماكن الأخرى، وقال: «ينبغي أن أتواجدَ الموسم في الشام الشريف، ورحل، وقد قُبِل دعاؤه، وتيسّر له أداءُ فريضة الحجّ الشّريف بناءً على رغبته، وعندما عاد مِن عرفات توفّي، ودفن في قبره المعلا- رحمةُ الله عليه-، وكان المرحوم قد ترك ثلاثةَ أبناء وبنت، والحقّ كان المومأ إليه صاحب دولةٍ من أهل الإنصاف، وصادق القول، ومتديّن في نفسه.

وفي هذه الأثناء، لمّا لم يكنْ رئيس الخزينة داريه- خزينة دار باشي- «يوسف آغا» يقبل النّصيحة من «باب السّعادة»، وجاء ثقيلًا على نفسه أن يصبح «محمود آغا» آغا للباب (قپو آغاسي)، ولمّا لم يخلُ من النوايا العدوانية تجاه الوزير الأعظم؛ تعرّض فجأةً للسّطوة القاهرة السلطانية، وبينما كان حضرات الوزراء العِظام عالي الشّأن خارجين من حجرة العرض الدّاخلية إلى الخارج، صادفوا رئيس الخزينة دارية «الموماً إليه»، فوقف للتّسليم عليهم؛ إلّا أنّ حضرة الوزير الأعظم جذبَ طرفَ قفطانه، وسحبَه وأخرجه خارجًا، وقال لكتخدا البوابين (قپوجيلر كتخداسي) «كلابي آغا»: «أمسكه». فأمسكه ذلك بخفّةٍ وسرعة، وسلّمه للجلاد الذي أرسله لحجرة البوّابين (قبوجيلر اوطه سنه)، ولم يمهله الأمان والزمان، وشنقه، وصدرَ فرمانٌ بتعْيين «مسيح آغا» رئيسًا للخزينة دارية.

وفي أواخرِ العام، وعندما سمعَ أهالي ولاية اليمن بتجديد السلطنة، اجتمعت جماعةُ المفسدينَ المتضجّرين والمشتكين الذين كانوا من أمراءِ، وأمراءِ أمراء المرْحوم والمغفور له السلطان «سليمان خان»، واتّفقوا على العصيان والطغيان، وبينما كان الشخصُ المعروف باسْم «إمام اوغلي مطهر» الذي ادّعى السيادةَ في تلك الدّيار منذُ القدم قائلًا: «إنّني من أولاد الهاشمية». وإنّني على طاعةٍ للسلطان «سليمان» منذُ القدم، وأدير المملكة بدرجةِ «لواء»، وإنني خادم للفرمان السلطاني، فقد خالفَ الآية الكريمة: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾[1]، ولم يعمل بمضمونها، وتجمّع بجواره جماعة من طائفة «قالتبان» المُفْسدين التي كانت عدوّةً للمذهب والملّة، واتّبعوه.

وبينما كان المرحومُ والمغفور له «قره مصطفى باشا زاده رضوان باشا» أميرًا لأمراء اليمن، صدرَ الأمرُ بانفصال ولاية «عدن» عنها ووجّهت ولاية اليمن بمرتبة (بكلربكيليكي) بشكلٍ مستقلّ من مركز الدّولة للشخص المدعو «مراد باشا» فلم يقبل الناس في تلك الدّيار هذا الرّأي الباطل، وتوقّفت العلوفة التي كانت تُعطى

(١) الآية ٥٩ من سورة النساء.

لطائفة الخدم (قول طائفة سي) نظرًا لزيادةِ الأسعار بسبب ضائقة الخزينة، وعندما أعطيت الرّوَاتبُ لطائفة الخدم؛ أشعلوا الفتنةَ قائلين: «إنّ أمير الأمراء الجديد هو الذي تسبّب في هذا الأمر». وبسبب عصيان الرّعايا قُتل بينهم «مراد باشا»، وقبض على قضاةِ الأطراف، وحُبسوا. ولمّا جاءت أخبارُ هذا الاختلال مع الرسل إلى مركز الدّولة، وعُرضتْ على السّلطان، صدر فرمانٌ بعزل «رضوان باشا» وبتعيين «أوزدمور باشا اوغلى عثمان باشا» أمير أمراء الحبش (حبش يكلربكيسي) لمهمّة المحافظة على اليمن بدلًا منه، وعندئذٍ تمّ إرسالُ الأحكام الشريفة بذلك مع الجاويشية المَهَرة.

وبعدَ بضعةِ أيام جاءت العروضُ المفصلة والمشروحة من قِبَل أمير أمراء الشّام (شام بكلربكيسي) حضرة «لالا مصطفى باشا»، فأثارَ بها عرق الغيرة والحمية العُثمانية قائلًا: «أصبحتْ ولايةُ اليمن محتاجةً لفتح جديد، فلم تعدْ خاضعةً للباب العالي، فكيف يبدرُ عنها قلّة الحياء الغربية التي تنقصُ من اسم وشرف الدولة؟». فصدرَ فرمانٌ بأنْ يحرّر منشور منصبِ الوزارة والقائد مع خواص إمارة أمراء مصر؛ حيث خُصّصت الخزينة والمؤن، ومقدار كافٌ من الخدم والمهمات اللازمة مع السعاة إلى أمير أمراء مصر «سنان باشا»، وصدر فرمان من السدة السعيدة بأنْ تسجّل أسماء ألف وخمسمائة رجلٍ تحتَ قيادة آغوات السلحدارية. وأيضًا علوفجية اليمين ببلوكّاتهم، وثلاثة آلاف جًندي من الينى جري برئاسة «زغرجي باشي آغا»، وألف وخمسمائة من طائفة (قول قرداشي) الجدد، وأن تجهّز مهمّاتهم من الخزينة الأميرية، وأنْ يحملوا بسفن الموسم، ويرسلوا لمحافظة «مصر».

وكان حضرةُ حاكم الأقاليم السّبعة السلطان سليم قد أرسلَ تذكرةً همايونية بخطّ همايوني مقْرون بالسّعادة، بشكل مستقلّ إلى كلّ مِن حضرة القائد الأكرم، وأمير أمراء مصر «سنان باشا»، وأصدر فرمانًا لجانب الوزير الأعظم، نصّه: «ينبغي عليكَ أن تهتمّ بالقيام بالمصالح المهمّة كما يجب، وأن ترسل الخطابات بالأحكام الشّريفة مع التّنبيه والتأكيد الصّارمِ إلى المذكورين على أنْ تحثّ فيها على أنْ يكونوا جميعًا متّحدي القلب والوجهة في الأمور الواجبة بخصوص فتح ولاية اليمن، وأنْ يحذروا مِن الإهمال

والتّكاسل في إعداد وسائل وآلات الحرب والضرب، وفي تقديم الخزينة والمؤن والخدم، وألّا يظهروا التقصير والتهاون في الإمداد والإعانة بَرًّا وبحْرًا، وعندئذ لم يتوانَ حضرة الوزير الأعظم دقيقة في السّعي والاهتمام الزّائد بمهمّات أمور الدين والدولة.

وكان قدْ حرّرَ فرمانًا مفصّلًا ومشروحًا لحضرة أمير أمراء مصر (مصر بكلربكيليكي) «سنان باشا»، ونُبّه وأُكّد عليه فيه بالقول: «عليك أن تظهر الاهتمام، وأنْ تبحث كلّ موضوع في وقته، وفي غير وقته، واحذر. وعليك أن تحذر من التّباطؤ والتأخير، وألّا تضيع الفُرصة، وأنْ تتعاونوا بمقتضى الآية الكريمة: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾[1] في إتمام العمل. في أوائل ذي الحجة سنة ٩٧٤هـ/ ١٥٦٧م.

(قصّة توجّه أركان الدّولة إلى أدرنة «المحروسة» بقصد قضاءِ فصل الشتاء وَمَجيء السفير من قِبَل حاكم ديار الشرق «طهماسب»)

لمّا اتّجهت النيّة والعزيمة لقضاءِ فصل الشتاء في «أدرنة» المحميّة بناءً على القانونِ القديم للعاداتِ الحسنة التي اتّبعها حضرة سلاطين «آل عثمان» طاب ثراهم، صدرَ الفرمانُ لأركان الدّولة وأعيان السّلطنة باتّخاذ الاستعدادات للرحيل، وصدر فرمانٌ آخر بأنْ يبدأ أهلُ الديوان والكتّاب وأرباب القلم في الإعداد للاحتياجات اللّازمة، وأنْ يرحل الحرم الهمايوني أوّلًا، وأن تتأخّر الخزينة العامرة مع دفتردار الأموال بعدَهم يومًا بناءً على القانون. وبقي الوزيرُ الذي تدبيرُه لامع كالمشترى القبودان «بياله باشا» لمهمّة حراسة استانبول، وسلّم له مقدارٌ كافٍ من أوراق فرمانات غير محرّرة (بياض طغراء). وأُمر بأنْ يستمع لأصحاب الدعاوى، وأنْ يصدر الأحكام الشريفة، وحلّ عيد الأضحى المبارك بالسرور والحبور. وبعون الله تعالى، وعندما انْقضت تكبيراتُ أيّام التّشريق[2]، وحُدّد اثنا عشر منزلًا إلى أدرنة بجميعِ أركان الدولة، وتمّ الرحيل في يوم الخميس ١٤ ذي الحجة.

---

(١) الآية ٢ من سورة المائدة.

(٢) أيام التشريف: يوم النحر واليوم الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر من شهر ذي الحجة.

وفي أوائل محرم (سنة ٩٧٥هـ/ ديسمبر ١٥٦٧م) أصبحت «أدرنة» المحمية كلّها هادئة مستقرّة في ظلّ مقام السلطنة السلطانية، واجتمع أركان الدولة، وجلس كلُّ واحدٍ بحسب القانون، وتقدّم حكّام الأطراف والنواحي الذين هم في حالة الـ «ملازمت» لإحضار تحف وهدايا الجلوس الهمايوني إلى السدّة التي مدارُها السعادة، وجاءوا، وعرضوها.

وفي هذه الأثناء، أحرز أميرُ أمراءِ مصر «محمود باشا» الظفر على أعدائه القُدامى بولاية اليمن، وفجأة، وبينما كان ينعقد ديوان الوقوف، وبينما كان متوجهًا مع دفتردار مصر من «بولاق» إلى مصر (قلعة الجبل) مع خدامه، أصابته رصاصةٌ عند أحدِ الأماكن الخَربة، وجاء الخبرُ بأنّه قُتل. ولمّا كان الموَمأ إليه شخصًا فظَّ الحديث، وشديدًا في سياستِه وحكمه، وليس له ساعٍ؛ لم يتذكّره أحدٌ بشيء من الرّحمة والشّفقة، وقيل فيه تاريخ «اورنك قولته قوت= ٩٧٤هـ». وأرسل فرمان مع ساعي مِن مركز الدّولة الآستانة من أجل مصادرة مالِه ومناله، وكانت إمارةُ أمراء مصر قد وُجّهت مِن بعده إلى «سنان باشا».

وفي هذه الأثناء، جاءت الأخبارُ على التّوالي والتعاقب من قِبَل أمراءِ أمراء الحدود المنْصورة، نصّها: «سيخرج حاكم «نخجوان» «وروان» سفيرًا من قبل والي ديار الشّرق الشّاه «طهماسب»، وسيأتي». وعندما عرضوا على الرّكاب الهمايوني وأعلموه بأنّه: «بيده رسالةٌ مفصّلة مبلغة بتهنئة السّلطنة وتعزيتها، وأنّه سيأتي بالتحف والهدايا العظيمة، ومعه ألفُ رجلٍ من القزلباش لتقوية أواصر المحبّة والمودّة التي بينهم»، فأُرسلت رسائلُ التّوصيةٍ إلى كلٍّ من أمير أمراء الحدود المنصورة، نصّها: «فليأتِ السّفير إلى «أدرنة» المحروسة، وأُبلغ أيضًا بـ: «ضرورة إعلام السفراء القادمين لمركز الدّولة بموجب هذا الأمر أنّ حضرة السلطان المؤيّد بالسعادة قد تحرّك من مقرّ السّلطنة، وعرش دولته، وهو الآن في «أردنة» المحروسة، وقد صار هذا الخبرُ معلومًا لدى الملوك والحكّام الموجدين في جميع أطراف ونواحي الدنيا. وأنّ السّلطان سوف يستقبل في أدرنة السّفراء القادمين لتهنئته بالجلوس الهمايوني».

ولم يتوانوا دقيقةً واحدة في السّعي والاهتمام برعاية وإكرام السفير المذكور كما ينبغي. وأيْنما مرّ بالمدينة والمراكز المعمورة بها، غنم ونعِمَ بأنواع النعم الكثيرة، وبدا له في كلّ مكانٍ العظمة والجلال السلطاني، وجاء الأسكدار متفقدًا جند أبطال الحرب الذين لا حصر لهم، ولمّا ظهرت له استانبول من ساحل «أسكدار» سلبت شعسعة الملك الفتان صبره وهدوءه، وقال دون أن يتمالك نفسه: «هذه هي استانبول، ماء وجْه ممالك الدّنيا على الأرض وتحت الفلك، فهي لا يدانيها سوى الجنة».

نظم:

لو جاء أيّ أحدٍ إلى البلاد التي قضاؤها العالم

لأمكنـــــه إيجـــــاد مكـــــانٍ فيهـــــا

فعلـــوّ شأنِهـــا ليـــس لـــه شبيـــهٌ

فلتكـــن استانبول سلطانًا عليها جميعًا[1].

نثر:

وقال في الحقيقة إنّها بلدٌ بلا مثيل لها، وبلا نظير، وإنّ عقل الإنسان عاجز وقاصرٌ عن وصْفها وبيانها. ولا يكفي عمْرُ الإنسان لمعرفة مملكةٍ وسلطنة على هذا النّحو، أو السّماع عنها. ومهْما قال أيُّ شخص: «شاهدت مثل هذه السلطنة وعرفتها ووعيتها». يقول عندما يراها غير معقول؛ لأنّها أعظم ألفَ مرّة ممّا علمه وعرفه.

مصراع:

«إنّها فوق درجةِ إدراك البصر»[2].

---

(١) بلادي عالم اكسوان اكر كيم — كليدي بريره امكان اوليـــدي
علو شان ايله يوق شبه يونده — استانبول جملة يه سلطان اوليدي.

(٢) كه نظر فرق ايده جك مرتبه دن اعلادر.

نثر:

الآن، ليحفظها «الحقّ سبحانه وتعالى» من الأنظار العدوانية.

مصراع:

قال: «بحمد الله رأيت بعيني مدينة الكون»[(١)].

ومدحَها السّفيرُ وأثنى عليها، وعندما نزل عند «أسكدار» استقبله الآغا رئيس الجبه جيه (جيه جي باشي آغا) مع ألف رجل مزيّنين ومجهّزين بزيّ الجبة خانة العامرة (جبه خانة عامرة) وجاء، وأركبَه للسفينة الـ «قادرغة لر» التي جُهزت في أسكدار من أجل اسْتقباله، ولمّا تفقّد السفيرُ العساكرَ البحارة المصطفين بالزينة والبهاء، وعلى الخصوص فرق البحارة القراصنة الممتازين، وفائقي الأقران في فن البحر العظيم (بحر عمان) والذين هم على طرازٍ لم يُر مثله، ولم يُسمع به من قبل خصوصًا؛ قام قراصنةُ سفن «الباشدارده» التي تسير بالمجاديف بزلزلة الكفار، وأمّا الأبطالُ المحاربون الموجودون داخلها فقدْ شرعوا في نثر النيران، كما أحدثت مدافعُهم وبنادقهم أصواتَ دويّ انطلق إلى عنان السماء مثل الرعد والبرق، وقال القزلباش الموجودون على سُفن القادرغه: «يا علي مدد»، فصار السفير مذهولًا، وملَكَتْه الحيرةُ والاضطراب. واقتربوا لميناء استانبول قائلين: «الآن هاجَ علينا البحرُ أيّها الغزاة! ابْحثوا لنا عنْ وسيلة، ينبغي أنْ نعرف معدننا «هاي مدد»، ونظم الينى جري فرقهم، وكانت كثرةُ وازدحام ومزاحمة الناس استمرّت حتّى سراي «خنجرلو سلطان» الواقع عند «آت ميداني» الذي أعدّ، وكان الوضع بالمعنى الذي يعبر عنها (المصرع): ليس مُمكنًا بيانُ المعاني التي تلاحظ»[(٢)].

وعلى كلٍّ، فبعدَ أنْ جاء السفير، ونزلَ في استراحته، وأقام بها أرسل الوزيرُ القائم بمهمّة المحافظة على استانبول حضرة «بياله باشا» للضّيف من الأزهار والرّيحان والفواكه الموجودة في ذلك الموسم؛ أشياءَ بلا حدود، وعمل بمضمون قول: «أكرموا

(١) بحمد الله نه مردم تا بجشم خويشتن ديدم.

(٢) ملحوظ اولان معاني ممكن دكل بيانه.

الضّيفَ ولو كان كافرًا». وعندما شاهد مع الحرس (يساقجيلر)[1]، المصطفّين على يمينه ويساره حمّامات الراحة الكثيرة لمدينة استانبول، والجوامع الشّريفة التي هي مثل الجنّة لسلاطين «آل عثمان» العِظام الشأن، وعلى الخصوص جامع «آيا صوفيه» الكبير، ورأى الجامع الشّريف الذي شيّده السلطان «سليمان خان» الغازي، والجامع الذي شيّده المرحوم الغازي «سليم خان» السابق؛ أدّى السفيرُ المذكور سجداتِ الشّكر لله، بعد ذلك قام الوزير صاحب التدبير «قائمقام» استانبول حضرة «بياله باشا» بدعوةِ وضيافة السّفير المذكور، بناءً على أصول الدولة، وعادات السّلطنة؛ حيث قدّم للسفير الخلَع الفاخرة، وجوادًا مجهّزًا حركتُه كريح الصّبا، والأقمشةَ المتنوعة والأمتعة الفاخرة، والأواني الفضيلة، وأكمل لوازمه بأصنافِ التّكريم، ثمّ أرسله بالعزّة والإكرام من منزل إلى منزل؛ حتى «أدرنة» المحروسة، وقدّم الماء والزادَ إلى الـ «شاه قوليخان» ذاته، ولأعوانه وأنصاره الموجودين بجانبه، وبناءً على عادات السفير لبِسَ وارتدى متزيّنًا، وبأمر الله عندما دخلَ لأدرنة المحروسة في أيّام الشتاء الموافق شعبان المعظم سنة خمس وسبعين وتسعمائة/ يناير ١٥٦٨م؛ أصبح الهواء صافيًا كالقلوب المنيرة، ولمّا أشرقت شمس الدّنيا خرج أركانُ الدّولة والأعيان لاستقبال السّفير المذكور؛ بقصد إظهار العظمة والهيْبة الإسلامية، وعلى الخصوص صدرَ فرمانٌ بأنْ يقوم أمير أمراء الروميلي أسد ميدان الوغى، وغضنفر عرْصة القتال، وفارس الميدان الفصيح؛ حضرة «شمسي أحمد باشا» الذي هو مثل الشّمس المشرقة؛ باستقبال السفير المذكور، ومصاحبته. وكان قدْ قيل له: «عليك أن تتحدّث بما هو لائقٌ في أثناء التحاور معه».

ولّما كان «شاه قلونجان» أيضًا شخصًا ذا كلمة، ومعروفًا بين القزلباش، ورجلًا يافعًا، وخانًا مشهورًا بالحديث الطيّب، ومِن الأعيان، وعذبَ الحديث، كان قد عُين مِن قِبَل الشّاه طهماسب لخدمة التّمثيل الدبلوماسي، وعندما قال لحضرة «شمسي باشا» في أثناءِ الحديث: والله إنّ زينة ومظهر وبهاء ورونق هذا الجيش يشبه حفلَ عُرس»؛ أجاب حضرةُ «شمسي باشا» قائلًا: «هؤلاء هُم العسكر الذين أحضروا العروس «تاجلي خاني» من «بلى جالديران»».

---

(١) يساقجيلر: تطلق على الينى جري المكلفين بالخدمات الخارجية وحراسة أماكن السفارات.

ولمّا كان سفراءُ الملوك النصارى الموجودون في الممالك الواقعة في الأطراف والنّواحي قدْ قَدِموا- أيضًا- لإستانبول المحروسة، كان قد أصدرَ فرمانًا باستقبالهم، فقام أوّلًا سفيرُ ملك المجر باستعراض موكبِه بشكل مُنْفصل، ولمّا جاء للموضع الذي وقفَ فيه ألقى واحدًا من جاويشية البلاط العالي السّلامَ عليهم، وبناءً على عاداتهم (السّفراء) خلعوا قبّعاتهم من فوق رؤوسهم، فتقدّم الجاويش مواكبَ كلّ من سفراءِ فرنسا والبندقية، ولهستان (بولندا)، و«الأفلاق والبغدان وأردل»، وعندما قاموا بإجراءِ عاداتهم المذْكورة بناءً على الأسلوب المذْكور، سأل المومأ إليه الشاه «قوليخان» حضرة «شمسي باشا» قائلًا: «هذا الحجمُ مِن موكب الكفّار الذي عندما مرّ أمامنا كان كلُّ فردٍ فيه يخلع خوذتَه من فوق رأسه في وقتٍ واحد، عجبًا ما أدْهشه من منظر؟! أجاب: «إنّها عاداتهم عندما يلتقي بعضُهم ببعض، يرفعون قبّعاتهم بدلًا من إلقاء السّلام، يعني مدح في صورة الخضوع».

وعندما قال «شاه قولنجان»: «ظهر الرّضا والشّكران من أمراء، وأمراءِ أمراء الحدود المنْصورة تجاهنا؛ الحقيقة أنّهم قدّرونا وأكرمونا كثيرًا، فلتكن نعمة السلطان حلالًا على هؤلاء». قال «شمسي باشا» أيضًا: «لو لم تكنْ أنتَ صاحبَ نظرة ثاقبة، وعالمًا بحقائق الأمور؛ لمّا كانوا أرسلوني إليك أنا أيضًا أعرف فهْمَك الحَسن للأشياء، وفراستك، وأتحدّث إليك».

بيت:

كان قدْ قال:

لا يغتمّ المستمع لفهـــم الحديـــث   فلا تبحث عن قوّة الطّبع لدى المتكلم[1]

خلاصةُ القول: إنّهم انْدمجوا في حديثٍ لطيف كامْتزاج السّكر باللبن، وجاءوا لمقرّ الاستراحة والإقامة الخاصّ بهم.

---

(1) فهم سخن كرنكتد مستمع   قوت طبع از متكلم مجـــو.

(مقابلةُ السّفير «شاه قوليخان» بالوزير الأعظم والمشير المفخم حضرة «محمد باشا»)

بعدَ ذلك، وفي اليوم التّالي جاء السفيرُ المذكور لمجلس حضر الصدر الأعظم «محمد باشا»، وقال له: «إنّ حضرةَ الشّاه صاحبَ الكرم يهديك السلام، ويدعو لك، ويقول: نُهدي له (للسّلطان) سلامنا ودعاءنا من أجله، وأنّه صار الوالد، وصاحب الأمر، فلمّا سُلمت السّلطة لصاحب العرش، جعل حكم السلطنة مستقبلًا، فليكن وجهُه مُشرقًا في العالمين، وليكنْ على يدِك نهاية عدوّ الدين، وليحفظ السلطان عرضَ الدّين والدولة سالمًا، وليكن الحقّ- تبارك وتعالى- مُعينَه ومساعده، وليكن جدّي «علي» شفيعَه في ميدان الحشر، وليعينه المرتضى «علي أسد الله» كثيرًا».

وهكذا سمعنا عباراته الغريبة بلغته، ولمّا كان قوله: حقًّا، فليدرج علماء الروم اسمَه الشّريف في ديباجة كلّ كتاب يؤلّفونه، والآن ذكر فضلاء العجم المقيمين في ديارنا، في كتبهم جميعها؛ أنّ هناكَ في هذه الدنيا حالةً واحدة على هذا النحو، وأنه بواسطة وزيرٍ واحدٍ مدركٍ الأمور لم تخرج النّغمة عن عموم اللحن، والحمدُ لله تعالى لم تبل ثيابُ عرض وشرف أهل الإسْلام، ولم تصير خيمة الدّولة ممزقة بحماية سرٍّ وقوّة ومهابة الدولة، وجاءت السّلطنةُ الموروثة لصاحب العرش، ووصلتْ إليه».

قال صاحبُ العزّ والسّعادة حضرةُ الصدر الأعظم «محمد باشا»: «الحمد لله تعالى، تيسّرت بهذا القدر من الغزوات الفتوحات العظيمة، وأصبح صاحبُ الحظّ المغفور له إمّا غازيًا أو شهيدًا في طريق الحقّ، فلحق السلطان سليمان بكثير من الشّهداء، ولكنِ انقلبت الخطبة والسّكة، والآن دخل الربع المسكون زمامَ الحكم تحت قبضةِ إدارة صاحب العظمة والمهابة حضرة سلطاننا، وتحقّق لي قدرٌ عظيم من العلم اليقيني بأنّه ينبغي أنْ ندعو الحق (سبحانه وتعالى) بألّا يحرم هذه الذرية العليّة العثمانية حتّى يوم القيامة من خدمة سلطنة أمة محمد والملة الأحمدية، وليختم بذريّتهم الطاهرة». وذكر كلامًا كثيرًا في هذا السّياق كلّه حكمه، ومهما يكن مِن أمرٍ

فبناءً على عادات الدّولة شربوا الأشربة، وتوادعوا، ثمّ نهضَ السفير، وتوجّه لمنزله في حيّ «قيق» في المحروسة المذكورة، ولمّا كان السفير قد أحضر الكثيرَ من تحفِ ديار الشّرق معه، وسجادة حرير «همداني»، و«در كزيني»، وخانقاه مِن القماش اللباد، وأيضًا الكتب النّفيسة القيّمة، وأهداها إليّ كلّ واحدٍ من وكلاء الدّولة على حده، وذلك بحسب الأصول القديمة، ومن ثمّ أظهر التقرب إليهم، وقصّ عليهم قصصَ الرجال العالمين بالأمور، ومنها قصّة الخان الطيب، وأصبح ما رواه وبيّنه في مجلسهم العالي مقبولًا لدى الناس.

وفي يوم سعيد جاء السّفيرُ المذكور للديوان عالي الشأن، وأقيمت الضيافة العظيمةُ له؛ حيث كان السّفيرُ قد جهّز وأعدّ تحفه وهداياه، فقدمها في الديوان، وعندما أحضر رسالة الشاه العجمي لمقام العرش العالي، وسلّمها؛ قال السلطان الذي كان في عظمة «سليمان»: «أليس حال حضرة الشاه صاحب الكرم طيّبًا؟ أليس هوَ على ما يُرام؟ ولم يقعْ منه كلام آخر. إلّا أنّه بسبب ظهور السطوة القاهرة السّلطانية، لم تعدْ للسّفير قدرةٌ على النّطق، وخرج، ثمّ أقام حضرات الوزراء العظام أدام الله- تعالى- إجلالَهم على الترتيب» الضّيافات للسفير المذكور، وأُجريت كاملُ المَراسم له، ووقّروه وأكرموه، وأنعموا عليه بخيرات كثيرة زيادةً عن الحدّ، وبالدرجة التي لم يحلمْ بها أسيادُ الصين (جين ماچين)، وبلاد «خطاوختن» أيضًا.

وبينما كانت إنعاماتُ وهدايا حضرات سلاطين «آل عثمان» منذ قديم الزمان التي كانت تقدّم لملوك النواحي مدوّنةً جميعها في الكتب والدفاتر التي استمرت تقدّم إلى أقصى حدّ، فإنّه ليس هناك موضعُ شبهة من أنّها كانت بمثابة قطرة من البحر، وذرّةً من الشمس مِن إنعامات هذه المرّة، وخصوصًا أنه ليس هناك حدّ أو غايةٌ لكرمهم وإحسانهم الذي كان يظهر أثناءَ فترات الصّلح مع القزلباش؛ إلّا أنّ طائفة القزلباش بين مخلوقات خلق الله، لا تعرفُ الفضيلة، وغير منصفة، وجاحدة للنّعمة وتعيسة؛ حيث إنّ جميع أحوالهم وأفعالهم مثل اعتقادهم ومذهبهم، والآن نسأل الحقّ تعالى

بأن ييسّر لآل عثمان محْوَ وجودهم الدّنس من صحيفة العالم بسيفِ أهل الإسلام، والاستيلاء على تلك الدّيار من أيديهم، وإسكان أهل الإسلام فيها، وجعلها مملوءةً بأهل السنة والجماعة.. «آمين بحرمة سيد المرسلين وآله الطيبين أجمعين».

(قصّةُ تعيين «سنان باشا» سردارًا لفتح ولاية اليمن)

في سنة ٩٧٥هـ/ ١٥٦٧م، أرسل أميرُ أمراء مصر حضرة «سنان باشا» العروضَ المفصّلة والمشروحة التي تحمل سوءَ النّوايا إلى مركز الدولة؛ حيث قال: «ما حلّ بالخزينة من إتلافات كان بسبب سوءِ تصرّف «مصطفى باشا» لكن لو صدرَ فرمانٌ بالإحسان على خادمكم هذا بمنصب القائد، فإنّه يمكن أن يقتصّ من العدوّ بمصاريف قليلة، وأن تتيسّر له الفتوحات في وقتٍ قليل». ولما قيل: «إنّ «مصطفى باشا» امتنع عن الذّهاب للحملة»، فإنّه في الحقيقة أنّ هذا الاستغناء كان بسبب علمِه بأنّ كيدَ ومكرَ الوزير المومأ إليه «سنان باشا» له أمرٌ بات مؤكدًا، فصدرتْ فرماناتُ المنازل إلى رئيس الجاويشية «بورونز» جاء فيها: «فلتذهب على عجالةٍ من مركز الدّولة مع عشرةِ أفراد من الجاويشية المؤهّلين»، فوصل الجاوش إلى ديارِ مصر، وعندما اطّلع على الأحوال، وأصبح معلومًا له ما حدث. وعرف الشّخص الذي أحدث الفتنةَ والفساد حُرّرت الأحكامُ الشّريفة المؤكدة؛ حتى يلقى جزاءه. ومن ثمّ صدرَ الفرمان بمجازاته، وجاء فيه: «إنّ هؤلاء الأمراء المعروفين باسم «غزالي اوغلي مصطفى باشا»، و«قويروقلو يبلدز» من أمراء مصر، هم سببُ الفتنة؛ حيث نفّذ فيهما الأمر الصادر.

ثمّ أصدر فرمانٌ بالإحسان على «سنان باشا» بمنصب القائد مع الوزارة، وعندما قُرأ أمر منصب القائد الآتي من مركز الدولة؛ امتلأ ديوانُ مصر بعظمة حشمة السّلطنة، ودُقّت الطبول والنّقارة السلطانية، وأُطلقت مدافع الأفراح والابتهالات، ولم يتأثّر موكب حضرة القائد السابق «مصطفى باشا»، أو خدمة المسلحين، والمجهزين من ذوي الاحتشام؛ حيث نصب خيمته على المنزل المعروف باسم «فاتيه»، واستطاع- فقط- التّرحيب من بعيد برئيس الجاويشية «بورونز»،

ووجهت إمارة أمراء مصر (مصر بكلربكيلكي) إلى «چركس باشا»، ووجّه إليه حكمٌ عاجل، نصّه: «عليك التّعجيلُ في التجهيز والإعداد للخدمة التي كلّف بها حضرة السردار «سنان باشا».

وبعوْن الله تعالى، وفي وقتٍ قليل، استطاع أميرُ أمراء مصر تجهيزَ لوازم حملةِ ولاية اليمن كما ينبغي، والحقّ أصبح الحال مبيّنًا ومبرهنًا على أن القائد العالي القدر كان أوْلى من القائد السابق، ولائقًا ومناسبًا لمباشرةِ وتنفيذ الفرمانات السّلطانية، وبالعظمة والهيبة العثمانية، اصطفّ العساكر المدجّجون بالسلاح والمهمّات الحربية، والجنود المصريّون الشّجعان الذين لا يُحصى عددُهم، والمعروفون؛ فرقًا يمينًا ويسارًا، وسار الأبطال الليني جري المسلحين بالبنادق، وسائر الأبطال الذين كانوا في قوّة تمكّنهم من صعق الأسد الذي في حجم الفيل، وسائر الرّجال المظفّرين، وسحبوا المدافع الـ «ضربزنلر»، وعربات المدافع؛ بحيث لم تبصرْ عينُ الأيام الزينةَ والبهاء على هذا الشكل في تلك الديار من قبل، وساروا قاصدينَ أعداء الدين والدولة الذين هُم «زيّدوا المذهب»، وحملوا على السفن معظم مؤنٍ وأثقال وأحمال الجنود الذين شعارهم الظّفر، من جانب البحر قاصدين التوجه صوْبَ قلعة «عدن»، وتوكّلوا على الألطافِ الإلهية، وتوسّلوا بالمعجزات المليئة بالبركات لحضرةِ حامي الرسالة عليه الصّلاة والسّلام، وأمّا عسكر الإسلام، فأثناء ذهابهم بفضلِه تعالى هطلتِ الأمطارُ عليهم في الصحراء كالماء الزّلال، فارتوى العَطاشى، واستحمّوا بالماء، وخلال وقتٍ يسيرٍ وصل عساكر الإسلام إلى الكعبة المعظّمة، وبيت الله الحرام، وغبّروا الوجهَ لمقامها، لكنْ لمّا غلب الرعب والخوف مِن حضوره بذاته لمائدة الضيافة لم يستطعِ التّجرؤ على الحضور، وعندئذ لم تحضرْ طائفة عساكره أيضًا للضّيافة الشريفة، وقالوا: «لم نأتِ هنا للعْقِ صحونه». وسرقوا ونهبوا جميعَ أدوات الضيافة بشكلٍ سَفيه، وتصرّفوا بوقاحة.

وفي الحقيقة، لم يكن هناك تفسيرٌ يخطر بخاطرِ أحدٍ حول خروج هذا القدر مِن الجيش الجرار بالقوّة والقدرة على هذا النّحو من الصحراء، ومجيئه إلى هذه البلاد، ولمّا كان هذا سببًا لحالة من الحيرة والاضطرابِ أصبحت أفكارُ الكثيرين الفاسدة سالمةً وخالية من التصوّرات الباطلة، وعندئذ كان لا بدّ من التزام أسلوب الطّاعة وكظْم الغيظ، فبناءً على الكرم العظيم والاعتبار الزائد الذي قام به حضرة الشّريف بتقديم الخدمات والمساعدات لعسْكر الإسلام، وبذل كلّ ما في وسعه لإحضار الاحتياجات المهمّةِ التي يمكن الحصولُ عليها، وتمّ إحاطة مركز الدّولة علمًا بمرور العسْكر من مكّة المكرمة ذاكرين الكرم، وشاكرين النّعم التي قدمها شريفُها، وذهابهم متوجّهين إلى عدن.

(مجيء مصطفى باشا إلى مركز الدّولة)

وجاء القائدُ السّابق حضرة «مصطفى باشا» أمير أمراء الشام (شام بكلربكيسي) أيضًا إلى مركز الدّولة يائسًا خائبًا، وكان آملًا في كسب العواطف العلية السّلطانية، وبناءً على قيام كلّ مِن معلم سلطان الدنيا «عطا الله أفندي»، و«جلال بك» ببذْل المقدور، وبسعي الجهد الموفور بخصوص العفو عن تقصيرات المذكور متذكّرين له الحقوق السّابقة، والخدمات اللائقة؛ تيسّر للباشا المذكور نيْلُ شرفِ ومرام منصبِ الوزارة ، وذلك في غابات صيد «چتالجه».

(قصّة «عثمان باشا» ابن «اوزدمور باشا»)

نال «اوزدمور باشا» الجركسي الأصل الذي كان أميرًا لأمراء ولاية اليمن والحبشة سابقًا، والتي شهرته تعلو في الآفاق بالبطولة والشجاعة؛ نال التقديرَ والرّعاية في عهد المرحوم الذي مثواه الجنّة السلطان «سليمان خان»، وكان معروفًا بعلوّ الشأن، وبتربية الأبطال، فائق الأقران في مجال الوصول بهم إلى مرتبة اليولداشيه (يولداشلق)، وفي مجال استخدام السلاح برأيه وتدبيره الذي يُخشى في حدودِ ديار العرب،

وعندما رحلَ لدار البقاء أنجب ابنًا محبوبًا في مصر المحروسة، وبقي هذا الابنُ في تلك الديار؛ حيث أصبح المذكور فائق الأقران بنيله منصب أمير سنجاق بالترقية. ولمّا كانت الشجاعة والشهامة والسخاوة والرجولة وديعةً في ذاته التي سمتها الحمية، لم يطرد رجالَ المرحوم والده؛ حيث كافأهم بالقسْطاس بسعي واهتمام بحسب بلائهم في المهامّ التي كلّفتهم بها الدّولة العلية، وبموجب مفهوم قول «الولد سرّ أبيه»، أصبح أمير مملكة حبش بطريق الترقية، وعندما حلّ الضّعف بولاية اليمن ثانية، وصارت تحتاجُ لفتح جديد، كان قد عُين المومأ إليه «عثمان باشا» لمهمّة المحافظة على تلك الولاية قبل وصولَ القائد «سنان باشا» إلى اليمن، وبسبب شجاعته وتدبيره (عثمان باشا) استولى مع رجاله على كثير من القلاع المتينة والحصينة من أيدي أعداء الدين والدولة. لكن عندما وصل السّردارً «سنان باشا» إليها؛ أثار النفوس بالعبارات المثيرة للقلق التي قالها، وجاء فيها: «ربما فتح «عثمان باشا» المذكور قلعة «تغرة» بقصد الاستيلاء على الأمتعة والأسرى». وبينما كان «عثمان باشا» عند المقاطعة بعساكره، أثار القائد «سنان باشا» خصومته، فرحل «عثمان باشا» أيضًا بعساكره وأحماله، وتوجّه صوب جانب مركز الدّولة، وجاء عثمان باشا، ولم يستطع السّكوتَ عن الحديث بما جرى؛ حيث خرج بلا مَهابةٍ من عند عرب البادية، وقدم في مركز الدّولة التحف والهدايا لجميع أركان الدولة، وأظهر التقرّبَ إليهم. وبينما كان يشاهد أساليب وعادات استانبول المحروسة لمدّة أيام كثيرة، ويتجوّل فيها، قضى الطاعون المبارك على كثير من أبطاله اليولداشيه الأشدّاءً بعد ذلك أصبح هو أمير أمراء «لحسا والبصرة»؛ حيث توجّه إليهما في سنة ٩٧٦هـ.

وخلاصةُ القول، في أثناء الفتح والاستيلاء على ولاية اليمن، جاء الخبر إلى مركز الدّولة بأنّ حضرة القائد عالي القدر واجه متاعب ومشاقّ عظيمة، وبحُسن الرّأي والتدبير الصّائب استطاع أن يقضي الشّتاء فيها، فانتصر وقهَرَ عدوّ الدين والدّولة بضمّه القلاعَ بالضرب والحرب والقتل والقتال، وعلى رغم الأعادي، وبعونه تعالى عادَ نائلًا المرامَ بالسّعادة والنصر مع العساكر المنصورة لموسم الحج خلال فترة تقدّرُ بعام وأربعة أشهر منذُ خروجهم من استانبول، وصعد على جبل عرفات،

ووقفَ عليه، فصار حاجًّا وغازيًا، ثمّ عاد مرّةً أخرى إلى ديار مصر عن طريق الكعبة المعظّمة، في سنة ٩٧٦هـ/ ١٥٦٨م.

مِن هذه البشارة السّعيدة التي جاءت فجأة

جاءت ألف بشارة سعادة إلى ملك الروح(١).

(قصّة رئيس الجاويشية (جاوش باشي) مع «كورد أبدال» في «أدرنة»)

وفي هذه الأثناء، كانت الشّكوى من حمية وشرف الأكراد قد صارت مطلب عدلٍ حتّى اليوم بسبب العادةِ الجاهلية التي انتشرت بين الأكراد بخصوص البطل المعْروف باسم «أبدال بك» المذكور الذي كان من الأمراء الأكراد الذين عرفوا واشْتهروا بالشجاعة في أدرنة المحروسة، ولمّا لزم تأديب إبدال بك المذكور، أمر الصّدرُ الأعظم حضرة «محمد باشا» باستدعاء «بكتاش زاده محمد آغا» الذي صار رئيسَ الجاويشية الجديدة، وقال له: «اذهبْ فقد صدر فرمانٌ بالعثور على «كورد أبدال بك» أيْنما كانَ، وحبسِه». ثمّ أمره قائلًا: «عليك بحبسه».

وبينما كان رئيسُ الجاويشية- أيضًا- متوجّهًا مع بعض أفراد الجاويشية لمنزل الأمير المذكور، علمَ أنّ الأمير المذكور «أبدال بك» يجلس في جامعة الشريف ذي الثّلاث شُرَف، ويتلو القرآنَ الكريم؛ فدخل للجامع الشريف، والتقى بالأمير، وقال له: «أمر سلطانك»، ولمّا لمس رئيس الجاويشية يدَ الأمير، أمسك الأمير المذكور بخنجر، وطعنَ رئيسَ الجاويشية في عدّة مواضع من جسده، فقتله، وقام واحدٌ من الأكراد أيضًا بطعْنِ أحد الجاويشية المُرافقين له، وحملوه لمنزله مجروحًا وهو في غيبوبةٍ عن الوعي. وبسببِ هذه الحادثة لم يستطعْ أيّ فردٍ مواجهة الأكراد، وهربوا جميعًا من المدينة إلى خارجها، وتفرّقوا هنا وهناك بهدف النجاة. وعندما أحيط الوزيرُ الأعظم علمًا بما جرى، وأخبر الجاويشية؛ أسرعوا خلفه، ووصلوا مع بعض الأكراد

---

(١) ازين بشارت حزمكه ناكهاني امد
هزار مزده شادي بملك جان امد.

إلى «أبدال بك» عندَ الموضع المعروف باسم «ريحان قيري»، وألقوا القبض عليه، وفي اليوم التالي أحضروه إلى الديوان العالي مربوط الأيدي، وأعدم «أبدال بك» المذكور في الميدان، مع بعض الأشخاص مِن أتباعه، بسبب سوء تدبير رئيس الجاويشية المقتول في سنة ٩٧٦هـ/ ١٥٦٨م.

(قصّةُ وقوع حريقٍ في استانبول في عهد السلطان «سليم خان الثاني»)

في تاريخ سنة ٩٧٦هـ، وقع ذاتَ ليلةٍ بالقضاء الرّباني حريقٌ هائل في استانبول، وبسببِ استمرار اشتعال النّيران يومًا وليلة، لم تخُلْ أبنيةُ طائفة اليهود الطّينية دونَ انتشارها؛ حيث إنّه بالحكمة الرّبانية كانت النيرات تزداد كلّما قصدوا وسعوا لإطفائها، ولّما كانت صحّة آغا الينى جري «جعفر آغا» معتلّة؛ سعت طائفةُ الينى جري لتحقيق منافعها الشّخصية، مُنْتهزين فرصةَ هذا الحريق، وألحقت الأذى بالرّعايا، وبعونه تعالى عانى حضراتُ الوزراء العظام مشقّةً عظيمة في إطفاء الحريق، وعزل الينى جري المومأ إليه «جعفر آغا» صهر حضرة «محمد باشا»، وعيّن الأمير الأوّل للإسطبل «سياوش باشا» بدلًا منه؛ «آغا» للينى جري، وصدر فرمانٌ بالإحسان على سلحدار الخاصّة «قيطاس آغا» المترقي من خدمة السراي بوظيفة أمير الإسطبل، وعلى «جعفر آغا» بعلوفة التقاعد من دفاتر اليومية الهمايونية (روزنامه همايوندن) وأن يدير كلُّ واحدٍ منهم منصبه بحسب طريق ترقيته.

(قصّة توجّهِ الأسطول صوب جزيرة قبرص)

وأثناءَ فتح «جزيرة قبرص»، وعندما نجا رجالُ سلطان الأرض والزمان حضرة السلطان «سليم خان»- طال بقاه ونال مُناه- الذين أرسلهم من أجل إحضار السكر والأرز والجياد وبعضِ التّحف التي أرادها مِن ديار مصر، أثناء ولايته للعهد، نجوا مِن هيجان البحرِ على أثرِ هبوب العواصف الشّديدة، استولى الأعداء الملاعين الذين لا دينَ لهم على جيادٍ وسائرِ أمتعة المسلمين، وذلك في الوقت الذي كانوا فيه في حالةِ صلحٍ مع المسلمين، وقالوا: «إنّ ما فعله وليُّ العهد معلوم». فلمّا أعادوا هذه الأشياء للمسلمين بعدَ كثيرٍ من الإهانة، قامَ حضرة

خليفة المكان والزّمان السلطان «سليم خان» بتعيين حضرة الوزير الثالث «بياله باشا» سردارًا على الأسطول في أواخر سنة ٩٧٧هـ من الهجرة النبوية للنبي r؛ نظرًا لرسوخ عزيمة أخذِ الثّأر في الطابع الهمايوني؛ حيث ألحق بحضرة القبطان «علي باشا» أمراء عشرة سناجق بسباهيتهم، وأمراء مقاطعاتهم (الاي بكلر)، وجهز ألفي جندي محاربٍ من عسكر الينى جري تحت قيادة «زغرجي باشي»، وأربعًا وثمانين سفينة «قادرغة»، و«باشدارده» مملوءة بالأسلحة والمهمات الحربية، وبالعظمة والهيبة حول رؤساء القراصنة (قورصانلر رئيسلر) ذوي الخبرة والدراية الذين تتضح أمامهم الأمورُ كضوءِ الفنار؛ حوّلوا سطح البحر بالأشرعة الملونة كالحدائق في زينة الربيع.

وفي اليوم العشرين من ذي القعدة من السنة المذكورة، وفي وقت مبارك رفعوا الهلبَ من أمام ميناء «بشكطاش»، واستعرضوا الموكبَ أمام السراي العامرة، وأطلقوا مدافعَ الأفراح والابتهالات، ورفع حضرةُ السلطان فاتح الممالك يديْه بالدعاء إلى مقام الغنيّ (سبحانه وتعالى)، وقام جميع المؤمنين بالدعاء بالخير متصايحين بقولهم: «ليكَن النّصرُ حليفًا لعسكر الإسلام أينما كانوا، وليلحق بأعداء الدين القهر والتّدمير في كلِّ زمان». وعندما تواودعوا على هذا النّحو أمّنت ملائكة حضرة الرحمن من الملأ الأعلى بقولهم: «آمين».

ثمّ إنّه بعدَ مرور عشرين يومًا أدّى الوزير «لالا مصطفى باشا» صلاة عيد «ذي الحجّة» في جامع «بشكطاش»، وذبح عسكر الإسلام أضحياتهم الواجبة حسبة لله، وكان جميعُ أبطال الحرب والقتال مستعدّين ومجهزين بوسائل المعارك والقتال؛ حيث خرجت مائة وعشرون قطعةً من سفن الأسطول، وسفن المدافع الـ «ماونة لر» بكاملِ العظمة والمهابة، وهي مملوءةٌ بالأسلحة والمهمات الحربية، وتوادع عسكر الإسلام مع أقربائهم، وانطلق صدى المدافع والبنادق يدوّي في الآفاق.

وقبلَ هذا، كان الوزيرُ الثالث «بياله باشا» والقبطان «علي باشا» قد توجّهَا صوْب جزيرة قبريس.

وفي اليوم الثّاني والعشرين من صفر المظفر سنة ٩٧٨هـ/ يوليو ١٥٧٠م، تجمّعت جميعُ سفن الأسطول الهمايوني أمام جزيرة قبريس، وتلاقت مع بعضها البعض، واقترب جندُ الإسلام للموضع المعروف باسم «طوزله»؛ حيث أقاموا رصيفًا للرسوّ عليه، وحصّنوا كلّ نواحي البحر والبرّ من عدوّ الدين، وبعد ذلك خصّصت بعضُ السّفن من سفن الأسطول الهمايوني لنقل جندِ الإسلام إلى الجزيرة، وبدأ عسكرُ الإسلام- فوجًا إثر فوج- في العبور من ميناء «فتكه» من البر إلى بلاد عدوّ الدين، وبدأ أميرُ أمراء الأناضولي «إسكندر باشا»، وأمير أمراء «قره مان» «حسين باشا»، وأمير أمراء «سيواس» «بهرام باشا»، وأمير أمراء «مرعش» «لالا جعفر باشا»، وأيضًا ابنه «مصطفى باشا»، وأمير أمراء «حلب» «بهرام باشا»، مع جند الإسلام بأسرهم يعبُرون إلى «طوزله» الت ي تقع في الجزيرة المذكورة، ثمّ حطوا بالقربِ من القلعة المتينة والحصن الحصين المعروف باسم «لفغورسه» الواقعة في هذا المكان، وبدأوا في محاصرة القلعة المذكورة من كلّ ناحية؛ حيث نصبوا المدافع، وأقاموا التّحصينات حولها، وشُرع في الحرب والقتال من جانب الفيالق، ولم يكنْ هناك قدرةٌ أو إمكانية لإيصال المساعدات من سائر القلاع إلى الكفار، ولمّا حمي وطيسُ المعركة والقتال الشّديد، واستمرّ لمدّة خمسة وأربعين يومًا متوالية، صارَ الكفّارُ الملاعين- بعوْنه تعالى- طُعمةً لسيف المسلمين البراق، ولمّا كان مثل هذا القتال لم يحدثْ في أيّ هجوم قط، فقد شرب الكثيرُ من أهل الإسلام كأسَ الشّهادة، وأسرعوا لاحقين بالشهداءً إلى دار النعيم، وبشر شهداء الإسلام الأحباب في منامِهم بالفتح والنصر المعهود، وفي الحقيقة تحقّق هذا الفتح والظفر في ذلك اليوم.

خلاصةُ القول، استولى جيشُ الإسلام في هذه الغزوة على أموال الغنائم والأسْرى بصورةٍ لم تُرَ أو تُسمع بمثلها في أيّ تاريخ قط.

(مصراع)

لو كان الشّرح والبيان ممكنًا لكان بدون[1].

---

(١) ممكن اولسه اولوردي شرح وبيان.

(نثر) وفي اليوم الثّاني من هذا الفتح، وبناءً على إرسال الكفار بإرادتهم مفتاح القلعة المعروفة باسم «كزينه»، وانقيادهم للمسلمين؛ استولى المسلمون على القلعة، ولمّا كانت قلعة «ماغوسة» الواقعة على ساحل البحر، والمشهورة بصلابتها والتي كانتْ على أعلى درجات الحصانة؛ اعتمدَ أميرُها اللعين على قوتها وقدرتها بغروره واسْتكباره، ولْم يعلنِ الطَّاعة، فأصبح أسرى الإسلام الموجودين داخلها عجزة وضعفاء، ولا حول لهم ولا قوّة؛ عندئذ- وفي النّهاية- أصبح من الضروري أنْ يقضي جميعُ عسكر الإسلام فصلَ الشتاءِ في الجزيرة المرقومة، وأن يقوموا بمحاصرتها، فنزل فيها القائدُ صاحب الوقار «مصطفى باشا»، وأخذ «بياله باشا» والقبطان «علي باشا» الأسطول الهمايوني، ومع حلول الموسم توجّهوا إلى استانبول سالمين وغانمين، وجاءوا بالصّحة والسلامة ودخلوها.

(مصراع)

وقعَ تاريخ الفتح «استولى الشاه سليم على جزيرة قبرص»[1] (سنة ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م).

(قصّةُ تعيين الوزير المكرّم «أحمد باشا» سردارًا على جانب الروميلي)

في اليوم الرّابع من شهر ذي الحجة من السنة المذكورة/ إبريل ١٥٧١م لمّا عُيِّن الوزيرُ المكرم «أحمد باشا» باليُمن والإقبال سردارًا على جانب البر، خرج أمير أمراءِ الروميلي «لالا حسين باشا» أيضًا بالعزّ والعظمة مع عسكر الروميلي، وألف وخمسمائة جنديّ من اليني جري، وستمائة جنديّ من السلحدارية بكتخداتهم، وجنود علوفجية اليمين بجميع آغواتهم، وتوجّهوا إلى «قبريس»، وسار عسكر الروم ايلي بشكلٍ مستقلّ في نواحي قلاع «قطور»، و«واولكون»، و«بار» الواقعة على امتداد سواحلِ البندقية، وأصبحوا من المُمكن لديهم الالتقاء في المكان الذي أمروا بالتوجه إليه، وعلى الرّغم من أنّ الأماكن كانت ضيقة؛ إلّا أنّها لم تسبّب مضايقة للعسكر؛ حيث رؤي ضرورة

(١) الذى قبرص اطه سن شاه سليم.

السّير بشكل منْفَصل، فليقرن الحقّ- سبحانه وتعالى- جميعَ أمور عسكر الإسلام في كلّ موضع بالشّرع الشّريف وبالنصرة، وليوفقها الله.. آمين.

(قصّةُ بقيّةِ أحداث قلعة «ماغوسة» الواقعة في جزيرة قبرص)

وكان عسكرُ الإسلام قد غزوا مع القائدِ الأكرم الذي حاصر قلعة «ماغوسه» الواقعة في جزيرة قبرص التي فتحت قبل هذا، وجاهدوا بصورة لا يمكن وصفها أو بيانها بالكتابة والشّرح، وفي نهاية الأمر أطلقوا الألغام، وعندما تطاير برج وسور القلعة في الهواء بعدَ ضرب البارود، استشهد رجالٌ كثيرون من الأمراء المشهورين، وسكنوا دارَ الجنان، وبقي في الدّنيا ذكرهم الجميل، فاستشهد من هؤلاء أمير «ملاطيه»، «مقبول فرهاد آغا»، وأمير «عينتاب» «إياس باشا زاده سليمان بك»، وأيضًا «إياس باشا زاده غازي محمود بك»، وكثيرون غيرهم. وفتح جند الإسلام ثغرةً في القلعة المذكورة؛ حيث ألحقوا الكفّارَ المتحصّنين فيها جميعًا بالسيف الذي يسيل نارًا إلى دار البَوار، ولمجازاة أميرهم اللّعين الذي ارتكب الأذى والجور في حقّ أسرى الإسلام بنقضِه العهد مع المسلمين؛ سلخوا جلْدَه تمامًا أمام أعينهم، وبعد ذلك شيّد المسلمون القلعةَ المرقومة بشكلٍ مَتين مُحكَم أكثر ممّا كان، ووضعوا بها عساكر لا حصرَ لهم، وأسلحة ومهمّات كثيرةً، وتمّ تنصيب وتعيين «مظفر باشا» أمير أمراء عليها، ووضعَ بها عددًا من أمراء السناجق، وأيضًا جماعة من جنود القلاع، ومن بلوك المتطوعين- كوكلي بلوكي-، مع آغا الينى جري، وأخذ القائد صاحب الوقار السّفنَ غير اللازمة من سفن الأسطول، وتوجّه بها إلى استانبول؛ حيث جاء بها، ودخل للترسانة العامرة.

(مصراع)

«حمدًا لله تمّ الاستيلاء على جزيرة قبرص»[1] هو تاريخ سنة (٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م)، وحملوا كافّةَ أحمال سفن المدافع، وأحمال سفينة قاليون «محمد باشا»، وجهّزوها، وبينها

(١) حمد لله ينه الندى حصارى قبرسك.

كانوا عائدين سقطتِ النّيران على البارود بالقضاء الإلهي، فاستشهدَ بسبب ذلك رجالٌ كثيرون من عسكر الإسلام، ومن الأسرى أيضًا. ووصلتْ هذه الأخبارُ المشئومة إلى استانبول، وبينما كانت قطعتان من السفن الثّقيلة، ومن سفن المدافع المجهّزة التابعة للأسطول الهمايوني تلوح في الأفق بصحبةِ حضرة القائد صاحبِ الوقار مقتربةً من ساحل السلامة؛ هبّتِ العواصف الشّديدة، وأصبح مِن الضروري استخدامُ حبال البحر لسحبها نحو الشاطئ.

(قصّةُ خروج القائد «برتوباشا» بالأسطول الهمايوني)

في يوم الجمعة الموافق يوم عرفة من شهر ذي الحجة في السنة المَرقومة، ولمّا تمّ تعيينُ الوزير الثّاني «برتو باشا» سردارًا على حملة البحر بدلًا من الوزير «أحمد باشا» الذي عُيّن على جانب البر؛ خرج القبطان «علي باشا» وأدّوا صلاة الجمعة في جامع بشكطاش، وقام عسكرُ الإسلام بالدّعاء متضرعين وراجين مقام المَوْلى عزّ وَجَل، ورفعت سفنُ الأسطول الهلب، وأبحروا، واكتملت سفن الأسطول الهمايوني المتوجّهة مع القائدِ والقبطان في هذه المرّة، علاوةً على السفن التي خرجتْ وذهبت من أجل المهمّات من قبْل، وبلغت جميعها مائة وأربعة وثمانين قطعة، بخلاف الموجودِ في الخارج منها. وفي هذه الليلة، رحل المرحوم والمغفور له العزيز الوجود «يحيى أفندي» قدّس سرّه إلى عالم البقاء- رحمه الله-.

(مصراع)

«رحل قطب العلماء»[1] سنة ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م

(وصولُ خبر عدوّ الدّين، وملاقاته بالأسطول الهمايوني، ووقوعُ الانهزام بالمسلمين بأمر الله تعالى)

في غرّة ربيع الأول سنة ٩٧٩هـ/ أغسطس ١٥٧٠م جاءت الأخبارُ مع رسائل بعضِ الأمراء من البحر، تؤكّد أنّه: «لمّا اتّحد أمراءُ البندقية مع إسبانية اللعينة،

---

(١) ارتحال ايلدى قطب العلماء.

وصرفوا الأموالَ الكثيرة من أجل تجْهيز الأسطول بالاتّحاد والاتّفاق فيما بينهم، وجمعوا المحاربين الأقوياءَ لتجهيز الأسطول؛ عزموا هذه المرّةَ بناءً على عاداتهم الباطلة التربّصَ بأسطول «أهل الإسلام» الخارج إلى البحر، وتعاهدوا واتفقوا، وقالوا سنأخذ ثأر هزيمة جزيرة (قبريس)».

عندئذ أُرسل الجواسيس، وأعلنوا قولهم: «إنّ الغفلة ليست جائزة»، ومن أجل هذا أرسلَ حضرة السلطان حامي العالم «خُلّدت خلافته» تذكرة شريفة بخطّ همايوني لجانبِ كلٍّ مِن حضرة القائد، والـ «قبودان باشا»؛ حيث نبّه وأكّد على كلٍّ منهم بقولِه: «على كلِّ حال، عليك أن تأمر بضرب جزر «ذاكلسه»، و«جوقه»، وأن تترك الغنائم لعسكر الإسلام، وعليك أنْ تحيط علمًا بأخبار الأسطول المشئوم للكفار الأذلّاء، وأن تتوجّه إليه؛ إلّا أنّه بحكمةِ الله عندما مرّ المذكوران على الجزر المذْكورة، ووصلوا إليها، أطْلقوا النارَ على الكفّار، ثمّ وصلوا بعد ذلك أمام البندقية، وعندما تخابروا مع القائدِ «أحمد باشا» المُعيّن على جانب البرّ، والتقوا به، خرج أكثرُ المحاربين من السّفن، وخلت أغلبُ السّفن من العسكر، وقدم الييني جري الذين غنموا الكثيرَ من الخيراتِ الموجودة في الجزر، وعسكر السپاهية، قدّموا الهدايا لقوّادهم، وخرجوا إلى البرّ بالإذن قائلين: «اقتربنا للصّلة- أي من بلادنا-، وفي ذلك الوقتِ لم تكن الـ «تذكرة» السّلطانية قد وصلتْ إلى الأمراء بعد، وكانت ملاقاةُ الأسطول بأساطيلِ الأعداء احتمالًا بعيدًا؛ إلّا أنّه بعد ذلك أحيطوا بخبر صحيح يؤكّد أنّ أسطولَ الكفّار الأذلّاء المشئوم أصبح متربّصًا بالأسطول الهمايوني في عرْض البحر. ولمّا صار وقوعُ الحرب أمرًا مؤكّدًا؛ صارَ من الضروري ضمّ عسكرِ القلعة المحاربين والعزب (عزبلر) الرّاغبين وغير الراغبين من بعض القلاع للأسْطول، وتجهيز مقدارٍ من الرجال للسفن بصعوبة.

وفي يوم الأحدِ الثّامن عشر من جمادى الأولى سنة ٩٧٩هـ/ سبتمبر ١٥٧١م، وفي الوقت الذي كان يُشاهد فيه اليابسُ أمام الجزر؛ اجتمع القائد «برتو باشا» والـ«قبودان علي باشا»، و«خير الدين باشا زاده حسن باشا»، وأمير أمراء «جزايـر غرب»؛ «أولج علي باشا»، وتدابروا

وتشاوروا في الأمر، فقال «أولج علي باشا»: «تعالوا ينبغي أنْ نخرج لعرْض البحر؛ لأنّ البرَّ مكشوف، والحرب بين الجزر تكون كلّها صعابًا، ولكن الـ «قبودان باشا» رأى أنّ العدو ذليل، وقال: «ما أحقرَ الكافر!». ولم يعبأ بالكلام الذي قالوه من أنّه لا يوجد محاربون بقدر كافٍ على السفن، وفي الحال سيّر سفينتَه قبلهم، فَصادف سفينة «ماونة» لأحد الكفار مملوءةً بالأسلحة، وأثناءَ المعركة العظيمة التي دارت استشهد بضربة من دانة بندقية، والتقى أمير عسكر الإسلام بسفينة أحدِ الكفار، وعندما شرعوا في القتال أظهرت معظمُ سفن الأعداء الامتناعَ عن الحرب؛ حيث كانوا يترقّبون جانب البر، ورستْ سفنُهم على البرّ، وأطلق العسكرُ الموجودون داخلها النارَ في الماء، وفي هذه الأثناءِ دخل «برتوباشا» أيضًا لإحدى السّفن من نوع «فرقته»، وتوجّه بها للسّاحل، واستولى «أولج علي باشا» أيضًا على اثنين وعشرين من سفن الجزر، والسّفن التي صادفها من جانبِ البحر، وصار منصورًا ومظفرًا، وعلى الجانب الآخر رسَتِ السّفنُ على البرّ، وهرب العسكر من داخلها، وأصبحت الطائفة المكروهةُ المُبتلاة بسخط الله مأسورةً بالمحنة والمشقة الشديدة، وانتشرت في الصّحراء، وأمر «برتو باشا» بأخْذ السّفن المخذولة والمنهزمة مع بعض قطع السفن التي نجَت، ودخل لمنزله في استانبول نائلًا الدّعاء السيئ لأرباب المصائب.

(مصراع)

وقعَ تاريخ «جاء سدًى وذهبَ سدًى» (سنة ٩٧٩هـ/ ١٥٧١م) والآخر أيضًا يكون تاريخ «خبر واقع» سنة ٩٧٩هـ.

(تتمّة الكلام)

إنّ هذه الخسارة والهزيمة هي التي أظهرتِ الوضعَ بهذه الصورة لأهل الإسلام، فعندما حاصر القائدُ «أحمد باشا» المعيّن على جانب البرّ- ببطولة وشجاعة- قلعتي «اولكونه، وباره»، سلّمَ الكفرة الموجودون داخلها له القلاعَ المذكورة بإرادتهم، وبينما كان أهلُ هذه القلاع متوجّهين لولايتهم بموجب الأمن والأمان الممنوح لهم، وبينما أخذوا وعدًا بموجب هذا العهد والاتّفاق بمغادرتها إلى موضع قريب من ولايتهم؛ إلّا أنّهم جاءوا مرّةً ثانية ناقضينَ العهد، فاستولى المسلمون على أمتعتهم

جميعًا، وقيّدوا أمراءهم (بكلر) وقوّادهم (جنتلوملر) في سلاسل جزاءًا لهم، وقالوا: «نال الذي نقضِ العهدَ جزاءه».

(بيت)

قالوا: اجعلْ يدَ الوفاء في نطاق العهد

واجتهـــدْ حتّى تنمّي العهــــد[1].

خلاصةُ القول: إنّه بسبب سوء تدبير- سواء «برتو باشا»، أو الـ «قبودان باشا»- سجّلت بهذه الصّورة خسة الذين كانوا مع عدوّ الدين.

(نظم)

لا تنقضِ العهدَ، فكلّ مَن نقض العهد

افتقر، وخرجَ كـــلّ شيء من يــده

مَن كان له ميثاقٌ سليمٌ بناءً على عهد «الست»

لا ينقض بأيّ حالٍ كلّ عهد قد عقده[2].

(ذهابُ سلطانِ الإسلام إلى مشتى «أدرنة» المحروسة)

في أواسط جمادى الأولى سنة تسع وسبعين وتسعمائة هـ/ سبتمبر ١٥٧١م، وعندما تفضّل حضرةُ السلطان حامي الخلافة السلطان «سليم خان الثاني» بالتوجه معَ جميع أعيان الدّولة وأركان السّلطنة لمشتى «أدرنة» المحروسة بناءً على العادات المألوفة لأجدادِه العظام، ورحلَ قبله حرمُه الخاصّ المحترمات، خرج السلطان مع الوزراءِ العِظام من استانبول مشتّيًا؛ حيث تلطّف بالتحية على عامّة الناس بتواضعٍ شديد، وودّعه الموالي العظام بكامل الإكرام في التاريخ المذكور.

---

(١) از باد هوا آمد وبرباد هوا رفت.

(٢)	بيان مشكن هر كه بيان بشكست	ازياى در افتــاد وبرون رفت زدســـت
	آنراكـه درست بود بيان الســـت	نشكست بهيچ حال هر عهد كسه بست

وكان ورودُ أخبار الأسطول الموحشة تواترًا وتعاقبًا في اليوم الذي وصل فيه لـ «أدرنة» المحروسة؛ سببًا لتعبه الشّديد، وكان قد خرج من استانبول غالبًا في يوم الأحد الذي وقعت فيه الهزيمة. والله أعلم.

وفي جمادى الآخرة سنة ٩٧٩هـ/ أكتوبر ١٥٧١م، لمّا أعلموا بأنّ كلّ مِن حضرة «أحمد باشا» المعيّن سردارًا على جانب البرّ، وأمير أمراء الروميلي قد فتحوا قلاع «اولكون، وبار» واستولوا عليهما، صدر الفرمان بأنْ يقضي أحمد باشا الشتاء في «سلانيك»، وأمر بإصلاح القلعة المرقومة، وصدر فرمان آخر بتعيين أمير أمراء الجزاير «علي باشا» قبودانًا، وصدر إليه أمرٌ جاء فيه: «فلا يقلْ أحد «أولج» وليكتب «قليج علي باشا»»، وأرسلت لرئيس الديوان «فريدون بك» بشارة منصب القبطان (قبودانلق)، وصدر فرمانٌ باستعادة أبناء «علي باشا» الذي استشهد، والذين كانوا أسرى ورهناءَ في أيدي الكفّار مع أمتعتهم، وصدر الأمرُ بعزل «برتو باشا» إلى الأبد، فإنّ الهزيمة التي وقعتْ كانت بسبب سوءِ التّدبير والطمع الفج، ولمّا صارَ مدبّرو أمور المملكة متّحدي النّية والوجهة من أجل «قضاء ما فات»، شرعوا في تجهيز الأسطولِ العظيم بنيّة الغزو الأكبر في غرة جمادى الآخرة.

(الشّروعُ في تجهيز الأسطولِ الهمايوني بنية الغزو وقصد الكفّار)

ففي غرّة شعبان الشريف سنة ٩٧٩هـ/ ١٥٧١م، وفي الوقت الذي جاء فيه المومأ إليه القبطان «قليج علي باشا» باثنين وأربعين سفينة «قدرغه، وباشدارده، وقاليته»، ودخل لاستانبول المحروسة؛ توجّه مباشرةً إلى الترسانة العامرة؛ حيث بدأ في التّجهيز لإنشاء سفنِ الأسطول الهمايوني باهتمام عظيم، وبذل المال وصرف المقدور من أجل إنشاء سفن «قادرغه لر» التي اعتيد علَى إنشائها منذ القدم في الأطرافِ والنّواحي، وكونَ الأوجاقات في الأماكن التي من المُمكن تكوين الأوجاق فيها، وكلّما اكتملتِ القوّةُ لكلّ واحدٍ من حضرات الوزراء العظام- أدام الله إجلالهم- في تجهيز السفن، قصد الغزو والجهاد في سبيل الله وإعانة الدين المبين، فقد بذلوا جهدًا جهيدًا في إرسال الأحكام الشريفة المؤكدة مع الجاويشية والسعادة إلى رعاية المملكة من أجل قطع

الأخشاب من نوع «كراسته» من جانب «آغاج دكزي»، وفي إخراج أموال العوارض، وضريبة الـ «كوركجي» من المالك المحروسة، من أجل بناء أربع أو خمس سفن من نوع «باشدارده»، وفي إرسال الرجال لذلك، وبعونه تعالى لم يضيعوا الوقت، وبعد مائة وعشرين يومًا أصبح سطح البحر مثل النوروز[1] السلطاني مملوءًا بمائة وأربعة وثلاثين قطعة سفينة من نوع «قادرغه، وباشدارده» التي تدور بالمجاديف، والمجهّزة بالمقاتلين، وآلات الحرب والقتال، وأحاطَ أبطال اليني جري، ورعايا البلوك (بلوك خلفي) مع العساكر الشجعان، والمؤهّلين؛ أحاطوا الأسطول الهمايوني بالعظمة والهيبة، وظهروا هذه المرّة بصورة يعجزُ العقلاءُ وذوو الكمال الذين لديهم درايةٌ بهذه الأمور عن شرحها، ووصْفِها.

الحمدُ لله تعالى، فبناءً على حُسْن الرأي والتدبير من الوزير المدبر، شوهِدَ أحدُ الأعمال التي جعلت أعداء الدّين والدولة حيارى، ومذهولين، وفي الحقيقة أنّ الحقّ- سبحانه وتعالى- أدّبَ أهلَ الإسلام بأيدي الكفار الخاسرين، لكن كان تأديبًا معنويًّا، وكأنّه علّق الإرادة الأزلية والمشيئة الـ لم يزلية لإظهار القوة والقدرة التي منحها للدولة العثمانية.

وفي ربيع (نوروز) سنة ٩٨٠هـ/ ١٥٧١م قام خدمُ باب- قبوخلقي- القبودان «قليج علي باشا» المومأ إليه، والينى جري، وأمراء السناجق الذين سارعوا للخروج للحملةِ الخاصّة في عرْض البحر بجميع سباهيتهم؛ برفْع الهلب من أمام «بشكطاش»، وأطلقوا مدافعَ الأفراح والابتهالات، وعلى رغم الأعادي صمت آذان، وعُميت أعينُ الفلك بضجيج المدافع والبنادق، فليبارك الحقُّ تبارك وتعالى طريقَهم، وليصيروا غالبين وقاهرين لعدوّ الدين.

مصراع:

(١) النوروز: عيد أول أيام السنة الإيرانية، وهو اليوم التاسع من شهر مارس، ويسمى بعيد الربيع.

قالوا: عزموا النّية للتوجّه صوبَ البحر الواسع؛ ليعمّر الله زورقهم[1].

وذهبوا.

(مجيء خبرِ الكفّار الملاعين الأذلّاء، واستعداد وتهيّؤ عسكر الإسلام للتوجّه صوْبَ قلعة «أناوارين»)

وقبلَ مرور وقتٍ طويل جاءت الأخبارُ تواترًا وتعاقبًا من جانبِ البحر بأن: «الكفّار الأذلّاء لنْ يسرحوا أسطولَهم، وباستعدادهم وتهيؤهم، وأنه ليس هناك احتمالٌ بخروجِ الأسطول الهمايوني، وأنّها فرصة وغنيمة، وبينما كان عدوٌّ الدين والدولة بالحميَة الجاهلية قاصدًا الدّخولَ لميناء «اناوارين» الواقع ضمن الممالك المحروسة، وإلحاق الضّرر بأطراف ونواحي المملكة هناك؛ صدر فرمانٌ من المقام الذي مداره العظمةُ بتعيين حضرة الوزير «حسن باشا» سردارًا على البر، وأن يلحق به أمير أمراء الروميلي «سيواش باشا» دامت معاليه مع أمرائه، وأبطال الروميلي المجهزين والمهيّئين، فصدرَ إليه هذا الأمر، وكان نصُّه: «عليك أن تتعقّب العدوّ بالهجوم»، وبينما كان يبحث في سرعةٍ وعُجالة في كلّ ناحية، فاجأه الكفار الأذلاء في الميناء، فظهر الأسطولُ الهمايوني على سطح البحر، وعندما رأى الكفارُ أعلام جيشِ الإسلام خفّاقة على رؤوس الجبال مثل الشمس التي تنير الدنيا؛ بدا لهم منذ هذا اليوم أنّ ظلمةَ الكفر والضّلال لم تستطع أن تواجهَ نورَ الإيمان، وعندئذ عرف الكفّارُ الملاعين ما أصابهم، وقاموا بالاستعداد للخروج من الميناء، وعلى أثر حدوثِ اضطرابِ أثناء تسليم الميناء تحرّك الشياطين باحثين عن مخرج، وعندما دخلوا بسفنهم تشابكوا لفترةٍ من الوقت فوق جدول ماءٍ على البر؛ حيث وقع جدالٌ بين الأذلّاء. وعندما وصل جندُ الإسلام، واجتمعوا؛ تفرّق الكفار عن ميدان الحرب؛ حيث غلب الخوفُ والخشية على قلوبهم، ولمّا شاهدوا الأسطول الهمايوني قالوا: «إنّها لا بدّ وأن تكون معجزة. كيف ينبغي أن نتصرّف»؟ وبينما صاروا في حالة يأسٍ منع الـ «قبودان

---

(١) صالدى انكينه كوكل زورقن الله اوكاره.

باشا» جندَ الإسلام، ولم يأمرهم بإطلاق المدافع، فلمّا قاربنا الليل افترقنا قائلين: «إنّ البرّ يُرى عنْ قرب، ولن تقع الحربُ على البر، وأن عساكرهم لم تخفْ أحدًا، ولم يبقَ بينهم شخص خبير بالحرب». إلّا أنّه بعد ذلك واجهْنا الحرب، ورأينا سفنَ الكفّار بلا حدّ وبلا قياس تظهر؛ فقلنا احذروا أنْ يحدث نقصانٌ للعرض والشّرف مرّة ثانية، والآن علينا أن نخلّص المملكة من العدو. إنْ شاء الله، سوف نقوم بغزوةٍ عظيمة، فاصبروا». وكان حضرة الـ «قبودان باشا» قد أمرَ بنصْب بعض قطع المدافع على البرّ في المضيق الخارج من الميناء، فاضطرّ الكفّار الدُّناة لترك القلعة والميناء بسبب خوفهم وخشيتهم منها، وإلّا لو لم يحدث ذلك التّدبيرُ لما تحقّق الظفر، ولكان وقوعُ الهزيمة التامّة محققًا، فالحمد لله تعالى كان مُلهمًا بالصّواب، والآن شُيدت في ذلك المكان إحدى القلاع على ساحل البحر الأبيض، وهي على أعلى درجةٍ من الاستحكام ، فصارت تحفة للدنيا.

(بيت)

القلعةُ مُحكمة مثل عهد العشّاق   معاذَ الله هي تذكار من خيبر[1].

(نثر) ولكنّ الـ «قبودان باشا» كان في حالة وهْم زائد، وقال: «لم يبق شخصٌ يمكنُ أن يباشر العملَ من العسكر»، وأغار على سفنِ الكفار الواحدة تلو الأخرى، وبينما كان الكفّار يولّون الأدبار، صاح «قره جه علي بك» قائلًا: «تعالَ يا سيدي! يجب أن نتعقّبهم ببعض السفن، وأنْ نستولي على السّفن التي نلحق بها». لكن الـ «قبودان باشا» لم يأذنْ بذلك قط، وعندما قال: لا يتعقّبهم أحد، وإلّا ينبغي عليَّ أن أعاقبه»، نجا الذين فقدوا الأملَ من حياتهم، وذهبوا. وندم الذين شاهدوهم من قلاع «متون، وقرون» قائلين: «واحسرتاه».

(١) جو عهد عاشقان محكم حصاري   معـــاذ الله زخيبر يا د كـــاري.

(الشّكوى من أحوال الزمان)

في الحقيقة، لمّا غابت الحميةُ في عسكر الإسلام، وحلّ الضعف بالإسلام داخل نفوسهم، وصارَ أكثرهم طالبين حطامَ الدنيا؛ تصرّفوا ناقضين العهد لأقصى درجةٍ بشأن شرف الدين، ولم يتجنّبوا ارتكابَ الحرام قطعًا، وأصبحوا مُستغرقين في المَعاصي، وربّما صاروا يرتكبون العصْيان المطلق، واختاروا المنكرات، وتركوا الأمرَ بالمعروف.

خلاصةُ القول أنّ سببَ هذه الأفعال أنّ حكّامنا لم يكونوا على عدل وإنصاف، ولمّا كان بابُ الرّشوة مفتوحًا، ودخلَ من ذلك الباب سواء غير ذوي الاستحقاق أو الذين لا يعرفون الحقّ، جاء الأداني والأراذل لمقام الحكومة، ونال الجهلة وعديمو الأخلاق الاعتبار، وأراقوا دمَ الكبد سدًى، وصار الذين حصلوا درجة الكمال والمعرفة بنور أعينهم، والأشخاص ذوو الدّراية والتجربة والذين هم أهْلُ العرض؛ صاروا أذلّاء العصر. وتزايد تدريجيًا التغير والتبدّل- أيضًا- في طريق العلماء. أمّا علماءُ الدين فهُم زمرةُ أهل اليقين، ولمّا صار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واحدًا لا فرق بينهما، راح الرعايا يقلّدون العلماء والمشايخ، ولما يحلّ التغيير بهؤلاء، يكون ذلك علامة من علامات يوم القيامة.

(بيت)

تلوّثت روحُ العلماء بالحرص على الدرهم

فلا يصل إليهم إلّا هذه الذلّة التي لا طائل لها

واحسرتاه لقد انْتهى العمر

ولا ينتهي هذا الحرص على الميراث

(قصّة ملاقاة سلطانِ الإسلام مع السيد المحترم نقيب الأشراف)

وفي هذه الأثناء، بسبب الخسارة والهزيمة التي وقعت لعسكر الإسلام، ونتجت عن انْهزام الأسطول؛ أصبح حضرةُ سلطان الإسلام السلطان «سليم خان الثاني»-خلّدت خلافته- حزينًا ومكدّرًا على نحْوٍ جعل ضميره المنير الذي هو مثل المرآة، في ألم واضطراب من مرارة الحزن، وصار مشغولًا بذكْر الله، وبأسمائه قائلًا: «يا فتّاح القلوب، ويا كشّاف الكروب، ويا علّام الغيوب، ويا ستّار العيوب!».

وذاتَ يوم، وعندما قال لصديقه «جلال بك» في أثناء الحديث: «إنّ التشتت الذي حدث لعسكر الإسلام هذه المرّة، لم يكنْ ممكنًا زواله من القلب المليء بالحزن الدائم، وآمل أنّه بمقتضى قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾[1]، ينبغي أن يتيسّر وجه السّرور». قال جلال بك»: «إن التحدّث للداعي لكم «نقيب الأشراف» السّيد المحترم المزيّن بالعرفان والفضيلة تبعث في هذا الوقت بالسرور للغاية على سلطاني صاحب السعادة؛ لأنّ السيد المحترم شخص مبارك جدًّا، وعزيز الوجود، وهو مِن بقية السّلف، ذوي الدّراية والتجربة، وحديثه يبقى في الخاطر، عندئذ قال السّلطان: «حقًّا إنّ صداقتنا به قديمة». وبعد ذلك أرسل تذكرة همايونية لجانب الصّدر الأعظم «محمد باشا»، وأمره قائلًا: «عليك أن تعلمَ حضرة السيد المحترم من أجل نيْل الشرف بمحادثته في قصر جدّي المرحوم «بايزيد خان». فليكن حاضرًا هناك غدًا». فأرسل حضرة الباشا أيضًا تذكرة مع التذكرة الهمايونية لنقيب الأشراف، وأعلمَ المذكور بما جرى.

وفي اليوم التّالي وصل صاحبُ السّعادة السلطان الذي علمه كالقدر للمكان الذي به موعدُ المقابلة، ثمّ إنّه لمّا أعلم تشريف نقيب الأشراف، أصدر أمره: «فليتفضّل». وبعد، روي أنّ السيد المكرم قال: «دخلت الحجرةَ الداخلية التي مجلسها السّعادة، ثمّ قدّمت التحية، وعندما قُمت، قال السّلطان: «تعالَ يا أفندي ، فالعشرة معك أزليّة»،

(١) الآية ٦ من سورة الشرح.

ووضع كرسيًّا أمامه، وأحسنَ عليّ بالإذن الشريف للجلوس، وأشار قائلًا: «إنّ مرادنا الاغتنام بشرف صُحبتكم»، فجاءت الأشربة بالكئوس، وحكى السّلطان والخجلُ غالبًا عليه قائلًا: «إنّ عدم تأثير هيبة الخلافة كان على العدو مُحالًا، فعظمةُ السلطان كانت راسخة»، وفي أثناء تحقيقه وبحثه الحديث الشريف الذي ألفته الفضائل: «عدلُ ساعةٍ خيرٌ من عبادة سبعين سنة»، وضّح السلطانُ النّعماءَ الإلهية التي أحسن بها الحقّ سبحانه وتعالى على السلاطين العظام، ظاهرًا وباطنًا، وبيّن الخير والجزاء الموعود لأمّة محمد المبتلاة بالمعاصي بسبب النفس الأمّارة بالسوء، بالمحنة الجزئية في الدنيا، وبالجزاء في دار العُقبى، وعندما ورد مع سياقِ الكلام قصّة الأسطول الهمايوني، قلت (أنا نقيب الأشراف): إنّه بمصداق قول الآية الكريمة: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[1]. ففي الحقيقة أن أفعال وأقوالَ وأحوال أمّة «محمد» وصلت للدّرجة التي أصبح لازمًا تأديبهم بأيدي الكفار، وأنّ الإرادة الأزليّة للحقّ تعالى تحدث بناءً على مشيئته، ولكن هذا مراد الله بما يعلم اللهُ تعالى في هذا الأمر، أنّه ينبغي أن يحدثَ هذا حتى يرى أعداء الدين والدولة أنّ قوّةَ وقدرة سلطان الإسلام كانت على أيّ درجة، وأن يدركوا هذا، وينبغي أنْ يفهم العساكر المنصورون الذين شعارهم الظّفر، وحضرة السلطان فلكي الوقار أيضًا لماذا مُنحتْ لهم المقدرةُ من جناب عرش العزّة، ومن ثمّ تصبح نعمة ربّ العالمين في إظهار هيبة وعظمة الدّين المبين واضحةً للعيان، وكان ينبغي أن يهجمَ البطل الذي هو كالبرق «برتو باشا» بقوّة وقدرة عضد الإسلام القاهرة على الكفّار الأذلّاء، وينبغي أن يرى الكفّار، ويعرفوا، أنّ السلطان صارت لديه القدرة على إحْضار أسطولٍ همايوني مملوء بالجند الذين لا حصرَ لهم، كذلك الأسطول العظيم القديم. وهذا هو المقصود. وكان هذا الأمر- أيضًا- ليس ممكنًا، ولم يكن يظهر ويتّضح إلّا بواسطة وزيرٍ مُدرك للأمور». ثمّ إنّه وقع بينهم الكلام الكثير نستره درًا المتعلق بتربية الوزير الأعظم، ولمّا سمع ما قاله حضرة السلطان

(١) الآية ٢١٦ من سورة البقرة.

«سليم خان» «أعزّ اللهُ أنصاره وضاعفَ اقتداره؛ حدث لنا شفاء للصدر بسبب مقدمة الحديث الذي بسطه حضرةُ «نقيب الأشراف»، وحلّ بنا السّرور لفترة». ولذلك سجّل هذا الكلام في هذا الموضع.

(احتراقُ المطبخ العامرة، ومخزن المؤن والحلوى)

في شهر صفر سنة ٩٨٢هـ/ مايو١٥٧٤م، وبينما كان يشوي الكباب في المطبخ العامرة، اشتعل الزّيتُ من الصّمام الذي يسدّ قارورة الزيت، واندلعت النيران العالية، وتزايد ارتفاع اللهب، ولم تكنْ هناك قدرة أو إمكانية لإطفائها بأيّة وسيلة؛ حيث وصلت النيرانُ لحجرات الخدم الواقعة في المبنى المواجه، ثمّ سرت لمخازن المؤمن (المأكولات) ومخازن الحلوى، وصار الحريقُ هائلًا، وبسبب ظهور هذا الحريق فجأة، حلّت بالناس الحيرة الشّديدة، ووصل لمكان الحريق جميع الوزراء العظام، وآغا الييني جري، ولم يستطعوا إيجادَ تدبيرٍ لإطفائه، لكن النّيران لم تتجاوز هذا الحدّ لأنّها والعياذُ بالله لم تسرِ إلى السراي العامرة الداخلية، إنّما اعترضها حائط. وحينئذ حضرَ حضرةُ السّلطان حامي العالم لحديقة «بكفور»، فلمّا أحاط علمًا بالأمر، جاء ووصلَ، وعندئذ رآه، وتأوّه، وبكى، وقال مُتشائمًا: «عندما حدثت هذه العلامةُ ذات مرّة لجدّي المرحوم والمغفور له السّلطان «سليم خان»، في مطبخ سراي «أدرنة»، لم يمكثْ هو أيضًا على سرير السّلطنة طويلًا.

خلاصةُ القول: أصبحت أنواعُ التّحف المرغوبة، والأواني الصينية والآلات وسائرُ الأشياء الموروثة من السّلاطين السابقين، والموجودة في مخازن المؤن العامرة، ومخازن الحلوى، والتي مُحال أن يوجد نظيرها؛ أصبحت جميعها هباءً منثورًا، ولمّا غابت شمسُ النّهار مرّة ثانية، ولم تكنْ هناك إمكانية لإنقاذ أيّ شيء منها، وظهرت السّطوةُ القاهرة للحقّ سبحانه وتعالى. ولم تبقَ هناك أيّة حبّة من الزّاد والمؤن التي جهزت لطهي المأكولات، وصارت كأنْ لم تكن. «الحكمُ والبقاء لله الملكِ القهّار»،

وعلى أيّ حال، وحتّى حلول وقتِ المساء، كان قد تمّ إخماد الحريق، وبعدَ بضعة أيّام، جاء الـ «قبودان باشا»، وآغا الينى جري، وآغا استانبول (استانبول آغاسي) لمكان الحريق، وخطّط المعمار سنان مكانَ الحريق، وقسمه على طراز آخر، وصار مكانُه نظيفًا، وضُمّت من أرض ميدان الديوان العالي مسافة ذراعيْن ونصف طولًا، وأضيفتْ للمطبخ العامرة، وتمّ توسيع المطبخ في التّاريخ المذكور.

(قصّةُ حملة الأسطول وقائده الوزير «سنان باشا»، والقبطان «علي باشا» قاصدينَ التوجّه صوْب قلعة «خلق الواد»)

في يوم الثّالث والعشرين من محرّم سنة ٩٨٢هـ/ أبريل ١٥٧٤م، عُين حضرة الوزير المكرّم «سنان باشا» قائدًا على الأسطول الهمايوني، وأُلحق بخدم بابه عسكر لا حصرَ لها من الينى جري، وأمراء السّناجق الساعين لأداء الخدمة في معيّة حضرة القبطانِ «قليج علي باشا» يسّره اللهُ إلى ما يشاء، وأيضًا كثيرٌ من الأمراء المشْهورين، وجيش الأكراد، ورؤساء القراصنة الماهرين من أصحاب الدراية في فن البحر، وخدّام السّفن الذين عاقبتهم الظّفر، وقد صار هؤلاء جميعًا رفاقًا ومتراحمين فيما بينهم بحُسن التّعاون بينهم، وباتّخاذ النيّة والوجهة. وفي يوم السبت، وبينما كان القائد صاحب الوقار «الآصفي»[1] الاعتبار حاضرًا ومنتظرًا مع الوزراء ذوي الاقتدار الموجودين في مركز الدولة، دخل بالخلعة والإذن السلطاني، وغبّر الوجه لمقام سرير السلطنة، وعندما خرج تقدّمه جميعُ أركان الدّولة رافعين علم الإسلام بأنواع الإعزاز والإكرام، وأصناف التّعظيم والاحترام، وذهبوا جميعًا من ميناء «امين»، وحتّى وصلوا أمام «بشكطاش»، وقبل مرور وقتٍ طويل، رفعوا الهلب. وفي الحال رسا الموكبُ أمام السراي العامرة، وأطْلقوا مدافع الأفراح، وعرضوا حاجاتهم لمقام الغنيّ مُناجينه بالدّعاء، ونزلوا أمام الـ «يدي قله».

(١) الآصفي: نسبة إلى آصف بن برخيا وزير سليمان عليه السلام.

وفي اليوم التّالي استراحوا، وأتمّوا إعدادَ كلّ ما كان يتوفّر من بقيّة مهمّات السّباهبة، والعساكر، ولوازم الوسائل والآلات والمؤن التي يمكن الحصول عليها، وأكْملوها، ثمّ حملوها على السّفن. وبعد ذلك رفع البحّارة الذين مرشدهم الهداية؛ الهلب.

(بيت)

قالوا: ينبغي أن نلقي الغمّ في البحر وأنْ نكون مبسوطين على السفينة

أيها يكون الأصدقاء، ينبغي أن نرى الأحسنَ فيهم في هذه اللحظة[1].

(نثر) وأبْحروا رافعين صيحة: «الله الله»، وكانت السفنُ قد رست على الموانى والجزر الواقعة عند القلاع المعروفة باسم «صاقز»، و«جشمه»، و«قزل حصار»، وغيرها، والتي لها بريقٌ على سطح الماء، وعُيّن بأمر القبودان باشا مقدار من العسكر مع خمس عشرة سفينة من أجل مهمّة حماية وحراسة وتأمين الأماكن التي يمرّ منها عدوُّ الدّين، فحاصروا ذلك المكان المُخيف، وسيطروا على المعابر الواقعة على المواضع الخطرة، وعندما اكتملت الاستعداداتُ لم يستريحوا، ولم يضيّعوا الأوقات والأيام، وذهبوا على الدّوام، وعندما وصلوا للميناء وسيع الأطراف والمأمن فسيح الأكناف للقلعة التي بناؤها كالفلك، والمعروفة باسم «آناوارين»، أمر حضرةُ القائد عالي المقدار بنصْب الخيمة فلكية النّطاق بالعظمة والهيبة على ساحل البحر، وفي ميدان الصّحراء حيث يتمّ التّشاور في أحوال المقاصد، وبحث تدبيرِ المطالب، وزيّن ذلك المكان المحبوب بشرفِ قدومه؛ حيث نزل فيه واستراح به بضَعة أيام، وأقام موائدَ الأنعام الكثيرة، والتي لا حصرَ لها؛ للأمراء والأعيان والأكابر، وجميع رؤساء السّپاهية والعساكر الموجودين في الديوان الهمايوني، وزين صحون المائدة الأرضية- على يمينِ ويسار البساط- بأنواع الأطعمة الوفيرة وأصنافِ الأنعمة الكثيرة، وكانت كثيرةً ووفيرة على نحْو أنّهم أكلوَا منها زيادة عن رغبتهم في الأكل، ثمّ ألقوا البقايا،

---

(١) غمى درياية صالوب خرم اولالم كميده

دوستلر تولسه كرك خوش كوره لم بو دميده

وذلك عدا ما يمكنُ حمله، وصارت الوحوش والطّيور والحشرات، والنمل؛ مغتنمةً ومسرورة بالفضلات الكثيرة المتناثرة.

خلاصةُ القول: وبعد أنْ تنالوا هذه الأنعام، وشربوا الأشربة، ورفعت الموائد، وقرأت الأعشار من القرآن الكريم، وقاموا بالشّكر والثناء؛ قُرأ جهرًا وعلنًا في الديوان جليل العنوان «البراءة» السّردارية لحاكم العالم، والمنشور المنيف لازم الإتباع لصاحب التّاج الذي أنعم وأحسن به عليه من السدّة التي علامتها السعادة، والعتبة العليّة الرفيعة المكانة. ومهْما كان من مضمون الفرمان الهمايوني السلطاني، ومفهوم الخطاب الميمون السّلطاني، فقد أصبح معلومًا لدى الأشراف والأعيان جميعًا، ومسموعًا لدى عساكر الممالك؛ ضرورة اجتماع أصحاب الجاه والجلال في أحدِ الأماكن، والالتقاء معًا، وسعيًا للوصول إلى المكان المأمور به، والموضع المقصود إليه، وعلى الرّغم من سعيهم واجتماعهم، وبذلهم جلّ الهمّة في الرحيل من الميناء المذكور، والتوجّه إلى المكان المأمور، لم يكنِ التّدبير الإنساني موافقًا للتّقدير الرّباني، فنظرًا لاختلاف حالة الجوّ نوعًا، وتقلّب حركات الرياح، اضطروا للنّزول عند منزل لطيفٍ وجميل ومباركٍ ومحبوب للنّفوس، أشجاره المنتها، وهواؤه ينعشُ الرّوح، وكان معروفًا باسْم ميناء «انجير»، وهو مِن الممالك الإسلامية، ولما واجَه العساكر الذين مآثرهم الظّفر المشقّةَ لفترة من الزمن بسبب قلّة الماء؛ قالوا: هذه أيضًا عينُ الغنيمة، ونعمةٌ عالية من جانب الحق.

وسعى كلّ شخصٍ منهم لتوفير الماء لنفسه، وعندما اكتفوا جميعًا ورضوا، رُؤي أنّ التأخّر والاستراحة ساعة أو دقيقة ليس مناسبًا، فاستأنفوا المسير فتارة كانوا يجدفون بالمجاديف، وتارةً أخرى بسبب الرّياح المتقلبة، كانوا يعزمون على مصارعةِ البحر الواسع الذي ليس له ساحلٌ كبحر عمان، ومتوجّهين للبحار الواسعة. فقطعوا المنازلَ وطووا المراحل، وخلال سبعة أو ثمانية أيام، مرّوا بالولايات المعمورة والمشهورة من حدود الممالك المنْحوسة التابعة للعين المقرون بالضّلالة الذي دينه ندم وخسارة حاكم «إسبانية»، وبجزر «مسنه»، وبسواحل «جلجليه»، وعندما ظهر مشاة (بياده)

وفرسان (سواري) الكفار الأذلاء والفجار دناة الخلق؛ الذين هُم كالنمل والثّعابين، وخرجوا على ساحل البحر فوجًا فوجًا، بشكل لا يُحْصر؛ مثل الجعل آكل البشر، وشوهدوا، خرجَ عساكر الإسلام ذوو صوت هدير البحْر الهائج من السّفن، وقاموا بالهجوم على تلك الطائفة الملعونة؛ حيث راح الكفّار يفرّون من أمامهم، ويتفرّقون ربما مثلَ كواكب الدب الأكبر.

وخلاصةُ القول: إنّهم لمّا مرّوا من الولاية المنحوسة للّعين المرقوم؛ محوا وخرّبوا قلاعَها وقراها الواقعةَ على ساحل البحر، وقطعوا وأبادوا رياضها وحدائقها، وأحرقوا وأفنَوا حبوبَها ومحاصيلها، وأغاروا على مؤنهم ومأكولاتهم، وألحقوا الضرر بأموالهم وأثوابهم.

وفي اليوم الرّابع والعشرين من شهر ربيع الأول من السنة المذكور/ يونيه ١٥٧٤م الذي يوافق يومَ الثلاثاء، وفي الصحوة الكبرى، وعندما استمرّوا متوجّهين صوْب قلعة «خلق الواد» التي أُسّست وأُقيمت في الطرف الشرقي بالقرب من مدينة «تونس» التي هي فلاكة الأنيس، ومحنة الجليس، بدأ الكفّار أهلُ الضلال والفجار الذين مآلهم الفجورُ السّاكنين داخلها؛ في إطلاق مدافعهم في عرض البحر تدريجيًّا، ولمّا عزموا على المعركة والجدال، وقصدوا الحربَ والقتال؛ عزمت السفن التي نشرها النصرة والبحارة الذين شعارُهم الميمنة على التوجّه صوب ساحل البحر.

وعندما ألقوا الهلبَ ونزلوا، أمرَ حضرة القائد نائل المرام، وقائد العسكر المشهور في الحال، وبلا اختيار؛ بإخراج الخيمة السلطانية والمظلّة التي مدارها السّماوات في الخارج، وبنصبها في الأراضي الواسعة التي لم تصلْ إليها مدافع، والواقعة في مواجهةِ قلعة الأعداء الأشْرار «لعنهم الله إلى يوم القرار»، وعندما خرج الـ «قبودان باشا» المُشار إليه، وجميعُ أمراء الأعلام، والعساكر الذين عاقبتهم الظفر مِن جميع السّفن، ونزل كلُّ واحدٍ في مكانه، وحسب رتْبَته، وأحاط ذلك الضياء للعَساكر الذين عددُهم كالأنجم؛ المكانَ كالهالة المدورة لقرص القمر، وأحسنوا التّدبير، واتّفقوا قائلين: «إنّ قلع هذه القلعة ومحْوَها من فوق وجْه الأرض أولًا سوف يكون مناسبًا».

وكان الكفّار قد بنوا برجَ ماء في الموضع الواقع على طريق العساكر المنصورين بمسافة تبلغ اثنين أو ثلاثة أميال من القلعة المذكورة، وكانوا يظنّون طبقًا لزعْمهم الفاسد، وفكرهم الكاسد؛ أنّه لا يمكن عبور هذا البرج إلى الجانب الآخر، وحتّى يعرض الأعداء جسارتهم وخسارتهم خرج نحو ألفِ شخص مِن الملاعين من مُشاة وفرسان الكفّار المقهورين الموجودين عند السور المذكور خرجوا من البُرج المرقوم، وعندما أصبحوا على مرمى بصر الغزاة المشهورين، والمبارزين الذين شعارهم الحمية ، والمؤيدون بالظفر، أفلت عنان إرادتهم من قبضة صبرهم، وهجموا على وجْه السّرعة عليهم بآلات الحرب والقتال، ووسائل العراك والجدال، ولم يمْهلوا الفرصةَ لأولئك الضّالين الذين مأواهم الضلالة، وأجبروهم بالضّرب والقهر على التّراجع لوكرهم، وعلى الفور، وفي ذلك اليوم السعيد، استولى جندُ الإسلام من أيديهم على برج الماء الذي كان الملاعين والأذلّاء يعتمدون كليًّا عليه، وانتفعوا بمائه الوفير، وارْتوى العساكرُ الذين مآثرهم الظفر، العطاشى بمائه الصّافي، وصاروا فارغي البال ومرفّهين الحال، وبعد ذلك أقاموا التحصينات في الأماكن التي من الممكن فتحها وقلعها وهدمها، من السور المتين، والقلعة التي حلّت بمدارها النكبة، وبدأوا في إطلاق المدافع.

(الفتوحاتُ والآثار التي وقعت في عهد سلطنة السلطان عالي المقام والذي عساكره كالأنجم حضرة السلطان «سليم خان الثاني»)

لم يقمْ خليفة المكان والزمان، وباعث الأمن والأمان حضرة السلطان «سليم خان الثاني» في فترةِ سلطنته بالتوجّه من مقرّ عرش سلطنته مع الوزير المحيط بالأمور إلى أيّة حملة قطّ، وعلى الرغم من ذلك ما مِن ولاية أرسل إليها العساكر المنصورة، إلّا وكانوا يعودون منصورين ومظفّرين، وسالمين وغانمين، فمن مقرّ عرشه الذي يجلس عليه كان يتيسّر له فتح الممالك، الحمدُ لله تعالى. وفي أيامه سعيدة الخاتمة، تيسّرت له ثمانيةُ آثار عظيمة، كان كلّ واحدةٍ منها جديرة بحدوثها في فترة سلطنة واحدة تقريبًا.

أوّلًا: إنجازُ الفتح الجديد لولاية اليمن؛ نظرًا لطغيان «أولاد مطهر» فيها، فبينما عُيّن على هذه الحملة المتّجهة صوْب اليمن الـ «لالا مصطفى باشا» قائدًا مع منصب الوزارة؛ أُخذ من يدِه هذا المنصب، ثمّ أُرسل منشور منصب القائد بالوزارة إلى أمير أمراء مصر حضرة «سنان باشا»؛ حيث تمكّن من فتح القلاع، وضم البلاد مرّةً ثانية بالجهاد العظيم الذي بذله.

ثانيًا: لقد كان بناءُ ثلاثمائة وستّين قبّة على أطراف الحرم المحترم للكعبة المعظّمة؛ سببًا لسكينةِ وراحة الحجّاج ذوي الابتهاج في طواف بيت الله الحرام؛ حيث بُنيت القبابُ المذكورة بيَدِ المعماريّ المشهور ومهندس العصور «خروس ممى» من الأمراء المكلّفين بالمحافظة على الدّيار المصرية. وقد صرف صاحب العصمة حضرةُ سلطان الشمس والقمر من أجل بنائها خمسمائة ألف ذهبية، وأمر بإحضار الماء صافيًا مثلَ الماء الزلال من جبل عرفات الذي هو صخرة صماء، فتمّ ذلك بصعوبة ومشقّة عظيمة جدًّا؛ حيث جرى داخلَ حرم البيت المكرم، وفي البداية كُلّف بهذه الخدمة دفتردار مصر «مهماندار زاده إبراهيم بك»، وبعده عُهدت هذه الخدمة لدفتردار مصر «اتمكجي زاده محمد باشا».

والأثرُ الثّالث: قيام الوزير والقائد الأكرم حضرة «لالا مصطفى باشا» مع العساكر المنصورين بالغزو العظيم، واستيلاؤه بالضّرب والحرب على جزيرة قبرص من أيدي الكفار الأذلاء.

والأثرُ الرّابع: تشييد أحد الجوامع المرصوصة البنيان ذوي الأربعة منارات في «ادرنه» المحروسة على يد المهندس المعماري العالمي العظيم وفائق الأقران «سنان أغا»، وذلك بحسب الأسلوب المرغوب والطّراز المحبور، فكان تحفة للعصر؛ حيث إنّه لم يقدر أو يتيسّر لأحدٍ من سلاطين الدنيا أثرٌ على هذا النحو، وقال الأمراء المشهورون من شعراء الزمان هذا التاريخ، وجعلوه «سحر حلال».

بدايةُ بناء الجامع الشريف في سنة ٩٧٩هـ/ ١٥٧١م، وانتهاءُ بنائه في سنة ٩٨٢هـ/ ١٥٧٤م.

هل هو جامع السّلطان سليم خان بن سليمان»؟

ابحث، علمت في هذا المصراع تاريخ لا يتجاوزه

استخرج من بداية المصراع حتّى نهايته تاريخ هذا الجامع

فلتستخرجه على ألّا يبقى أساسه خلاف التاريخ

إنّ هذا مثل معمي يحتاج إلى دقة ملاحظة، فلا تغفل...

فأيّ أحدٍ يقوم بحسابه يظنّ أنّه خطأ، وألا يخطئه؟[1].

والأثرُ الخامس: لقد مرّت مائةٌ وخمسة وثلاثون سنة على فتح استانبول حتى بلوغ عهد السّلطان سليم الثاني الشريف، فكان رعايا الدّولة يحتشدون في نواحي جامع «آيا صوفيا الكبير»، الشّريف، ويحيطون جوانبه الأربعة بالشكل الذي كان يمنع ضوء الشّمس من الوصول إلى الأرض، ولمّا مضى على بناء مسجد «آيا صوفيا» أكثر من ألفِ عام فقد أصيب بخلل، ومال من إحدى جوانبه مقدار نصف ذراع بمقياس أذرع البناء، وبقي القليلُ حتى يصبح منهدمًا، «بعون الله تعالي»، ألهم حضرة السلطان حامي العالم «أيّده الله وقوّاه» بالصّواب، حيث جاء إليه بنفسه مع أركان الدّولة وأعيان السلطنة والوزراء العظام والعلماء الكرام، فصدر الفرمان بهدم كلّ ما

---

(١) جامع سلطان سليم خان بن سليمان خانميدر

يوقله بو مصراعى تاريخ اكلادم چوق أولمسون

ختمنه بو جامعك تارخى مصارعدن چيقار

هم چيقار تاريخدن كيرو اساسى قالمسون

دقت استر بو معما مثليدر غافل مباش

كيم حساب ايتسه بونى يا كلش صانوب ياكلش

انظر اللوحة رقم ١٣ ، ١٤ ، ص٢٣٦.

شُيد وأُنْشِئ من المنازل والأبنية التي التصقتْ بأطراف ونواحي البناء (آيا صوفيا)، كما صدر الأمر بدفع أقل ثمن لِمَن يدّعون ملكية بعض هذه المباني قائلين: «ملك»، وأصدر السلطان فرمانًا بلسانه المبارك لـ «فوجه معمار سنان»، نصّه: «عليك إقامةُ الأماكن التي من الضروري إقامتُها بإحكام، وتوسيع أطراف المسجد مع تحصينها، فإنّ مرادي إحياء الجامع الشّريف، وجعله «أثرًا خاصًّا»، وقد نال «سنان آغا» التّشريف بالخلعة الفاخرة. وعلى الفوْر شرع في ذلك اليوم في بناء المقامات في كلّ جانب من المسجد. وكانت الفئران وحيوانُ ابن عرس والخفافيش، والدّويبة التي كانت تشغل المواضع الكثيرة داخل الأبنية القديمة؛ كانت كالجيش العَرِم، فصارت متفرّقة في النواحي، حتّى أنّ الذين كانوا يجاورون هذا البناء منذُ وقت طويل لم يروْا وجهَ النوم أو الرّاحة بسبب أضرار الحيوانات الضارة.

والأثرُ السّادس الجليل: إقامةُ الجسر عظيم الهيئة الذي أنشأ داخل البحر فوق نهر «چكمجة كبير» وكانَ المرحوم الذي مثواه الجنّة السلطان سليمان خان» قد صرف على وضع أساسه فقط مائتيْن كيس «آقچه» على يد الدفتردار «كوچك حسن چلبي» ومحاسبجي الروميلي (روم ايلي محاسبه جبيسى)، «خسروبك»، ومن ثمّ أصبح إكماله ميسّرًا لحضرة السلطان «سليم خان». وعندما رآه ذوو العقول صار معلومًا على أي حال كان، وإلّا فإنّ ذلك لا يكون بالبيان والتحرير.

والأثرُ السّابع الجليل: أنّه بينما كان أعداء الدين قد اعتادوا دخول الممالك المحروسة بحيث كانوا يصولون ويخرجون بأسطولهم المنكوب، ويرْتوون بمائها، نظرًا لعدم المحافظة على هذا المكان الذي لا نظيرَ له، والذي يعدّ ماءَ وجه الحياة على سطحَ البحر والمشهور باسم ميناء «أناوارين»، منذُ أكثر من ألف عام حتّى أنّه لم يتيسر المحافظة عليه لأحدٍ من السّلاطين الماضين الذين سعدوا بالجلوس على عرش السّلطنة العثمانية. والآن أنشئت بمعرفة القبطان «على پاشا» قلعة متينة عند مدخل الميناء المذكور، ووضعت بها المدافعُ وعددٌ من رجال القلعة تحت قيادة أمير (دژدار)، وبذلك تمّ حفظُ وحراسة الممالك المحروسة، وتعتبر الآن تحفة العصر.

والأثرُ الثّامن: قلع وقمع «قلعة خلق الواد» التي استولى عليها من أيدي إسبانية اللّعينة بالأسطول الهمايوني حضرة الوزير البطل فاتح ممالك اليمن وعدن، القائد الأكرم «سنان باشا»، والقبطان «قليج على باشا»، وهذه القلعة تعدّ دار الملك لسلطنة المغرب، وهي- أيضًا- قلعة تونس. وكلّ واحدة من الآثار المذكورة تعادل في قيمتها وأهميتها لمملكة.

(فتح قلعة «خلق الواد» ومقرّ عرش تونس بواسطة الأسطول الهمايوني، وإحضار بشارة الفتح سنة[٩٨٢هـ/ ١٥٧٤م])

في غرّة شهر رجب من السنة المرقومة، أحضر كتخذا حضرة «سنان باشا» بسفينةٍ من نوع «قاليته» رسائلَ بشارة الفتح والنصرة المفصلة من قبل كلّ من الوزير الذي شعارُه الشجاعة «سنان باشا» المعيّن قائدًا للعسكر المنصورة المكلفين بالحملة بالأسطول الهمايوني، والقبطان «قليج على باشا»، أحضرها إلى مركز الدولة، وكان مضمونُ الرسائل على هذا النّحو: «فتحت قلعة تونس التي هي مقرّ عرش بلاد المغرب، وأنّه بينما كانت قلعة «خلق الواد» على متانة ورصانة وأكمل تحصين بدرجة فوق الحدّ والغاية، وتأكّد أنّ الطاقة البشرية لا تتحمّل قلعها وهدمها بأيّ صورة قط، اجْتهدوا وسعوا بعوْن العناية الربّانية، والمعجزات المملوءة بالبركات لسيد الدارين الرّسول المكرم r وعلى الخصوص خير أدعية سلطاننا صاحب العظمة، وأيضًا السّعي الدءوب للعسكر الموحّدين، وصارت غزوة عظيمة. ولم ينج أيّ فردٍ من الكفار المحاربين الأذلّاء الموجودين في قلعة «خلق الواد» وفي سائر القلاع، وقهروهم بسيف الإسلام، وأصبح مقرُّهم نارًا سعيرًا «وبعونه تعالي»، أصبح الظفر ميسرًا على قلعة «خلق الواد» بالألغام والهجمات، وبعد أنِ استولى جندُ الإسلام على مستودعات البارود التي استولى عليها أعداءُ الدين، أمرنا بإعداد ووضْع الألغام مرّةً ثانية في كل مكان، بحيث أبعدْنا العساكر المنصورة عن البرّ والبحر لمسافة بضْع فراسخ، ومحوْنا بالألغام القلعة المرقومة، وأفْنيناها حتّى أصبح من المُحال وغير الممكن أن يقيم أيّ فردٍ في موضع فيها مِن بعد»، وعندما قرأت القائمة التي عرضها

الكتخدا على مقام عرش السلطنة، نال الموما إليه الشّرفَ بالخلعة الفاخرة والتّرقيات. في أوائل رجب (سنة ٩٨٢هـ/ أغسطس ١٥٧٤م).

رحيلُ سلطان المكانِ والزمان السّلطان سليم خان من دار الفناء إلى سراي البقاء)

(نثر) في أواخر شهر رجب، امتنع السّلطانُ حامى الخلافة، صاحب الأجناد الذين هُم كالأنجم حضرة السّلطان سليم خان» عالى المقام، امتنع كليًّا عن شرب الخمر، ومجالس السّمر والغناء والطرب، وتاب واستغفرَ الله بألم الحسرة والندم عن جميع الملاهي والمنكرات، وأمر بإحضار «كدوسلى شيخ سليمان أفندي»، الذي كان من معارفِه السّابقين، والذي لم يقابلْه منذُ وقت طويل، وعندما قابله، أمسك يدَ التوبة والإنابة باكي العين، وخلال بضعة أيام، انحرفَ مزاجه الشريف وجسده اللطيف للضّعف والفتور بسبب حزنه وتكدّره، ولم يوافق أو يرضى بأيّ شيء من اتخاذ التدابير أو التّداوي قائلًا: «احذروا فلا بدّ أنّ الحكماء والأطباء سيتحايلون في وصف التدبير والعلاج بالخمر المرّة المذاق التي اعتادوا عليها والأدوية المكيّفة التي تقضي على الرّجال»، ورفض علاج «عرس الدين زاده» رئيس الأطباء وأمر باستدعاء «مصطفى جلبي» الذي كان رئيس الأطباء سابقًا، وعندما جاء إليه قال له السّلطان: «أهكذا يفحص الشّخصُ صديقه»، وقاسَ رئيس الأطباء نبضه المبارك، وبكى، وقال: «بقى القليلُ من العمر يا سيّدي»، في الحقيقة، بسبب ابتلاء دماغه المباركة بتأثير أبخرة المكيّفات القوية، حلّ الضّعف أيضًا بسائر أعضاء رأسه، ولمّا قال الطبيب: «إن علاجَه من مرض فقدان الذّاكرة ضروري»؛ اهتمّ بعلاجه أيامًا كثيرة.

خلاصةُ القول: إنّه في ليلة النصف من شعبان الشريف، وعندما جاء حضرة القائد الأكرم «سنان باشا» مع القبطان «علي باشا» بالعساكر المنصورة، ودخلوا للميناء، انعقدَ الدّيوان في ذلك اليوم على الفوْر، وجهز حضرة سنان باشا» وأعدّ تحفه وهداياه، وقدّمها في الديوان، وعرض جميع الأحوال على سرير السّلطنة، ونال إحسان السلطان، وفي اليوم التّالي، ركب حضرةُ السلطان الذي علمه كالقدر زورقه، ووصل لحديقة التّرسانة، وطلب «شمسي پاشا»، وبكى كثيرًا أثناء مقابلته، ثمّ قام.

وعندما جاء للسراي العامرة صار مضطربًا جدًّا، وعاودَه المرض ثانية، لكنْ.. بينما كان أعيان الدّولة وأركان السلطنة في مباشرة مصالح المسلمين وأمور الدّولة والدين في الديوان الذي عنوانُه العدالة «كما كان»؛ في غرّة رمضان الشريف وفي وقت طلوع الشمس، رحل السّلطان سليم خان الثاني» من الدّنيا المليئة بالعناء، وعزم على الرحيل لسراي الآخرة المملوءة بالصّفاء، وعندئذٍ لم يعلم أحدٌ بهذا السّر، ولكن، بناءً على رأي الوالدة التي ملاذُها العصمة للسّلطان مراد خان»، حفظ جسده في الثّلاجة. فأُرسل بمعرفة الوزير الأعظم المليء بالحزم، الخطاب الذي يحيط علمًا ببشارة السلطنة إلى «مغنسيا» مع «حسن چاوش» الذي كان قد توجّه بخبر بشارة السلطنة من قبل؛ وأبحر القبطان «قليج علي باشا» بسفينة الـ «باشدارده» الاحتياطي، «وبحكمة الله»، لم يصادفه. وكانت السفينة (قاليته) المتواجدة في ميناء «مودانيه» هي سفينة النشانجي «فريدون بك» في يوم الاثنين شهر رمضان سنة ٩٨٢هـ/ ١٥٧٤م.

كانت مدّةُ سلطنة المرحوم السلطان سليم خان ٨ سنوات و٨ أشهر و٨ أيام، وعمره ٥٢ سنة، وأولاده ٩ذكور وإناث «على روايته». وبينما كانت سفينة (قاليته) «فريدون بك» معدّة، وعلى وشك التحرّك، ركب مراد الثالث قائلًا: «إنّه قارب جلبيد جيد». وعلى الفور، ولّما نشر الشراع، وهبّت رياح «لودوس»، حرّك القارب قائلًا: الرياح مناسبة». وفي الحقيقة إنّ الرياح كانت مناسبةً بحكمة الله، لكن نظرًا لهبوبها بشدة، كانت العاصفةُ تسحب القارب، فوصلَ في سبْع ساعات حيث اقترب من ميناء السراي، لكن لّما أصبح المزاج الهمايوني العظيم للسّلطان متكدّرًا جدًّا بسبب حركة القارب في البحر، تقيّأ، وعندما اقتربَ من البرّ وضع تحت رأسه المباركة كيس الحماية من الأمطار، وكان يجلس بجواره «خواجه أفندي»، والـ «جوقدار» والسلحدار. حتّى أنّه طلب ماءً في ذلك الوقت، فلم يتيسّر، فغسل يديْه بماء البحر. وعند حلول الصباح، أرسل لرئيس السفينة لسؤاله عمّا إذا كانت هناك وسيلة للوصول إلى «محمد باشا»، عندئذ وصل السلطان بالصّندال لباب الإسطبل، وعندما أحيط بواب الإسطبل- وربما كان مُعينًا في هذا المكان من قبَل الباشا- علمًا بمجيئه فتح الباب. ولّما وصل البواب إلى مقرّ الباشا لإبلاغه، وأحاط محمد باشا علمًا، أمر

بإعداد الجياد، وإيقاد المشاعل. وهكذا وصلوا لباب الحديقة مباشرة فاستقبلهم محمد باشا، وطلبوا معًا الأشربة المناسبة للمزاج السلطاني، فلمّا وصلت، وتمّ تناولها؛ راقت للمزاج السلطاني، ثمّ نهض السّلطان، ودخل من باب الحديقة، وأمر بفتح الباب الهمايوني بقوّة، حتى دخل من باب السعادة إلى الداخل، ولمّا تمّ جلوسه على عرش السلطنة، قام المنادون في اليوم التّالي بالنداء، وأشاعوا خبرَ الجلوس، وبسبب ذلك تمّ بناء سبيل «چشمه» عند ذلك الموضع الذي خرج منه.

(مجيء وليّ العهد السّلطان مراد الثالث» بالسفينة «قاليته» ليلًا)

في ليلة الثّامن من شهر رمضان الشريف الموافق يوم الأربعاء من سنة ٩٨٢هـ ديسمبر ١٥٧٤م، دخل صاحبُ السعادة حضرة السلطان مراد خان» مع السلحدار وچوقدار وركابدار وخواجه أفندي، وبعض أتباعه أيضًا من ميناء «مودانيه» إلى السفينة «قالتيه» الخاصّة بالنّشانجي «فريدون بك» التي كانت تحمل المؤن، والتي على متنها ثمانية عشر من عمّال التجديف الجالسين، وبسبب الرّياح الشديدة التي هبّت في تلك اللّيلة، رستِ السّفينة في السّاعة السابعة أمام المدافع الموجودة في مقدّمة السراي العامرة؛ وعندئذ أرسل السلطانُ «حسن چاوش» الذي وصل بالأخبار مع قبطان السفينة قاليته المذكورة المدْعو «أحمد» لإحاطة الصدر الأعظم «محمد باشا» علمًا بالوصول؛ وعندما جاء حضرةُ الصدر الأعظم، استراح سعادته في قصر المرحوم السلطان «بايزيد خان»، ثمّ حضر الپاشا بالمشاعل، وغبّر الوجْه بتراب قدم سعادة السلطان، وجاءوا سويًّا للباب الهمايوني، وصدر أمرٌ بفتح الأبواب، ووصَلَا معًا لحرم السلطان الخاص الذي هو عرش سعيد الطّالع، وعندما تفضّل بالجلوس على عرش العزّة؛ غبّر الوجه مرّةً ثانية بتراب قدمِه المباركة؛ ومِن أجل أن يكون هذا الأمرُ العظيم، أي جلوس السّلطان، على أفضل صورة؛ رفع الدّعاء إلى مقام الأحدية وعرش الصمدية متضرعًا ومتأوّهًا، وكان قد بقي على حلولِ الصّباح ثلاث ساعات عندما وصل السلطان لعرش الدّولة. «ربّ تمّ بالخير».

(جلوسُ السّلطان المؤيّد بالسّعادة وحامي الخلافة السلطان مراد خان ابن السلطان سليم خان على عرش السلطنة)

في سحَرِ يوم الأربعاء الموافق الثامن من شهر رمضان الشريف، ارتدى جميع أركان الدّولة وأعيان السّلطنة العباءات، ولبسوا ثيابَ العزاء السّود، وأدّوا صلاة الصبح في جامع «آيا صوفيا» مع عامّة الرعايا الذين أصابهم البلاء، ثمّ حضروا للديوان العالي. وفي الليلة المذكورة أيضًا، أنْهى حضرة السلطان صاحب السعادة حياة خمسة منّا ولاة العهد؛ وارتدى مرّة ثانية لباس المأتم، وانتظر وزراء وأركان الدّولة في قاعة الدّيوان حتّى خروجه للخارج. وفي الساعة الثالثة من اليوم المذكور، نُصب العرش الذي طالعه السّعادة أمام الباب الهمايوني المقرون بالعظمة، وارتدى حضرة السلطان صاحب العظمة رداءًا ذا أكمام طويلة وأزره، وقميصًا من قماش من نوع أطلس المزركش، بنفسجيّ اللون، وخرج مكتملًا في هيئته، وعندما خرج الأغوات وأفراد طائفة الجاشنكيرية على جانبه الأيمن والأيسر؛ ألقى السّلطان السلام على الوزراء، فلمّا جلس على العرش الهمايوني، وقفَ أوّلًا حضرة الصدر الأعظم في موضع السلام، وقام بتعظيم خليفة وجْه الأرض، وعندما غبّر الوجهَ بذيل ثوبه المبارك، وقف السلطان؛ وذلك يكون لائقًا بعرض الوكالة العظمى. وتفضّل السلطان بأداء حقّه في التبجيل «كما هو»، وبعده تقدّم حضرة الوزير الثاني «بيالة پاشا، ثمّ الوزير الثالث حضرة «أحمد باشا»، ثمّ الوزير الرابع حضرة «محمود پاشا»، ثمّ الوزير الخامس حضرة لالا «مصطفى باشا»، ثمّ الوزير السادس حضرة سنان پاشا، وبعده تقدّم أمير أمراء الروميلي حضرة «سياوش پاشا»، وأعقبه حضرة القبطان «قليچ علي پاشا»، ثمّ قاضي عسكر[1] الروميلي «عبد الرحمن أفندي»، ثمّ قاضي عسكر

(١) قاضي عسكر: أعلى منصب شرعي وقضائي في الدّولة بعد شيخ الإسلام، وحتى أواخر عهد السلطان محمد الفاتح لم يكن في الدّولة أكثر من قاضي عسكر واحد، إلا أنه عقب اتساع فتوحات الدّولة قسم هذا المنصب إلى قسمين قاضي عسكر الروم ايلي وقاضي عسكر الأناضول، وكان كلّ منهما ينظر في الأمور الشّرعية والقضائية التي تتعلق بمنطقته في الديوان الهمايوني، كما كان لكل منهما ديوان خاص به للنظر في الأمور المتعلقة بمنطقته والمحولة عن الديوان الهمايوني.

الأناضول «محمد أفندي»، وبعد ذلك «لالا جعفر بك»، ثمّ دفتردار الرّوميلي «لاله عذار زاده أفندي»، ثمّ دفتردار الأناضول «محمد چلبی»، ثمّ دفتردار الشّق الثاني «سنبل أفندي»، و«شهر أميني»، ورئيس أفندي»، ورئيس الجبة جيه، ثمّ شيخ الإسلام ومفتي الأنام «حامد أفندي»، ثمّ قاضي استانبول، وأيضًا علماء الأمّة الذين حضروا، وبعدهم آغوات الركاب الهمايوني، وآغوات البلوكات، وكتخدا جماعة الجاشنكيرية، وكتخدا فرقة المتفرقة، وكتخدا فرقة الجاويشية، وكتخدا البلوكات، وآغا اليني چری مع أفراد الفرق، والـ «سكبان باشى»، وكتخدا الخدم، وكاتب أفندي؛ وعندما اكتمل خواص السلطان، ورؤساء فرق المشاة، والضباط المعروفين بـ «صولاقلر»، واليني جری، والبوابين على الترتيب بكافّة أركانهم؛ سلّم السلطان على أركان الدّولة الذين هم كأتباع الفلك، ولمّا تفضّل بالتشريف للحرم المحترم، جاء الوزراء لقاعة الديوان، وأمر بفتح الدّفاتر، وإخراج دفاتر التشريفات، وأصدر فرمانًا بأن تحرّر دفاتر العطاء والترقيات.

خروجُ تابوت المرحوم الذي مأواه الجنّة السلطان سليم خان

وبعد فترة، حضر النّعش الشريف للمرحوم السلطان سليم خان» وأخبروا المؤذنين، وانتظر وزراء وأركانُ الدّولة عند المَوْضع الذي جلس فيه الأغوات أمام «باب السعادة»، ولمّا مرّت نصف ساعة بتوقيت السّاعة النجومية، خرج السلطان «مراد خان» صاحب السّعادة بردائه القطيفة، البنفسجي، وعندما خرج التابوت بعده، وضعت وصلة من الخشب بين أشجار السّرو، وعندما وضع النّعش الشريف عليها محاذاة القبلة، تقدم لمقام الإمامة المفتي «حامد أفندي»، ووقف على الجانب الأيمن السلطان حامي العالم وبجانبه الوزير الأعظم. ووقف على الجانب الأيسر سائر الوزراء الكرام، وخلفهم أركان وأعيان الدّولة متوجّهين صوْب القبلة؛ وكبّر المؤذنون لأداء صلاة الجنازة على نية رجل أهل لذلك وفقًا لسنّة النبي عليه السلام، وبعد الصّلاة والدعاء وقراءة الفاتحة، تفضّلَ حضرةُ السلطان صاحب السعادة بالتوجه للحرم الشريف، وعندما رفع حضرات الوزراء الكرام النّعش الشريف أوجع الصراخ والبكاء والتأوه، والنحيب؛ الملائكة الموجودين في الملأ الأعلى،

ولمّا خرجوا من السراي العامرة للخارج، تأوّه عامّةُ الرعية وصاحوا حتى أنّهم أوقفوا الجنازة جبرًا، وفي النهاية أحضر ببطء شديد إلى الموضع الذي حفر فيه المرقد الشريف في الساحة الشريفة الموجودة في الجانب الغربي من الحرم المحترم لجامع «أيا صوفيا الشريف»، والذي كان معبدًا قديمًا، وعندما تهيأ القبر الشّريف نصبت الخيمة، وأحاط جوانبها صلحاء الأمّة والمشايخ الكرام حيث انشغلوا بالتسبيح والتهليل. رحمة الله عليه.

(خروجُ جنازة ولاة العهد)

وبعدَ ذلك، جاء من الدّاخل «كتخدا البوّابين» ومرّة ثانية، أخذوا وزراء وأركان الدّولة من الباب الهمايوني للدّاخل، ورفعوا توابيت خمسة من ولاةِ العهد وأدّوا الصلاة عليهم في المكان الذي أدّيت فيه الصلاة على المرحوم السلطان «سليم». كذلك وصل صياح الرّعايا الموجودين في الخارج إلى عنان السماء، وفي هذا اليوم أسمع «الحقّ تعالى جلّ ذكرُه» بكاء وصياح أهل استانبول لملائكة العرش العظيم، وأشهد حكمته وعبرته لذوي الأرواح. وبهذه الصّورة، حملوا بالآه والأنين والذكر والتسبيح الأبرياء والتوابيت إلى الخيْمة التي كان فيها النّعش الشريف «للمرحوم والمغفور له»، فوضعوا اثنيْن منها في ناحية، والثّلاثة الآخرين في النّاحية الأخرى، حيث تلا علماءُ الدّولة في تلك الليلة القرآن العظيم.

(دفنُ ولاة العهد)

في يوم الخميس التاسع من رمضان الشريف، جهزت ستّة قبور شريفة، حيث دفنَ خمسة من ولاة العهدِ عند طرف قدم المرحوم السلطان «سليم»، ولم يخلُ من الزيارة أركان الدّولة وأعيان السّلطنة مع العلماء الكرام، ومشايخ الإسلام، فأحيوا الليالي الشّريفة بالتسبيح والتهليل وتلاوة القرآن الجليل، ولم ينسوا أيضًا أيام الاثنين والخميس حيث كان حضرة السلطان الذي جوده كالبحر يخرج لزيارتهم، فيحسن على العلماء والفقراء بالصّدقات الوفيرة، ويهب ثوابها لأرواحهم الشريفة... «اللّهم تقبّل منه».

خروجُ إنعام الجلوس الهمايوني

وفي يوم السّبت الحادي عشر من شهر رمضان الشريف، انعقد الديوان الأول. وفي هذا اليوم السّعيد، أرسل حضرة السلطان الذي جنده كالأنجم من خزينة الداخل خمسة وسبعين كيسًا من العملة الذّهبية مرّة واحدة من أجل إنعام الجلوس، حيث كان كلّ كيس يحتوي على عشرة آلاف ذهبية، فكان مجموعُهم مائة وعشر كيسًا. وأحسن على طائفةِ الينى جرى بسبعين كيسًا فقط.

(نظم)

وهب الدّنيا، ولم يضع الكـرم فحمـلت كلّ الأعمال اسـمه

صنع من العطاء التّافه كنوزًا وأخرج الضغائن من الصدور[١].

شمشير إسلام» = ٩٨٢هـ/ ١٥٧٤م) هذا هو تاريخ العطاء والإنعام.

ارتداءُ الثياب الشتوية

في يوم الأحد الثّاني عشر من رمضان، ارتديت ملابس الشتاء، وكان تبديل ثياب العزاء عادةً قديمة، وبهذه الوسيلة، جاء جميعُ أركان الدّولة لتغيير الوجه بذيل ثوبِ السّلطان صاحب السّعادة، وأنقذ حضرة الوزير اليقظ الخزينةَ العامرة من المصْروفات، وأظهر كاملَ الاهتمام. وعندما غبّر خدّام السلطنة الوجهَ لمقام العرش العالي أخبره الوزيرُ الأعظم العالي المقام، وأعلمَه بقوله: «فلان خادمك».

(نظم)

أسعـد الناس بعطائه وكـرمه عـمـر الدنيا بإحسانـه

ظهر السّخاءُ على يديه وانتشر أسعد الرعية ونشر الدين[٢]

(١) جهانرا بداد ودهش را مكرد/ همه كاراز بي نام كرد/ از بخشش تهى ساخت گنجينه ها/ برون برداز سينه ها كينه ها

(٢) بداد ودهش خلق را شاد كرد/ جهان را با حساس آباد كرد/ ازو كشت بيدا سخا كسترد‌ى رعيت نوازى ودين برورى

الخروجُ من الحرم الهمايوني

أُخرج رئيسُ الحجرة الخاصّة ورئيس الخزينة من السراي الهمايوني بالتقاعد. وكان رئيسُ البوّابين «قيطاس آغا» أمير الإسطبل من قبل، حيث ترقّى لرتبة أمير أمراء في «نيك»، وترقّى رئيسُ البوّابين الآخر «بهزاد آغا» بمرتبة السنجقية، وأصبح الذواقة (چاشنكير) «رضوان آغا» آغًا لفرقة غرباء اليسار.

(انعقادُ العرضِ الأوّل بحضور السّلطان من أجل تعْمير الكعبة المكرمة)

لمّا كانت أسوارُ الكعبة المعظّمة «شرفها الله» تحتاج للإصلاح، انعقد العرض الأوّل بناءً على إذن «علماء الدين» ببنائها شرعًا.

(الإحسانُ على أركان الدّولة بخلعة التهنئة)

في وقت السّحرِ من يوم الاثنين الموافق الثاني عشر من رمضان المبارك سنة ٩٨٢هـ/ ديسمبر ١٥٧٤م، دخل أوّلًا الـ «صدرين أفنديلر»، وبعدهما الباشوات للحضرة السّلطانية. وفي الحال، أحسنَ بسخاءٍ على أركان الدولة، ومن أجل تبديل ثوبِ العزاء، ألبَسوا الخلعَ الفاخرة أيضًا. ثمّ أحسنَ على حضرة الصدر الأعظم بستة آلاف ذهبية، وبخلعة «سمور» أسود مشغولة بقماشِ «أطلس» الأبيض، وخلعتين فضفاضتين كخلعٍ مُعتادة، وسيف مرصّع، وعلى كلِّ فردٍ من الوزراء بأربعة آلاف ذهبية، وخلعته المُعتادة، وأحسنَ على الدفترداريه وعلى النّشانجي بخمسمائة ذهبية فقط، ولم ينعمْ عليهم بأيِّ قفطان. وفي يوم الثلاثاء، ذلك اليوم السّعيد، غبر أركان الدّولة وأعيان السّلطنة الوجهَ عرفانًا بالإنعامات في ١٤ رمضان الشريف سنة ٩٨٢هـ/ ديسمبر ١٥٧٤م.

خروجُ حضرة السّلطان حامي العالم إلى جامع «آيا صوفيا» لأداءِ صلاة الجمعة

في يوم الجمعة الموافق ١٧ رمضان الشّريف، عندما خرج صاحبُ الوقار والمَهابة حضرةُ السلطان «مراد خان» بالعز والإقبال قاصدًا جامع «آيا صوفيا» الذي كان معبدًا قديمًا لأداء صلاةِ الجمعة، كان ازدحامُ الناس بدرجة لا يمكن شرحها وبيانها.

فعندما وصلَ للجامع الشريف، وجاء لحاشيةِ المقصورة، ألقى السلامَ على جماعة المسلمين بالتّعظيم التّام والتواضع «ما لا كلام» فيه نظرًا لكمال عاطفته السلطانية، وخاصّة عندما أحنى قامتَه الشّريفة للرّعايا في الذهاب والإياب، هتفوا بصوت عال، وكان الرّعايا حتّى ذلك اليوم يروْنَ هذا التّلطيف فقط من السلطان «سليم». وفي هذه المرّة جذبتْ هذه المحبّة التي كانت للمرحوم جذبت إليه هذا المقدار من القلوب.

(تعيينُ «حسن چاويش» القادم ببشارة السلطنة رئيسًا للجاويشية)

في يوم السّبت الموافق الثامن عشر من شهر رمضان الشريف سنة ٩٨٢هـ/ ديسمبر ١٥٧٤م حضر أركانُ الدّولة وأعيانُ السّلطنة إلى الديوان العالي، وبينما كانوا يُطالعون أمورَ الدولة أحسن على «حسن جاوش» الذي كلّف بتبليغ بشارة السلطنة إلى المرحوم السّلطان سليم خان»، وإلى سلطاننا السّلطان «مراد خان»، بوظيفة رئيس الجاويشية، ولكنْ لمّا كان بوسنويَّ الأصل، وكان مبتدئًا على التّو في هذه الخدمة؛ قام كتخدا البوّابين «فرهاد آغا» بتعليمه مراسيم موقعه في الديوان وسائر عادات الديوان الأخرى. وجاء نقيبُ الأشراف السيد المحترم للديوان الهمايوني ومن أجل تقبيل الأيدي المُباركة لحضرة السّلطان الفلكي الوقار، ولمّا كان مسنًّا توجّه الجاويشية، والآغا رئيس الجاويشية وكتخدا البوّابين حتى منطقة «صفالوچنار» التي كان يقيم بها لاستقباله، فاحتضنَ نقيبُ الأشراف الأميريْن رئيس الجاويشية وكتخدا البوابين. وعندما جاء للقاء الوزراء العظام؛ سلّم عليهم، فوقف الوزراءُ الكرام على الأقدام من أجل تعظيمه، ووصل حتّى الموضع الموجود أمامَ الخزينة العامرة، وجلس. ومن أجل تبديل ثوب العزاء للسّلطان جاء أيضًا الـ «لالا» «جعفر بك» للدّيوان العالي لتقبيل يدِ السّلطان، وذلك مقابل الخلْعة الفاخرة التي أحسنَ بها عليه. وعندما دخل لمقابلةِ الوزراء العظام، وألقى السلام عليهم وقف الوزراءُ العِظام على أقدامهم، ثمّ جلس ذلك- أيضًا- أمام الخزينة العامرة، وفي اليوم التّالي الموافق يوم الأحد دخل حضراتُ الوزراء العظام، وأمير أمراء الرّوميلي سياوش باشا والقبطان قليچ علي باشا»، والدفتردار، لمقام العرش العالي لعرض القضايا على السلطان.

(مجيء الأسْرى من قِبَل أمراء حدود بودين)

في يوم الاثنين ٢٠ من الشّهر المذكور سنة ٩٨٢هـ، أرسل أمير «نويغراد» «فرهادبك» من حدود «بودين» خمسة عشر شخصًا من الكفّار لمركز الدّولة كأسرى، فجيء بهم للدّيوان الهمايوني، وحملوا أمام السّلطان. وفي اليوم التالي، الموافق الثلاثاء ٢١ من الشّهر المذكور، بينما كان أركانُ الدّولة وأعيانُ السّلطنة حاضرين في الديوان الهمايوني، قُرئت في حضور الوزراء رواتب جند الينى جرى (يكچرى)، حيث صدر فرمانٌ بإخراجها. وفي مقابل الأنعام: جاء العلماءُ العظام لتقبيل يدِ السّلطان، فأكرمهم واحترمهم.

(خروجُ حضرةِ السّلطان الذي جنده كالأنجم لزيارة القبور)

في يوم الأربعاء الموافق الثّاني والعشرين من الشهر المذكور، في هذا اليوم السّعيد، عقد السلطانُ العالي المقام النية والعزيمة على التوجه لزيارة القبور الشريفة لأبنائه وأجداده الكرام، فقام أوّلًا بزيارة قبر «أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه» بالزّورق، بينما ذهب أركانُ الدّولة لزيارته من البر. ثمّ امتطى السلطان بالعزّ والإقبال لجوادٍ سريع الحركة، ودخلَ به من باب «أدرنة»، فنزل أوّلًا على قبر المرحوم السلطان «سليم خان» عليه الرّحمة والغفران، ومنه توجّه لزيارة قبر أبو الفتح السلطان «محمد خان»، ومنه لقبر عمّه ولي العهد السّلطان «محمد»، ثمّ لقبر المرحوم والمغفور له السّلطان «سليمان خان»، وبعده توجّه لقبر المرحوم السّلطان «بايزيد خان» ثمّ نزل لقبر والدِه المرحوم والمغفور له السّلطان «سليم خان»، وزارهم جميعًا، حيث نزل إلى كلّ قبر، ونزل معه أيضًا الوزراءُ العظام، وعلى الخصوص الوزير الأعظم «محمد پاشا» الذي أرشدَهم عن مقام قبور الأجداد، ويسّر لهم زيارتها.

وفي يوم السّبت الموافق الخامس والعشرين من الشهر المبارك، خرج صاحبُ السّعادة السلطان «خلدت خلافته» منذُ وقت السّحر، وطلب الـ «صدرين أفندلير» حيث اطّلع على قضاياهم، ثمّ طرح إلى قاعة الدّيوان مباشرة، وجلس للاستماع لأمور القضايا الشّرعية، وعرض حضرات الوزراء الكرام أيضًا على مقام عرش السلطنة،

قضايا الدين والدولة، وبسبب الاهتمام الزّائد لحضرة السلطان فلكي الوقار بأمور السّلطنة، وخروجه مبكّرًا للديوان الهمايوني، اطّلع على جميع أحوال الرعايا الفقراء، ولمّا كان عازمًا على تثبيت كلّ شخصٍ في وظيفته، بدأ في مطالعة مصالح المسلمين بسهولةٍ ويُسر.

(الإحسانُ بالتقاعد على «خسرو آغا»

رئيسِ الباب الأوّل الذي كان أميرَ الإسطبل سابقًا)

أحسنَ على خسرو آغا رئيسِ الباب الأوّل، والذي كان أميرًا للإسطبل سابقًا، بوظيفة تقاعديّة بعلوفته ومقاطعته، حيث صدر فرمانُ الترقية بعلوفة قاضي زاده الذي اختار التّقاعد بينما كان قاضي عسكر الروميلي.

(عرضُ وظيفة قاضي المدينة المنورة على حضرة الشّريف أبي نمي القاضي حسين)

لمّا كلّف شيخ الحرم مولانا القاضي «حسين» بمهمّة إنشاء طريق الماء (صوير للري)، وتعمير الحرم المحترم في مكّة المكرمة، أرسلت إليه الأحكام الشريفة بضعَ مرّاتٍ جاء فيها: عليك ببذل الاهتمام تجاه الخدمةِ التي كُلفت بها، حيث استميل بالوعود لإنجازها، وعندما طلبَ وظيفة «قاضي المدينة المنورة» لنفسه، لم تتيسّرْ له. حيث رقيَ لعلوفة المشيخة التي أدارها. وبناءً على عرض حضرة الشريف هذه المرّة، إثرَ انحلال وظيفة قاضي المدينة المنورة، وجّهت للمومى إليه، وأحسن بها عليه، فصدرَ فرمان بأنْ يعود «البيزاده مولانا مصلح الدين» المعزول من هذا المنصب لمركز الدولة.

(خروجُ السّلطان المتديّن إلى جامع آيا صوفيا للصّلاة، وعقده الديوان في اليوم التّالي، وإحسانه بالرّواتب على الخدم)

في يوم الاثنين الموافق ٢٧ رمضان، في هذا اليوم الذي طالعه السعادة، الموافق يومَ ليلة القدر، انعقد الدّيوانُ العالي، وخرجت رواتبُ الـ «رشن»[1] حيث وزعت على جند طائفتي الينى جرى والسپاهية معًا، وراح أصحابُ الخبرة يتحاورون قائلين:

---

(١) رشن: اسم الرواتب التي تعطى لجند الينى جرى عن أشهر رجب وشعبان ورمضان.

لم يعتَدْ أن يكون توزيع العلوفة على هذا النّحو، وأجابوا على القائلين: «لقد كانت العادةُ توزيعَ العلوفة على السّپاهية وغيرهم بعد يومٍ واحد من توزيعها على الينى چرى، وقيل: «سوف توزّع علوفة العيد على هذا النّحو؛ وهذا هو القانون».

(مجيء خدمِ البلوكّات المُطالبين بالعلوفات صائحين إلى الدّيوان بسبب ترقية العلوفات)

في يوم الثّلاثاء الموافق الثّامن والعشرين من رمضان، انعقد الديوان العالي، وحضر حضراتُ الوزراء العِظام وجميعُ أركان الدولة، وجلس كلٌّ حسب رتبته، فلمّا لطّخ الطين ثوبَ أمير أمراء الروميلي (روم ايلى بكلربكيسي) حضرة سياوش باشا سقط منديلُه على الأرض، وبينما كان حضرةُ الوزير الأعظم آتيًا وجد هذا المنديل، فسأل قائلًا: «منديل مَن هذا»؟ وعندما علمَ بأنّه منديل حضرة «سياوش باشا»، أعاده إليه معرفة كتخدا البوّابين، وبعد أنِ استمع حضرةُ السّلطان الذي قدرته كالفلك «أعزّ اللهُ أنصاره» لشكاوى الرّعايا في الدّيوان المعلا، خرج للنّافذة الموجودة في موضع أعلى الوزراء العِظام في القصر العالي، حيث جلس فيها. وبعد وقت قصير ولمّا أتمّ القاضي «عسكر أفنديلر» قراءة وعرض القضايا عليه، قام حضرةُ السّلطان حامي العالم، وتفضّل بتشريف حجرة العرض، ثمّ دخل أركانُ الدّولة لحجرة العرض، وقرأوا عروضهم أمام السّلطان، وجلسوا، وعندئذ جاء خدمُ البلوك للدّيوان هاتفين، وصاحوا قائلين: «إنّ أغواتنا يُريدون أن يعطوا لنا رواتبَنا وترقياتنا ناقصة، فما حقيقةُ هذا الأمر؟»، فخرج حضراتُ الوزراء العِظام أيضًا من قاعةِ الدّيوان للخارج، وراح حضرةُ الوزير الأعظم محمد باشا يتحدّث برطب الحديث قائلًا: «ما الأمرُ أيّها اليوالدشيه؟ قولوا مرادكم، كلامكم على العين والرّأس، «الحمدُ لله» لقد قال سلطاننا- خلّد الله خلافته- إنّ جميع المصالح تجري بناءً على القانون»، عندئذ تصايح جندُ البلوكات القليلة الرّواتب، وقالوا: «لماذا نأخذ العطاءَ معًا، ولا نأخذ الترقية التي قدرها خمس أقچة معًا، ما السّبب في هذا؟» أجاب الصّدر الأعظم بأسلوبِ الاستمالة، وبلسانٍ عذب قائلًا: «أيّها اليولداشيه،

بناءً على القانون القديم تقرّر أن تأخذ الفرقتان الرئيسيتان خمس آقچات، وتأخذ فرقتان أربعة آقچات، وفرقتان أيضًا ثلاث آقچات، وأحضروا دفاترَ السّلطان محمد خان الغازي واطّلعوا على هذا». فصفّق الذين اقتفوا، وسرّوا داعين بالدّعاء الخير، وذهبوا بصفاء الخاطر. ولمّا قال المُخالفون لمراده الكلامَ الرطب واليابس، وانصرفوا، ولم يعطوا الإجاباتِ الشّافية على تلك المقولات، عاد الوزراءُ العظام لأماكنهم في الديوان الهمايوني، وبعد ذلك، أرسل الوزيرُ الأعظم دفتردار الشّق الثاني «سنبل علي أفندي» لتسليم قصورهم بناءً على القانون، وخرج حضرةُ السلطان حامي العالم مرّةً ثانية للنافذة، وجلس على الكرسي، وكان يطالع أحوالَ الديوان الهمايوني، وفي يوم الخميس الموافق يوم عرفة، أصبح الجوّ على درجةٍ عالية من البرودة، حيث كان طقسُ هذا اليوم قاسيًا، فهطلتِ الثّلوج والأمطار، وعان كلّ فردٍ من أركان الدّولة المشقّةَ الكاملة في الوصول لمنزله.

(حلولُ العيد الشريف)

في ليلةِ يوم الجمعة الموافق غرّة شوال، وبالحكمة الإلهية، سكنت العاصفة، وهبّت رياحُ الشّمال اللّطيفة «بويراز»، وذهبت الرياحُ الشّديدة وتجمّعت مياه الأمطار، وحضر أركانُ الدّولة وأعيانُ السّلطنة لمقام عرش سلطنة حضرة السلطان صاحب السّعادة بلا تعب. ولمّا كان الوقت مناسبًا، شاهد أهلُ الدّيوان محيّاه بكلّ راحة، ونصب ما أطلق عليه عديمو الوفاء هؤلاء في كلّ مكانٍ اسم «سرير سلطنت»، نصب في الميدان أمام «باب السعادة» إحياءً للذّكرى، وخلال فترة قصيرة، وبينما كان اثنان من السّلاطين العِظام لولاة العهد ذوي العظمة يقولون: (إنّ هذا العرش ملكي)، رأى الذين كانوا خدمًا قدامى أنّه أصبح تحت إدارة الأغيار، وفهِموا أنّ مآل هذا العرش «سريع الزّوال»، وبكوا حسرةً من القلب. ومن ناحيةٍ أخرى، جاءوا مع مراد بينما كان وليًّا للعهد، فلمّا رأوه على عرش السّلطنة الآن لم يستطعوا معرفته نظرًا لأنّهم لم يرونه على عادته من الفرحة والسرور.

خلاصةُ القول: وصلوا الجامع «آيا صوفيا» حيث أدّوا صلاة العيد السعيد، وعادوا بالعزّة والوقار، وبحسب العاداتِ القديمة، نصبت المائدة السّلطانية، وأقيمت الضيافة العالية لأركان الدّولة، وبعد هذا هبّت رياحُ «لودوس» مرّة ثانية، وصارت العاصفة شديدة.

(تفتيشُ آغا السپاهية (سباهيلر آغاسي) «ولي آغا»)

في غرّة شوال سنه ٩٨٢هـ، بينما كان «ولي آغا» الذي كان أميرَ الإسطبل الصغير (كوچك ميراخور)؛ آغا السپاهية (سباهيلر آغاسي)، فقد رافق الحملةَ أثناء فتح قلعة «خلق الواد»، وبينما كان مكلّفًا للخروج لتلك الحملة، قدّمت الطلبات لأخذ علوفات الذين لم يصلوا، فصدر فرمانٌ بأنْ يقوم المذكور ولي آغا بالتّفتيش على الدفترداريّة، ومن ثمّ تمّ التّفتيش عليهم في منزل رئيس الدّفترداريّة (باشي دفتردار) «لالا عذار زاده أفندي» بمباشرة «مولانا عبد الغني» الذي كان من مدرّسي السلطان «سليم الثاني».

(رحيلُ أمير أمراء حلب (حلب بكلربكيسي) إلى دار الفناء)

في شوال سنة ٩٨٢هـ بناءً على مجيء خبرِ وفاة أمير أمراء حلب (حلب بكلربكيسي) «محمد باشا بن الوزير مصطفى پاشا»، لم يتمالك حضرةُ «مصطفى پاشا» نفسه، وبكى بحُرقة. فقال الوزراءُ العِظام كلامًا طيبًا يتضمّن حِكمًا متعلّقة بالعزاء والسلوى، وأصبح أميرُ أمراء مرعش (مرعش بكلربكيسي) «محمد باشا» المترقّي من رتبة النشانجية، أمير أمراء «حلب»، واطّلع على دفاتر الأموال فيها، حيث حصلَ على مائة وخمسين ألف آقچة من الأموال المسْروقة والمُخفية التي ظهرت، وقام بتسليمها إلى الخزينة العامرة.

(عرضُ المؤلفِ المعروف باسْم منشآت السّلاطين الذي ألّفه أميرُ التّوقيعات «فريدون العصر»)

قامَ «نشانجي فريدن بك» «دام علوه» بتناول الرّسائل التي جمعها ودوّنها «بجد بليغ» في مدّة طويلة، والآراءُ والتدابير الحسنة التي اتّخذها حضرات «آل عثمان» «رحمهم الله» آنذاك في الحَملات والمنازل، ورسائل «نامة همايون» التي أرسلوها

لأعداء الدين، والرّسائل التي كانت تردُ من قِبَل أعداء الدّين والدولة لسدّة السعادة (الآستانة) تناول وجمعَ نحو ألفٍ وثمانمائة وثمانين من رسائل ودفاتر المنازل باهتمام شديد على مدى سنواتٍ طويلة، وبرعايته وإكرامه لأرباب الطّباع الحميدة وذلك في الوقت الذي كانت فيه وقائع ثلاثمائة عام ابتداءً من سلطنة «عثمان خان غازي» إلى هذا الآن»، متروكة «نسيًا منسيًّا»، ومُبعثَرة هنا وهناك، وكذلك رسائل المعاهدات (عهدنامه) الهمايونية التي وُجّهت من قِبَل السّلطنة العثمانية إلى ملوك الكفّار، وملوك القزلباش وحكام ديار الشّرق والعرب، والتي دوّن منها أمور السياسة المتعلقة بأحوال المملكة في فترة سلطنة كلّ سلطان، فلمّا ظهرت للتّبييض، لم يرَ عقلاءُ العصر نظيره، ولم يسمعوا عن مثيله، وصارت مطالعته قوتًا للقلوب، ويقع الأثر حتّى سلطنة سلطاننا السلطان «مراد خان» «خلّده الله» في إحدى عشرة قطعة، يعني أحدَ عشرَ مجلّدًا، بحيث أنّ كلّ مجلد يحوي أحداثَ سلطنة واحدة، ثمّ ضمّنهم جميعًا في مجلّدٍ واحد، و[صار كتاب عظيم الحجم يتجاوز مائتين وخمسين جزءًا، وبناءً على حُسن الخطّ الذي كتب به ومصاريفه العالية التّكاليف، عرض بواسطة الصدر الأعظم «محمد باشا» على الجناب السلطاني في ٩ شوال سنة ٩٨٢هـ/ يناير ١٥٧٥م]. وسُمّي باسم «منشآت السلاطين» الذي يماثل عددُ حروفه تاريخَ السّنة (٩٨٢هـ- بحساب الجمل)، ولمّا لم يحلّ محلّ هذا الأثر أيُّ شيء آخر، لم يكنْ هناك شبهة في أنْ ينال استحسانَ الناس، ولكن بقي عقلاءُ العصر في حيرة بسبب عدمِ إكرامه أثناءَ مقابلته التي لم تكنْ لائقة به.

(وفاةُ الوزير المكرّم المتقاعد «فرهاد باشا»)

في وقت التّمجيد من ليلة السّبت الموافق الرابع والعشرين من شهر شوال سنة ٩٨٢هـ/ يناير ١٥٧٥م، عندما جاء الخبرُ بأنّ الوزير المتقاعد «فرهاد باشا» رحل من هذه الدنيا- دار المحنة- إلى دار البقاء، قام أركانُ الدّولة وأعيان السلطنة بتفريق الديوان منذُ الصّباح الباكر، حيث حضروا جميعًا جنازته، وأدّوا الصلاة عليه في حرم جامع «أبي الفتح السلطان محمد» «طاب ثراه» وهُم في كثرة عظمى، وشيّع الوزراء العظام والعلماءُ

الكرام جنازته حتّى قبره الواقع بالقرب من قبر حضرة «أبي أيوب الأنصاري» رضي الله عنه. وكان الوزير المتوفّى قد ترك خمسةَ أولاد وأختين من حضرة «هُما سلطان» الأخت السّعيدة الطّالع لوليّ العهد السّلطان «محمد». وقد روى أنّه لم يصل من الوزراء لمنصب الوزارة شخصٌ من أهل المعرفة، وصاحب خطّ جميل مثل «فرهاد باشا»، «رحمه الله».

وفي اليوم التّالي، جاء للدّيوان العالي شخصٌ عديمُ الخلق من طائفة أطباء الـ «دونمه» الكذّابين من الإفرنج مع رجال المرحوم فرهاد باشا»، وادّعى بقوله: قد حدث غدرٌ وظلمٌ لأفندينا، غدر به الطبيبُ «قوجه شجاع» من أجل خاطر أعيان الدولة، فأعطاه علاجَ «مترويطوس»، فلمّا أمر السّلطان بقوله: لا بدّ من بحث هذا الأمر»، صدرتْ تذكرةٌ همايونية بذلك من قِبَل السّلطان الذي شعاره العدالة، وبناءً عليها أُحضر «المومأ إليه» وهو الطّبيبُ «قوجه شجاع» مع رئيس الأطباء «عرس الدين زاده»، وسائر الأطباء العاملين في مركز الدولة؛ إلى الدّيوان الذي ملاذه العدالة، حيث استمعت دعواهم في حضور الوزراء العِظام والصّدريْن (صدر الأناضول والروميلي) فاتفق «رئيس الأطباء» وسائرُ الحكماء على القول بأنّه: «كان المرحومُ مبتلًى بمرض الكلى والمَثانة لفترةٍ تجاوزت العامين، وقامَ كلُّ واحدٍ منّا بإعطائه علاجًا مفيدًا لمرات كثيرة، فمرضُه معلومٌ لدينا. وقد كُتب في جميع كتب الطبّ بأنّ «مترويطوس» هو العلاج النّافع للكلى. لكنْ في أوقات البرد والشّتاء لا بدّ أن ينشط ذلك الألمُ من جديد. وبناء على ما حُرّر في قانون الشفاء، رضي المرحومُ «فرهاد باشا» قائلًا: «لو تناولت من علاج «مترويطوس» يا «شيخ شجاع» سوف أتحسّن». وأظهر الشّكر، ونظرًا لصلاح «قوجه» شجاع وتديّنه كان ملاذَ العلماء والمشايخ، وكان المرحوم قد خصّصه لعلاجه في البداية، لكنْ بعد ذلك، أحضر المرحوم هذا المتطبّب الجاهل، العديم الأخلاق الذي جاءَ مدّعيًا للديوان، ثمّ استغنى عن «قوجه شجاع». وبعدَ ذلك، لمّا أبلغ «قوجه شجاع» بأنّه اشتدّ به المرض، وجاء إليه، وكشف على المرحوم فرهاد باشا مرّة ثانية، وعندما قاس نبضَه، قال: «لقد أفسدت الرّجيم، إنّ تناول «مترويطوس» ثانية يكون نافعًا لك». وأضاف «بأنّ ذلك ضروريّ بمقتضى الحكمة». والقول بأنّه غدرَ به مُغْرض. وأنهم- والعياذُ بالله- لا يقبلون «تقدير الله».

وبعدَ كلّ هذا، فقد اكتسب في الحقيقة الـ«شيخ شجاع» الشهرةَ والصّيت. ولكنّه أُودع السجنَ بمعرفة الجاويش المعروف بـ «كوزل محمد» في ٦ شوال سنة ٩٨٢هـ/ يناير ١٥٧٥م].

(معاتبةُ الدفتردار «قره أويس»)

في اليوم الثّامن عشر من شوال، وبينما كان السّلطانُ صاحب العظمة وليًّا للعهد، جاء دفترُ أعماله المالية للدّيوان الهمايوني، حيث سُلّم لرئيس الدفتردارية في كيس من قماش. وفي اليوم التّالي، صدر فرمانٌ بإحضار الدفتردار المذكور «قره أويس» إلى الدّيوان الهمايوني، ولمّا كان من الضّروري حضورُه سويًّا مع خصومة الذين ادّعوا قائلينَ له: «إنّك فتحت الصّناديقَ المختومة بخاتم الـ «لا لا»، وأخرجت الأقچة من أجل بعض المهمّات، وأعطيت العلوفات «بلا أمر لبعض الأشخاص، وذلك.. بينما كنت آتيًا بها من الطّرف الآخر». وبناءً على العادات المعمول بها، فُرشت السجادةُ في حضور الوزراء العظام، وجلس الدّفتردار المذكور مع خصومه، وعندما تفضّل الوزيرُ الأعظم وقضاةُ العسكر بالاستماع لأسئلتهم وإجاباتهم؛ أجاب الدّفتردار قائلًا: «أنا الدّفتردار. تفتح الخزينة وتغلق بمعرفتي. فتحتها. ومهما كان فقد رأيت هذا بناءً على أنّه كان ضروريًّا للمصالح المهمّة، وضاعت أموالها، ولو كان هناك شيء مخالف ذلك، فليوضّحه لنا، وعندئذ عليَّ دفعُ ألف آقچة لأيّ واحدٍ منهم». وبعد أن قاموا من مجلسهم]. أرسل الوزيرُ الأعظم «محمد پاشا» الدفتردار المذكور مع رئيس الجاويشية لحضرة الـ «لا لا»، وعندما قرأت عليه الأسئلة والأجوبة التي دارت في الديوان، قال الـ «لا لا»: «عندما جاء خبرُ الجلوس الهمايوني لحضرة سلطاننا صاحب السعادة، عُزلنا مِن المصالح، ورفُعنا من الوَكالة، وسقطت أحكامُنا عن الدفتردار وغيره. فليس جائزًا بأيّ وجهٍ من الوجوه الاهتمام بأيّ أمر. ما لم يكن هناك رأيٌ شريف لحضرة الوزير الأعظم المكلّف بأعمال الوكالة العامّة.

وبيَّن ذلك بقوله: «إنّه لم تكن هناك ضرورةٌ مطلقًا لفتح الصناديق، وإنّ الأمر من بعْدُ مفوّض لفرمان السّلطان الشّريف». في ١٩ شوال سنة ٩٨٢هـ/ يناير ١٥٧٥م.

(مجيء سفير شاه العجم «طهماسب خان»، حاكم روان ونخجوان» «طوقماق خان» إلى مركز الدولة)

قام حاكمُ «إيران وتوران» شاه الممالك «طهماسب خان»، بإرسال خان «روان ونخجوان» «طوقماق خان» من مركز عرشِه في «قزوين» بالتّحف والهدايا الكثيرة من أجل التهنئة المباركة للسّلطان الجديد، وبالرّسائل لتعزية المرحوم والمغفور له السلطان «سليم خان». وعندما جاء والدُه «شاه قوليخان» مع هيئة سفارته في عهد السلطان المغفور له سليم خان سابقًا، استقبله أميرُ أمراء الروميلي حضرة «شمسي أحمد باشا» لتعظيمه وتكريمه، وكان كلامُهم المُعجز البيان الذي دار بينهم في ذلك الوقت قد صارَ «ضرب مثل» على ألسنة العجم. وفي هذه المرّة أيضًا، وبناءً على تلك القاعدة، استقبله أميرُ أمراء الرّوميلي حضرة «سياوش أحمد باشا» صاحب الدّراية بالحديث اللطيف في هذا الزمان، واستقبله جميع خدم مركز السلطنة المزيّنين والمجهّزين بالأسلحة والمهمات الحربية، بالعظمة والوقار الزّائد بحسب المراسيم العثمانية القديمة، وأنزلوه في سراي «بهرام باشا وخنجرلي» الواقع بالقرب من «آت ميداني». ولمّا صدر فرمان بإكرامه وتقديره ببذل النعم الكثيرة بناءً على العادات القديمة، أعدّ له الطعام من المطبخ العامرة، ووفّرت احتياجاته اليومية، ولوازم حيواناته من الإسطبل العامرة. ونتيجة لذلك كانت الإتلافات والإسرافات فوق الحدّ أو المعقول. لكنّ كفران النّعمة التي هي من عادات القزلباش أصبحت زائدة عن الحدّ. وفي كلّ مرّة لم تُر عادةُ الملاعين في تحقير النّعم الإلهية في أيّ ملّةٍ قطّ من أعداء الدّين، فليجعلهم الحقُّ تعالى مقهورين «آمين».

(تشريفُ سلطان الأرض والزّمان السّلطان «مراد خان» بالسّعادة من براري الصيد إلى المدينة)

وفي هذه الأثناء، وبناءً على القانون القديم للسّلاطين الأسلاف، خرج السلطان الذي جندُه كالأنجم للصّيد، ثمّ عاد من صيده، وأقام في «حلقه لوسراي»؛ فخرج أركانُ الدولة، وأعيانُ السّلطنة، والوزراء العِظام والعلماء الكرام لاستقباله، وتزيّن جميع خدم الباب، وتجهّزوا بآلات الضّرب والحرب، وارتدى طائفة الينى

جرى وعسكر سباهية البلوك، والجاويشية، والجاشنكيرية، والمتفرقة والدفتردارية، وكتبه المالية، الثياب المرصعة بالعظمة والوقار، وتزيّنوا بكامل الزينة. وفتح حضرات الوزراء العظام أيضًا مخازنَ أسلحتهم وملابسهم ودروعهم الحديدية، وقام حضرةُ الصّدر الأعظم محمد باشا» والوزير الثّاني «بيالة باشا»، و«أحمد باشا»، و«محمود باشا»، و«لا لا مصطفى باشا»، و«سنان باشا، والقبطان قليج علي باشا»؛ جميعًا بتزيين خدامهم وأتباعهم بأنواع الأسلحة واللوازم الحربية، واستعرض كلُّ وزير موكبَه بشكلٍ مستقل، ووقفوا جاهزين ومهيّئين، كلٌّ حسب درجته، لإلقاء السّلام على حضرةِ السلطان الذي بصيرته كالقدر. وفي تلك الليلة استمرّ عسكرُ الإسلام يخرجون من المدينة حتّى الصباح. وفي اليوم التالي، دخلوها بحماسٍ حتّى وقت العصر، وأقاموا منزلًا استراحةً للسفير «طوقماق خان»، وللحرس، ولسائر أرزاله، وحاشيته القادمين معه، في المكان المشهور باسم «اشجى باشى اولرى» والواقع على رأس ميدان «عجمي أوغلاني». وخُصّص مكان لمشاهدة الموكب. وعندما مرّ الموكبُ الممتاز، والذي لقي استحسانًا من بين «جبه خانه» حضرة الوزير الأعظم محمد باشا» المجهّزة، ظهر أنّه كان موكب حضرة «أحمد باشا»، وفي الحقيقة، كان موكبُ حضرة «لا لا مصطفى باشا» عظيمًا. لكن لمّا كانت أطقم جياد حضرة «ستان باشا» قد أُعدّت من قماش الـ «سراسر» الجديد، ومن قماش «چاتمة» الثقيل، على طريقة ولايةِ «اليمن، كان موكبُه لائقًا بأعلى مرْتبة. ولم تستطعْ طائفةُ القزلباش كتمانَ مدح عامّة الجند. وخلاصةُ القول، نالَ الموكبُ قبولَ واستحسان عديمي الخلق هؤلاء.

(مجيء السّفير المذْكور «طوقماق خان» إلى الدّيوان الهمايوني لتقديم الرسائل والهدايا، وإقامة الضّيافة العالية له)

وبعدَ ذلك، عندما جاء السّفيرُ المرقوم إلى الدّيوان الذي عنوانه العدالة، وسلم الرسالة السّلطانية؛ عقد ديوانَ الغلبة (غلبه ديواني). ولمّا كانت تحفُ وهدايا العجم فوق الحدّ والمعقولِ امتلأت قاعةُ الدّيوان المعلا تمامًا بحاملي الهدايا. ولمّا قدموا أربعين

خزينة من الحجر المرصّع والمجوهر، وخيمة فلكية المحيط مشغولة بالأقمشة الملونة، حُررت جميعًا في دفاتر التّشريفات بناءً على هذه الصّورة، حيث لم يكن قد جاء إلى الديوان الهمايوني من عند الملوك القزلباش السّابقين في أيّ وقتٍ قط، ولم تكن قد سجّلت هدايا التّشريفات مثلَ هذه، وأُقيمت الضيافةُ العالية له، ثمّ دخل مع الوزراء العظام، وغبّر الوجهَ لمقام العرش الذي مصيرُه العالم، وبعدها أُرسل إليه ثلاثة أكياس كمصروفِ طريق، حيث كان كيسٌ منها غروشًا، وكيسٌ يحتوي على ألفٍ من العملة الذّهبية.

(إقامةُ حضراتِ الوزراء العِظام «على الترتيب» الضيافة للسفير المذكور)

وبعدَ هذا، لمّا صدر فرمانٌ بأنْ يقيم حضرات الوزراء العظام الضيافة العالية بالتناوب للسّفير المذكور، قام بضيافته أوّلًا حضرة الصدر الأعظم «محمد باشا»، وقدّم له أنواع النّعم الإلهية، وثلاثًا وسبعين خلعةً فاخرة، ومن الأواني الفضية أربعة أضعاف، ومن الأقمشة المتنوّعة أربعة أضعاف، ورأسين من الجياد أحدهما مغطّى بالسّجاد المزيّن، وأيضًا ثلاثة من الدّوارق الذهبية، وطشتًا وإبريقًا وشمعدانًا فضيًّا، وأربعَةَ أباريق للوضوء، وعربتين من نوع (قوبه)، وأربعَ أوانِ شربٍ مذهّبة، وأربعَ صوانٍ، وأربعةَ أقداح شرب، وأربعةَ أطقم أقمشة من نوع (سراسر) الاسْتانبولي، كذلكَ أربعةَ أطقم أقمشة أفرنجية، ومثلها أربعةَ أطقم من قماش «أطلس» الملوّن، وكذلك أربعة أطقم أقمشة من الحرير الملون، وأربعة أطقم من الحرير ذي اللّونين، وأيضًا أربعة أطقم أقمشة من نوع (چوقه) الملوّن، ومائةً لفّةِ خيط؛ وقدّم حضرة «بياله باشا» أيضًا للضّيف ٦٧ خلعة فاخرة، ومن الأواني الفضية زوجيْن، وأيضًا من أطقم الأقمشة المتنوعة النفيسة زوجيْن، ورداءَ صوفٍ سلانيكي؛ وقدّم حضرة «أحمد باشا» له أيضًا سبعين خلعة، ومن الأقمشة المتنوّعة الملونة زوجين، وأيضًا من الأواني الفضية زوجين؛ وقدّم له حضرة «محمود باشا» أيضًا، وحضرة «مصطفى باشا» خمسين خلعة، واثنين من الأواني الفضية النفيسة، ومن أطقم الأقمشة زوجين.

(التّاريخُ الذي أسقطه «ساعي چلبي»، الذي هو من شعراء العصر، بناءً على رؤية النّجم ذي الذّنب الذي ظهر في غرّة شهر رمضان الشريف سنة ٩٨٥هـ/ نوفمبر ١٥٧٧م)

ذاتَ ليلة، وبينما كانت الكائنات ناظرةً إلى هلال غرة شهر رمضان
رأت الكائنات أنّ نجماً ذي ذنب قد بزغ
فظنّت أنّ الفلك ناثر النيران قد أشعل ناثر الورد
فأصبحتِ الجهاتُ الستة مضاءة بمصباح نوره
وانتشرَ الضياءُ من الغرب إلى الشرق، فرآه أصحاب العقول
وقالوا: لا ينْجو ملك العجم من السقم.
فمَن مِن بعده يستطيع أن يشعل نارًا فوق رؤوس القزلباش في الشرق؟
ومَن عليه أن يجعل أشرارَ جيحون والفرات غير سعداء؟
فُتحت عرصة الأرض في عهد «خان مراد»
إنّه الوقت المناسب، فليسوق العلماءُ الجواد لدار السلطان
قال ساعي الدّاعي في هذه اللحظة بالإلهام الرباني
تاريخ (ليمت شاه العجم فجأة)[1]

(١) غره ماه صيامه ناظر ايكن بركيجه
كورديلر بر نجم كبسودار طوغمش كائنات
صانديلر كيم بر كلفشان ياقدى آتشباز جرخ
روش اولدى مشعل تابنده سيله شش جهات
صالدى شرقه غربدن برتو كوروب اهل خرد
ديديلر ملك عجم بولمز سقامتدن نجات
سر خسر باشنده بر آتش يناركيم شرقده
كيم شرارينى سويندرميه جيحون وفرات
خان مرادك دولتنده آجيلوب نطع زمين
وقتيدر فرزانه لر شاهك اوينه سوره آت
ساعى داعى اودم الهام ربانى ايله
ديدى تاريخن (عجم شاهى اوله ناكاه مات) [=٩٨٠هـ]

(قصّةُ خبر موت الشّاه «طهماسب»، ومنح الإذنِ للسّفير الوضيع والمضطرب الحال «طوقماق خان» للعودة لبلاده)

وفي هذه الأثناء، جاءت الأخبارُ المتواترة والمتزايدة إلى السدّة التي مدارها السعادة نصُّها: «بأمر الحيّ القيوم» وبينما كان الشّاه الضال «طهماسب» الجالس على عرش ملك «إيران وتوران»؛ حاكمًا على ملك العجم منذ أربعةٍ وخمسين عامًا، ويعيّن «حكومة باطلة» في سرير السّلطنة، ويروّج مع خذلة القزلباش[١] الملاعين أعداء علماء أهل السّنة والجماعة، لمذهب الاثني عشر الشّيعي لنشر البدعة والضلالة منذ فترة طويلة؛ قام القزلباش بالهجوم على قصره بثورةٍ عامّة، وهجوم كامل، وذلك على أثر مقتل ابنه «حيدر خان» بسيفِ المدْعو «استاجللو» الذي كانَ من طائفةِ القزلباش الدناة، عند العلامةِ الكبرى الواقعة في مدينة «قزوين». وعلى أثرِ هذا الهجوم قُتل الشّاه، وقال الذين بيّنوا كيفية قتلِه: «إنّهم سكبوا ماءَ النار على وجهه، فمات». ولمّا وصل هذا الخبر، ألهبت نارُ الحيرة الرّوح العابثة للسّفير «طوقماق خان» الموجود في مركز الدولة، لدرجة عظيمة، وعلى أثرِ مرض وجنونِ ابن «طهماسب خان» المحبوس في قلعة « قهقها»[٢] منذُ فترة طويلة وعهدٍ بعيد، استمرّ رهينَ قيد السّجن، فلمّا أطلق سراح الشاه «إسماعيل» المجنون من الحبس؛ صار واليًا على ولايةِ العجم. ولمّا ارتدّ عن مذهبه قائلًا: «تركت المذهب الشيعي، وقبلت مذهبَ الإمام الشافعي» قام بقتل المعروفين والمشهورين من القزلباش الملاعين، حتّى أنّه قال: «اعصوا والدي، وارجموا قصره، وتطهّروا للمرشد». وقضَى بسيف الانتقام على الذين سبّوا الأصحاب المختارين، علاوة على أربعة آلاف نفرٍ من القزلباش مرّةً واحدة في ميدان الإعدام، وقتلهم.

---

(١)()القزلباش: وهي صفة تركية من كلمة «قيزيل» وتعني اللون الأحمر و«باش» وتعني رأس. وقد أطلقت هذه الصفة على المنتسبين إلى أحد المشايخ من غلاة الشيعة. ويرتدون تاجًا أحمر اللون ذا اثني عشرة ذؤابة كناية عن الاثني عشر المذهب الشيعي. وقد أطلق العثمانيون على لابس هذه العمامة اسم «قيزل باش» أي ذوى الرؤوس الحمراء، وهي طائفة من الشيعة تقطن شرق الأناضول منذ أواخر القرن ١٥/ ٩ وأوائل القرن ١٦/ ١٠هـ.

(٢) قهقها : اسم قلعه في أشهر سجن في إيران.

عندئذ نفدت قدرةُ السفير «طوقماق خان» على الصّبر والانتظار، وقال: «واأسفاه! لقد صبّ الماء على موقد القزلباش». ودخل منزله متحسّرًا، وقال: «واحسرتاه! هذه الدارُ الخربة- يقصد السلطنة- أفسدت أهلَ بيتنا». واشتاقت روحُه لبلاده المظلمة، فأسرع ورحل إليها في شوال ٩٨٥هـ/ ديسمبر ١٥٧٧م.

(التّنبيهُ والتّأكيدُ الصّارم على أمراءِ الأمراء والأمراء المكلّفين بمهمّة الحراسة على الحدود)

وجّهت الأوامر والأحكام الصّارمة إلى أمراءِ وأمراء الحدود المنصورة، وسائر الحكام ذوي الاحترام، نصُّها: «عليكم بإغلاق كلِّ جانب، وألّا تتوانوا دقيقةً في حماية وحراسة المَمالك المحروسة من أعداء الدّين والدولة، وألّا تتوقّفوا عن إرسال الأخبار لجانب مركز الدّولة». ثمّ أرسل الجواسيس المَهرة بين الأعداء، فأحاطوا علمًا بالأخبار الصادقة يقينًا باختلافاتهم وعدمِ استقرار أحوالهم. وكان صاحبُ المعرفة المدعو حضرة «كوسه خسرو باشا»، والعالِمُ بحقيقة أحوال القزلباش الموجودين على الحدود المنصورة، قد قام بعقدِ اتحادٍ صوريّ ومعنويّ بين الشاه «طهماسب» وجميع أعيان دولته عند عقد السّلطان «بايزيد» للصّلح. والآن لمّا تولّى الذات الشّريف «مراد الثالث» الذي جاء بتفويض العقلاء، وعُهدت أمورُ المملكة إليه، عهدت إلى كوسه خسرو باشا، أمور القزلباش في سنة ٩٨٥هـ-١٥٧٧م].

(طلبُ أعيان أهاليِ «أرضروم «الإذنَ من مركز السّلطنة، لتحويل منازلهم الواقعة خارج أرضروم إلى قلعةٍ بأموالهم من أجل المحافظة عليها)

جاءَ نحو خمسة عشر رجلًا من أعيان ولاية «أرضروم» أو رعاياها إلى مركز الدولة، وقالوا بالاتّفاق مع جميع رعايا المملكة: «نحن مظهر للنعم الإلهية التي لا تحصى بأموالنا الكثيرة، ولسْنا مُحتاجين لأيّ شيء قط، فنحن طائفة أغنياء، ولكن بسبب نقض الصّلح الذي بيننا مع القزلباش، وظلم وغدر الدّناة الذين وصلوا لمنصب الشاه- ونحن نعرفهم- كان سببًا في عدم تَرك منازلنا الموجودة خارج قلعة «أرضروم» في الخارج دون حماية، وعلينا أن نقوم بنصبِ المدافع والمدافع من

نوع «شقلوز» على الأبنية والأسوار والأبراج الموجودة بينها، وأن نشقّ الخنادق»، وأضافوا قائلين: أخذنا لعهدتنا المصاريف اللّازمة، وسوف نتكفّل ونتعهّد بإتمام هذا العمل. وعندما سعينا باذلين الروح والرأس، وأقمْنا سورًا مستحكمًا من أجل حماية أهلنا وعيالنا وأرزاقنا وأموالنا ينبغي علينا ألّا نُخرج أقچه أو جبه غلال لخزينة صاحب العظمة السلطان، ومقابل ذلك علينا أنْ نجتهدَ بأموالنا ومعماريينا وعمالنا وأجرائنا لبناء السور، وأن نقيمه، وأن نتمّ هذا الأمر فلتتفضّلوا بعرض أحوالنا على باب الدولة». وعندما عرض ما طلبوه على مقام العرش الذي مصيرُه العالم من أجل منْحِهم الإذنَ الهمايوني، أذن السلطان لهم، وبناءً على ذلك، حتى يتمّ الشّروع في تجهيز الأحجار والجص لمدّ سور على امتدادِ مسافة طولها عشرة آلاف ذراع، وتحقيق السّكينة والراحة لرعايا المملكة؛ جمعوا وجهزوا لوازم وأدوات البناء، وبدأوا في مدّ الجسور وتشييد الأبراج، والأماكن المحصّنة» في غرّة محرم الحرام سنة ستّ وثمانين وتسعمائة هـ/ مارس ١٥٧٨م.

(تعيينُ حضرة الـ لا لا «مصطفى باشا» قائدًا، وخروجه بالعظمة والوقار من استانبول)

في أوائل شهر «صفر الخير» ٩٨٦ هـ/ ١٥٧٨م، وعلى أثر صدور فرمان بتعيين الوزير الذي زيّنته السّلطنة «مصطفى باشا»، قائدًا للعساكر المنصورة، توجّه صوبَ الشّرق قاصدًا القزلباش الأوباش ليبسّر اللهُ ذو الجلال أعماله، آمين.

(قصّةُ حرب القزلباش مع جنود الحدود المنصورة في صحراء «چلدر» وانهزام الملاعين المذكورين)

في شعبان الشّريف من السنة المذكورة ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م، قام العساكر ذوو شعار النّصر الموجودون مع القائد الأكرم «لا لا مصطفى باشا» مع غزاة أمير أو أميري سنجق من أمراء الروميلي بسحب المدافع في الصحراء المعروفة باسم «چلدر» الواقعة في مملكة «كورجستان» لمحاصرة قلعةٍ من القلاع الكرجية من أجل فتحها والاستيلاء عليها، وبينما كانوا يعدّون لوازمَ الحرب، اتّفق واتّحد كلٌّ من «طوقماق خان» حاكم

«روان» و«نخجوان»، الذي عزم منذ وقت السّحر، وجاء من قبل القزلباش الدناة بقصد معاونةِ ومساعدة الكرج، «وأمام قولي خان» حاكم «كنجه» ووكيل سلطنة شاه القزلباش «خدابنده»، و«قالبتان» المشْهور بـ «قرة خان» ذي الوجْه الأسود، والمعروف بالشّجاعة بينهم، وفي معيّتهم تسعةُ أنفارٍ من أعداء الدّين الملاعين المشهورين بالإجرام والمعْروفين باسْم «سلتات» بالجمْع العظيم، والرّوافض الذين هُم كَكِلاب جهنّم مع أربعةٍ وعشرين رجلًا من القزلباش الأوباش، قائلين: «علينا أنْ نثأر من عسكر الإسلام، وألّا نجعلهم يُطلقون المدافعَ والبنادق، وأنّ نعرّفهم قدْرَهم بإظهار غلبة ضربة السيف».

ولمّا التقى المذكورُ «مصطفى باشا» متّحد النّية والوجْهة بهم في صحراء «چلدر»، كان هناك معه من جنْد الإسلام جندُ إيالة «أرضروم» بقيادة تمساح بحر الوغى «بهرام باشا»، وجيش «ديار بكر» بزعامة «درويش باشا»، وأمير أمراء «مرعش» «مويتاب زاده أحمد باشا»، وأمير أمراء «ديار بكر» سابقًا «أوزدمور أوغلي عثمان باشا» الذي كان على شجاعةٍ وجسارة، ودراية بالحرب، و«سام»، و«نريمان» و«رستم»، و«اسفنديار».

وقد بدا انكسارُ الصّفوف على نحوٍ جعل طائفةَ الملاحدة تقع ذليلةً ومقهورة تحت سيوف الإسلام في ذلك اليوم السّعيد، ولمّا نشبتِ المعركة العظيمة، صار الأعداء الدّناة الذين زادوا عن خمسة عشَرَ ألفًا طُعمةً للسّيف، وصارت أحمالهم وأثقالهم وأمتعتهم وسناجقهم معكوسةً ومنكوسةً بمعنى أنّ عدّة آلاف من بقية السيوف الملاعين المقيّدة أيديهم والمنْكسرة أعناقهم، كانوا كالقطيع بالنّسبة لكلّ شخص يسحب أسيره سحْبًا ويقتله. وبعد ذلك، أُحضر الأسرى بيَدِ عسكر الإسلام المتخلفين عن الإغارة إلى خيمةِ القائد صاحبِ الوقار «مصطفى باشا»، وإلى الدّيوان العالي، ومرة أخرى، بينما كان صاحبُ «اللواء» المدْعو «منوجهر»، المشهور باسم «قارى اوغلي» مع المجرمين أصحابِ السّطوة من مشهوري «كورجستان» ناظرين ومترقّبين بجناحه المنتصر، ولمّا رأى المذكورُ أنّ رياحَ الفتح والظّفر قد هبّت على

ذؤابة شعر طرّة الإسلام، جاء مع كافّة أتباعه، وأحضر مفاتيحَ قلاع ولايته أمام «القائد الأكرم»، وسلّمها له، ولمّا كان طالبًا وراغبًا لنيْل العزّة بشرف الإسلام، عرض مطالبَه على العتبة التي محيطها السّعادة، وعندئذٍ صدر الفرمانُ بإرساله إلى مرْكز الدّولة (الآستانة). ولمّا جاء حضرةُ القائد الأكرم إلى خيْمته، ضرب أعناقَ أكثر من ألفين ممّن كان مقيّدًا في السّلاسل من القزلباش الملاعين، وأحرق كلَّ مَن أسرَ مِن مُجرمي وكفّار الكرج المسلحين والمجهزين بالنّار مع أسلحتهم ولوازمهم على الفور، وذلك بعد أن قطعوا الحطب من الغابات، وأوقدوا نارًا هائلة بها، فألقوا الخوف والرّهبةَ الشديدة في قلوب أعداء الدين، وفي هذه المعركة التي وقعت، لم يخرجْ حضرة القائد صاحب الوقار من خيمته، ولم يتقدّم فردٌ من «خدم الباب» للحرب، وكلّ البطولات التي ظهرت قد تمّت بواسطة العساكر المنْصورة، وكان الفالُ الحَسَن والسّعيد من نصيب «درويش آغا» من جيش «ديار بكر»، والأبطال والشّجعان من أمراء الأكراد. وكان قد عُرض الأمر وأحيطت الآستانة علمًا بأنّ القزلباش الدّناة النّاجون فرّوا وخلص الهاربون، وقالوا: «الغوث من سيف الغزاة»، وأنّ أحمالهم وأثقالهم وأعلامَهم صارت معكوسةً، وطبولهم أصبحت معكوسة، حيث تُركت وتخلّفت في ميدان القتال، وانهزموا مقهورين.

ورحَلوا من ذلك المكان أيضًا، وبينما كان «داود خان» حاكم قلعة «تفليس» التي هي مقرّ عرش كورجستان» منذُ القدم، ومحطّ حسدِ سلاطين العالم، يعتلي عرشه «أبًا عن جدّ»، ترك القلعةَ المذكورة خالية، وبرحيلِه استولى جندُ الإسلام على كافة نواحيها.

وبعد ذلك، وبينما كان العسكرُ المنصورة يرحلون عن قلعة «تفليس» ويغادرونها، مرّة أخرى، جاء مجرمو «كورجستان» المعروفون بالثّراء، والخان المدعو «الكسندر لوند» الذي هو مِن الملّة العيسوية، مع كافّة أتباعه، ولمّا غبّروا وجوههم بتراب ظافر جواد القائد «مصطفى باشا»، نالوا ألطافَه العلية، وأحضروا مؤنًا كافيةً لجيش الإسلام، وأظْهروا كامل الخدمةِ والانقياد. وكان الماءُ الوفير المتدفّق من أمام «تفليس»،

نهر عظيم، ومشهور باسْم نهر «قنق» في بعض الأماكن، في أعلى درجة من الفيضان، حيثُ لم يكن هناك موضعٌ أو مجال لعبوره بأيِّ صورة قط، وعلى هذا وبينما كان عساكرُ الإسلام ينظرون إليه بحيْرةٍ واضطراب، على الفور انتهز القائدُ عالي المقدار الفرصةَ للعبور من المَوْضع المعروف بـ«قيون كچدى»، فعبروا إلى الساحل الآخر للنّهر، ولم يسترحْ عساكرُ الإسلام وأسْرعوا لعبور الماء، وعندئذٍ غرقت أحمال الرجال الثّقيلة، الكثيرة ولوازمهم، ودوابّهم، وهُم أنفسهم، فتعرّضوا بذلك لخسارةٍ فادحة.

و«بعوْنِه تعالى» اجتمع في اليوم التّالي النّاجون من الغرق، وانعقد الديوان العالي، وعندما أحيطوا علمًا من قِبَل القزلباش الدّناة بأنّهم أعدّوا العدّةَ لمواجهتهم، أحضروا الأسرى من القزلباش المَهَرة، ولمّا جعلوهم يقرّون بالمعلومات، أُحيط علمًا بأنّ خان «تبريز» «أمير خان» وعددًا من السّلاطين المشاهير من عشائر التركمان المتواجدين في معيّتِه قد واجهوا العساكرَ المنصورة بحشدٍ عظيم، وعندئذ لم يعدْ للجنود الأبطال اختيار، وامتطوا جيادهم. وعندما ذهبوا قاصدين القزلباش المسلّحين والمجهزين، أصبح أحدُ شقّي النهر العظيم الذي عبروه، يجاور عساكرَ القزلباش، حيث رأى القزلباش من بعيدٍ ثورةَ وهياجَ جيش الإسلام. وعلى أثرِ ضجيج المدافع، وصياح العساكر، خارت قوى أعداءِ الدّين تمامًا. وعندما شُوهد «جندُ الله الغالبون»، ألقوا أنفسهم في النهر الذي كان صعبَ العبور، ولمّا غرقوا الواحدَ تلوَ الآخر مثل جيش «فرعون»، طفت على سطح الماء جثث عدّةِ آلاف من الدّناة والخبثاء أعداء الدين، وتفرّق الذين وصلوا منهم لشاطئ النجاة، ولاذوا بالفرار.

وفي اليوم التّالي، عندما مرّ جندُ الإسلام من ذلك الموضع، رأوا عددَ مَن هلك غارقًا مِن الإنسان والحيوان. وقالوا: «لقد كان هذا الفتحُ المبين، فالًا مباركًا لعساكر الإسلام».

وكان عدّةُ آلاف من المسلمين من مذهب أهل السّنة والجماعة الذين يسكنون منذ القدم في أرض شيروان؛ يدفعون الأموالَ المفروضة عليهم للقزلباش كرسوم جزية يدفعها أهلُ السنة لطائفة القزلباش.

وعندما جاء عساكرُ الإسلام المسلّحون والمجهزون إلى أرض شيروان استقبلهم مسلمو شيروان، وقدّموا لهم النّعمَ الوفيرة، وقدّموا للقائد الأكرم التحف والهدايا، ودعوا لحضرة السّلطان حامي العالم مادحين إيّاه كثيرًا. ولمّا وصل جندُ الإسلام لمدينة «شماخي» التي كانت دارَ المُلك لمملكته «شيروان»، لم يتركوا شخصًا من الملاحدة المتواجدين باسم القزلباش فيها سليمًا، حيث قتلوهم عن آخرهم.

واختار بطلُ الميدان سالفُ الذّكر فريد ساحة الأبطال، أمير أمراء «ديار بكر» سابقًا «عثمان باشا» صاحب الشّجاعة، وقَبِلَ البقاءَ في مهمّة حراسة ولاية شيروان مع منصب الوزارة، وعلى إثر توزيع العطايا والمراتب العظيمة على الذين طلبوا وظائف وترقيات من جند «قپو خلقي»، وسائر السپاهية، ومَن بقوا بجواره، قام بإعداد المشتى للعساكر المنْصورة الذين صدر الفرمانُ ببقائهم للمحافظة على شيروان مع جميع أفراد بلوك «علوفجيان يسار»، وأولاد السپاهية في سائر البلوكات من جند الينى چرى، وأمير أمراء «أرضروم»، بجميع عساكره السپاهية، وقبل مرور الموسم سعى حضرةُ القائد عالي الجاه لإتمام تجهيز المشتى، وسلّم للوزير المشار إليه «عثمان باشا» «مهمّاتِ وآلات» الحرب اللّازمة، وتوادعوا، ورحل مصطفى باشا، وذهب، وتوجّه لمركز الدولة.

(قصّة وقوعِ معارك الوزير المكرّم والقائد الأكرم «أوزدمور أوغلو عثمان باشا» مع «آرس خان» ومع جيش القزلباش)

ولمّا شاع خبرُ دخول جند الإسلام شيروان بين القزلباش، توجّه «آرس خان» اللعين الذي كان خان «شيروان» من قبْل مع جماعةٍ شعارُهم الضلالة من السلاطين المشهورين الذين كانوا يحكمون المَمالك الواقعة في الأطراف والنواحي إلى عسكر الإسلام الذين بقوا للمحافظة على شيروان، ولمّا أصبح وقوعُ المواجهة والمقاتلة بينهم أمرًا مؤكّدًا؛ تلطّف آرس خان مستميلًا عسكر الإسلام المتواجدين في جانب السردار المومأ إليه عثمان باشا، إلّا أنّ عسكر الإسلام أعدّوا لوازم الضرب والحرب واستعدّوا للمعركة والقتال.

وفي اليوم السّابع عشر من شهر رمضان الشريف، وفي الصحراء الواقعة أمام «شماخي»، وقعَ القتال مع «آرس خان» خان «شيروان» سابقًا القادم بعساكر ابن الشاه، وابنه «دده خان» الذي كان كالشمس التي تضيء العالمَ في الحسن، و«خان كنجه» «إمام قوليخان» وخان «تور» «دده سلطان»، و«ميرزا علي سلطان»، و«حسين خان»، وخان كيلان «سيّد أمير سلطان»، و«لوند فرانداشي عيسى خان»، وفي معيّتهم جيش القزلباش المنتخب والمعتمد، والذي كان يتجاوز عددُه ثلاثين ألفًا، وذلك على مدى ثلاثة أيام مُتتالية، ولمّا أوجعت نعرات صيحة ميدان الحرب «هاي هاي» المكان والزمان، وتأوّهت قلوبُ الجانبين، خارت قوى الطّرفين، وصاروا بلا قدرةٍ أو قوة على النزال، وعندئذ لا بدّ أنّه أصبح من المؤكّد استسلام أحد الجانبين لليأس والحرمان.

وما أنْ كانوا في موضع الاستغاثة بنداء «مدد الله مدد» الصاعد من الروح والقلب، وكان هذا الوقت يوافق يومَ الاثنين السابع والعشرين من الشهر المذكور، حتى ظهر في وقتِ العصر شقيق خان القرم، «عادلكراى خان» بجيش التّتار الذي حركته كريح الصّبا، فبينما كان عسكرُ الإسلام يأملون كرمَ وعناية الباري، ويستمدون البركات من الأرْواح الطيبة للأصحابِ الكرام، ويدعون ويتضرّعون لمقام العزة، لم يستطع الملاعين الملحدون «خذَلَهم اللهُ إلى يوم الدين» الثّباتَ أمام عسكر الإسلام، فتشتت جيشُ القزلباش، وتراجعت مقدّمته إلى الخلف، وأصبحت مؤخّرته في المقدمة، فلمّا أحبت قيادةُ القزلباش النجاة، قام في الحال عسكرُ الإسلام بالهجوم عليهم، وقهروا جماعة «الروافض»- خذلهم الله- وهزموهم بشكلٍ لم تكنْ عينُ الأيام قد رأت مثلَه من قبل. وفي أثناء الحرب، أسرَ «دده خان» الجميل ابن «ارس خان» حيًا، وقُتل «ارطوغدى خان» بدانةِ مدفع، وسقط «دده سلطان» حاكم «طور»، وأيضًا «حسين خان» في أرضِ المعركة. وقُطعت رؤوس خان كيلان «سيد أمير خان»، و«ميرزا علي سلطان»، كما قُطعت رأس «ميرزا اوغلي عيني خان» أيضًا، وعثر على جواد حاكم «كنجه» «أمام قوليخان»، أمّا هو فقدْ قتل. ولاذَ «لوند قرنداشي عيسى خان» مع ابن الشّاه بالفرار، وقالوا: غرق في نهر «صوكچيدي» وأصبحت أثقالُ وأحمال وأمتعةُ

هؤلاء جميعًا غنيمةً لعسكر الإسلام، وفرّقوا التّتار عديمي المنفعة. ولم يطعموا أحدًا منهم.

وبعدَ هذه المعركة، لم يستطع التّتارُ الراحة كالذّئاب السكيرة بسبب طمعهم، وجشعهم، فانْفَصلوا عن عساكر الإسلام. ولمّا علموا بوجود زوجات «ارس خان»، وأخواته الجميلات لم يمنعوا أنفسَهم عن السّلب والنهب، وقال الباشا البطل «عثمان باشا»: «إننا نصحناهم، ومنعناهم، إلّا أنّهم لم يسمعوا كلامنا، وخرجوا وذهبوا». وفي ذلك الوقت وصَلوا للقزلباش، ونالوا مرادَهم في السرقة والنهب بسهولة، وسرقوهنّ ونهبوهن جميعًا. وبينما كانوا يسْحبون أحمالَهم نائلينَ المرام، وعائدين، خرج عليهم ملاعين القزلباش من الأكمنة، وفي هذه المرّة، لم يكنْ عساكر التتار السكارى والمغرورون صامدين، إنّما تحوّل صمودهم إلى فرار، وتركوا الأثقالَ والأحمال التي سرقوها، وقالوا: «لم تكنْ ملكنا من قبْل»، وعندما تفرّقوا، بقي قلّةٌ منهم بجانب «عادلكراي». وعندئذٍ حوصر «عادلكراي». ولمّا وصل الخبرُ إلى «عثمان باشا» بأنّ عادلكراي سقط أسيرًا، بدأ في التضرع والدعاء لمقام الغنيّ تعالى بعجزٍ وانكسار شديد. ومرّة ثانية، بدءوا في الإعداد للوازم الحرب والقتال، وتجهيز المدافع والبنادق والأسلحة والمهمّات الحربية، وقال «عثمان باشا»: «على كلّ حال، إنّ طوائف القزلباش بلا حميّة وبلا عار. وإنّ الأمر لا ينتهي بالهجوم عليهم وهزيمتهم، فإنّهم قومٌ بلا اسمٍ شريف أو مقامٍ رفيع قط، وإنّ عدم تفريقهم ومجيئهم ثانية أمرٌ مؤكّد.

في الحقيقة، توجّه القزلباش بجيش الشّياطين الجرار مرّة ثانية صوب «شماخي»، أمّا وسط ميدان الحرب، بينما كان فتيةُ الجيش الأشدّاء يباشرون إعداد لوازم كلّ شخصٍ منهم كي يكون جاهزًا ومهيّئًا؛ راحوا يستمدّون العون من أرواح الشهداء، وعندما نشبت الحربُ ودار القتال واحتدمتِ المعركةُ والصّدام، سُمع من هذا الجانب أن اليولداشية وحضرةَ الباشا نفسه كانوا في أعلى درجات الاضطراب، فقدّموا أمير أمراء الأناضول «قيطاس باشا» والأمراء والجنود الذين كانوا في «آرس» فاستشهدوا.

وجاء شخص من العساكر الذين حلّت بهم المحنةُ العظيمة، واحتموا فيها، وبينما كان يرفض التحدث لم يستطعْ تحمّل السماع من لسان العدو.

وفي النّهاية قال «عثمان باشا»: «أيها اليولداشية، ليست «شماخي» هي التي يمكن أن يلجأ إليها العسكر، وإنّ قضاء الشتاء أيضًا ليس ممكنًا، الآن علينا ألّا نخرب الأسلحة والمهمّات، فإذا حمل العدو خلفنا، نخرج من «شماخي» ونحاربه، ولمّا كانت «باب الأبواب»- التي تُعرف في التواريخ باسم «دمورقبو»- قد بناها «الإسكندر» ذو القرنين، وأصلحها «نوشيروان»، فقد كانت سببًا في تعمير ولاية «شيروان». تعالوا، ولنصل عندها معكم، ونحتمي بها، لنقضي الشتاء بها، فهي مملكة نعمها وفيرة «بكرم الله»، وإن شاء الله يكون فتحها والاستيلاء عليها ميسرًا، وبسرعة شرع في العمل. إنّ اسمَ وشرفَ السلطنة يحتّم علينا أن نتوجّه إليها، وأن نكون مشغولين بفتح مملكة «شيروان»، والسيطرة عليها».

فتجهّز وتهيّأ «عثمان باشا» مع عسكر الإسلام، وقام مِن «شماخي» بنحو ألفٍ وخمسمائة جنديّ، ولم يهتمّ القزلباش بأمرهم قائلين: «ذهبوا نحو قلعة «كيرلك». وأحيط مركزُ الدّولة علماً بأنّه قال: (سقطت «شماخي» في أيدينا، وإنّها لغنيمة». وجاءت العروضُ بأنّه طلب الخزينة.) في ذي الحجة ٢٢ سنة ٩٨٧هـ/ يناير ١٥٨٠م، وخرج حضرةُ القائد عالي المقدار من هذه النّاحية من ولاية «شيروان» ومرّوا على مملكة «لوند الكساندره» آملين عقدَ الصّداقة معه. وعند مرورهم من طريق «زكم»، ولما بلغت قوة الشّتاء حدَّ الذّرْوة، ابتليَ العسكرُ بمحنة الطوفان، وعانوا من العواصف الرعدية. والذين نجوا من مصيبة الهلاك هذه لم يذكروا اسمَ هذه الحملة طوال فترة حياتهم، ومع الأيمان الغِلاظ وحنكةِ أصحابِ الخبرة فيهم تنحّوا عن وظائفهم، ووصلوا لـ «أرضروم» وللمشتى بأنواع المِحن والمشقّة حيث استراحوا هناك في أواسط ذي الحجة سنة ٩٨٧هـ/ يناير ١٥٨٠م].

(قصّةُ الخان عالي الوقار بجيش التّتار الذي حركتُه كريح الصبا)

قامَ خان «دشت قبچاق»[1]، و«القرم» حضرة «محمد كراي خان» مع جيش التتار الذي حركتُه كريح الصّبا؛ بالهجوم، حيث جاء من طرف الصحراء والتقى بحضرة «عثمان باشا» بناءً على رغبة أخيه «عادلكراي خان»، حيث دار بينهما حديثٌ غير لائق. فأغار «محمد كراي خان» على ساحل نهر «آرس» وهجم على ديار «بردع، وكنجه» جميعها. ولكن لم تتحْ له فرصةُ أو إمكانية مقابلةِ القائد عالي الشأن، حيث جاء القائد متأخّرًا، وعلى أثر توجّهه من « قارص» إلى المعسكر. جاءت الأخبار بأنّ جيش التتار عادوا لمواقعهم في سنة ٩٨٧هـ/ ١٥٧٩م.

(قصّةُ إصلاح «قارص» على أكمل تحصين)

وبعدَ ذلك في السّنة المذكورة، شرعوا في إعداد التجهيزات والتدبيرات وسائر المهمات لبناء وتعمير قلعة «قارص»، فوجّهت الأحكامُ الشريفة المؤكّدة من مركز الدّولة إلى العساكر المنصورة، وأرُسل الرسل إليهم، وأبلغوهم بأنّ هذا الأمر ينبغي ألّا يُقاس بمثله في أيّ وقتٍ آخر، وعلى جميع أمراء الأمراء والأمراءِ والزعماء والسپاهية المأمورين للخروج للحملة؛ أن يتجّهزوا بلوازم مواجهة العدو في موسم النوروز بجانب القائد «ذي شعار النصر».

وخلالَ وقتٍ يسير وصلَ العساكرُ المنصورة للموضع المأمورين إليه، وصاروا جماعة عظمى امتثالًا للأوامر جليلةِ القدر. وفي ساعةٍ مباركة، شرعوا في بناء القلعة، وعُين الخدمُ للعساكر وأمراء الأمراء، واحتياطًا وضع عساكر حراسة (قراغول) ناحية العدو، وخلال وقتٍ يسير، أقاموا أبراجها وأسوارها على أكملِ درجةٍ من المتانة. وفي الوقت الذي كان يجب فيه إتمام بناء وإصلاح القلعة، خارت قوة «صولاق فرهاد باشا زاده محمد باشا» المعيّن قائدًا على الأمراء والعساكر الذين بقوا للمحافظة على قلعة «تفليس»؛ في الحرب والقتال مع كفّار الكورج، وفي مواجهة محاصرة القزلباش لهم

---

(١) صحراء قبچاق: تقع بين جبال أورال ونهر الفولجا في جنوب شرق روسيا.

طوال هذه المدّة. وبسبب قلّة الأكل والشرب، لم تعدْ لأيّ شخص القدرة على الحياة، ولم تستطعْ حتّى القطط والكلاب من الحيوانات البقاءَ على قيد الحياة، ولمّا علم القائد بكمال اضطرابهم ومشقّتهم، أرسل «إسكندر باشا زاده أحمد باشا» بالمؤن لتقويتهم، وأرسلَ إليهم- أيضًا- أميرَ أمراء «مرعش» مصطفى باشا، المترقى من رتبة آغا الينى جرى (يكيجري)، كما أرسل أيضًا أمير أمراء الشام «محمد باشا زاده حسن باشا»، وأثناء توجّههم بالمؤن إليهم حاربوا كثيرًا مع الكورجيّين المتحصنين عند الممرات والمضايق، و«بعونه تعالى» تمكّنوا من إيصال الإمدادات لقلعة «تفليس»، ووفروا كامل المؤن والخزينة للباقين في مهمّة حراسةِ تفليس، وتمّ تغييرُ العساكر المتناوبين. وبينما كانوا عائدينَ مرّة ثانية إثرَ خروجهم من القلعة، قاتلوا كلاب الكورج قتالًا شديدًا؛ حيث وصلوا لجيش الإسلام بالفتح والنّصرة، واستراحوا بالسعادة والسرور.

(قصّةُ هجوم العسكر المنصورة على «روان»، ونهبها، وهروب «طوقماق خان»)

لمّا أُعلن الهجومُ على «روان»، عُيّن حضرة «جعفر باشا» أمير أمراء «الأناضول» قائدًا على الحمْلة، وعندما أعلم المنادون الحالَ للأبطال والأمراء والسپاهية الذين يعتمدون على أنفسهم الرّاغبين في الاستعداد لبذل الرّوح في ميدان القتال قائلين: «إنّ هذا هو يوم مَن أعدّ السّلاح المجهّز، وربّى الجيادَ الشّجاعة، فهناك هجوم على أرض العدو»؛ تهيّأ عددٌ عظيم من جند الـ (سكبان إلى) الأبطال من عسكر الإسلام، وذهبوا.

وفي سَحَر اليوم الثّالث، وصلوا إلى مملكة «روان» المعمورة صائحين، أمّا القذر المعروف باسم «طوقماق خان» كان قد أحاطَ علمًا مُسبقًا بمجيئهم وقال: «البركة في قوة الكرباج الضّارب على مؤخّرة السّرج! حاصل الكلام: أنّه لمّا كان نهب «أهالي روان» الصّارخين بالكلام المؤلم، والمحترقين بالعيْن الباكية من الإنسان والحيوانات والأشياء بلا حدٍّ وبلا نهاية، ولمّا صار تشتّتُ أحوالهم حكايةً تروى بين الناس جميعًا، فقد تجنّبت (أنا سلانيكي) من الإكثار في شرح وبيان هذا الأمر. في ١٥ شعبان سنة ٩٨٧هـ/ سبتمبر ١٥٧٩م].

(قصّةُ استشهاد الصّدر الأعظم «محمد پاشا» بيَدِ السّفيه، المجنون في الديوان «وقت العصر»، وتعيينُ الوزير المكرّم «أحمد پاشا» صدرًا أعظم)

في اليوم العشرين من شهر شعبان الشّريف، بينما كان الوزير الأعظم حضرة «محمد پاشا» يستمعُ للقضايا في الدّيوان المعروف باسم «إيكندي ديواني»، وبينما كان عامّةُ أهل الديوان ينظرون، «وبأمر القادرِ ذي القدرة القاهرة، وحكم الحكيم ذي الحكمة الباهرة، جاء شخصٌ سفيه، فاسق، بوسنوي، مجنون- كان قد ربّاه الوزير الشهيد منذ قديمِ الأيام بكرمه وإحسانه. ونشأ في كنفه- جاءَ إلى الديوان في هيئة شخص يقدم عرضَحالًا ليسحبَه إليه، ومِن موْضعه ضرب صدر الوزير الشهيد بخنجرٍ حادّ جدًّا كان يخبّئه داخلَ كُمّ ملابسه، وبتأثير هذه الضّربة الشديدة، سلم الروحَ عند وقت أذان المغْرب في تلك الليلة، وسار الوزير مُتبخترًا بمقام الشهادة إلى ديوان الحق تعالى «رحمة الله عليه» (ضرب الشهيد بالخنجر[1] = ٩٧٨هـ).

وقد اختلف علماءُ الإسلام في حُكم تغسيله، فبينما كان في حكم الشهيد، فقد أعطوه حكمَ الشّهيد الحقيقي، وأمَروا بتغسيله. وبمقتضى مفهوم: «لسان الشعراء خزينة الله في الأرض، قال شعراءُ العصر التّواريخ التي لا يمكن أن يحلّ محلّها أيّ شيء آخر.

في اليوم التّالي، قاموا بتقطيع القاتل المذكور أربعَ قطع، وجرّوه بالجواد. وفي اليوم التّالي عُيّن حضرة الوزير المكرم]: «أحمد پاشا» صدرًا أعظم، وبعد الظهر أُرسل الخاتم الشّريف لمقرّ دولته. في يوم الثلاثاء من شهر شعبان سنة ٩٨٨هـ/ سبتمبر ١٥٧٩م].

(تتمّةُ قصّةِ معركة القائد صاحب الوقار «عثمان پاشا» في «تيمور قيو»، والاستيلاء على القلعة المذكورة)

في السّنة المذكورة، تمّ بناءُ قلعة «قارص»، ووُضعت المهمّات اللّازمة، كلٌّ في مكانها كما ينبغي، ثمّ عُرضَت، ولمّا حمل القزلباش الملاعين بالجنود الذين هم كالشياطين والمتجدّدي الأمثال باستمرار، وبعزمٍ غير مُنقطع على عساكر الإسلام الباقين في

---

(١) تاريخ (شهيد دشته شده) [= ٩٨٧هـ].

المُحافظة على «شيروان زمين»، وحمي وطيسُ المعركة، لم يعجز الوزير المكرم عثمان باشا» والغزاة المجاهدون الطائعون والمنقادون لأمره عنْ وسيلة حربهم وقتالهم، فبحسن الرّأي والتّدبير خرج من «شماخي» قاصدًا «تيمور قپو»، ولم يتوقّف عدوُّ الدين عن القتال يمينًا ويسارًا، وفي اليوم الثّاني عشر، عبروا خلف «تيمور قپو» التي كانت دائماً تحفة العصر على وجه الأرض، والتي اعتاد السّلاطين المتقدمون والمتأخّرون على جعلها نهاية حدود سلطناتهم وحكوماتهم، واستولوا بمشقّة وتعب عظيم على القلعة المتينة والحصْن الحصين الذي لا يحكُمه أحد، ودخلوها، وتحصّنوا بها، وأحكم عساكر الإسلام أيضًا سيطرتَهم على كلّ مكانٍ فيها، وبدأوا في إصلاح وتعمير القلعة المذْكورة، وانْتهجوا أساليب حُسن المعاملة والمعاشرة والألفة مع أجناس وقبائل الحكّام المتواجدين في الأطراف والنّواحي بالنّسبة للزاد والزواد، فقد كان القائدُ ينوي إرسال رسائلَ مبسوطة من أجل إقامةِ علاقات صداقة مع طائفة «طباسران» من جانب، وحاكم قبيلة «قالمون» المعروف باسم «شمخال» من جانب آخر فيما يتعلّق باستقرار الأسعار باستمرار. لكنْ لم يستطع أكثرُ أفراد السپاهية المكلّفين بالحراسة معه تحمّلَ هذا الوضع، ولمّا هربوا بقيَ قلّةٌ من الأشخاص إلى جانب القائد المشار إليه. فشرب أشخاصٌ كثيرون من كأس الشّهادة في المعركة والدّمار الذي حدث، فسقطوا شهداء مع آغوات فرقة «علوفه جيان يسار» وكتخداتهم وضبّاطهم، إلّا أنّ كاتب البلوك «خرم بك» كان قد نجا، وبخروجِ المذكور أيضًا من الحرم المُحْترم، أُحسن عليه بوظيفة «آغا علوفجيان يسار».

ومرّةً أخرى، سُجّلت أسماء الرّجال واتّبعهم أفرادُ الجبة جيه، والمدفعية، وسائقي عربات المدافع وأولاد العجم من ذوي الكفاءة، وبدأوا في توْفير مَن يرغبون من المقاطعات في الحروب والغزوات، وقُيّدت أسماءُ مائة نفر. ومن هذا الجانب، فبحُكمة الله لم يستطع أميرُ أمراء عساكر «أرضروم» «قيطاس باشا»، وبجواره الأمراء المشهورون بالشجاعة من الأمراء والزّعماء والسپاهية لم يستطيعوا مقاومةَ جند القزلباش الملاعين الذين هجموا عليهم في الموْضع المعروف باسم «آرس»، حيث قُدّر استشهادهم، ولم يبقَ أيّ مُحارب، وتشتّت حال دفتردار التيمار «خضر جلبي» مع بقية

العساكر الخائنين والخائفين، وفرّوا كالرياح، حيث توجّهوا إلى «أرضروم» اتّقاء قسوة الشتاء، وسجّلوا مع بقيّة النّاجين، التّرهات والأخبار الوهمية التي حدثت، والتي لم تحدث، وطارت رسائلُ الحوادث لمرْكز الدّولة (الآستانة)، فلم تكنْ تلك الأخبار المشئومة خيرًا لهم؛ إذ وصلت الأحكامُ الهمايونية من مرْكز الدّولة لصلبهم وتعزيرهم، فأقيمت دارٌ للمحاسبة عند بوابة «تبريز» في «أرضروم»، وتمّت مصادرةُ جميع أموالهم لخزينة الدولة، والحقيقة إذا كان هؤلاء قد ذهبوا إلّا أنّ شؤم الأخبار التي كتبوها أثارت عرقَ حسدِ وغيرةِ أربابِ الحقد والحسدِ في مركز الدولة، وأصبحت سببًا لذمّ أكثر أمور وتدابير حضرة القائد صاحب الوقار، وأحاطوا حضرةَ السلطان صاحب العظمة علمًا بجميع الوقائع بعكس ما وقع فعلًا، حيث أوصلوا حميّةَ السّلطنة لحالةٍ من الاضطراب، وكدّروا قلبَ السّلطان المبارك الشّريف، وأظهروا الأفكارَ والتّدابيرَ التي اتّخذها القائدُ على أنّها خطأ، ومن أجل تصْحيحها وتغييرها، أمرَ السلطانُ بتعيين حضرة الوزير «سنان باشا» قائدًا، وصدر الفرمانُ بالإعداد والتّجهيز لحملةٍ ثانية مع جميع أفراد بلوك أولاد السپاهية، وجميع أفراد بلوك عرباء يمين، وخمسة آلاف جنديّ من الينى جرى وكتخداهم «إبراهيم آغا»، ومن قبْل أُرسلت الأحكامُ الشّريفة المؤكدة إلى العساكر ذوي مآثر النّصر المكلفين بالخروج لحمْلة الشّرق، وإلى جميع أميري الأمراء، والأمراء، ولكلّ المعيّنين، وتمّ التّنبيهُ عليهم بـ: «عليكم أنْ تتواجدوا جاهزينَ بجانب قائدي الذي شعاره الظفر في النوروز السلطاني على الحدود المنصورة، وألّا تقيسوا هذا الوقت بغيره من الأوقات».

(الإحسانُ بالوزارة على «سياوش باشا»)

وفي هذه الأثناء، بينما كان أميرُ أمراء الرّوميلي حضرة «سياوش باشا» في الاستراحة في «صوفية»، أُحسنَ عليه بمقام الوزارة، فأُرسل الحكم الهمايوني إليه حتى يأتي إلى مركزِ الدّولة. وصدر فرمانٌ بتوجيه إمارة أمراء الروميلي إلى آغا اليني جرى «محمد آغا». وأُمر بالخروج إلى استراحة صوفية على وجْه السّرعة. فخرج في «غرة صفر»، وأظهر كاملَ العظمَة والوقار.

وقال النّاس: «إنّه في قوّة المرحوم «بياله باشا». ودعوا له قائلين: إنّه «في حدّ ذاته» ذات شريف تظهر عليه سيمُ اللّياقة والسعادة، نشأ وتربّى في ظلّ رعاية حضرة السلطان صاحب السعادة».

ولمّا أُحسن على «سلحدار الخاصّة» «إبراهيم آغا» المقبول والمقرب من داخل القصر؛ برتبةِ آغا الينى جرى، أُمرَ بالخروج بالعزّ والإقبال إلى سراي حضرة الصّدر الأعظم «أحمد باشا»، ونالَ الرّعاية والتقدير بكلّ صورة، في السّنةِ المرقومة.

(ذهابُ كتخدا البوّابين (كتخدا قيوجيان) «قورد آغا» مع بوّابي باب السّعادة لجانب السّردار مصطفى پاشا في أرضروم)

ذاتَ سحر، لم يُرَ كتخدا البوابين «قورد آغا» بين أهل الدّيوان. وشاع الخبر بأنّه أُرسل ليلًا على عُجالة مع عشرين نفرًا من البوّابين لجانب القائد «مصطفى باشا». وخلال وقت قصير، وصل على عُجالة إلى القائد «مصطفى باشا» عند «أرضروم»، وقيد أيدي كلّ مِن دفتردار «أرضروم» القائد «لاله عزار زاده أحمد أفندي» المقرب، والـ «تذكرجي» «تاج زاده محمد جلبي» في السّلاسل. ولمّا لم يتحقّق الظّفر للقائد «مصطفى باشا»، وُجه مقامُ السّردارية لحضرة «سنان باشا»، وصدرَ إليه الأمرُ القائل: «إنّهم يريدونكم في الآستانة». وأخذَ المذكوريْن «أحمد أفندي» و«محمد جلبي»، وأحضرهما إلى «استانبول». وعندما عُلم بخبرِ مجيئه إلى الميناء، صدر فرمانٌ نصّه: «عليك أن تحضر المذكورين ماشيَيْن، وأن تحبسَهما في سجن القلاع السّبع (يدي قله). عندئذ نظر «قوجه لالا عزار أفندي» من بعيدٍ إلى نجله «أحمد جلبي» المذكور باكي العين محْروق القلب، فأذن له بمقابلته. في التاريخ المذكور.

(وقوعُ بعض حوادثِ العصر، ومجيء القائدِ السابق «مصطفى پاشا» إلى مركز الدولة)

صدرَ فرمانٌ فجأةً بعزل أليف وصديقِ الصدر الأعظم حضرة «أحمد باشا»، دفتردار التّيمار في الجزائر «خيالي بك زاده عمر أفندي»، و[حبسه في سجن القلاع السبع (يدي قله)، وصدرَ فرمانٌ أيضًا بالإحسانِ على «ابه زاده» بوظيفة دفتردار «الجزائر». وعزل أيضًا «رئيس

الكتاب» «عبد المحيي جلبي»، وعُيّن بدلًا منه «أوقجي زاده» رئيسًا للكتاب. وبسبب حالة الهياج هذه والاضطراب، مرض الصدر الأعظم «أحمد باشا» ولم يستطع الحضورَ للدّيوان الهمايوني. وجاء حضرةُ القائد السابق «مصطفى باشا» إلى «اسكدار»، حيث شاهد خيامَ حضرة «اسنان باشا»، وركب من الميناء، وعندما وصل إلى السراي، لم يسترحْ، وجاءَ لعيادة الوزير الأعظم «أحمد باشا» ودعا له عارضًا النّية ومبديًا التّأثر. في ربيع الأول سنة ٩٨٨هـ/ أبريل ١٥٨٠م.

(وفاةُ الصّدرِ الأعظم «أحمد پاشا»، وتوكيلُ الوزير «مصطفى پاشا» بأعمال الوزارة)

في ربيع الأوّل من السّنة المذكورة، لم يتيسّر الشفاء للصدر الأعظم «أحمد باشا» من المرضِ الذي ابتُلي به، وودّع الدنيا الفانية، واخْتار العالم الأبدي، والحقيقة أنه لم يُعطِ خاتمَ الصدارة «لمصطفى باشا».

لكنْ أُمر للخروج للحملة، حيث كان مولعًا بكلام المنجّمين، ولم يصل الخاتم أيضًا لصاحبِ الدّولَة المترقّب له. وفي هذه الأثناء، عُزل الفقيرُ سلانيكي من إدارة مقاطعة «الحرمين الشريفين» (حرمين شريفين مقاطعة جيلغي)، كما عُزل «فتان محمد جلبي» من إدارة مقاطعة «استانبول» (استانبول مقاطعه جيلغي) في سنة ٩٨٨هـ/ ١٥٨٠م.

(الإحسانُ بالوزارة على سعادةِ «مصطفى باشا»)

تعلّقت مصالحُ المسلمين، وقضايا الدّين والدّولة، وأمور جمهور الملك والملّة، ومهمّات السّلطنة، بالرّأي الرزين، والفكر الثّاقب، البعيد لحضرة الوزير المتديّن الفقيه بالشريعة «مصطفى باشا» المشهور، وشوهدَ كلّ ذلك من أعمالِ يديْه وأقوال لسانه، واستمرّ على ذلك.

وأمّا رعايا الدولة، فعندما راحوا يقدّمون العرضحالات الكثيرة جدًّا قائلين: «سلطاننا، إنّه لا يعملُ بالعروض التي هي دونَ خاتم»، صدر خطُّ همايوني مفصل

يقول: «بأنّ قولَ حضرة السّلطان عالي الأصل لا يفيد، وأنّ إعطاء الخاتم ليس ضروريًّا، ومن الآن فصاعدًا، لا يُعطى الخاتمُ لأحد، وكافّة أمور الملك سوف تكون لدى وكيلِ السّلطنة. وأنّ كلّ مَن لم يطعْه وينقاد إليه، عليك أن تصلبه أمام بابه».

وبناءً على هذا الأمر، بدأت تُباشر الأمورَ الديوانية بمعرفة حضرة الوزير «مصطفى باشا» لأيامٍ كثيرة.

(ذهابُ كتخدا البوّابين «حسن آغا» إلى القائد الأكرم «سنان باشا» من أجل إيصالِ خاتم الصّدارة العظمى، ومجيء سفير القزلباش، ووفاة «مصطفى باشا»)

في أحدِ الأيّام فجأة، تجهّز كتخدا البوّابين «يمشجي حسن آغا» مع عشرين شخصًا من البوّابين (قپوجيلر) للتحرّك، حيث وصلوا على عجالةٍ للقائد الأكرم حضرة «سنان باشا» الموجود في الحملة بدعوى أنّ هناك «أمور مهمّة». وبينما كانا يتنزهان بمفردهما في صحراء قلاع «تفليس، وطومانس» سلمه خاتم العزة، حيث بلغ مقام الدّولة والعزة. وفي هذه الأثناء، أرسل شاه العجم «محمد خدابنده» رسالةً مع السفير المعروف باسم السّلطان من أجل صُلح وصلاح العالم، حيث طلب رضا المولى.. فلمّا رجا اللّطف بقوله: «لقد غبّر العجزةُ والمساكين عنده الوجْهَ بتراب القدم، ولن نستطيعَ أن نجيب في الآخرة»؛ جاء السّفيرُ المذكور إلى مركز الدّولة وخرج العساكر لاستقباله من الميناء، وبينما كان أهالي المدينة في حالةٍ من الازدحام والضوضاء، تضرع الوزيرُ الغيور «مصطفى باشا» إلى مقامِ الأحديّة بالآه والحسرة بسبب الخزي الذي لحق به، وعندما دعا بقوله: «يا ربّي، أمتنيَ»؛ استجيب دعاؤه في الحال، فأدركته الجذبةُ الإلهية، وأسرع مِن هذه الدّنيا الزائلة إلى روضة الرّضوان، وودّعَ العالم الفاني «رحمة الله عليه».

(تعيينُ «سياوش باشا» «قائمقام» و«محمد باشا» «نشانجي»)

في اليوم التّالي، أصبح حضرةُ «سياوش باشا» قائمقامَ صدر الوزارة، وبينما كان موجودًا بمفردِه في الديوان العالي، وبناءً على رغبة «محمد باشا» الذي كان أمير أمراء «حلب» وجاءَ إلى الآستانة، بأنْ يصبح كاتب طغراء (طغراكش) الديوان مرّة ثانية؛ لُبي طلبُه في حضور سلطان الأرض والزمان.

والحقيقةُ أنّ بقيّةِ السّلف الباقين في الخاطر على الدوام، أدركوا الدنيا، وليس هناك ريبٌ وشكٌ في قدرتهم على الإجابةِ على عامّة الناس بموجب الشرع والقانون، ولمّا وصل بالأمر السّلطان لمنصب الوزارة استحقاقًا بحسب الذات والمكان؛ أصبح باعثًا على ألم وحسرةِ أشخاص كثيرين.

ولمّا كان هذا الحقيرُ سلانيكي، متواجدًا في خدمة «دواتدار لق» الوزير المومأ إليه لمدة أربعِ سنوات، فقد رآه كالبحر الزّاخرِ في الكرم، ووجده وزيرًا مشرعًا بلا نظير، فلم يخرج عنْ طريق السّلف بحسب أسلوب المتقدّمين، فلم يغيّر من منهجِه. وكان مهتمًّا بأحوال النّاس غير اللائقة، ويحزن لتغيّرات وتبْديلات الأمور التي كانت تقع، فاحترقَ فؤاده لها. وقال: «إنّ بابَ الرّشوة الذي فُتح في هذه السّلطنة لا يشير إلى بقائها. وكان يقرأ آيات الحقّ: ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[1]، ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾[2]، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[3]، وصدر الأمرُ بتعيين «رئيس الكتاب» «حمزة جلبي» نشانجيًّا، وتعيين «عبد المحي» أيضًا رئيسًا للديوان.

(مجيء حضرة «سنان باشا» مسرعًا من الحملة إلى مركز الدّولة، وجلوسُه في منصب الوكالة العظمى)

لم يستطعْ حضرةُ «سنان باشا»- ولم يتمكّن من- تشريف الوجْه بتلك الدرجة في الحمْلة، وبينما كان شاه العجم يرسلُ السفير بطلب الصّلح والصلاح بشكلٍ مستمر، ولمّا كان العسكرُ المنصورة على غير رغبةٍ في القتال قائلين: «الصّلح خير»، وقامَ «سنان باشا» بترك العساكر ليستريحوا في صحراء «أرضروم» مع أمراء الأمراء، وبقيَ أميرُ أمراء «أرضروم» «رضوان باشا» وأميرُ أمراء «ديار بكر» «بهرام باشا»،

---

(١)الآية ١٦ سورة فاطر.

(٢)الآية ١٧ سورة فاطر.

(٣)الآية ١٩ سورة العنكبوت.

وأميرُ أمراء «سيواس» جميعًا في المحافظةِ على هذه الاستراحة. وفي سنة ٩٨٩هـ/ ١٥٨١م جاء هوَ بمفرده مُسرعًا إلى السّدة التي مآبُها السعادة، وشرع في تدبير أمور الملك والملّة.

(تعيينُ «فريدون بك» نشانجي مرّةً ثانية، وصدورُ فرمان تزويجه «عائشة سلطان»)

عندما كان «فريدون بك» أميرُ سنجاق «كوستنديل»، والذي ارتقى لمقام النشانجية (نشانجيلق) عائدًا من الحمْلة، وبينما كان مُقيماً في مزرعته المعروفة باسم «يكيجه» التي تدخلُ ضمن منطقة «أقحصار» القضائية في الأناضول، أُرسلت إليه تذكرة شريفة بخطٍّ همايوني، نصُّها: «عليك بالمجيء حتى تكون في خدمة رئاسة النشانجية (نشانجيلق)».

وأعقبَه صدورُ حكْم همايونيّ آخر إليه، نصُّه: «لقد وجّه سنجقك إلى شخص آخر، وعليك بالمجيء حتّى تكونَ في خدمة الطغراء الشريفة».

ومِن ناحيةٍ أخرى، لم يقبلْ «حمزة بك» الذي غدا معزولاً من منصب رئاسة النشانجية (نشانجيلق)، وإمارة سنجاق «كوستنديل»، حيث فضّل العزل، وترقّب اتّجاه الرياح، وخرج بصحبةِ القراصنة، وقال: «ربّما تأتي الأيامُ بالفرصة»، وقدر الاتّجاه بالبوصلة، ورحل. «في سنة ٩٨٩هـ/ ١٥٨١م».

(عقدُ زواج ابنةِ المرحوم «رستم پاشا» حضرة «عائشة سلطان «لـ «فريدون بك»)

عند بزوغ شرف ضياء الشمس في «شهر ربيع الأول من سنة ٩٩٠هـ/ مارس ١٥٨٢م»، جاء جميعُ أركان الدولة، وأُقيمت في قاعةِ ديوان المرحوم «أحمد باشا» الضّيافةُ العالية للجميع. أمّا الصّدرُ الأعظم «سنان باشا» فكان له نظرةٌ مُغرضة لهذه العائلة القديمة، خاصّة أنّه لم يستحسن اقْتران «فريدون بك» بصحبة السلطانة المُشار إليها، وكلّما ذكر فريدون في مجلسه ذكَرَه بكلامٍ فظّ، ولمّا كان غافلاً عن مفهوم هذه المنظومة فقد أوردتها في هذا الموضع.

(منظومة)

اللهُ تعالى وراء كلِّ سببٍ، وهوَ «مسبّبُ الأسباب»

فهو «مقلّبُ الأحوال» مهْمَا يكون هذا الحال

«مُنزّل البركات مُقسّم الأرزاق

«مُبدّل الحركات مُقدّر الآجال»[1].

(نثر):

خلاصةُ القول: كان «محمد آغا» آغا دارِ السّعادة وكيلًا عن السلطانة المشار إليها، والـ «ميرِ علم» محمود آغا وكيلًا عن النّشانَجي «فريدون بك». وعقد شيخ الإسلام «جوى زاده أفندي» الزّواج بخمس وثلاثين ألف ذهبية.

وكنتُ أنا الفقير سلانيكي أيضًا «شاهدًا للمجلس». «الواقع في ١٢ ربيع الأول سنة ٩٩٠هـ/ مارس ١٥٨٢م». وعند وصول بُشرى عقد الزواج هذا؛ كان عددُ الناس الذين نالوا الشّرفَ بالأقمشة المتنوّعة والخلع الفاخرة المبذولة لهم فوق الحدّ، حتّى كنت أنا هذا الفقير أقومُ بتحريرها بالدفاتر. وكان قد أُحسن على هذا الفقير أيضًا- سلانيكي- عندَ عتبة حضرة السلطان بخلعتيْن فاخرتين.

وعندَ شروق شرفِ ضوءِ شمس السّنة المذكورة الذي كان يوافق «نوروز خوارزم شاه» أُقيمتِ الضّيافةُ العالية لأركان الدّولة، وكان المُشار إليه «فريدون بك» رجلًا سخيًّا، وذا خُلقٍ كريم، حيث أحسن بالصّدقات الوفيرة، والأموال التي ليس لها حدود، وأصبح ما بذله مقبولًا لدى الناس..

---

(١) قوسبده جلبدر مسبب الاسباب

نه حال اولور ايسه اولدر مقلب الأحوال

منزل البركات مقسم الارزاق

مبـــدل الحركـــات مقـــدر الآجال

(قصّةُ الاحتفالِ الهمايوني بمناسبةِ خِتان وليّ العهد السّلطان «محمد خان» وسائر تدبيرات المملكة)

في تاريخ سنة ٩٩٠هـ/ ١٥٨٢م أعدّ حضرةُ سلطان المكان والزمان السلطان «مراد خان» «أيّده الله وقوّاه» الاحتفالَ السلطانيّ المليء بالسّرور على نحو عجيب وأسلوب غريب، وذلك بغرضِ خِتان وليّ العهد المحظوظ واللّائق بالتاجِ والعرش حضرة السلطان «محمد» في هذه السنة التي كان طالعُها سعيدًا. ولمّا كان من الضروري تأخير الجهود العالية المبذولة بخصوص حملة الشّرق؛ فقدْ صدر فرمانٌ في الحال بالتنبيه الأكيد، الصّارم على: «أنْ تكون نواحي الحدود المنْصورة خاضعة للحماية من أعداء الدين والدّولة، وأنْ يعبر أمير أمراء «سيواس» «جركس حيدر باشا» بجميع عساكر «سيواس» البحر الأسود من ميناء «صامصون» لجانب الوزير المكرم «عثمان باشا» المكلّف بمهمّة الحراسة عند «باب الأبواب» يعني «تيمور قپو» التي تقع في أرض «شيراون»، وأن يصبح أميرُ أمراء ولاية «كفه» الواقعة على السّاحل المقابل، «جعفر باشا»؛ سردارًا على أرض «شيراون»، وأنْ ينضمّ إليهم أمراءُ فرق الفيلق الأيمن والفيلق الأيسر لجند الروميلي بجميع زعمائه وسباهيته، وأن ينتظرَ أبطال ميدان الحرب، والقتال من خدم الباب، وبلوك السّلحدارية بجميع آغواتهم وكتخداتهم، ونحو ألف وخمسمائة نفرٍ من جند الينى جرى مع رئيس السّكبان أنْ ينتظروا الموسم، عند ساحل صحراء «قبجاق»، وأن يصلوا إلى المُشار إليه الوزير البطل «عثمان باشا» ويلتقوا به هناك، وأنْ يقوموا بإيصال الخزينة التي تسلّموها إليه». وقد تمّ توفيرُ هذا المقدار بالكاد من المستلزمات المتعلّقة بالحمْلة، وصدر الأمرُ به.

(إرسالُ الأخبار إلى حكّام المهالك المحروسة وسائر الملوك من أجل الاحتفال بختان وليّ العهد)

وبناءً على إرسال خدم فرقة (جاشيكير) وفرقة «المتفرّقة» مقدّمًا بمقتضى الفرمانات الشّريفة، وبحسب القانون القديم إلى أميري أمراء المهالك المحروسة، وسائر الأمراء، لإخبارهم ببشارةِ الاحتفال السّلطاني بختان وليّ العهد، وإعلامهم بهذا الأمر،

علم الملوكُ والسلاطين الموجودون في الأطراف والنواحي والأقاليم وأحاطوا علماً بالبشارة، فأرسلوا إلى العرش المعلّا التُّحف والهدايا مع السّفراء، وعندما جاءوا للتهنئة المباركة لتقديم فروض الطّاعة والدّعاء للسلطان، بناءً على الأصول القديمة للسلطنة والعادات القديمة لم يتوانوا دقيقةً واحدة في إظهار التّعظيم والتقدير اللائق لمقام السلطنة. وعُهد توفيرُ احتياجات الاحتفال السّلطاني لذوي الخبرة والتجربة، حيث كان قد لوحظ أنّ كلّ الأمور كانت في موضعها.

أوّلًا: أحضر صاحبُ الاعتبار حاكم «قم وكشان»، والمعتمد عليه «إبراهيم خان تواجي» الذي كان من قبيلةِ التّركمان رسالةً من قبَل شاه العجم حاكم «إيران وتوران» السلطان «محمد خدابنده»، مع ألفِ نفر من القزلباش، وعددِ كبير من الرجال المعتمدين والمُنتخبين من فرق الحرس، وأيضًا التّحف المتنوّعة من أجل طلب الصلح والصلاح من جديد، وهنأوه.

وجاء- أيضًا- سلطانُ «جغتاي» سفير «عبد الله خان» الذي كان من بلاد ما وراء النّهر، وسمرقند، وبخارى»، ومِن الطّائفة السنية التي كانت معروفة باسم «اوزبكلر» جاء بالرّسالة، ووصلت- أيضًا- التّحف والهدايا من قِبَل كلّ مَن خان ولاية «القرم»، و«قبچاق»، وحاكم بلاد المغرب و«مولى ملوك» ولاية فاس ومراكش، وبناءً على القانون العثماني القديم قُبلت الهدايا من كلّ مِن «لوندخان»، و«سيمون خان»، و«داديان خان» من خانات «كورجستان»، وأيضًا من ملوك «مسقو» و«انكروس» و«له»: ومِن رجال كلّ مِن «الألمان»، و«چه»، و«ونديك»، و«دوبره ونديك»، والأفلاق، والبغدان، حيث أدوا واجبهم تجاه السّلطان].

(توفيرُ الاحتياجاتِ الضّرورية من أجل لوازم الاحتفال بالختان السلطاني)

أصبحَ «قره بالي بك» الذي كان من «متفرّقة» البلاط العالي، والذي كان أمين المطبخ العامرة سابقًا، أصبحَ أمينًا مقرّبًا لدى السلطان، وصدر فرمانٌ بتعيين حضرة «حمزة بك» المكلّف بوظيفة النّشانجية (نشانجيلق) في مركز الدولة، ناظرًا لمصاريف ولوازم الاحتفال الهمايوني، وذلك على أثر تشكيلِ قلمٍ مستقلّ من أجل

مصاريف الاحتفال الهمايوني. وسُلّم إلى الأمين والناظر المذكورين قبل الاحتفال بستة أشهر خمسون كيس آقجة من الخزينة العامرة على دفعاتٍ من أجل لوازم ومصاريف الاحتفال الهمايوني، وقد يكون ضروريًّا تفصيل محاسبة إجمالي هذه المصروفات فيما بعد.

وضعت لوازمُ مخزن المؤن في قصر المرحوم «سنان باشا» الذي توفي بينما كان قبْطانًا، في «آت ميداني» الواقع في دار السّلطنة العليّة، حيث أنشأوا المطابخ والمواقد في الميدان أمامَ الفرن الميري، وابتكروا صناعةَ الصّحون والصوان الغميقة من النحاس الذي تزيد نسبتُه عن ذي ثلاثِ وقيات ونصف، يعني ما يبلغ ثمنُه أكثرَ من ألفي درهم. وقد أصبح عددُ هذه الصّحون والصواني جميعًا نحو ألف وخمسمائة. وكانت كلّ واحدةٍ منها تستوعب أرزًا مطحونًا بأكملها، ويلزم فتًى يافع القوّة حتى يستطيع حمل إحداها. وبناءً على هذا الأسلوب، مِن أجل تكليف ستمائة نفر سپاهي من الأقوياء لخدمةِ هذا الاحتفال حُرّرت الأوامر، نصُّها: «عليهم ألّا يضيّعوا دقيقةً واحدة في التّجهيز والاهتمام بما كُلّفوا به». وعُيّن رئيسُ الجبه جيه «حسين آغا» بجميع عسكر بلوكه البالغ ألف نفرٍ لخدمة الاحتفال بالختان الهمايوني].

(تجهيزُ المسْرح للاحتفال بالختانِ الهمايوني)

تمّ إصلاحُ سراي المرحوم «إبراهيم باشا» وترميمُه مِن جديد، وغُيّر السّلم والباب اللذيْن يطلّان على جانب «آت ميداني» من الخارج، وأُقيم مكانه قصرٌ عالٍ ذو برج لم ترَ عينُ الأيام مثله. وفُتح البابُ من ركن السّراي، وأُمر بإنشاء قاعة ديوان طولها خمسة وتسعون ذراعًا على درجاتٍ طويلة في مركز فرقة الموسيقى العسكرية العامرة من أجل جميع أركان الدّولة وأعيان الحضرة. وأُبرز على درجته السفلية الموضع الذي خُصص لسفراء الكفرة لمشاهدة الاحتفال الهمايوني، وخُصّصت مقصورة مشاهدة لجلوس شقيق خان التّتار مع سفير «له» في النّاحية المقابلة لموضع جلوس أبناء الخان، وفي الصباح والمساء كانت تقدّم أنواع النعم: مائدتان طعام خاصّ لأبناء الخان،

ومائدتان طعام لسفير «له». وكانت تقدّم للسفير «إبراهيم خان» ثلاثُ موائد ذات طعام خاص، وثلاثُ موائد ذات طعام عاديّ، وكانت كلّ مائدة من الطعام الخاص بخمسة عشر نوعًا، وكلّ مائدةٍ من الطّعام العادي تسعة أنواع. وكان أربابُ التنزه والصفاء يصرفون الأموال الكثيرةَ في نواحي الميدان، وأمروا بإقامةِ الحفل العالي، وعمّروا القصور الصغيرة والبيوت الخشبية الموجودة في ناحية «أرسلان خانه»، حيث لم يكن هناك حدٌّ ولا نهاية للمشاهدة والتنزّه ليلَ ونهار.

(الأماكنُ التي سيقيم فيها أركانُ الدّولة)

دخلَ حضرةُ الوزير الأعظم «سنان باشا» إلى الحجرة الموجودة أعلى الباب الجديد المفتوح. ودخل حضرةُ «مسيح باشا» إلى الحجرة الموجودة في أحد الجوانب، ودخل أميرُ أمراء الرّوميلي حضرة «إبراهيم باشا» إلى الحجرة الموجودة في الجانب الآخر، وجعلَ حضرة «سياوش باشا» و«محمد باشا» الحجرة الموجودة أعلى باب فرقة الموسيقى العسكرية، موضع المشاهدة وأقاموا بها. وأخذ دفتردار الأناضول «عبد المجيد أفندي»، ودفتردار الشّق الثاني «محمود أفندي» الحجرات الموجودة أعلى مركز فرقة الموسيقى العسكرية؛ وجلس أميرُ أمراء الأناضول حضرة «جعفر باشا»، وأمير أمراء الشام حضرة «محمد باشا زاده حسين باشا» معًا في الحجرة الموجودة أعلى باب فرقة الموسيقى العسكرية. وأمر القبطانُ حضرة «قليج علي باشا» النّجارين من عمال التجديف أنْ يقوموا منذُ الصباح حتى المساء بإنشاء حجرةٍ جديدة في الطّرف السفلي، وأقام بها. فأوقف المشاهدة والتنزّه عند تمامها قائلًا: «ليعلّموا فيها القرآنَ العظيم لأطفال المسلمين». وصدر الأمرُ السّلطاني، نصُّه: «على قاضي عسكر الروميلي وقاضي عسكر الأناضول (صدرين أفنديلر) أنْ يستمّعَا للدّعاوى الشرعية في منزليهما، وأنْ يعقدا الدّيوان «كما كان»، وليجيبا على ذوي المصالح».

«في يوم الخميس جمادى الأولى سنة ٩٩٠هـ/ مايو١٥٨٢م، وفي هذه الليلة، تمّ الختان لحضرة وليّ العهد، ولمّا علم السلطان صاحبُ السعادة أنّ حضرة الوزير «محمد باشا» صاحبَ مهارةٍ فائقة في فنّ الجراحة، أصدر فرمانه الهمايوني، نصُّه:

«لا يؤتمن الأغيارُ على هذا السّر». فعندما أدّى الوزير مهمّةَ إجراء الختان، أُحسن عليه بخمسمائة من العملةِ الشّريفة، وإبريق، وعدد ثلاثين ثوبًا من أقمشة الـ «سراسر» المتنوّعة، بخلاف نيْله الشّرف بأنواع الخلع الفاخرة.

وأُقيمتْ على هذا المنوال الضّيافات، والمشاهدات، والتنزّهات المختلفة ليلًا ونهارًا طوال خمسةٍ وخمسين يومًا على التّوالي، بحيث أنّ شرحها وبيانها لم يكنْ في الحدّ والإمكان، وقد تمّ تناولُ الموضوع وقتًا آخر حيث حُرّرت تفصيلًا.

وفي الوقت الذي كانت فيه الاحتفالاتُ على وشك الختام، وقع بين طائفة السپاهية التي تخرّجت من (مدارس) الدّاخل والبيني جرى، النزاع والمشاجرة على ما اعتادوا عليه منذُ القدم، وأحضر شخص أو شخصان من المثمولين وسيّئى الطّالع كميّتين، وشوهدوا مِن نافذة القصر الذي يجلس فيه السّلطان فلكي الوقار. فصدر الأمر بعزل آغا البيني جرى «فرهاد آغا»، وآغا السپاهية «عثمان آغا»، ورئيس السلحدارية بسبب أنهم تركوهما ملقَيْن على الأرض، وبتغيير أمير العلم «سنان آغا» آغا للبيني جرى، وأيضًا آغا السپاهية، ورئيس السلحدارية؛ تمّت السيطرةُ على المشاجرة، وخمدت الفتنة، وتمّ الحفل السّلطاني في ٣رجب سنة ٩٩٠هـ/ يوليو ١٥٨٢م].

وذاتَ يوم عقد حضرةُ الصّدر الأعظم «سنان باشا» المجلس العالي، وجلس مفتي الأنام «معلول زاده أفندي» و«خواجه أفندي»، وسائر العلماء الكرام بناءً على مراتبهم، وأُقيمت مائدةٌ لائقة، وفي يوم آخر أُقيمت مائدةٌ أخرى للسّادة والأشراف. وفي يوم آخر أيضًا أُعدّت مائدة وإكرامٌ المشايخ الكرام.

(تاريخ) طقوزيوز طقسانده سنت اولدي= تاريخ ٩٩٠ (تمّ إجراء الختان في عام ٩٩٠ هجرية).

ولم تشبه الاجتماعات التي حدثت في عصور سلاطين آل عثمان- رحمهم الله سابقًا- اجتماعات هذا الختان قطعًا، فكان السّلاطين السابقون يجلسون إلى صدر السعادة بالذّات، حيث كان جميعُ أركان الدّولة وعلماء الدين يعقدون مناقشات علمية، ومجلسًا عالٍ، وعندئذٍ كانت الأوامر تصدرُ بالتّنبيه على العلماء، نصُّها:

«فلتفسر الآيات القرآنية من القرآن العظيم والفرقان الكريم». لكنْ في هذا الختان، لم يستطع كلّ مِن «خواجه أفندي»، ومفتي الأنام «معلول زاده أفندي»، و«بوستان زاده أفندي»، و«جوى زاده أفندي»، و«منلا عوض»، و«شيخ أفندي، وآخرون الاتفاق والاتّحاد، ووقعوا في مشكلة الوقوفِ والجلوس، فكان عدمُ صفاء الخاطر مانعًا قويًّا لتكرار ما كان يحدث من علماء الدّين من قبْلُ في مثل هذه المناسبات.

(«طرد جوجه نصوح آغا»، وخذلان مربّيه، وتبديلات المناصب السلطانية)

لمّا طُرد مُقرّب السّلطان فلكي الوقار «جوجه نصوح آغا» من القرب الهمايوني نظرًا لأنّه له علاقةٌ مع أهالي النّواحي، وأنّه مختلطٌ معهم تمامًا، صدر الحكمُ الشريف إلى أميرِ أمراء الأناضول، نصُّه: «بناءً على إبعاد وطردِ نصوح آغا، ينبغي عليكَ أن توفّر مقاطعة زعامة قدرُها أربعون ألف آقجة من الزّعامات المحلولة، وأن تُعطى لنصوح آغا مع رتبةٍ متفرّقة الباب العالي». وعندئذٍ خرج «نصوح آغا» المذكور إلى سراي أمير أمراء الرّوميلي «إبراهيم باشا». وفي هذه الأثناء، صدر فرمان بـ: (عزل رئيس الدفتردارية «أوقجى زاده محمد جلبي»، ودفتردار الأناضول «سنان أفندي»، ودفتردار الشق الثاني «أحمد جلبي» جميعًا، وترقية دفتردار ولاية «حلب» «إبراهيم أفندي» لوظيفة رئيس الدّفتردارية، وتعْيين رئيس كتاب الوقائع اليومية «محمود جلبي» دفتردار الشق الثاني. ووُجّهت التّعيينات لكتبةِ الخزينة العامرة بحسب درجاتهم. ولّما تمّ العثور على بعض تذاكر الرّشوة في كيس حجج التّمليك الخاصّة «بجوجه نصوح آغا» تقول بأنه: «يوجد مبلغٌ عظيم من مال الرّشوة لدى «أوقجي زاده أفندي» المعزول). صدر فرمان بأن يقوم آغا الينى جرى «فرهاد باشا» بإيداعه الحبس، وبتفتيشه. وقد عُيّن «بوستان زاده أفندي» المتقاعد من صدارةِ الرّوم لتفتيشه، فلمّا أثبت بأنّ دفتردار الأناضول «سنان أفندي» كان قد حصلَ على رشوة «جوجه» المذكور، وظهر بعضُ المدّعين، حيث طلبوا حقوقهم، عندئذٍ أودع المومأ إليه «سنان أفندي» سجنَ أمير أمراء الروميلي «إبراهيم باشا»، وتمّ تعْيين الى «منلا جلبي أفندي»

المتقاعد من صدارة الأناضول للتفتيش على سنان أفندي، وحُبس «جوجه نصوح آغا» في سجن القلاع السبع (يدي قله).

وقد عثر الذين قاموا بعمليات التفتيش والـ «دفتردار أفنديلر» على مقدارٍ من الذهب والأموال موجودة تحت كومةِ حطب، وأيضًا في الأماكن الممكن أن تخبئ بها هذه الأموال، حيث تمّت مصادرتها، وسُلّمت أغراض «نصوح آغا» المذكور المرصّعة والمجوهرة ليدِ أمير الإسطبل «قورد آغا». وعمومًا، فقد ظهرت أكثرُ أمواله التي جمعت بالزّجر والقهر بعد أن انتقص من شرفه كثيرًا.

(عزلُ الوزير الأعظم حضرة «سنان پاشا»)

في يوم الاثنين العاشر من ذي القعدة سنة ٩٩٠هـ/ نوفمبر ١٥٨٢م، وعلى أثر عقد حضرةِ الوزير الأعظم «سنان باشا» ديوان العصر (ايكندى ديواني) جاء الأمراء، وبينما كانوا مُجتمعين، أرسل حضرةُ السّلطان حامي العام الآغا كتخدا البوابين حيث أمره بأخذ خاتم العزّة، وبعزل الوزير الأعظم.

(وبعدَ ذلك يأتي خذلانُ أتباعه)

حيث صدرَ فرمانٌ بحبس المتفرّقة «كنعان بك»، وأمين «غلطه» «ميخاليجلو أحمد جاوش»، وال» تذكرجى كاتب الديوان «لام علي جلبي»، و«مصطفى جاوش» المعروف باسم «ماسنجي» وكاتب الشّعير «جعفر جلبي» الذين هُم من أتباع نصوح آغا، حبسهم جميعًا في سجن الـ «يدي قله».

(صدرَ الفرمانُ بمجيء «سنان باشا» إلى «معلقره» مثل المرحوم سليمان باشا)

وبينما كان المومأ إليه «سنان باشا» يشعرُ بالمعاناة في حديقة «اسكدار»، وتارة أخرى في مزرعته، ويعاني ألمَ الحسرة، صدر فرمانٌ، نصُّه: « فلا يُحمل «سنان باشا» الأثقال والأعباءَ على ذخائر «استانبول»، وليقيمَ في «معلقره» فهي موضع ذو عشبٍ وماء». وبمقتضى مفهوم: (مصرع) إنّ صوت الطبل يكون رنّانًا من بعيد[1].

(نثر) بدأوا بالتّرحيب به من بعيد، في التاريخ المرقوم.

---

(١) اوز دهل شنيدن از دور خوشست

(الإحسانُ بمنْصب صدْرِ الوزارة، وبخاتِم العزّة على حضرة «سياوش باشا»)

في يوم الاثنين الثامن والعشرين من ذي القعدة من السنة المرقومة، وبموجب الفرمان السّلطاني، أحضر كتخدا البوّابين خاتمَ الصدارة العظمى الشريف إلى الديوان العالي، وسلّمه لحضرة «سياوش باشا»، وفي اليوم الذي أحسن فيه على «إبراهيم باشا» بمنصب الوزارة، صدرَ فرمانٌ بالإنعام على القبطان «قليج علي باشا» برتبة الـ (صاغديجي). ولمّا تمّ التّنبيهُ عليه بضرورة توفير الأشياء المرصّعة اللازمة من أجل عرس عائشة سلطان التي ستخرُج من السراي الهمايوني لسرايه، جدّ في توفيرها. «في أواخر ذي القعدة سنة ٩٩٠هـ/ نوفمبر ١٥٨٢م.

(ترقيةُ «فرهاد آغا» الذي خرج من وظيفة آغا الينى جرى، أمير أمراء، وتعيينُه سردارًا)

في يوم الأربعاء الموافق الثّالث من شهر ذي الحجة آخر السنة المرقومة، أصبح «فرهاد آغا» المعزول من وظيفة آغا الينى جرى نتيجة المشاجرة التي وقعت بين السپاهية والينى جرى أثناءَ الاحتفال السلطاني بختان وليّ العهد؛ أمير أمراء الروميلي، وبعدَ ذلك نال الشّرفَ بمنصب الوزارة. وعلى الفور، وفي تلك الأثناء، صدر فرمانٌ بخروجه لحملةِ الشّرق، وتعيينه سردارًا للعساكر المنصورة المأمورين للحملة، وأصبح أميرَ أمراء الأناضول حضرة «جعفر باشا»، أمير أمراء الروميلي. ولمّا تواجد «رضوان باشا» المعزول من وظيفةِ أمير أمراء أرضروم في مقام الملازمة في مركز الدولة، صدرَ فرمانٌ بتعيينه أمير أمراء الأناضول «في أوائل ذي الحجة سنة ٩٩٠هـ/ ديسمبر ١٥٨٢م.

(ضعفُ «كورجستان»، وارتدادُ أمير أمراء «چلدر» «منوجهر مصطفى پاشا»)

في «أواسط ذي الحجّة الموافق سلخ السّنة، جاءت الأخبار من عند أميري الأمراء الذين اجْتمعوا في المناطق الشرقية، نصُّها: «لمّا ارتدّ عن الإسلام أميرُ أمراء «چلدر» «منوجهر مصطفى باشا» الذي اختار أنْ يكون صهرَ حاكم «كورجستان» المخادع

والدّساس «سيمون» اللّعين، وكان مِن قبيلة «قارى أوغلو» التي دخلت للإسلام، لما ارتدّ لم يستطعْ أميرُ الأمراء الموجود على المقاطعة إحسان الرأي والتدبير، وعلى أثر كشف تدْبيراته التي اتّخذها لإلقاء القبضِ على اللعين المذكور منوچهر، أُسر أمير أمراء «ديار بكر» «خادم محمد»، وسقطت أذنه، ونجا أميرُ أمراء أرضروم «محمد باشا»، وتخلّص من يدِ المرتدّ، وانتهز كفّار الكورجستان الفرصة، وقاموا بنهب رواتب الخدم الذاهبين إلى «تفليس» مثيرين الفتنة، حتّى أنّ «منوچهر» اللّعين أيضًا قد نجا من أيديهم. وبناءً على سوءِ تدابيرهم في القبض على «منوچهر» المذكور، صدر الأمر بعزل أميري الأمراء المذكورين أمير أمراء أرضروم وأمير أمراء ديار بكر)، وبتوجيه إمارة أمراء «أرضروم» إلى «فرهاد باشا زاده محمد باشا»، وإمارة أمراء «ديار بكر» إلى « قباد باشا زاده سليمان باشا».

(ذهابُ الوزير المكرّم «إبراهيم باشا» لتصحيح أحوال «ديار مصر»، ووصوله مع القبطان «قليج علي پاشا» بالأسطول الهمايوني إلى الإسكندرية)

في تاريخ سنة ٩٩٠هـ/ ١٥٨٢م لمّا صدر الفرمانُ بأنْ يتوجّه الوزير الذي تدبيره كالمشترى حضرة «إبراهيم باشا» مع القبطان «قليج علي باشا» بالأسطول الهمايوني بحرًا إلى ميناء الإسكندرية من أجل النّظر في أحوال الديار المصرية وإصلاح أوضاعها؛ أبْحَروا بالعظمة والهيبة من ميناء «بشكطاش»، وأطلقوا مدافعَ الفرح والسرور.

(توجيهُ الأمر لحضرة القائد «فرهاد پاشا» لقيادةِ حملة الشرق، وتوجّهُه إليها)

نشرَ القائد صاحبُ الوقار حضرة «فرهاد باشا» باليمن والإقبال، الرايات التي آياتها الفتح متوجّهًا إلى حملةِ الشّرق لإصلاح أحوال ممالك إيران، حيث ودّعه أعيان الدولة، في سنة ٩٩١ هـ/ ١٥٨٣م وقبلَ نصف ساعة من وقت طلوع شمس يوم الأربعاء الواحد والعشرين من صفر السنة المرقومة٩٩١هـ، تقيّأ أمير التوقيعات (أمير توقيعي) «فريدون» العصر دمًا في حرم «عائشة سلطان»، وسلّم الروح لخالقها.

(مصْرع)

ليكنْ ضريحك، روضة الرضوان[1]

(نثر) و«قبلَ صلاة المغرب» صدر الفرمان الهمايوني المقرون بالسعادة إلى حضرة الوزير الأعظم «سياوش باشا» بتعيين دفتردار الأناضول «عبد المجيد أفندي» نشانجي مكانه.

(تاريخ)

* يا فائق الدّهر كنت فريدون العصر *

* لم يكنْ «فريدون» يذكر في عصرك

* فقد شمل الدّنيا اسمك وأثرك *

* الرّبع المسكون مملوء بضيائك

* قالت الأماني تاريخ وفاتك *

* بقيَ في الدنيا أثرك يا فريدون*[2]

(صدورُ الفرمان بتعْيين حضرة «جعفر باشا» وزيرًا، و«علي باشا» أيضًا أمير أمراء الروميلي)

في يوم الأحد الموافق الثّامن والعشرين من شهر رمضان الشريف من السنة المرقومة، وبينما كان أميرُ أمراء الروميلي حضرة «جعفر باشا» متصرّفًا على مقاطعة في «سلسترة»، هجم كفّارُ «القزاق» على قلعة «بندر»، ولمّا أحدثوا فيها فتنة عظيمة،

---

(١) * جاى آرامكهش روضه رضوان بادا

(٢) * فريدون عصر ايدك اى فايق الدهر *

زمانكده اكلمزدى فريدون

* جهان قابلدى نام ونشانك *

*جراغكله طولبدر ربع مسكون *

* امانى ديدى تاريخ وفاتك *

نشانك قالدى دنياده فريدون[=٩٩١هـ]

صدر فرمان: «بالإحسانِ على حضرة «جعفر باشا» بمنصب الوزارة، وأنْ يذهب بحسب القانون، «الجاشنكير» لصاحب البشرى، على أنْ يصل إلى حضرة «جعفر باشا» بجماعة «علوفه جيان يسار»، وجماعة «عزباء يسار» وبنحو ألف وخمسمائة نفر من اليني جرى، وأنْ يقتصّ من الكفّار الذين مأواهم جهنم، والذين هجموا على «بندر»، كما صدر الفرمانُ أيضًا بتعيين أمير أمراء «بودين» «علي باشا» أميرًا لأمراء الروميلي». حيث أُرسل الجاويشية من أجل إيصاله أيضًا لجماعة «جعفر باشا»، وأحسن على آغا اليني جرى «سنان آغا» بوظيفةِ أمير أمراء «بودين»، وأُنعم على أمير أمراء الإسطبل الكبير «محمد آغا» بوظيفة آغا اليني جرى، وأنعم على «حسين آغا» المتقاعد، والذي كان أميرَ إسطبل سابقًا بوظيفة أمير الإسطبل الكبير، وعندما أتمّ أميرُ الإسطبل الصغير خدمته برتبةِ «سنجاق»، وجاء بمهمّةِ حامل الرسائل (أولا قلق) لتنصيبه (ويواده) ولاية «الأفلاق»، صدر الأمرُ بعزله، وعُيّن كتخدا البوابين «حسن آغا» أمير الإسطبل الصغير مكانَه، وأُحسن على رئيس الجبه جيه «حسين آغا» بوظيفة كتخدا البوابين، وأحسن على «خليل آغا» الذي هو من فرقة المتفرقة الذين جاءوا معًا من الطرف الآخر بوظيفة رئيس الجبه جيه «في التاريخ المرقوم».

(وفاةُ «والده سلطان»)

في يوم الأربعاء الثّاني والعشرين من شهر ذي القعدة، سنة ٩٩١هـ/ نوفمبر ١٥٨٣م، وعلى أثر انتقالِ صاحبة الخيرات والحسنات «والده سلطان» والدة حضرة السلطان حامي الخلافة «مراد خان» بإرادةِ الحي الذي لا يموت، في «باغچه سراى» الواقع بناحية «يكى قپو»؛ من دار الغناء إلى سراي البقاء، ذهب العلماء العظام والمشايخ الكرام والوزراء ذوو الاحترام جميعًا سائرين بجوار نعْشِها، وارتدى حضرةُ سلطان الإسلام أيضًا ثوبَ العزاء، وسارَ خلف الجنازة، وحضر عامّةُ الرعايا باكين إلى الجامع الشريف لأبي الفتح السّلطان «محمد خان» طابَ ثراه، وبعد أن أدّوا صلاة الجنازة على روحها، تفضل حضرةُ السّلطان بالتوجّه إلى السراي الهمايوني، وبعد ذلك قام أركانُ الدّولة والعلماء العظام بدفْن الجنازة في القبر الشّريف للسلطان

«سليم خان» طاب ثراه الواقع بجوار جامع «آيا صوفيا» الكبير، واستمرّ الوزراء العظام والموالي الكرام في زيارة قبرها صباحًا ومساءً أربعين يومًا متوالية، حيث أقاموا ختماتِ القرآن العظيم، وتصدّقوا بالأموال الكثيرة، وبذلوا النّعمَ العظيمة من أجل صدقات الفقراء والمساكين.

وقد أسقط: (المصراع)

(والدك سلطانه رحمت ايده جق) = ٩٩١هـ على تاريخ وفاتها.

(عزلُ وتنصيبُ قضاة العسكر)

في غرّة شهر ذي الحجة من السنة المذكورة، عُزل صدر الروم ايلي مولانا «عبد العزيز أفندي»، وأُحسن على «قزل منلا جلبي» المعزول من صدارة الأناضول سابقًا، والذي كان مدرّسًا في «دار الحديث» الخاصّة بالمرحوم والمغفور له السلطان «سليمان خان» «طاب ثراه» سابقًا؛ بمنصب صدارة الرّوميلي، وأُنعم على قاضي «استانبول» «بهاء الدين زاده مولانا أحمد أفندي» بمنصب قاضي عسكر الأناضول، وأصبح قاضي «أدرنه» مولانا «أحمد أفندي» قاضيًا لـ «استانبول». وأصبح معلّمُ حضرة الوزير الأعظم «سياوش باشا» قاضيًا لأدرنة، وأُحسن على «آغا زاده أفندي» المتقاعد من المدرسة براتب قدرُه سبعون أقجة.

(توجّهُ وليّ العهد عالي الشّأن حضرة السلطان «محمد خان» إلى سنجاق «مغنسيا»)

في اليوم الثّاني من شهر «ذي الحجة سنة٩٩١هـ/ ديسمبر ١٥٨٣م بمقتضى مظهر الكلام المعجز «بارك الله السبت»؛ ودّع ولي العهد المحفوف بالسّعادة السلطان «محمد خان»، صاحب العصمةِ سلطان المكان والزمان، واستعدّ للتوجّه لسنجاق «مغنسيا». وبناءً على القانون القديم عُيّن معه كخواص له كلّ مِن مربية «علي بك» المترقّي من رتبة آغا السپاهية، ومعلّمه مدرّس السلطان «سليم خان» مولانا «نوالي أفندي» ودفترداره «باش روزنامجي حسام بكزاده»، وكتخدا بوّابيه «أحمد قبوجي،

ونشانجية «مكملو محسن جاوش»، ورئيس جاويشيّته «جعفر آغا»، وأمير إسطبله (كيوان بك)، ورئيس كتابه «عبد الرحمن جلبي»، وسائر أركانه وخدامه، وبالإضافة إلى إعطائه راتبًا قدرُه مائة ألف آقجة اثنين وثلاثين مرّة. وبحسب ما اعْتيد عليه منذُ القدم، انتظرَ جميعُ أركان الدّولة وأعيان السلطنة عند الباب الهمايوني، وتزيّن وليُّ العهد بأنواع الزينة والبهاء، وارْتدى القلنسوة والذّؤابة المزيّنة والمرصّعة. وعندما خرج، سار أمامه أركان الدّولة بالعظمة والوقار، فاقتربَ نحْوه أوَّلًا: أعلم العلماء «سعد الدين أفندي» معلم سلطان العالم، وبعده، دنا منه الصّدرُ الأعظم حضرة «سياوش باشا»، ثمّ «مسيح باشا» و«جراح محمد باشا»، وصدر الرّوميلي «منلا أفندي»، وصدر الأناضول «بهاء الدين زاده عبدالله أفندي»، وعندما وصلوا إلى ميناء «أمين» كانت سفينة الـ (باشدارده) الخاصّة بالقبطان «قليج علي باشا»، والسّفينة البديلة الموجودة بجانبها، وأيضًا سفن الـ «قادرغه» الكثيرة والمزينة؛ تقفُ جاهزة. ولمّا دخل حضرةُ وليّ العهد وجميع أركان الدّولة إلى (باشدارده) «قليج علي باشا»، وأُطلقت مدافعُ الفرح والسرور، دوّى صوتُ انفجار عظيم، واهتزاز كزلزلة يوم القيامة حتّى وصلا لفلك الأفلاك، ورفع كافّة رعايا الدّولة أكفَّ الدّعاء إلى مقام الغني داعين ومُثْنين على وليّ العهد، فأعلوا دعاءهم إلى الملأ الأعلى، وعلى هذا الحال اقتربوا إلى ميناء «اسكدار»، حيث وصل أركانُ الدّولة إلى الخيمة فلكية المحيط، وأقام حضرةُ ولي العهد، فنالوا الشرفَ بتقبيل يده عند العرش الذي مصيره العالم. وفي اليوم التّالى، قدّم أركان الدّولة لوليّ العهد هداياهم. وبعد أن تفضّل وليّ العهد بالراحة لمدّة يوم أيضًا، رحلَ بالعزّ والإقبال، حيث توجّه إلى سنحقه. وقد رويَ أنّه لمّا هبّت رياحُ الأربعين[1] وحلّت أيامُ الشّتاء والزمهرير، واجه شدّةَ ومشقّة الطريق، حتى وصل إلى مقرّ دولته. وكان رئيسُ القهوجية «قورد آغا» ملازمًا ومرافقًا له. وبعد ذلك، وصل الخبرُ بوصوله بالصّحة والسّلامة إلى السنجق الهمايوني. في غرّة محرم سنة ٩٩٢هـ/ يناير ١٥٨٤م.

---

(١) رياح الأربعين: وتبدأ من اليوم التاسع من كانون أول التقويم عند الروم، وهي رياح شديدة البرودة.

(عصيانُ خان القرم «محمد كراي» في «كفّه» عندما كان حضرة «عثمان باشا» قادمًا من «تيمور قبو»، وتنصيب خان جديد)

«في ربيع الأوّل من السنة المرقومة»، جاء الرسلُ من ولاية «كفه» برسائلَ تحتوي على أخبارٍ غريبة، نصُّها: «إنّه منذُ ستّ أو سبع سنوات، حارب الوزير المكرم حضرة «عثمان باشا» فاتح القلاع والبلاد الواقعة في «باب الأبواب»، أي في «تيمور قبو»، وفي أرض «شيروان» بعسكر الإسلام، حارب القزلباش الأوباش مرارًا، وقاتلهم كثيرًا بجدّ وسعي، وخلصَ تلك الولاية بأكملها من أيدي القزلباش، وتحمّل كثيرًا من الشدائد التي لا عددَ لها، وأتمّ «عثمان باشا» خدمةَ المحافظة عليها، وبقيَ حضرة الوزير «جعفر باشا» في مهمّة حراسة «تيمور قبو» وشيروان»، وبموجب الفرمان الهمايوني بينما كان أمير أمراء «سيواس حيدر باشا» يقطع المنازل والمراحل آتيًا من صحراء الـ «قبچاق»، وبقدر ما وجدَ معه من الأمراء الكرام والعسكر المصاحبينَ له؛ اشتبكوا في حرب طاحنة مع جيشِ الرّوس الملاعين، وعندما جاءوا إلى «كفه»، حادَ خان القرم «محمد كراي» عن طريق أجداده العِظام بوسوسةِ الشّيطان، وبمقتضى أخلاقه الذميمة التي جُبل عليها، وعصى سلطان الإسلام ومالَ إلى الطغيان، وحاصر الوزير «عثمان باشا» و«حيدر باشا» في قلعةِ «كفه» بالعساكر المنصورة الآتية من «تيمور قبو»، وألحق الضرر بطرق المياه، وحفر الخنادق، ونصْب المدافع، ودارتْ رحى القتال وحميَ وطيسُ الحرب بينهم طوال سبعة وثلاثين يومًا.

وعندما وصلتْ هذه الأخبارُ للآستانة، على الفور تمّ التّنبيهُ على القبطان « قليج علي باشا»، وأُرسل إليه «أوزون جاوش» قائلًا: «عليك أن تجهّز سفن الـ «باشدارده» من الترّسانة العامرة، وأن تهيّئ عشرة آلاف نفرٍ من جنود الـ «بلوك خلقى» والسباهية والييني جرى وجنود المدفعية المتواجدين، وأنْ تحْمِلهم على خمس وثلاثين سفينة باشدارده» و«قدرغه»، وأن تتحرّك بالجنود، وتصلَ بهم إلى «إسلام كراي خان» الذي اختار المقام في قونية.

وفي أواسطِ شهر ربيع الأوّل، لمّا وصل «إسلام كراي خان» بسرعة للآستانة، في اليوم التّالي جاء إلى البلاط المؤيّد بالسّعادة، فاستقبله أعيانُ الدّولة، وفي أثناء نزول الخان عالي الشّأن من فوق الجواد، ساعده الصدرُ الأعظم حضرة «سياوش باشا» في نزوله، وتلقّاه من تحتِ إبطه، فتلك هي لزومُ احترام السّلطنة، واستُقبلَ بينهم بما يليق به، وبموجبِ القانون القديم، غبّر الوجه لمقام العرش الذي مصيره العالم، وتوشّح بالخلعة الفاخرة، وتقلّد السيف، وذهب لمقرّ استراحته.

(تعيينُ «إسلام كراي خان» خان القرم، وتوجّهه إليها)

أُلحقَ كتخدا البوّابين بحاشية وخدمة «إسلام كراي خان» الذي نُصب خانًا في هذه الأثناء، وحُرّر «منشور» بالإحسانِ عليه بمنصبِ الخان، وعلّقت الرايات وعليها آياتُ الفتح، وتقدّمه أعيان الدّولة جميعًا، ودنا منه الوزراءُ العظام بالترتيب حتى وصل إلى الميناء، ولمّا دخل للسّفينة الـ «باشدارده»، أطلقوا مدافعَ الفرح، ودعا عامّة رعايا الدّولة له وأثْنوا عليه. ورفع حضرة الـ «قپودان باشا» الهلب مُعطيًا إشارة التحرّك للأسطول الهمايوني، وبعونه تعالى «أبحروا مع أيام هبوب الرياح، وعرض القائد عالي الشأن «عثمان باشا» والـ «قبودان باشا» قائلاً: «عندما تيسّر الوصول إلى «كفه» «بتوفيق الله» وبالفالِ الحَسَن خلال وقتٍ يسير، خارت قوّةُ جيش التّتار الدون، وفي ذلك الحين غيّروا قرارَهم على الفوْر للفرار، ولمّا كان الخانُ الخائنُ «محمد كراي خان» سمينًا جدًّا، ركب العربةَ وندمَ على عصيانه وجرمه الذي ارتكبه، وتابَ واستغفر بصوتٍ عال، وبينما كان يرجو العفوَ والاستغاثة، تعقّبه «قالغاى الب كراي ميرزا» مع مائة أو مائتين من الفرسان الشّجعان، وبدناءةٍ لم يحفظوا له ماءَ وجهه، وقالوا له: «أطفأت مشعل القرم أيّها الدّيوث»، ولحقوا به عندَ ساحل ماء، وقتلوه خنقًا بحبلٍ تحت ظلال الأشجار، وطووا دفترَ حياته من صحيفةِ العالم، ومحوا غبارَ الفتنة». وحكوا قائلين: «في الحقيقة كان «محمد كراي خان» المقتول رجلًا مباركًا، ولم يخطرْ بباله أصلًا العصيان والطّغيان على سلطان الإسلام، وأثناءَ لقائه مع الوزير «عثمان باشا» في «تيمور قبو»، دخلَ بعضُ المفسدين بينهما، وبسبب ما وقعَ بينهما من

الكلام الخشن الذي يثير الخصومة، أصابهما شرُّ النمّامين والتعساء، ولم يصدر منه أيُّ وضع غير لائق بمحْض إرادته بأيّ حالٍ قط، وابْتُلي الذين سبّبوا هذا الحال أيضًا بسخط من الله. في أواسط ربيع الآخر سنة ٩٩٢هـ/ مايو ١٥٨٤م.

(مجيء الوزير المكرّم حضرة «عثمان باشا» إلى مركز الدّولة السعيد)

في هذه الأثناء، بينما كان أركانُ الدّولة ينتظرون باشتياقٍ أيامًا كثيرة لتشريف الوزير المكرّم حضرة «عثمان باشا» والعسكر المنصورة القادمين معه من «تيمور قپو»، وينظرون بعينِ الأمل صوْبَ البحر، في يوم الخميس العشرين من جمادى الآخر من السّنة المذكورة جاءَ على الفور بالأسطول الهمايوني من مضيق البحر الأسود، وعندئذ أطلقوا مدافعَ السّعادة مرتفعة الصوت. وفي يوم الأحد لم يعقد الديوان، وصدر فرمان بأنّ أيّ شخص موجود عدا الوزراء العظام يستقبل الوزير عالي الشّأن حضرة «عثمان باشا»، وتمّ تجهيز إنزاله في سراي المرحوم «برتو باشا»، وأعدّت الموائد ذات النعم الكثيرة للّذين اسْتقبلوه. واستقبل آغا الينى جرى وآغوات الركاب الهمايوني، وآغوات جميع البلوكات، وخدم الباب والينى جرى، الوزير المشار إليه بالعظمة والوقار مجهزين ومزيّنين، ولم يفوتوا دقيقةً في القيام بضيافتهم رغمًا عنْ أعداء الدين والدولة، وحضروا جمعًا لمائدة النعم، وتمّت الضيافةُ العالية لهم.

وفي أواخر الشّهر المذكور، خرج حضرةُ خليفة الأرض والزمان من السراي العتيق إلى الدّيوان الذي عنوانُه العدالة. وفي يوم انعقادِ الديوان الموافق السابع والعشرين من الشّهر المذكور، جهّز الوزير الذي شعاره الشجاعةُ حضرة «عثمان باشا» تحفه وهدايا باليُمن والإقبال، وجاء أميرُ أمراء «سيواس» «حيدر باشا»، وعشرة من الأمراء الكرام، ورئيس السّلحدارية وآغا «علوفه جيان يسار» ورئيس السكبان وكتخدا الينى جرى الذين حضروا معًا من مهمّة حراسة «تيمور قپو» و«شيروان»، وغبّروا الوجهَ لمقام عرش السّلطنة. وبعد ذلك، قُدّمت هدايا الباشا المشار إليه حيث كانت على هذا النحو:

أوّلًا: تاجان ثمينان مرصّعان لـ «أرس خان» و«أمام قوليخان» اللّذيْن كانا من خانات القزلباش، وقطعتان من سروج «المنصوري» المرصّعة، وقطعة ذهبية ذات علم الكرج المرْسوم، وستّون حملًا حريرًا شيروانيًّا، وأربعة أحمال عمامات قندهاريه، وخمسُ عشرة طبقة من قماش الـ «سراسر» العجمي المشكّل النّفيس جدًّا، وخمسُ عشرة طبقة من قماش «أطلس»، وقماش «كمخاء» الملوّن، وجميع أنواع القماش الهندي، وخمسة وعشرون رأس من الغلمان الجمال الجركسي الأصل، وسبعُ عشرة قطعة مفاتيح ذهبية التي كان قد كتب على كلّ مفتاح منها اسم إحدى القلاع الحصينة. وحُررت «تذكرة التّشريفات» بناءً على القانون، وأُدْخلت هذه الهدايا للداخل لخزينة السلطان. وعندما خرجَ الوزير المومأ إليه مع الوزراء العِظام من المجلس الهمايوني، ووصلوا لصاحب الدّولة، وقف أعضاءُ الدّيوان، وفي الوقت الذي ركب حضرات الوزراء العظام فيه الجياد، أحضر الوزيرُ المشار إليه جوادًا من جياد الإسطبل «الخاص»، بخرقه مزركشة، وغطاءً ثقيلًا، وسلسلة ذهبية، فركبه الوزير المشار إليه بسعادة، وتوجّه لمنزل استراحة العُظماء، وأثناءَ قضائه على خان التتار الخائن من قبل، كان قد أُحسن عليه وعلى الـ «قبودان باشا» بالسّيف المرصّع والخلعة الفاخرة من قبل السلطنة. «في التاريخ المرقوم».

(عزلُ كتخدا البوّابين حسين آغا، وتعيينُ محمد آغا كتخدًا للبوّابين)

في غرّة جمادى الآخرة من السنة المرقومة، عُزل كتخدا البوّابين «حسين آغا» الذي كان قد لحقَ بخدمة «إسلام كراي خان» وذلك على إثرِ شيوع أنّه تحدّث بها لا يليق بحضرةِ «عثمان باشا» عند وصوله؛ وأصبح «محمد آغا» الذي ارتقى من وظيفة الذواقة (جاشنكيرلك) سابقًا، والذي عُزل من كتخدائية الـ«روم ايلى»، كتخدا البوابين.

(عزلُ الوزير الأعظم «سياوش باشا»)

في يوم الثّلاثاء الموافق السّابع عشر من رجب من السنة المرقومة، بعد العصر، أمر حضرةُ السّلطان حامي العالم كتخدا البوابين بأخذ خاتم الصدارة من الوزير الأعظم

«سياوش باشا» قائلًا: «ليذهب لمزرعته»، وعلى الفوْر في ذلك اليوم، امتثالًا للأمر العالي لحِقَ بمزرعته قربَ المساء، وعُزل في «التاريخ المرقوم».

(تعيينُ حضرة «عثمان باشا» صدرًا أعظم)

في يوم السّبت الموافق العشرين من شهر رجب سنة ٩٩٢هـ/ يوليو ١٥٨٤م، وعندما أحضر كتخدا البوّابين «محمد آغا» خاتم الوزارة العظمى في الديوان العالي بموجب الفرمان الهمايوني، وسلّمه لحضرة «عثمان باشا»، هنّأه حضراتُ الوزراء العظام «على مراتبهم»، وغبّر أركان الدّولة أيضًا الوجه بتراب قدمِه؛ تعبيرًا عن السعادة.

(طلبُ سفير القزلباش «إبراهيم خان» الإذن، وأمره بالذّهاب لجانب القائد)

في «أوائل شهر شعبان الشّريف من السنة المرقومة، كان قد مرّ أكثرُ من عامين ونصف منذُ مجيء حاكم «قم[1]، وكشان[2]» «إبراهيم تواجي» الذي أحضر للسدّة التي مدارُها السّعادة رسالةً من شاه القزلباش الشاه «محمد خدابنده» من أجل طلب الصّلح والصّلاح، فأقام في سراي المرحوم «محمد باشا» الواقع في ميناء «قدرغه». وبسبب مرضِ الطّاعون، لم يكنْ قد بقيَ أيّ شخص من طائفة القزلباش الذين جاءوا معَه على قيْد الحياة، وكان قد بقيَ هو فقط. فلمّا كتب العبارات الكثيرة التي تثير عرق الشّفقة والمرحمة، وتبعثُ على الرّجاء من أجل الحصول على الأذن الهمايوني؛ رفع عرضحاله للرّكاب الهمايوني لصحاب السعادة حضرة السلطان الفلكي الوقار، ولمّا عُرضَ الكلام المؤلم والمؤثّر في إظهار العجز والانكسار، استحقّ الإذن الهمايوني؛ وصدرَ الأمرُ بمجيئه إلى العرش المؤيّد بالسّعادة. وأُحسن على عشرة من رجاله بالخِلَع، وأُمر بالذّهاب لجانب القائد عالي المقدار حضرة الوزير «فرهاد باشا» الموجود في الحملة.

---

(١) قم: مدينة في جنوب طهران بنحو ١٢٠كم.

(٢) كشان: مدينة جنوب طهران بنحو ١٩٠كم، وشمال آصفهان بنحو ١٥٠كم.

(مجيء السّفير المذكور إلى الديوان العالي)

عندما جاء السفيرُ المذكور لتغبير الوجْه لمقام عرشِ السلطنة في الديوان العالي، كنت أنا هذا الفقير كثيرُ التّقصير (سلانيكي) في وظيفة الـ «دواتدارلق»[١].

وفي الوقت الذي كان فيه السّفيرُ المشار إليه «إبراهيم خان تواجي» رجلًا معروفًا بالاعتبار والعلم بين القزلباش والتركمان، ومِن الأعيان، عندما جاء لمجلس الوزير الأعظم «عثمان باشا» جاء بالخوفِ والخشية الشديدة؛ وبسبب حالة الاضطراب القوية التي انْتابته لم تكنْ له طاقةٌ لمواجهة نظرةِ الوزير المستأسدة، ولمّا هذي بكلام غير لائق، قال له الوزيرُ الأعظم: «لم تكنْ لك علاقة بمهمّة التّمثيل الدبلوماسي، هلْ هذا هوَ فهمُك وفراستك؟! اذهب. وقلْ ما رأيته عنده، ها أنا أيضًا مستعدٌ للتوجّه إليكم، لا ينبغي أنْ تقول غفلنا، لزمَ عليك أنْ تذهبَ معي. وأمرك سلطاننا صاحب العظمة أنْ تصلَ لجانب حضرة السّردار منْ قبْل». عندئذٍ ملكت الحيرة والاندهاش السفيرَ المرقوم، وذهب. ولم يهتمّ بشيء غير ما أُمر به.

(مجيء أميرِ أمراء الرّوميلي «علي پاشا» إلى الآستانة، ونيله الشّرف بمقابلة حضرة السّلطان صاحب العصمة)

في أوائلِ شهر شعبان من السّنة المذكورة، جاء أميرُ أمراء الروميلي «علي باشا» «دامت معاليه» من المجلسِ الذي كان على رأس حملةِ «بندر» إلى الآستانة، ونزل في قصر المرحوم «محمد باشا»، وبعد ثلاثة أيام، بناءً على القانون القديم، أحضر تحفه وهداياه الثّمينة جدًّا، وجاء للدّيوان العالي، وقدّم هداياه، وبعد أنْ غبّر الوجه لمقام عرش السّلطنة تعبيرًا عن السّعادة. في اليوم التّالي، تمّ التّنبيهُ على جميع أعيان الدولة، وحضر الوزراءُ العظام في جمْع عظيم، وأقيمت ضيافةٌ عظيمة لهم، وفي تلك الليلة، ذهب أميرُ الأمراء الموماً إليه حضرة «علي باشا»، ونال شرفَ محادثة السلطان السعيد. في ١٢ شهر شعبان سنة ٩٩٢هـ/ أغسطس ١٥٨٤م.

---

(١)()انظر ص ( ) من هذا البحث

(مجيء الوزير «جعفر باشا « إلى عاصمة الدولة)

في أواسطِ شهرِ شعبان من السّنة المرقومة، عاد حضرة الوزير «جعفر باشا» من مجلس حملةِ بندر، وجاءَ إلى عاصمة الدّولة السعيدة، وبناءً على القانون، قدّم الهدايا للبلاط العالي. وفي هذا اليوم، اعْتُمد سفير فرنسا، وانعقد ديوانُ الغلبة.

(وفاةُ أمير الإسطبل الكبير «حسين آغا» بالطّاعون، وتعيينُ «ساعاتجي حسن آغا» أميرًا للإسطبل مكانه)

وصلَ الصّراخ والعويلُ في مدينة استانبول حتّى السموات السبع بسبب مرض الطّاعون، ولم يبقَ فيها شخصٌ لم يبْكِ ولم يئنّ، ولم يحترق فؤادُه من حسرة الفراق، ولم يبقَ هناك حدٌّ لمَن تعرّضوا للمصائب. وفي هذه الأثناء، توفي أيضًا أمير الإسطبل الكبير «حسين آغا» متأثّرًا بالطّاعون، واخْتير الـ «جوقدار» «ساعاتجي حسن آغا» الذي هو مَن بين خدم القصر، في وظيفة أمير الإسطبل. في ١٨ شعبان سنة ٩٩٢هـ/ أغسطس ١٥٨٤م.

(قصّةٌ غريبة)

أصيبَ أميرُ الإسطبل «حسين آغا» بالطّاعون، وأثناء مرضه جاء «حسين آغا» الذي عزلَ من وكالة البوّابين قبل ذلك، إلى الوزير الأعظم «عثمان باشا»، وطلب منه الإحسانَ عليه بوظيفة أمير الإسطبل، وعندما قال له الصدرُ الأعظم أيضًا: «كيف تسندُ إليك هذه الوظيفةُ وصاحبُها على قيْد الحياة»، فعندما قال المذكور أيضًا: «لن يُشفَى مِن مرضه». قال الوزير: يجوز لكوْنك أقدم منه». «في الحقيقة» ابتلى ذلك أيضًا بمرض الطاعون، وانتقلَ إلى الرّفيق الأعلى قبل أربعة أيام من موت أمير الإسطبل.

(حلولُ الضّعف بحاكم التتار، وصدورُ الفرمان بتعْيين الوزير الأعظم حضرة «عثمان باشا» قائدًا للجيش)

في شهر رمضان المكرّم من سنة ٩٩٢هـ/ سبتمبر١٥٨٤م جاءت العروض من سعادة حاكم القرم «إسلام كراي خان»، جاءَ فيها ما يلي: «لجأ فردٌ أو فرْدان متمرّدان ومُغتابان مِنَ أولاد الخان الخائن سابقًا والمقتول شرّ قتْلة؛ إلى «نوغاي» كبير التتار،

وقالوا له: «ساعدنا على أنْ نأخذ بثأرِ أبينا». وقاموا بالهجوم بعشرة آلاف من الجائعين والمُحتاجين، وهجموا فجأةً على قصر «باغچه» الذي كان مقرًّا ومأوًى قديمًا لحكّام القرم، وهزموا مَن وجد داخله مِن رجال «إسلام كراي خان»، وجرح هو نفسه، ونجا بطريقةٍ ما، وهرب. ولمّا تواجد في «كفّه» المحروسة عسكر الـ«قولقرنداشي»[1] من طائفةِ الينى جرى وطائفة المتطوّعين أيضًا بقوّادهم ووكلائهم الذين كلفتهم الدّولة بمهمّة حراسة «تيمور قپو»، أبلوا بلاءً حسنًا في مقاومة أتباع «نوغاي» الملاعين، واشتدّ وطيسُ القتال بينهم، وهلك رجالٌ كثيرون من جنْد الإسلام، وأحرق أتباع نوغاي قصرَ «باغچه»، وهدموه وخرّبوه، وأخبر الخان بأنّهم لم يتركوا مكانًا في هذه الناحية إلّا وخرّبوه، وبناءً على هذا الدّمار أعلم بأنّه طلب من عتبة الدّولة الإحسان عليه بمنصب الحاكم». وعندما لُخّص العرض القادم من الخان، وقُرأ على مقام السّلطنة، قال السّلطان: «خطابٌ صحيح». وعندما تفضّل بقوله: «مَن يذهب إليهم ينبغي أن يعرف ماذا سيكون حالُهم». قال الوزيرُ «عثمان باشا»: «أنا عبدُك أذهبُ يا سلطاني». فدعا السّلطانُ له بالخير، وقال: «ليكُنِ الحقّ تعالى مُعينك»، وعندما خرج من مكان العرض للخارج، في الحال وردتْ تذكرةٌ شريفة بخطّ همايوني إلى القبطان «قليج علي باشا»، جاء فيها: «عليك أن تجهّز حملةً لحربٍ بحرية في البحر الأسود. وأن تتدارك الأمرَ وتستعدّ لذلك»، فاستعدّ للحربِ مع حضرة القائد الأعظم «عثمان باشا» ما عدده عشرة آلاف من الينى جري، وستّة بلوكات بقاداتهم، والمتفرّقة ذوي الرّواتب، وألف جندي من الجاويشية، وبدَا التّجهيز لأهالي المدينة على نحْوٍ لا يمكن شرحُه وتوضيحه، وكانت التّدبيراتُ كما يلي: «ليصل جميعُ العساكر المنصورة إلى «سينوب» برًّا، ولينقل الـ «قپودان باشا» إلى «كفّة» ما يمكن أن يتيسّر في الحرب من أثقال وأحمال الجيش الجرّار بالأسطول الهمايوني وسفن المدفعيّة وسفن الجياد»،

---

(١) قولقرنداشي: الأشخاص الأجانب الذين يلحقون باوجاق الينى جري بشرط الخدمة ثلاث سنوات على الأقل، وذلك عندما ظهرت الحاجة للعسكر في حراسة القلاع وعلى الحدود.

وبناءً على ذلك بقيَ عقلاء الدّولة حيارى ومُنْدهشين لهذا الأمر، وملَكَتْهم الدهشةُ قائلين: «كيف يُعقل هذا الأمر؟ وبأيِّ صورةٍ سوف ينبغي أن يكون؟ وما النّتيجة التي ستسفرُ عنها هذه الحملة؟ وخاصّة وإن أيّام رياح الأربعين ستحلّ».

وبناءً على هذا المنوال، وبينما كان كلُّ واحدٍ مشغولًا بتجهيز احتياجاته، في ساعة مباركةٍ من اليوم العشرين من شهر شوال، وصل القائدُ صاحب الوقار حضرة «عثمان باشا» بالعزّ والإقبال مع جميع أركان الدّولة وأعيان السلطنة إلى سدة الدولة، وخرج «عثمان باشا» من المجلسِ الهمايوني مرتديًا الثيابَ الخاصّة من نوع «سراسر»، والسّروال، ومتقلّدًا السّيفَ المرصّع والطره المجوهرة، ثمّ امتطى جوادًا مجهزًا وذا سلاسل، وتقدّمه أركان الدّولة ملتفتين يمينًا ويسارًا بكامل العظمة والوقار، وبينما كان يدخلُ السّفينة الـ «باشدارده» الخاصّة بالـ «قبودان باشا» الرّاسية في ميناء «أمين»، واعتلى سلّمها، جاء من السّلطان «خطّ» همايوني في محرمه، فتسلّمه، ومسكه بيده، وأطلقت مدافعُ الفرح. وعندما وصلوا عرض البحر، فتح الوزيرُ الأعظم التذكرةَ الشّريفة، وعندما قرأها بشّر أمير أمراء الروم ايلي حضرة «علي باشا» بقوله: «أخي، أحسن عليك أفندينا صاحبُ العظمة بمنصب الوزارة، فليباركها الله، وأحسن على آغا الينى جرى «محمد آغا» أيضًا بمنصب أمير أمراء الرّوم ايلي فليباركلها الله، وأنعم على سلحدار الخاصّة «خليل آغا» بوظيفةِ آغا الينى جرى، وعزل أخيك «جعفر باشا». ثمّ قال للـ «نشانجي» محمّد باشا: «بموجب قيامك بخدمة الطّغراء الشّريفة بمنصب الوزارة، صدر الأمر بأنْ تتقدّم على أمير أمراء الرّوم ايلي، وفي هذا المكان، وعندما وصل خبر منصب الوزارة «لعلي باشا»، لم يبق قراره، ونهض، واستحوذَ على ممتلكات «محمد باشا»، وفي «آسكدارا» قام جميعُ أركان الدّولة بالتّسليم على حضرة القائد الأعظم. ووضعت في الخيمة مائدةٌ عظيمة وعليها نعمٌ وافرة، ودعيَ إليها الجندُ، وقد أعْلِم بالاستراحة عدّة أيام، ولازمَ أركان الدّولة الوزير الأعظم.

(صدورُ فرمانٍ بدخول أمير أمراء الرّوم ايلي «محمد باشا» للعرض مستقلًّا)

في أواخر شهر شوال، لمّا صدر خطٌّ همايوني إلى أمير أمراء الروميلي حضرة: «محمد باشا»، ونُبِّه عليه بالآتي: «عليك أن تتواجدَ في ركاب السلطان عند خروجه للصّيد الهمايوني معًا مثلَ المرحوم «شمسي باشا»، وأنْ تدخل للعرض أيضًا مستقلًّا، وألّا يتدخّل حضراتُ الوزراء العظام في أمور حضرة القائد الأعظم «عثمان باشا» المتعلّقة بالحمْلة، وأنْ تخصّص له القضايا المستقلّة الواقعة، وجميع التلخيصات والعروض وسائر التّدبيرات الآتية، ولتكنْ في يده. وأنْ تدخل أنت بعد قاضي العسكر، وتعرّض بشكلٍ مستقلّ»؛ استقلّ استقلالًا تامًّا في عرضة. في ٢٣ شوال سنة ٩٩٢هـ/ أكتوبر ١٥٨٤].

وكُلّف بالذّهاب للحملة كلٌّ مِن دفتردار أقلام الأناضولي «خسرو أفندي» والـ روزنامجي «محمد جبلي» وتذكرجي مالية الأناضولى «بياله بك». في التاريخ المذكور.

(تعيينُ حضرة «مسيح باشا» قائمقام الصّدر الأعظم، وقيامه بتسليم أوراق أحكام بيضاء مختومة بالطّغراء لجناب القائد الأكرم)

أصبح حضرةُ «مسيح باشا» قائمقام الصّدر الأعظم، وعندما رحل حضرةُ القائد الأعظم مِن آسكدار، أحضر حضرة النشانجي «محمد باشا» عددَ خمسة آلاف ورقة أحكام بيضاء مختومة بالطغراء، وكنت أنا هذا الحقير الذي لا شأنَ له مُكلّفًا بوظيفة «دواتدار». وعندما أوصلتها مع أفندينا إلى «نشانجي باشا»؛ أحسن الوزير الأعظم عليَّ بعطيّة، وأرسل رسالة توصيةٍ إلى «مسيح باشا»، نصُّها: «لينال مرادًا بمنصب محلول».

(الذين أُمروا بالتوجّه للحملة)

أُمرَ بالتّوجه للحملة كلّ مِن رئيس الديوان «حمزة جلبي أفندي »، والـ«تذكرجي» تاج زاده أفندي»، وكاتب الديوان «سوزي زاده محمد جلبي»، وتمّ توديعُهم.

(وصولُ الوزراء العِظام مُتتابعين حتّى رحيل حضرة الصدر الأعظم)

في «أوائل شهر ذي القعدة»، دُقّت طبولُ الرّحيل من ميناء «أسكدار»، ورحلوا. فلمّا وصلَ الوزراء الكرام مُتتابعين لمجلس الصّدر الأعظم حتّى رحل وذهب، ورجوا الله له بخالص أمنياتهم، أصبح كلُّ واحدٍ منهم مظهرًا لأنواع لطفِه وكرمه ونال رعايته، وعندئذٍ كانوا يشاهدون كيف تكونُ مراسيم الرئاسة والقيادة، وعزيمة الشجاعة والبطولة، والطّرز السلطاني، والعدو المنهزم.

في الحقيقة إنّ ما شاهدوه لم يكن مقلّدًا، وكان طبيعيًّا وليس تقليدًا لأحد. وقبل انعقاد ديوان العصر (ايكندي ديواني) كلّ مرّة، كانت تُعرض النعمُ الكثيرة داخل الخيمة الفلكيّة النطاق؛ وتُنصَب مظلّة فريدة أمام الخيمة، وفي مقدّمة المظلة كان تُوضع وسادةٌ ذات قيمةٍ ومشغولة، وفي أطراف المظلّة كانت تُوضع الغدارات[1] المرصعة، والسّيوف المرصعة بالجواهر، والنبابيت والمغافر[2].

(مجيء داود خان للآستانة، وإقامةُ الضيافة له، وصدورُ فرمانٍ بالإحسان بمنصب إمارة الأمراء)

في هذه الأثناء، جاءت العروضُ من قِبَل القائد الأكرم «فرهاد باشا» حيث أحاط السّلطان علمًا بأنّ «داود خان» الذي هو من خانات القزلباش، كان شقيقًا لـ«سيمون» اللّعين حاكم ممالك «كورجستان»، وبينما كانت عاصمتُه قلعة «تفليس» التي هي بلاد قديمة تقعُ على ضفافِ النّهر، وتعدّ موضعَ حسدِ سلاطين العالم، فقد تخلّى المذكور عنها نتيجةَ سطوة «مصطفى باشا» القاهرة، وذهب. وقد توجّه الآن مع خمسة من أمرائه وأحدِ أبنائه الشّجعان إلى حضرة القائد «فرهاد باشا»، وقال له: «فلتوصلني إلى تراب آستانة السعادة، حيث أنّ مفاتيح مملكة «كورجستان» ملكي، و«بعونه تعالى» يكون فتحها والاستيلاءُ عليها يسيرًا معي.

---

(١) غداره: نوع من السيوف حاد الطرفين.

(٢) مغفر: نوع من الخوذ كان تلبس قديما في الحروب.

في الحقيقة إنّه أُحيط علمًا بأنّه نال كاملَ الاعتبار بين القزلباش بسبب أصله ونسبه القديم. وعندما جاء «داود خان» المذكور إلى الدّيوان المعلا، أقيمت الضيافة اللائقة له، وأُحسنَ على نجله، وأتباعِه بالخلَع الفاخرة به، وصدر فرمانٌ نصُّه: «فليُحسن عليه بإمارةِ أمراء «مرْعش»، وليتوجّه لجانب حضرة القائد، وليتوجّه إليه ما يفتحه من ولاية «كورجستان» ومِن أراضِي أخيه «سيمون» بطريق ترقيته»، وأُرسل الحكمُ الشّريف إلى القائد «في أوائل ذي القعدة سنة ٩٩٢هـ/ نوفمبر ١٥٨٤م].

(صدورُ الحُكم الشّريف إلى العسكر المنصورة لقضاء موسم الشتاء)

على إثْرِ تعرّض العسكر المنصورة الذين كانوا مع القائد الأعظم «عثمان باشا» لشتاء قاسٍ جدًّا في لوائي «بولي» و«كرده»، عُرض على مركز الدّولة أنّهم يواجهون محنةً ومشقّةً، وأنّه من المُمكن فقط قضاءُ موسم الشتاء في قسطموني، وأنّه لم تعدْ هناك إمكانية للتقدّم خطوةً واحدة للأمام، وأنّه قد هلك كثيرٌ من الإنسان والحيوان؛ فصدر الفرمانُ بقضاء الشتاء في « قسطموني» في أوائل سنة ٩٩٢هـ/ ١٥٨٤م].

(دفعُ فتنةِ التّتار، وتعيينُ «عثمان باشا» قائدًا لناحية الشرق مرّةً ثانية)

في أواخر ذي الحجة من السنة المرقومة، جاءت العروضُ المفصّلة من القائد الأعظم «عثمان باشا»، حيث ذكر فيها أنّه: «عندما علم الجنودُ الذين اتّحدوا مع أبناء الخان الخائن بخبر العسكر الذين سيتوجّهون إليهم؛ قرّروا الفرار، وبينما كانوا يهربون، تعقّبوهم، وصار رجالهم المميّزون الذين لحِقَ بهم جندُ الإسلام طُعمةً للسيف، ونال «إسلام كراي خان» مرامه بالجلوس على عرش المملكة، وأصبح جميعُ جيش التتار مُنقادين للأمْر السّلطاني، فلمّا تمّت إطاعتهم وانقيادهم لجيش الإسلام، لم يعدْ هناك ضرورةٌ للعبور صوب «كفّة»، حيث تمّت المصلحة بحسب المراد».

ولمّا عُرض ذلك على حضرةِ خليفة وجْه الأرض، قام بالتّنبيه الصارم المؤكّد في خطّه الهمايوني قائلًا: «موافقتي السّلطانية تكون فيما بعدُ على ذلك النّحو: «فلتوجه عنان عزيمتك صوبَ القزلباش في ناحية الشرق، ولتبذل كامل الجهد لمحْو فروعهم الدنيئة،

ووجودهم الضّار من صحيفةِ العالم، حيث أنّ قمعهم وقلعهم واستئصالهم هو أقصى مرامي. ولتكنْ جميعُ العساكر المنصورة تحتَ تصرّفك، وليكن الحقُّ تعالى مُعينك وظهيرك».

وكُتبت أحكامُ الحملة المفصّلة والمؤكّدة إلى جميع أميري أمراء الممالك المحروسة نصّها: «فليتجهّزوا وليستعدّوا للحملة». في غرّة محرم سنة ٩٩٣هـ/ يناير ١٥٨٥م.

(صدورُ الحُكمِ الشّريف إلى القائد «فرهاد پاشا» يأمرُه بالقدوم إلى الآستانة)

في ربيع الأوّل من السّنة المذكورة، حُرّر حكمٌ شريف لحضرة القائد السابق «فرهاد باشا» نصُّه: «الآن، عليك بمقابلةِ الصّدر الأعظم والقائد الأكرم «عثمان باشا» والتنبيه الصارم عليه بأنّه: «وُكّلت إليه أمورُ العسكر المنصورة المتعلّقة بحملة الشرق، وعلى أميري الأمراء، والأمراء، والزعماء، وجميع الجند؛ أنْ يرجعوا إليه، وأنْ يمتثلوا لأمره». وبعد التّقابل معه عليكَ بالمجيء إلى الآستانة».

(مقابلةُ القائد السّابق «فرهاد پاشا» بحضرة القائد الأعظم «عثمان پاشا» وافتراقُهما بالصّفاء)

تيسّر اللقاءُ بين القائد السابق «فرهاد باشا» والصّدر الأعظم «عثمان باشا» في «توقاد»، وبعدَ أن رحّب به وأكرمه، كتب «فرهاد باشا» رسالةً مهذّبة لحضرة السلطان حامي الدنيا حيث ذكر فيها «عثمان باشا» بالأوصافِ الحميدة، وبسبب أنّه عرض قائلًا: «إنّ عثمان باشا يليقُ بإعزاز وإكرام السّلطان، ولائق بالاهتمام الكثير». سُرّ حضرةُ السلطان صاحبُ السّعادة كثيرًا، وقال: «الحمدُ لله» إنّ الغزاة صفاة النفوس.

(وفاةُ أمير أمراء الأناضولي «رضوان باشا»، وحدوثُ التّغيرات)

في غرّة ربيع الآخر من السنة المرقومة، حلّ الضعفُ الكامل بصحة أمير أمراء الأناضولي «رضوان باشا» ولم يُعاف، ولمّا جاء خبرُ وفاته، قال حضرة السلطان صاحبُ السعادة: «مَن يعيّنه الصدر الأعظم سيكون أمير أمراء الأناضولي».

فوجدَ أميرُ أمراء «حلب» «حسن باشا» الذي كان محبوسًا في القلاع السبع (يدي قله) عندما كان أميرَ أمراء مصر سابقًا، فأصبحَ أمير أمراء الأناضولي. وأُحسن على أمير أمراء «قبرص» «أوقجي زاده محمد باشا» بإمارةِ أمراء حلب، وأُنعم على «شمس باشا زاده محمود باشا» بإمارة أمراء «قبرص»، وجاءت عروضهم بذلك.

(عزلُ الدّفتردار محمود جلبي، وتعْيين «خسرو بك» رئيس الدفتردارية، وحسن أفندي دفتردار الأناضول، وإبراهيم بك دفتردار الشق الثاني)

عندما عُيّن حضرةُ الصدر الأعظم «عثمان باشا» قائدًا قبل ذلك، كان دفتردار الأناضولي «خسرو أفندي» وكاتبُ الوقائع الثاني «محمد جلبي»، «وتذكر جي» مالية الأناضولية «بياله بك»، الذين كلّفوا بالذهاب إلى الحملة المظفرة. وعندما كانوا في المشتَى في قسطمون فجأةً صدرَ فرمانٌ بعزل رئيس الدفتردارية في الآستانة «محمود جلبي»، وتعْيين «خسرو بك» رئيسًا للدّفتردارية، وتعيين «حسن أفندي» في وظيفة دفتردار الأناضول، والإنعام على أمين المدينة «أوزون إبراهيم بك» بوظيفة دفتردار الشقّ الثّاني، وأُعطيت وظيفةُ أمانة المدينة إلى كاتب الينى جرى «علي بك»، «وأسندت وظيفة كاتب الينى جرى إلى «محمد جلبى» كاتب ولاية «فودله». في ٢١ربيع الآخر سنة ٩٩٣هـ/ مايو ١٥٨٥م].»

(توجّهُ حضرةِ «عثمان پاشا» لحملة الشرق)

عندما قام حضرةُ القائد- المُشار إليه- باليُمن والإقبال من مشتى «قسطمون»، وتوجّه للحرب، صدرَ فرمانٌ بمجيء الدفتردار «خسرو بك» إلى الآستانة، وذهاب «محمود أفندي» للحمْلة، وعندئذٍ تيسّر لكلّ مِن مفتي الأنام «جوى زاده أفندي» والنشانجي السابق الوزير «محمد باشا» و«برهان الدين أفندي»؛ التخلّص من تشويش تفتيش الدفتردار المعزول.

(مجيء القائدِ السّابق «فرهاد پاشا» للآستانة)

في غرّة جمادى الآخرة من السنة المرقومة، جاء القائد السابق «فرهاد باشا» باليُمن والإقبال إلى «دارَ السّلطنة العلية» «استانبول» المحروسة، وبناء على القانون القديم ذهبتِ السّفنُ إلى «قادرغه» إلى ميناء «أسكدار»، واستقبله كلّ مِن أمير أمراء الروميلي وآغا اليني جرى والدّفترداريةِ، وآغوات الركاب الهمايوني، وقالوا له: «لتكن غزوتُك مباركة»، وجلسوا على موائد النّعمة في استراحة كبار الزوار.

وفي اليوم العاشر من الشّهر المذكور، خرج حضرةُ السلطان صاحب العظمة بالعزّ والسّعادة من القصر العتيق، وانعقدَ الدّيوان العالي، وقدم الوزير المشار إليه الهدايا الثّمينة، وغبّر الوجهَ لمقام عرش السّلطنة تعبيرًا عن السعادة، وقدم تيجان «طوقماق خان» و«إمام قوليخان» المرصّعة، وأعلام «سيمون» اللعين المزينة بالرسوم. وبناءً على القانون القديم أحضر كامل التحف والهدايا، بموجب القانون.

(وفاةُ شيخ الإسلام السّابق «معلول زاده أفندي»)

كان نقيبُ الأشراف «معلول زاده أفندي» الذي كان صدر الفتوى أو «شيخ الإسلام» والذي عزل قبلَ ذلك؛ قدْ لازم الفراشَ عدّة أيام، في هذه الأثناء، ودّع الدنيا الفانية، وذهب إلى دار البقاء «رحمة الله عليه».

(تعيينُ «أمير مخدوم عجم» «نقيب الأشراف»)

وجّهت نقابةُ الأشراف إلى «أمير مخدوم» قاضي الكعبة المكرمة الذي جاء من ولاية الشّرق، وثبّت شرف نسبه وسيادته، فأعزّوه بذلك، وكرّموه.

(وفاةُ أولاد السلطان)

في أواخر رجب من السّنة المذكورة، وفي السراي العتيق، انتقل الأمير الصغير السّلطان «سليمان»، وبعد بضعةِ أيّام رحل السلطان «جهانكيز» الذي ولد معه في ليلةٍ واحدة، ومعه سلطانٌ أكبر منه بسنتين، انتقلوا من دار المحنة لسراي البقاء، وأُمر بأن يدفنَ الثلاثة أيضًا في قبْر السّلطان «سليم خان» الواقع بالقرب من مسجد «آيا صوفية».

(وفاةُ «اسميخان سلطان» طاب ثراها)

في اليوم الثّامن عشر من شعبان المعظّم من السنة المذكورة، لمّا ولدت مولودةٌ محبوبة «اسميخان سلطان»، لم يكنْ ميسّرًا دفعُ الضّعف والتغير الذي حدث بصحتها الشريفة وجسدِها اللّطيف. وفي اليوم العاشر من الشهر المذكور، عندما انتقلت من دار المحنة إلى سراي الرّحمة، دُفنت في القبر الشريف للسلطان «سليم خان» «طاب ثراه». «رحمة الله عليها».

(وفاةُ ابن «اسميخان سلطان»)

في أواخر رمضان الشّريف، عندما أتمّ المعصومُ المسمّى باسم «محمود» ابن المرحومة «اسمخان سلطان» خمسينَ يومًا، ورحلَ إلى دار الآخرة، دُفن بجوار سائر إخوته في قبْر المرحوم «محمد باشا» عليه الرّحمةُ، الواقع بجوار قبر حضرة «أبو أيوب الأنصاري».

(تبْديلاتُ الكتاب أثناءَ تولّي الـ «قائمقام» «مسيح باشا»)

فيما يلي أسماءُ مَن ارْتكبوا ولم يرتكبوا جرمًا، والذين عُزلوا في عام واحد أثناء تولية قائمقام الصّدر الأعظم «مسيح باشا»: عُيّن محاسبجي الروميلي السابق «قره أحمد» بدلًا مِن رئيس المقاطعة «جانم آغا زاده محمود جلبي»، وعُين أيضًا المتفرقة «محمد جلبي» ذو علوفه سبعين آقجة، والمتواجد في خدمة «مسيح باشا»، مكان المقابلة جي «أحمد جلبي»، وأصبح فجأة «شاكرد شعبان» رئيسًا لمقاطعة استانبول بدلًا من رئيس مقاطعة استانبول «بالقجين اولوسي»، وعُيّن محاسبجي الأناضولى «كيلاري محمد جلبي» بدلًا من محاسبجي الرّوميلي «تذكرجي زاده محمود جلبي،» وبدلًا منه عُين «ترياكي منلا محمد»، وأصبح الـ «تسلماتي» «محمد جلبي» مكانَ رئيس الواردات، وأصبح رئيس كتاب الوقائع «قوچه علي جلبي» الذي كان دفتردار ديار بكر سابقًا بدلًا من رئيس كتاب الوقائع «سليمان أفندي زاده».

(تبديلاتُ المُحاسبين بحجّةٍ واهية)

لمّا فُصلت أقلامُ سواحل «طونه» عن دفتردارية الشقّ الأوّل وجُعلت دفتردارية منفصلة، كان «برهان الدين أفندي» الذي عُيّن دفتردارًا بأموال سليانة من قبل، قد جاء إلى ديوان العدالة.

وفي اللّيلة الخامسة عشرة من شعبان السنة المذكورة الموافقة ليلة البراءة، عزل هؤلاء الثّلاثة فجأة: رئيس الدفتردارية «خسرو بك»، ودفتردار الأناضولي «حسن جلبي»، ودفتردار الشقّ الثاني «اوزون بك»، وأصبح «برهان الدين أفندي» رئيس الدفتردارية، وجاء الدفتردار «سيفي أفندي» قبلَ ذلك إلى الأناضول، ولم يقبل «كوسج مصطفى أفندي» الذي كان دفتردارًا سابقًا؛ وظيفة الدفتردارية، ومن قبل، أصبح دفتردار أرضروم «دلبند زاده محمد جلبي» دفتردارَ الشقّ الثاني. في ١٥ شعبان سنة ٩٣٣هـ/ يوليو ١٥٨٥م.

(تعيينُ أمين أبنية «والده سلطان»، «أحمد آغا» رئيس الجبه جيه)

صدرَ فرمان بعزل الـ«جبه جي» خليل آغا، وتعيين الذّواقة «أحمد آغا» الذي كان مكلفًا بوظيفةِ أمين أبنية والده سلطان، رئيسًا للجبه جيه.

(خروجُ السّلطان حامي العالم من السراي العتيق، ومجيء الوزير «إبراهيم پاشا» من ديار مصر)

في شهر رمضان الشّريف من السنة المذكورة، خرج صاحب العظمة حضرة السلطان خلّدت خلافته؛ من السّراي العتيق لأداء صلاةِ ليلة القدر المباركة في الجامع الشريف للسّلطان «سليمان خان غازي»، وفي اليوم التالي عندما اكتمل بناءُ الحجرة الخاصة وحمّام الرّاحة والأحواض التي أُنشئت من جديدٍ في السّراي العامرة شرفها السلطان بالقُدوم إليها بالعزّ والسّعادة. وفي ذلك اليوم، قبل أن يقوم أعضاء الديوان حتى ذلك الوقت، جاء الخبرُ بأنّ الوزير المكرّم حضرة « إبراهيم باشا» الذي ذهب لمملكة مصر المحروسة عادَ بالأسطول الهمايوني مع أيام هبوب الرياح،

وألقى مراسيه أمام القلاع السّبع (يدي قله). وفي الحال، عندما خرج من السفينة الـ «قاليون»، وصل أصحاب السّعادة لتهنئة قدومِه، ثمّ دخل لسراي المرحوم «فرهاد باشا» الذي هو مقرٌّ لاستراحته.

(تفصيلُ الهدايا والعرش الزمرّد، والتنسيقات الملكية الأخرى)

بعدَ مجيء الوزير المومأ إليه بيوم واحد، بدأ في إحضار التحف والهدايا التي جُهزت لتقديمها لصاحب العظمةِ حضرةً سلطان الأرض، وهي على هذا النحو:

أوّلًا: عرش زمرّد من الذّهب، وزنُه ثمانون ألف مثقالٍ من الذهب، والذي كان مزينًا ومرصّعًا بأنْواع الجواهر النفسية، وأظهر فيه الصّناع المهرة حذاقتهم ومهارتهم، ورصّعوه على أعلى درجةٍ من الروعة. على سبيل المثال كانت أدنى الجواهر المرصع بها العرش الزّبرجد والفيروز. ولم يتركوا ما هو أقلّ من بيضة الحمام إلّا وأظهروه به، ووضعوا ياقوتَ الفرنجة الجميل ذا اللّون الأصفر والأزرق، ونفيس الزمرد المشكل بشكلِ الأفعى؛ لموضع يلفت النّظر، وبيّنوا الزينة والبهاء فيه بكل صورة، وأظهروا ذلك القدْر من كمال الصّنعة في مهارة الرسم باليد وحذاقة النّقش على ألواح الفضة التي كانت تحفةَ العصر؛ بكلّ صورةٍ على نحو لم يُر أو يُسمع قبل ذلك.

خلاصةُ القول: اكتملتِ الصّنعةُ بمهارات النّقاش والرسام «درويش بك» الذي هو من الأمراء المصريّين، و«قويمجي إبراهيم بك» الذي أُلحق بزمرة متفرقة الباب العالي، وأسّست أصولها.

وكنتُ أنا هذا الفقير (سلانيكي) معهم أثناءَ النّزهة والفسحة وتقدير سعرٍ لهذا العرش، وأجبتُ مُعارضًا الجاوش «عجم محمود» الذي قصد وضع ثمنٍ لهذا العرش الذي لا سعرَ له بقولي: «الفضلُ هو أنْ تقدّر قيمته بعد أن يتفضّل خليفةُ الأرض والزمان السّلطان الأعظم بالجلوس عليه واستحسانه». وكان قدْ قيل: «إنّ سرير السلطنة ذو قيمة، وليسَ مِن المناسب أن يُحدّد له سعرًا». وعندما تفضّل الوزيرُ المشار إليه بالتوجّه مِن ديار مصر إلى الشّام «دار السلام»، كان أقصى ما يهدف إليه،

الهجوم على طائفة الدّروز التي تقطنُ تلك الولاية التي هي كالجنّة، وتحتلّها منذ القدم؛ حيث أنّها ملّةٌ غير نقية، وظهرت عيوبُها وخبائثها ﴿كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ﴾[1].
ومحْو شرّهم وفسادهم من ذلك المكان، فهجَمَ عليهم بعسكرِ تلك المملكة، وقهرهم وهزمهم جميعًا، ووضعهم تحت وطأةِ سيفِ الإسلام؛ وأرسل من قبل إلى الآستانة عدّة مئات من رؤوس مشاهيرهم ومعارفهم التّعساء. وعندما جاء بالعزّ والسّعادة حمل معه عدة آلاف من البنادق والسّيوف والبلط من أموال ومؤن وأسلحة ولوازم المذكورين، وأرسل إلى حضرة عظمة السّلطان حامي العالم، وأوصل إليه العرش الزّمرد المذكور، وثلاثة وسبعين حملًا من أموال الخزينة، والتي كان مجموعُها مائة وثلاثةً وسبعين ألفًا وثلاثمائة وخمسَ قطعة ذهبيّة، وتقدّم أمير أمراء الروميلي «محمد باشا»، وآغا الينى جرى «خليل آغا»، حضرة الباشا- الموماً إليه-، ووصل بالإكرام والاحترام إلى مركز الدولة، وغبّر الوجهَ لمقام عرش السّلطنة، وبعد أن تحدّثوا كثيرًا بحكيم الكلام المتعلّق بأمور الدّولة في ذلك المَكان، أحسن على معيّته وسائر خدّامه ذوي الاحترام بالخلع الفاخرة.

(حلولُ العيد السعيد)

وبعدَه، عندما تهيّأ أركانُ الدّولة وأعيان السلطنة والوزراء العظام والعلماء الكرام واستعدّوا في العيد السّعيد أمامَ العتبة العالية والعرش المعظم، طبقًا للأصول القديمة، نُصب أمامَ باب السعادة عرش السلطنة- السّابق الذكر- الذي لا يحتاج للوصف والبَيان، وغبّروا الوجهَ لمقامه، كلّ على حسب رتبته، وجُددت البيعة للسلطان.

(تفصيلُ هدايا حضرة «إبراهيم باشا»)

بعدَ هذا العيد السعيد، في نهاية انعقاد الدّيوان في يوم الثلاثاء، لمّا صدر فرمانٌ للوزير جليل القدر الموماً إليه حضرة «إبراهيم باشا» بإحضار الهدايا بموجب القانون، تمّ التنبيه بعقدِ ديوان الغلبة، و«عند التّحقيق»، ظهر ووضح العجزُ والتقصير في

(١) الآية ١٧٩ سورة الأعراف.

التوضيح والتّقرير والتحرير لوصف وشرح نفائس الأمتعة المزينة والتحف والهدايا والجواهر النّفيسة والقيّمة التي جهّزها الوزيرُ إبراهيم باشا، وفيما يلي إجمالي ذلك التفصيل: رغم عدم إثبات وتحرير هذا النّوع من التّحف النادرة في الدفاتر القديمة في عصر سلاطين السّلف، وعلى سبيل المثال عندما جاء «سليمان باشا» فاتح مملكة «اليمن وعدن» في عصر السّلطان «سليمان خان» عليه الرّحمةُ والغفران، ولمّا كانت تحفه وهداياه التي قُدّمت في الديوان الهمايوني مشهورةً في كلّ الآفاق، ونال شرف الصدارة العظمى، لم تكنْ تلك الرّتبة تتناسب مع ما قدّمه من هدايا، ولم يكن هذا المنصب يوازي عُشْر هذه الهدايا.

ومثالٌ آخر، في أواخر سلطنة المرحوم الذي مأواه المغفرة «سليمان خان»، عندما جاء أميرُ أمراء اليَمن «محمود باشا» معزولاً من اليمن، وأحضر الهدايا، أُحسن عليه بإمارة أمراءِ مصر، فبينما كانت هداياه أيضًا اشتهرتْ شهرة عظيمة على ألسنة الناس، فليس هذا المنصب يعادل واحدًا في الألف من هذه الهدايا.

(دفترُ تشريفات حضرة الباشا «المشار إليه»)

قدّم حضرةُ الباشا المشار إليه: مصحفيْن بخطّ جميل وجلدٍ مرصّع، وستارة مطرزة لبابِ الكعبة المعظّمة، وثلاثة سيوف مقابضُها مرصّعة بالجواهر، وثلاثة خناجر بمقابض مرصّعة بالياقوت والماس، وثلاثُ سكاكين أعجمية كبيرة بمقابض مرصعة بالمجوهرات النّفيسة، وثلاثةُ دروع معطّرة بالمسك، ومزينة بالنفائس، وثلاثة دروع أخرى معطّرة بالمسك، ومطرّزة ومرصّعة، وثلاثةُ أكواب مرصّعة ومجوهرة، وإبريق من الذهب الخالص، وثلاثة أوانٍ شرب مرصّعة، وثلاثُ صوانٍ مرصّعة بالذهب الخالص، وثلاث شيشات مرصّعة، وثلاثُ صوانٍ مرصّعة أخرى، و٧٩عمامة من قماش «سراسر»، و٣٩ عمامة قطيفة سادة وملونة بندقي نفيسة، و٢٩عمامة من قماش أطلس الإفرنجي الثّمين، و١١٩ عمامة ممهّرة نفيسة على كلّ لون، وعدد ١٠٠٠ عمامة شيوخ، وحملان من الحرير النّفيس، كلّ حمل منها ٥٠٠٠، ومائة رأس من الغلمان الجمال، و١٧ رأس من الغلمان الخدم، و١٠ أحباش، و٧ بيض، وسبعة قطعان من

الجياد العربية، وبالجُملة سبعة قطعان من الجياد اليافعة، كلّ منها ممتاز لا نظير لها. وخمسة قطعان أيضًا من الجياد كلّ منها تتكوّن من تسعة جياد، والتي كانت سروج جميعها مرصّعة بالذّهب والجواهر، وسلاسلها من الذهب، وعبيها وأغطيتها حمراء وكحليّة اللون، وكانت القطيفة المفروشة على سروجها مزينة باللؤلؤ. وكانت سروج القطيع الثالث والرابع والخامس كاملةً ومزيّنة ومطلاة بالفضة، ونبابيت، وعبيهم مزركشة، وأغطيتهم من قماش «ديبا» الأبيض والأصفر، وذات عنان حريرى. وأحضر أربعة قطعان، اثنان منهم ذات غطاء «جل» من الحرير الأطلس الناصع البياض، والقطيعان الآخران كانًا مزيّنين بقماش من نوع «شركه»، أمّا القطيع الرابع كانت جميع جيادِه ذات سلاسل ثمينة، وذات أثوابِ مطلاة. وقطيعان منه ذوا غطاء رأس بحري، وأردية جميعهم ذوات غطاءِ مرصّع ومزركش، إلى جانب ذلك قدّم فيلًا صغيرًا بحريًّا ذا غطاء جل «جوخ»، وأيضًا زرافة، وخمسة عشر حملًا من البنادق التي استولى عليها في حرب الدّروز، وسائر آلات الحرب ولوازم الأسلحة.

وخلاصةُ القول، لمّا صارتِ التّحف والهدايا التي لا شكّ وشبهة في أنها متاع، والتي قدّرها صاحبها تقديرًا صحيحًا بما يوازي مائة ألف قطعة ذهبية عشرين مرّة، أكّدوا قائلين: «إنّ خدمةَ العبد لسيده، تيسّرت بعرض عبوديته بهذه الدرجة فقط. فزيادها لا يمكن تصوّرها».

(نقلُ «إسماعيل چاوش» الذي أطلق سراحه من الحبس لأخبار القزلباش)

في اليوم الخامس والعشرين من شهر شوال من السنة المرقومة، عانى «إسماعيل جاوش» الذي كان قد ذهبَ بالرّسائل والأخبار من قِبَل القائد، وحُبس في حبس «قالتبان» المعروف بالشّاه الضّال السلطان «محمد خدابنده» بغير وجْه حقّ، وظلّ به؛ عانى من العواقب والأحداث الكثيرة، ثمّ أُطلق سراحُه، والتقى بحضرة السّلطان الأعظم والقائد الأكرم «عثمان باشا» في منزل «خوى» الواقع بالقرب من «تبريز»، وأخبره عن جماعة القزلباش الأوباش وأحوالهم وأوضاعِهم السّائدة بينهم، وأعلمه بأنّ حاكم «تبريز» قتل الشّاه التركماني «أمير خان» الذي هو مِن أقربائه. وبعد ذلك

جاء لمركز الدولة، وأمره حضرةُ السّلطان صاحبُ العناية بالتحدّث، وسمعه، فأخبر قائلًا: «تجمّعت كافّة قبائل القزلباش في موضع واحد؛ وكان اتّفاقُهم في هذه المرّة مُحكمًا، ولمّا أصبح «حمزة ميرزا» قائد الجند، اتّفق ً«استاجللو» مع التّركمان، وأصبحوا متّحدي النيّة والوجهة. وأوْضَح: بأنّ العساكر المنصورة كانوا كثرةً في بلاد العدو، وروي: بأنّ كثرتهم ووفرتهم كانت على درجةٍ لا يمكن وصفُها. وقال ولم تكنْ توزّع الموائد، حيث صار الزاد والزواد غاليَ الثمن بسبب الكثرة والازدحام.

(تمليكُ سراي «آت ميداني» لحضرة «إبراهيم باشا»)

في أواخر ذي القعْدة من السّنة المرقومة، أرسل حضرةُ السلطان الفلكي الوقار «تذكرة همايونيّة حيث صدرَ فرمانٌ نصُّه: «أحسنت على الوزير المكرم «إبراهيم باشا»، وملكته سراي «إبراهيم باشا» القديم الموجودة في «ات ميداني» ماعدا المكان الذي يسكنه غلمان السّراي، ولتُكتَب الحجج الشّرعية بذلك، وليُمنح حجّة التمليك، كما صدر الفرمان بأنْ يتمّ البدءُ في إصلاح وترميم السّراي الداخلي.

(أحوالُ القائد الأعظمِ «عثمان باشا» الواقعة مع القزلباش في «تبريز» تفصيليًّا)

في أوائل ذي الحجة سنة ٩٩٣هـ/ نوفمبر ١٥٨٥م، جاءت رسائلُ أمير أمراء الأناضول «حسن باشا» وغيره المفصّلة والمشروحة بخصوص أحوال القائد الأعظم والجيش المعظّم الذين كُلّفوا بالخروج لحملةِ الشرق، مَفادها على هذا النّحو: «في أواخر رمضان من السّنة المرقومة، كان قد تمّ الوصولُ بالعساكر التي مآثرها النصر إلى مملكةِ «تبريز»، وفي ذلك اليوم، واجهوا عساكرَ القزلباش القادمين من أطراف ونواحي المْملكة بفرقهم المسلّحة، ودخلت فرقُ المشاة الخفيفة من كلا الطّرفين لميدان الحرب، فحدثَ بينهما تدافعٌ، وتلاطم، وكرٌّ وفَرّ، وصعد للآفاق صياحُ الرجال الأبطال «هاي هوى»، وتمّ إحداثُ اضطرابٍ في الميدان بشنّهم حرب شديدة، ثمّ حطوا عند منزل، وسُحبت المدافع، وجُعلت كحصارٍ من الفولاذ، وبناءً على قانون الجند العثماني، رُبطت السّلاسلُ الحديدية، حيث استقرّوا واستراحوا هناك.

وبينما كانت عساكرُ الـ «قراغول» يقومون بحراسةِ جند الإسلام، نزل الشّاه الضّال مع الجنودِ الشّياطين وابنه «حمزة ميرزا» الذي كان قائدًا للجيش في موضع بعيد عن هذا الجانب (منزل الجيش الإسلامي) بقدْرِ منزل. وفي هذه المرّة، قام كلّ مِن حاكم «كنجه، وقره باغ» «إمام قوليخان»، «ومرشد قوليخان»، «ومهدي قوليخان» ورئيس الحرس المدعو «محمد»، والشّاه «قولي سلطان» الذين كانوا من المشهورين والمعروفين، وأيضًا كثير من السّلاطين بالاتّفاق مع حوالي ثلاثين ألفًا من كلاب جهنم من أعداء الدين والمذهب بقصدِ الهجوم في تلك الليلة على جنْد الإسلام، وكان عساكر الـ (قراغول) يقومون بالحراسة نهارًا، وعندما أخبروا جند الإسلام بذلك قام أصحابُ العقيدة والذين لديهم قسطٌ من الشجاعة، وبقلوبهم نصيبٌ من البطولة؛ بركوب جيادِهم للتّدريب والتجربة؛ وقام بالهجوم كلٌّ مِن «جغالة زاده وزير سنان باشا»، وصهره ابن الوزير الأعظم أمير «سنجاق نيكوبلي»[1] «سلطان زاده محمد بك»، والعديد من الشجعان والأبطال من رجالِ الحرب، وأميري الأمراء وعسكر السپاهية والزعماء حيث لحقوا بالقزلباش، وتعقّبوا فرقَ القزلباش لمسافة قليلة، وأبعدوهم، وطَعنوا الذين لحقوا بهم، ولم يستجيبوا لاسْتغاثتهم، وحملوا على جيش الشّاه، فركب العساكرُ الأقوياء من القزلباش أيضًا جيادهم، وتعقّبوهم، وعندما وصلوا لجيشِ الإسلام عند حلول المساء، أذاقوا كثيرًا من جندِ الإسلام كأسَ الشّهادة في الطرقات.

وبقيَ قلّةٌ من الرّجال بجانب أمير أمراء ديار بكر «صولاق فرهاد باشا زاده محمد باشا»، ولم يبقَ أحدٌ مع أمير أمراء «قره مان» «مراد باشا»، وبسوء تدبير أوقدوا المشعلة، ووقفوا على رابية، ولمّا هجم القزلباش الملاعين على المشعلة بفرقة ليلاً ككلاب جهنم، سقط «محمد باشا» شهيدًا، وبينما كان «مراد باشا» أيضًا يهرب، سقط في حفرة، فتجمع حوله القزلباش، وأسروه، وأخذوه، وذهبوا. وأتوا به لشهرته، وقتلوه قتلة شنيعة بجوار سلاسل عربات المدافع ليتجسّر جنودُه عليه. وبعد هذه الواقعة، لم يستحسن

---

(١) نيكوبلي: مدينة على ساحل طونه، في شمال بلغاريا.

أهل «تبريز» المعيشة مع جندِ الإسلام، ونظّم أهلُ تبريز جندهم المفرّقين، وبينما ظهر أنهم أصبحوا متأهّبين للحرب والقتال، صرفوا النظرَ مرّة أخرى عنه، وسرّحوا جندَهم بحجّة واهية، فدخل العسكرُ المنصورة المدينة، وشَرَعوا في البيع والشراء، وباشر حضرةُ القائد الأكرم أيضًا بتجهيز لوازم بناءِ القلعة، وأمر بإحضار أدوات البناء بجدٍّ وسعي، وبينما هُم يُحاصرون قصرَ «هشت بهشت» بإحكام، وبينما يقومون بإنشاء الأبراج والأسوار العالية، أوقعَ بعض الملاعين من أهل المدينة الضّررَ بجنديّ وحيد، وعندئذ علم وعرفَ أنّهم كانوا على وشكِ الانتقام من طائفة العسكر، ويريدون حجّةً للجزاء بسبب العقدةِ الموجودة داخلهم، فبالحكمةِ الإلهية أصبح يتردّدُ على ألسنة العسكر أنّه لازمٌ المذبحة لهؤلاء، وإلّا فلن يكونوا مُطيعين، ولن يقولوا الحقّ. ولمّا سمع حضرةُ القائد ما قالوه، قال: «ليحفظهم الله تعالى»، ولم يجز قتلَهم قطعًا، وبينما كان غيرَ راضٍ عن قتلهم في يوم ما اندلع صوتُ ضجيج فجأة، فجهّز جميعُ جند الإسلام أسلحتهم، وتحرّكوا في كلّ اتّجاه منادين «مذبحة». ولّما حلّ الضّعف الكليّ بصحة «عثمان باشا»، امتطى جوادَه بعجزٍ وانكسار قائلًا: «واأسفاه». ولم يستطعْ دفع الشّر والضجيج، ولمّا لم يستطعْ أيضًا السّيطرةَ على الجند، وبسبب سلب ونهب تلك المدينة والإغارة عليها، اضطربَ حالُه، وعاودَه المرضُ ثانية، ولمّا تمّ أيضًا بناءُ القلعة، وأصبح مقرّرًا بقاء عسكرٍ من كلّ طائفةٍ مقدارهم خمسة عشر ألف رجلٍ مع «جغاله زاده سنان باشا» الباقي لمهمّة حراسة القلعة، تعلّل «جغاله زاده» للبقاء في القلعة، ولهذا السبب، ضعف القائدُ الأكرم ضعفًا شديدًا، وأصبحت وفاتُه مؤكّدة، وعلم العدوُّ أيضًا بأحوالهم.. في الحقيقة قام أشخاصٌ من ذوي الخبرة والشّهرة في جيش الإسلام بهذا التدبير قائلين: «إنّ ذلك ضروريّ». ولمّا اشتدّ مرضُ حضرة القائد الأكرم تدريجيًّا من معاناته ألم التسمّم، ترقّب عدوّ الدين الفرصة، وفي وقتِ الرّحيل؛ لمّا أحاطوا علمًا عن حال القائد، أحيط جندُ الإسلام علمًا بأنّ «غرض الكفار بإلحاق الضّرر بجند الإسلام مؤكّد». وعندئذ جهّزوا بأنْ يبقى أميرُ أمراء «ديار بكر» «خادم جعفر باشا» لمهمّة حراسة القلعة، وسُجل عددٌ كافٍ من الرّجال بقدر يتجاوز ألفًا من طائفة الينى جرى

وجند الجبه جيه والمدفعية وسائقي عربات المدافع برغبتهم لترقيتهم، ووضعت الخزينة والمؤن للباقين لمهمّة الحراسة مع أمير أمراء السنجاق وأمراء الفرق من أرباب التيمار والزعامة، وتقرّر الرّحيل، فدخل القَائدُ الأكرم العربة، حيث لم يعدْ بإمكانه ركوبُ الجواد، وتجهز أمراء الأمراء، وأمراء السّناجق، وأغوات البلوكات، وتهيّئوا بأسلحتهم لمواجهة العدو، ولم يرْحلوا، وحميَ وطيسُ المعركة والقتال مع جيش القزلباش، وعندما سقطوا هُم أنفسهم في المغرق (مكان ذو وحْل) الذي أعدّوه من أجل الإيقاع بجند الإسلام، مرّ جندُ الإسلام مُنتهزين الفرصة، وساقوا أحمالَهم، ورحلوا.

وفي الحال، في هذه الأثناء، رحلَ القَائدُ الأكرم «عثمان باشا» من هذه الدنيا الفانية، وسكنَ دار العقبى، «رحمة الله عليه».

وجرّ عسكرُ القزلباش أحمالَ «جغاله زاده» التي مقدارها خمسون قطيعًا من الجياد وساقوها. وفي تلك الليلة بعونه تعالى، لم يسترحِ الجيشُ العثماني من الهجوم، وجعلوا منزليْهما منزلًا واحدًا، وفارقوا عسكرَ العدو. وجاء ملاعين القزلباش عند كلِّ منزل، حتّى وصلوا للمنزل الرّابع بالحرب والقتال والعراك والجدال. إنّه الموضع الذي قال فيه المرحوم «عثمان باشا»: «عجبًا، خيّم المساءُ على المكان». وفي وقت المحنة العظيمة خدمَ رئيسُ الديوان «حمزة بك» الدّولة العلية. وعلى الخصوص أنّه لم يُكتب في صحيفة العصر، ولم يُسمَع في أيّ وقتٍ قطّ البطولات التي أظهرها أولاد السلحدارية والسپاهية. ومع أنّ الآلاف من أعين الفلك شاهدتهم، لكنّ خروج سلطان مملكة وقائد عسكره، من مقرّ عرشه راغبًا وغير راغب، وهذه الدّرجةُ من القتال والحرب التي أظهرها، وانتصار الجيش وغلبته هكذا بلاً قائد، وعودتهم سالمين غانمين، لم يحدثْ في «إيران، وتوران» ولا في الشّرق أو الغرب، فهذا الأمرُ مثالٌ لعناية الملك فقط.

(وفاةُ «عثمان باشا»، ومجيء خاتم الصّدارةِ في يد «محمد بك» إلى مركز الدولة)

بعدَ ذلك، عندما أخذ أمير «نيكوبلي» «أحمد باشا زاده محمد بك» خاتمَ الصّدارة إثر وفاة المرحوم «عثمان باشا»، وجاءَ به إلى مركز الدّولة، وأوصله لحضرة السلطان صاحب العظمة؛ أرسل چاويشية البلاط العالي بالأحكام الشريفة إلى

الممالك السلطانية المحْروسة من أجل تبْشِيرهم وإعلامِهم بأخبار الفتوحات التي حدثت.

وعندما فُتحت مملكةُ «آذربيجان» سُمحَ لرعايا الدّولة بإقامةِ الأفراح والابتهالات في المْلكة العثمانية. وأقام أهالي استانبول الزّينةَ ابتهالًا بالفتح ثلاثةَ أيام وثلاثَ ليال. في ذي الحجة سنة ٩٩٣هـ/ نوفمبر ١٥٨٥م. وتمّ دفنُ المرحوم «عثمان باشا» في قبره الموجود في «ديار بكر»، «رحمة الله عليه»[1].

(تاريخ)

توجّـــه حضـــرة «عثمان باشا»	وسل على الشّاه سيفه الذي يريق الدم
قصـــد ذلك الحاكـــم على المقام	ولايات الشرق ومعه جند الروم
وأراق دم القزلبــــــاش	فأصبح ترابُ العجم جميعه مدمى
وبدأت جماعةُ الرفضـة تقـــول	«نحن سنيون»، خشيــة سيفــه
لَمـــن تيسّـــرت هـذه الحملة؟	ولَمن وهبها ذلـــك الحي العزيز؟
قال العبــدُ الداعـــي تاريخــه	بعون الحقّ تمّ الاستيلاء على تبريز

---

(١)

عزم ايدوب حضرت عثمان باشا	چكدى شاه اوستنه تيغ خونريز
عسكر روم ايله شرق ايللرينه	كچدى اول خسرو صاحب شبديز
دو كيلوب قاين قزلباشلرك	اولدى خاكى عجمك هب خونريز
خوف تيغله كروه رفضه	ديمكه باشلدى سنى يز بز
بو سفر كيمه ميسر اولدى	كيمه ويردى بودن اول حى عزيز
بنده داعى ديدي تاريخنى	عون حقيله آلندى تبريز [= سنة ٩٩٣هـ]

(نثر)

بقيتْ للمرحوم «عثمان باشا» في هذه الدّنيا- دار الفناء- والدتُه وأختٌ له. وذُكر اسمُه في الدّنيا مقْرونًا بالشجاعة، وترك جرح الحسرة في قلوب القزلباش.

(تعيينُ «مسيح باشا» وزيرًا أعظم، «وسياوش باشا» وزيرًا ثانٍ)

وبعدَ هذا، بعدَ صلاة العصر في يوم التّروية، أرسل حضرة السلطان خاتم العزة إلى حضرة «مسيح باشا»، وعهد إليه أمورُ الوكالة المطلقة، وصدر فرمانٌ بأنْ يُعين حضرة «سياوش پاشا» المتقاعد بمعاش قدرُه ثلاثمائة ألف أقجة، والذي كان صدرًا أعظم سابقًا؛ وزيرًا ثانٍ، في٨ ذي الحجة ٩٩٣هـ/ نوفمبر ١٥٨٥م.

(تعيينُ حضرة «فرهاد باشا» قائدًا مرّةً ثانية)

في سنة ٩٩٤هـ/ ١٥٨٥م، عندما جاءت الأخبارُ للآستانة بأنّ جيش القزلباش الملاعين الجرار- خذلهم الله- جاء مع قائدِ عساكره «حمزة ميرزا» ابن الشاه، نحو العسكر المنصورة الباقين لمهمّة الحراسة في قلعةِ «تبريز»، أي حدود «أذربيجان» ونصبوا المدافع، ولمّا حميَ وطيسُ القتال، قاتلوا في ميدان الحرب ليلَ نهار، وعُرض على المجلس السّلطاني بأنّهم طلبوا العناية بخصوص إرسال إمدادات من الجند ولوازمهم، وفي محرّمٍ سنة أربع وتسعين وتسعمائة هـ/ ١٥٨٥م أصدر حضرة السلطان حامي العالم «أعزّ الله أنصاره» فرمانًا بأنْ يُعيّن حضرة الوزير المتصف بالشجاعة قائدًا للعسكر المنصورة مرّة ثانية، نصُّه: «عندما تحمل العسكر الباقون في مهمّة حراسة قلعة «تبريز» كثيرًا من المحنة والمشقّة من أجل الدفاع عن الدين والدولة، فإنّ قلّة العسكر وتلفَ الخزينة مخلّان بشرف السلطنة». وأرسل الجاويشية المهرةَ بالأحكام الشّريفة والخطّ الهمايوني مؤكّدين بالآتي: «أمر بالذّهاب لحملة الشرق مرّةً ثانية كما كان كلّ مِن كتخدا الينى جرى «سنان آغا» على رأس ألف رجلٍ من أبطال الينى جرى، وجميع بلوك أبناء السپاهية، ورئيس الجبه جيه، ورئيس جندٍ المدفعية وتحت إمرته ألفُ رجلٍ من جند المدفعيّة، ورئيس الجبه جيه وتحت قيادته ألفُ جنديّ، وألف جندي من سائقي عربات المدافع، وجميع الأمراء الذّاهبين للحملة المنتصرة حتّى الآن. وليتجهّز

أمراءُ الفيلق الأيمن والأيسر للرّوميلي، وأمراء السناجق وليستعدّوا للحرب، وعليكم أن تتواجدوا في النّوروز السّلطان في المقاطعة بجوار قائدي المنتصر». وفي ربيع الآخر الموافق النوروز السّلطاني، صدر فرمانٌ بأنْ تُنصب خيمة القائد «فرهاد باشا» في «اسكدار». في ٢٣ محرم سنة ٩٩٤هـ/ ديسمبر ١٥٨٥م.

(تعيينُ «تذكرجي زاده چلبي» دفتردار مالية «ديار بكر»)

لمّا عُزل دفتردار أموال «ديار بكر» «لاله عذار زاده أحمد جلبي»، وتعهّد «تذكرجي زاده جلبي» المعزول من محاسبةِ الروم ايلي بتقديم أكثر من عشرين ألفًا من الذهبية كلّ سنة، صدر فرمانٌ بتعيينه دفتردارًا مكانه. في أوائل ربيع الأول سنة ٩٩٤هـ/ فبراير ١٥٨٦م.

(عزلُ رئيس الدّفتردارية «برهان أفندي» فجأة، وتفتيشُه)

في أوائل شهر ربيع الأوّل، صدر فرمانٌ فجأة بعزل رئيس الدفتردارية «برهان الدين أفندي». وبأنْ يصل رئيسُ الجاويشية «خضر آغا» لتفتيشه في حجرة بوابي حضرة الوزير صاحب العزّة «إبراهيم باشا»، وبتشميع منازله، وأخذ ومصادرة دفاتره وإحضارها. وكان كلّ مِن قاضي عسكر الأناضولي السّابق «بهاء الدين زاده أفندي، و«يحيى جلبي» أمين «غلطه» السّابق و«جانم آغا زاده محمود جلبي» المعزول من وظيفة رئيس المقاطعة في صدد التّحقيق في دعوى أنّ أكثر الأموال التي جمعها الـ «دفتردار أفندي» المُشار إليه؛ جلبها من الناس بادّعاءاته، فصدر فرمان بالتحرّي عن أماكن كلّ منها ومصادرها للخزينة الأميرية». وضبط خمسة وعشرين حملًا من الأقجة متفرقة كأمانات في بعض المجالس، وقال عقلاءُ العصر: «أليس خيانة أنْ يجمع القائمون على بيت المال الذي يدعو إلى الصّدق والاستقامة، هذا القدر من الأموال في وقت قليل؟».

(تعيينُ حضرة «أويس باشا» دفتردارًا مرّة ثانية)

صدرَ فرمانٌ بالإحسان على أمير أمراء الشّام وحلب، حضرة «أويس باشا» الدفتردار السّابق، بوظيفة دفتردار أموال السّلطنة مرّة ثانية بلقب أمير أمراء، ولمّا لزم أن يقرأ القضايا المالية، صدر الأمرُ بأنْ يضع نائب فرقة الموسيقى كرسيًّا في حضور الوزراء العِظام ليجلس عليه المذكور. في ١٠ ربيع الآخر سنة ٩٩٤هـ/ مارس ١٥٨٦م].

ولمّا صدر فرمانٌ نصّه: «لو صدرتْ براءةٌ بإمارة أمراء الشام بأيّ مقدار، ينبغي تجهيز ذلك القدْر من الأموال لخواصّ وظيفة الدفتردارية؛ صدرت براءةٌ بأن تكون خواص الوظيفة المذكورة قدرُها مائة ألف آقجة عشر مرّات، وأُكملت خواص وظيفة الدفتردارية بمائةٍ وسبعين ألف آقجة من الوظائف المحْلولة. في التّاريخ المذكور. وعُزل دفتردارُ حلب «خيالي زاده عمر أفندي»، وعُيّن «رمضان أفندي» شقيق «أويس باشا» دفتردارًا.

(عبورُ القائد الأكرم «فرهاد باشا» إلى «إسكدار»)

في شهر ربيع الآخر الذي تشرّف بشمس ربيع شاه خوارزم، تقدّم أركان الدّولة وأعيان السّلطنة بالعزّ والإقبال حضرة القائد الموقر «فرهاد باشا» من عتبة الدّولة، وذلك طبقًا لقانون السّلطنة القديم، ورُفعت أعلامُ الإسلام، والرّايات التي آياتها الفتح، ودخل بالعزّ والإقبال إلى السّفينة الـ «باشدارده» الخاصّة بالـ «قبودان باشا» الراسية في الميناء، وعبر إلى «إسكدار»، وأقام فريقٌ من الجند لا عددَ لهم في الخيام، واستراحوا بضع أيام في «إسكدار» لإكمال لوازم الحرب، وصدرَ فرمانٌ بأنْ تؤخَذ نفقات المتخلّفين عن الحملة «بلا عذر شرعي» كبدل. في ١٨ ربيع الآخر سنة ٩٩٤هـ/ مارس ١٥٨٦م بموجب فتوى «جوى زاده» شيخ الإسلام.

(عزلُ مسيح باشا)

في يوم الاثنين الخامس والعشرين من ربيع الآخرة من السنة المذكورة، وقبل صلاة العصر أُخذ فجأةً خاتمُ العزّة من حضرة الوزير الأعظم «مسيح باشا»، وعُزل.

(تعيينُ «سياوش باشا» وزيرًا أعظم)

في اليوم التّالي، الموافق يوم الثلاثاء، «وقبل صلاة العصر»، عندما أحضر كتخدا البوّابين «محمد آغا» الخاتم الشّريف إلى الدّيوان العالي، وسلّمه لحضرة «سياوش باشا» بموجب الفرمان السّلطاني، دعا جميع الوزراء العظام وأركان الدّولة وأعيان السلطنة له، وأثْنوا عليه مهنّئينه. وقالوا: «قدْ وصل الحقّ إلى أهله»، ومدحوه، في التاريخ المذكور.

(مجيء السّفراء إلى الديوان)

في الشّهر المذكور، جاء سفراءُ كلّ من شاه العجم «محمد خدابنده» وملك فرنسا، إلى الدّيوان العالي، وأقيمت الضيافةُ لهم، ورأوا أنّ الكلام الذي قاله الصّدرُ الأعظم في صدْر الوزارة غاية في البلاغة، ووجدوا حلّ وعقد مقاليد السلطنة، وزمام الدّولة؛ في أيدي حسان الوجوه.

(صهريّةُ الوزير المكرّم حضرة «إبراهيم باشا» للسّلطان حامي العالم، والإحسانُ على حضرةِ القبطان «قليج علي پاشا» بخدمة «صاغدج[1]» وإرسالُ «إبراهيم باشا» خاتم الخطوبة إلى السّراي العتيق، وعقدُ الزّواج)

في غرّة جمادى الآخرة من السنة المذكورة ٩٩٤هـ/ مارس ١٥٨٦م، لمّا كان الوزير الأكرم «إبراهيم باشا» قد نشأ في ظلّ تربيةِ حضرة السّلطان حامي العالم، وخادم مقبول وكاتم للسّر واجب الرعاية، سعد بعزّةِ مصاهرة السّلطان، وصدر فرمان بالإحسان على أسدِ ميدان القتال وتمساح بحر الوغى أميرِ الأمراء حضرة القبطان «قليج علي باشا» بخدمة «صاغدج». وبسبب لياقتِه لصهريّة السلطان أنفق أموالًا لا عددَ لها،

(١) صاغدج: الدليل أو المرافق الذي يسير بجانب العريس أو العروس ساعة الفرح «إشبين».

وبذل همّة عاليةً لإرسال خاتم السّعادة إلى السراي العتيق من أجل صاحب العصمة السلطان عالي الشأن، وأظهر اليدَ العليا في إنفاق ممتلكاته في سبيل سيّده، وبهذه المناسبة جُهّزت من قِبَل الوزراء العِظام أيضًا «على التّرتيب» التيجان المرصعة بالجواهر الثّمينة، والقرط، والأساور المزيّنة بالماس والياقوت واللعل والزمرّد، وأرسلوها، وقُدرت الأنقبةُ والنّاموسياتُ التي جهّزها الـ «قبودان باشا» بخمسين ألفًا من العملة الذهبية، وأُنفقت النقودُ اللازمة لشراء سائر الأثواب وآلات السّكر والمهمّات اللازمة، وعندما قُدّمت بناءً على العظمة الكاملة ووقار السّلطنة الزائد، ووصلت إلى السراى العتيق؛ نالَ حضرةُ أمير أمراء الروم ايلي «محمد باشا» والـ «قبودان باشا» الشرف بخلعتين فاخرتيْن، وأُحسِنَ على كلّ مِن أمين التّرسانة العامرة «مصطفى جاوش» الذي اختاره الجميعُ واعتمدوا عليه، وعلى كتخدا الترسانة ورئيسها وآغوات الـ «قبودان باشا» جميعهم بالخِلَع الفاخرة. وفي ذلك اليوم، أُحسِنَ على سائر الخدم المحترمين بألف خلعة كاملة بخلاف ما يصلحُ من القماش لصُنْع سراويلهم. وفي اليوم الذي تمّ فيه إعدادُ جهاز العرس، كان قد تمّ عقدُ الزّواج. وكانت الأقمشة المتنوّعة والخلع التي قُدمت من جانب الصّهر للعروس قد سُجّلت بالدفتر، وبلغت ثلاثة آلاف قطعة كاملة. وبناءً على الإذن السّلطاني عقد معلّمُ الدنيا «سعدي أفندي» الزّواج بمهر قدره ثلاثمائة ألف قطعة ذهبية، وروى مولانا المشارُ إليه، وحكى بأنّه: «حتى ذلك اليوم لم يبلغ مهرُ السلاطين السابقين أكثر من مائة ألف ذهبية».

(استضافةُ نقيب الأشراف وسادة العلماء)

عندما شُرع في إقامة ولائم العرس، دُعيَ إليها أوّلًا نقيب الأشراف حضرة مولانا «مير مخدوم» الذي هو قاضي «استانبول»، وسائر سادة العلماء.

(استضافةُ شيخ الإسلام وسائر العلماء العظام)

في اليوم التّالي، تمّت دعوة وضيافةُ وإكرام «شيخ الإسلام» «جوي زاده افندي» وسائر حضراتِ العلماء العِظام. ولم يخرجْ «شيخ الإسلام أفندي» لتناول مائدة الإنعام مع عامّة العلماء، وجلس في الحجرة الخاصّة بحضرة «داماد باشا»، وتحدّثا بمفردهما، وأمر حضرةُ الباشا بالسّماح بخروج المائدة للعلماء وإسعادهم.

(استضافةُ أركان الدّولة، ومجيء حضرة السلطان من السّراي القديم طبقًا لتقاليد السلطنة)

في يوم الخميس من الشّهر المرقوم، عندما حضر أعيان الدّولة وحضرات الوزراء العِظام في وقت السّحر بالسّعادة إلى سراي (ات ميداني)، وكانوا جمعًا عظيمًا، جاء الصّدرُ الأعظم حضرة «سياوش باشا» طبقًا للقانون القديم، وعندئذٍ ذهب «إبراهيم باشا» إلى السّلم الذي ستطأ عليه قدمُ سياوش باشا عند نزوله من أعلى جواده، وأمسكه من تحتِ إبطه، وساعده في النزول، ولمّا جاء بالإعزاز والإكرام، وجلس على صدر العزّة، وقف المجلسُ العالي يمينَ ويسار أركان الدّولة كُلٌّ في مكانه، ووقف الجاويشية أمامهم، وصفّقوا. وفي الحال عندما شربوا المشروبات، علا هتافُ الجاويشية حتى الآفاق. وبعده، رافقه العازفون والمغنّون من ذوي الصّوت الحسن طبقًا للأصول، فأثاره أرباب العشق والشّوق بالغناء والعزف، وغشيتهم حالة من السعادة.

وبعدَه جاء أربابُ اللعب واللّهو، ومنهم رئيس المطرقجية الذي أراهم الضرب والحرب بأربعين من رفاقِه ضدّ العدوّ المتمرّس في الحرب. وأحضر آغوات الركاب الهمايوني كُلٌّ حسب رتبته، محرمة يد وطشت وإبريق لحضرات الوزراء العظام، وأحضر ذواقة الطّعام، محرمة يد وإبريق للـ «قبودان باشا»، ولأميري الأمراء، ولآغا الإنكشارية.

بعدَ ذلك قُدّمت أنواع الأطعمة اللّذيذة، وعندما أُقيمت الوليمة الفاخرة، شرف الحفظةُ ذوو الأصوات الطيّبة المجلسَ بتلاوة القرآن العظيم، فمدحهم ذوو المنن. وقبل صلاة العصْر قام جميعُ أركان الدولة، ووصلوا بالعظمةِ والوقار إلى السراي العتيق، فخرج حضرةُ السّلطان صاحبُ العصمة بالعظمة والوقار مرتديًا ثيابًا من الحرير ذي اللون الأحمر المطرّز الخاصّ بالسّلاطين العظام، وجاء بكامل العزّ والإقبال والعظمة والإجلال التي لا يمكن تصوّرُها. وطبقًا لآداب السلطنة، تقدّمه أركان

الدّولة وأعيانها، وشاهد نخلتين جميلتيْن كالمنارة، طولُ كلّ منها اثنا عشر ذراعًا مزيّنة بالجواهر، واللّتان أظهر فيهما فنّانو الدنيا المَهَرة عدّة آلاف من أنواع الفنّ والمهارات. وأظهروا فيها النقوش المتلوّنة. وعندما مرّ أمامهم الأبطالُ بالعزّ واللطف يتبخترون، اندهش رعايا الدّولة أثناء مشاهدتهم، وتردّدت الأدعية المباركة على ألسنتهم، ولمّا نُثرت كثيرٌ من الفضّة اللامعة، تلقّفها المتلقّفون في جلابيبهم.

خلاصةُ القول: أجابوا على مَن لا نصيبَ لهم قائلين: «عصا الأرض لَمن أصابوا مالاً».

(ما اعتادَ الوزراءُ العظام القيامَ به منذُ القدم في احتفالات عرس السّلاطين الكرام)

عندما خرجتْ «مهرماه سلطان»- طابَ ثراها- في يوم عُرسها من السراي العتيق إلى زوْجها المرحوم «رستم باشا» في عصر السّلطان «سليمان» سابقًا، نزل الوزير الأعظم المرحوم «سليمان باشا» من أعلى جواده، وتقدّم العربة السلطانية، وحفظ شرف السلطنة وقدر العزّة. كذلك عندما خرجت أختُ المرحوم الذي مثواه الجنّة وليّ عهد السلطنة «محمد»؛ «هما سلطان»- طابَ ثراها- في يوم عرسها من السراي العتيق إلى زوجها المرحوم «فرهاد باشا»، كان المرحومُ «رستم باشا» قد تقدّم العربة السلطانية ماشيًا بعصا في يدِه حتّى وصلوا ناحية السراي العتيق، رعاية لتلك العادات. ورأيناه.

وعندها خرجت السلطاناتُ ذوات الاحترام، أخواتُ ولي العهد السلطان «سليم» من السّراي العتيق في يوم عرسهنّ إلى أزواجهنّ، كلّ من الوزير «محمد باشا»، والقبطان «بياله باشا»، وآغا الإنكشارية، كان الصدرُ الأعظم المرحوم «سموز علي باشا» حاضرًا في هذا العرس، لكن لمّا كان مصابًا بألم قدمِه بسبب السّمنة، الْتَمَس العذر لركوب الجواد، فأذنَ له السلطان. وفي هذه المرّة أيضًا، بموجب القانون القديم، كان الوزير الأعظمُ المُشار إليه حضرة «سياوش باشا» قد خرجَ من باب السراي للخارج، وركب الجواد، وتقدّم موكب العرس ورأيناه.

(عرضُ أمير أمراء مصر «سنان باشا» بوجودِ بعض سفن «إسبانية» اللّعينة في البحر المحيط)

في أواخر شهر رجب من السّنة المذكورة، جاءت العروضُ المفصّلة من أمير أمراء مصر «سنان باشا»، نصُّها كالتّالي: «كان المرحوم «سليمان باشا» فاتح بلاد «اليمن» وقلعة «عدن» قد استولى بالضّرب والحرب على القلعة المتينة الموجودة في الجزيرة الواقعة على بُعد مائة وسبعين ميلًا أمامَ قلعة عدن، وذلك بحسب ما حُرّر في الخرائط تطبيقًا على البحر المحيط، ودمّرها تمامًا.

والآن تقوم «إسبانية» اللّعينة التي استولتْ عليها من أيدي البرتغال منذ بضع سنوات بتجْهيز السّفن بحلول الموسم كلّ عام، وبنقْل العسكر والأسلحة والمهمّات الحربية واحتياجات القلعة، وتعدّ العدّةَ بقصد حماية الجزيرة المذكورة، وتجديد وإصلاح القلعة، وقامتْ بإنشاء التّرسانات، وعسكرت سفنُها أمامَ القلعة، «حفيظ الله» أنّ فكْرها يكون قاصدًا بندر «جدّة» والحرمين الشّريفين. والآن توقّف أهلُ التجارة عن الذهاب لبندر «جدّة»، وكلّما صادفوا سفنَ إسبانية، لم يسلموا من أضرارها. وصارت السّفنُ الإسبانية سببًا لإحداثِ القلق المستمرّ للسّفن المتوجّهة لجانب الحرمين الشريفين، فلم يعدْ طريقها آمنًا، فينبغي تداركُ هذا الأمر».

(حكايةُ العرْضحال الذي رفعه أميرُ أمراء «الجزائر» «حسن باشا» ضدّ القبطان «قليج علي باشا»)

كان أميرُ أمراء الجزائر قد أمرَ برفع عرضحال للجناب السلطاني لغرض في نفسه، جاء فيه: «إنّ «قليج علي باشا» قرصانٌ ومُحتال بلغ درجةً عظيمة في تسخير الغلمان لنفسه، حتّى أنّه ضمّ لخدمته الغلامَ المعروف باسْم «علي» الذي أمرَ أمير أمراء طرابلس «حسن باشا» بجعْله خادمًا مقرّبًا له، وأعطاه سفينةً من نوع «فنارلوكمي»، ولم يبالِ بأيّ شيء قطّ، واستحلّ المعصية؛ فهو ظالمٌ بلا دين». وبسبب هذا كان حضرةُ

السلطان المُحيط بالأمور قد صار متكدّرًا جدًّا، وأراد معرفةَ وقوع ما ذكره «حسن باشا» على حقيقته، ولم يوافقْ على عزله، وأرادَ مُجازاته. فلمّا علم «قيودان باشا» بفكر حضرة السّلطان الفلكي الوقار، أحسن التّدبير في هذا الأمر، وسأل الغلام الخزينجي (خزيندار) الذي في معيّته عن أموال «حسن باشا» المخبّأة ومكانها، فأخبره الغلام عن مكانها وعددِها أيضًا، وقال: «يوجد مائةٌ وثلاثون ألفًا من الأموال المتداولة نقدًا، وعشرة قناطير من الفضّة مخبّأة أسفل مدفأة الحمّام. فادّعى «قليج علي باشا» بأنّها ملكه، ورفع عرضَه للسّلطان قائلًا: «عندما كان «حسن باشا» خادمي، أظهر الخيانة، وقام بتخبئة هذه الأموال، وكان مقصدي من ضمّ الغلام لجانبي معرفة الأموال المخبأة، فلتكنْ مباركةً لسلطاني». عندئذٍ، في الحال، وصل الدّفتردار «إبراهيم أفندي» بالأمر السّلطاني إلى الموْضِع المذكور، وضبط المبلغ المرقوم الموجود أسفل مدفأة الحمام وصادرَه وأرسله، وأوصله لخزينة القصر.

(حضورُ صاحب العظمة حضرة السّلطان مع جميع أركان الدّولة إلى الترسانة الموجودة في الحديقةِ السّلطانية، بناءً على اعْتياد السّلاطين إنشاء الـ «باشدارده» منذُ القدم، وأمره بإنشاء «باشدارده»)

في «أواسط شهر شعبان»، لم ينعقدِ الدّيوانُ بموجب الفرمان الهمايوني لحضرة السلطان حامي العالم، حيث أنّه لمّا فرغت ترسانةُ السّفن الـ «قادرغه»، المشهورة باسم «يشيل قادرغه» التي اعتادَ سلاطين «آل عثمان» - رحمهم الله - على إنشائها منذ القدم، والموجودة في التّرسانة الواقعة بالقرب من قصر المرحوم السلطان «بايزيد خان»، في ساعةٍ مباركة، حضر حضرةُ السّلطان مع الوزراء الكرام وجميع الأركان إلى الموضع المذْكور لوضْع أساس إنشاء «باشدارده» عظيمة، بنيّة الغزو في سبيل الله، وفي ذلك اليوم تجمّع - أيضًا - المشايخُ الكرام وحفّاظُ القرآن الكريم، ووضعوا أساسَ البدء في إنشائها داعينَ وهاتفين بقوْلهم «آمين»، ومن قبْل كان السّلطان «سليمان» قد أظهر الاهتمامَ في هذا الأمر، وبعدَه كان حضرةُ السّلطان سليم «طاب ثراه» قد أمر بإنشاء «باشدارده» فائقة، وحاربَ بها، وحقّق النصر على الأعداء في الحرب،

وعادت الـ «باشدارده» سالمةً مظفّرة. والآن أيضًا قام القبطانُ «قليج علي باشا» بتحديد طول وعرْض الباشدارده بناءً على الأسلوب الذي علمه، وصمّم مهندسو الدنيا اتّجاهاتها ومنحنياتها بناءً على الشّكل الذي عرفوه. وفي الحال تمّ الشّروعُ في إنشائها. ونال كلّ مِن أمين الترسانة «مصطفى جاوش»، ووكيل التّرسانة، وعشرة أشخاص من رؤساء القراصنة الأعيان، ومعماري التّرسانة؛ الشرفَ بالخلعة الفاخرة، وأحضر حضرات الوزراء «على التّرتيب» أنواع الأقمشة المتنوعة، وأنعموا كثيرًا على المعماريّين وآخرين، وافتدوا بالكثير من البقر والغنم، واغتنم كفّار عمّال التجديف (فورسه) من هذه النعم.

(عندما توفّي حضرةُ الشيخ «أحمد صادق طاشكندي» الذي هو مِن أعيان النقشبنديّة، حضر أركانُ الدولة لتشْييع جنازته، ودفنوه بجوار قبر الأنصاري)

خلالَ هذه الأشهر، انتشر الطّاعونُ في استانبول، وبسبب عدم بقاء شخص غير مُصاب به، احترقت أفئدةُ رعايا الدّولة بالآه والحسْرة، وعندما قدّم ساقي الأجل كأس الموت، وطاف من مجلسٍ لمجلس، أسقى كأسَه للشيخ «أحمد صادق طاشكندي»، ولما كان شخصًا عزيزَ الوجود، صدرت «تذكرة» همايونية من السّلطان صاحب العظمة لحضرة الصدر الأعظم «سياوش باشا»، حيث صدر فرمانٌ نصُّه: «عليك بتعظيم وتكريم جنازة العزيز، ودفنِه بالقرب من قبر حضرة «أبي أيوب الأنصاري» عندئذ لم ينعقدِ الدّيوان في ذلك اليوم الموافق يوم الثلاثاء، وأدّى الوزراءُ العظام وأعيان الدّولة والعلماء العِظام والمشايخ الكرام صلاة الجنازة على روح العزيز المومأ إليه، وبعده، قاموا بدفنه بجوار قبر أبي أيوب الأنصاري. في ١٦ شعبان سنة ٩٩٤هـ/ يوليو ١٥٨٦م، ولمّا أشار العزيز المومأ إليه في رؤيا البعض من صالحي الأمّة بأنه: «بالحكمة الإلهية، أصبح الشيخُ المذكور قائدًا للذين توفّوا بسبب الطاعون». تحمّلوا ألمَ الطّاعون، وبدأتِ الصّلاةُ على الموتى تقلّ، وزال مرضُ الطاعون، وبدأ المرضى أيضًا بإذن الله للشّفاء والعافية.

(عزلُ «قاضي زاده ملا أحمد أفندي»، وتعيينُ «بهاء الدين زاده عبد الله أفندي» صدر الأناضولي)

في أوائل رمضان عُزل صدرُ الأناضول «ملا أحمد أفندي»، وعُيِّن «بهاء الدين زاده عبد الله أفندي» مرّة ثانية صدرًا على الأناضول.

خروجُ صدْر الروميلي (روم ايلي صدري) من الدّيوان متألمًا)

في أوائل ذي القعدة من السنة المرقومة؛ بينما كان صدرُ الروميلي (روم ايلي صدري) «ملا عوض أفندي» يجلسُ في صدر الديوان متألمًا، غلبَ عليه التّعب، وعندئذ قام بالذّهابِ لمنزله في حالة عجز وضعف شديد، وقال حكماءُ العصر متّفقين «غير قابلٍ للعلاج؛ لأنّ ضعفَ الشّيخوخة غالبٌ عليه، فعمره مُتجاوز التّسعين»، وعندئذ أحسن على قاضي استانبول «عبد الباقي أفندي» بمنصب قاضي العسكر، وأُنعم على «سنان افندي زاده علي جلبي» الذي كان قاضي «بورسه» سابقًا، بوظيفة قاضي استانبول.

(مجيء رجالِ القائد الأكْرم بالأخبار السّارةِ من تبريز تفيدُ بإنشاء القلاع، وفتح الممالك)

في أواسط ذي القعدة من السّنة المذكورة، جاءت الأخبارُ السّارة بالرسائل الشريفة من حضرةِ القائد الأكرم الباقي في حملةِ الشّرق، حيث حمل چاوش السلام «برهيزجي بالي چاوش» مع رئيس البوّابين «بياله باشا» العرضحالات للآستانة، نصُّها كالتّالي: «تمّ تسليم مائتين وعشر حملًا من الأموال نقدًا إلى أمير أمراء ديار بكر «جعفر باشا» الباقي في مهمّة الحراسة في مدينة «تبريز» التي هي «دار ملك» سلطنة القزلباش؛ أي مملكة آذربيجان، ووضعت بها المؤن كاملة، وأبقى لحراستها العسكر المتطوّعين برغبتهم، من بلوك يتجاوز عددُه اثني عشرَ ألفَ جندي، وحتّى هذا الوقت، تمّ إصلاح وتجديدُ الأماكن التي قدمت من القلعة نتيجة الحرب والحصار، ولمّا وصلت الرسائل بنية الصّلح والصلاح بينهما قبل عشرةِ أيام من دخول السّردار الأكرم لتبريز، وجاءت؛ رحل جيشُ الفزلباش، ونزلَ على بعض المنازل البعيدة، ورحل قائدُ جيشه

«حمزة ميرزا»، و«إمام قوليخان» حاكم «كنجه»، وذهبًا، وصارت قلعة «تبريز» تحت سيطرة جند الإسلام. إنّه أكثر من عام وقعَ فيه القتالُ مع جيش الترلباش الأوباش سبعة وثلاثين مرّة أثناء مُحاصرة القلعة، ودارت فيها المواجهاتُ والمعارك، وعندئذٍ بعونه تعالى، أسروا «شاه رخ ميرزا» الذي هو مِن الذين يعتمدُ عليهم القزلباش، ووكيل سلطنتهم، والذي هو جملة الملك للشاه خدابنده، وفي مقام الوزير الأعظم، وبينما كان رئيسُ الحرس مدبّر الملك، والمقبول القول والعين الرائية واليد القابضة لدولته أثناء حرب القلعة؛ جاء بحسن إرادته مع ابن أخيه صاحب المعرفة «جبار قولي بك»، ودخلا إليها، وألقيا نار الحسرة في أكبادِ طائفة القزلباش، وبواسطة هؤلاء تمّت التدبيرات اللائقة، وغبّرت النصرة الوجه عندَ العتبة السّلطانية، وتيسّرت بصورةٍ سهلة. وأنشأوا القلاع المتينة في الموضع المعروف باسْم «فلان»، وتحصّن داخلها ألفُ شخصٍ من عسكر الإسلام بأسلحتهم ومهمّاتهم، وأعلم منفعتها الكاملة لحراسة المملكةِ، وقريبًا سوف يقوم رئيس الحرس المدْعو «محمد»، وأيضًا «جبار قولي بك»؛ بتغبير الوجه لسدة الدّولة (الآستانة). في التّاريخ المذكور.

ونال «علي پياله»، و«بالي جاوش» الشّرف بالخلعة، وعرضوا بأنّ جميع أفراد خدم الباب، وجميعَ المتواجدين في الخدمة قدْ أخذوا ترقياتهم اثنان آقجة وآقجة واحدة، وبأنّ القائد أمرَ بعدم تأخيرِ هذه الترقيات، وأخبروا بأنّه: «مع أنّ الشّاه و«حمزة ميرزا» كانَا في شجاعةٍ بالغة، كانت طائفةُ خدم الباب تبلي بلاءً حسنًا، ويديرون المعارك معهم، وأنّهم (العسكر) قالوا: وعلى كلّ حال سوف نأخذ ترقياتنا».

(عرضُ أمير أمراء اليمن (يمن بكلربكيسي) «حسن باشا» باستيلائه على أربَعِ سفنٍ (قدرغه) من سفنِ إسبانية اللعينة)

في هذه الأثناء، جاءت العروضُ من حضرةِ «حسن باشا» الباقي بمنصب الوزارة في مهمّة المحافظةِ على ولاية اليمن، نصُّها: «صادفت أربع سفن (قدرغه) مُجهّزة من سفن إسبانية اللعينة، التي أوصلتِ الأسلحة والمهمّات الحربية للوازم القلعة التي

أصلحها وجدّدها عدوّ الدّين، والواقعة في الجزيرة المرقومة، صادفت للسّفن المملوءة بجند الإسلام، وعندما دارتْ رحى الحرب والقتال بينهم، «بعونه تعالى» هبّت رياحُ الفتح والنّصرة على عسكر الإسلام، وتحطّمت الأربع سفن الـ (قدرغه) المملوءة بالكفار على البرّ، ولم ينجُ أحدٌ منهم، واغتنمَ جندُ الإسلام جميعَ أموالهم وأمتعتهم، وأُرسل لمركز الدّولة رجالُ القبطان المعتمدون»، وجاءوا إلى الدّيوان الهمايوني. في أواخر ذي القعدة سنة ٩٩٤هـ/ أكتوبر ١٥٨٦م.

(إحضارُ آغا أبناء السپاهية «حزم آغا « كلّ مِن رئيس الحرس المدْعو «محمد آغا»، و«جبار قولي» إلى الآستانة)

في اليوم المذْكور، أعْلموا مركزَ الدّولة بأنّ رئيس أبناء السپاهية «حرم آغا» قام بإبعاد رئيسِ الحرس «محمد آغا»، و«جبار قولي» عن «تبريز»، وأيضًا بقرب انْتهاء بناء القلعة، وبتوجّه عسكر الإسلام للمشْي، وفي ذلك اليومِ، انعقد ديوانُ الغلبة (غلبه ديوان)، ونال الذين جاءوا الرعاية، ونالوا الشرفَ بالخلَع الفاخرة، وغبّروا الوجهَ لمقام العرش العالي.

(عزلُ أمير أمراء حلب «مقصود باشا»، وتعيينُ «حسن آغا» المعزول من وظيفةِ أمير الإسطبل الصّغير، أمير أمراء حلب)

في أواسط ذي الحجّة من السنة المرقومة، لمّا عُرضت بعض الأوضاع الفاسدة لأمير أمراءِ حلب «مقصود باشا»، وأصبح عزلُه لازمًا، وبقيَ أمير الإسطبل الصغير (كوچك ميراخور) «حسن آغا» الذي عُزل بلا مقابل، بينما كان مكلّفًا بخدمة أمراء أمراء الرّوميلي بعسكرهم الذي كلّفوا بحملة الشرق سابقًا، من «معبر كاليبولي» بموجب الفرمان، والذي أُصدرَ فرمانٌ بالإحسان على رئيس البوستانجية (سربو ستانيان) سفر آغا بالخدمة مكانه، بقيَ «صفر اليد»، وصار موضعَ شفقة، صدر فرمانٌ بتعيينه أمير أمراءِ حلب براتب مائة ألف آقجة تسعَ مرّاتٍ بدلًا من مقصود باشا المعزول.

(ع)

«عندما يُنعم الله، ينعم هكذا»[1]

(قُيِّدَ) في [] ذي الحجة سنة ٩٩٤هـ/ نوفمبر ١٥٨٦م.

(تعيينُ الوزير الأعظم السّابق «سنان باشا» أمير أمراء الشام «شام بكلربكيسي»)

في أواخر الشّهر المذكور الموافق سلخ السنة المباركة، كان الوزير الأعظم السابق حضرة «سنان باشا» قد قوّم نفسَه بكامل التقوى والزّهد لمدّة أربعة أعوام في «معلقره»، وأقام بها. ولمّا أحسن عليه صاحبُ العظمة حضرة السلطان حامي العالم من عواطفه العليّة السّلطانية بإمارة أمراء الشّام، غبّر الوجه لمقام عرش السلطنة، ونال الرضا السّلطاني. وفي الحال، صدر فرمانٌ بألّا يمكث، وأنْ يذهب إليها.

وبموجبِ الإذن الهمايوني، دعا حضرةُ الصدر الأعظم «سياوش باشا» حضرة «سنان باشا» مع جميع الوزراء العِظام لحديقته الموجودة في «إسكدار»، وأقام الضيافة العالية لهم. ولمّا كان «سنان باشا» مقدّمًا عن الجميع عند صدرِ العزّة؛ نال الاهتمامَ في التّعظيم والتكريم «في ذي الحجة سنة ٩٩٤هـ نوفمبر ١٥٨٦م].

(الإحسانُ بمنصبِ الوزارة على «جعفر باشا» الباقي في مهمّة حراسة «تبريز»)

في غرّة محرّم الحرام سنة ٩٩٥هـ ديسمبر ١٥٨٦م لمّا حُرّر حكمٌ همايونيّ، بالإحسان بلقبِ الوزارة، وبإمارة أمراءِ روان (وان بكلر بكيلكي) على أسد الوغا حضرة «جعفر باشا» الباقي في مهمّة حراسة «تبريز» بمنصب أميرِ أمراء ديار بكر (ديار بكر بكلربكيلك)، وصدر فرمانٌ بأنْ يبقى في مهمّةِ الحراسةَ على تبريز، عُين اثنان من الآغوات الذواقة (جاشنكير آغا) من ذوّاقة الباب العالي لإبلاغه بخبر البشارة والإحسان عليه بالوزارة بالسّيف المرصّع، وخلعه الوزارة الفاخرة. ولمّا صدر الأمرُ بأن يأتي أمير أمراء «روان» حضرة «خسرو باشا» إلى «ديار بكر» عُين نفران من الذواقة «جاشنكير على الاشْتراك لإبلاغه بالبشارة.

---

(١) ويريجك بويله ويرير بارخدا.

(مِن عجائب الأمور، قيام غزاةُ الروميلي بربط المدْفع الذي يطلق ستّين وقية من القذائف، والمنصوب داخل خنادق القزلباش، ربطه بالحبال، وجرّه، والاستيلاء عليه)

بينما كان «حمزة ميرزا» ابن الشّاه الضّال «محمد خدابنده» قائدًا لجيش القزلباش أثناء مُحاصرة تبريز، لم يتوانَ عنْ حمل القزلباش بالهجوم على جند الإسلام، ومعلوم للناس أنّه ظهرت الأحوالُ التي لم تُر أو تُسمَع في الدنيا من قبْل، خصوصًا أنّه استُخدم المدفع القاذف لستّين أوقية مِن القذائف داخل خنادق القزلباش، وبينما كانت المدافع تدكّ القلعة خرج أبطالُ الإسلام من القلعة ليلًا، وبينما كان جندُ الحراسة القزلباش نائمين في الخنادق، أسقط أبطالُ الإسلام على غفلةٍ الفلنكات أسفل عجل المدفع دون علم أحد، وربطوا المدفعَ بالحبال، وسحبوه حتّى أبعدوه عن مكانه، وجرّوه، وبينما كانوا ذاهبين، فجأة انقطع الحبلُ الذي يسحبون به المدفع، وعلى الفور ربطوه بحبل أقوى منْه، وبينما ركب أحدُ الأبطال فوقَ المدفع كما يركبُ على الجواد وكانوا يسحبون المدفعَ قائلين: «سرْ بإذن الله»، وذاهبين، استيقظ القزلباش، ولمّا رأوا جند الإسلام يسْحبون المدفعَ المذكور بسرعة؛ أخبروا القائد «حمزة ميرزا»، وعندئذٍ رأى أنّ فرقة من العسكر ربطوا المدفعَ بالحبل، وسحبوه، حتّى وصلوا به أسفلَ سورِ القلعة، فقال: «فُقد المدفع، مُحالٌ تحقيق النصر، إنّ هذه معجزة، ليس لدينا مدفعٌ غيره». وبسبب أنّه قال: «لن يتمّ تحقيقُ النّصر على الغزاة العثمانيّين، والآن أصبح الصلحُ معهم ضروريًّا؛ امتلأت قلوبُ القزلباش بُغضًا له، وبينما كان «حمزة ميرزا» نائمًا في غفلته جاء الخبر بأنّه قُتل بخنجرٍ حادّ. في أواسط محرم سنة ٩٩٥هـ. وفي هذه الأثناء، جاء خبر وفاة حاكم (قرال) «لهستان». وأيضًا توفّي «كوجك حسن بك» الذي كان رئيس الكتاب أثناء صدارة «مسيح باشا» سابقًا، بسبب مرض السّرطان. «رحمة الله عليه»، في التاريخ المرقوم».

(وصولُ حضرةِ السّلطان حامي العالم إلى قبر المرحوم «عوض أفندي»)

في شهر «محرم»، وصل حضرةُ السّلطان حامي العالم إلى القبر الذي دُفن فيه المرحوم «عوض أفندي» في المكان الذي أصبح جامعًا بدلًا من كنيسة، والواقع في ناحية «اكري قبو»، ودعا له وتصدّق عليه.

(وفاةُ الوزير «جعفر باشا»)

لم يبقَ للوزير المكرّم «جعفر باشا» أولادٌ من ذكور وإناث، وعلى أثر وفاتهم بسبب الطّاعون؛ مرضَ حزنًا عليهم، وعلى أثرِ إصابته بمرض التهاب المعدة، لم يكن بأمر الله قابلًا للعلاج، وفي اليوم التّاسع عشر من شهر «صفر» عندما توفي، حضر جميع أركانِ الدّولة لجنازته، ودفنوه بجوار قبر «أبو أيوب الأنصاري».

(مولدُ ابنيْن توأمٍ للوزير المرحوم)

بعدَ ذلك، عندما كانت زوجةُ المرحوم «جعفر باشا»، وأخت المرحوم «محمد باشا» حاملًا؛ أنجبت ولديْن ذكور توأم، وسمّت أحدَهما «محمد»، والآخر «جعفر».

(عزلُ رئيس الدّيوان «حمزة بك»، وتعيينُ «تاج زاده محمد جلبي» رئيسًا للديوان)

مع أنّ رئيسَ الديوان «حمزة بك» كان خادمًا قديمًا في خدمة الديوان السلطاني، وشخصًا من أهل الوقوف، ومُلحقًا بالخدمة في أمور السّلطنة، إلّا أنّه عُزل بسبب أنّه يملكُ مقاطعة «خاصلر» قدرها أربعمائة ألف آقجة، وتمّ إلحاق تيماره بالخواص الهمايوني. وفي أثناءِ فتح «تبريز» لما أعلم خدمة الموجودين بجانبه، بأنّه «انتقل إلى البلوك»؛ صدر فرمانٌ بترقية جميعهم إلى التيمار، وصدر فرمانٌ بتعيين «تاج زاده محمد جلبي» رئيسًا للكتاب مكانه. «في ‖ صفر سنة ٩٩٥هـ/ يناير ١٥٨٧م.

(الإحسانُ بخلعةِ الوزارة الفاخرة على أمير أمراء الروميلي «محمد باشا»)

في يوم الأحد الثاني والعشرين من شهر صفر، طبقًا لعادة أمير أمراء الروميلي «محمد باشا» المألوفة، دخلَ لمكان للعرض على الحضور الهمايوني، فأحسن عليه حضرة السّلطان صاحب العظمة بفراءِ سمور، وخلعة فاخرة، وأنعم عليه بإمارة

أمراء الروميلي (روم ايلي بكلر بكيلك) بمنصب الوزارة، وتمّ التّنبيه عليه بالدخول للعرض مرّة ثانية مستقلًا كالأوّل، ودخل حضرة الوزراء العظام أيضًا إلى الدّاخل للعرض، وعندما خرجوا هنّأوه وصافحوه.

(ع)

***أمير الأمراء سواء صاحب أم وزير[1]* يساوي) تاريخ سنة ٩٩٥هـ/ ١٥٨٧م.**

(عزلُ «جراح محمد باشا» من الوزارة فجأة)

في يوم الأربعاء الثّالث من ربيع الأوّل من السنة المرقومة، وبعد صلاة العصر، فجأة، استدعَى حضرةُ السّلطان صاحب العظمة كتخدا البوّابين، وقال له بناء على صدور الفرمان الهمايوني بعزل الوزير الثّاني «جراح محمد باشا». صل. وأخبره بذلك؛ عندئذ ظلّ رعايا الدّولة حيارى في هذا الأمر، وسأل أحدُ المقرّبين للسّلطان، وممّن لديهم سعيٌ عند السّلطان قائلًا: «بينما نشأ» «جراح محمد باشا» في ظلّ التربية السلطانية منذ القدم، وكان خادمًا كاتمًا للسّر؛ عجبًا! صار حالُه مبعثرًا. وعندما قال: «تُرى! الحكمة أنّه كان خادمًا ذا اعتبار زائد عند السّلطان، أنّ كلّ شخص في مقام الحيرة من هذا الأمر»، قالوا «أجاب السّلطان قائلًا: «هكذا يكون حالُ كفّران النعمة»؛ الحقّ خلال وقت يسير، كان المذكورُ قد نال النعم العظيمة.

(عزلُ «سودي أفندي» من المدرسة)

في أواسطِ الشّهر المذكور، عُزل معلّم «إبراهيم باشا» «سودي أفندي» من مدرسة المرحوم السّلطان «سليمان»، وأُحسن على «خيالي زاده حسن جلبي» مدرّس السلطان سليم بالوظيفةِ مكانه، وتدرّج في سلك الوظائف بين مدرسي الصحن.

---

(١) * مير ميران هم مصاحب هم وزير *

(تعيينُ «أويس باشا» أميرَ الأمراءِ على مصر، وتبديلات الدفترداريّة)

في أواخر الشهر المرقوم، أصبح «أويس باشا» القائم بخدمة رئيس الدفترداريّة، أميرَ أمراء على الدّيار المصرية، وعزل «سنان باشا» المعيّن على مصر. وصار محاسبُ حلب (حلب دفترداري) «رمضان أفندي»، محاسب الأناضول (أناضولي دفترداري). ونال متولّي زادة أمير سنجاق «بدليس» وظيفةَ محاسب مصر، وترقّى «عثمان جلي» لوظيفة دفتردار الشّام، وعُيّن دفتر دار الشّام دفتردارًا في «حلب».

(عزلُ حضرةِ الوزير «علي باشا» من «بودين»)

في أواخر الشّهر المرقوم عُزل أميرُ أمراء «بودين» «علي باشا»، وصدر فرمانٌ بأنْ يصبح أمير أمراء طمشوار «يوسف باشا»، أمير أمراء «بودين»، وأُحسن على «حسن آغا» المترقّي من وظيفة رئيس البوّابين بمنصب أمير أمراء «طمشوار».

(وفاةُ «أوقجي زاده محمد پاشا»)

تزيّن «أوقجي زاده محمد باشا» المعزول من إمارة أمراء حلب (حلب بكلربكيلك)، بالعلم والمعرفة، ولمّا لم يستطعْ تحمّل معاناة الدنيا المتقلبة، في أواخر الشهر المرقوم، ودعها، كذلك توفّي فجأة المتفرّقة «كوچك حسن أفندي» الذي كان رئيس الدفترداريّة سابقًا. في التاريخ المذكور سنة ٩٩٥هـ/ ١٥٨٧م.

(وفاةُ «علي باشا» قبل وصوله خبرُ عزْله)

قبلَ وصول «علي باشا» خبر عزله، اختارَ سفر الآخرة بسبب مرضه الذي آلَمَه أثناء معركةِ الكفّار الملاعين، وجاء خبرُ عزْله الذي لم يسمعه. في أوائل ربيع الآخر سنة ٩٩٥هـ/ مارس ١٥٨٧م].

(عزلُ قاضي مصر المحروسة «عبد الغني أفندي»، وتعيينُ «بهاء الدين زاده قاضي مصر، و«بوستان زاده أفندي» صدر الروم)

في أواخر شهر ربيع الآخر، عُزل قاضي مصر المحروسة «عبد الغني أفندي» الذي كان صدرَ الأناضول سابقًا، ولم يبعدْ «بهاء الدين زاده عبد الله أفندي» المعزول من صدارةِ الرّوميلي عن «أويس باشا»، وإنّما عُيّن قاضيًا على مصر، وتوجّه إليها،

ولمّا أُصدر فرمانٌ بالإحسان على «بوستان زاده أفندي» مرّةً ثانية بوظيفة صدر الروميلي، سُرّ عامّةُ الرّعايا. الحقّ أنّ لمعان أنواع العلوم واضحة في جبينِه كالضّوء وسط النّهار. سنة ٩٩٥هـ/ ١٥٨٧م.

(إعلانُ حضرةِ القائد أحوالَ الحدود المنصورة)

في أواخر شهر ربيع الآخر، جاءت الرسائلُ من قبَلِ القائد الأكرم؛ حيث عرض وأعلم فيها الآتي: «بناءً على موت «حمزة ميرزا» النّاهب، المجرم، المخرّب، ابن شاه العجم «محمد خدانبده»؛ صارَ حالُ أبيه مضطربًا جدًّا، وهجرَ الدّنيا وما فيها من عينِه وقلبه، وصارَ سائمًا من حُكم السّلطنة، وصاحَ قائلًا: «فليأتِ أمراءُ العثمانيّين، وليأخذوا مَمْلكتي من طائفةِ القزلباش هذه»».

(هذه أيضًا أحوالُ الحدود المنصورة.. عرضُ القائد اتّفاق القزلباش)

في غرّة جُمادى الأولى من السّنة المذكورة، أعلم القائد بأنّ «حمزة ميرزا» مات في سبيل الشّاه خذابنده، وما قالوه إنّه على قيْد الحياة غير صحيح. ومن المقرّر توجّه ابنه «عباس ميرزا» مع وكيلِه «مرشد قوليخان» من خراسان إلى العراق. وأخبر أيضًا بأنّ هناك اتّفاقًا واتّحادًا صارمًا لجماعة القزلباش الملاعين مرّة ثانية في هذا الأمر.

(هذه أيضًا أمورُ الحدود المنصورة)

جاءَ رئيسُ بوّابي حضرة «جعفر باشا» الباقي في مهمّة حراسة «تيمور قبو» و«شماخي» ومعه نحو خمسة عشر شخصًا من رجاله مِن رؤساء بلوكات طائفة الخدم الباقين في مهمّة الحراسة أيضًا، ومرّوا من مملكة «لوند»، وارتدوا الجلود، والقلنسوات على رؤوسهم مثلَ التتار، وبسبب أنّهم أظهروا التضجّر قائلين: «لم تصلْ رواتبنا منذ أربعة أعوام. وأصبحنا مبتلّين بالإفلاس الشّديد، ولا يكفي عائدُ محصول هذه الديار للمصاريف، وحالنا يتدنّى كلّ يوم». صدر فرمانٌ بأن تُجهّز جميعُ احتياجاتهم بناءً على مرادهم، وإن تُعدّ رواتبهم وثيابهم من الأماكن الميسرة، وألّا تتأخّر، وأن تُرسل إليهم. في أوائل جمادى الأولى سنة ٩٩٥هـ/ أبريل ١٥٨٧م.

(عزلُ قاضي استانبول فجأة)

في أوائل جُمادى الأولى، هجم قاضي استانبول مولانا «علي أفندي» مع بعض الحرس (يسافجيلر) والمحضرين (محضرلر) على منزل أو منزلين يهود بدعوى أنّ طائفة اليهود يُلحقون بخدمتهم الجاريات المَحْبوبات على خلاف الشّرع، وبينما كانوا يُخرجون الجاريات بسعيٍ واهْتمام؛ قام الأشخاصُ بإحداث الفتنة والفساد، وبحجّةٍ واهية كادوا يتسبّبوا في إثارةِ الفتنة في المدينة. وفي الحال أُمر قاضي استانبول بالمجيء إلى باب حضرةِ الوزير الأعظم، وأمر حضرة السّلطان قائلًا: «ليُعزل، وليُعيّن مكانه مثلًا «محيي الدّين» قاضيًا على استانبول». وعندما فُرق الناس، خمدت الفتنة.

(قيامُ «إبراهيم الدين أفندي» المعزول من وظيفة الدّفترداريّة بتخصيص قلمٍ له، وجعل منه وظيفة دفتردارية)

في أواسطِ الشّهر المرقوم، فصل «برهان الدين أفندي» الذي كان رئيس الدفتردارية سابقًا، أقلام «كونه»، وأمرَ بتخصيص سليانه قدْرُها مائة وعشرون ألف آقجة لنظارة تُعرَف باسم الدفتردارية الرابعة، وتولّى هو أقلّها، وأصبح دفتردار «طونه».

(وفاةُ المفتي «جوى زاده أفندي»، وتعيينُ «شيخي أفندي» مفتيًا)

في سلخ جمادى الأولى من السّنة المرقومة، لم يتيسّر شفاء شيخ الإسلام «جوى زاده أفندي» من مرض الحمّى الوبائية، وتوفّي، وعندئذ كُلّف حضرة «شيخي أفندي» بوظيفة صدْرِ الفتوى، وقالوا: «لمّا لحقت به إشاراتُ المرحوم العليّة في أثناء حياته، أُحسن بالوظيفة عليه».

(مَجيء «زكريا أفندي» من الكعبةِ المكرّمة، وتقبيلُه يد السلطان)

وفي هذه الأثناء، عندما جاء «زكريا أفندي» الذي كان صدرَ الأناضولي سابقا، والذي تيسّر له زيارة الرّوضة المطهّرة لفخر الأنام عليه الصّلاة والسلام، من الحجّ الشريف، طبقًا للقانونِ القديم أُحسن عليه بالخِلْعة الفاخرة، وغبّر الوجه لمقام عرش السلطنة، ونالَ التكريم. في غرّة جمادى الآخرة سنة ٩٩٥هـ/ مايو ١٥٨٧م.

(دفعُ مال كفالة مقاطعة منتشا من كرم «إبراهيم باشا»)

لمّا انتهت فترةُ التزام الشّخصِ الملتزم بأمانة مقاطعة «منتشا»، وظهرَ في مقاطعته نقصان، وطلب مال الكفالةِ من كُفلائه، تظلّم شرذمة قومٍ من هذه الكفالة قائلين: «ليس لديْنا علمٌ عن هذه الكفالة، وقُيِّدت دونَ علمنا»؛ عندئذٍ فاضَ بحر مرحمة حضرة الوزير المكرّم «إبراهيم باشا»، وأعطاهم خاتمَ الماس من أصْبعه، وخلص أولئك المسلمين ممّا طُلبَ منهم بتحويله إلى مائة ألفِ آقجة من الدين الميري، وصار باعثًا على ذكر الجميل له. في التاريخ المرقوم.

(إرسالُ حضرةِ الوزير «حسن باشا» خمسة أشخاص من «آل مطهّر» حاكم ولاية اليمن لمركز الدولة)

كان حضرةُ الوزير المكرّم «حسن باشا» الموجود في مهمّة حراسة مملكة «اليمن وعدن» قدْ أعلم لمركز الدّولة من قبْل بأنّه: «تمّت محاصرةُ قائد طائفة الزيدية المستوّلين على تلكَ الدّيار مع رجاله المُعْتمدين المَشهورين باسْم «أولاد مطهر»، في الحصْن الحصين، الواقع في التّلال والجبال شهورًا وسنينَ كثيرة، وبعد القتال والمحاربة، أُسرَ كلّ واحدٍ منهم بلطائف الحِيَل، وفُتح واسْتولى على قلاعهم وبلادهم، وفي هذه المرّة، أُسر ببشارة اللّطف والكرم خمسة أشخاص من إخوته. والآن، أُلحقوا «بخضر بك» وبخمسين شخصًا من أبطالِ اليمن حاملي البَنادق، وعندما أحضروهم لمجلس الوزراء العظام في البلاطِ العالي، جعلوهم يقرّون جميعًا كلّ على حدة، وعُرضت أحوالهم على الحضور الهَمايوني، وأُلحقَ بكلّ واحدٍ منهم أربعة أشخاص جاويشية، وتمّ حبسُهم في القلاع السّبع (يدي قله).

(مجيء قبطان ورئيس سفنِ إسبانية اللعينة التي أُسرَت في البحر المحيط، إلى مركزِ الدّولة، وتسليمها للـ «قپودانَ باشا»)

لمّا أُرسل لمركز الدّولة قباطنةُ ورؤساء ونجباءُ سفن أسبانية اللعينة التي أُسرت بأسْلحتها ومهمّاتها أثناءَ معركة عدن سابقًا، والتي (السفن) كانت تأتي صوب القلعة التي استولت عليها إسبانيا من أيدي البرتغال، وأصلحتها، أُرسلوا مع «أولاد مطهر»

إلى الآستانة، ولمّا أصبحت أخبارُها معلومةً لدى السّلطان، عندئذ تمّ تسليمُها إلى القبطان «قليج علي باشا» في أوائل رجب سنة ٩٩٥هـ/ يونيه ١٥٨٧م.

(عرضُ حضرةِ القائد الأكرم بأنّ جانبَ القزلباش طالبين الصلح)

في أواسط رجب، لمّا جاءت العروضُ من القائد الأكرم، حيث عرض وأعلم فيها بأنّه جاءت الخطابات من الشّاه الضّال السّلطان «محمد خدانبده»، أعلم في مفهومها بأنّه طلب الإذنَ الهمايوني قائلًا: «ينبغي أنْ نرسل «حيدر ميرزا» ابن «حمزة ميرزا» المقتول، إلى مركز الدّولة كرهينة، فإنّكم قهرتم القزلباش بالسّيف حتّى هذا الوقت، ولم نحملْ بالهجوم على مملكتنا التي استوليْتُم عليها، وليخلّص الطّرفين من المنازعة، وليكنِ الصّلحُ سببًا لراحةِ الناس. فليصلْ سفيرنا المعروف إليكم»؛ أُرسلت الأحكامُ الشريفة الصّارمة للحضرة السّلطانية، نصُّها: «يريدون القزلباش إعاقة عسكر الإسلام عن الحرب، ومرادُهم أنْ يجدوا الخلاص من سيف الإسلام. وليس هناك نهاية لأكاذيبهم، وعليك ألّا تتوقّف عنْ حربهم وقتالهم». في التاريخ المذكور.

(تعيينُ «جراح محمد باشا» وزير قبه)

في أواسط شهر رجب سنة ٩٩٥هـ/ ١٥٨٧م، وفي يوم الجمعة، أرسل حضرةُ السلطان حامي العالم «تذكرةً» همايونيّة، حيث أمر بأنْ ينال «جراح محمد باشا» المعزول من قبْل؛ الشّرف بمنصبِ الوزارة مرّةً ثانية، وأنْ يأتي لمقام الوزارة بموجب نظر رأفته وعواطفه العلية. أمّا حضرةُ «إبراهيم باشا» فقد صدرَ فرمانٌ بأن يُقدّم عليه في المجلس، وأنْ يجلس «جراح محمد باشا» متأخّرًا عنه. ولم تكنْ مدّة عزل «محمد باشا» قد تمّت شهرًا.

وفي تاريخ سنة سبعةٍ وسبعين وتسعمائة من قبْل، بينما عُزل «أحمد باشا» أيضًا من الوزارةِ في عصر السّلطان سليم خان نحو خمسة عشر يومًا، وخُصّص له تقاعد ثلاثمائة ألف آقجة؛ تشفّعت له حضرةُ «مهرماه سلطان» عند السلطان، وعندئذٍ صدر فرمانٌ بالإحسان عليه بالوزارة مرّةً ثانية، وصدر فرمانٌ أيضًا بأن يتقدّم المرحوم «بياله باشا» عليه في المجْلس، وكذلك صدرَ فرمانٌ بأن يجلس «أحمد باشا» مؤخّرًا عنه.

(وفاةُ القبطان «قليج علي باشا»)

في أواسط رجب من السّنة المرقومة، أدّى القبطان «قليج علي باشا» صلاة الجمعة في جامعِ «طوبخانة»، وكان حريصًا على الإحسان بالتصدّقات لدرجةٍ عظيمة، وبقدر ما أحضرَ مِن مقدار الآقجة، أنفق جميعها على الفقراء والمَساكين حتّى أنه استقرض من الموجودين بجانبه، وذهبَ لسرايه وهو يتصدّق، لكن أصيب بمرض خطير منذ أكثر مِن عشرينَ يومًا، ولمّا شخّص المرضَ طبيبٌ حاذق؛ تحسّن وشُفّي كثيرًا بالعلاج المُفيد. ولكن بسببِ أنّ عمره قاربَ على التّسعين، كان الحرصُ وطولُ الأمل قد أصبح مؤنسَه الطّبيعي، ولم يتجنّب محادثة الجواري الحِسان، وكان مرتبطًا معهنّ بالأنس والألفة. أمّا الطبيب، فحذّره ونهاهُ عن ذلك، وبينما أوصاه قائلًا: «احذرْ؛ من الواجبِ الامتناعُ عن صحبةِ النّساء. فعمر التدلّل ليس بمقدرتك»، فلم يمتنعْ، وفي تلك اللّيلة جاء الخبرُ إلى الديوان بأنّ روحه صعدت من بدنِه إلى عالمِ العقبى، وذلك أثناءَ جماعه مع جاريةٍ بكر مداعبًا إيّاها. في ١٩ رجب سنة ٩٩٥هـ/ يونيه ١٥٨٧م.

(مصادرةُ أملاكِ المرحوم الـ «قبودان باشا»)

بناءً على عدم وجودِ وارثٍ غير حضرة السّلطان حامي العالم، صدر فرمانٌ بأن يأخذ المحاسب «إبراهيم أفندي» وأمير أمراء الأناضولي حضرة الوزير «محمد باشا»، ويتسلموا إرث «الموماً إليه».

وفي ذلك اليوم، وُجدتْ من بين الإرث خمسة آلاف من العملةِ الذّهبية، وبعده، تمّ بيعُ جميع أمتعةِ المرحوم، وبلغت قيمتُها خمسمائة ألف ذهبيّة، وسلمها «إبراهيم أفندي» لخزينةِ القصر، ونال الشّرفَ بالخلعة الفاخرة، وتمّ بيعُ جميع أحماله ومتاعه القديم، وصُرفت الأموالُ الأقجة حاصل البيع للمهمّات الميرية، وصارت إيرادًا.

(تعيينُ حضرةِ «إبراهيم باشا» قبطانًا بمنصب الوزارة)

في أواخرِ شهر رجب، بناءً على مصادرة خواصّ وظيفة القبطان للخواص الهمايوني؛ صدرَ فرمانٌ بالإحسان على «إبراهيم باشا» بمنصب القبطان بخواص الوزارة الثانية.

(إنشاءُ حضرة السّردار القلاع في «كورجستان»)

في سنة ٩٩٥هـ/ ١٥٨٧م بناءً على عدم الإمكان للاتّحاد والاتفاق بأيّ صورة مع «سيمون» اللّعين في ولاية كورجستان، نهاية الأمر، أُنشئت قلعةٌ مستحكمة في «كوري» التي هي مقرُّ عرشِ دولة «سيمون»، وتجمّع أمراءُ الأمراء أيضًا في «آخسته»، وجعلوها قلعةً حصينة، وبالضّروري لمّا بقي اللعينُ المذكور «سيمون» بلا مكان، فرّ كالمجنون إلى قمم الجبال، وفي الشتاء بدأ الصّياح والاسْتغاثة. ووُضع الخدم والأمتعة والمؤن في القلاعِ التي أنشئت، ونُصب عليها أمراء الأمراء.

حاصلُ الكلام: أصبحت قلاعُ «توماس، لوري، وكوري، وآخسته» سدًّا جديدًا لكورجستان، ومن أجل حمايةِ قلعة «تفليس»، واجهوا هذا القدر من المشقة والشدائد، وصُرفتْ أموالُ الخزائن، وأُعدّت التّحصينات. في أواخر رجب سنة ٩٩٥هـ/ يونيه ١٥٨٧م.

(عرضُ حضرةِ القائد صاحبِ الوقار بأنّ شاه العجم «خدابنده» طالبٌ للصّلح)

في غرّة شهر شعبان، جاءت العروضُ مرّةً ثانية من قبَل القائد الأكرم، وعندما عُرضت صورةُ رسالته بعدَ التّلخيص على مقام العرش العالي، نصُّها: «لا ينقطع الشّاه الضّال عن توسّله برسائل الرّجاءِ المفصّلة والمشروحة من أجل طلب الصلح والصّلاح بشكل مستمرّ، وتأتي عرضحالاته، نصُّها: لماذا لا تصلحون بيننا في عتبة السّلطان؟ أيوجد في تقاليدِ أيّ دينٍ وأيّ سلطنةٍ أنّ طالبَ الصّلح يُرَد؟ ولا يقبل؟ فهذه ليست علامة طيّبة. ألا يوجدُ امتحانٌ إلهي؟ فيما بعد ستكون فرماناتُ العبد (شاه خدابنده) من الروح والقلب صادقة، ولو جاء أميرُ أمراء «سيواس» حضرة «محمد باشا» إلى «تبريز»؛ ينبغي أنْ نسلم له ابن ابننا «حيدر ميرزا». وليقف في السدّة التي مقامُها السّدرة، وأخبر القائد بالقلاع التي استولى عليها المسلمون بسيوفهم تحتَ إدارتهم هُم. وبأيّ صورة يصدر بها الفرمان، علينا أنْ نقول «سمعًا وطاعة»؛ عندئذٍ أظهر حضرة السلطان صاحب الوقار الجوازَ للصّلح قائلًا: «مع أنّه ليس هناك نهاية

لأكاذيبهم وضلالهم، لكن طوال هذه المدّة هُم أذلّاء تحتَ قدم جياد رعايا المملكة وجند السلطنة، وعندما يأتي رهينُهم فليكنْ سببًا للهُدنة وقتًا ما عن الحرب والقتال». في السنة المرقومة.

(مَجيء سفيرِ خان الـ «أوزبك» «عبد الله خان» بالرسالة إلى الديوان)

في أوائل رمضان الشّريف، جاء سفيرُ خان الأوزبكية «عبد الله خان» الذي هو مِن تتار «بخارى وسمرقند» إلى ديوانٍ يُعرَف باسم «غلبه ديواني»، بالرّسالة والتحف والهدايا، وبناءً على القانون القديم أُحسن عليه بالخلعةِ الفاخرة. في سنة ٩٩٥هـ/ ١٥٨٧م.

(إرسالُ شريف مكّة المكرمة أنواعَ التّحف، وعرضه تجديد الكسوة الشريفة)

في أوائل رمضان الشّريف، جاءت عروضُ شريف مكّة المكرمة حضرة «أبو النمي» بأنواع التّحف والهدايا التي لا حصرَ لها إلى مركز الدّولة، وأيضًا جاءت رسائلُه لأركان الدّولَة، نصُّها: «يلزم تجديدُ كسوة البيت المكرّمة الداخلية والخارجية»، ولمّا قدّم في الدّيوان العالي ألفَ قطعةٍ من أقمشة «الهند والسند» اللّائقة بنظر الملوك، وعدد ألف قطعةٍ من أقمشة «أطلس»، «وكمخا»، والأقمشة القطنية، وقماش «بوغاس»، المتلون، وسائر الأقمشة المنقشة والملوّنة، وعدد ألفٍ من أنْفَس أنواع العمامات، كلّ واحدة ذات طولٍ يبلغ خمسين ذراعًا، وثلاثة أحمال من «ماء ورد» و«قمار» شجرة الـ «عود» التي يزن كلّ حملٍ منها عشرة قناطير. وأيضًا خمس وستّون قطعة من الأواني الصينية المملوءة بالأشْربة السكرية والجيّدة المصنوعة من فواكه ومربات «الهند والسند» والتي كان يحمل كلّ واحدةٍ منها رجلٌ قويّ، وأربع قطع من الأواني الصينية المملوءة بالمربّات السكرية التي كان يحمل كلَّ واحدةٍ منها ستّةُ رجالٍ؛ مدحه رعايا الدّولة وأثنوا عليه. في سنة ٩٩٥هـ/ ١٥٨٧م.

(هجومُ الكفّار فجأة على جيادِ جندِ الحدود، بينما كانت في المرعى، وتعقّبُ أمير أمراء بودين[1] «يوسف باشا» إيّاهم، وإمساكُه بالكفّار، وإحضارُ رؤوسهم إلى الديوان)

في أواخر رمضان الشّريف، جاءت العروضُ والرسائل من أمير أمراء بودين حضرة «يوسف باشا» إلى مركز الدّولة حيث أعلم، وعرض فيها أنّه: «عندما سُمع بأنّ جياد العسكر المنصورة الموجودين على ساحل «بشته» الواقعة على الحدود المنصورة، خرجتْ للمرعى، وجاء «على الغفلة» أعداءُ الدّين مع ثلاثة آلاف من السواري، وألفين من المُشاة حاملي البنادق، وساقوا الجيادَ في المراعي، وذهبوا «في الحال»، ركب أميرُ الأمراء بنفسه مع الجندِ الموجودين الجياد، وتعقّب الكفار الأذلاء، وعندئذ «بعونه تعالى» ترك الكفّار الأذلاء الجيادَ التي ساقوها، وفرّ جنودُهم، وجعل المسلمون خمسمائة أو ستمائة كافر من مُشاتهم الذين بقوا في ميدان القتال؛ طُعمةً لسيوفهم.

ثمّ جاء للديوان العالي الكفّار الأذلاء التيموريّون مع تسعة عشر من أعلام فرقهم، وطبلهم ونفيرهم. واستشهد مِن أهل الإسلام ثمانيةُ عشر شخصًا فقط، وأعلم بأنهم عادوا منْصورين ومظفّرين، وعندما قلنا لجانب الـ «قرال» ما السّبب لهذا الفعل بهذه الصّورة أثناءَ هذا الصلح؟ أجاب قائلًا: «ليس لدينا علمٌ عنه، ولم يصدر منّا فعلٌ متعلّق بنقْض العهد قطّ. فالذي حدث أنّه قامت فرقةٌ من أولاد الحرام، قطّاع الطريق؛ بهذا الفساد ونالوا جزاءهم». في التاريخ المذكور.

(إثارةُ أمراء جيشِ الحدود، وتحايلُ عدوّ الدّين عليهم، ووقوعُهم في حيلتِه، وإلحاق الهزيمةِ بهم)

في شهر شوّال المبارك، جاء الخبرُ بأنّه: «لم يتوقّف جندُ الحدود المنصورة عن القتال، ولم يبقَ أمراءُ الحدود على حالهم قائلين: «حانتِ الفرصةُ على هذا النحو بيننا وبيْن الكفار»، وبحبّ الغنيمة طمع أربعةٌ من أمراء السناجق مع جند الحدود طمعًا شديدًا، وأتبعهم رجالٌ كثيرون أيضًا، ونهبوا ولاية الكفّار، وبينما كانوا قادمين غانمين؛

(١) بودين: عاصمة المجر آنذاك.

نصبَ أعداءُ الدّين هم كمينًا على رأس الجسر، وقطعوا عليهم الطريق، وألحق الكفار بهم الضّررَ جميعًا، واستشهدَ أميرُ أحد السّناجق، وأُسر أميران أيضًا، أحدهما هو ابن المرحوم القبطان، ونجا «شهسوار بك» بتغيير هيئته». في ٣ شوال ٩٩٥هـ/ سبتمبر ١٥٨٧م.

(توجّهُ رئيس البوّابين «قورد آغا» لإحضار الأخبار من الحدود)

لمّا قيل إنّ الذين تجرّأوا على هذا الفعل مع الكفّار الجائرين هم الأشخاص المتواجدون على الحدود، أُلحق برئيس البوّابين (قبوجي باشي) «قورد آغا» عشرين من البوابين لتفتيشهم والتّحقيق معهم، وتوجّه بالخطّ الهمايوني إلى أمير أمراء بودين (بودين بكلربكيسي) مارًّا بالمنازل. في ٤ شوال سنة ٩٩٥هـ/ سبتمبر ١٥٨٧م.

(خروجُ سفن الكفّار التي تجول في البحر، على ساحل الأناضول، وسوْقهم الرجالَ من أهل الإسلام)

في أواسط شهر شوال، جاءت العروضُ من مربّي حضرة ولي العهد، ومن قاضي «أزمير» مولانا «إسحق أفندي» حيث عرضوا وأعلموا قائلين: «جاءت فجأة من وقتِ السّحر تسعُ سفن «قدرغه، وقاليته» التي تدور بالمجاديف (چكدرمه) التابعة لحكام (دوقات) فرنسا ومالطة، الذين هُم من أعداء الدّين يجولون بالسفن على سطح البحر، ويستولون على سفن أهل الإسلام، وسائر سفن الذميّين، ويلحقون بها الخسائر دائمًا، وأنّهم أنشأوا ميناءً في نواحي «أورله»، وأطلق المحاربون قذائفهم، وتحرّكوا في كلّ ناحية، وفجأة ساقوا ثلاثمائة شخص من الذكور والإناث من أهل الإسلام، ونهبوا وأغاروا على ساحل الأناضول في سَنة ٩٩٥هـ/ ١٥٨٧م.

(مَجيء السّفراء مركز الدّولة، وإعلامهم الأخبار بأنّ فتح مملكة «اژدرخان» لازمٌ)

في هذه الأثناء، جاء رجلُ طائفة التّتار، المشهور باسْم «كوچك نوغاي» مع السفير الذي جاء في أواسط شهر شوّال من قِبَل خان الأوزبك «عبد الله خان» إلى الآستانة معًا، وعرضوا الحال قائلين: «عندما هرب ابنُ خان «قريم» المقتول «محمد كراي»، والتجأ لحاكم (قرال) الرّوس؛ ألحق به جندٌ كثيرة، ونصّبه أميرًا على قلعة

ولاية «اژدرخان»، والآن تجهيزاتهم كالتّالي: «توجّهوا بعساكره التي لا حصر لها، ودفعوا بهم وجاءوا نحو القرم، وينْوون الانتقامَ العظيم من أهل الإسلام. على كلّ حال، يلزم في هذا الجانب قائدٌ كفء بعسكر الإسلام، ويلزمُ أنْ يلحق به أيضًا خان القريم (قريم خاني) «إسلام كراي خان» سويًّا، ويلزم الفتح والاستيلاء على قلاع وبقاع مملكة «اژدرخان» مع عسكر التّتار، ورفع حجر الطّريق من الوسط، وألّا يبقى الطّريقُ الذي يمكن أن يمرّ منه عدوّ الدّين والدولة، وأنْ يقام سدٌّ للطّريق. «وإلّا العياذ بالله» لو وجد العدو الطريقَ منتهزًا الفرصة، فإنّ اتّفاقهم على الانتقام أمرٌ مؤكّد». وعرضوا رجاءَ والْتماس الحكّام قائلين: «عليكم إحضارُ الخبر في هذا الشّأن من مركز الدّولة إلينا. في التاريخ المرقوم سنة ٩٩٥هـ/ ١٥٨٧م.

(اجتماعُ الوزراءِ من أجل التّحضيرِ لفتح «اژدرخان»، والاستيلاء عليها)

عندما لُخّصت عروضُ الرجال القادمين بخصوص الموضوع المذكور، وقُرأت على مقام السّلطنة؛ صدر فرمانٌ نصُّه: «عليكم جميعًا أن تجتمعوا، وأن تتداركوا هذا الأمر»، وعندئذٍ دعَا حضرةُ الصّدر الأعظم «سياوش باشا» الوزراءَ العظام، ومولانا معلّم الدنيا حضرة «سعدي أفندي» للضّيافة في حديقته الواقعة في «أسكدار»، وعقد الاجتماع العالي، وعندما تباحثوا وتناقشوا في أثناءِ الكلام قائلين: «عندما وصل الـ «ميرلو» «قاسم باشا» المعيّن على «كفه» بمنصب أميرِ أمراء، مع خان التّتار قاصدين فتح ازدرخان أثناءَ سلطنة السّلطان «سليم خان» الثاني «طاب ثراه»، وأنفقوا الأموالَ الطائلة، وواجهوا المشقّةَ العظيمة من أجلِ فتح «ازدرخان»، لم يكنْ مقدّرًا فتحها والاستيلاء عليها، وعندئذ لم يكنْ قد تيسّر فتحها والاستيلاء عليها، لكنِ الآن، فإنّ تنصيبَ ميرزارات (الذين ينْتسبون لميرزا) خان قريم «إسلام كراي خان» المؤهّلين على عرش قريم مناسبًا، وأنْ يُرسل من قبَل الدّولةِ عسكر الإسلام بالأسطول الهمايوني من أجل حراستها، وأن يُلحق قائدٌ كفء بحضرة الخان، وأنْ يُرسل عندئذ صدر الفرمان العالي بالتنبيه والتجهيز لحملة «اژدرخان». في ‖ شوال سنة ٩٩٥هـ/ سبتمبر ١٥٨٧م.

(توجيهُ وظائف قضاةِ العرش، وتبديلات الـ «علما أفنديلر»، وغيرهم)

في «أواخر شوال»، بناءً على مجيء خبر وفاةِ قاضي الشام الشريف «حسن بك زاده أفندي» بسبب مرض التسمّم، عُيّن المرحوم «بوستان أفندي زاده» الذي كان قاضيًا سابقًا، قاض مرّةً ثانية. وأصبح قاضي حلب «رمزي زاده» قاضي القدس الشريف، وأحْسن علّى «أمير زاده جنابي أفندي» مدرّس السليمانية بوظيفة قاضي «حلب»، وأصبح قاضي القدس الشّريف «ملا عمر» قاضي «كوتاهية»، وعُزل قاضي «ديار بكر» مولانا «صاري مصلح الدّين»، وكُلّف مولانا «معروف أفندي» المعزول من وظيفة قاضي أزمير بوظيفتِه، وبإلحاقه بوظيفة قاضي «بيره جك»، وصدرَ الأمرُ بالإنعام على «حكمه محمد أفندي» المعزول من وظيفة قاضي «ديار بكر» سابقًا، بوظيفة قاضي أزمير مع إلحاقه بوظيفة قاضي «نيف»، وعزل قاضي أزمير مولانا «إسحاق أفندي». وأحسن على «عثمان جلبي أفندي» بوظيفة مدرّسٍ في مدرسة السّلطان «سليمان خان»، وعُزل أمير أمراء الموصل «ملك أحمد باشا»، وأنْعم على «جانبولات بك زاده حسين بك» بوظيفة أمير أمراء الموصل بشرطِ أن يُديرها مع سنجاق «كليس» معًا بموجب التزامه، وهداياه الكثيرة. وأصبح دفتردار قره مان السّابق «نوع أفندي» دفتردار ديار بكر. وأُحسن على «قوچه قپودان زاده حسن باشا» المعْزول من وظيفةِ أمير أمراء الجزائر بوظيفة أمير أمراءِ تونس، وأنْعم على أمير «ساقيز» بوظيفة أمير أمراء طرابلس غرب.

(عرضُ أمير أمراء مصر «أويس باشا» بوجود أموال كثيرة في ذمّة أمير أمراء مصر السّابق «سنان باشا»، وهروبُ «سنان باشا» أيضًا إلى «الآستانة» في أوائل الشهر، ومجيئه)

في أوائل شهر ذي القعدة، عندما وصل «أويس باشا» إلى مصر، عرض قائلًا: «ظهر مبلغ قدْره مائة ألف أربعة عشرَ مرّة من العملة الذهبية شرعًا وقانونًا في ذمة «سنان باشا» المعْزول، عندما كان أميرُ أمراء ديار مصر (ديار مصر بكلربكيسي) سابقًا، وسدّد منه ثلاثين ألفَ ذهبيّة. وينبغي أن يُحبَس بسبب عدم تسديده المتبقّي منه، وأن تصادَر منه جبرًا». وبينما أخذ حكمًا بموجبه، فلمّا كان «المومأ إليه» «سنان باشا» بهلوان العالم

في الحيلةِ والخدعة، وضع ناظرين موكّلين لهذا الأمر، وبينما كانوا مترقّبين لَمَا سيُسفر عنه وضَعَ حيلة، وتخلّص ممّا يُحيط به من الشّر والفتنة، وتسلّل من حول حمّام خرب، وخرج من المدينة بمساعدةِ بعض الرّجال الشجعان، وهرب بالإبل من الصّحراء، وجاء إلى مركز الدّولة مختارًا الشّدائد والتعب العظيم لتغيير الوجه للسدّة التي هي مثل السّدرة، ولإعلام حاله وغرضه الباطل.

خلاصةُ القول، كما أنّه لم يكنْ هناك حدّ ولا نهاية لأقاويلهم بموجب بغضهم وحسدهم بأغراضِهم النّفسية فيما بينهم أوّلًا وآخرًا، إلّا أنّه مُدح على جسارته بسبب خلاصه على وجْه السّرعة من أيدي الخصم، قائلين: «ما أحسَنَك»، وذكّروه أيامًا كثيرة.

(تبديلُ الدّفترداريةِ)

في أواسط «ذي القعدة»، صدرَ فرمانٌ بالإحسان على «تذكرجي زاده محمود أفندي» بوظيفةِ دفتردار مصر، وبعدَ بضعة أيام، وجّهت الوظيفة إلى دفتردار حلب «يحيى أفندي»، وأُحسن على «محمود أفندي» المرقوم بوظيفة دفتر دار حلب. في ‖ ذي القعدة سنة ٩٩٥هـ/ أكتوبر ١٥٨٧م.

(تغييرُ الدفترداريةِ)

ومرّةً أخرى في أواخر ذي القعدة، صدر فرمانٌ نصُّه: «ليكن رئيس الدفتردارية «حسن أفندي» دفتردار الشّق الثّاني الذي كان في خدمة أعمال الدفتردارية بجانب القائد الأكرم، ليكنْ في خدمة الحملة «كما كان» براتبه. ولتُعطى خواصّه نقدًا من أموال الجمرك. ووُجّهت وظيفة رئيس الدفتردارية إلى دفتردار طونه المتواجد في مركز الدولة. وأُحسن على «ابه زاده أفندي» بوظيفة دفتردار «طونه». في السنة المذكورة .

(عرضُ حضرةِ القائد أحوال «كورجستان»، وإعلامُه بإنشائه القلاع)

في أوائل ذي الحجّة، جاء سلحدارُ حضرة قائد العساكر المنصورة «فرهاد باشا»، المدعو «داود آغا» مع عشرةٍ من رجاله بالعروضِ والرّسائل إلى مركز الدولة، حيث عرض بأنّه: «أُنْشئت على الموضع المعروف باسم «كوري» التي كانت مقرَّ عرش اللعين

الذي يلقّبونه بـ «سيمون»: القلعة المَتينة التي يمكن أن يتحصّن بها العسكر الأقوياء، وكانت هذه القلعة متينةً عن جميع القلاع التي أنشئت في مملكة «كورجستان» حتى الآن، وأعلمَ بأنّ حاكم طائفة «لوند» المدعو «الكساندره خان» أيضًا عرض، وأعلم، بأنّه متعهّد بالطّاعة لأداء الجزية بتقديم الحرير النّفيس الذي قيمته عشرة آلاف ذهبية، وبنقل الاحتياجات للقلاع الواقعة تحتَ سيطرة المسلمين، وبإيصال ذخائرها كاملة، وجاء مع «درازا أوغلو محمود خان» الجركسي الذي هو مِن خدم الشّاه الضّال منذ القدم، والمشْهور بالبطولة مع الأبطال الذين هُم بجانبه، وأعْلنوا الطاعة للسلطان، وعرض أنّه لو وُجّهت له الأراضي المفتوحة بطريق ترقيتِه أمير أمراء، يتعهّد بالقضاء على «سيمون» الذي هو بلا مكان، ومُضطرب الحال؛ فوُجّهت إليه إمارةُ أمراء. في السنة المرقومة.

(مجيء رئيس البوّابين «قورد آغا» مع البوّابين من حدود بودين)

في عيدِ الأضحى المبارك، جاء رئيسُ البوّابين «قورد آغا» الذي توجّه إلى بودين ممثلًا للسّطوة القاهرة السّلطانية لتفحّص الأحوال الواقعة في حدود ولاية «بودين» مع البوابين من قبْل، وعادَ لمركز الدولة، وأحضر «شهوار بك» الذي كان أميرَ أمراء البوسنة مقيدًا في سلاسل، وشاع بأنّ أمير أمراء بودين «يوسف باشا» خلّص نفسه بحسن التدبير والتّجهيز من نيْل الغضب السّلطاني، وقدم «شهوار بك» المذكور جميع «ما ملك» كهدايا لنيْل وظيفة أمير أمراء، وشاع الخبرُ بأنّ السّلطان أمر قائلًا: ليُعفَى عن جرمه وذنبه اعتبارًا لحرمة أيّام التشريق[1]» في أواسط ذي الحجة سنة ٩٩٥هـ/ نوفمبر ١٥٨٧م.

(حبسُ كلّ مِن «جعفر باشا» المتوجّه لحمْلة البحر بالأسطول، وأمير أمراء مصر السّابق «سنان باشا» في الـ «يدي قله»)

في أواسطِ ذي الحجّة، بناء على الاستيلاء على سفن الكفار الأذلاء التي كانت تطوفُ على سطح البحر، وتدخل للممالك الإسلاميّة، وتلحق بها الخسائر، كان قد تمّ تجهيزُ عشرين سفينة «قدرغه وباشدارده» مجهّزة بعمّال التجديف، وعُين «جعفر باشا» الذي كان أميرَ أمراء «طرابلس غرب» قائدًا عليها، وأُعطيَ المقدار الكافي من

(١) أيام التشريق: تطلق على اليوم الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر من شهر ذي الحجة.

جند الإنكشارية (يكيجري) المحاربين بضبّاطهم، وجند الجبه جيه والمدفعية، وأُرسل إلى البحر. ولمّا صادف سفن «مالطة» وسفن حاكم «فرنسا»، لم يحمل عليهم بالهجوم مهملًا وغير مُبالٍ بهم، وقال: «نحن الآن مكلّفون بمهمّة حراسة المملكة»، ولم يهتمّ بهم، فعندما جاء الذين كانوا في الأسطول، وأخبروا بما حدث، بمجرّد أن خرج القائد من السّفينة (قدرغه)؛ جيء به مباشرةً إلى الـ «يدي قله» وحُبس. وفي ذلك اليوم، حُبس بجواره في القلاع السّبع «يدي قله» «سنان باشا» الذي هرب من مصر من قبل، وجاء من الصحراء بالإبل للآستانة.

(توجيهُ وظيفة قاضي بغداد)

في أواخر شهر ذي الحجة، عندما عُرض بأنّ قاضي بغداد «صوباشي زاده أفندي» المشْهور بالعلم والفضيلة، توفي؛ عُيّن مولانا «يحيى أفندي» الذي هو مِن مدرسة الصّحن، والمعروف باسْم «زيرك زاده»، قاضيًا لبغداد مكانه في التاريخ المرقوم.

(وفاةُ صدْر الأناضولي السّابق، قاضي مصر «عبد الغني أفندي»)

وفي هذه الأثناء، عُرض بأنّ قاضي عسكر الأناضول السّابق مولانا «عبد الغني أفندي» الذي هو قاضي مصر حاليًا؛ عادَ من الحجّ الشّريف، وجاء إلى «بروسه»، رحل من الدّنيا الفانية، وعزم على دار العقبى، رحمة الله عليه. في أواخر ذي الحجة سنة ٩٩٥هـ/ نوفمبر١٥٨٧م.

(ترقيةُ كتبة البلوكات)

في أواخر الشّهر المذكور، لمّا كانت رواتبُ الوظائف المحلولة التي توفّي أصحابُها معلومة، صدر فرمانٌ بتعْيين كاتب السپاهية (سبهاهيلر كاتبي) متفرّقة البلاط العالي «سنان بك» بعلوفة ستّ وسبعون آقجة، وبالإحسان على كاتب السلحدارية «علي آغا» بوظيفة الذّواقة، وبالإنعام على المتفرّقة السابق «مقابله جي محمود جلبي» الملتحق بمعيّة «مسيح باشا»، وذو راتب ثمانين آقجة؛ بوظيفةِ كاتب السپاهية، وأحسن على الفقير (سلانيكي) بخدمة السّلحدارية (سلحدار كتابتي) في ٢٢ ذي الحجة سنة ٩٩٥هـ/ نوفمبر ١٥٨٧م.

(مَجيء آغا السپاهية من حملة «كورجستان»، وإحضارُه دفاتر ترقيات أفراد البلوكات)

ومرّةً أخرى، في «أواخرِ ذي الحجة»، جاء آغا أولاد السپاهية «حزم آغا» مع الكتبة المترقّين، وسلّم لحضرة الوزير الأعظم «سياوش باشا» دفاتر ترقيات الخدم مع خاتم حضرةِ القائد، وعندما عرضَ على مقام العرش العالي ما أعلمه قائلًا: «توجد في دفاتر الحصْر بموجب الفرمان العالي الشّأن ترقية اثنين آقجة لبلوكات أبناء السپاهية والسّلحدارية، والعلوفجيه اليمين، والذين وصلوا لرتبة اليولداشيه مِن الذين تواجدوا في الخدمةِ في حملةِ تبريز من قبل، وسُجّلت الترقية للذين أدّوا خدمتهم المطلوبة منهم، وأخذوا علوفاتِهم المخصّصة بهذا الشّأن كاملة»؛ صدرَ الأمرُ بأن تُعطى رواتبهم، وسُلم لمحمد چلبي دفتر السپاهية، وسُلّم أيضًا لهذا الفقير (سلانيكي) دفتر السلحدارية. وكانت أسامي جيش الإسلام ألفين وتسعمائة وثلاثين جميعًا، أقلّ سبعين رجلًا من السّلحدارية البالغين ثلاثة آلاف رجل، حيث أصبح ميسرًا لدى سلانيكي تغيير الوجه مع الأشراف والأعيان لمقام العرش الهمايوني في غرّة محرم الحرام سنة ٩٩٦هـ/ ديسمبر ١٥٨٧م.

(عرضُ حضرةِ القائد «فرهاد باشا» أحوال القزلباش الدناة)

في «أوائل محرّم من السنة المرقومة»، جاء رئيسُ بوّابي القائد صاحب الوقار بالعروض والرّسائل، وأعلم بأنّ القائد عرض وأعلم قائلًا: «جاء «عباس ميرزا» ابن الشاه الضّال «خدابنده» من «خرسان» إلى «قزوين»، ودخلها، وقبل والدُه حكم خراسان، وجلس «عباس ميرزا» على عرش الشّاه، والآن، صاروا جماعةً عظيمة بين القزلباش، ولم يرضَ بالصّلح قائلًا «ينبغي أن نستردّ مرّةً ثانية مملكةَ القزلباش الموجودة في أيدي أهل الإسلام، وأشهروا سيفَ الانتقام على أكثر التّابعين للعثمانيّين، والآن. نيته وعزيمته التّشتية في «كنجه وقره باغ[1]»، والإقامة في موضع قريب من

---

(١) قره باغ: سنجاق قديم في شمال «آرس » في «ازربيجان».

«شيراون»، وأظهروا صورةَ تبديل المذهب والملّة، وبسبب هذا، جمعَ قطّاع الطرق والمحتالين والـ «سكبان» من بلاد الروم، واتّحدوا بنيّة إيقاظ الفتنة».

(عرضٌ وتوجيه وظيفةِ قضاءِ مكّة المكرمة)

في أوائل محرّم، لمّا عُرض بأنّ مولانا «عجم ميرزا مخدوم» قاضي مكّة المكرمة ودّع الدّنيا الفانية بسبب مرض الحمّى المحرقة؛ صدر فرمانٌ بالإحسان على قاضي مصر «بهاء الدين زادة عبد الله أفندي» بوظيفة قاضي مكّة المكرمة. وكُلّف صدر الأناضولي السّابق «ملا أحمد أفندي» بوظيفة قاضي مصر.

(عرضُ وظيفةِ أمير أمراء ديار بكر من أجل أمير أمراء قره مان)

في أواخرِ محرّم، لمّا عُرض بأنّ أمير أمراء ديار بكر «كوسج خسرو باشا» الذي لا نظيرَ له في الكِياسة، وجّه راية عزيمتِه إلى عالم العقبى، صدر فرمانٌ بتعيين أمير أمراءِ قرّة مان «محمد باشا»، أمير أمراء ديار بكر، و[توجيه إمارة أمراء «قرة مان» لرئيس الحرس «محمد آغا» الذي هربَ من الشّاه في «تبريز»، وجاء للآستانة. في التاريخ المرقوم».

(مِن كلام الحكمة)

إنّ أصولَ السّلطنة وقانونَ الدّولة يكون على ذلك النّحو: لا يُعطى بمقياس السعي لأهلِ العلم، ولا يُطلَب الإحسانُ لأصحاب الكمال. ولمّا قُدر واعْتبر لأرباب الاستحقاق، تزيّنت الدّولة وازدهرت.

(عزلُ الدّفتردار «إبراهيم أفندي»، وحبسه)

في غرّة صفر المظفّر من السنة المرقومة، عُزل رئيس الدفترداريّة «إبراهيم أفندي» وعلى الفوْر، في تلك اللّيلة، قام رئيسُ الجاويشية «خضر آغا» بموجب الفرمان السّلطاني، بإخْراج المذكور من منزله، وحبسه في الـ «يدي قله»، وشمع أملاكه ومنازله لمصادرتها. وصدرَ فرمانٌ بأنْ يُعيّن دفتردار الأناضولي «رمضان أفندي» شقيق «أويس باشا» رئيسًا للدّفتردارية مكانه، وأُحْسن على «برهان أفندي» بوظيفة دفتردار الأناضولي، وعلى «مصطفى أفندي» المعزول من حلب بوظيفة دفتردار الشق الثاني.

(مصادرةُ أملاك «إبراهيم أفندي» المذكور)

مرّة أخرى، في «أوائل صفر»، تمّ إحضار «إبراهيم أفندي» من الـ «يدي قله» إلى حجرة البوّابين الواقعة في سراي الوزير «إبراهيم باشا»، ولّما ظهر لهم في ذمّته أموال كثيرة بسبب التّساهل السّلطاني عندما كان دفتردار حلب؛ سئل عنه، ولّما لم يكن الجواب الذي قدّمه لائقًا؛ صدرَ فرمانٌ بمصادرة جميع أمواله وأمتعته للخزينة الميرية. وعندما تمّ التحرّي والبحث عن جواهره ونقوده، لم يتمّ العثور على شيء منها، وبينما كانوا يتوعّدونه ويهدّدونه أخبر أحد أهل المعرفة قائلًا: «إنّ جواهره مخبّأة في صديريّه وقلنسوته الملفوفة على رأسه، وبعض نقوده مخبّأة في الحمّام، وبعضها في بئر الماء». فتمّ البحث عنها والعثورُ عليها».

(الأمرُ بإيقادِ المشاعل على المنارات)

في ربيع الأوّل سنة ٩٩٦هـ/ يناير ١٥٨٨م، صدرت «تذكرة» شريفةٌ من قِبَل صاحب العظمةِ السّلطان حامي العالم حيث صدرَ في مضمونها فرمانٌ نصّه: «إنّ ليلة الثاني عشر من ربيع الأوّل هي الليلة التي ولِدَ فيها سرورُ الكائنات حضرةُ الرسول «عليه الصّلوات والسلام»، وأنار فيها عُرصة الدّنيا يجب أن تُعظّم وتُقدر. فليُقرأ فيها القرآن الكريم احتفالًا بذكرى المولد النبوي. ولتحترق أمّة الطغيان، ولتتلظّى نارًا، وليُظهروا الاشتغال بالصّلاة والسّلام عليه طالبين الشفاعةَ له بالتّسبيح والتهليل، ولتكن العادة بإضافةِ المشاعل على المنارات في تلك الليلة مثل ليلة الغائبِ في شهر رجب، وليلة البراءة في شهر شعبان.

(توجيهُ إمارة أمراءِ رقه)

في هذه الأثناء، لّما عُرض خبرُ وفاة أمير أمراء رقه «المرحوم چركس إسكندر باشا زاده أحمد باشا» الفائق الأقران؛ صدرَ فرمانٌ بتوجيه وظيفة أمير أمراء رقه إلى «كورد بياله باشا» الذي ذهب لخان الأوزبك حضرة «عبد الله خان»، وعاد لمركز الدولة. في أواخر ربيع الأول سنة ٩٩٦هـ/ يناير١٥٨٨م.

(تعيينُ «عالي أفندي» دفتردار الروميلي)

صدرَ فرمانٌ بتعْيين «عالي أفندي» الذي كان دفتردار سابقًا، وجهبز أرباب المعرفة والمعزول، دفتردار الرّوميلي في أواخر ربيع الآخر سنة ٩٩٦هـ/ فبراير ١٥٨٨م.

(إعلامُ القائد الأكرمِ حضرة «فرهاد باشا» أحوالَ الحدود)

في ربيع الأوّل من السنة المرقومة، جاءت العروضُ والرسائل المفصلة والمشروحة من قِبَل القائد الأكرم «فرهاد باشا» لمركزِ الدّولة حيث عرض بأنّه: احتشد القزلباش الدناة بالفعْل في «قزوين»، وألقوا القبضَ على السّلطان «محمد خدابنده»، وكانوا ينوون حبسَه، ولمّا قدم السّلطانُ المعروف باسْم «اجق» الذي هو مِن غلاظ القزلباش الدّناة مع عدّة آلافٍ من القزلباش فروضَ الولاء والطّاعة أمام الشاه، ورجا الآلاف من القزلباش المساعي من الشّاه قائلين: «ينبغي أن نحملَ بالهجوم على العثمانيين، وأن نستولي منهم على المزار السّعيد وقلعة «روان» منهم، وأن تُحسن على «اجق» المذكور بدرجة الخانية». سُجّلت في الدفاتر أسماءُ الذين اتبعوا اللّعين المرقوم، وأعطي المذكور منشور «آل تمغا»، عندئذ جاؤوا فجأة، ودخلوا «روان»، وبينما كانوا يحاصرون القلعة، «بعونه تعالى»، تنبّه عسكرُ الإسلام الموجودون في مهمّة الحراسة، فشبّ غزاة الإسلام المشاة والفرسانُ من سباتهم، وواجهوا جيشَ الملاحدة، واقتصّوا منهم بسيف الانتقام الجسور، وجعلوهم يولّون الأدبار، وأخضعوا عدّةَ مئاتٍ وآلاف منهم لأمرهم، وأمروا جماعة من الفارّين بالتحرّك صوْب «نخجوان»، وهناك- أيضًا- جعلوهم يغبّرون الوجه بتراب أقْدامهم، لكنْ هجم الملاحدةُ القزلباش على أمير السّنجاق الملعون المعروف باسم «فلان» الذي هو من المرتدّين، وألحقوه بالشّهداء، وأخذوا رأسه. وساقوا بعض الأشخاص أحياءً أيضًا، ولم يستطعوا إلحاقَ الضّرر بالولاية قائلين: «إنّها مملكتنا». ولم يستريحوا وانصرفوا قائلين: ينبغي أن نتواجدَ في عتبة الشّاه مرّةً ثانية، وذهبوا. وأعلم الحال لأركان الدّولة بالرسائل المفصلة. في التاريخ المرقوم.

(تجهيزُ الحملةِ لديار الشّرق مرّةً أخرى)

عندما لُخّصت العروض الآتية من قِبَل القائد على مقام العرش الهمايوني، حُررت الأحكامُ الشّريفة المفصّلة، نصُّها: «عليكم أنْ تسعوا في تجهيز الحملة مرّة أخرى، وأن تحملوا بالهجوم على عدوّ الدّين في هذه المرّة، وأنْ تقاتلوهم، وأنْ تصرفوا النظر عن إنشاء القلعة»، وأُرسل السّعاةُ لأمراء الأمراء قائلين: «عليكم أن تجهزوا لوازم الحملة بشكلٍ مُحْكم، وأن تأمروا بالنّداء للأمراء والزّعماء وأرباب التيمار، وأن تصلوا لقائدي الذي شعاره الظّفرُ في النوروز[1]، وأن تكونوا مستعدّين». «في التاريخ المرقوم».

(إرسالُ الأحكام الشّريفة لباب آغوات البلوكات لقراءتها على ذوي الرواتب)

أُرسل الحكمُ الشّريف لجميع بلوكات أولاد السپاهية والسلحدارية، وعزباء اليمن، من خدم الباب، وتمّ التّنبيهُ والتّأكيدُ على ذوي الرواتب بالآتي: «عليكم ألّا تظهروا الجوازَ للإهمالِ والمساهلةَ قطّ في تجهيز الحملة»، وصدر فرمانٌ بأن تُسجل أسماء أربعة آلافِ رجلٍ من الإنكشارية (يكيجري) برئاسة الـ «كتخدا بك»، وألف جندي من الجبه جيه، والمدفعية، وأربعمائة شخصٍ من سائقي عربات المدافع، وأن يتواجهوا للحملة.

(تعيينُ بلوك اليسار لبغداد)

صدرَ فرمانٌ بأن يصلَ جميع بلوك علوفجية اليسار برئاسة آغاهم «حيدر آغا» لجانب الوزير «جغاله زاده سنان باشا» لمهمّة المحافظة على بغداد.

(إطلاقُ سراح الدفتردار «إبراهيم أفندي» المعزول)

تمّت مصادرةُ جميع أملاك «إبراهيم أفندي» الذي حُبس في القلاع السبع «يدى قلة»، وفُتّش في باب «إبراهيم باشا»، من قبْل، وسُلّمت إليه بعض أحماله وأمتعته، وعُفي عن جرمِه، وأُطلِقَ سراحُه، وعاد لمنزله. في أواخر ربيع الآخر سنة ٩٩٦هـ/ فبراير ١٥٨٨م.

---

(١) النوروز: بداية رأس السنة في التقويم الإيراني القديم الموافق شهر مارس بداية فصل الربيع.

(مجيء «حسن باشا» المعزول من إمارةِ أمراء «أرضروم» إلى مركز الدولة)

في أوائل ربيع الآخر، عندما أرسل حضرةُ القائد الأكرم، أمير أمراء أرضروم «المرحوم محمد باشا زادة حسن باشا» إلى الآستانة قائلًا له: «ينبغي عليك الخروج مع عسكر أرضروم، وأن تحملَ بالهجوم على القزلباش الذين جاءوا نحو «روان، ونخجوان»: وأن تلحق بهم»، فلمّا تحدّث قائلًا: «إنّ قسوة الشتاء لا تجعل العسكرَ ينقادون للأوامر. فإلى أين ينبغي أن نذهب؟ وعندما لا يأتي أحد، فإنّه احتمال أن تصبح نتيجة المعركة مع العدوّ مخيّبةً للآمال، وأن تظهر قلّة الشرف»؛ عندئذ عزلَه السّلطانُ بغضب قائلًا: «أنت تتعلّل وتتعذّر». ووُجّهت إمارة أرضروم إلى «خضر باشا»، وعندما جاء «حسن باشا» «مكدرحال» مع بعض أتباعه إلى مركز الدّولة راجيًا الرحمة والعناية، لم يستحسن حضرةُ السلطان مجيئه، وبعد القيل والقال على ألسنة الناس بأنه: «أوشك أن يقبل شفاعتَه». قُبِلَت شفاعته، وقالوا: «أحضر الهدايا الكثيرة» للسلطان للعفو عنه.

(خسوفُ القمر)

في الشّهر المذكور، حدث خسوفُ جرم القمر في «عقدة الرأس».

(توجيهُ إمارةِ أمراء لحسا وروان)

في غرّة جمادى الأولى، لم تتيسّر وظيفةُ إمارة أمراء جرجه لـ «حسين باشا» الذي نال عطيّةَ السّلطان، والذي كان أمير جرجه الواقعة في الدّيار المصرية، من قبل، وأُحسن عليه بإمارة أمراء «لحسا»، ووجّهت إمارة أمراء «كفة» «چركس فرهاد باشا»إلى كتخدا المرحوم «عثمان باشا»، ولكن لم تكن من نصيبه. وحاليًا صدر الأمر بتوجيه إمارة أمراء روان إلى المذكور.

(عزلُ آغا أبناء السپاهية «حرم آغا»، وتعيينُ «علي آغا» مكانه)

في أواخر شهر جمادى الآخرة، صدر فرمانٌ بأن يرتدي آغوات وكتخدات بلوك السّپاهية المأمورين للحملة الخلَعَ الفاخرة في الدّيوان العالي، وأن يعبروا إلى «إسكدار»

وخلالَ بضعة أيام، لم يسترح اليولداشية والإنكشارية والسباهية، واستمروا يقاتلون العدوّ، ويحاربونه. وبسبب قَلّةِ الحماس والحميّة التي أظهرها آغا أبناء السپاهية، حرم آغا، اعْتُبر جُرمًا عليه، فُعزل، وصدرَ فرمانٌ بتعيين «جركس علي آغا» المعزول من وظيفة الآغا، بوظيفة آغا أبناء السپاهية مكانه في سنة ٩٩٦هـ/ ١٥٨٨م.

(عزلُ قاضي العسكر «عبد الباقي أفندي»، وتعيينُ «دوكمجي زاده أفندي» قاضيًا للعسكر)

لم يكنْ قضاةُ ومدرّسو الأناضول ممنونينَ دائمًا من قاضي عسكر الأناضولي «عبد الباقي أفندي»، ولمّا شكوه، ورفعوا طلباتهم للسّلطان؛ سقط البناء، وعُزل. ثمّ صدر فرمانٌ بالإحسان على «دوكمجي زاده مولانا محمد الباقر» المعروف بالزهد والصلاح، والمعزول من وظيفة قاضي استانبول بالوظيفة مكانَه بالرغم من معاناته مرض النّقرس. في الحقيقة، أصبح ثابتًا وظاهرًا أنّ الأشخاص الملازمين الذين يلازمون القضاةَ في فترة تدريبِ ما بين الوظيفة والتّرقية ظالمون، وأكثرهم جهلاء وأراذل وأشرار». في أواسط شهر جمادى الآخرة سنة ٩٩٦هـ/ أبريل ١٥٨٨م.

(وفاةُ خان القرم «اسلامكراي خان»، وتنصيبُ «غازي كراي خان» مكانه)

في أواسط شهر جمادى الأولى، جاءت الأخبارُ لسدّة السّعادة بأنّه: «بينما قصد خان القرم «اسلامكراي خان» وعزم الغزو بجيشِ التّتار الذي حركته كريح الصبا، قاصدًا ولاية الروس، وخرج للهجوم، وسار وتقدّم مسافةَ منزلين، بإرادة الحي الذي لا يموت؛ اعترضتْه السّكتةُ القلبية، فلم تعدْ له قدرة على التحرّك، واختار سفر الآخرة». وعندما قُرأ عرضهم على مقام عرش السّلطنة بأنّهم رجوا وأمّلوا من السلطان تنصيب «آلب كراي سلطان» قائد حملة جيش التتار هنا؛ خانًا، لم يكنْ مطلبهم موافقًا لرضاء السلطان الشّريف، وقال ليكن «غازي كراي سلطان» الذي حُبس، وعانى الآلامَ والشّدائد، عندما حاربَ القزلباش الدّناة في «شيراون زمين» من قبْل، وأمر بمقاتلتهم بالبطولة والشجاعة، ووقع أسيرًا في أيديهم؛ خانًا على بلاد القرْم، وبينما كان المذكور مقيمًا في «يانبولي»، في هذه الأثناء جاءَ للملازمة

الصّدر الأعظم في مركز الدولة، فأحضره حضرة الصدر الأعظم «سياوش باشا» بإكرام واحْترام، وقال له صاحبُ السّعادة الصدر الأعظم: «وجّه حضرةُ السّلطان حاميً العالم إليكم مقام عرش آبائكم وأجدادكم، وأحسن عليكم بمنصب خان «القرم». بعدها جهّز الصّدر الأعظم مقدارًا كافيًا من العسكر بسفن الـ «قادرغه لر»، وأرسله وأوْصله من البحر الأسود إلى «كفه». وخرج المذكور بكامل العظمة والحشمة، وأحنى الوجهَ لمقام الأحدية بافتقار وعجز شديديْن، وذهب. فلم يردْ بخاطره أمل ورجاء منصب الخانية. لكن تحقّق ذلك، فقد كان يرغب نيْلَ راتبه، وقضاء العمر مع أرباب المَعارف والكمال. فذاتُه التي خصالها الألفة تزيّنت بالمعارف والتقوى، وعانى محنة الحبس ثلاثَ سنوات في «قويو» على أيدي القزلباش، وصار موضعَ شفقة ومرحمة شاه العجم «خدابنده»، وعندما نال سمةَ حُسن المعاملة، وصار منظور رعايته وتقديره، كان يتعاملُ بلا تكلّف مع «حمزة ميرزا « قائد العسكر، وذاتَ يوم قالوا وقرّروا الذهاب لمرعى «أوجان»، وأثناءَ التّجهيز للذّهاب انتهز الفرصة، وكانت الهداية والعناية رفيق عناء طريقه، وخرجَ مع اثنين أو ثلاثة أشخاص من خدم «تبريز» إلى «مراغه»[1]، «وصالاماص»، وأصبح مقدرًا وميسّرًا له تغبير الوجه في الآستانة التي هي كالسدرة، وكان يحكي ويروي الحادثة قائلًا: «الحمدُ لله». (قُيد هذا) في سنة ٩٩٦هـ/ ١٥٨٨م.

(بناءً على الذّهاب لحملة، أصبح لازمًا تسجيل وقوعات وحوادث العصر، والوقائع الواقعة هنا في حملة الشّرق، وتحرير التبديلات والأحداث الجارية في مركز الدولة، بالرواية)

في «جمادى الآخر سنة ٩٩٦هـ/ أبريل ١٥٨٨م، أُمر هذا الفقير الحقير (سلانيكي) لحملةِ ديار الشرق بوظيفة كاتب بلوك السلحدارية، وأُلحق بمعيّة السردار العالي، ولمّا أصبح لازمًا تحريرُ التّبديلات والوقائع وأحداث العصر الجارية؛ قُرر تحريرها في هذا الموضع.

(١) مراغة: مدينة مشهورة بالمرصد الذي أنشأوه هولاكو، وتقع في جنوب تبريز بنحو ٨٠ كم.

(أخبارُ آستانة السعادة)

في شهر شعبان، جاءت الأخبارُ من آستانة السّعادة، نصُّها: «أصدر فرمان بعزل آغا اليني جري الذي كان في «أرضروم»، وذلك بسبب ازدحام وكثرة الأجانب، وبتعيين أمير الإسطبل الكبير «خضر آغا» آغا اليني جري مكانه». وصدر فرمان أيضًا بترقية سلحدار الخاصّة المترقي من القصر لوظيفة أمير الإسطبل الكبير، وبعد بضعةِ أيام صدر فرمانٌ بعزل أمير البوسنة «غازي فرهاد پاشا»، وتوجيه إمارة أمراء البوسنة إلى «خليل آغا» المعزول من وظيفة آغا اليني جرى. في أواخر شعبان ٩٩٦ هـ/ يونيه ١٥٨٨م.

(بدْءُ وقائعِ الحملة التي مرشدُها النصر، بقيادة القائد عالي القدر)

في اليوم العاشر من شهر شعبان المعظّم سنة ٩٩٦ هـ[يونيه ١٥٨٨م، رحل خدمُ السّدة التي مدارها السّعادةُ بالعظمة والوقار من صحراء أرضروم المحروسة، ووصل كلٌّ مِن آغا أبناء السپاهية «جركس علي آغا» ورئيس السلحدارية «داود آغا»، وآغا غرباء اليمين «سليمان آغا» مع جميع كتخدات وكتبة وجاويشية المعية والمواكب لتغْبير الوجْهِ لخيمة حضرة القائد صاحب الوقار، وبتراب قدمِه الذي رسوله الشرف، ولتقْبيل يدِه الشريفة. وبعد أنْ نالوا الإكرام والاحترام، نزل كلّ شخص في مكانه بحسبِ درجته، واستراح. وكلّ يوم يتوالى مجيء أمراءِ الأمراء وسائر الأُمراء موكبًا موكبًا، وفوجًا فوجًا. وفي اليوم السّابع والعشرين من الشهر المذكور، قام حضرة القائد العالي مع العساكر المنصورة، ورحلوا متوجّهين صوب قلعة «حسن»، ولمّا استراح عسكرُ الإسلام بالخيام، لم يكنِ الإنسانُ والحيوان خائفين ومرتجفين بتلك الدرجة بسبب وقوع زلزال أرضي، فقد صار شيئًا معتادًا وسريعًا، وأثر الخوف والخطر على موتِ القاطنين الأبنية، ووقع الزلزالُ عدّةَ مرّات في الليل والنهار، إذ كان يحدُث مثل موج البحار، كأنه يتأرجح.

وعندما شُوهدت غرّةُ رمضان الشريف، وحطّوا عند المنزل السابع على مدينة قارص، وبناءً على ضرورة الانتظار والتوقّف عشرة أيام لنزول العساكر المنصورة القادمين،

وأيضًا الخارجين من الممالك المحروسة على المنزل؛ استراحوا. وفجأة جاء ساعٍ معروفٌ باسْم «أيوب جاوش» بحكم شريف وخطٍّ وهمايوني من سدّة السعادة، وأيضًا بخطابٍ شريف من الوزراء العِظام، فعُقد الدّيوان العالي، واجتمع جميعُ أمراء الأمراء والأمراء والآغوات. ومن أجلِ أن يكون خبرُ الفرمان معلومًا، فُتح الخطاب وقُرأ. وبناءً على تهديد السلطان قائلًا:

«عليك ألّا تصل لجانب «كنجه»، و«قره باغ»، وعندما يصلك أمري، ينبغي عليك أن تتوجّه صوب «قزوين»، وإلّا فعذرُك ليس مقبولًا بأيّ شكل قط. وعليك أنْ تخبر بذلك قبلَ أن تكون مظهرًا للغضب السّلطاني»، ملكت رعايا الدّولة الحيرة والاضطراب الكامل، ولم تعدْ لديهم قدرةٌ على النّطق. ومن قبْل عندما عُرضت على باب السعادة أحوالُ نفس الحملةِ مفصّلة، قُرّر التوجّه صوب «كنجه» و«قره باغ»، وتوجّه الجاوش بالفرمان الشّريف بذلك، وبناءُ عليه أُعدّت التّجهيزات، وكُلّف المرشدون، واستُعلمت الأخبارُ وفقًا لتلك النّاحية، والآن جُهّز للحملة مع أهل الوقوف أيضًا، والجيش الموجود في تلك الطّرقات، وأحضروا الرجال الذين يعرفون المنازل والطرق، وتمّ تفتيشُها والاستفسار عنها. وعندما أعلم الذين يرون ويعرفون عن كلّ مكان قائلين: «تمّ الوصول عند اثنين وخمسين منزلًا بالكامل، وأنّ اثنا عشر منزلًا منها عبارة عن أماكنَ قفرٍ، في نهايتها سنواجه مشكلة الاحتياج ويلزم إعداد التجهيزات لذلك. وفي كلّ وقتٍ، كان الشّاه «طهماسب» يمرّ ليلًا مع عشرة آلاف أو خمسة عشر ألف من رجالِه المُحتالين والخائنين. ولو كان ميسّرًا وممكنًا المرور بخمسين ألف أو مائة ألف من العسكر ذوي الأحمال؛ لَمَا جعل الشاه «طهماسب» «قزوين» مقرّ عرشه، من أجل ذلك، استوطنوا في ذلك المكانِ خشيةَ السّطوة القاهرة العثمانية، وأنّه مُحال وممتنع أن يستريحَ الجيش ثلاثةَ أيام في المدينة، ليت يصل عُشْر الجيش تقريبًا من أصحاب الزّعامات على هذا النحو، وليستريحوا فيها بناءً على الرأي والتدبير المملوء بالصّواب، ورويدًا رويدًا ينشئوا القلعة فيها وليفتحوها فليس ذلك ممكنًا. وقزوين وطرقُها أماكن ضيقة ذاتُ صعوبات. فليست المكان الذي يمكن أن

يصله جيش السّلطان وقائده». حلّت الحيرة والاضطراب الكاملُ بالعسكر، وبدأوا يقولون: «بناءً على الخطّ الهمايوني الذي أُرسل، فليأتِ حضرةُ السّلطان بنفسه، فينبغي أن نذهب سويًّا». في النّهاية، قال حضرةُ القائد: «لن نعود بسبب أحمالنا. استخارتنا صادقة. وسنكون منصورين ومظفّرين «بعناية الله تعالى» في هذه الحملة التي مرشدها النصر. فلتتيسّر الفتوحاتُ العظيمة. «وإن شاء الله تعالى»، العام القادم ينبغي أن نعدّ التّجهيزات بناءً على أمر حضرةِ السّلطان حامي العالم، وأنْ نذهب إلى «قزوين». والآن فإنّ قبيلة «قاجار» المتجاوزة خمسة عشر ألف، والموجودة تحت قيادة «زياد أوغلو محمد خان»، والقاطنين ولاية «كنجه»، والذين هُم مجرمو القزلباش الملاعين، ينبغي أنْ تحمل عليهم بالعسكر ذوي شعار الظفر. فإنّ العطاء هو عطاء الله». وبموجبِ هذا الكلام، ختم جميعُ أمراء الأمراء جلسةَ الدّيوان «متّفقي الكلام»، وقاموا مع العساكر المنصورة من «قارص» وتوجّهوا صوب «كنجه» في ١٧ رمضان المبارك سنه ٩٦٦ هـ/ يوليو ١٥٨٨م.

(عرضُ التّدبيرات والتّجهيزاتِ الواقعة على آستانة السعادة)

حُرّرت العروضُ المفصّلة إلى آستانة السعادة، وتوجّه بها «تكه أوغلو حسن جاوش» الموجود بدلًا من رئيس الجاويشية، حيث أبلغ فيها الآتي: «بناءً على الفرمان السابق، تمّ التوجّه هذه المرّة إلى «كنجه» و«قرة باغ»، وبناءً على كون أحمالنا عائقًا، لم يتمّ العودة، وذهبنا. وفي العام القادم، إنْ شاء الله تعالى، سنحيط بأخبار قزوين من أهل الوقوف، وبموجب الأمر السلطاني، سُتعدّ التجهيزات، وسيتمّ العملُ بموجب الرضا الهمايوني، وبحكمة الله بينما كانوا ذاهبينَ في الطريق، قابلوا «حمزة جاوش» القادم من مركزِ الدّولة، وعندما استجوبه السّردارُ قائلًا: «ما الخبر؟» أجاب قائلًا: «معي حكم شريفٌ وخطّ همايوني، نصّه: «عليك ألّا تعود من «كنجه»، وقره باغ»، وأن تذهب، وألّا تصرفَ النّظرَ عن جانب «قزوين»». عندئذ لم يعدْ، وجاء مرّةً ثانية للعساكر المنصورة، فقابلوا حضرة السّردار. في ٢٦ شهر رمضان المبارك سنة٩٦٦هـ/ يوليو ١٥٨٨م.

(احتفالُ العسكر المنصورة بالعيد، وطلبُ خدم الباب بالاتّفاق، الترقيات)

عندما قطعوا المنازلَ والمراحل، ووصلوا لساحل أحدِ الأنهار العظيمة المشهور باسم «شراول كجد»، والذي يجري داخل ولاية «كورجستان»، شُوهدت في ذلك الموضع غرة شهر شوّال الشّريف، فنزلوا به، وقُدّمت سفره إنعام القائد عالي الشأن، وأُقيمت الضّيافةُ العالية. ولمّا كانت الأطراف والأكنافُ المحيطة بهم أماكن تابعة لسيمون اللّعين، كان القزلباش قد منعوا «الزاد وزواده» من أجل مضايفة العساكر المنصورة، وأحرقوه، فعانى جندُ الإسلام بسبب قلّتها. وبسبب هذا الموضع الذي لا يمكن العيش فيه؛ اجتمع خدمُ الباب متّفقين، وثاروا على القائد عالي القدر، وتفرقوا عن طائفة الـ«يدكلر»، واليني جري، وأيضًا عن السّناجق وأعلام الموكب، الموجودة في المؤخرة، وفي الحال، أحاطوا أطرافَ المكان كالهالة، وفجّروا النزاعات، وتجرّؤا مُطيلين اللّسان، وقالوا كلامًا غيرَ لائق، بصورةٍ لا تُشرح ولا تُبين. وقالوا للسردار: «ينبغي عليك أن تأمر بإعطاء ترقياتنا المقرّرة هنا، «فأجاب عليهم بصوت مرتفع قائلًا: «كيف أستطيع أن أعطي ترقياتكم؟! حيث لم نواجه العدوَ، ولم نحاربه ونحطّمه وننتصر عليه، ولم نضربِ القلعة، ونستولي عليها ونفتح المملكة؟! لو أعطيتها، فلن يقبلها أفندينا، إنّه بيت المال. ماذا علمتم؟!»، وعندما قال: «أين قدماؤكم؟ ينبغي أن نتباحث الأمر بالطّريق. ترقياتكم على العين والرأس» قالوا: قال: «إنّه الموكب. فلتتفرقوا وليفتح الطّريق». وبدأوا الدّعاء والتصايح والتّصفيق. بعد ذلك عبروا ذلك النهر العظيم، وعندما استراحوا، أمرَ السردارُ كتبةَ البلوك بإحضار الخيمة، وتواجد بها من غرة شوّال إلى صفر، وجهّزوا للبحث والتّفتيش، وفي آخر صفر، أعطوهم بقية حسابهم، وحسبوا علوفاتِهم الآتية كاملًا، وأنعم بها صاحبُ السّعادة حضرة السلطان من أموال المَحْلولات، وأمر قائلًا ليجهز بها. وقال الكتبة «سنتباحث معكم في وقت المقابلة»، وأمر السّردار بالترقية آقجتان لجميع السپاهية الفرسان، ونبّه قائلًا: «عليكم تقييد آقجة واحدة لجميع الينى جرى، والجبه جيه، والطوبجية، وسائقي عربات المدافع. ورحلوا من منزلٍ لمنزل، وعند الموضع المعروف بـ«طاوس صوبي» أثناء توجههم لولايةِ العدوّ، نادى في تلك الليلة ونبّه المنادون مؤكّدين، وقالوا:

«احذروا. فلا تتقدم الأحمال، وليسِر الموكب. احتاطوا فأعداء الدين في كمين في كلّ جانب. فاحذروا الغفلة». ووضعَ في ناحية الشّرق من ولاية قاره باغ المعروفة باسم «صار يقامش»[1] فريدون، والضّحاك، ورستم وأسفنديار المشهورين والمعروفين، واغتنموا مِن أنواع أجناس الوحوش والطيور، ونالوا مرادَهم. وفي المنزل التالي، شوهدت كثرةُ وازدحام العساكر المنصورة من أماكن الهروب على رؤوس الجبال، فلمّا أبلغ الخبر لقبيلة «فاجار» الفجار، ولخانات اوجاق القزلباش الملاعين، رَحَلَ الملعون المعروف بـ «زياد أوغلو» السّردار وقائد العسكر، رعايا المملكة القاطنين القرى والنواحي في مدينة «كنجه» بوسائلهم وأرزاقهم ودوابّهم وماشيتهم كافّة، وأخرج معظمهم للقلاع والجبال، وساقَ أكثرهم بعسكره أنفسهم لساحل نهر آرس، وأخلى مدينة «كنجه» وحدائقها بقصد حفْظها وحراستها، ولم يتركْ فيها شخصًا ذا روح، لكنْ وضع بها أشياء مرغوبة، وجاء الأمراءُ المشهورون والمعروفون باسم (طاليس أوغللري) من أمراء «شيراون» قائلين: «إنّها خالية ووحيدة»، وأخبروا بعدم رؤية شخص منِ جيش «فاجار» واعلموا أحوالها. وفي اليوم التّاسع من شهر شوال، تمّ الوصولُ إلى «كنجه»، وأحاط الجند الذين مهابتهم كمهابةِ يوم القيامة، جميع نواحيها، ولم يتواجد بها أيّ شخصٍ من بني آدم، ووُجدت المدينة خالية من الأعداء، ومثلما وضعوا وسائلهم وأرزاقهمً التي لم يستطيعوا نقْلَها؛ في الأماكن التي جَعلوها ملاجئ؛ وجدَها المسلمون كما هي، فأخرجوا المؤن النّفيسة، واغتنموها. الحقّ لم تُرَ في ولاية العجم أبنيةٌ ذات بهاء ومتناسقة مثل أبنية مدينة «كنجه». وكثرة حدائقها ورياضها ومائها الجاري وجسريها العظيمين الواقعين بالقرْب منها، وجميع جبالها المرغوبة للنّظر، وأشجارها وفواكهها وأزهارها، بكثرة وجمالٍ لم تُر في أيّ ديار قطّ «كأنّ الحقّ سبحانه وتعالى» مثلما أعطى مِن نعمته لذّة أنواع الفواكه لسائر الولايات، ليس هناك مثيلٌ لطعم ولذّة مائها الذي هضمه لطيفًا، ولكنْ هواؤها في الأيّام الحارة يستلزم الخروجَ ضروريًّا إلى مصايفها، فهذا شيء شائع عالميًّا.

(١) صاريقامش: مركز في ولاية قارص.

على كلِّ حال، وصلَها عسكرُ الإسلام بحلول الموسم، واستراحوا في أطرافها وأكنافها، واغْتنموا بنعمها الإلهيّة الوفيرة، ولم يأمر حضرة السّردار صاحب الوقار مع أمراء الأمراء والأمراء وسائر أعيان الدولة، لأفراد العسكر؛ بقطع أيّ شجرةٍ نامية موجودة في الحدائق، وسائر الأماكن الواقعة في أطراف المدينة، ولم يأمرْ بتخريبها. وحافظوا عليها قدْرَ الإمكان، ومنعوهم بشدّة، ولم يسمحوا لأحدٍ بحمْل أيّ شيء من منازلهم، وقسّم أبنيتهم، وأمر القائد بإحاطة المدينة بسورٍ بميدان، وحافظوا على أماكن أسواقهم، وعلى «قربان سراي»، وحماماتهم ودكاكينهم.

لكنْ عندما صار الشّاه طهماسب الموجود في الميدان، منتصرًا في حرب كورجستان أمر آباء وأجداد «سيمون»، و«لوند الكسندره» اللّعين ببناء برج من ناحيته، فأمر السّردار «فرهاد پاشا» بهدمه، وصرف طوبهِ اللّبِن لبناء القلعة، وأحاطوا به مكانًا يتجاوزُ ستّة آلاف ذراع، وأزالوا البرجَ والسّور، وفصلوا الخنادق، وخلال أربعين يومًا أمرَ السّردار ببذل الهمّة في بناءِ الأبراج المتينة بكامل الاسْتحكام، وإتمامها بأنواع الجدّ والجهد.

وفي اليوم الثّامن عشر من ذي القعدة ٩٦٦هـ/ سبتمبر ١٥٨٨م بداية، أتمّ جميعُ الخدم بناءَ برْجَين في فيلق بلوك السلحدارية، ووضعوا عليها مدفعيْن «شاهي طربزن»، وأطلقوا قذائفها، وعمّتِ الأفراح. وبعده أتمّوا بناءَ الأبراج الموجودة في فيلق أبناء السّپاهية، وأتمّوا بناء بابيْن، والأبراج الموجودة في فيلق الييني جرى. وعندما أمر كلّ مِن أمير أمراء الأناضول «خادم حسن پاشا»، وأمير أمراء حلب «حسن پاشا»، وأمير أمراء مرعش « قولاقسز محمد پاشا»، وأمير أمراء طرابلس شام «بستانجي علي پاشا»، وأمير أمراء قره مان، ورئيس الحرس «محمد پاشا»، وأمير أمراء أرضروم «خضر پاشا»، وأمير أمراء ديار بكر «محمد پاشا»، وأمير أمراء سيواس «سنان پاشا أوغلو محمد پاشا»، بتجهيز أسهمهم التي حُدّدت بالذّراع، والخندق في القلعة، وبإتمام بنائها؛ قام حضرةُ السّردار عالي القدر بالتّشاور مع أمراء الأمراء،

واختاروا الشجعان المُعتمدين، والقادرين على الهجوم من الزعماء والسپاهية المجهزين، ومِن رجالهم هُم، ونبّهوا وأكّدوا عليهم قائلين: «إنّ أعداء الدين والملة، والملاحدة الملاعين وقبيلة «قاجار» مخاذلة الفجار الملاعين، جاهزين مع القبيلة والمملكة منظّمين ومهيّئين على ساحل نهر «آرس».

وعندما سنرحلُ مِن هذا المكان سوف يحاصروا القلعة، فينبغي أن نصل إليها قبل أن ينهبوها ويسلبوها، وأنْ نحمل عليهم بالهجوم، وبعنايةِ الله تعالى، ينبغي أن نجعلهم مقْهورين تحتَ وطأة سيفِ الإسلام، وأنْ ننتقم منهم؛ فتجهز مع أمراء الأمراء وتهيّأ ثلاثون ألفَ جنديّ من حملة السيوف، وخرجوا للهجوم مع رجال الحرب في يوم شديدِ الأمطار، وذهبوا في يوم الخميس من شهر ذي القعدة سنة ٩٦٦هـ/ سبتمبرً ١٥٨٨م. وكان حضرةُ الوزير «جعفر پاشا» الموجود في مهمّة حراسة «شيروان» قد جاءَ نحو عسكر الإسلام الباقين في الجيش الهمايوني، بجنده المتجاوزين ألفي جندي حتّى وصل لحضرة السّردار الأكرم من أجل البقاء مع الجيش، وقابل السردار، وعزم على الحملةِ ثانية، وتجهّز الجيش.

وبالحكمةِ الإلهية، لمّا كان «جعفر پاشا» وزيرًا مسنًّا، كان قد حلّ الضّعفُ الكامل بصحّته، واعترضه مرض التسمّم. وعندما ذهب لملاقاةِ العدو، بقيَ في مملكة الأعداء بجندِه الباقين في الجيش، وسعوا لإكمال بناء القلعة.

(ذهابُ القائد صوْب عدوّ الدّين، وحمله بالهجوم عليه)

وبينما كان جيشُ «قجار» وجميعُ المملكة والقوم يجلسون مع خان «كوج» فارغي البال على أحدِ سواحل نهر «آرس»، في اليوم الثالث، جاء فجأةً قائدُ العسكر المنصورة بجيشِه، وحمل بالهجوم عليهم، وأحدثوا ضجيجًا بصيحة «هاي»، وعندما رآهم عسكر القزلباش، ألقواَ بأنفسهم في نهر «آرس» الذي صارَ كالبحر من هول الفزع، فلم يستطيعوا النّجاة بأهلهم وعيالهم، وغرقوا مثل «فرعون»، ومن هذا الجانب لمّا أرسلوا الشّخصَ الخائن المندسّ المعروف باسْم «بارتال أوغلي مصطفى پاشا» إلى حاكمهم «زياد أوغلو» اللّعين، وأحاطَ علمًا بما حدث؛ لاذَ بالفرار وهرب.

و«بعونه تعالى»، عبر حضرةُ القائد الأكرم بالعسكر المنصورة النّهرَ سالمين، ونظّم جندَه، ورفرفت أعلام جيشِ الإسلام داقّين طبلَهم ونفاراتهم، وعندما هجموا على عدوّ الدين، ولّتْ طائفة الملاعين الأدبار صائحين مُسْتغيثين، فلحق جندُ الإسلام بهم، وجعلوهم مقهورين وأذلّاء بحِرابهم وسيوفِهم، وقطعوا رؤوسهم، وأسَروا الأحياءَ منهم، ونشر أبطال الحرب الضّوضاء بين الناس، وامتلأتِ الدّنيا ضجيجًا بصياح «أمان الأمان». «سبحان الله» شُوهدتْ إحدى علامات يوم «الفزع الأكبر». وفي الحال، في وقت العصر، تحرك القائدُ الأكرم ببطء، وعلى الفور عبرَ النهرَ من الموضع الذي جاء منه، ثمّ حطّ على المنزل. وعندما حلّ المساءُ أوقد المشاعلَ والنيران، وأدّى صلاةَ المغرب والعشاء، واستراح. وأعطى أكثر أطفالهم ونساؤهم الأسرى؛ الأموال الكثيرة، من أجل إطلاق سراحهم، فأخذ الأموالَ من أيدي العسكر، وأطلق سراحهم. وأغار جند الإسلام على بعيرٍ وأثقال وأحمالِ قافلةٍ لا حصر لها، وساقوا نحو مائة ألفٍ من الدوابّ والمواشي، وخلالَ ثلاثة أيام، عادوا مرّة أخرى لقلعة «كنجة» سالمين وغانمين، وحمدوا الله كثيرًا على هذه الفتوحاتِ العظيمة، ومن أجل استقبال القائد الأكرم، أطلقوا جميع المدافع والبنادق الموجودة في القلعة، وأقاموا الأفراح، حتّى أنّ سكان جبل «قاف» أنّوا من ضوضاء المدافع والبنادق، وأعلمُ بأنّه تمّ وضعُ مقدار من الأسلحة في القلعة، وأرسل الجاويشية منبّهين بقولهم: «إنّ البارون خزينةٌ ضرورية، فلا تطلق المدافع كثيرًا». بعد ذلك خرج «جركس حيدر پاشا» أمير أمراء كنجه ودفتردار مصاريف الحملة «حسن أفندي»، وآغا العرباء اليمن «سليمان آغا»، وكتخدا الينى جري «سنان آغا» لاستقبال القائد، وفي هذه الأثناء اختار الوزيرُ «جعفر پاشا» سفرَ الآخرة بسبب مرض التسمم، وأصبح معلومًا أنّه دُفن في حرم الجامع الموجود في القلعة. وانعقد الديوان، وذهب أميرُ أمراء الأناضولي «حسن پاشا» لمهمّة المحافظة على شيراون بمنصب الوزارة، وأُحسن على أميرِ أمراء طرابلس شام «بوستانجي علي پاشا» بوظيفة أمير أمراء الأناضولي.

ولمّا تُركَت الصّلاة يومَ الجمعة في عهود القزلباش الناشرين الكفر، في الجامع الشّريف الذي أنْشئ في طرازٍ موافق للفنّ والصنعة، والواقع في القلعة، والباقي منذ عصرِ سلاطينِ سبكتكين، والقديم البناء، والذي صار معبدَ أهل السنة والجماعة سنينَ كثيرة، والذي أوشكَ على الخراب؛ كُلّف الآغوات المتفرقة بإصلاحه، وأثناء تطهيره وإصلاحه ومدِّه، وصلَ العساكرُ الذين مآثرهم النصرة مع القائد الأكرم، وأدوا صلاةَ الجمعة فيه، وبناءً على فصاحةٍ وبلاغة «كاتب مصطفي خليفة» الذي هو من أبناء السپاهية، قرأ الخطبة، ورفعوا أدعيتهم متضرّعين إلى مقام الأحدية، ودعوا من أجلِ دوام عظمةٍ وسلطنة حضرة السلطان حامى العالم، وفي يوم السبت الرابع والعشرين من ذي القعدة (سنة ٩٩٦هـ/ سبتمبر ١٥٨٨م)، بمفهوم كلام «بارك الله السّبت»؛ رحلوا وتوجّهوا إلى المشتى.

(بقاءُ أكثر من ثلاثة آلافِ وخمسمائة رجلٍ لمهمّة حراسة القلعة)

قُيّدت بدفاتر الأعداد الموجودة في المخازن رواتبُ كلّ مِن الجند وبلوك أبناء الخدم، وجند الجبه جيه والمدفعية وسائر السپاهية الباقين لمهمّة الحراسة في القلعة، وكذلك وضِعَت في المخازن المؤنُ التي تكفي لمدّة عام، وأُخذت الحجج لتسليمها إلى أمير أمراء القلعة ودفتردارها.

الحمدُ لله، وصلاة وسلامًا على جناب فخرِ الأنام الذي هو سبب للإرادة الأزلية والمشيئة اللم يزلية لحضرة الحقّ سبحانه وتعالى، ولخذلان وخسارة أعداء الدين والدّولة أنّ العدو لم ينظرْ للحال المفرق لجيشنا الحريص على حطام الدنيا، والسالب والطّامع، وكان في حفظه وأمانته اعتبارًا لحُرمة فخر الأنام ﷺ. وإلّا لو جاءوا بالهجوم من قِبَل عدوّ الدين والدولة؛ العياذ بالله، لما بقيَ أحدٌ بجانب القائد، وألحقت بهم الخسارة فجأة. فحفظهم اللهُ من وقوع أمرٍ لا يأت للخيال. الحمد لله أصبح القزلباش الناشرون للكفر مخذولين ومقهورين بأقبح صورة، وخلص الذين لاذوا بالفرار. وعبرَ قائدُ عسكر الإسلام نهر آرس الذي هو مثل البحر «سالمًا حامدًا لله»،

ورسًا على شاطئ السّلامة. والحمدُ لله لم يمتْ من جيش الإسلام سواء الإنسان أو الحيوان سوى خمسة أشخاص.

(اجتماعُ السپاهية في مركز، ومجيء خبر قصة أمير الأمراء)

بينما كان حضرةُ القائد الأكرم «فرهاد پاشا» مع عسكر الإسلام في المشتى في «أرضروم»، في اليوم الرابع من جمادى الآخرة سنة ٩٩٦هـ/ أبريل ١٥٨٨م؛ أحضر «سليمان جاوش» الرسائل بالأحكام الشريفة من السدة التي علامتها السعادة، وأعلم القائد أخبار الحوادث التي لا تخطرُ بالخاطر، مَفادها: «عندما عاد أكثرُ أفراد البلوك من حملة كنجه، وصلوا للآستانة، وقاموا بتقطيع النقود القديمة التي كانت كلّ واحدةٍ منها آقجة، ولمّا تُركت مجازاتهم، قاموا بتجزئتها إلى خمْس قطع، ولم يبقَ فيها أثرٌ من العملة أصلًا، وبينما كان القانون السّلطاني ينصّ على أن تسُكّ مائة درهم من الفضّة إلى خمسمائة آقجة، جعلوا من المائة درهم ألفين من الآقجة المزيفة، ولم يصلحْ هذا النوع من العملةِ قطّ، وبدأوا في بيع وشراء درهم الفضة مقابل اثنتي عشرة آقجة بشكلٍ تدريجي. وبينما كان الـ«غروش» تساوي أربعين آقجة منذ القدم، أصبحت تُشترى وتُباع بثمانين آقجة. وارتفعت قيمةُ العملة الذّهبية من ستين آقجة، وبناءً على هذا، اعْتُبرت جميعُ الأسعار لسعرين بين التجار، وعلى أثر غلوّ المأكولات والملبوسات أيضًا بسبب هذا، بدأ كلُّ شخصٍ لتقاضي علوفة قدرها خمسة من العملة الذّهبية، بينما كان يتقاضى علوفة عشرة ذهبيةً فرضًا، عندئذ، بناءً على اجتماع جماعة السپاهية يومًا ما، استحوذوا على الآقجة الخردة، وأرسلوها لمجلس شيخ الإسلام «شيخي أفندي»، وعندما سألوه قائلين: «يعطون لنا هذا النوع من الآقجة قائلين «علوفة»، لكنّ أهلَ السّوق لا يأخذونَها منّا، فدفعنا العملة المزورة لشراء المأكولات والملبوسات. أليس حلالًا ما أخذناه؟» أجاب قائلًا: «إنّه حرام». عندئذ جاءوا مجتمعين مرّةً ثانية إلى باب الوزير الأعظم «سياوش پاشا»، وعندما صاحوا أيضًا عنده، أجاب قائلًا: «وُكِلَ لجناب أمير الأمراء الوزير «محمد پاشا» موضوع تصحيح العملة. فوَصَلوا مِن عنده إلى باب أمير الأمراء مُجتمعين، وعندما قالوا صائحين:

«وصلت عملةُ سلطاننا لهذا الشّكل، هل أعطى سلاطين آل عثمان العلوفه للعساكر المنصورة على هذا النحو منذ ثلاثمائة عام؟ ولمّا جئتَ أنت، وأصبحتَ مقرّبًا من السلطان، نشرتَ الآقجة في المملكة، وأحْدَثت بدعة، فهل العملةُ هي التي ينبغي أن تصحّحها»، وبهذه الصّورة لم يتحدّثِ الرعايا الكلام الذي يمكن أن يجاب بالكلام المعقول، وربّما قالوا العبارات التي عاقبَتُها الغرور، وغير اللائقة، فلمّا وصلت لمسمع «محمد پاشا»، قال: «حلّ المساء. فينبغي أن نتحاور معكم غدًا في الديوان في حضور أركان الدولة. فلتحضروا». وفي اليوم التالي جاءوا إلى الديوان الهمايوني جماعة عظيمة، وأصبح الفناءُ الداخلي والخارجي للديوان مملوءًا بهم؛ وبدأوا بقول العبارات غيرِ اللّائقة بالدولة العلية، وعلى الدوام، سعى آغوات البلوك لتسكين صياحهم وهياجهم. فلم يفلحوا، وفي النّهاية، عندما جاء رئيسُ الجاويشية «خضر آغا»، وكتخدا البوّابين «يمشجي حسن آغا» للتحدّث معهم بالوجه المعقول، أمسكوا بحجر قويّ، وضربوهم به، وشتموهم، وضربوا أيضًا آغواتهم بالعصا، وربطوا ثيابهم على رقاب آغواتهم، وعندئذٍ واجههم الـ «صدرين أفندي لر» من أماكنهم بموجب الأمر السلطاني، وعندما قالوا لهم: «أيّها اليولداشية، ما المقصود؟ تفضّل سلطاننا قائلًا: ينبغي أن نعطي لكم عطاءكم وترقياتكم بناءً على رغبتكم، ها هو خطُّه الهمايوني في يدي. فلا تسقطوا شرفَ الدّولة بين أعداء الدين؛ لأنّكم أنتم عسكر الإسلام». قال اليولداشية: «ليس العطاءُ والترقية منه لنا لازمًا مطلقًا. ولا نأخذها. وبناءً على اعتيادنا أخذ عطائنا وترقياتنا بلا منّة منذ القدم، نستطيع أخذها. وعلوفاتنا وصلت لهذه الصورة على أثر توجّهها لحملات الشرق. ونتيجة ذلك فيسلم لأيدينا وزيره مدبر أمور الدولة. وإلّا لا يكون خيرًا. وليكنْ عالمًا بذلك، ومن المؤكّد عندما لا نتسلم رأس أمير الأمراء، لن نخرج من هذا الدّيوان للخارج، فما حصل ليس لائقًا، وسنجد سلطاننا بدلًا منه». عندئذ سمعَ السّلطانُ بنفسه كلام السپاهية من سراي العدل، وعندما قال: «فليهبوا إلى دم أمير الأمراء. ولا يبقوا في هذه الديار». أجابوا قائلين: «محال محال. سنُهلك جميعهم»، وفي الحال أغلقوا البابَ الهمايوني،

وعندما جهزوا للسطو على الأسلحة من مخزن الأسلحة، قال حضرة خليفة الزمان أيضًا: «لأنّ كلامي لم ينفذ. فليتسلّم كلّ مِن خدم القصر، والبوستانجية وذوي البلط الأسلحةَ في أيديهم». وكتب أركان الدّولة بالاتّفاق «تذكرة» لحضرة قاضي العسكر «بوستان زاده أفندي» نصُّها: «إنّ هذا التدبير يكون خطأ. فليُعطَى لهم رأسُ أمير الأمراء، فصدرتْ تذكرةٌ همايونية نصُّها: «فلتُعطى رأس أمير الأمراء في الحال»، فأبلغه كتخدا البوّابين قائلًا: تفضّل، يريدُك السّلطان في القصر: «أعطني الخنجرَ مِن خصرك» فمثلما أخذ منه الخنجر، وأخرجه، مرّ، وعندما رأى الجلّادَ أسفل أشجار الـ «جنار» ذات المصطبة أمام السپاهية، اندهش، وقال له: ماذا تفعل؟ دعْك من المزاح». وقبل أن يخرج السهمُ من خلفِ ثوبه الأبيض من نوع «أطلس» بالتّمام، في الحال أصاب سيف القضاء رقبته، وفصلَ رأسَه في ضربتين بصعوبة، وبعده، أحضر أيضًا رئيس الدفترداية «محمود أفندي»، وقال له: «هل أنت الذي أمرتَ بضرب الآقجة من المعدن في شكل ثمانية آقجات؟»، وأسقط الجلّاد الغدار رأسَه أيضًا. وكان التقديرُ الأزليّ هكذا. الحكم لله. كانت هذه الواقعةُ الهائلة قد وقعتْ في يوم السبت الموافق السابع عشر من جمادى الأولى (سنة ٩٩٦ هـ/ مارس ١٥٨٨م)، وفي نفس اللحظة، صدر فرمانٌ بعزل الوزير الأعظم سياوش پاشا ومفتي الأنام «شيخي أفندي»، و«إبراهيم پاشا» وجراح محمد پاشا، وأيضًا بقتل آغا السلحدارية «داود آغا». لكن طائفة السپاهية قالوا: «لا نأمرُ بالمجازاة له»، ولم ينصرفوا عن القصر، وأمر السلطان بتوزيع رواتب المترقين، وأعلموا أخبارهم بأنّه: أمر السّلطان بعزلِ كلّ مِن «شهاب الدين آغا»، و«حيدر آغا»، و«داود آغا»، ولمّا تواجد آغا السپاهية «علي آغا»، وآغا عزباء اليمن «سليمان آغا» في الحمْلة، وتواجد حضرة سنان پاشا في «آسكدار» معزولًا من وظيفة أمير أمراء الشام، صدرَ فرمانٌ بأن يصبح «سنان پاشا» وزيرًا أعظمَ مرّةً ثانية، وأحسن بالوزارة مرّةً ثانية على النّشانجي «محمد پاشا» الذي قِبَل واختار خدمةَ النشانجية عن الوزارة سابقًا. وصدرَ الأمرُ بأن يصبح صدر الروميلي «بوستان زاده» مفتي الأنام، وأصبح زكريا أفندي الذي توجّه من وظيفة صدارة الأناضولي

إلى الحج الشريف صدر الروم، وبينما تقاعد «عبد المحيي بك» بوظيفة أمير أمراء الأناضولي؛ صدر فرمان بالإحسان عليه بوظيفة النّشانجية، وصدر فرمانٌ بالإحسان على أمين المدينة سابقًا «علي آغا» بوظيفة آغا العلوفجية اليمين (علوفة جيان يمين آغالق). وعلى المتفرقة شهباز آغا بوظيفة آغا العلوفجية اليسار، وعلى جركس خسرو آغا بوظيفة «جاشنكير» الخاصّة. ولم يكنْ هناك دخلٌ للمرحوم أمير الأمراء في الآقجة الخردة، وربّما بينما كان يجدّ ويسعى لتصحيحها وإصلاحها، صارت آقجة أمير الأمراء المشهور، وأصبح شؤمًا له أيضًا أنّهم أرسلوا الأحكام الشريفة إلى الممالك المحروسة لجمْع الآقجة من رعايا المملكة من أجل إصلاحها، ولم يتحمّل رعايا الدّولة لمضمون الأحكام الشريفة، وقيلت التواريخ لتقبيحها.

«وضع قبيح» وتاريخ آخر «أولدي خرج عالم» وتاريخ آخر بدعة قبيحة [=] سنة ٩٩٦هـ/ ١٥٨٨م.

(توزيعُ خدم القصرِ على البلوكات بموجب القانون)

في هذه الأثناء، لمّا مرّ وقتُ نوبات خدمةِ الخدم في الحرم المحترم، تضجّر الخدم بضوضاء، وطبقًا للقانون القديم، عُرض على مقام السّلطنة بأنّهم رجوا الخروج من القصرِ للخارج، ولم يرضوا برعايةِ وعناية السّلاطين السابقين بموجب القانون القديم، وخرجوا بهمم عالية فوقَ الغاية، وبينما كانت مصاريفُ هذا القدر من حملات الشرق تلقي بثقلِها علًى كاهل الخزينة العامرة؛ تمّ توزيع ألف وخمسمائة سباهي من الخارجين من سراي «غلطه» وسراي «آت ميداني» على البلوكات بآقجتين وثلاث آقجات زيادة، وبأساليب غريبة، فحملوا على الخزينة أكثر من تسعة وعشرين ألف آقجة يوميًّا. وكنت [أنا] هذا الحقير- سلانيكي- كاتب طائفة السپاهية، حيث تمّ إلحاقُ سبعمائة شخص فقط بطائفة أبناء السپاهية. في التاريخ المذكور.

(وقوعُ حريقٍ هائل فجأة)

وقبلَ أن تنتهي حيرةُ واضطراب هذه الحوادث العظمى، وانقلابات الدنيا، ظهر فجأة غضبُ «ذو الجلالي» في استانبول، فقد أحرق سوء أعمال الطائفة الظالمة وخان آهات المظلومين، العالم، واحترقت أمتعتُهم وأرزاقهم التي جمعوها بأكاذيب أهل السّوق، واشتعلت النيرانُ بأطراف سوقين، وبالمحلّات التجارية، وبسوق الكهلة حتى حمام «كدك أحمد باشا» وبكثير من المساجد والمحلات. وخلال يوم وليلة فترة أربع وعشرين ساعة، صارت الأماكنُ محترقة بصورةٍ لا يمكن تصوّرها، ونهبت طائفة الينى جري- الذين هُم على درجة اليولداشية منذ القدم، والتي أصبحت سببًا لخلاص أموالِ وأرزاق المسلمين والرعايا- الفقراء، وسلبت مثل الخصم والعدو، وبسبب إهمال الضبّاط، صارت استانبول خرابًا ودمارًا، وأصبحت الأوقاف والخيرات خربة، وصار الأكابرُ مالكين الأملاك. في ٢٢ جمادى الأولى سنة ٩٩٦هـ/ مارس ١٥٨٨م.

(وقوعُ الحريق مرّةً ثانية خلال فترةٍ يسيرة، وتبديلُ الينى جري)

بعدَ الحريق السّابق، وقع الحريقُ مرّةً ثانية بالقرب من أسفل سور القلعة، ولمّا وصلت طائفةُ الينى جري، فصلوا أطراف الحريق، ومنعوه من الانتشار، وأحدثوا ضوضاء قائلين: «اعتيدَ الإنعام والإحسانُ علينا من قبل سلطاننا صاحب العظمة في مقابلِ خدمتِنا التي صارت قانونًا بيننا منذ القدم: أمّا آغواتنا، وأيضًا ضباطنا الأجانب المترقّين حديثًا، لا يبقون على قانونِنا القديم، وبناءً على مطالبهم اليومية بيننا، يقومون بإحداث البدعة فماذا يكون هذا»، وأطالوا اللّسان مُعاندين، وبينما كان آغا الينى جري يصعدُ على التّلة، شرعوا في السرقة، وعندما جاءوا لباب الآغا، بدأوا لإظهار التلطّف المطلوب قائلين: «ليغلق الباب، وليصيب الحجرُ قفا ورأس الآغا، ولا يكنْ سببًا للفتنة». وفي اليوم التالي، على الفور، صدر فرمانٌ بعدم إمكانية التقرير في وظيفةِ الآغا، وبتعيين أميرِ أمراء الروميلي «يوسف باشا» وزيرًا،

«وخضر آغا» أمير أمراء الروميلي، وأنْ يخرج إلى المقاطعة»، وأصبح الـ «ميرعلم» محمود آغا، آغا الينى جري، وأصبح «ساعتجي حسن آغا» رئيس البوّابين السّفلى، والمترقّي من وظيفة أمير الإسطبل، «ميرعلم»، وسارت الضّرائبُ تعرض «كما كان» بين اليكي جري. في شعبان ٩٩٦ هـ/ يونيه ١٥٨٨م.

(خروجُ أمير أمراء الرّوميلي إلى المقاطعة)

«على أيّ حال»، خرج أميرُ أمراء الروميلي «خضر پاشا» بمهمّة عالية إلى المقاطعة.

(هجومُ «تاتارخان» على ولاية «له»)

لمّا كان أقصى مراد خان القرم (قريم خاني) حضرة «غازيكراي خان» القيام بالهجوم على ولاية «له»، كان قدْ رجا الإذن عدّةَ مرّات من مركز الدولة، لكن لم يكن قد منح الإذن، بسبب أنّ الحاكمَ المذكور قد وضِعَ تحت الحماية، وفي هذه المرّة لمّا جاء «بوركي» اللّعين الخائن والمُغتاب، لجانب «له»، وألحقت طائفة القزاق الملاعين الذين حملوا بالهجوم على قلعة «أوزي» الخسارة الفادحة بولاية «له»، مُنح حضرة الخان الإذن للقيامِ بالهجوم، فأسرع بالتوجّهِ إليها، وألحقَ الدّمار بمعظم المْلكة، وساقَ عدّة آلاف مِن الأسرى، وخرج منها بالغنائم العظيمة.

ومِن قبْل، لمّا أحاط أمير «نيكوبلي»[1] «سلطان زاده محمد بك» مع عسكر الروميلي المُجتمعين، علماً باجْتماع طائفةِ القزاق مع حاكم البغدان الهارب، والخائن؛ قام أميرُ نيكوبلي بالهجومِ عليه مع غزاةِ الإسلام، وهجموا عليهم في معسكرهم، وبعونه تعالى، لم ينْجُ، وجعلوهم طُعمةً لسيفِ المسلمين؛ ونال الشّرف بالخلعة الفاخرة سنة ٩٩٦هـ/ ١٥٨٨م.

(١) نيكوبلي: مركز في شمال بلغاريا.

(عودةُ أمير أمراءِ الروميلي إلى المشتى)

صدرَ فرمانٌ بأن يقضي أميرُ أمراء الروميلي «خضر پاشا» الشتاء في «سلستره» في سنة ٩٩٧هـ/ ١٥٨٩م.

(توجيهُ وظيفة رئيس البوّابين)

في هذه الأثناء، لمّا أصيب رئيسُ البوّابين «خنذان آغا» بمرض مزمن، وصار منكسرَ الحال، صدر فرمانٌ بالإحسان عليه بالتّقاعد بالعلوفة بناءً على خدمته، وبالإنعام على كتخدا البوّابين «يمشجي حسن آغا» بوظيفة رئيس البوّابين. وصدر فرمانٌ مرّة ثانية بالإحسانِ على أحمد آغا المعزول بلا سببٍ من قبل، بوظيفة كتخدا البوابين.

(عزلُ الفقير سلانيكي من وظيفة كاتب السپاهية)

بينما كان هذا العبدُ الحقير في وظيفة كاتب جماعة أبناء السپاهية في حملة الشرق، صدرَ حكمٌ شريف من مركز الدّولة، نصُّه: «جاء جميع السپاهية إلى مركز الدولة، وعليك بالمجيء، وبمباشرة مهامّ وظيفتك». عندئذ دخل سلانيكي مع الـ «كتخدا بك» إلى «آستانة» الدّولة في رمضان الشريف سنة ٩٩٧هـ/ يوليو ١٥٨٩م، ووزع رواتب الـ «رشن» على السپاهية، وفي الخامس والعشرين من شوال، وجُهت وظيفة كتابتنا بلا «جرم وبلا سبب» ارتكبته؛ بموجب خطٍّ همايوني إلى السيد المعروف باسم «إبراهيم» المترقّي حديثًا. عجبًا نال حديث العهد للمنصب الذي وصلت إليه خلال مدة عمري «الحكم لله»، صار نظامُ الدّولة في وضع جميل باختيار هذه الأوضاع المتنوعة غير اللّائقة. ووقعت الخزينة العامرة في ضائقةٍ مستمرّة. وظلّ علماءُ الدنيا وفلاسفة العصر حيارى ومذهولين.

(ظهورُ الجلالي في سنجاق «كيغي»)

في أواخر شوّال من هذه السنة المذكورة، قام شخصٌ كريهُ المنظر من الأكراد الأراذل يدْعَى «إسماعيل» الذي هو مِن أولاد الشاه «طهماسب» مع اثنين أقباح ودناة باسم وزيريه، بجمْع جمارة من بعض القزلباش الأوباش أولاد الحرام الدّناة

واجبي القتل أمثالهم، في سنجاق «كيغي»، وبحجّة واهية، أحدثوا ضجيجًا داخل المملكة، ووفقًا لنفْس الحجّة الواهية للملاعين فاسدي الاعتقاد، سطوا على أرزاق وأمتعة الناس، فشبّ أميرُ السّنجاق والسپاهية والرّعايا من سُباتهم، وقالوا: «ينبغي أن نقبض عليهم، ونأسرهم»، وبينما كانوا يقذفون عليهم السّهام، ويطلقون البنادق، ويصيحون «هاي هوي» بآلاتِ الحرب؛ هجم أميرُ السّنجاق المعروف باسم «فلان» عليهم بتهوّرٍ وعدمِ تدبير، وشاع الخبرُ بأنّه هلك بالقضاء الفجائي، وقالوا جاء ابن الشاه، واجتمع لصَوصُ المملكة؛ فلمّا أُحيط «فرهاد پاشا» الموجود في «أرضروم» خبرًا بذلك، قال: «ظهرَ الجلالي، فلتتداركوا الأمر. فقد قُتل أميرُ السّنجاق»، ولمّا وصلت الأخبار المُتواترة بأنّه «وصل الحرامي شاه إسماعيل وأتباعه للهجوم، وأرخى السكير المذكور عنانَ الجواد، وصار هناك هلاك»، صدر الأمرُ لأمير أمراء أرضروم «خضر شاه» بالحمْل بالهجوم بأمرائه وزعمائه وسپاهيته على «جلالي شاه أوغلو»، فأعدّ جند السپاهية، والينى جري والمدفعية، والطوبجية، وسائقي عربات المدافع والجاهزون من خدم الباب المتواجدين في المشتى؛ مدافع الـ «ضربوزان»، وعندما وصلوا إليهم، «بعونه تعالى» حاصروا الملاعين الأوباش في موضع مليء بالحجارة داخل البوغار، وجعلوهم خاضعينَ لهم، وأحاطوا أطرافهم وجوانبهم، وأسروا القبيحيْن الدنيئين اللّذيْن كانا وزيريْه المشيرين، وأحضروهم أمامَ السّردار، وجعلوهم يقرّون، وعندما علمت أكاذيبهم؛ تمّ عقابُهم بأقبح صورة، فمُدّدوا على الإبل، ونالوا الجزاء بالقسطاس.

(عرضُ حضرة القائد بخروج وليّ العهد «حيدر ميرزا» مِن قبل «عباس ميرزا»، وقصده المجيء لمركز الدّولة)

في غرّة محرم سنة ٩٩٨هـ/ نوفمبر ١٥٨٩م، أرسل القائد الأكرم حضرة «فرهاد پاشا» العروض إلى السدّة التي مدارُها الدّولة (الآستانة)؛ حيث أعلم وعرض قائلًا: «أطاح عباس ميرزا ابن الشاه خدابنده والي مملكة الشرق؛ بوالده من عرش القزلباش، وجلس هوَ على عرش الحُكم في «قزوين». ولمّا جاءت خطاباتُه لجانب

القائد الأكرم سابقًا، نصُّها: «ينبغي أن نرسل حمزة ميرزا بمربية (لالا) إلى آستانة الدولة، وليقطع النزاع والخصومةُ الموجودة بيننا، وعليك أنْ تُعلم إخلاصنا وعبوديتنا لحضرة السلطان حامي العالم. والآن جاءَ خان تتار الأوزبك «عبد الله خان» إلى ولاية «خراسان»، و«دهري»، و«مشهد». ووصل، وعندما دفعنا شرّه وفسادَه، ينبغي علينا إرسال رسالة، وولي عهدنا مع سفير ذي حيثية إلى الآستانة»؛ أرْسِلَ من جانب القائد أيضًا إلى قزوين خطابٌ مصحوبٌ بالمودّة، وحقر الذواقة «ولي آغا» بالانتظار في «أصفهان»، «وقزوين» مدّةً تجاوزت عامًا، وبعد أن تحمّل شدائد كثيرة من أيدي الملاعين، عاد «عباس ميرزا» من تتار الأوزبك خائبًا، وعندما جاء إلى «قزوين»، لم يمكث فيها، وسلم لحاكم «أردبيل» «أوستاجالو مهدي قوليخان»، «حيدر ميرزا» بمربيه ودايته والرسالة، ورافقه معًا سلطانان والطبيبُ الحاذق المعروف باسم «أبو طالب»، وخرجوا سويًّا من «قزوين»، وعند المنزل الثاني، افترقَ عنهم ولي آغا من أجل الإخبار بالجواب على الرّسالة التي أرسل بها وجاء. وأنّه مؤكّد تحقيق الصلح والصلاح بيننا، وإن شاء الله تعالى سوف يأتي إلى «أرضروم»، وسينتظر لدخوله، وبعد أن يتمّ إكرامُ الضيف العزيز الوجود بعزّة الضيافة قدر الطّاقة سيغبّر هؤلاء الخدم بموجب الإذن الهمايوني الوجْهَ للسّدة التي مدارها الدولة، وسنكون عازمين الوصول للآستانة مع «حيدر ميرزا»، والسفير «مهدي قوليخان». في محرم سنة ٩٩٨هـ/ نوفمبر ١٥٨٩م.

(توجيهُ حكم منصبِ الوزارة والإحسان بالسيفِ والقفطان على أمير أمراء مصر «أويس پاشا» عندما هجمتْ عليه طائفةُ الخدم في ديار مصر، وعرض ذلك على مركز الدولة)

في أواسطِ السّنة المرقومة، عندما جاءت الأخبارُ الموحشة بالرسائل من ديار مصر إلى مركز الدولة، أعلم وعرض على وقوعه بأنّه: «بحجّة واهية قامت طائفة الخدم على الاتّفاق بالعصيان، وهجموا على أميرِ الأمراء أويس پاشا مُطيلين اللسان بأنواع الشّتائم، ولمّا كانوا طائفةً متوحّشَة، لم يحفظوا شرفَ الدولة،

وهتكوا العرض، ولمّا قصدوا قتلَ أويس پاشا، لمْ يتجنّبوا حرمته، وبعدما ثاروا عليه دخلوا لحُرمةِ حرمه، ونهبوا أثوابَه وأمتعته. ولمّا قام الأمراءُ المحافظون على الإيالة لإخماد الفتنة، وتوسط أيضًا قاضي مصر (مصر قاضيسي) «منلا أحمد أفندي»، ودفعوا الفتنة والفساد، وقاموا بالصّلح والصّلاح بين طائفة الخدم وأمير الأمراء؛ تمّ القضاءُ على الفتنة. وأصبحت سببًا لترقيتِه في حضور السّلطان صاحب العظمة، وأُحسن عليه بالسيف المرصّع والخِلْعَة الفاخرة، وحُرّر حكم ولقب منصب الوزارة له، وعُيّن له ذواقته «جاشنكير آغا»، وعندئذ أُرسل الحكمُ الشّريف إليه بذلك.

(إحسانُ الوزير العظم «سنان پاشا» على هذا الفقير (سلانيكي) بخدمة القيام بضيافةِ حيدر ميرزا قائلًا: «سيأتي حيدر ميرزا ابن الشّاه للآستانة»)

في شهر صفَر من السّنة المرقومة، لمّا تفضّل حضرة الوزير الأعظم «سنان پاشا» بالتّنبيه على خادمه هذا (سلانيكي) بالآتي: «سيأتي ابنُ شاه العجم مع سفيره الموقر من ديارِ الشّرق إلى مركز الدولة، وسيرافقه معًا مخادعو القزلباش المخادعون الزّائدون عن ألفَ شخْص، فقد قصدوا طلبَ الصّلح والصلاح بوقار عظيم. وليس هناك وظيفةٌ تشغلك، فلا تبقى بلا عمل، وعندما يأتي عليك بإخلاء سراي المرحوم «برتو پاشا» من أجل إقامته، وإصلاح الأماكن المحتاجة إلى ترميم، ولتوفر الماء والطّعام به، وبمضمون كلام (أكرموا الضيف ولو كان كافرًا)، لا تغفل عن العمل، صل، وكنْ دفتردارًا. وابحثِ الأمرَ مع «أمير أفندي»، ولتعطى آقجة المصاريف اللّازمة في المصالح المتعلقة بأمور الضيافة.

وبقدْر ما هو يناسبُ شرفَ السّلطنة، وبالنّظر إلى الأعلى والأوسط والأدنى من الأثواب التي ستفرش بها الحجرات، فليكن فرشُها طبقًا لذلك، ولتحذر من الخسارة والإسراف، ولتكنْ مصاريفُ المأكولات وسائر الإخراجات اللازمة من مصاريف الخاصّة، ومن أمين المطبخ وأمين الشّعير؛ بمعرفتك»، شُرع في الخدمة بموجب الفرمانِ العالي. وفُرشت للسّفير القادم «مهدي قوليخان» حجرتان بفرش مجهّز،

وفُرشت حجرتان «خاصّ الخاصّ» لحيدر ميرزا، وفُرشت حجرة للدّاية، وحجرة للسّلطانيْن، وفُرشت حجرةٌ أيضًا للطبيبِ الحاذق المعروف باسم «أبو طالب»، وفُرشت أيضًا قاعةُ الدّيوان.

خلاصةُ القول، فُرشت إحدى عشرة حجرة ذات باب مزيّن، وفي اليوم الواحد والعشرين من ربيع الأول، قام الضّيفُ من يندك قاصدًا «استانبول»، ومن أجل مجيئه لـ «آسكدار»، تزيّن في ذلك اليوم الجيشُ الذي لا يحصَى على أعلى درجة، وخرج لاستقبال ولي العهد القادم، واقتربَ نحو الضّيف أمير أمراء الأناضولي حضرة «محمد پاشا زاده حسن پاشا» واستقبله. ولمّا كانت الكثرة والازدحامُ على أعلى درجة، استمرّت الضّيافة السلطانية حتّى المساء. وفي الحال أُوقدت المشاعل في قاعة الدّيوان، وزُيّن بأواني الشّموع، وقُدّم الخوشاف والحلوى ذات السكر، وبُذلت النعم الوفيرة، وأحْسن بالأموال أكياسًا أكياسًا، ورحلوا من «آسكدار» بصعوبة قبل موعدهم، واصطفّ الموكب السّلطاني جانبًا على الأقدام، وامتلأت جميع الدكاكين والأسواق برجال ونساء صغار وكبار «استانبول»، ولمّا تأخّروا بسبب الفرنجة والتره؛ ركبوا للسّفن الـ «قادرغه»، وعندما جاءوا هنا حلّ المساء، ولم تستطع السيدات المتدللات اللّاتي لا يريْنَ الشّمس مِن الوصول لمنازلهنّ حتى وقت العشاء، ووصلن لمنازل مَعارفهنّ، فضايفهن. وبقيتْ كثيرٌ من النّساء أهل العرض في الطرقات، وكمْ من عشّاقهن وصلوا للسّرور والمتعةِ معهنّ، حتّى دخلت نساءٌ تتجاوز الخمسمائة لحمّام السّلطان «بايزيد»، وبقينَ فيه حتّى الصباح، حتّى أنّ كثيرًا من الرجال أساءوا الظنّ بزوجاتهم، فحدثَ بينهم فراق، ولم يقبلوهنّ، وطلّقوهن.

حاصلُ الكلام، تمّت الفسحةُ العظيمة، وأكثرُ الرجال لم يقبلوا الاستضافة في بيوتهم قائلين: «لدينا زوجةٌ في الداخل». عجبًا! أصبحت النساءُ الأحبّة شباعى. وفي تلك اللّيلة، ربُطت في سراي «كاربان» ألفٌ وخمسمائة رأسٍ من جياد السفير المذكور، وقُدّمت لها الأعلاف، وعُلّقت في «آسكدار» أيضًا ثلاثمائة وثلاثين رأسًا من سائر جِماله وبغاله بأحمالِهم وأثقالهم. وبناءً على هذا المنوال، من أجل مصاريف مطابخهم

كانت تُعطى مائة رأس خروف، ومائة كيلة سكر، ومائه قطعة من عسل الشمع، وتوابل وخضروات ودجاج وسمك يوميًّا؛ لكتبةِ المصاريف. وبُذل هذا المقدار من النّعم الوافرة التي لا حصرَ لها مائةَ مرّة، وبينما كانوا يصرفون المقدورَ في إكرام الضّيف كانت تُشاهد كفران النعمة لدى طائفة القزلباش بصورةٍ زائدة عن الحد، وتُرى ضلالاتُهم أقبح من أحوالِ جميع الكفرة، وأحضْر وليّ العهد المرقوم «حيدر ميرزا» إلى الدّيوان الهمايوني، وجلس على درجةٍ متأخّرة عن حضرة الصدر الأعظم ومتقدمة عن السّردار «فرهاد پاشا»، وبناءً على القانون جلس السفير «مهدي قوليخان» على كرسي مقابله، وأقيمت الضّيافةُ العالية لهم، وعندما ذهبوا لتغْبير الوجه لمقام عرش السلطنة، أحضر الجاشنكير «ولي آغا»- الذي وصل برسالة السردار الأكرم إلى «قزوين» وعاد- أحضر «حيدر ميرزا» وأرسله. وفي ذلك اليوم، أُحسن عليه من العطايا السّلطانية بألبسة من قماش «زيبا» اللّائق، وأيضًا خناجر مرصّعة بالذهب، وطوغ رأس مزيّن، وأُرسل لاستراحته حاملًا أحمالًا كثيرة من الآقجة. في ٢٢ ربيع الأولى سنة ٩٨٨هـ، وبهذه المناسبة قال شعراءُ العصر القصائدَ والتواريخ القيمة، ولمّا قام العساكرُ المنصورة بحملةِ الشّرق منذ مدّةٍ طويلة حدثت تبديلات وتغييرات مختلفة، ولمّا خرج جميعُ الناس للفسحة، انخدعَ حرمُ رجال كثيرة بالفرجة، وسافروا للخارج.

(تاريخ)

يا ميرزا يا رفيع القدر، وسعيد الحظّ/ فليُطِل عمرُ دولتك

عندما أقدمتَ على الصّلح والصّلاح/ وعندما جئت بإرادتِك من بلاد العجم إلى بلاد الرّوم

سألت العقل عن سنة التاريخ/ قال: نال الشاه مراده[١].

(١)

رفيع القدر ميرزاي جوانبخت	كه اولسون دولتي عمري زاده
صلاح صلحه اقدم ايتمكيحون	عجمدن رومه جون قليدي ارداه
سؤال ايتدم خرددن سال تاريخ	ديدي(يتدي مرده شاه زاده)[=٩٩٨هـ].

بناءً على مجيئه صغير السّن، قال متوصفة الرّوم تاريخ: «جاء خاني صغيري»(١).

وقالوا: «تاريخ آخر حيدر ابن الشاه»(٢).

(تعيينُ الذّواقة «ولي آغا» كتخدا البوّابين)

قبلَ مرور وقتٍ طويل، عُيّن كتخدا البوّابين في وظيفة الإسطبل الصغير، وعُزل أميرُ الإسطبل الصّغير «سنان آغا».

وأُحسن على الذّواقة «ولي آغا» القادم من قزوين مع وليّ العهد سويًّا بوظيفة كتخدا البوّابين (قبوجيلر كتخدالغي) المحلولة. في أواسط ربيع الآخر سنة ٩٩٨هـ.

(صدورُ الفرمان بجمع أولاد العجم بموجبِ القانون)

توجّه ضابطٌ من الأعيان وأهلِ الإنصاف من فرقة الينى جري مع سائقي جند الينى جري بموجب القانونِ إلى الروميلي والأناضول لجمْع أولاد العجم للالتحاق بالخدمة في الأوجاقات، وذلك طبقًا للعاداتِ العثمانية القديمة، وجمعوا من رعايا المملكة أولادهم المؤهّلين للخدمة، وبينما اعتادوا تلقّي تعاليم الإسلام، ونيْل ثواب الغزو والجِهاد، ظهر ظلمُ وجوْر حكّام العصر على خدمةِ جمع أولاد العجم، وقبلوا رشاوى بصورةٍ غير معقولة باسْم جائزة، وسلّطوا نهّابيهم وطمّاعيهم على رعايا المملكة كما تهجمُ الذّئاب على قطيع الأغنام، ونهبوا أموالَ الرعايا الأغنياء بصورة لا تصدق، وهدموا أماكنَ ومساكن الفقراء، وأخذوا أولادَهم، وبسبب هذا الأسلوب دخل الأجانب لمعظم أوجاقات الينى جري، وقُيّدت أسماء اليهود والأقباط والروس، والجركس، والأتراكَ، والأراذل، وأولاد الحرام، وقبضوا الأموالَ الكثيرة، وبسبب هذا امتلأت الدنيا بالفسادِ والظلم، وكثرت البدعُ السيئة تدريجيًّا، وعندما رُفعت العرضحالات إلى البلاط العالي؛ صدر فرمانٌ بعزل آغا اليكي جرى «محمود آغا»، «وكتخدا بك» وأصبح أمير العلم (مير علم) «ساعتجي حسن آغا» آغا اليكي جرى،

(١) خانم قفاجم كندي [= ٩٩٨هـ].

(٢) شاه اوغلي حيدري [= ٩٩٨هـ].

وتدرّج في الترقيات بين الآغوات، وأصبح رئيس البوابين «فودر آغا» أمير العلم.

وصار «محمود آغا» المرقوم ملقّبًا بلقب «آبوستول»، ويُطلقون لقب أبوستول في اللغة السّريانية على عالم الغيْب كالمنجّم والرمّال والكاهن؛ فجميعهم واحد.

(وقوعُ حريق في استانبول)

صدرَ الأمرُ بأن تُحصّل أموالٌ زائدة من الرعايا، وأن يُعزل أكثر المكلفين بخدمة جمْع أولاد العجم، والتّحقيق معهم، ولم يكنْ قدوم ساعتجي حسن آغا لأوجاق الينى جري لائقًا، فعندما جاءَ وقع حريقٌ بشكل أحاديّ ومتعاقب، واحترقت محال السروجية الموجودة في سوق «قره مان»، وبعدها احترق أيضًا سوقُ السّروج، وبسبب هذا طُرد «محمود آغا» المعزول أثناءَ الحريق الواقع؛ طُرد من المدينة خارجًا إلى مزرعته الواقعة في القرية المعروفة باسم «آزادلو» بسبب أنّ لديه تدخّلًا في هذا الحريق.

(الإحسانُ بإمارات الأمراء)

كان المرحومُ «محمد پاشا زاده حسن پاشا» قد عُيّن أمير أمراء الأناضولي بدلًا من «حسن پاشا» الذي عُزل أثناءَ تولّيه وظيفة أمير أمراء الأناضولي سابقًا، والذي صدر فرمانٌ بالإحسان عليه بإمارة أمراء «شهرزور»، ولمّا اختار «حسن پاشا» الذّهاب إلى «شهرزور» وقبلَ العزْل في استانبول؛ صدر فرمانٌ بأن يصبح ابن شقيق حضرة الصّدر الأعظم «سنان پاشا» وأمير قسطموني «محمود بك» أمير أمراء «شهرزور»، وصدرَ فرمانٌ أيضًا بالإحسان على المرحوم «حسين پاشا زاده محمود پاشا» بلواء قسطموني بطريق ترقيته.

(تعيينُ «تذكرجي زاده محمود أفندي» دفتردار مصر)

عندما تمّت مصادرةُ أموال (فلورى) «تذكرجي زاده محمود أفندي» الزائدة عن مائة ألف، الذي عُزل من وظيفة دفتردار «حلب» من قبل، والذي فتّشه كلّ من «برهان الدين أفندي» «وساعتجي حسن آغا»، ووصلت لخزينة القصر؛ صدرَ إليه الحكمُ الشّريف المفصّل، نصُّه: «عليك أن تتولّى وظيفة دفتردار الديار المصرية من

«يحيى أفندي»، وعليك تحميلُ العساكر ولوازمهم على أربع سفن «قادرغه» همايونية من ولاية مصر إلى «أويس باشا زاده محمد باشا»، وبموجبَ الإحسان عليك بمنصب القائد، عليكَ تلقينُ الجزاء بالقسطاس للأعداء العصاة في تلك الناحية».

وأرسل الحكمُ الشّريف مع الدفتر دار أفندي في أواسط جمادى الأولى سنة ٩٩٨ هـ/ مارس ١٥٩٠م.

(وفاةُ المرحومة «سياوش باشا سلطاني»)

في شعبان من السّنة المرقومة، ولدتْ فجأة ابنةٌ لحضرة «سلطان» زوجة «سياوش باشا»، وفي اليوم الثّامن من عمر ابنتها توفّيت. وبعد يوم لم تكن حضرة «سلطان» قابلة للعلاج من ذلك المرَض، وكتبت رسالةَ توصية من أجل تنفيذ جميع وصاياها، كلّ في مكانها، وودّعت لأولادها الكرام وسائر أقربائها ومتعلقاتها، وتركت الحسرة في القلوب، وسارت متبخترةً إلى روضة الرضوان. ولم يبقَ شخصٌ غير باكٍ على هذه المُصيبة العظمى. ودُفنت في قبرِ والدها السّلطان «سليم خان» رحمهم الله، وتمّ بناءُ مدرسةٍ عالية بجوار السراي المعَمور للمرحوم، وصدر فرمانٌ بتقديم الترقيات والعزاء من قِبَل السّلطنة للأولاد الكرام نقدًا من حاصل أموال الجمرك بموجب القانون.

(استشهادُ «استانكويلي أحمد باشا»، وعصيانُ الجلالي، وقتلُه)

بينما كان «استانكويلي أحمد باشا» المعروف بين جاويشية السدة السعيدة من قبل، والمترقّي بمنصب أمير أمراء، والمشهور بالشّجاعة بين أمراء الأمراء، أمير أمراء تونس الباقي؛ في مهمّة حراسة ولاية «طرابلس غرب»، ادّعَى شخصٌ عاص من أهل الفساد السلطنةَ قائلًا: «أنا كتخدا المهدي». وعندما وصل حضرةُ القبطان «حسن باشا» بالأسطول الهمايوني من أجل إخمادِ فتنة العوام والهوام، قضى على أكثر أتباعه، وفرّقهم. وعندما رحلَ الأسطولُ الهمايوني ثار اللعينُ المذكور «يحيى بن يحيى» بجماعةٍ على المومأ إليه أمير أمراء تونس «استانكويلي أحمد باشا»، وبينما كان الباشا المذكور أيضًا جاهزًا بأتباعه المعتمدين للانتقام من عدوّ الدين المسلح والمجهز، بقضاءٍ إلهي

لمست النّيرانُ لمخزن المازوت، وعندما استشهد الباشا المذكور مع أتْباعه، أحكم عساكرُ الحدود المنصورة قبضتَهم على العدوّ الدنيء الأفعال، المتحد، وبعونه تعالى لّما أصبح الملاعين المذكورون منهزمين بعد الهجوم الشامل الذي قاموا به؛ تمكّنوا من إلحاق الخسائر بالذين لحقوا بهم، وأسَرُوا الخبيث قائدهم، وفي الحالِ سلخوا جلْدَه من جسده، وجهّزوا السفينة الـ «قالتيبة»، وأعلموا مركز الدّولة بالأحوال التي وقعت في بحر المغرب.

«الحمدُ لله»، خلاصةُ القول: ينبغي أن يأتي شخصٌ شريف مثل «أحمد باشا» للمملكة المرقومة. واحسرتاه. وصدر فرمانٌ بالإحسان على «أويس باشا زاده محمد باشا» بإمارة أمراء طرابلس بمنصب السردارية، وعُزل أمير الأمراء الموجود عليها. في أواخر رمضان الشريف سنة ٩٩٨هـ/ يوليو ١٥٩٠م.

(مجيء «يحيى» كتخدا «المهدي»)

صلبَ جسدُ المدعو يحيى كتخدا المهدي القادم من ديار المغرب، بطيلسانه، على عمودٍ في الموضع الذي كان مكانَ تنجيم من قبل، الواقع في حي السلطان «بايزيد» أيامًا كثيرة، وشاهده رعايا الدّولة في التاريخ المرقوم.

(هجومُ جيش الحدودِ على قائد القزلباش الذي حمل بالهجوم على «كنجه»)

عندما جاء اللّعينُ المشهور باسم «كلب علي» الذي هو مِن مرتدّي جيش القزلباش النّاشرين الكفر؛ لجانب القائد الذي شعارُه الظفر الذي أوصله إلى عتبة الدّولة سابقًا، نال الشّرفَ برتبة سنجاق، فلم يقنعْ بها، ثمّ وجّهت إلى المذكور وظيفة أمير أمراء «كنجه وقره باغ»، فسعد بها أيامًا كثيرة، لكنّه كان بطلًا وشجاعًا ظالمًا، بلا دين. وفي ذلك الوقت أحضر حضرةُ القائد الأكرم، وليّ العهد «حيدر ميرزا» إلى مركز الدولة، وبينما تولّى وظيفة أمين المهالك، أظهر «كلب علي» المذكور الخبائث الباطنة المفطون عليها، واتّحد مع اللّعين المعروف باسم «زياد أوغلو محمد خان» الذي كان حاكمَ «كنجه» سابقًا، وجمع عددًا من القزلباش الذين كانوا بقية السيوف الناجين من الحرب، وأمرهم بمحاصرةِ قلعة «كنجه»، وبينما كانوا في وطيس المعركة والجدال

والحرب والقتال؛ حمل عساكرُ وأمراءُ أمراء وأبطال الحدود المنصورة الموجودين في الأطراف والنواحي متّفقين بالهجوم على عسكر القزلباش من موْضع لا يأتي لخيالهم أي مِن خلفهم، ولحقوا بهم من الموْضِع الذي لم يخطرْ ببالهم قط، واخترق «دلي خضر باشا» مع الأمراء وعساكر السپاهية الذين ملاذُهم الظفر، جيوش القزلباش، وأتمّوا مهمّاتهم مع أبطال الحرب صائحين «هاي هوي».

وهكذا انهزم «زياد أوغلي» وأسِرَ بصعوبة متّجهًا مع بعض الكلاب نحو «كلب علي»، والتجأ لمملكة «السكندرة» الخائن خان «لوند»، ومر «كلب علي» أيضًا مع بعض المَلاعين أمام «قزاق خان» بجوار قلعة «لوري» فأسَرَه بغتة، وأرسله مع اللعين المعروف باسم «بيزار أرسلان» عند الشاه عباس، وعندما وصل هناك، لم يلقَ اهتمام الشاه صاحب الكرم، وبالضّرورة أكرمه، ووقّره، وأحسن عليه بالخلعة قائلًا: «ينبغي مجازاة كلّ شخصٍ ارتكب المعصية بالقسطاس». هكذا في إطار العهد والأمان حتى يكونوا عبرةً لغيرهم، وسلّمه الرسالة، ولمّا تشفع له أرسله إلى «لوري»، وعندما وصلها لم يسترحْ فيها كما كان، وقام خدمُ «تومانس، وتفليس» وذئاب المملكة بعمل حيلةٍ «لكلب علي»، فأسروه مُنتهزين الفرصة، وأوصلوه لمركز الدّولة مقيدًا. وعندما جاء هنا منحه السّلطانُ الأمان قائلًا: «فليقابل حضرة القائد الأكرم، لرغبة الوزير الأعظم «سنان باشا». وخلال بضعة أيام أُطلقَ سراحُه، وفجأة صدر فرمان بحبسه، وبعد ذلك لمّا عُلم ضلالُه وكذبه، تمّ صلبُه في سوق السمك سنة ٩٩٨هـ/ ١٥٩٠م.

(عزلُ وتنصيب الدفترداريّة)

وبعد ذلك، في شوال السنة المذكورة، صدر فرمانٌ بعزل دفتردار الأناضولي «مصطفي چلبي أفندي» ودفتردار الشقّ الثاني «دلبند زاده محمود چلبي» بلا سبب. وتعيينُ أمين المدينة «كاتب محمود بك أفندي» دفتردار الشّق الثاني، وأيضًا تعيين «محمود أفندي» المعزول دفتر دار الأناضول، والإحسان على «مصطفي جاوش» الذي تنازل عن وظيفته أمين غلطه بوظيفة أمين المدينة.

(توجيهُ وظائفِ قاضي «أدرنة، وبروسة»)

على أثر اشتعال حريق هائل في اسْتانبول المحروسة، حُكي في اليوم التالي بأنه انْهارت الجَدرانُ فوق بعضِ المسلمين وقُدّرت لهم الشهادة. وعُزل المرحوم «أبو السعود زاده مصطفي چلبي» من منصب قاضي بروسه، وعُين «صنع الله أفندي» الذي هو في مدرسة «والده سلطان»؛ قاضي بروسه، وعُزل «خواجه عطا الله أفندي، زاده شمس أفندي» من منصب قاضي «أدرنة»، وأصبح «بوستان أفندي زاده مولانا مصطفي أفندي» شقيق قاضي الشام مفتى أفندي؛ قاضيًا مكانه.

(حبسُ القضاةِ في الـ «يدي قله»، وعزلُ صدر الرّوميلي «زكريا أفندي»)

بموجب التّنبيه الصّارم على قضاةِ الأطراف في الأوامر والأحكام المتعلقة بالأموال الميرية المتوجّهة لجانب الروميلي، وإبلاغهم بـ: «عليكم أن تمنحوا الإذن للجاويشية وسائرِ الموكلين المتوجّهين لتحصيل الأموال، وينبغي عليكم ألّا تحصّلوا الأموال من الرَّعايا»، اجتهد أعيانُ القضاة من أجل تحقيق منافعهم الشخصية، وبسبب عدم سماحِهم واهتمامهم بالمتوجّهين لتحصيل الأموال؛ لم يحصلوا الإرساليات في ميعادها ولم يرسلوا الأموالَ لمركز الدّولة، وعندما نتجَ عن هذا الوقوعُ في ضائقة مالية، سُلّم القضاة المانعون لتحصيل الأموال ليَدِ الجاويشية، وصُلبوا، وعندئذ حرض القضاة، العلماءَ والشّعراء على المقاهي، ولمّا أحيط لجانب الوزير الأعظم علماً بأنّ الباعثين على إيقاظ الفتنة جاؤوا بجماعتهم عندَ حرم السلطان «محمد» قائلين: «ما هذه الإهانة للعلماء، فقد لحقت بنا جميعًا».

ثمّ اندسّ المدبّرون بينهم، وعندئذٍ في الحال تمّ القبضُ على سبعةٍ من القضاة بدون وجْه حقّ، وحُبسوا في الـ «يدي قله». وصدرَ فرمانٌ بعزل صدر الروم «زكريا أفندي» وتعيينِ صدر الأناضولي «قره چلبي زاده» صدر الروم، وصدر فرمانٌ بالإحسان على قاضي استانبول «سنان أفندي زاده على أفندي» بوظيفة صدر الأناضولي، وصدر فرمانٌ بالإنعام على دفتر دار «بروسة» السابق «جوي زاده أوغلي مولانا علي چلبي» بمنصبِ قاضي استانبول. في شوال سنة ٩٩٨هـ/ أغسطس ١٥٩٠م.

(استشهادُ أمير أمراء «بودين» «فرهاد پاشا»)

في أواخرِ ذي القعدة جاءت أخبار حدود بودين، نصُّها: لم يتوقّف قطاع الطرق وعساكرُ اللوندات المتوطنون في تلك الأماكن؛ عن الخبائث والخيانة الموصوفة بصفةِ التّنكر لوليّ النعم على الدوام، والآن بسبب القحط والغلاء ثار أيضًا فيلق «بودين، وبشته» متّفقين، وهجموا على أمير الأمراء «غازي فرهاد پاشا»، وبعد أن تسلّموا رواتبَ ستّة أشهر كاملة بعدمِ حياء وسفالة شديدين، طلبوا أيضًا قسطًا من الأموال من الدفتردار «بالي أفنديَ»، وهدموا عرض وشرف السّلطنة، وقتلوا الغازي «فرهاد پاشا»، وهرب الدفتردار من المصيبة العظيمة، وخلص. وعندما أعلم هذا، صدر فرمانٌ بالإحسان على أمير أمراء طمشوار بوظيفة أمير أمراء بودين، وعلى «حسن پاشا» المعزول من الأناضول بوظيفة أمير أمراء طمشوار في التاريخ المرقوم المذكور.

(قتلُ الوزير «يوسف پاشا» في سراي خدمه فجأة)

بالتّقدير الرباني والقضاءِ الإلهي، عندما لزم أنْ يقوم «الوزير يوسف پاشا» الذي كانت منازلُه بالقرب من «قرق چشمه» بتأديبِ خدمة في معظم الأيام، زاد عن الحدّ في ترْبيتهم، وأنّه معلومٌ للنّاس أنّه كان على إفراط فيه.

وذاتَ ليلة قرّر فجأةً عدمَ النوم في الحرم الداخلي، ونام في الخارج. ولّما كانت عادة غلمان الداخل النوبتجية الذين ضُربوا بالعصا مرّات عديدة؛ الانتظارَ حتى ينام الباشا، أتمّ حضرة الباشا ورْدَه وذكْرَه بناءً على عادته، وعندما وصل للراحة في فراشه، قصدوا الخيانة، وقتله اثنان من الخدم الأقوياء بخنجرٍ حادّ وألحقوه بالشهداء- رحمه الله-. وتمّ دفنُه في حرم مسجد «رواني» بجوار منزلٍ المرحوم، وأنشئ فوقه قبره. في ذي القعدة سنة ٩٩٨هـ/ سبتمبر ١٥٩٠م. ولم يكن هناك خبرٌ أو علم لأحد عن جميع أتباعه، وفي وقت السّحر، أصبح معلومًا لديهم حيث فُتح الباب المحكم الغلق الذي يُفتح لناحية «قرق حشمه»، وفي الحال اختفى هذان الخادمان. ومنذ وقت السحر جاء

حضرةُ الوزير الأعظم «سنان پاشا» مع جميع حضرات الوزراء العظام، وحتى وقت الضّحى، تمّ التّنبيه على بوابات القلعة، وتمّ تقييدُ كتخداه وأغواته وسائر خدامه في سلاسل، وحبْسهم، وتمّت مجازاة أكثرهم دونَ وجْه حقّ، وأظهر آغا الينى جري «محمود آغا» الاهتمامَ الكثير في البحث عنهم، ولم يعثر عليهم. نهاية الأمر، تمّ العثورُ على هذيْن الخادمين القتلة مقتولين جرحى في أبراج «حصاريجة» الواقعة بالقرْب من «يكي باغجه»، وبقيَ العقلاء مذهولين وحيارى في هذا الخصوص قرابة أربعينَ يومًا بعد مقتل الوزير، وقيل إنّ هناك عِلْمًا لدى الأكابر في ذلك الأمر.

(عزلُ رئيس الديوان «حمزة بك»، وتعيينُ التذكرجي الأول «دال محمد چلبي» رئيسًا للديوان مكانه)

في أواخر شهر ذي القعدة من هذه السّنة اعتاد خضرة الصدر الأعظم «سنان پاشا» منذُ القدم أنْ يقول من قبيل المزاح لرئيس الدّيوان «حمزة بك»: «أنت لست متوقّفًا عن التّزوير والتلبيس دائمًا»، وفي هذه الأثناء أحُسن على حمزة بك بالتقاعد بموجب خطّ همايوني بسبب أنّه لجّ وعاندَ بخصوص إحدى الزعامات، ولمّا كان الحقّ في يد «حمزة بك»، استغنى عنها قائلًا: «ماذا تكون النتيجة من الرياسة بهذه الصورة» عندئذ عُزل، وعُيّن رئيس التذكرجيه «دال محمد چلبي» رئيسًا للديوان مكانه. في التاريخ المذكور. وقالوا هذا هو العزلُ الرابع «لحمزة بك» من رياسة الديوان، الحقّ، هو خادم قديمٌ للدولة العلية. وكان قد اعْتيد تكليفه بالخدمة في أمور الدولة، فهو سيأتي للخدمة مرّة أخرى.

(المجازاةُ للخائنين من كتبة الديوان)

عندما جاء حضرةُ الوزير الأعظم «سنان پاشا» لمنصب صدر الصدارة هذه المرة، رأى الخللَ والزّلل في مواضع كثيرة جدًّا من أمور الدولة، فبسبب تساهل حكام السّلطنة، ومجيء الأسافلِ غير ذوي الاستحقاق بالشّفاعة لهم عند الحكام، حرّر الكتبة الدّناة، سواء من كتبة الديوان العالي أم من كتبة المالية، البراءات والتذاكر المزوّرة،

وأصبحت الرسائلُ المختومة بالطغراء الشّريفة البيضاء المرسلة لحملة الشرق مِن أجل القائد تحتَ تصرّف الكتبة الخونة، وشوهد تداخلهم في أمور الدّولة مرادهم. فأظهر بالتجسّس بعض الكتبة الشجعان، الجسورين الذين مسحوا جميع الخطوط الهمايونية من الرسائل التي كُتبت من قبَل السلطان مرّة أخرى، وكتبوا فيها ما أرادوه، ولمّا عُلمت أحوال الذين أحدثوا التّلبيسات والتزويرات، أُلقي القبض عليهم؛ حيث تمّ القبضُ على أحد الكتبة الملقّب باسم «آج دوران»، والكاتِب المشهور «شمس أحمد»، وعندما تمّ تفتيشُهم، وظهرت خيانتُهم التي أرادوها، تمّ صلب المذكورين، وقطعت أيدي ستّة أشخاص من الكتبة واحدًا واحدًا، وأُرسل سبعة أشخاص منهم لأعمال التّجديف، وطُرِد بعض أشخاص منهم أيضًا من الديوان. «في أواسط ذي الحجة سنة ٩٩٨» هـ/ أكتوبر ١٥٩٠م.

(تعيينُ رئيس السّلحدارية أمير أمراء، وتدرّجُه في وظائف الأغوات)

ومرّة أخرى، في هذه الأثناء، أي في الشهر المذكور، صدر فرمانٌ بتعيين أمير أمراء كنجه؛ أمير أمراء «آرس»، وبالإحسان على رئيس السلحدارية (سلحدار باشي) «داود آغا» بوظيفةِ أمير أمراء «كنجه»، وصدر الأمرُ بالإنعام على «سليمان آغا» آغا العلوفجية اليسار برئاسة السلحدارية (سلحدار باشليق)، وبالإحسان على رئيس الجبه جيه «جوبان سليمان آغا» بوظيفة آغا عزباء اليسار، وصدر فرمانٌ أيضًا بالإحسان على «أحمد آغا» بوظيفة رئيس الجبه التي تولّاها سابقًا.

وأصبح كاتب الييني جري «إلياس چلبي» دفتردار ولاية قرمان. وصدر فرمانٌ بالإحسان على الكاتب «محمد أفندي» بوظيفة كاتب الييني جري (يكيجري كتابتي) في التاريخ المرقوم شهر محرم الحرام سنة ٩٩٩هـ/ أكتوبر ١٥٩٠م، أنّ عدد حروف رفيع الدرجات يكون تاريخًا ٩٩٩هـ.

(الغزلُ الذي كتبه سلانيكي على رقْعة، ورفعَه لحضرة السلطان حامي العالم)

لا تقف يا سلطاني. فبالظلم تهلك الدنيا

يهـــدم بيت الرعايـــا، الفقـــراء[1].

منذ أن حكم وولى الدّهر كلّ دون ودنيء

يعمر قلب الجاهل، ويخرب عقل العالم

لو ستدور عجلة الفلك معكوسة هكذا

نخاف أن تسقط قبة السماء فوق رؤوسنا

أيّها السلطان، لا تهتك العرض. ولا تكسر الخاطر

فأعتقد أنّ قلب المؤمن هو الذي يسقط العرش العالي

لا تأكل طحالي. كأنك تهدم هذا الفلك القديم

لا تقل يهدم منذ زمن مديد، فهو يهدم الآن[2].

(حبسُ أمين المدينة، وإطلاقُ سراحه)

في أوائل شهر محرم، صدر فرمانٌ بعزل أمين المدينة (شهر أميني) «مصطفي جاوش» بلا سبب، وبالإحسان على متولي «آيا صوفية» بوظيفة الأمانة المرقومة، وحُبس الـ «أمين أفندي» المعزول بكيدومكر أهل المنفعة. وفي اليوم السادس،

---

(١)

دورميوب بادشهم ظلم ايله دنيا يقيلور   دودمان فقرا بيت رعايا يقيلور.
دهره هر دون ودني حاكم اوله لي   قلب جاهل يابيلور خاطر دانا يقيلور

(٢)

بويله دونرسه اكر عكسنه بو جرخ فلك   قورقارز اوستوفره قبه مينا يقيلور
كسر عرض ايتمه شها يوف يره خاطر نقمه   قلب مؤمن كه صنه عرش معلا يقيلور
يقيلور ديو دلاغم يمه بو جرخ كهن   قتي چوقدن يقيلور بدر ديمه حالا يقيلور

بعونه تعالى تمّ عرضُ حقيقة حال على حضرة الوزير الأعظم، فأطلق سراحه، وأرسل الوزيرُ الأعظم إليه جوادَه وسرجه، وصار الأحبّة مسرورين بعودته لمنزله.

(سكونُ الطاعون)

في هذين الشّهرين المحرم وصفر، لمّا أبكى قضاء الطاعون على الكثيرين وأحزن أفئدةَ المسلمين بالفُرقة والحرقة، رقّ لدرجةٍ عظيمة، وامتلأ كلّ جانب بدخان الحسرة، وبعونه تعالى، بدأ في السّكون، وحلّ الشفاء بالمرضى» سنة ٩٩٩»هـ/ ١٥٩٠م.

(وفاةُ آغا أبناء السپاهية، وطردُ كاتبه «كاتب أبناء السپاهية»)

توفي آغا أبناء السپاهية «علي آغا» بسبب الطاعون، وصدر فرمانٌ بتعيين أحد المتفرقة المدعو «آشاغه عزبا» المتدرّج في وظائف سلك آغوات البلوك، آغا لفرقة أبناء السپاهية مكانه.

وبسبب وجود تسعة عشر كيسًا من الآقجة الميرية بأكملها مختومةً بخاتم الكاتب «إبراهيم» كاتب فرقة أبناء السپاهية عند «علي آغا» المتوفّى، تمّت مصادرتها، وصدر الأمرُ بعزل الكاتب «إبراهيم» من وظيفته بالتّهمة والخذلان، وربما بقطع يده وبالطرد من المدينة.

حاصلُ القول: أصبح مبتلًا بالضّرر. في ربيع الأول سنه ٩٩٩هـ/ ديسمبر ١٥٩٠م.

(ع)

فني المسببون للألم، الكلّ سقط[1].

وعندما نال هذا الفقيرُ كسير الجناح المغلوب على أمره (المقصود به سلانيكي) وظيفةَ كاتب فرقة السپاهية، ظهرَ بأيّ درجة كان قد أسْند إليه ما هو بريء منه. «حسبُنا الله ونعْمَ الوكيل»؛ تأكّدت طهارةُ ذيل ثوبي؛ وفي وقتٍ قليل لحق البلاء بالكاتب إبراهيم.

(١) با در كشان هر كه در افتاد وير افتاد.

(نظم)

دع أنت عملك السيئ للزمان فإن لزمانـــك أمر المنتقـــم[1].

(وفاةُ آغا «دار السعادة» (دار السعادة آغاسي) «محمد آغا»)

في أواخر ربيع الأوّل، عندما اضطرّ آغا دار السعادة محمد آغا للذهاب إلى منزله مجبورًا بسبب ألمٍ في معدته، تمّ نقله بالعربة، وما أنْ جاء لمنزله حتى سلم الروح، وفي اليوم التّالي لم ينعقدِ الديوانُ من أجل تشييع أركان الدّولة لجنازته، وذهب أركان الدّولة بجوار جنازته، وأدّوا الصلاة على روحه في حرم جامع المرحوم المغفور له السّلطان محمد، وتمّ دفنُه بجواره. وتمّ بيعُ جميع أملاكه القليل والكثير، وصدر الأمرُ بإلحاقها بالوقْف. وبسبب إنشائه للقلعة والحيّ الذي أسّسه في الموضع المعروف باسم «إسماعيل كجدى» الواقع على ساحل نهر «طونه»، والذي يعدّ من أعماله السيئة بحقّ وبغيْر حقّ، بطريق تقرّبه للسلطان؛ حزنَ الناسُ عليه، وذكروا التواريخ لوفاته.

(ع)

الخلاص من عالم ذلك البلاء الأسود تاريخ سنة ٩٩٩هـ[2]

(وفاةُ رئيس الجاويشية «خضر آغا»)

في الليلة الثّامنة من ربيع الآخر من السنة المرقومة، عزم رئيس الجاويشية «خضر آغا» فجأةً على الرّحيل لدار البقاء، وترك تسعةَ أولاد صبايا من ذكور وإناث، وعُين مكانه «قوچه حسين جاوش» من الجاويشية القدامى، رئيسًا للجاويشية (جاوش باشي)، وبسبب ضائقة الرّواتب تمّ أخذُ سبعين ألف من نقود المرحوم بطريق القرض من يد «قورد آغا» الوصيّ الذي اختاره المرحوم رئيس الجاويشية.

---

(١) تو بد كتنده خود را بروز كار سبار كه روز كار ترا جا كريست كينه كذار.

(٢) (ع) رفت آز عالم آن بلاي سياه سنة [٩٩٩هـ].

(عزلُ الـ «كتخدا بك» بسبب شغب طائفة اليني جري)

مرّة أخرى، في أواسط الشهر المذكور، لم يتوقف أجانبُ وقطاع طرق اليني جري عن إيقاع الظّلم والجور بالناس، وجاء الشكاةُ بالعرضحالات، وعندما أعلموا أحوال اليَني جري للآغا، أرسل الآغا رئيس البلوك (بلوك باشي) المعروف باسم «قره إسماعيل آغا» بخطابٍ صارم من أجل القبض عليهم للقضاء على شرهم، وذلك بموجب القانون، وبينما كان يُقال ينبغي أن يكون معلومًا ما فعلوه، رجموا منزل أحد رؤساء بلوك فرقة اليكيجري، وكسروا زجاجَه، قائلين: «إنّ التقييد والضرب بالسلاسل ليس عاداتنا وقانوننا»، عندئذ نجَا بصعوبة. وفي اليوم التالي، لم يتناول الشوربة في الدّيوان، ولمّا رآه رعايا البلوك صاحوا، وأرادوا حجّة للشغب، ولمّا مرّ الأراذلُ والأسافل على مقاطعته، لم يراعوا حرمةَ الديوان الهمايوني، وأظهر وكلاء الدّولة العجزَ في إخماد شغبهم، وعزل كتخدا اليني جري ورئيس البلوك (بلو كباشي)، وأصبح رئيس الزغرجية؛ «كتخدا بك»، وتدرج في سلك الوظائف بينهم.

(تبديلُ آغا الينى جري، وتعيينُ «خضر پاشا» وزيرًا)

في أواخر الشّهر المذكور، ألقت طائفةُ الينى جري الرسائل في «أورطه جامع»، وعندما عُلمَ بأنّ نيّتهم لم تكنْ خيرًا قائلين: «ينبغي ألّا يكون «آبو ستول» آغا علينا، فليخرجْ من بيننا بعشيرته، وكما هو معمولٌ به حتى الآن كما هو متبع في الدّولة فليصل وليأتِ غيره. وإلّا لا يكون خيرًا»؛ صدر فرمانٌ بتعيين أمير أمراء الأناضول الموجود في المشتى في «سلسترة» وزيرًا، وصدر فرمانٌ أيضًا بأن يصبح آغا الينى جري «حسن آغا» أميرَ أمراء، وبالإنعام على أمير الإسطبل الكبير «محمد آغا» بوظيفة آغا الينى جري. وصدر فرمانٌ أيضًا بالإحسان على رئيس البوابين «نوح آغا» بوظيفية أمير الإسطبل «في سلخ ربيع الآخر».

(توجيهُ الحكم الشريف)

أرْسلَ الحكمُ الشريف إلى الوزير «خضر پاشا»؛ حيث كان قد أصدر فرمان نصُه: «عليك بإحضار خراج حاكم «لهستان» الذي يأتي لمركز الدولة، ولو امتنعَ عن دفع الخَراج عليك ألّا تغادر ذلك المَوْضع». وكان قد أرسل الأمر الشّريف من قبل، بقصد زيادة خراج المقطوع القديم كاملًا.

(سرقةُ أموال كثيرة من الأموال المحفوظة في سوق المجوهرات في استانبول، ومجازاةُ السارقين)

في أوائل شهر جُمادى الأول، ذات صباح كان قد تمّ فتحُ بعض صناديق الأمانة الخاصّة بالبائعين في سوق المجوهرات (بدستاَن) القديم، فاستغاثوا الواحد تلو الآخر، وعندما قالوا: «ما حقيقةُ هذا الأمر، أجاب واحدٌ من بينهم أنّ هذا فعلُ شخص من الخارج، فعندما ذهبنا نحنُ لأداء الصلاة في يوم الجمعة، انتهز فرصة غيابنا، واختبأ في المخازن، وقام بفعلته». وعندما فتّشوا ما سرق؛ وجدوا أنّ المسروقَ ليس أقلّ من عشرين أو ثلاثين ألفًا من العُملة الذهبية والقروش، وقالوا: «لم يخرج السارق للخارج لا بدّ من تفتيش جميع المخازن والأدلبة»، وقام آغا الينى جري «محمد آغا» والضابط «رضوان جاوش» بغلَق السّوق لمدّة خمسة عشر يومًا، وبتفتيش جميع مخازن الـ «خواجه لر»، وأدْلبتهم، وكذلك بتفتيش الدلالين وكفلائهم، وقيدوا البائعين بالسلاسل، وعذّب جميعهم عذابًا شديدًا، وسقطتْ أمانة كلّ شخص لوسوسته وفكره، ولم يعدْ هناك أمن ولا أمان، ولّما لم يظهر أي خبر عن العثور عليها؛ جرى ما حدث على ألسنة الناس، وبعونه تعالى عندما فتّشوا مخزنَ الغلام الذي استأجره والواقع أسفل دكّان الأعجمي بائع المسْك والعنبر في باب الجواهرجية؛ وجدوا أكياسًا كثيرة فارغة، وتدفّقت العملات الذهبيةُ والفضية، «والشاهي» على أرض المخزن، ووضع عليها الحصير الكهنة والأشياء القديمة. وفي الحال، تمّ القبضُ على الأعجمي بائع المسك والغلام صاحب المخزن، فلم يلْقِ الافتراءَ والبهتان على أحد في حضور الـ «قاضي أفندي» والآغا، وأقرّ واعترف قائلًا: «إنّه تدبيري وتجهيزي بمفردي،

انتهزت الفرصة، وفعلتُ هذا، لا تظنّ في أحد سوءًا بغير حقّ، أنا فعلت هذا. إنّ مجازاة الغير ليس عدلًا».

وبينما كان «رضوان پاشا» يقول: «يلزم أنْ أقتلك بأشدّ العقاب»، قال حضرة السلطان صاحبُ العظمة: «ليحضروا الخائن، ينبغي أن أراه. أيّ شخص يكون هو؟». وعندما جاء الغلامُ أمام السلطان، توسّل قائلًا: «لأنّ ذنبي أصبح منظور النظر السلطاني، فليلطف بأنْ تكون المجازاةُ يسيرة». عندئذ صدرَ الأمرُ السلطاني بصلبه، وبعقابه بالقسطاس.

وبناءً على صدق واستقامةِ كلّ شخص، تسلّم أمواله الضائعة، وامتلكها. في جمادى الأولى سنة ٩٩٩هـ.

(تجهيزُ حضرة الوزير الأعظم «سنان پاشا» مشروع تدفيق بحيرة «ايار» في بحر «ازنكميد»)

قبلَ هذا، لمّا فُرضت على أهل استانبول المصروفات الزائدة بسبب مصاريف الحطب، وأصبحوا في ضائقةٍ مالية في أكثر الأوقات، استطاع المرحوم «قوجه معمار سنان آغا» والذمّي المشهور باسم «كرز نيقوله»؛ التّغلبَ على هذه الأزمة في عصر المرحوم والمغفور له السّلطان «سليمان»، وتمّ تقديرُ المسافة بين بحيرة «آياز» الواقعة على ساحل حي «صبانجه» وبين بحر «ايرنكميد» بمائة وعشرين ألف ذراع جميعها، وتمّ حفرها، وقرّروا إلحاقها بالخليج. وعندما قدّروا تدفيق المياه فيها كانت قد أهملتْ بسبب بعض الموانع. وحاليًا في هذه السنة المباركة، أمر حضرة الوزير الأعظم «سنان پاشا» بالرأي الصّائب بإحضار المعماري الذي هو مهندس العصر، وبسبب أنّه تمّ تقديرها وقياسُها من قبل، أمرَه ببذل الاهتمام الزائد، وبناءً على سهولة العملِ ويُسْره؛ ينبغي تدفيق بحيرة «صبانجة» المذكورة في بحر «ايزنكميد»، وشقّ أرض طولُها ستة آلاف ذراع من نهر «سقريه»، وأن يكون جاريًا للبحيرة. وعندما عُرض على مقام السّلطنة بأنّه تمّ تحديد ارتفاعها بالحساب الهندسي، وقياس جميع جوانبها، وبعونه تعالى تيسّر هذا العمل، وأصبح مؤكّدًا منفعتها للملكة من كلّ ناحية». تمّ أخذ كلّ من

أمراء الممالك المحروسة، وبعض سباهيتهم وجبه جياتهم بموجب الفرمان الهمايوني لحضرة خليفة وجه الأرض، وبعضهم جاء للخدمة بنفسه، وبحسن التّجهيز، جمعوا رجالًا كثيرين خلال عام، ومن أجل إتمام العمل، أصبحت الوسائل والأشياء مهيّأة، وكلّف ثلاثون ألف شخص من المهرة والعملة المؤهلين. وتمّ تعيين «محمد پاشا زاده حسن پاشا» بنفسه مكلّفًا بتحصيل الأموال مباشرة، وصدر فرمانٌ نصّه: «لتجهّز الجنود والحدادين المهرة، وسائر المصاريف المهمة ومؤنهم»، في ١٥ جمادى الأولى سنة ٩٩٩هـ/ فبراير ١٥٩١م.

(المجازاةُ بالقسطاس للذين قتلوا أميرَ أمراء «بودين» السابق «غازي فرهاد پاشا» وألحقوه بالشهداء)

قبلَ هذا، في شهر ذي القعدة سنة ٩٩٨هـ/ يوليو ١٥٩٠م، عصا رؤساء وأشرار ولاية «بودين»، وثاروا على أمير الأمراء «فرهاد پاشا»، وقتلوه، وكان قد أُرسل بموجب الحُكم الهمايوني كلّ مِن «مصطفي آغا» الذي كان من متفرقة رئيس الحجرة الخاصة سابقًا، و«آيدين زاده محمد جاوش» الذي هو مِن الأعيان، من أجل تفتيش القتلة ومجازاتهم والاقتصاص منهم، ولمّا وصلوا، وبذلوا جهدًا جهيدًا في العثور عليهم جميعًا في الولاية المذكورة كما ينبغي، تمّ صلبُ خمسة وثلاثين شخصًا من آغواتهم ورجالهم، وعُزل أيضًا سائر آغواتهم، ووجُهت وظائفهم للآغوات الشجعان مكانهم، ولم ينجُ المرتدّون، وأيضًا لم ينجُ الذين وصلوا منهم، ولجأوا للكفار، وأُرسلت أخبارهم بأنّ الملك قام بإعدامهم جميعًا، وقام بمجازاتهم. وأعلموها. في أواخر جمادى الآخر سنة ٩٩٩ هـ/ مارس ١٥٩١م.

(إرسالُ الأموال إلى أعيان الدّولة لبناء السفن من أجل الأسطول الهمايوني)

في هذه السنة، أمر حضرة خليفة وجه الأرض بنية خالصة بتجهيز إنشاء سفن الأسطول بنيّة الغزو الأكبر ضدّ عدوّ الدين، ونوى حضرةُ الصدر الأعظم «سنان پاشا» في سبيل الله على إنشاء سبْع سفن من نوع «قادرغه، وباشداره» بماله الخاص، وخُصّصت الأموال إلى كلَّ مِنَ القائد «فرهاد پاشا» أيضًا لإنشاء خمس سفن

«قادرغه»، والنّشانجي «محمد پاشا» ثلاث سفن «قادرغه»، ولخضر پاشا سفينتان «قادرغه»، ولأمير أمراء الروم ايلي، وأمير أمراء الأناضول روم ايلي بكلربكي، ولأمراء أمراء سائر الممالك المحروسة، ولأمراء السناجق، على مراتبهم، ومن أجل تسلم الأموال التي ستصرف لإنشاء السفن، صدر فرمانٌ بتسليمها إلى دفتردار الخزينة العامرة السابق «حسن چلبي»، وتسلّمها مع الكتاب في «آستانه» الوزير الأعظم، ووضَعَها في كيس، ومن أجل إنشاء السفن في الأطراف والنواحي منذ القدم، عهد إلى كلّ واحدٍ من الفرق المخصّصة إنشاء ثلاث سفن «قادرغه، و«ماونه لر»، وأرسل الرّجال المعتمدون، والرؤساء، والجاويشية المهرة المكلفون بتبليغ الأوامر، وأُرسلت الأحكام الشريفة الصارمة إلى رعايا الممالك المحروسة من أجل قطع أخشاب البناء، وتمّ البدء في صرف الأموال التي جُمعت بقلم الدفتردار المذكور «حسن أفندي»، وتمّ إنشاءُ السفن في السنة التالية، وأصبح حضرة الوزير الأعظم «سنان پاشا» قائدًا عليها، وشاع أنه- إن شاء الله- تأكّد عزمُه على غزو ممالك الكفار الملاعين، في سنة ٩٩٩هـ/ ١٥٩١م.

(صدورُ الفرمان عالي الشّأن، وتوجيهُ الأحكام، نصّها: «لتُحصل الأموال التي سُلمت للدّفتردار لإنشاء السفن من ضرائب «البقايا»[١])

وُجّهت دفاتر ضرائب «البقايا» والأحكام الشريفة مختومةً بطغراء الدفتردار لأيدي العمّال والملتزمين في الممالك المحروسة، نصّها: «ينبغي أن تحصلوا الأموال المذكورة التي بقيت في ذمّتكم، والتي لم تُحصّل، من ضرائب البقايا القديمة، حتى ينبغي أن تكون السّفن مُجهّزةً من بيت المال ولا يبقى هناك حقّ لأحد. في أواخر جمادى الآخر سنة ٩٩٩ هـ/ ١٥٩١م.

---

(١) ضرائب البقايا: الضرائب التي لم تحصل في نفس العام، وتبقى للعام الثاني.

(تجديدُ وظائف الـ «صدرين أفندي لر»، قاضي استانبول
«وأدرنة»، «والشام»، «وحلب»)

في شهر رجب من السنة المرقومة، وفي نصف الليل، صدرَ الخطّ الهمايوني من قبَل حضرةِ السّلطان حامي العالم إلى الوزير الأعظم «سنان پاشا»، يحوي في مفهومه الآتي: صدر فرمانٌ بعزل ثلاثة معًا هم: «صدر الروم» قره چلبي زاده حسام أفندي، والصّدر الأناضولي «سنان أفندي زاده علي چلبي أفندي»، وقاضي استانبول (استانبول قاضيسي) «جوي زاده دفتردار عبدي چلبي زاده علي چلبي»، وتعيين كلّ مِن صدر الروميلي السابق «زكريا أفندي»، وصدر الأناضولي السابق «عبد الباقي أفندي» صدريْن مكانهما. وأحسن على بوستان زاده مصلح الدين أفندي شقيق مفتى الأنام بوظيفة قاضي استانبول (استانبول قاضيلغي)، وأنْعِم على قاضي بروسه «صنع الله أفندي» بوظيفة قاضي أدرنة، وأحْسن على قاضي الشام السابق «معروف محمد أفندي» بوظيفة قاضي بروسه، وعلى قاضي حلب «قاف زاده فيض الله أفندي» بوظيفة قاضي الشام، وعلى مدرس السلطان سليمان، «قنالو زاده حسن چلبي» بوظيفة قاضي حلب.

وأحْسِن بوظيفة المدرّس المذكورة على «أسعد أفندي» مدرّس السلطان سليم، وابن معلم السّلطان سليمان.

(توجيهُ وظيفة رئيس البوابين، ووظيفة آغا الطوغانجية)

صدر فرمانٌ بالإحسان على «غضنفر آغا» رئيس مربّي الطيور بوظيفة رئيس بوابي أمير الإسطبل الكبير «نوح آغا»، وتدرّج في وظائف أغوات الطوغانجيه، وصدر فرمانٌ أيضًا بأن يصبح رئيس الصّيادين (آوجي باشي) الذي هو من المتفرقة بوظيفة رئيس مربّي الصقور. في أواخر رجب سنة ٩٩٩هـ/ مايو ١٥٩١م.

(قتلُ منصور أوغلي وغميصه)

بينما كان «منصور أوغلي» الذي هو من مشاهير الأمراء العرب الملتزمين بالأموال الكثيرة؛ قادمًا ذات سحرٍ بالجند والهيبة عندما كان أميرُ أمراء ولاية «طره بلوس شام»؛ فجأة تخبّأ له واحدٌ من أعدائه في أحد الأماكن، وأطلق عليه البندقية،

وجاء الخبر بأنّه قُتل. ومن قبْل عندما قيل بأنّ هناك علْمًا ومعرفة في قتله لدى الشخص المعروف باسم «غميصه» الذي هو مِن عرب البادية، والملتزم بأمور المالية بخمسمائة ألف ذهبية؛ ذهب رجلٌ لإحضاره، وبينما كان عدوّ غميصه في الطريق إليه قبل أن يصلَ إليه الرجل؛ قتله مع خمسة أشخاص، ولم يعلم، وبعدها، جاء خبر قتله؛ وصدر فرمانٌ بأن يصبح دفتردار مصر السابق «عثمان بك» دفتردار «طرابلس شام» بسنجاق «اريج ايل»، ومن أجل طلب الأموال المتعهّد بها، ينبغي عليه أن يحصل المال الملتزم به.

(عزلُ أمير أمراء الروميلي «ابوستول حسن باشا»، ونفيُه، وتدرّجُه في وظائف أمراء الأمراء)

في هذه الأثناء، أظهر حضرةُ سلطان وجه الأرض؛ الكرمَ، بينما كان أمير أمراء الرّوم ايلي «حسن باشا» المصاب بالغرور وكبر النّفس الأمارة، آغا اليكي جري؛ قَبِلَ بعض العطايا من أجل الإحسان بمراتب رؤساء الأوجاق، وبسبب أنه لم يفِ بمصالحهم وبقي خائبًا خاسرًا، رفع الشكاة العرضحالات للركاب الهمايوني لحضرة السّلطان صاحب العظمة، واشتكوه، وعندئذ تمّ القبضُ على كتخداه وكاتب ديوانه ورئيس بوّابيه، وكتخدا بوابيه الموجودين في خدمة صاحب الكبر المرقوم، وحبسوا بالسّطوة القاهرة السلطانية في «يكيحصار»[1].

وأمرَ أمير الأمراء المذكور «آبو ستول حسن پاشا» بكتابة بعض الأمور الواقعة، لسوء نيّته والملفّقة في حقّ الوزير الأعظم «سنان پاشا»، وأمر برفع العرضحالات، وفي هذه الأثناء عُزل رئيسُ البوّابين «مصطفى آغا» الموجود في مركز الدّولة، والذي كان كتخدا المذكور بينما كان «سنان پاشا» وزيرًا أعظمَ من قبْل، وصدر فرمانٌ بإلحاق زعامات «درويش بك» الموجود في خدمة وظيفة الكتخدا بالخواصّ الهمايوني. وفي هذه الأثناء، صدر فرمانٌ أيضًا بعزل أمير الأمراء المبغوض «حسن پاشا» أيضًا

(١) يكيحصار: قلعة في كرواتيا تقع جنوب شرق زغرب بنحو ٦٦ كم.

وبخروجه من المدينة، وبإقامته في «جولي»، وصدر فرمانٌ أيضًا بالإحسان على أمير أمراء الأناضول «محمد پاشا زاده حسن پاشا» بوظيفة أمير أمراء الروميلي، وصدر الأمرُ بالإنعام على أمير أمراء «قره مان» «محمد پاشا» بوظيفة أمير أمراء الأناضول، وصدر فرمانٌ بالإحسان على «خليل پاشا» المعزول من وظيفة أمير أمراء «البوسنة» والموجود ملازمًا للسلطان في مركز الدّولة بوظيفة أمير أمراء «قرة مان» (قره مان بكلر بكيلكي) في التاريخ المرقوم.

(حلول الربيع- نوروز-، وتبديلُ وظيفة قاضي «غلطه»)

بناءً على حلول الربيع (نوروز) في اليوم الخامس والعشرين من جمادى الأولى من السّنة المذكورة، تحوّلت نقطة الاعتدال لبرج الحمل. وعندما خرج حضرة السلطان حامي العالم إلى قصر السّلطان «بايزيد خان» الواقع على ساحل البحر، من أجل تفريح الطّبع وتشحيذ الخاطر؛ صاح أهالي «غلطه» المحروسة مستغيثين، وعندما رفعوا العرضحالات، واشتكوا من «عبد الكريم زاده قاضي عبد الله أفندي»، أمر السّلطان بعزله، وأمر بأن يعيّن مدرس الـ «ثمانية» «محيي الدين» صهر «راضية خاتون»؛ قاضيًا مكانه. وجاء «طوسون زاده» صهر مدرس السلطان من باب أدرنة إلى مدرسة «الصحن». وأمِر بأن يصبح «كفوي حسين أفندي» الذي هو من مدرسة «شاه خوبان خاتون» مدرسًا في مدرسة السلطان.

(توجيهُ وظائف قاضي الشام الشريف وقاضي الكعبة المكرمة)

في أوائل جمادى الآخرة، لمّا حلّ القحطُ والغلاء في الشام «دار السلام»؛ احتشد الناسُ وازدحموا، ولمّا عُرض بأنّهم شكوا قائلين: «إنّ قاضي الشام «حسن كتخدا زاده محمد أفندي» يرتشي؛ صدر الأمرُ بعزله.

وأصْدِر فرمانٌ بالإحسان على «محمد أفندي» المعروف بمعلم الوزير الأعظم «سنان پاشا»، والمتقاعد من وظيفة قاضي «ديار بكر» سابقًا بتسعين آقجة؛ بوظيفة قاضي الشام.

(توجيهُ وظيفة كاتب صحيفة الأحوال)

في جمادى الآخرة من السنة المرقومة، بينما كان «فضلي زاده محمد چلبي» الموجود في وظيفة كاتب الأحوال اليومية يباشرُ مهامّ وظيفته منذ أكثر من عشر سنوات، تمّ عزلُه بلا سبب، وأَحْسِنَ على «محمد بك» الذي كان كاتب فرقة السلحدارية، والمترقي من القصر؛ بالوظيفة مكانه.

(توجّه «سنان پاشا» لتفقّد مشروع تدفيق ماء نهر صقريه وبحيرة «صبانجه» في بحر «ايزنكميد»)

وفي هذه الأثناء لمّا عُرض على مقام العرش العالي بأنّه لزم أن يرى الوزير الأعظم «سنان پاشا» بنفسه رأيَ العين الخندقَ الذي يمكن حفره لتدفيق بحيرة «صبانجه» ونهر «صقريه» اللّذيْن سيجريان حتّى يصبّان في بحر «ايزنكميد»؛ صدر فرمانٌ بالإذن الهمايوني بركوب «سنان پاشا» السفينة الـ «باشداره» الخاصّة بالقبطان «حسن پاشا»، وأن يصطحب كلًّا مِن القائد فرهاد پاشا، وصدر الأناضولي «علي أفندي»، وكذلك من يقتضي ذهابه معهم من أركان الدولة. وفي يوم الثلاثاء، عندما قاموا من الديوان، توجّهوا إلى السفينة من نوع «جكدري»، وأصْدِر أمرٌ نصّه: «ليباشر الوزير النشانجي «محمد پاشا» مصالحَ المسلمين»، وابتُلي النشانجي «عبد الحميد پاشا» بمرض مزمن فترةً طويلة، ولمّا اشتدّ عليه المرض، كانت جميع المهامّ الشاقة الخاصة بالطّغراء الشّريفة مفوّضة لحضرة الوزير المومى إليه. في أواخر جمادى الآخر ٩٩٩هـ/ مارس ١٥٩١م.

ولمّا وصلوا لمكان المشروع، تفّقدوه تفصيلًا مع الأهالي وطائفة المعماريين، ومهندسي العالم خلالَ ثلاثة أيام، وقاسوه وقدّروه كاملًا وبأحسن صورة، وعندما عُرِضَ المشروعُ على مقام العرش الذي مصيره العالم، مفصّلًا ومشروحًا؛ وصلت أخبارٌ غريبة من لسانِ بعض أعيان الدّولة لسمع صاحب العظمة حضرة السلطان حامي العالم، وعندئذ تفضّل قائلًا: «إنّ تركَ هذا المشروع ضروريّ من أجل الدين والدّولة. ففقراءُ المملكة وضعفاء الرعية يواجهون المحنة والمشقة ولا ينبغي أن يكون

الكسبُ بأنواع الشّدائد والظلم. فإنشاءُ سفن الأسطول وإتمامها وإكمالها هو أهمّ مهمّاتِ السّلطنة، وبقدر ما يأتي من حطب حتى هذا الوقت، يكون العدل والإنصاف بناءً عليه واجبًا».

في الحقيقة، إنّ كلام الملوك هو ملوك الكلام رأي صائب ومن أجل بقاء العزة لحضرة الوزير الأعظم، تمّ تأخيرُ سعيه وقصده بهذه الصورة. وصار رأيه باطلًا في التاريخ المرقوم.

(قيامُ الكافر الذي أحْسِن عليه بوظيفةِ حاكم الأفلاق بقتْلِ النّفس، وحبسه)

قبلَ هذا، بينما كان واحدٌ من حكّام الأفلاق محبوسًا في قلعة «رودس» طبقًا للقانون القديم، في أواسط رجب (سنة ٩٩٩ هـ/ مايو ١٥٩١م) بناءً على شفاعة حضرة الوزير السّابق صهر السلطان إبراهيم باشا لحاكم الأفلاق من أجل الحصول على مقدارٍ من العطايا من أجل مصاريف المهمات اللازمة للوزارة واحتياجات السلطنة عالية الشّأن دامت عصمتها، تمّ إحضارُه من قلعة «ردوس»، وعندما وجهت إليه وظيفةُ حاكم الأفلاق، استقرض المذكور إبراهيم باشا الأموال من الكافر الملعون، وجاءَ الكافر، وارتدى قبّعتَه في الديوان العالي، وقدّم فروضَ الولاء والطاعة للسلطان، وبينما كان قاصدًا العودة لبلاده، قتل واحدًا أو اثنين من الكفرة الموجودين في معيّته بسبب سُكْره، وعندئذ أودِعَ الحبس في القلاع السبع (قله هفته)، وصدر فرمانٌ بتعيين حاكم آخر مكانه في التاريخ المرقوم.

(مجيء حاكم كنجه «زياد أوغلو» من قِبَل القزلباش لمركز الدولة، وعدم الاهتمام به، وحبسه)

حاربَ القائدُ الذي شعاره الظفر «فرهاد باشا» مع عسكر الإسلام ضدّ حاكم ولاية «كنجه وقره باغ» «زياد أوغلي محمد خان» على ساحل «آرس» من قبل، وهزم المذكور اللّعين بجيش القزلباش الموجود بجانبه، وبعد سلب جيش القزلباش ونهبه، جمع اللّعينُ (زياد أوغلو) كثيرًا من الأوباش وأولاد الحرام مرّة ثانية، وجاء،

وحاصر قلعةَ «كنجه»، وبعد الحرب بأيام كثيرة، في هذه المرّة نجا أيضًا بنفسه بصعوبة، ولما حانت الفرصةُ، وتحقّق النصرُ لأهل الإيمان، هرب اللعينُ المذكور، ولجأ إلى حاكم طائفة لوند «الكسندره» في مملكة «كورجستان»، وبعد أن اختفى عنده فترة طويلة، جاء للآستانة بخطاب أسلوبُه الشّجاعة، فلم يلقَ اعتبارًا من أحد، ولم ينلِ الاهْتمام، وبالضّرورة وصلَ لجانب «حيدر ميرزا» ابن الشاه، وأقام عنده، وبينما كان يعايشه، انتهزَ الفرصة، ولم يعرف قدرَ نفسه، وطمع في التّنصيب حاكمًا، ولمّا جاء للآستانة ورفعَ عرضحال للرّكاب الهمايوني بأنّه: «ينبغي أن ينال الرعايةَ مثل سائر المرتدين»؛ عَرَّفوُه قدرَ نفسه بالتأديب، وعندما أصبح صدقُه معلومًا، تمّ حبسه في القلاع السبع.

(بيت)

الكلب هو ذلك الطيب الذي كان طالبًا للخبز

كان عدوًّا للرّوح كما هي سيرته[١].

كان ظنّه وشكّه هكذا، فليقولوا: (ع) فم الكلب مخيط باللقمة[٢]. كان خنزيرًا لكفرانه النّعمة الشديد. في أواخر رجب سنة ٩٩٩هـ/ مايو١٥٩١م.

(حبسُ الملتزم «خضر آلاي بكي» الذي قامَ بتفتيش حضرة القائد «فرهاد پاشا»)

بناءً على عادةِ أعيان الدولة، رفع المفسد المعروف باسم «خضر آلاي بكي» العرضحالَ للركاب الهمايوني بخصوص حضرة القائد «فرهاد پاشا»، حيث كلّف بالالتزام بألف وأربعمائة حمل آقجة بناءً على تفتيش محاسبات الإيرادات والمصروفات التي وقعتْ في الحملة منذ أربع سنوات، وعين له بناءً على رغبته دفتر دار أرضروم «بسنجاق» ومتفرقة، وجاويشية.

---

(١) سك آن به كه خواهنده نان بود جو سيرش كنى دشمن جان بود.

(٢) (ع) دهن سك به لقمه دوخته به.

وبموجبِ الفرمان الشريف، بذل جهدًا جهيدًا وجدّ وسعَى، ولكن لم يستطع إظهار العملِ الموافق للشّرع الشريف والقانون المنيف بأيّ صورةٍ قط، بعدها صدر فرمان لرئيس البوابين «يمشجي حسن آغا» بحبسه زجرًا. في أواخر رجب (سنة٩٩٩هـ/ مايو١٥٩١م). وبعد ذالك، أُطلق سراحه، وشرع من جديد في توزيع أموال دفاتر «أرضروم» المحرّرة على السپاهية. ولكن في هذا الشهر، لمّا أصبح سببًا للنزاع مع السّپاهية أيضًا، قبل محرّر المتفرقة «حسين آغا» أعمالَ الدفتردارية بالتزام «خضر آلاي بكي» المذكور، وعندئذ صدر فرمانٌ بالإحسان على «حسين آغا» بتوزيع الدفاتر بتيماره الذي يديره

(توجيهُ مناصب القضاة)

في أواسط شهر رجب، صدر الأمرُ بعزل قاضي أسكدار «دوقه كين زاده عثمان أفندي»، وبالإحسان على «عبد الرحيم أفندي» المعزول من «سلانيك» بمنصب قاضي أسكدار. وصدر فرمان بتعيين «عثمان أفندي» المذكور قاضي الكعبة المكرمة، وصدرِ الأمرُ أيضًا بعزل قاضي «سلانيك» «محيي الدين أفندي» المعروف باسم «آغزي قره»، وأحْسِن على «طاش كوبري زاده كمال أفندي» الذي هو مِن مدرسة ولي العهد السلطان «محمد»؛ بالوظيفة مكانه. وأصبح «زيني أفندي» الذي هو من مدرسة الـ «ثمانية» مدرّسًا في مدرسة ولي العهد، وترقّى «صاري كرز زاده قايني» مدرس السّلطان «زال محمود پاشا» إلى مدرسة «الصحن». وأصبح مدرس الوزير الأعظم «سنان پاشا» «عبد الرحمن چلبي» مدرسًا لمدرسة السلطان

(توجّه وليّ العهد إلى سنجاقه، وذهابُ حاكم الأفلاق)

لمّا عُيّن المتفرقة «عثمان بك» ابن «عائشة سلطان» بنت المرحوم «أحمد پاشا» الذي كان صدرًا أعظمَ، أمير «قرة حصار شرق»؛ غبر الوجه لمقام العرش العالي، وجاء للديوان.

وبينما كان الحاكمُ اللّعين الذي صدرَ فرمانٌ بتعيينه ويواده الأفلاق من قبل، والذي حبس، ويواده البغدان؛ أصدر فرمانٌ بالإحسان بها (وظيفة ويواده البغدان) على «الكسندره» ابن الحاكم الذي عصى، وأُسرَ وتمّت مجازاته، وبناءً على القانون أمِرَ

بالمَجيء للدّيوان العالي، وبارتداء قلنسوته، ثمّ بالاستراحة والذهاب. ومن أجل تنصيب أمير السنجاق «قورد آغا» أميرًا على ولايته بطريق الترقية، خرج في ذلك اليوم، وذهب. في أواخر شهر رجب سنة ٩٩٩ هـ/ مايو ١٥٩١م.

(تقاعدُ رئيس الجاويشيه «قوجه حسين آغا»، وتعيينُ «مصطفي آغا» رئيسًا للجاويشية)

في اليوم الثّامن عشر من شهر رجب الموافق أوّل مايو، لما ظهرت الشيخوخة على رئيس الجاويشية «قوجه حسين جاوش» ولم يستطع القيام بالعمل، وصار عاجزًا؛ أحْسن عليه بالتقاعد بزعامة قدرها ستين ألف آقجة التي كان يديرها، وصدر فرمانٌ بالإحسان على «مصطفي جاوش» الذي كان أمينَ المدينة سابقًا بوظيفة رئيس الجاويشية، والتي كانت مرادَ قلبه منذ وقتٍ طويل، فيسّرها له الوهاب، الباقي. وذكر شعراء العصر النظم والتواريخ القيمة بهذه المناسبة .

(تاريخُ أمين چلبي)

بحمد الله صار رئيس الجاويشية منبعًا للكرم ورأى الضبـاط الأعيان، هذا الصنع الطاهر
واكتسب جميع الأحبة الصفاء مـن قدومـه وامتلأ داخل وخارج الديوان بالسرور والنشوة
وعندما شرف الديوان بالعزة، قالوا تاريـخ أقبلـت باليمـن يـا رئيـس الجاويشيـة[1].

(وفاةُ «أويس پاشا» في مصر، وتوجيهُ منصب أمير الأمراء)

في رجب من السنة المذكورة، حلّ الضّعفُ فجأة بصحة الوزير، وبينما كان يقاوم مرضَه بالعلاج في مصر، جاء الدفتردار «يحيى چلبي أفندي» من مركز الدولة،

---

(١)
بحمد الله كه جاوش باشي اولدى بر كرم كاني كـوروب بـو صنـع باكي قبلديلـر ساباشي
صفا كسب ايتديلر هب مقدمنـدن جملـه ياران سرور شوق ايله بر اولدى ديوانك ايجي طاشي
كوروب تشريف ديوان ايتدوكن عزتله تاريخـن ديديلر (يمن ايله اقبال ايله جاوش باشي) [٩٩٩هـ]

وعندما قابل المذكور لعيادته، وتحدّثوا، بدأ يوصيه، وأخبره بأملاكه قائلًا: إنّ مجموع أموالي النقدية وسائر الأشياء القيمة يبلغ خمسة وعشرين ألفَ ذهبية تقريبًا. وخلال أربعة أو خمسة أيام توفّي، وفي اليوم السادس من شهر رجب جاء خبر وفاته مع الرّسل من ميناء أنطاكية، ولمّا أوصل الدفتردار «يحيى چلبي أفندي» إلى الآستانة خبرَ وفاته بخطابٍ مكتوب بخطّ المرحوم، صدر فرمانٌ بتعيين أمير أمراء قبرص «حافظ أحمد پاشاً» المرقّى من وظيفة رئيس الأنباء أمير أمراء مصر. وصدر الأمرُ بالإحسان على «مراد پاشا» الذي ابتُلي بالحبس عند القزلباش من قبل، بوظيفة أمير أمراء قبرص. سنة ٩٩٩هـ/ ١٥٩١م.

(رفعُ «سنان پاشا زاده» أمير أمراء مصر السابق العرضحال للسّلطان ضدّ كتخدا باب المرحوم «أويس پاشا» بسبب أخذِه مال والده)

لمّا كان رئيس بوّابي المرحوم «أويس پاشا» «علي جاوش» نافذَ الكلام ومرجعَ الأنام في الأحوال المتعلّقة بأمور الديار المصرية، صار صاحبَ اعتبار، وعندما تمّ حبس أمير أمراء مصر السابق «سنان پاشا» وطُلب منه المال، قال أخذ «أويس پاشا» مع «علي جاويش» المذكور أثوابًا كثيرة، وجواهرَ الأهل والعيال من قسم الحلي، وتمّ بلعها وكتمها بينه وبين سيّده. فلمّا رفع «سنان پاشا زاده» المذكور العرضحالات للركاب الهمايوني، وطلب تطبيقَ العدالة؛ صدر فرمانٌ بتكليف رئيس البوابين «يمشجي حسن آغا» بحبس «علي جاويش» ومصادرة أموال أمير الأمراء لو عثر عليها.

(مجيء أمير أمراء الروميلي «محمد پاشا زاده حسن پاشا» إلى الدّيوان العالي، وتبديل الدفتردار)

في اليوم الثّالث من شعبان السنة المرقومة، جاء أميرُ أمراء الروميلي حضرة «محمد پاشا زاده حسن پاشا» إلى الديوان العالي، وبناءً على القانون، قدّم الرجال المزينون بالثّياب والهدايا، وغبّر الوجه لمقام عرش السّلطنة. وغبر أمير أمراء قبريس «مراد پاشا» أيضًا الوجهَ لمقام السلطنة. وذهب لمباشرة وظيفته. وصدر فرمان بعزل دفتردار

الشقّ الثاني «محمود أفندي» وتعيين دفتردار الحملة «حسن أفندي» الذي كان بجوار حضرة السّردار السابق «فرهاد باشا»؛ دفتردارًا للشق الثاني (شق ثاني دفتر داري).

(مجيء أولاد «أبو نمى» شريف الكعبة المكرمة إلى مركز الدّولة)

في أواسط شهر شعبان، جاء «سيد بشير وشريف إدريس» أدامَهما الله شرفًا، اللذين هما من أولاد شريف الكعبة المكرمة المرحوم المغفور له حضرة «أبو نمى شريف حسن»، مع عشرينَ من رجاله إلى مركز الدولة، والتجئا، وارتديَا الخلع الفاخرة في الدّيوان العالي مع اثني عشر نفرًا من أتباعه، ودخلوا لمقام عرش السلطنة، وتمّ تخصيصُ زادهم وزوّادهم من المطبخ العامرة، وعندما عُرض أنّ مرادهم ومرامهم العناية راجين الالتحاق بالخدمة الدائمة في مركز الدّولة وتوجيهها لهم بناء على استحقاقهم، صدر فرمانٌ نصّه: «لتُخصص لهم مقاطعات «زعامة» من الديار المصرية، وليكونوا مثلَ أمراء المحافظة، وأنْ ينالوا الاهتمام في مصر، وأن يرسلوا، ويصلوا لهذا الجانب».

(أمرُ الوزير الأعظم «سنان باشا» بإنشاء قصرٍ عظيم بماله)

قبلَ هذا، في السنة المرقوم، كان حضرةُ السّلطان حامي العالم قد أراد بناء قصر لا مثيلَ له بالقرب من ميناء باب إسطبل السراي العامرة، والذي (القصر) ينبغي أن يكونَ جدارًا ملاصقًا لقلعة «استانبول»، وينبغي أن يكون مطلًا على «قيق ميداني» ومشهد البحر بالنّسبة للمقاتلين الموجودين داخل السراي العامرة، فأمر الوزير الأعظم «سنان باشا» أيضًا بإحضار رئيس معماري الدنيا «داود آغا» ومن أجل تجهيز المهمّات اللازمة لبناء القصر بموجب الفرمان الهمايوني، أمر بإخراج الذهب الكافي للتّجهيزات من ماله، وببذل الاهتمام بالجدّ والسعي أيامًا كثيرة، وبإنشاء قصر عالٍ بلا مثيل حتى يكون تحفة العصر.

وفي شعبان (سنة ٩٩٩هـ/ ١٥٩١م) تمّ بناءُ القصر المذكور، واكتمل بالزينة والبهاء على يدِ المعمار المذكور، وتمّ وضع الأعلام المطلاة خارجه، وكان نظر الخواص والعوام لا يستطيع الحملقة إلى ضوئه؛ حيث زُين بصورة يعجز اللسان عن شرحها وبيانها،

وعندما زيّنوه من الداخل باللوحات المزخرفة، والقباب المدرجة، والنقوش المُطلاة بالذهب، وذوقوه بالأكلمة الحريرية، وقطع الجلود المشغولة، والوسائد المذهّبة، واللمبات الدائرية المرصعة بالجواهر واللؤلؤ، والمرايا؛ حلت أيامُ الربيع وموسم الورد وفاكهة الـ «كرس»، عندئذ خرج حضرة السلطان الذي عظمته كالفلك، بالعزّ والعظمة من عرشه، وظهر من برج العزّة بثوبه الأبيض كما تشرق الشمس «نورٌ على نور»، وقدّم الوزير الذي هو مثل «آصف»، الهدايا المذكورة، وعددها رأسان من الجياد العربية الفريدة على وجه الأرض، والعبي المرصعة والمشغولة بالجواهر، والجياد ذات المقْود المزيّنة بالجواهر، وامتطى جواده، وحمل الهدايا أمير الإسطبل الكبير «نوح آغا»، وسار آغوات الركاب الهمايوني على يمين ويسار السلطان، ووقف حضرةُ الصدر الأعظم مرتديًا العمامةَ السليمية للتسليم على السلطان. وغبر الوجهَ للرّكاب الهمايوني، وتقدّم الوزير عسكر المشاة ممسكًا بعصا في يده حتى وصلوا إلى القصر البهيج، وعندما جاءوا لسلّم القصر؛ دخل الصدرُ الأعظم تحت إبط حضرة السّلطان عالي القدر، وساعده على النزول، وعندما نزل السلطان، سلّم عليه، وتوجّه لخيمتهِ التي نُصبت في الميدان، وعندما تفضّل حضرة خليفة وجه الأرض بالنظر إلى القصر العالي المزيّن حدث له صفاءُ الخاطر لدرجة عظيمة، وقال: «أي شيء لزمَ أن يكون؛ لزم أن ينشأ ذلك القصر داخل السراي العامرة».

وأحسنَ على حضرة الصدر الأعظم بثلاثة مضاعفة من الخلع الفاخرة، وعلى الفور لبسها في ذلك الوقت وغبّر الوجه للمقام الهمايوني، ولمّا كُلف حضرة «القبودان باشا» بخدمة القصر، أحسن السلطانُ عليه بخلعتين فاخرتين أيضًا، لكنّه دخل ولم يقبّل اليد.

وأنْعِم بالخلع على كلّ مِن «معمار آغا» وكاتب المتفرقة «منصور آغا»، وأمين المدينة «مراد چلبي» وكتخدا الوزير الأعظم «درويش آغا»، والتذكره جي «حسين چلبي»، وجميع الأغوات، ورجال الـ «قبودان پاشا» ورئيس النوبتجية (ارديان باشي). ووُضعت النقودُ الذّهبية والآقجة الفضّة بالصواني لنثرها، وفُرشت أقمشة

من نوع «زيبا وسراسر، واطلس وكمخا» النّفيسة من السراي العامرة وحتى القصر المذكور، ومهما يُذكر من أسماءِ الأطعمة النّفسية المتنوعة، جُمع طبّاخو العالم لإعدادها، وجُهّزت جميعًا، ولم يبقَ أيّ نوع قطّ من الطعام إلّا وأعِدّ، حيث بُذلت النّعم التي لا تحصى. وعُين سلحدار الخاصّة «خليل آغا» الذي هو مِن بين المقربين للسلطان رئيسًا لخدمة الضّيافة، ولم يكن هناك تدخّلٌ لغيره في خدمة الضيافة، وأمر بإعداد سفرة الأنعام في حضورِ السّلطان صاحب العظمة، وتقديمها، وأرسلت من أمامه سفرة ذات نعم «خاصّ الخاصّ» بالصّحون الذهبية لحضرة الوزير الأعظم، ولطف المغنون والمطربون المجلسَ بالأنغام المطربة والمفرحة، وبناءً عليه، انقضى ذالك اليوم. وفي اليوم التّالي للضيافة خرج عامّةُ الناس للنّزهة على سطح البحر لمشاهدة سباق زوارق كلّ مِن الوزير الأعظم وحضرت الوزراء العظام، وآغا الينى جري وآغوات الركاب الهمايوني، وسائر الأغوات، ووضُعت المكافآت للفائزين، وفاز بالمركز الأول قاربُ الوزير الأعظم الذي تقدّم على خمسة وعشرين قاربًا ونال الجائزة، وأيضًا أعقبه قاربُ القائد «فرهاد پاشا».

وفي اليوم الثّالث للضيافة أظهر الجنودُ المقاتلون المهرة أنواع الفنون المتعلقة بالضّرب والحرب في ميدان «قيق» الواقع أمام القصر السلطاني، وشاهدوا وتفرجوا على جنود ميدان القتال وأبطال عرصةِ الحرب، وأحْسِن عليهم بالخلع ونالوا الألطاف السّلطانية، وانتهى سباقُ الجياد، وفي اليوم الرابع، رفعوا أسترة وأغطية القصر من أجلِ سلاطين الحرم المحترم، وتمّت الفرجة على القصر العالي، وأقيمَت الضيافة العالية لهم.

وكان المرحومُ القبطان «قليج علي پاشا » قد قامَ بتجديد قصر المرحوم السلطان «بايزيد خان» عليه الرّحمة، والمماثل لهذا القصر المزين بتجديده من أساسه؛ حيث صدرَ فرمانٌ بهدْمه، وبناء قصر أعظم منه مكانه، وتمّ التّنبيه والتأكيد على «داود آغا» مهندس العالم ورئيس المعماريّين بالآتي: «عليك ببذل الاهتمام الزائد فيما يتعلق بإنشاء قصر محْكَم البناء على ساحل البحر، وعليك بالسعي في بنائه. وبناءً على صرفِ لوازم

ومصاريف البناء من مال الوزير الأعظم كذلك؛ شُرع في بنائه، في أواخر شعبان سنة٩٩٩هـ/ مايو١٥٩١م.

(عزلُ كاتب الوقائع بلا مقابل، وتعيينُ آخر مكانه)

لَمّا تناقلت بعض الحكايات على ألسنة أرباب الهوى بخصوص كاتب الوقائع «محمد چلبي» أثناء التنزّه في الـ «كاغدخانه» في (يوم الشكّ يوم مطالعة هلال شهر رمضان)، تمّ عزلُه، لكنْ فهم أنّ وظيفة كاتب الوقائع الصغير محلوله، فعيّن «فضلي زاده محمود چلبي» المعزول من وظيفة «داوتدار» مكانه، وحلّ العزل الطارئ «بخاني زاده» بلا مقابل.

(وفاةُ القبطان «حسن پاشا» فجأة، وتوجيهُ وظيفة القبطان إلى «جغاله زاده»)

في ليلة العشرين من رمضان سنة ٩٩٩هـ/ يونيه ١٥٩١م، وبينما كان القبطان «حسن پاشا» في كامل صحّته وعافيته، بأمر الله عندما أغفلَ في نومه، فجأة سلم الروحَ لقابض الأرواح، وأسرع إلى عالم العقبى، وعندئذ تمّ دفنُه داخل قبر سيده القبطان العظيم «قليج علي پاشا»، وبعد التحرّي بضعة أيام، صدر فرمانٌ بالإحسان على «جغاله زاده سنان پاشا» الموجود في منصب السردارية بالوزارة على الحدود المنصورة بمنصب القبودان بالوزارة بسبب أنّ شهرته ذاعت الآفاق بالشهرة في الحروبِ والمعارك التي خاضها مرّاتٍ كثيرة ضدّ القلزباش الدناة، وبسبب أنه إفرنجيِ الأصل، وصاحب مهارة في فنّ البحر، وأنّه نجل «قورصان»؛ فأرسل إليه في أرضروم الحكم الشّريف، نصّه: عليك أن تأتي مارًّا بالمنازل. وصدر فرمانٌ بالإحسان على «صوفي محمد پاشا» الذي كان أمير أمراء البوسنة سابقًا بوظيفة أمير أمراء أرضروم. في ٢٥ رمضان سنة ٩٩٩هـ/ يونيه ١٥٩١م.

(وقوعُ حريق بالقضاءِ الرّباني فجأةً بالقرب من مستودع المدفعية، وسريانه لسراي أمير أمراء ديار بكر «إبراهيم پاشا» بسبب شؤم اليني جري)

في العشر الأخيرة من رمضان، بأمرِ إلهي، فجأة؛ بينما كان الناسُ في صلاة التّراويح احترقت بعضُ أبواب الدّكاكين الواقعة بالقرب من مستودع المدفعية العامرة (طوبخانه)،

ووقعت مشاجرةٌ عظيمة، وأمرت زمرة الييني جري بفتح أبواب المدينة بناءً على عاداتهم القديمة، وهُرعوا سويًّا لإطفاء الحريق، وعبَروا البحر، وعندما وصلوا نحْوَ الحريق؛ بعونه تعالى بدأوا لإخمادِ الحريق، وبعده عاد اليكي جري، ووصلوا لمنزل آغاهم، وتوجّهوا ذاهبين لحجرته، ولمّا ذاعت شهرة «ديوانه إبراهيم پاشا» أمير أمراء «ديار بكر» وشقيق «كتخدا قادين» بالجوْر والظلم على الناس داخل المنازل المشهورة باسم «بيكر اولري» الواقعة في موضع جامع السلطان «محمد» ولي عهد المرحوم؛ أحضروه لمركز الدّولة قائلين: «لتفي بحقوقِ الناس»، وبينما كان يُفتش بواسطةِ صدر الروميلي السابق أعلم العلماء «قرة چلبي مولانا حسن أفندي» في سراي القائد الأكرم «فرهاد پاشا»؛ قامت عشيرةُ الملتزم «علاء الدين بك» و«ملك أحمد پاشا» في ديار بكر بالهجوم العام، ربّما قصدوا تأديبَ أحد «اليولداش» الييني جري خلاف القانون، وأصبحَ الضربُ الشديد وسيلةً لذلك، فلمّا توفّي، كان اليكي جري قد قالوا في أثناءِ التّفتيش: «قتل يولداشنا، ويلزم أن ننالَ حقّنا»، ومن أجل خاطره، لم يهتمّوا كثيرًا بهذا الأمر، وسامحوه، وظلّت عقدة داخل الييني جري وفي تلك الليلة، بينما كانوا قادمينَ من مكان الحريق جماعة، وقفوا مُجتمعين أمام باب أمير أمراء ديار بكر المذْكور، وفي أيديهم البلط والفؤوس قائلين: «ألا لا نثأر نحنُ أيضًا من هذا الحقير»؟! وعندما قالوا: «هناك حريقٌ بالداخل افتح الباب». ولمّا وجد أحد التعساء وسيلةً لفتحه كسروا الباب ودخلوا للدّاخل. وفي الحال، أطلقوا النار على المرعى الموجود في الإسطبل، فقام أميرُ الأمراء بنثر بعض أكياس الآقجة عليهم قائلًا: «هاي مدد» أيّها اليولداش لو كانت الآقجة مرادكم ها هي الآقجة»، ها هي القروش»، وبينما كانوا ينهبونها، هربَ بحيلةٍ قائلًا: «الفرصُ سانحة»، ونجا بصعوبة من أيديهم، وسرقوا متاعَ بيوت ماله ومناله، وسلبوا الأمتعةَ والأقمشة وسائر الأثواب المرصعة والمجوهرة والأموال الكثيرة أيضًا التي أعدّت وجُهّزت من أجل السلطان حامي العالم. وفي تلك الليلة أحرقوا السّراي بالكامل بالنار. وعندما وصل الوزير الأعظم وآغا الييني جري (يكيجري آغاسي)، «بعونه تعالى» أخمدوا النار، وحفظوا المكان كما ينبغي، ولم يجعلوا الضررَ يلحق بالآخرين، واحترقت هكذا الأثوابُ التي حصلوها بالظلم والجور.

(مصرع)

قيل: «جاءت عبثًا وذهبت سُدى»[1].

(نثر)

وفي اليوم التّالي، وصلوا للديوان الهمايوني، وأخرجوا الرواتب، وقال آغا الييني جري «محمد آغا» ورئيس السكبان والـ «كتخدا بك» وجميع آغوات الاوجاق: «أيها اليولداش، عندما يتفضّل حضرةُ السّلطان صاحب العظمة بالسؤال عن أصل الحريق والفساد الذي وقع الليلة، بماذا ينبغي أن نجيب؟» تصايحوا قائلين: لقد تمّ التفتيش، ولم يؤخذ حقّ المسلمين من «دلي إبراهيم پاشا» وقد أمر بقتل بطلنا، وهرب، فيلزم أن يظهر وإلّا لا يكون خيرًا، وتقع أمورٌ عاقبتُها وخيمة. وأجاب الييني جري الذين قاموا بهذه الأفعال الدنيئة، أجابوا على السلطان قائلين: «إنّهم يقفون عند باب الأكابر، ويأكلون نفائسَهم. وإنّ هذا التصرف أجنبي. وحاشا لا يقفون عند الحجرات، وإن ذالك يكون تغييرًا لطبيعة «ات ميداني» (مكان يتمّ فيه عقد اجتماعات الجيش). والضباط لا يرون هذا، فهم في منزل الأكابر».

وأمّا أمير الأمراء فقال إنّ الإرسالية التي نهبوها مقدارها مائة حمل آقچة والتي كانت ثلاثين حملًا، منها أموالُ عوارض، وما عداها مالُ مقاطعات. قالوا: «ما يتبقى عندك من المالِ الميري، كان ينبغي إحضارُه مباشرة، وتسليمه لخزينة الباب الهمايوني».

أمّا حضرة السلطان قال: «ينبغي إخراج خزينة بيت المال بالتأكيد، ولتُؤخذ رواتب الضّباط الذين أحدثوا هذا الفساد، وليعزلوا، ولتُعطى الرواتبُ من بعد».

وصدر فرمانٌ بعزل «إبراهيم باشا» أيضًا وحبسه في «يكيحصار»، وصدر فرمان أيضًا بالإحسانِ على أمير أمراء حلب (حلب بكلربكيليكلي) «مويتاب زاده أحمد باشا» بإمارة أمراء ديار بكر، وصدر الأمرُ بالإنعام على «ديوانه خضر باشا» المترقّي

---

(١) از باد هوا آمد وبر باد هوا رفت.

من اليمن بالكفاءة والسيف؛ بإمارة أمراء حلب. في ٢٥ رمضان (سنة٩٩٩هـ/ مايو١٥٩١م).

وسمعتُ أنا هذا الفقير (سلانيكي) من صُلحاء الأمة الذين تحدّثت معهم أن: أشخاصًا كثيرين من العلماء والسّادة من الملازمين لمقام الأحدية ليل نهار أصبحوا مشغولينَ بالدّعاء بالأسماء القهرية للمولى عزّ وجلّ في مسجد آيا صوفية الصغير والكبير؛ من أجل «إبراهيم باشا»، وكانوا يسترحمون له، وقالوا: «ألا يكفي أنّك لم يلحق بك السّخط الإلهي، واشكرِ الله أنّك لم يحلّ بك البلاء».

(حلولُ العيد الشريف)

في شهر شوال من السنة المرقومة، طبقًا لقانون الدّولة وعاداتِ السلطنة حضر جميعُ الأركان والأعيان إلى الدّيوان الهمايوني، وجلس كُلّ في مكانه، وغبّروا الوجه لمقام العرش العالي، وهنئوا بعضَهم بالعيد، وكان المخاوف تُحكَى وتسري على ألسنة الناس. بحمد الله، مرّ العيد بخير. وانتهى.

(أخذُ الخاتم الشريف من الوزير الأعظم «سنان باشا» مرّةً ثانية أيضًا)

في يوم الخميس الحادي عشر من شهر شوال، قبلَ صلاة الظهر استدعى حضرة خليفة وجهِ الأرض، كتخدا البوابين «ولي آغا» للحضور الهمايوني، وأصدر فرمانًا، نصّه: «بقدر ما يوجد من البوّابين النوبتجية، فلتقودهم، وليصلوا، ولتأخذ خاتم الصدارة من «سنان باشا» ولتسلّمه للقائد الأكرم «فرهاد باشا». وعلى الفور في ذالك الحين عندما وصل خاتمُ العزّة إلى «فرهاد باشا» بموجب الفرمان الهمايوني، هنأه جميعُ أركانِ الدّولة بالسّرور والحبور. وبسبب محْوه الشّرف بغروره، كان رعايا الدّولة قد ضاقوا منه ذرعًا ونفروا منه.[1]

(بيت)

ذهب الظالم بقيت منه القاعدة المتداعية   جلس العادل وذكر اسمه الحسن (سمعته الحسنة).

---

(١) ظالم برفت وقاعده زشت از ونهاند   عادل نشست ونام نكوباد كاركرد.

(تعيينُ العبد الفقير (سلانيكي) روزناجي الوزير الأعظم «فرهاد باشا»)

طلب حضرةُ الوزير الأعظم هذا العبدَ الفقير سلانيكي، وبناءً على صدور فرمان بإقامةِ شخصٍ من جانب الصدر الأعظم وبتحرير صورة خطاب بحسب ما هو متبع في القانون القَديم؛ شرعت في الخدمة في ١٣ شوال سنة٩٩٩هـ/ يوليو١٥٩١م.

(تبديلُ أمراء أمراء الحدود، ومجيئهم للديوان العالي)

جاء «صوفي محمد باشا» الذي أصدرَ فرمانٌ بالإحسان عليه بإمارة أمراء أرضروم بدلًا من «جغاله زاده»، من قبَل إلى الديوان الذي عنوانه العدالة لتغبير الوجه لمقام العرش الذي مصيره العالم.

وفي ذلك اليوم صدرَ فرمانٌ بعزل أمير أمراء «طره بلوس غرب» «أويس پاشا زاده محمد باشا»، والإحسان بإمارة أمراء طرابلس غرب على «ارنابود ممى باشا»، وجاء للدّيوان العالي لتقبيل اليد في ١٤ شوال سنة٩٩٩هـ/ يوليو١٥٩١م.

(توجّه أميرِ أمراء الروميلي لمقاطعة صوفية، وتوديعُ أركان الدّولة له)

في يوم الاثنين من أواخر شوال، وفي يومٍ سعيد، لم ينعقد الديوان؛ حيث توجه الـ «مرحوم محمد پاشا زاده حسن باشا» الذي هو أميرُ أمراء الروميلي لمقاطعة «صوفيه»، وطبقًا للقانون القديم ودّعه جميعُ أركان الدّولة بالعظمة والوقار، وذهب. والحقّ أنّه لم يرَ أحدٌ منذ وقتٍ طويل خروجَ عسكر ذوي قدرة وشأن بهذه الصورة، وأيضًا فإنّه لم يرَ شخصٌ خروجَ أمير أمراء على عدوّ الدين بأبطال يستحقّون أن يطلق عليهم أبطالُ السّرور، مزيّنين ومجهزين وذوي دروع فضيّة تشبه المرآة، ومسلحين وذوي ثيابٍ واقية، وذوي تروس مطليّة تشبه الفلك، ومتوشّحين بغطاء الرأس المزين، والخوذ الفضية، والذؤابات المربوطة ذات الدلايات الخلفية؛ مثل هؤلاء.

ولمّا كان الوزير المومأ إليه مخدومًا مكرّمًا مشهورًا، وصاحبَ عائلة قديمة، صفق رعايا الدّولة له بحُسن الرعاية والعناية، ودعوا له بالخير، وأصبح سلامُه ووداعُه

والتئامه هو أيضًا بالتواضع باعثًا للعزة والعظمة، وليكن سببًا لرضاء الرحمن، وليجعل الحقُّ سبحانه وتعالى طريقَه خيرًا، وليبارك حملته.

(أخذُ إمارات الأمراء وتوجيهُها)

صدرَ فرمانٌ بعزل أمير أمراء الشّام «سنان پاشا زاده محمد باشا»، وبالإحسان بإمارة أمراء قره مان على «حسن باشا» المعزول من وظيفة رئيس مربّي الطيور، والمعزول من إمارة أمراء «شهرزور» مكانَه، وعُزل ابنُ شقيق «سنان باشا» «مصطفى باشا» أمير أمراء سيواس، والإحسان بها على «جركس حيدر باشا» المعزول من البصرة بإمارة أمراء سيواس مكانَه في ١٥ شوال سنة ٩٩٩هـ/ يوليو١٥٩١م، وقالوا صدر خطّ همايوني نصُّه: «فليعزل سنان پاشا وجميع أتباعه».

(عزلُ رئيس الديوان)

لمّا صدر فرمانٌ بعزل رئيس الكتاب «ذال محمد چلبي»، وبالإحسان برئاسة الديوان على «لام علي چلبي»، لاقى استحسان الرعايا، وعندئذٍ قالوا قد وصل الحقُّ لأهله. وذكروا الأبيات الآتية:

(بيت)

كان يرغب منذُ القدم في الجمال والكمال

فأعطى الزمان، حقّ صاحب الفضل والكمال[1].

(عزلُ وتنصيبُ قاضي بروسه)

في أوائل ذي القعدة من السّنة المرقومة صدر الأمرُ بالخطّ الهمايوني بعزل قاضي بروسه «معروف أفندي»، وتعيين «رمزي زاده أفندي» المعزول من حلب، مكانه.

(١) چوقدن ايلردي جمال باكمالن آرزو صاحب فضل وكمالك ويردي حقن روز كار.

(وفاةُ أحد ولاة العهد)

في أوائل شهر ذي القعدة، بناءً على وفاة أحدِ ولاة العهد بينما كان في عمر الرابعة، تمّ دفنُه في الـ «بيوك تربه»، وكانت والدتُه قد توفّيت قبله، ودفن المتوفون من ولاة العهد من ذكور وإناث في القبر المرقوم.

(مجيء الوزير «خضر باشا» إلى استانبول)

في أوائل الشّهر المذكور، لمّا قضى الوزير «خضر باشا» الشتاءَ في «سلسترة» بموجب الفرمان الهمايوني بعدم تحرّكه منها إلّا عندما يدفع حاكم «له» الجزيةَ مع الزيادة المقرّرة، فعندما جاءت جزيةُ حاكم «له» للآستانة؛ كان «خضر باشا» قد أُبْلغ بالمجيء للآستانة، ولمّا أصبح من المؤكّد أنْ يقوم الحاكمُ المذكور بتسليم الجزية المتعهد بها مع الزيادة المقرّرة، جاء الوزير المشار إليه «خضر باشا» إلى استانبول، وعندئذ استقبله آغواتُ الركاب الهمايوني، ورئيس الجاويشيه. في ذي القعدة سنة ٩٩٩هـ/ أغسطس ١٥٩١م.

(مجيء السفير من قِبَل الشاه «عباس»)

في يوم الجمعة الموافق الحادي عشر من ذي القعدة، لما جاء السلطان المعروف باسم «قره أحمد» بهيئةِ السّفارة للآستانة حاملًا رسالة والي ولاية العجم الشاه عباس، طبقًا للأصول القديمة للدّولة، خرج لاستقباله كلٌّ مِن آغا الينى جري، وآغوات الرّكاب الهمايوني ورئيس الجاويشية، وعندما أحضر خان «أردبيل» «مهدي قوليخان» الذي جاء بالرّسالةِ للآستانة من قبْل، أحضر «حيدر ميرزا ابن حمزة ميرزا» كرهينة من أجلِ الصّلح والصلاح المعهود بينهما، أوصل بعد عام الرسالةَ الهمايونية التي تسلّمها من قِبَل السلطان حامي العالم؛ للشاة عباس، وتوجّه بها إليه، وبسبب أنه أجرمَ قائلًا: «أخّرني السلطان»؛ تمّتْ مجازاته، واعْلِم بأنّ السفير جاء مرّة ثانية من أجل ترسيم حدودهم مع السّلطنة، وأيضًا من أجل حمل الردّ الصّائب على الرسالة الهمايونية. كان السّفير المذكور «مهدي قوليخان» شخصًا صاحبَ معرفة واسعة، وصاحبَ فهْم وفراسة.

وكان العبدُ الفقير (سلانيكي) قد قال له أثناءَ المحادثة معه: «كيف وجدت مشيري ومدبّري هذه الدّولة القاهرة، إنّ الشاه عباس شاب. والذين يتمنّون الجلوس بجانبه، ويتقرّبون إليه؛ لا يريدون إقامةَ صداقة مع هذه الدّولة العلية، أنت علمت أحواله وفهمْتَها. وينبغي عليك تدبيرُ الصّلح بينهما». فأجاب قائلًا: «كان لزامًا عليّ أن أمكث عامًا، فلو كان هناك إمكانيةٌ للصّلح أو لا يكن؛ أصبح فداء مثل «مهدي قوليخان». وعلى هذا النّحو مرّ عامٌ على الأقل، وحدث بعينه هكذا.

(مجيء سفيرٍ من قِبَل حاكم ولاية كيلان «خان أحمد»)

في أواسط ذي القعدة، لمّا كان حاكمُ ولاية كيلان «خان أحمد» الذي هو صاحب عائلةٍ عريقة، ومزيّن بالمعارف والفنون، وسيد صحيح النّسب، وسني المذهب؛ على صلحٍ وصلاح بضرورة الحال مع أوجاق «أردبيل» المستولي على العالم بجيش القزلباش النّاشرين الكفْر، أرسل وكيلَه الذي يعتمد عليه بالرسالة وهيئة السفارة من أجلِ عرضِ إخلاصِه ورجائه للصّلح مع السلطان. وعندما جاء للآستانة نال الرعايةَ الكاملةَ من قِبَل السلطان حامي العالم، ولمّا أصدر فرمانٌ لخدم السّدة التي مقامها السّدرة بأنْ يستقبلوه؛ تجهّز العسكرُ الذين لا يمكن حصرُهم بأسلحة مواجهة العدو الفاني، وعندما استقبلوا السفيرَ المرقوم، وشاهد السفيرُ المذكور أيضًا عادات الدّولة العليّة؛ ملكتْه الحيرة، وبعد أنْ مدحوه وأثنوا عليه مائة ألف مرّة خصّصوا له مكانَ استراحته، وعلى الفور، نالَ الرعايةَ بأنواع النعم والألطاف السلطانية التي لا حصر لها، وأقام في استراحته، وأصبح سفيرُ القزلباش متأثّرًا جدًّا من العناية العلية التي نالَها، وغرق في بحر الحيرة، حتّى قالوا: «عجبًا! من المؤكّد أنّه سوف يكون هناك حالٌ في مجيء هذا الشخص».

(مجيء الوزير «جغاله زاده سنان باشا» الذي نالَ منصبَ القبطان، مِن الحدود المنصورة إلى استانبول)

في ذي القعدة سنة ٩٩٩ هـ/ أغسطس ١٥٩١م تجهّزت ستُّ سفن «قادرغه وباشدارده» من مركز الدّولة من أجل قدومِ القبطان «جغاله زاده وزير سنان باشا»،

ووصلتْ صوبَ بحر «ايزنكميد» وحُمّلَتْ جميع أثواب وأثقال الحملة، ولما جاء في اليوم المرقوم، خرج حضرةُ خليفة الزّمان للفرجة على قصر المرحوم السلطان «سليم» الواقع على ساحل البحر، وعلى رغم الأعادي أطلقوا جميعَ مدافع الأفراح والابتهالات، وأحدث صوت إطلاق المدافع والبنادق الطرقعات والضجيج التي دوت في السّماء، ونزل القبطانُ في استراحة المرحوم «رستم باشا»، ولمّا كان خادمًا قديمًا في القصر، نال العزةَ والإقبال مرّةً أخرى. وجاء في الشّهر المذكور للديوان الهمايوني وطبقًا للقانون القديم قدّم هداياه مضاعفةً اثنتي عشرةَ مرّة، وجلس أمام الوزير الثاني، ونالَ الإكرام.

(مجيء السفيرِ القادم من القزلباش إلى الديوان الهمايوني)

في يوم الأحد التّاسع عشر من ذي القعدة من السنة المرقومة، عقد ديوانٌ يعرف باسم «غلبة ديواني»، وأحضر السّفيرُ المعروف باسْم «قره أحمد» القادم من قبل الشاه عباس رسالةَ الشّاه العجمي، وسلّمها، بعد ذلك أقيمَتِ الضّيافة العالية له، وأخبر قائلًا: سلّمت خاتم شاه الكرم برسائل كلّ مِن حارس السهام والأقواس «حسن بك»، والدفتردار «بسطام بكي» وكيل سلطنة «فرهاد خان»؛ لحضرة أمير أمراء حدود «روان ونخجوان» المنصورة، «خضر باشا»، وعرض حال قلعة «نهاوند» في الرسالة الآتية، ونبّه الوزراء العظام على السّفير المذكور قائلين: «احذرْ، عليك ألّا تحضر على لسانك الكلامَ المتعلق بالقلعة».

وترقّى مربّي ولي العهد «حيدر ميرزا»، المدْعو «شاه قولي خليفة»، وعُيّن مُرَب آخرُ مكانَه، ولم يُؤذن بتبديلِ ذلك أيضًا. وقيل إنّ هناك مربيًا لائقًا له، وطبقًا للقانونَ القديم، نال الشرفَ بالخلعةَ الفاخرة، وأحْسِن عليه بالمصروفات، وأرسل.

(مجيء سفير «له» إلى الديوان العالي، وإحضارُه الهدايا)

في اليوم السّابع والعشرين من ذي القعدة من السنة المذكورة انعقد ديوان الغلبة، وجاء سفيرُ حاكم «له»، وعندما كُلّف من قبْل بزيادة تحفِه وهداياه التي اعتادَ إحضارها منذ القدم، أصبح المتعهّد به سنويًّا بناءً على ما اعتاد إحضاره منذ القدم كالتالي:

تسعون دستة فراء «سمور» ومائة فراء «سمور» كاملة، وسائر جزيته. ولمّا أوصلها لآستانة الدّولة ولأركان السّلطنة؛ جُدّد العهدُ له، وتمّت ضيافته، وطبقًا للقانون، أحْسن عليه بالخِلَع الفاخرة، في التاريخ المرقوم.

(ترقياتُ كتبة الخزينة العامرة)

أصبحَ رئيسُ كتاب الوقائع في الآستانة «سليمان أفندي زاده درويش محمد أفندي» دفتردارًا. وأحْسِن على مقابلجي اليني جري المتفرقة «محمد چلبي» بخدمة كاتب الوقائع. وأنْعِم على كاتبِ الصّدر الأعظم «قرة محمد چلبي» بوظيفة «مقابله جي»، وعُزل دفتردار وليّ العهد السابق «حسام بكزاده» من وظيفة «مقاطعة جي معدن»، وقيل ينبغي أن يطلب زعامة بطريق ترقيتِه، وأُحسن بها على مقاطعة جيسي بروسه «اقدبابا زاده مصطفي چلبي»، وأُحسن بوظيفة «مقاطعة جي بروسه» على الموقوفاتجي «عثمان چلبي»، وأحْسِن بوظيفة الموقوفاتجي على «عجم زاده».

(توجيهُ وظيفة كاتب فرقة الجبه جيه)

صدرَ الأمرُ بعزل كاتب الجبه جبه «عجم منلا قاسم أفندي»، والإحسان على كاتب فرقة «عجمي أوغلا نلري» بالوظيفة مكانه.

(توجيهُ وظيفة دفتردار البصرة)

عزلَ دفتردار أموال البصرة «كوله حسين أفندي» المترقّي من وظيفة مقاطعة جي، وأُحسن على «سنجاقدار زاده محمد چلبي» المعزول من وظيفة تذكرجي القلعة الصغير، بالوظيفة مكانه.

(توجيهُ وظيفة أمير أمراء البصرة)

بينما كان أميرُ أمراء البصرة «ميخاليجو أحمد باشا» صاحب حكومة، وشخصًا قادرًا على إبداء الرّأي الصائب؛ عُزل بلا مقابل، وأحْسِن على «سنان باشا» رئيس بوابي المرحوم «محمد باشا» والمعزول من «بلنكان»؛ بالوظيفة مكانه. في أوائل ذي الحجة سنة ٩٩٩هـ/ سبتمبر ١٥٩١م.

(توجيهُ وظيفة حاكم بغداد)

جاءَ الخبرُ بأنّ حاكم البغدان لم يستطعْ أداء الجزية المفروضة عليه، وفرّ إلى ديار أخرى، وعندما نُصب الكافر المعروف باسم «الكسندرة أوغلي أروان» مكانه، تعهّد بدفْع الجزية مع الزّيادة، وحصل الأموال من كلّ واحدٍ من أذلّاء المملكة من خمس إلى عشر آقجات، ودفعَ جزيته، وقدم هداياه، وارتدى قبعته في الديوان الهمايوني، وقبّل يدَ السلطان وذهب لمملكته.

(مجيء سفيرِ حاكم مملكة كيلان «خان أحمد» إلى الديوان الهمايوني)

في أوائل ذي الحجّة من السنة المرقومة، جاء وكيلُ سلطنة حاكم «كيلان» «خان أحمد»، وسفيره «حسام الدين تاجر» إلى الديوان العالي، وأحضر رسالته وهداياه، وقيّدت بالدفتر بخطاب منفصل بخطّ يدِ الخان موضوعًا داخل كيس مختوم، وعرض ورجا قائلًا: «أهبُ النِّصف المستحسن من المملكة التي أحكمها للسلطان حامي العالم، وبناءً على بقاء ما عداها (النّصر الآخر) لي ولأولادي أيضًا؛ أطلبُ من الجناب الذي مآبُه الخلافة إصدارَ منشورٍ وحجّة الملك، وأقام الأدلة على كونه صحيحَ الإيمان، وأنّه من المذهب الشافعي، وترجم ما بسطه من المقدمات الكثيرة المتعلّقة بمذهب القزلباش الباطل وعاداتهم الفاسدة، وعندما أرسلت للعرض الهمايوني، شاع بأنّه قيل «لم تكن منظورةً بالعناية بذالك القدر. فليس ذو اعتبار أنه رأى ضعف أحوال القزلباش، وأنّه أظهر التملّق لهم، ولماذا لم تصل رسالته ورجاله للقواد حتّى هذا الوقت، والآن استولى القزلباش على ملكه، وأُطلق سراحه من حبس القزلباش منذُ فترةٍ طويلة. ولم يبقَ له دخلٌ في الملك»، فقيل: «فلا يكن سببًا لفساد العلاقة والاختلاف مع الشاة عباس».

(حلولُ عيد الأضحى)

حلّ عيدُ الأضحى المبارك، ولم ينعقد الديوان لمدة أسبوع.

(إصدارُ حضرة السلطان صاحب العظمة فرمانًا لأركان الدّولة بالتدابير والمشورة فيما يتعلّق برسالة حاكم كيلان في سراي «فرهارد باشا»)

في يوم الجمعةِ الموافق الثاني والعشرين من الشهر المبارك، صدرت تذكرةٌ همايونية بفرمان، نصّه: «ليأتي كلّ مِن الوزراء العظام، ومعلّم سلطان الدنيا «سعد أفندي»، ومفتي الأنام «بوستان زاده أفندي» والـ«صدرين» و«التوقيعجي» «عبد المحيي باشا» والدفتردارية وجميعُ أركان الدّولة؛ لسراي الوزير الأعظم «فرهاد باشا» وليتشاوروا بحُسْن الرّأي والتدبير، وليعرض ويعلم كلامهم الواقع بالاتفاق. وتمّ ذلك بموجب الفرمان، وغالبًا نتيجة التّدبير متعلّقة بمفهوم رسالة خان كيلان «خان أحمد»، فعندما عُرض بأنّهم كانوا متّفقي الكلام على أنّه: «بينما كان الشاه «عباس» حاكمًا؛ وهب المملكة وتمّ الصّلح، وأرسل ابن أخيه، وبينما كان على كامل الطّاعة للسلطان، فإنه من الأَوْلى ألّا يكون هذا الأمرُ سببًا للفتنة مرّةً أخرى، وأن يُترك لوقت خال؛ مُنح سفيرُ كيلان «حسام الدين» الإذنَ بالمرور إلى أسكدار قبل مجيئه للديوان.

(نيْلُ «ديوانه إبراهيم باشا» التّكريم مرّةً ثانية، وتعيينُه أمير أمراء)

في عشرة من شهر ذي الحجة، صدر فرمانٌ بإطلاق سراح «ديوانه إبراهيم باشا» أمير أمراء ديار بكر، والمحبوس في «يكيحصار» وشقيق «كتخداقادين»؛ من الحبس، وقُرّر الإحسانُ عليه بوظيفة أمير أمراء «ديار بكر» مرّة ثانية. وبعد العيد، في أيام التشريق دعتْ «كتخدا خاتون» بالإذن الهمايوني المومأ إليه «ديوانه إبراهيم» وواسته، ونال الشّرفَ في قصر «سنان باشا» بخلعةٍ فاخرة فقط، وغبّر الوجهَ لمقام العرش العالي، واسْتُميل بالوعود.

(صلبُ ومجازاة أمير السنجاق، والجاوش)

بعدَ العيد لمّا اختلفَ قاضي «منتشا» مولانا «بايزيد أفندي» مع مفتش مقاطعة «منتشا» بخصوصِ زواج امرأة، لم يرضَ الجاوش شقيق المذْكور قاضي منتشا الذي هو من جاويشية البلاط العالي بالحقّ، وبينما كان من أقرباء قاضي «منتشا» قام أمير السّنجاق «متولي لطف الله زاده عبد الجبار بك» بقتل الاثنين الجاوش،

وقاضي منتشا مع أخيه بآلة حربِ علنًا، ولمّا أصبح ثابتًا وظاهرًا شرعًا أنّه قتلهم، قُدِّمت العروض والحجج، وتمّ صلبُ ومجازاة الاثنين قصاصًا في سوق السّمك. في غرّة محرم سنة ١٠٠٠هـ/ أكتوبر ١٥٩١م.

في ليلةِ السبت من هذا اليوم السّعيد المبارك، شُوهد هلال شهر المحرم، وفي اليوم التّالي، جاء أهلُ الديوان لتغيير الوجْه لعتبة السعادة. ونال الوزير الأعظم «فرهاد باشا» لقبَ صدْر العزّة، وتلطّف بالالتفات ليمين ويسار أركانِ الدولة، وشرع في مباشرةِ مهامّ أمور الملك والملة وقضايا الدين والدولة.

(الإحسانُ برواتب الـ «مصر»)[1].

أمّا رعايا الدولة، فبينما كانوا منتظرين الفتنةَ قائلين: «من المؤكّد أنّ سنة ألف هـ/ ١٥٩١- ١٥٩٢م ستكون موضعَ الحوادث العظمى، بعونه تعالى أصبحت كلّ ناحية على أمنٍ وأمان، وتوجّه العلماء والصّلحاء لمباشرة الأمور المهمّة استعدادًا ليوم «عاشوراء». وفي أيام الدّولة السّلطانية كانوا مشغولين بالدّعاء بالخير، ويكتبون الغزليّات والتواريخ القيّمة، ويدرسون في مدرسة المعارف، وبعونه تعالى تمّ تدبيرُ ضائقة رواتب خدم الباب بحُسن التدبير، وبطريق الاستقراض، وأعْطيَت في ١٦ من الشّهر المذكور، وأنّه مؤكّد أيضًا أنّ الرواتبَ المقيدة ذات الأقساط الكثيرة التي يستحقّها كلّ بلوك من الأوجاقات ماعدا الييني جري بدفاتر رواتب الجند؛ بقيَتْ ديْنًا، ولم تُعْط. فينبغي ألّا تكون طائفة الـ «بوليكه» سببًا لإثارة الفتنة. ولكن الذين يحكمون في الأمور المتعلّقة بالأموال، صاروا يُعانون في تنفيذ الأحكام؛ لأنّ أراذل الناس دخَلوا في نظام الالتزام، وبسبب تداخُلِ الأوباش الدّناة لم يقيّد بالدفاتر أسماءُ الأشخاص الذين يخدمون بصدقٍ واستقامة وخوفٍ وخشية، وبسبب علاقة جميع أربابِ الأقلام بطائفة الـ «زبانلر» والـ «جوجه لر» وآغوات الحرم؛ قدّموا هداياهم من شهرٍ لآخر بطريق الجزية، وتمّ بيعُ المناصب العالية بالرّشوة علانية، وبسبب عدم بقاءِ الاستقامة في أيّ طريقٍ قطّ، بقيَ كلّ شخصٍ في حيرة. وتمّ عزل دفتردار حلب

(١) مصر: رواتب يتقاضاها جند الييني جري عن أشهر محرم وصفر وربيع الأول.

«نوح أفندي» من حلب، وأصبح «تذكرجي زاده محمود أفندي» دفتردارًا على حلب، وبينما كان دفتردارُ حلب «نوح أفندي» مشهورًا بالجلادة في تحصيل وجلب المال، وخصوصًا بينما كان يقال إنّه باقٍ في الخاطر، كما يُطلق عليه في اصطلاحات كليلة ودمنة في الحيلةِ والخدْعة، صدر فرمانٌ بعزله وتعيين «تذكرجي زاده محمود أفندي» المترقّي من وظيفة دفتردار مصر في ٢٢ محرم من السنة المرقومة/ أكتوبر ١٥٩١م، وصدر الأمرُ بالإحسان على الـ «متفرقة» «محمد چلبي» الذي هو من أتباع «مسيح باشا» بوظيفةِ دفتردار طرابلس الشام، وكذلك الإنعام على «ظريف محمد أفندي» بوظيفة دفتردار «ديار بكر» ورفع وظيفة أمير سنجاق «ايج ايل» من عهدة دفتردار «طرابلس الشام» «عبد الباقي بكزاده عثمان بك» وأحْسِن بها على الدفتردار «بسنوي صاري أحمد أفندي» المترقّي من وظيفة قاضي من قبل. وتمّ عزلُ «لا له عذار زاده» أيضًا من وظيفة دفتردار «ديار بكر»، وجاء الشّخص الذي كان دفتردار «ديار بكر» مكانَه، وجلس في الدّيوان العالي، ودخل بالخلْعَة الفاخرة، وغبّر الوجهَ لمقام السّلطنة، وعُزل مرّةً ثانية بعد بضعةِ أيام.

وبناءً على تحصيل الملتزم «ملك أحمد باشا» والملتزم «علاء الدين بك» أموال كثيرة مِن بدْء تاريخ تعْيينهما؛ اشترط أميرُ أمراء ديار بكر «ديوانه إبراهيم باشا» أخذ تفتيشهما، وتعيين الشّخص الذي أراده دفتردارًا، وعُيّن دفتردار أرضروم السابق «ظريف محمد أفندي» دفتردارًا.

(عزلُ «صاري مصطفي أفندي» من وظيفة دفتردار طره بلوس الشام)

أصبحَ «صاري مصطفي أفندي» الذي فتش رئيس الجاويشية «مصطفي آغا» بينما كان (صاري مصطفي أفندي) دفتردار «طونه» سابقًا بسبب: «أنّ رئيس الجاويشية أكلَ وكتمَ أموالًا كثيرة» أصبح دفتر طرابلس الشام، وجاء وجلس في الديوان العالي، وبناءً على القانون، أُحْسن عليه بالخلْعَة الفاخرة، وبعد أنْ غبّر الوجهَ لمقام العرش العالي؛ في الحال صدر فرمانٌ بعزله، وتعيين محمد أفندي الذي كان كاتب فرقة السپاهية سابقًا، متفرّقة البلاط العالي ذو راتب اثنين وتسعين آقجة، والذي هو

من أتباع «مسيح باشا»، دفتردار طرابلس الشّام في صفر سنة ١٠٠٠هـ/ نوفمبر ١٥٩١م.

(تعيينُ الدّفتردار نوح أفندي أمير أمراء «قبرص»)

صدرَ فرمانٌ بالإحسان على «نوح أفندي» المعزول من وظيفة دفتردار «حلب»؛ بوظيفة أميرِ أمراء قبرص، وجهّزت هدايا وعطاياه في استانبول، ووصل رجاله كُلٌّ حسب رتبتِه، وبانْتهاء العرض سارَ من قصره المعمور الذي أنشأه في «لاندره» إلى إمارة أمرائه مسرورًا وسعيدًا في أوائل صفر سنة ألف هـ.

(بينما كان «حسين أفندي» كاتبُ المرحوم «زال محمود باشا» في وظيفة دفتردار أرضروم (أرضروم دفترداري)؛ وجّهت لـ «منصور چلبي»، ثمّ أحْسِن بها على «حسين أفندي» مرّة ثانية)

أصبحَ «حسين آغا» القائم بتحرير دفاتر ولاية أرضروم قبل هذا، وكاتب «زال محمود باشا»، والذي هو من متفرّقة السّدة العالية، في خدمة أمانة النزل في الحملات مع القائد عالي القدر «فرهاد باشا»، وعندما التزم المفسد المعروف باسْم «خضر آلاي بكي» بأنْ يقوم بتسوية محاسبات إيرادات ومصاريف حضرة القائد البالغة أربعمائة ألف حمل آقجة في الحملات بشرط تفتيش بعض رجال «فرهاد باشا»، دخل معه «حسين آغا «المرقوم أيضًا، وبينما عُرضت على «حسين آغا» وظيفةُ دفتردار أرضروم بناءً على التزام «خضر بك» بمائتين وستّين حملًا من الآقجة، وصدر فرمانٌ بذلك، أخذ متفرّقة السّدة العالية «منصور چلبي» التابع لحضرة «سنان باشا» وظيفة الدفتردارية بالالتزام بناءً على الوجه المشروح من «حسين آغا» بزعامته، وارتدى خلعة الدّفتردارية، ودخل، وغبّرَ الوجهَ لمقام العرش الذي مصيره العالم، وبينما كان قاصدًا الذّهابَ ألقى «إبراهيم باشا» الذي أخذ تفتيش «ملك أحمد باشا» و«علاء الدين باشا» وجعلَه في عهدته، والمتعهّد بتحصيل الأموال الكثيرة بموجب الفرمان عالي الشأن، ألقى القبض على الدّفتردار «منصور»، وقال له: «أنت كنتَ واسطة الملتزم «ملك أحمد باشا» لتحصيل عشرين ألف ذهبية،

وأصبحت يدَ رشوته، أنه ماله ميري»، وقيّده في سلسلة وأوْدَعه الحبس، وعندما لزم تحصيلُها عُزل منصور أيضًا، وعرض على «حسين آغا» وظيفة الدّفترداريّة مرّةً ثانية، وجاء وغبّر الوجهَ لمقام العرش العالي، وقرّرت له وظيفة الدفترداريّة بناءً على الالتزام السابق. في أوائل ربيع الأول سنة ألف.

(تعيينُ «زال محمود پاشا زاده محمد بك» أميرَ أمراء «تومانس»)

لمّا كان أميرُ سنجاق إسكندرية «ارنابود» «زال محمود پاشا زاده محمد بك» فائق الأقران بجلادته وشجاعتِه، وصاحب شخصية سماتُها الشّجاعة، ولائق للاعتبار بكلّ صورة؛ أحْسِن عليه بإمارة أمراء «تومانس»، وعندئذٍ غبّر الوجهَ لمقام عرش العزة في الدّيوان الهمايوني. في أوائل ربيع سنة ألف هجرية/ ١٥٩١م.

(بينما كان «محمد بك» ابنُ الوزير الأعظم «فرهاد باشا» أميرَ سنجاق قسطموني أحْسِن عليه بإمارة أمراء حلب)

بينما كان «محمد بك» ابن حضرة الوزير الأعظم «فرهاد باشا» في وظيفة متفرقة البابِ العالي براتب قدرُه مائة وخمس وثلاثين آقجة، وفي نفس الوقت أمير سنجاق «قسطموني» بمضمون قول «الولد سرّ أبيه»؛ أصبح معلومًا للنّاس أنّه كان شخصية شعارُها الشّجاعة، ولمّا جهّز احتياجات الطريق للرحيل واقتربت أيامُ الفراق، أثارته شفقةُ الأبوة وحماسُ البنوّة، فبكتْ عيناه متألّمًا بالآهات، في هذه الأثناء، فجأة صدر خطٌّ همايوني من حضرة السّلطان صاحب العظمة، نصُّه: «ليكن فائق الأقران بإمارة أمراء حلب». في أواسط ربيع الأولى سنة ألف هجرية/ ديسمبر ١٥٩١م.

(تمرّدُ وإهانةُ جندِ الحدود على أميري أمرائهم)

جاءت الأخبارُ المتنوّعة والمتوحشة من جانب الحدود المنصورة، تفيد بأنّ «خدم» لحسا والبصرة وبغداد «لم يمتنعوا عن التمرّد على أميري أمرائهم، وإهانتهم، ولم يكتفوا بإطالةِ اللسان عليهم؛ وبدأوا في إطالة اليدِ بحجّة عدم إعطاء رواتبهم، وقتلوا، وهجموا على آغواتهم وأتباعهم، وعندما هربَ أميري أمرائهم للقلعة، حاصرهم الخدمُ فيها. في أواخر ربيع الأول سنة ألف هـ/ ١٥٩١م.

(صدورُ فرمانٍ بعزل أمير أمراء بغداد، وتعيين «خضر باشا» مكانه)

لمّا صدرَ فرمانٌ بتبديلِ أمراء الأمراء، أمرَ أميرُ أمراء «روان» «خضر باشا» بالتواجد في الحرم المُحترم، ثمّ التوجّه إلى بغداد، وصدر فرمانٌ بأن يتوجّه والي بغداد «محمد باشا» إلى «روان». لكنْ لمّا رجا «محمد باشا» المجيء لمركز الدولة، صدر فرمانٌ بالإحسان على أمير الأمراء «إسكندر پاشا زاده محمد باشا» بولاية «روان ونخجوان» في أوائل ربيع الآخرة سنة ١٠٠٠هـ/ يناير١٥٩١م.

(تضرّرُ رئيس الجاويشية الذي قامَ بتسليم كلّ مِن «ملك أحمد باشا» و«لاله عذرا أحمد أفندي» اللّذيْن عهدَا تفتيشهما إليه، (تسليمهما) لأمير أمراء ديار بكر مقيدين في سلاسل)

صارَ «علاء الدين» الذي هو كالرياح العاتية ومثل الذئب دامع العين، والملتزم بأموال أقلام «ديار بكر» منذ فترةٍ طويلة، والذي يديرُ الأموال الميرية؛ صار مالكًا لأموال كثيرة، ونال «ملك أحمد» الملتزم بتحصيل أموال البقايا التي في ذمته، وظيفةَ أمير أمراء، وأصبح «لاله عذار زاده أحمد جلبي» مُكلّفًا بتحصيل الأموال (مباشر)، وعندما عُيّن دفتردارًا مرّةً ثانية، مالَ لعناد ومخالفة «إبراهيم باشا» أمير أمراء «ديار بكر» لسوء نيّته، بسبب أنّ هناك تسليمًا جزئيًّا من تحصيلاته للخزينة العامرة منذُ عامين، وبناءً على تفْتيش تحْصِيلاته البالغة أربعمائة ألف ذهبية، استدعاه حضرةُ خليفة وجه الأرض، وأصدرَ فرمانًا بتفْتيشه، واجتمع العلماءُ العظام، وأربابُ القلم في حضور الوزير الأعظم مرّاتٍ عديدة، وحضروا جميعُهم، وعندما فتّشوه بعد القيل والقال بلا اتّفاق على رأي؛ لم يفصلوا في الأمر. نهاية الأمر، بناءً على إرساله للتفتيش إلى ديار بكر مقيّدًا، صدر فرمانٌ بتسليمه إلى «إبراهيم باشا»، وبقيت في ذمّته الديون الكثيرة التي جمعَها بالكفالة والرّهن من رعايا الدولة، لرئيس الجاويشية «مصطفى آغا» قائلًا: «ليعيّن «لاله عذار زاده» دفتردارًا للأموال التي استقرضت في السابقة من الخزينة العامرة بناءً على الوجْه السّابق، والتي تمّ تسليمها». وتمّت مصادرة جميع رهائنِه أيضًا لخزينة «إبراهيم باشا» الميرية، وأحْسِن على آغا فرقة عرباء يمين

«جوان سليمان آغا» بوظيفة رئيس الجاويشية بموجب فرمانٍ همايونيّ، وأنْعِم على رئيس الجاويشية «مصطفى آغا» بوظيفة آغا البلوك في ١٧ من الشهر المذكور سنة ١٠٠٠هـ/ يناير ١٥٩١م. ليس مخفيًّا على عرش العزة أنّه لم يبقَ شخصٌ غير أسير للجوْر والظلم بهذه الصورة.

(ع)

المجازاة هي حكمُ السلطان، فلا تبْكِ من الجلاد[(١)].

وترنّم الناس قائلين:

الآن ينبغي أن نصبر على الجور والجفاء الشديد ٠٠

وينبغي يا الله أن نرى ماذا نرى ماذا ستكون النهاية[(٢)].

(وفاةُ ابنين للنشانجي «محمد باشا»)

في اليوم الثّامن عشر من الشهر المذكور، توفّي أحدُ أبناء الوزير النشانجي «محمد باشا»، المتفرّقة وكاتب الديوان المعروف باسم «عبد الله»، في التاسعة عشر من عمره، إثرَ أصابته بمرضِ الجدري. وبعد يومين، لمّا سار ابنه المعروف باسم «عبد الرحمن» في عمر السّابعة عشر، أيضًا متبخترًا إلى روضة الجنان؛ حضر جميعُ أركان الدّولة لجنازته، ورجعوا لوالده العزيز الوجود بالتّعزية والسلوى.

(رحيلُ أمير أمراء «حلب» وذهابه)

في أواخر الشّهر المذكور، توجّه أمير أمراء حلب «محمد پاشا «ابن الوزير الأعظم «فرهاد باشا» إلى سنجاقه، وتوادع مع أهلِه، وذهب إلى حلب، وبِحُسن التدبير أُحسن برواتب الـ «مصر» في التاريخ المذكور.

---

(١) حكم سلطاندر سياست آغلمه جلاددن.

(٢) هله چوق جور وجفا صبر ايده لم كوره لم صوك اوجى خدا نيلر.

(تعيينُ «سنان پاشا زاده محمد باشا» أميرَ أمراء بودين)

لمّا كان «سنان پاشا زاده محمد باشا» المعزول من إمارة أمراء الشام من أقرباء أمير أمراءِ بودين، فقد قبل أميرُ أمراء بودين العزلَ حتى لا يشعر «محمد پاشا» بزلّة العزل القاسية، ووجّهت إمارة أمراء بودين لمحمد باشا. وفي ذلك اليوم كان أميرَ أمراء «طرابلس شام»، وأمير أمراء تونس قد حضرا معًا أيضًا، وكان أميرُ أمراء «طره بلوس شام» خادم «عثمان باشا» قد جاءَ إلى «سيواس»، وجاء «مراد باشا» من قبريس إلى طرابلس، ووجّهت إمارة أمراء «جزائر غرب» لـ «شعبان پاشا»، وكان قد أحسن بإمارة أمراءِ قبريس على صاحب الهدايا «نوح پاشا» في التاريخ المذكور.

(الإحاطةُ علمًا بشكوى أشرارِ ولاية أرضروم ومجازاتهم)

في أواخر جمادى الأولى، جاء بعضُ الأشرار الموجودين في جانب أرضروم لباب الدّولة للشّكوى من خدم الباب، وكانوا قد قدّموا العرضحالات، وشكوا قائلين: «لمّا استوطنت طائفةُ الينى جري بيننا واستقرّت؛ منعوا عملنا وكسبنا، ولم يجعلوا لنا تدخل في المؤن الآتية من الخارج، ويأخذوها رخيصةً بالجور والظلم، ويبيعونها لنا بثمنٍ زائد، وتوطّن بيننا أيضًا سائر أفراد البلوك وجند الجبه جيه والمدفعية وسائقي العربات بلوازمهم، واستخدموا أولادنا وعمالنا، وليس هناك حدّ لظلمهم وتعدياتهم، وخاصة عندما ذهب حضرةُ القائد لمركز الدولة، صدر حكمٌ «شريف»، نصّه: «فلا يبق شخصٌ منهم هنا»، وعندئذٍ لم يعبأوا وأبوا. وبناءً على جعلهم إيّانا في اضطرابٍ وقلق فإنّه من المؤكّد عدم مغادرتهم عن الوطن، وسيكونون سببًا للفتنة العظيمة، ولم يعدْ بمقدرتنا تحمّلهم. فأبعدهم وأطردهم من ولايتنا، وبينما كان أحدُ الخطباء وأحدُ النواب وجاويش، وأحدُ أمراء الأمراء، وبعضُ قطّاع الطرق من أهالي المدينة؛ يتجوّلون، ويطلبون المساعدةَ من هنا وهناك ويتسوّلون، وكان كثيرٌ من الأشرار بجانبهم جاهزين؛ جاءت الأخبارُ الصحيحة من الينى جري والسپاهية بأنّه: أهان هؤلاء لخدم الباب في أرضروم كثيرًا، وطردوهم من المدينة، ونهبوا أموالهم وأرزاقهم، ولمّا أعلم آغا الينى جري «محمد آغا» بشكل مفصّل لمقام العرش العالي بأنّهم صاروا

إمّا آثمين أو أقوياء؛ عندئذٍ صلب الشاكون وتمّت مجازاتهم بالقسطاس، ولمّا تمّ ذلك هرب باعثو الفتنة والفساد، ولم يبقَ لهم أثر.

(عزلُ الوزير الأعظم «فرهاد باشا» بسبب فتنة الينى جري التي لا سببَ لها)

في وقت السّحر من يوم الواحد والعشرين من جمادي الآخر من السنة المرقومة، بينما كان «فرهاد پاشا» آتيًا إلى الديوان بناءً على عادته المألوفة؛ وقعت مشاجرة بين الينى جري، وعندما أرادوا الهجومَ على الباشا قائلين: «تمّ صلب ومجازاة الشكاة القادمين من أرضروم، ولم يؤخَذ حقّنا، وسنأخذ حقّنا مِن الذي يعطي الأمرَ قائلين: «إنّه حقّنا أيضًا: اقتلوا «فرهاد باشا» وأخْرِجوه من بينكم»؛ واجههم «محمد آغا» ورئيس السّكبان والـ«كتخدا بك» «محمود آغا» قائلين: «هاي مدد أيّها الـ«يولداشلر» ماذا تفعلون؟ غدرتم بنا علنًا في ميدان السّلطان». فتفرّق معظمُهم، وفي ذلك اليوم، بناء على تقديرهم قيمة النّعمة التي يمتلكونها وعنادهم، وبإشارة البكم باحتمال أن تكون نتيجة الأمر باعثًا لفتنةٍ عظمى، وبسبب فسادِ بعض المفسدين؛ على الفور جاءت رسالةٌ همايونية إلى الوزير الأعظم، نصّها: «ليعزل آغا الينى جري «محمد آغا» وليُعيّن السّلحدار الموجود في القصر «خليل آغا» مكانه، وليخرج لحجرتك». وبناء على توجيه تلخيص العرض من الخارج إلى الدّاخل، نصّه: ليس لائقًا أن يعزل آغا الينى جري بلا مقابل، أقلّ ما ينبغي أن يعزل أمير أمراء الأناضول، وأنْ يُحسن بإمارةِ الأمراء على خادمك «محمد آغا». نبّه السلطان قائلًا: ليعين «محمد آغا» المذكور أمير أمراء الأناضول، وليرقّى الـ «سلحدار آغا» آغا للينى جري، وليحضر رئيسُ الجاويشية لسدّة الدّولة إكرامًا لأغوات الركاب الهمايوني ولأغوات البلوك»؛ وعندما وصل أميرُ الأناضول «محمد باشا» لقصره، أعلم السّلطان في حجرته عن حزنِه لعزله من وظيفةِ الآغا بسبب الكيْد والمكر، وكتب رسالة، وبسبب ما ذكره فيها مِن الكلام الموحِش والغضب المُخيف قائلًا: «من المؤكّد اتّفاق طائفة الخدم غدا بتلك الصّورة مثيرين عرق السلطنة، ولمّا عرض كذبة البين في صورة الحقّ؛ أصبح ظاهرًا

ومعلومًا للسّلطان، وفي الحال استدعى السّلطان كتخدا البوابين «أحمد آغا»، وعندما جاء صدرَ فرمانٌ نصّه: «عليك أن تأخذَ خاتمَ الصدارة من «فرهاد باشا» وتحضره، فإنّه معزولٌ فلا يبقى في المدينة». وعندئذٍ وصل في الحال، وأخذ خاتم الصدارة، وبينما كان خارجًا من بابه، جاء آغا الَيني جري ودخل، وقال إنّه شؤم قدومك الذي يكونُ بهذه الصّورة. وبينما كان يتابعُ إيصالَ رئيس البوّابين الخاتم للحضور الهمايوني، وإرساله لـ «سنان پاشا» في ملعفره، ففي تلك الليلة، خشية أن تصبح أحوالُ الدّولة قابلةً للفساد، على الفور صدرَ فرمانٌ بتحويله مرّة أخرى، وإرساله إلى «سياوش پاشا»، وفي وقت العصر وصلَ خاتمُ العزّة مرّة ثانية ليدِ سعادة حضرة «سياوش باشا»، وأصبحت العزةُ القديمة مؤكّدةً بموجب القرار السابق، وقالوا: «ماذا يربح من يفتح الدّكان بعد الظّهر». إنّه مثل مشهور. حدث هذا في التاريخ المذكور.

(تلقيبُ آغا الَيني جري السلحدار «خليل آغا» المترقي من القصر)

لم تكنْ طائفة اليكي جري على ميْل بتلك الدّرجة نحو الآغا الجديد، وبناءً على اعتيادِهم منذُ القدم وضْعَ لقبٍ لأغاهم، وبينما كانوا عالمين بأنّ المذكور أُسر أثناء فتح قبرص عندما كان صبيًّا؛ أصبح اسمه «واصل» بلغةِ الرّوم، ولمّا شُوهدت هيئته خشنةَ مِن أوّل نظرةٍ لقّب بـ «واصل آغا»، ويقولونه «واصل آيويه» بلغة الروم.

خلاصةُ القول: إنّه عسكري أوجاق مبارك يريد غناءَ القلب. وبسبب أنه لم يكن مرغوبًا بدرجةٍ لائقة بين الذين يطيلون يدَ الأمل، وسيفصّل القول في موضعه بأنه في وقتٍ قليل خرج مِن بينهم بأنواع الخجل الغائبة والحاضرة، وذهب إلى سنجاق «قسطموني»، إنّ إسرار أتباع وتلاميذه أسلاف والي الولاية، وابتلاءه بذلة عزله، وإسعاد منسوبيه؛ ظاهرٌ لأولي الألباب أنّه اعتاد أن يكون لازمًا للرياح العاتية.

(عزلُ مقابله جي الَيني جري)

فى أواخر جمادى الآخرة، عُزلَ زبدة الأخبار «قره محمد جلبي» الذي هو من أهل القلم، والذي اعتادَ تسخير نور عينه في علم الكتاب سنين طويلة في خدمة «فرهاد باشا»، واعتيدَ استخدامُه في مهامّ قضايا الدين والدولة، والكاتب المختار لدفاتر

المُحاسبات، عُزل مِن وظيفة مقابله جي فرقة اليني جري، ومن وظيفة مقابله جي سائر الفرق. ووجّهت الوظيفة لعجم نقاش «منلا قاسم أفندي» مكانه.

(عزلُ الفقير من وظيفة محاسبجي الأناضول)

وعلى الفور صدر فرمانٌ بعزل هذا الفقير (سلانيكي) من وظيفة محاسبجي الأناضولي، ونُفيَ «قوجه أشق علي چلبي» المشهور بخيانة النفس مرّات ومرّات والمنفي إلى جزيرة قبرص، والذي نجا من قطع اليد هذه المرّة، نفيه إلى «جزائر غرب»، وبينما كان قد خرجَ بشرط أن يضجعَ في السفينة خمسة عشر يومًا، وأن تُقطع علاقته، ولمّا علم «السلحدار آغا الجديد» «جهود جوجه» برشوة المذكور قائلين: «إنّه خيانة وكذب، فهو رجلٌ صادق، ومستقيم». وتشفّعوا له، عرض في صورة الحق، وعُيّن في وظيفة محاسبجي الأناضول مرّةً ثانية في ٤ رجب سنة ألف هـ/ مايو ١٥٩٢م.

(تعيينُ الفقير متفرقة البلاط العالي)

بعدَه، في اليوم السّابع عشر من رجب، بين هذا العبد الفقير سلانيكي الأحوال المليئة بالأحزان على معْرض أقدم الوزراء العظام «سياوش باشا»، ولمّا أعلم أنه: «سابقًا، عندما حقّقت للخزينة العامرة بينما كان كاتب فرقة السلحدارية زيادة قدرها خمسمائة وثلاثة وثمانين آقجة يوميّة التي كانت في مقابل السعي والخدمة التي أظهرتها في بناءِ قلعة «كنجه»، وفي تلك الحملة»؛ قُيّدت بناءً على القانون في دفاتر «رؤوس» القائد عالي القدر برتبة متفرّقة البلاط العالي بترقية راتبي ثلاثة آقجات، وأُعْلمت البشارة لـ «بشير جاوش» الذي حمل خبرَ إلحاقي بزمرة متفرقة الباب العالي بخمسة وأربعين آقجة يومية.

(تعيينُ «خيالي بكزاده «دفتردارًا على «حلب» مرّة ثانية)

بناءً على تجهيز «خيالي بك زادة دفتردار عمر بك أفندي» الأموالَ مسبقًا وتسليمها للخزينة العامرة، في اليوم الثامن عشر من شهر رجب عُرضت عليه وظيفة دفتردار «حلب»، وصدر فرمانٌ بالإحسان بها عليه، وأصبحَ «تذكرجي زاده محمود أفندي» دفتردارَ الشام، وعُزل دفتردارُ الشّام «طوبان علي بك» تابع «فرهاد باشا».

(عزلُ كتخدا اليني جري «يكيجري كتخداسي» محمود بك)

لمّا كان كتخدا اليكي جري «محمود بك» خادمًا قديمًا مترقّيًا بطريق اوجاقه، ترقّى بطريق السنجاق، ولم يرضَ بالسنجاق، وعانى مشاقّ العزل. فى التاريخ المرقوم.

(مجيء السفيرِ من قِبَل شاه العجم «عباس»)

في أواسط شهر رجب، جاء سفيرٌ من قِبَل والي العجم الشاه عباس، وأحضر رسالة، ولم يتأخّر، وبناءً على أصول الدّولة القديمة، انعقدَ ديوانُ الغلبة، وتمّت دعوة السفير المذكور، وأقيمت الضيافةُ له.

(مفهومُ رسالة الشّاه التي شاعت بين الناس)

بناءً على أنّ مفهومَ الرسالة أصبح شائعًا بين الناس، كانت على هذا النحو: قال: «أرسلَ خان كيلان «خان أحمد» سفيرًا لمركز الدّولة سابقًا، وأوصل دفتر المملكة، وليسَ هناك تدخّل للخان في المملكة التي وهبها، فإنّه معلومٌ للناس أنّها أصبحت موروثنا أبًا عنْ جَدّ. واعترض قائلًا: «بناءً على ذلك التقدير، يهب ملك مَن؟ وقال «الآن، بسبب عدم اتّفاق عساكرنا، استولى خان الأوزبك «عبد الله خان» على قلعة «هري» الواقعة في ولاية خرسان، وجاءَ في العام التالي، وحاصر القلعة المعروفة باسم «مشهد»، وأصبح مرادُه من الإعلام بأنّه استولى على الممالك الموجودة تحت حكمه؛ طلب المساعدةَ من جيش الحدود المنصورة في صورة الصداقة، وإلّا كلّما ذهب تجاوزَ الأوزبك قدْرَهم، وأنّ نيّته وعزيمته برغبة زيارة الكعبة العظيمة والروضة المطهّرة من طريق البصرة وبغداد، وربما تغطية كسوة البيت المكرم؛ أمرٌ مؤكّد. وأجيبَ بصواب من قِبَل الدّولة على رسالته، وأُرسل، فليكنْ أعداء الدين والدولة مقهورين دائمًا، ولا يتوقّف أولياءُ سلاطين الدين المحمدي عن تحقيق الظفر والنصر. آمين، واعلم العقلاء قائلين: «إنّ أقصى مرام طائفة القزلباش الأوباش إلحاق الضرر بسبب ما، بـ «حمزة ميرز» المقيم في مركز الدّولة، ومحْو المصالحة القائمة بينهم، وأنّ مراد الخُبثاء أنْ يبدأ حالُ الرعايا للحرب كالسابق مرّة أخرى.

(التبديلُ يعني المبادلة)

في أواسط شهر رجب، صدر فرمانٌ بتعيين أمين الدّفتر السلطاني «كيلاري محمد چلبي» «محاسبجي الروميلي» مرّة ثانية، وأنْ يأتي لمباشرة وظيفته، وبتعيين «يحيى چلبي» في وظيفة أمين الدفتر على وجْه المبادلة.

(عرضُ سوء النّوايا في صورة الحقّ)

قدّم «محمد باشا» أميرُ أمراء الأناضول المترقّي من وظيفة آغا الييني جري دفترَ الموادّ بخصوص الوزير الأعظم «فرهاد باشا» المعزول على حضرة صاحب السعادة خليفة وجه الأرض؛ حيث صدر فرمانٌ بترك تفتيش «فرهاد باشا» مرّة ثانية وتسوية محاسباتِه، نصُّه: «لو صدر فرمانٌ بتسوية محاسبة الإيراد والمصروفات الجارية لحضرةِ السّردار الموماً إليه في الحملات؛ فإنّه من المؤكّد أن تُحصل جميع الأموال لبيتِ المال؛ لأنّ هناك أموالًا كثيرة بين المكلّفين بتحصيل الأموال، في المسائل المهمّة والخدمات».

فلمّا سُئل الوزيرُ النشانجي «محمد باشا» و«عرب زاده عبد الرءوف أفندي» المعزول من الكعبة المكرمة، ودفتر الأموال «سيد محمد أفندي»، وعُيّن التفتيش؛ صدر فرمانٌ نصُّه: ليتمّ القبضُ على أمين النزل الذي هو دفتردار الأناضولي «حسين أفندي»، ورئيس بوّابي حضرة «الباشا» المشار إليه، وليحبسوا عند أمير أمراء الأناضولي»، فتصدّى من هذا الجانب حضرةُ «فرهاد باشا» أيضًا للجواب، ولمّا أخبر قائلًا: «لأن التّفتيشَ بموجب الفرمان الهمايوني أصبح مرادًا. في الحقيقة قال الوزير «محمد باشا» الكلام المعقول. فهو شخصٌ حَسَن، لكنْ هل يلزم تعيينُ شخصٍ من أهل الحق من الموالي العظام، وأنْ يصبح «عرب زاده»، إنّ إجابة هذا القدر من الأسئلة ليس لدى خادم، إجابتها عندي. أنّه كان مكلّفًا بالخدمة بفرماني. أنا كنتُ وكيلَ السلطنة وقائممقامَ الدولة. إنّ جميع ما اشتريته وبعتُه بحسب الشّرع والقانون بعينه في خاطري، ودفاتره معي. فليسألوا، يلزم أن يكون السؤالُ لي. وإلّا ماذا يكون كلامهم في أحدِ فقراء خدم فرقة آلاي؛ عندئذٍ لم ينعقدِ الديوان، وأرجئ.

(بيانُ وإظهار حضرة «سنان پاشا» كلام الحقّ)

لمّا صدر الأمرُ لحضرة «سنان باشا» الموجود في «ملعفره»، نصّه «فليأت»؛ أرسل هو أيضًا الخبر نصّه: «نحن مشغولون هنا بالأدعية لسلطاننا صاحب العظمة دنيا وآخرة، ونعايشُه في أحوالنا، وعندما أصلُ إلى «استانبول»؛ مهْما يقَال من كلام، ينسبُ لنا، ويرجى العنايةُ بنا، وليعف عنّا قبل الوصول إلى هناك».

وشاعَ بأنّه أرسل الخبر قائلًا: «لا يليق التّفتيش للجالسين على صدر الوزارة، إنه بدعةٌ وعملٌ قبيح، وندمٌ شديد، فلا يفعلونه». في رجب سنة ألف [مايو١٥٩٢م] وقبل مرور وقتٍ طويل، وُضعَ عليه جاويش، وصدر فرمانٌ: «ليخرج، وليذهب، ولا يمكث».

(وقوعُ حريق)

في أواسط شهر رجب، اشتعلَ العُشبُ الموجود في منزل «قره كتحدا» الكائن بالقرب من المسجد المعروف باسم «اسكوبلو» الواقع بالقرب من مسجد «آيا صوفية الكبير»، واحترقت منازلُ كلّ من «متولي حاجي محمد آغا»، والمتفرقة «منلا قاسم»، وكاتب الدّفتر، وكثيرين أيضًا، ولحقت الخسائر الفادحة بالمسلمين.

وفي هذه المرّة، كانت طائفة الييني جري رفاقة عظيمة للمسلمين، وكانوا في معاونتهم.

(عزلُ مفتي الأنام «بوستان زاده أفندي» فجأة)

لمّا كانت ليلة السابع والعشرين من رجب من السنة المرقومة هي ليلة المعراج النبوي للنبيّ عليه الصّلاةُ والسّلام، أُشْعِلت المشاعلُ على منارات جوامع استانبول. وأصبحتِ الدنيا منارةً مثل القلوب المُنَيرة، وبينما كانت الرغبة لدى الناس مؤكدة لإحياءِ هذه الليلة بالطّاعات والعبادات؛ حدث انشراحُ الصّدر لكلّ شخص، وبينما كانوا يسْعون لمجالس العلم باهتمام، جاءت في وقت المساء «تذكرة» شريفة بخطّ همايوني من قِبَل السّلطان حامي العالم؛ حيث صدر فرمانٌ بعزل شيخ الإسلام «بوستان زاده أفندي»، وتعيين قاضي عسكر الروميلي «زكريا أفندي» مفتيًا مكانه، وأحْسن على

قاضي العسكر السابق «مولانا أحمد أفندي» بمنصب صدارة الروميلي، وظلّ رعايا الدّولة حيارى لهذا الأمرِ المفاجئ، فالحالُ الذي يوجب العزل لا يمكن أن يكونَ موجودًا، لكنْ أصبحت مدرسة المرحوم السلطان «بايزيد خان» مشروطة للمفتين، وكلّما تيسّر المفتون الذين لم يأتوا للدّرس مرّةً واحدة في فترة تتجاوز ثلاث سنوات، والموجودون حتّى الآن، كانوا يأتون للدرس، وأحيانًا يتركونه. ومع أنّه خصص هؤلاء الدّرس في داره، فعندما سألوا عن الذين لم يأتوا أيّ مرّة، أجابوا قائلين: «عجبًا بقيَ هؤلاء الناسُ بسبب المعاملة بالإنصاف، أمّا المنكرات، أصبحت فوقَ الحد، وكلّما خرجوا لأداء صلاةِ الجمعة يومًا في الأسبوع احتشدوا يقدّمون الرسائل، ولا يجابون بجواب، وبسبب عجزنا واضْطرابنا الشّديد يتجنّبون كسر عرض العلم والدين»، وفي اليوم التّالي عُزل قاضي استانبول مولانا «مصلح الدين» شقيق «بوستان زاده أفندي»، وجاءَ مكانَه قاضي أدرنة المحروسة «جعفر أفندي زاده صنع الله أفندي»، وأصبح «أبو السّعود زاده مولانا مصطفى أفندي» المعزول من «بروسه» قاضي أدرنة. إنّ الأراذل الموجودين باسم «رندان» في شكل جماعةٍ على المقاهي، وفي مدرسة المعارف والذين أصبحوا خائفين من لسان الغيبةِ ومساوئ الأكابر والأعيان؛ كلّ واحدٍ منهم خائفٌ ومرتعش، وذاعتْ شهرتهم وصيتُهم بهذه الصورة في عالم الكون والفساد حيث يقولون لما وصل للسّمع الهمايوني إنّهم قالوا لم يقترفِ المفتي المعزولُ ظلمًا. كان علينا أن نرحلَ الآن. وليكن خان الأوزبك «عبد الله خان» معافًى، فقد أصبح سبب العزل والإهانة. وأصبح سببًا أيضًا لقولهم «قول بوستان جيد»، وقول ذلك أيضًا إنّك كافر، وطلب هذا قائلًا: فلتعط حقّه، وقيل إنّ كلامَ الاثنين لغو.

(عرضُ «حسن باشا» الموجود في مهمّة حراسة ولاية «شيراون» أحوالَ حاكم كيلان «خان أحمد»)

أرسلَ حضرةُ الوزير المكرم «حسن پاشا» الموجود في مهمّة حراسة ولاية «شيراون» العروضَ إلى مركزِ الدّولة، وعرض أنّه: «تدفّق والي ولاية العجم الشاة «عباس» بعساكره صوْب «كيلان» مثل السّيل الجاري، وبينما كانت مملكة «كيلان»

خاتمًا في يد «خان أحمد» صاحبِ العائلة القديمة منذ سنوات طويلة، لم يطرأ الرفضُ والإلحاد على ذرّيته، وبينما كانت طائفة اعتادت التّفاخر بمذهب أهل السنة والجماعة، الآن لم يستطعْ مقاومة عساكر القزلباش، وهربَ مع مقدارٍ من «خواصّه»، وجاء إلى شيراون، واستولى القزلباش الدّناةُ على جميع ماله ومنالِه وعياله، ووصلوا إلى قزوين.

ومِن أجل هذا غبّر «خان أحمد» المذكور الوجْهَ لعتبة السعادة، وأعلم أحواله المليئة بالحزن، وأنّ أقصى مرامِه إعلانُ طلب العدل، وفرمان البلاط الذي ملاذه عدالتكم، في غرّة شعبان سنة ألف هـ [يونيه ١٥٩٢م].

فأرسلَ إلى «حسن باشا» الحكم الشريف، نصّه: «عليك تجهيز حضرة خان أحمد من خزينة شيروان في المكان الذي يريده في «شيراون زمين» وأن تسكنه».

(مفهومُ رسالة والي ولاية العجم الشاه «عباس»)

وأعلم الحال المفصّل في الرسالة التي أرسلها الشاه عباس، قائلًا: «إنّ الخان في منزلةِ صديقنا، لأنّه قبل هذا قبض الشّاه «طهماسب» على المومأ إليه، وأحضره، وحبسه في قلعة «اصطخر» سنينَ كثيرة، وكان قد ملك كيلان لخاناته وسلاطينه، فينبغي أن يعطي السلطان «محمد خدابنده» قزوين للشاه «طهماسب»، وأنْ يشفق عليه، وأنْ يوجّه إدارة المملكة بطريق الاستدانة، فليس هناك تدخلٌ له في «كيلان» حتى ينبغي أنْ يهبَها للأوزبك، ولمّا أصبح معلومًا أنّ إطاعته وانقياده لم يكنْ لنا، وأن جوْرَه وظلمه وقعَ على المملكة، كان قد تمّ الوصولُ إليهم من أجل مجازاتهم بالقسطاس، وهرب المذكور «خان أحمد» أيضًا، ودخل حوزة حكومتكم. إنه مفسد فيلزم أنْ لا يصل، وألّا يكون مانعًا للصّلح والصّلاح، وألّا يكون باعثًا للفتنة والفساد، «وكان قد نبّه وأكّد قائلًا في الرسالة الهمايونية التي وصلت من قبَل السلطان صاحب السّعادة»: إنّها النظرةُ التشاؤمية بكيلان المستقيمة من قبل، وأجاب قائلًا: «حدثت هذه الحركاتُ الشّنيعة الواقعة قبل أن تصلَ رسالته الهمايونية للشاه «عباس»، لكنْ ليس سرًّا مخفيًّا عن الذين يعلمون الأحوال. والسلام.

(توجُّهُ الدفتردار «عمر بك» إلى حلب)

في أوائل شهر شعبان، أبحرَ دفتردارُ ولاية حلب «بسفينة» حسام بك في التاريخ المذكور.

(تعيينُ «علي آغا» رئيس البوابين)

في أواسط شهر شعبان، صدر فرمانٌ بالإحسان على آغا السلحدارية «علي آغا» من العواطف العليّة بتعيينه «رئيسًا للبوابين» وبإلحاقه بأغوات البلاط العالي، والإحسان على «حيدر آغا» الذي هو من أتباع الصدر الأعظم والمعزول من وظيفة آغا العلوفجية اليسار سابقًا، بوظيفة رئيس السلحدارية في سنة ١٠٠٠هـ/ يونيه ١٥٩٢م.

(المجازاةُ للجاويش قاتل القاضي)

بسببِ عدم اتّباع أحد الجاويشية من العمّال، لمراد قاضي أهل الشرع من القضاة، أوقع به وحيدًا، وأصبح ظاهرًا أنّه قتله بالمجازاة في أحد الأماكن، وعندما عُرض هذا على الحضور الهمايوني، صدر فرمانٌ بالقصاص بأشدّ المجازاة أيضًا من الجاويش، وتمّ قتله بالعذاب الشديد في سنة ١٠٠٠هـ/ ١٥٩٢م.

(إقامةُ الضّيافة من أجل سفير العجم، وتجديد منصب حاكم البغدان)

فى أواخر شهر شعبان الشريف، انعقدَ ديوانُ الغلبة (غلبه ديوان)، وتمّت ضيافة سفير الشاه «عباس»، وكُتب الجواب للرّسالة التي أحضرها، وبناءً على القانون القديم، غبّر الوجهَ لمقام العرش الهمايوني تعظيمًا، واختبأ حاكم البغدان أيضًا في حجرة الييني جري، وبشفاعة الييني جري جدّد له منصب الحاكم، ودخل مع السفير سويًّا وخرجوا. وقالوا: «ظهرت هذه الحيلة أيضًا في العالم من طائفة الييني جري، إنّ السبب هو الرشوة، وسيصل شؤمها قريبًا، وندمها مؤكدًا».

(إرجاءُ الإذن لفرهاد پاشا لدخولِ المدينة بينما كان قد أذن له)

فى غرّة شهر رمضان الشريف، بينما كان الإذن الهمايونيّ قد صدر بقبول شفاعة الصّدر الأعظم السابق «فرهاد باشا» المقيم في مزرعته الواقعة في خارج المدينة،

وبمجيئه إلى استانبول؛ أرجاء بناءً على قول بعض وكلاء الدولة: «احتمال أنْ يكون سببًا لشغب طائفة الخدم». في التاريخ المذكور.

(المجازاةُ لمزوّري العملة)

في أوائلِ شهر رمضان، تمّ القبضُ على مزوّري وضاربي المسكوكات في بعض المحلّات، وأحضروا بآلاتهم ووسائلهم، حتّى لمّا قامت بعضُ السيدات بتزييفها، كان إمامُ جامع الوزير واحدًا من مروّجي هذه الأموال المزيفة، فلمّا تواجدوا في منزل أحد السّراجين لم يمنح الأمان لأحدٍ منهم، وتمّت مجازاتهم بالصلب. في سنة ١٠٠٠هـ/ يونيه ١٥٩٢م.

(توجيهُ مناصب الأغوات، والبلوكات)

في أوائل رمضان أصبح رئيسُ الجبه جيه «إبراهيم آغا» آغًا فرقة «عزباء يسار»، وأصبح «ولدان آغا» الذي كان آغا عزباء اليسار سابقًا، ومن أتباع الوزير الأعظم «سياوش باشا»؛ رئيس الجبه جيه، وأصبح «محمود آغا» شقيق «كتخدا قادين» آغا عزباء اليسار؛ أمير أمراء رقه. (مصرع) لا يقاس لمتاع السعى[1] في سنة ١٠٠٠هـ[يونيه ١٥٩٢م].

(صدورُ فرمان بذهاب كتخدا البوّابين إلى « ديار بكر» بناءً على وصول الأخبار الغربيّة منها)

في أواخر شهر رمضان، جاءت الرسائلُ والأخبار الغريبة المتوالية من «ديار بكر»، مفهومُها على النّحو: «لمّا كان «إبراهيم باشا» أمير الأمراء متعسّفًا في تحصيل أموال البقايا؛ لم يستطع الرّعايا تحمّلها، وثاروا عليه، وبدأوا للحرب والنزاع، ونهاية الأمر حاصروا الباشا المذكور في القلعةِ الدّاخلية، وأدّى الأمرُ لفساد عظيم». ولمّا عُرض ذلك على السّلطان توجّه منذُ السّحر كتخدا البوابين بالخطّ الهمايوني والهجوم لعزل الخادم «عثمان باشا» أمير أمراء «سيواس» وإرساله الى «ديار بكر». في رمضان سنة ١٠٠٠هـ[١٥٩٢م]

(١) متاع همته اندازه اولمز.

(مفهومُ الرّسائل المكتوبة من «ديار بكر» إلى الآستانة بخصوص الأحداث الجارية)

بسببِ التّهورِ الشديد لـ «إبراهيم باشا» المذكور، حفّ بيدِه للحية قاضي «أمد» مولانا «زين العابدين أفندي»، وشدّها، وحقّره بأنواع الشتائم، وجّه إليه الإهانات غير اللائقة، ولم يخبرْ «ملك أحمد باشا» وكذلك أمير الأمراء، وأظهره بأقبح صورة، وطلب منه المال، وأمّا «لاله عذار زاده»، فبسبب حُسْن معاملته مع أهالي المملكة أثناء وظيفته كدفتردار، عاشَ بينهم بأخلاقه الحميدة، ولم يتأذّ أحدٌ منه، وبينما كان الناس على رضًا وشكرٍ منه قال «إبراهيم پاشا له»: مِن المؤكد أنّ هناكِ مالًا من مال الرشوة في ذمّة القاضيٍ المذكور، أطلبها». وكلّف الرعايا ما لا يُطاق جبرًا، وحصّل أموالهم الكثيرة بالقهر والزّجْر، وأنزل «لا له عذاره» المذكور بأنواع الزّجر والقهْر في بئر، وجعلَه يعاني محنةَ دنيا الجائع والمحتاج، ولمّا عاند وخالف أيضًا في أخذ ماله ومناله وإعطاء نفقاته لخدمِ تبريز، تواجد مِن أفراد البلوك والييني جري والبوابين، والجاويشية من خدمه، في مركز الدولة؛ وتضرّر أصحاب المصالح واشتكوا من يد ولسانِ الباشا المومأ إليه، ولم يتحدّث أيّ فردٍ عنه برفق في الديوان، وتحدثوا عنه كلامًا فظًّا بعنف، ولم يوقّر القاضي الذي هو أهلُ الشّرع الشريف وأهانهم، فهو ليس شخصًا حسنًا، ولم يستمعْ للّذين نصحوه قائلين: «لا تتصرف هكذا، ستندم».

وخرجَ على الناس كالمجنون بالسّهم والقوس في يدِه الدّنِسة، ولمّا جعل يدَ السيف مملوءة بالقوّة أصبح سببًا للنزاع، وبدأوا لمنعه هذه المرّة بالسلاح، وكلّما ذهب الذين يوقظون الفتنة أثاروا الفساد، وبينما كان أتباعُ «إبراهيم باشا» يريدون حماية سيدهم، وقعَ الناسُ في مشاجرة، وقُتل رجالٌ كثيرون من الطّرفين، ونجا هو بخفة من المجْلس، وبينما كانت قلعةُ «ديار بكر» التي هي على متانةٍ وحصانة، وليس لها مثيلٌ على وجْه الأرض، والتي لم يتيسّر فتحُها إلى هذا الوقت للملوك الذين لديهم صفاتُ فاتح الدنيا، والثّابتة في صحيفةِ الزمان، دخل المذكور لقلعتها الداخلية، وتحصّن بها، وقام الرعايا بعصيانٍ عام، واستولوا على المدافع المنصوبة على الأبراج خارجًا، وألقوا حمَم

قذائفها على القلعة الداخلية، فأطلق أمير الأمراء أيضًا قذائفَ مدافع القلعةِ الداخلية على منازلِ أهالي المدينة وصوامعها ومساجدها، ولمّا جعلَها خرابًا ودمارًا، وصلت طائفةُ الخدم أيضًا، وأحضروا المدافع الكبيرة من قلعة «ماردين»، وأطلقوا قذائفها على أمير الأمراء في القلعة الداخلية، وحصنوا أبواب السور بالأحجار، وجعلوها بابًا واحدًا فقط، وجلس فيها أكثرُ من ألف رجل لمحاصرة القلعة، وترقّبوا، ولم يقدّموا الزاد وزوّاده للموجودين بالدّاخل، وجعلوهم عاجزين لدرجة كبيرة، وجاءتِ الأخبارُ بأنّ الرجال الموجودين داخل القلعة أصبحوا في حرب ودمار عظيم قائلين: «حقًّا، اقتل الباشا المذكور»، وكوّن بعضُ ذوي المسكن في المكانِ المجاور قريةً، وعندما أصبح معلومًا أنّهم أعطوا مقدارًا من المؤن للقلعة الداخلية المستورة، أعلموا بأنّهم خرّبوا القرية المرقومة بأرضها، وهدموها، وبجلاء الموجودين داخلها عن الوطن، وعندئذٍ حلّتِ الحيرة بكلّ شخص بسبب أنّ الحكّام تعاملوا وعاشوا بهذا الشكل معَ الناس، وقالوا: «إنّها من علامات السّاعة»، وأصبحوا مترقّبين لأمر جناب الحقّ الجليل والجبار. في أواخر رمضان المبارك سنة ١٠٠٠هـ/ ١٥٩٢م.

(تبديلاتُ أمراء الأمراء)

نُقل «فرهاد پاشا زاده محمد باشا» الذي كان وزيرًا أعظمَ سابقًا، من وظيفة أمير أمراء «حلب» لوظيفة أمير أمراء «مرعش»، ووصل «بوستانجي علي باشا» إلى حلب، وعندما ظهرَ سعي واستحقاقُ أمير أمراء قبرص «نوح پاشا» ووصلت إرساليته لمركز الدولة؛ عُزل، وذهب «مراد باشا» مرّةً أخرى من طرابلس الشام إلى قبرص، وصدر فرمانٌ بالإحسان على «جانبولاد زاده حسين باشا» بوظيفة أمير أمراء طرابلس الشام بناءً على الهدايا النّفيسة التي قدّمها. وصدر فرمانٌ بتعيين «خادم عثمان باشا» أمير أمراء «سيواس»؛ أمير أمراء ديار بكر، وبمجيء «ديوانه إبراهيم باشا» إلى «سيواس». وحمل الخبر كتخدا البوابين. وفي أواخر رمضان سنة ألف هـ، جاء الخبرُ بأنه عندما عزل «عثمان باشا» من سيواس، وأرسل إلى ديار بكر، أصبح ممنونًا من مكان الاثنين مرّة ثانية، وأصدر الفرمان.

(تعيينُ «محمود آغا» أمير أمراء «قارص»)

أعاق العزلُ «محمود آغا» الجميل، والمعزول بحجّةٍ واهية من وظيفة آغا اليكي جري سابقًا، وبالضّرورة لم يرضَ بإمارة أمراء قارص، وفي أواخر رمضان جاء إلى الديوان وغبّر الوجهَ لمقام عرش السّلطنة. في يوم الأحد سنة ١٠٠٠هـ/ ١٥٩٢م.

(تغيراتُ العصر والأمور المتقلبة)

بينما كان قائدُ الغزاة «فرهاد باشا» في منصبِ صدر الوزارة؛ كان قد أمر بمنع تحرير دفاتر الولاية، وأمَرَ قائلًا: «لو يلزمْ ويقتضي الأمرُ ينبغي أن يصدر فرمانٌ بتحرير الدّفاتر عن مدّة ثلاثين عامًا، وسجّلت الأسماء في رؤوس الديوان، وبناءً على القانون منذُ قديم الأيام تعطى عادة توزيع الأغنام ودفاتر الخروج اثنين للسباهي، وبناءً على إعطائها لأشخاص كثيرينَ بسبب أزمة حملات الشرق، أصبحوا مذلولين بسببِ ظلم وتعدّي رعايا المملكة، وازدادتِ البدع، ولمّا بيعت الدفاتر في مركز الدّولة بثمنٍ مُرتفع، تمّ تحصيلُ الأموال اللّازمة للخزينة الميرية أيضًا، وبقيت، وبناءً على شراءٍ وبيعٍ دفاتر كثيرة، كانت قد وجدتْ صعوبة في إخراج راتب أحدِ الخدم في كلّ ثلاثةِ أشهر، وبسبب أنّه أصبح سببًا للاضطرابِ والاخْتلال، كان قد أعطيَ اثنان للشّخص.

وظهرَ المحتكرون الموجودون في الأطراف والنواحي، وربّما رئيس الجند، فأمر [السّردار] بتقييد مخازن وصوامع السّوق السوداء التي أنشأها من أجل تخزين الغلال باسْمها وصورتها، وكُلّ حسبَ ترتيبها، وسجلوا أسماءها، وعرضها على مقام العرش العالي، وأرسلها مع الجاويشية المهرة والمعتمدين، وأمرَ بهدم المخازن والصوامع جميعِها. بسبب هذا انْخفضت قيمةُ الحنطة والشعير إلى نصف الثمن في استانبول، ولمّا نعم فقراءُ وضعفاء المملكة بالرّاحة بخصوص المعيشة؛ رفعوا أيديهم بالدعاء لمقام الكمال داعين ومُثْنين عليه.

والآنَ أُعطيت الدفاترُ لأشخاص كثيرين كالسابق، وبيعت في الأسواق لمن يزيد في الثّمن، وأمرَرَ محرّرو الولاية الرشاوى على كلّ بابٍ باسم هدايا، وقدر ما كان يوجد من أهل الأنصاف، ظهروا. الحكمُ لله الكبير.

(حلولُ العيد السعيد)

ليكنْ رمضان الشريف من سنة ألف هذه مباركًا على أمّة محمد والملة الأحمدية بالقدْر والعزّة وأنواع النّعَم والسعة، وليكنْ موجبًا للرحمة والمغفرة، لينتهي رمضان، ولتسودّ وجوهُ القائلين للكلام غير اللائق في حقّ حضرة خليفة وجه الأرض، ولتظلم وجوهُ أعداءِ الدّين والدولة، ووجد الناسُ الحياةَ جديدة، وأصبح العيدُ بهيجًا، ووصل الجميع، وغبّروا الوجهَ لمقام السلطان.

(الاختلافاتُ والأمورُ غير المرضية)

في عيدِ شهر شوّال هذا، انتقمت طائفة اليني جري من أحد الخونة من نسل حكّام البغدان، فقدّم المذكور ورقةً مختومة بالأختام في صورة عرضحال مفصّل، يرجو فيها وظيفة حاكم (ويواده لق) البغدان من حضرة السلطان صاحب العظمة، وخصوصًا أنّه وصل للآستانة مع «محمد آغا» رئيس البوّابين من قبل، وسلم ضريبته مع الزيادة المقرّرة، وبينما لم يكنْ قد أتمّ ستة أشهر في حكمه، كان غير لائق أنْ يُعزَل لأنه لم يُؤدّ ثمنَ الأثواب التي أخذها بالإكراميات من طائفة الينى جري، ومن سائر الأكابر، وأيضًا أموال الأوقاف والأيتام التي بقيتْ في ذمّته بالمرابحة، ووقع أصحابها في نزاع ومُشاجرة، وقدّموا متّفقين مع الذين كانت أموالهم في ذمة الحاكم المعزول؛ العرضحالاتِ إلى السّلطان قائلين: «أخطأ آغا الينى جري في هذا الموضوع».

وفي هذه الأثناء، جاءَ إلى استانبول التعيس المعزول من منصب الحاكم بأموال مقدارُها ثمانون حملًا، وبينما كان يقول: «لتُنظر أحوالنا، وينبغي أن تعود طائفة بوليكه للصّواب»، وبينما كان يمحو الخطأ بتبديل الصورة؛ علم الينى جري بذلك فقالوا: «لماذا تُبدّل الصورة؟ على كلّ حالٍ فإنّ أساسها موجود»، وحُبس في تلك الليلة، ونهبوه وسرقوه قائلين: «صدر فرمانٌ بمصادرة جميع ماله ومناله للخزينة الميرية»، وفي اليوم التّالي فهمت هذه الأحوال من «سنان آغا» الذى كان كتخدا الينى جري سابقًا، والمعزول من وظيفة الإسطبل الصّغير، وتمّ حبسُه في «يكيحصار» بسبب أنه أثار الفتنة.

(توجيهُ قضاء مكّة المكرمة)

كانت إحدى البنات التي طالعَها السعد لقاضي «مكة المكرمة» «دوقة كين زاده مولانا عثمان باشا» زيدت فضائلُه لدى النشانجي «محمد باشازاده»، ولمّا رحلت إلى سراي العقبى، وتوفّي أيضًا أخوها «قاضي أحمد چلبي»؛ لم يستطع إدارة الحكم في تلك الأمكنة الشّريفة على أثر شدّة الفراق لأبنائه، وعندئذٍ عُرض هذا على مركز الدولة، ولمّا اختار العزل، لم يقبلْ شخصٌ من علماء عصرنا قضاءَ الكعبة المعظمة.

نهاية الأمر، لمّا قبل مولانا «محمد چلبي أفندي» ابن حضرة معلم سلطان الدنيا، الذي هو مِن مدرسة السليمانية؛ الوظيفةَ برغبته؛ لاقى استحسان الرعايا، وأصبح قاضي الكعبة المكرمة. وبسبب هذا تدرّج في وظائف المدرسين. في شهر شوال سنة ألف هـ/ ١٥٩٢م.

(حلّ وظيفةِ النشانجي، وتوجيهُها)

في اليوم الخامس من شهر شوال، مرض النشانجي «عبد الحميد باشا» أيامًا كثيرة بسببِ إصابته بمرض معوي، ولمّا كان في آقحصار «كيوه»، كان يستعين على كسب معيشتِه بنفسه من «ازّنيق»، حتّى أنّه كان يملك فيها مزرعة، وبعد أنِ اعْتلّ عدّة أيام، لم يكنْ قابلًا للعلاج. نهايةُ الأمر، اختار سفر العقبى، ورحل، وصدر فرمانٌ بأن يصبح رئيسُ الديوان «حمزة بك» أميرَ التّوقيعات مرّة ثانية، وأصبح رئيس التذكرجيه «منلا فرج بك أفندي» رئيسَ الكتاب، وأصبح «محمد چلبي» التذكرجي الثاني.

(تعيينُ آغا الليني جري (يكيجري آغاسي) أمير «قسطموني» «قسطموني بكي»، ومجيء آغا جديد)

في يوم الخميس السّادس من شوال، لم يكن ذا قال سعيد علي آغا الليني جري الملقّب باسم «واصل» أنْ يطلب تجديدَ منصب حاكم البغدان، فعُزل من وظيفة الآغا، وعُيّن أميرًا على سنجاق قسطموني. وصدر فرمانٌ بإرسال حاكم البغدان لوظيفة آغا الليني جري، وبالإحسان على «محمد آغا» الذي أحضرَ الأموال؛ بوظيفة رئيس البوّابين،

وصدر الأمرُ بأن يكون الحاكمُ السّابق مقررًا كما كان في البغدان، وأصبح حاكمًا (وايوده)، وعندما أصبح معلومًا من قول الينى جري أنّه زوّر ما أمِرَ بتمهيره مِن أوراق باسْم عرضحال، وأنّه كان سيئ النية بقوله: «إنّ طائفة خدم آغا الينى جري يريدون هذا ويرْجُونه، واسوه بناءً على توجيه وظيفة حاكم ولاية الأفلاق، بسبب الرّشوة التي أخذها، ولمّا صار معلومًا صفات «واصل آغا» التي سمتها الدناءة، في ليالي رمضان المبارك لحقَ به الضّررُ بناءً على الجور والظلم الذي اقْترفه على فقراء أرباب المقاهي، وكان ذلك سببًا لكتابة التواريخ والغزليات اليومية في صحيفة العالم، وظلّ هو خائبًا خاسرًا، وبناءً على تقرّبه الذي كان في الحضور الهمايوني، لم يصلْ مراده. في شوال سنة ١٠٠٠هـ/ [يوليو١٥٩٢م].

(نظم)

ماذا كـــــان مـــــراده، لم يحـــــدث

وكأن فضلاته قد ردمت وفاحت ريحتها

لم ينل مـــــراده، وذهب، فما الحاصل

أصبح واصل معزولًا (سكبمه صيجدى)[1]

(تاريخ آخر بأسلوب مغلق)

يا ترى أمرت يا سلطاني بكتابة التاريخ قطعـــت رأس وقدمي الحاكـــم[2]

وقال ظرفاء المقهى في حقّه:

الحاصل. إنّ إناء القهوة سيصبح قديمًا/ ذهب واصل إلى قسطموني لحفر قبره[3]

---

(١) مرادى كم ايدى المادى حاصل
بوقين باصمش كبى كومرندى واصل
مرادن ويرمدى كتدى نه حاصل
(سكبمه صيجدى)معزول اولدى واصل.

(٢) عجب تاريخ ايدردك بادشاهم كسيدك باشن اياغن اغانك.

(٣) قهوة جينك قزه نى اسكيجك والحاصل قسطمونى يه قزان طوقمغه كتدى واصل.

(عزلُ كاتب الينى جري)

في هذه الأثناء، عُزل كاتب الينى جري «محمد چلبي» أيضًا بحجّةٍ واهية، وأصبح «كليبولي عالي أفندي» الذي كان دفتردار الأموال في أماكن كثيرة؛ كاتبًا مكانه. وأصبح هذا الحادثُ لدى زمرةِ أرباب القلم واحدًا من الأوضاع غير اللائقة أيضًا، وبعد أنْ أصبح قسمُ الكتاب دفتردارية في أماكن كثيرة، صدر فرمانٌ بمجيئهم مرّة ثانية، وتعيينهم كتبة، وبالإحسان على «محمد چلبي» بوظيفة دفتردار تيمار شهرزور (شهرزورك تيمار دفتردارلغي)، وبسبب أنّه لم يستطع للذهاب، فبموجب كلام «عليكم بالشّام في آخر الزمان» هاجر إلى الشّام دار السّلام قاصدًا الحجَّ الشريف. في شهر شوال سنة ١٠٠٠هـ/ يوليو ١٥٩٢م.

(عزلُ صدر الروميلي)

في الدّيوان الأول من شهر شوال، تمّ عزلُ صدر الروميلي «عبد الباقي أفندي»، وجاء مكانَه صدرُ الأناضولي «مولانا أحمد أفندي»، وأصبح «صنع الله أفندي» قاضي استانبول صدر الأناضولي، وأُحْسن على «خواجه عطا الله أفندي زاده شمس أفندي» المعزول من أدرنة المحروسة بوظيفة قاضي استانبول (استانبول قضاسي) في ٩ شوال سنة ١٠٠٠هـ/ يوليو ١٥٩٢م.

وقال الذين بيّنوا سببَ عزله: «كُلّف المذكور باحتواء ما بين مولانا عمر الذي نشأ في الحرم المحترم والمتواجد باسْم مدرس، والشيخ «شعبان أفندي» الذي هو من مشايخ الطرِيقة النقشبندية، وتواجد بجانب السلطان». وخلاصةُ القول، نال العزل المفاجئ بلا جرم، وبلا ذنب، ولا عن شيء.

(صدر فرمانٌ نصُّه «ليحسن على رئيس الجاويشية «مصطفى آغا»، بالسّنجاق، وليتوجّه إليه)

قبلَ هذا، بينما كان «مصطفى آغا» في وظيفة رئيس الجاويشية، فجأة صدر فرمانٌ بالإحسان عليه بوظيفة «آغا عزباء اليمن»، فقال أصبح سواء ذلك أو هذه مقبولًا منك،

وشكر الدّوام النعم الإلهية، ولمّا أُحسن على رعايا الدّولة بمقتضى مقولة «خير الناس مَن ينفع الناس»؛ سخي وأكرم الفقراء والعلماء والمشايخ، وبينما كان يقوم بالسّعي الموفور، وببذل المقدور لحصول مرام أكثر أرباب المصالح باللطف والإحسان؛ وقع كيدُ الأعداء المؤلم، وعندما أعلموا السلطان بعض الكلمات بخصوصه؛ صدر الحكمُ الشريف من أجل تعيينه أميرًا على سنجاق «غزة» في ولاية الشّام، وتوجّه إليه، ثمّ صدر فرمانٌ بذهابه. في شوال سنة ألف هـ. وجاء «آغا عزباء اليسار» «إبراهيم آغا» مكانه، وأصبح واحدًا من الذواقة آغا البلوك مكانه وبعده، تمّ التّنبيه والتأكيد الصّارم بـ: «فلا يبقى مصطفى آغا، وليعبر إلى «إسكدار»». ووضع عليه الحرس، وامتثل للأمرِ مكسورَ الخاطر، وعبر إلى «إسكدار» باكيًا ومحترقَ الفؤاد.

(عزلُ كتخدا الوزير الأعظم، وتعيينُ «مصطفى بك» كتخدا بسنجاق، وبترقية مائة ألف آقجة)

في أواسط شوال، صدر فرمانٌ بعزل كتخدا الوزير الأعظم «سياوش باشا» «حيدر ميرزا»، وأُحْسِن بوظيفة الكتخدا على «مصطفى بك» الخادم القديم، وأمير سنجاق «أغريبوز»، وبناءً على إتمامه القصر العالي الذي أنشئ على ساحل البحر ببذله الجدّ والجهْد في خدمته، وبناءً على ترقيته السنجقية بمائة ألف أقجة، والإحسان عليه بخلْعتين فاخرتين، وإدارة رجاله المعتمدين لسنجاقه؛ صدرَ الخطّ الهمايوني من أجل تعيينه في وظيفة كتخدا الوزير الأعظم.

(عزلُ الـ «متولي»)

ومرّةً أخرى في شهر شوال، عُزلَ متولي المرحوم السّلطان «محمد خان غازي»، «مجلد أوليا محمد چلبي» بلا سبب، وأصبح «أقطس بريادكار» متوليًّا مكانَه.

(عزلُ كاتب السپاهية)

ومرّةً أخرى في شهر شوال، هجمَ السپاهية على كاتب فرقة السپاهية «مطراقجي بنكي علي» أثناءَ توزيع الرّواتب، وأخرجوا من جيبه مقدارًا من الذهبية قائلين:

«صراحة، أنت سرقتَ الذّهب، نحن رأيناك»، وعزلوه بالتهمة. وأمروا بعزله قائلين: «أمين الصندوق أيضًا سارق»، وعيّنوا كاتبًا أعجميًّا أيضًا مكانَه. في أواخر شوال.

(عزلُ آغا دار السعادة «سرور آغا»)

في أواخر شوّال لم يستطعْ أغوات الحرم الصّبرَ والتحمّل لمنع غلمان باب آغا دار السعادة «سرور آغا» من كثرة المعاملة مع أهالي الضّواحي، وبسبب أنهم عاندوا متّفقين، صدر فرمانٌ بتبديل علوفات «سرور آغا» مع ثلاثةِ أشخاص من غلمان البابِ إلى نواحي مصرَ المحروسة، وصدر الأمرُ بأنْ يدخل للسفن المجهزة، وأنْ يتوجّه إليها، وصدر فرمانٌ بالإحسان بوظيفة آغا دار السعادة على آغا السراي العامرة، وصدر فرمانٌ بأن يكون الآغوات البيض حاكمينَ للآغوات السود بالزجر والقهْر.

(صدورُ الأمر بتفتيشِ الذين أهانوا لخدم البلاط المعلا في أرضروم سابقًا، ومجازاتهم بالقسطاس)

قبلَ هذا، عندما تأهّل الكثيرُ من أفراد البلوك، وطائفة الييني جري، وأفراد الجبه جيه، من المعسكرين في حملات ديار الشّرق، وتوطّنوا في أرضروم واذربيجان وقراها؛ لم يكنْ أهالي الولاية راضين ومْنونين على تلك الدّرجة، وبسبب عدم معيشتهم، حقروا أشرارَ الولاية وأهانوا خدمَ الباب، وتناقشوا بحدّة. خلاصةُ القول، عندما أصبحت وقاحتُهم زائدةً عن الحدّ، بدأوا للتّجرؤ على العوام بموجب الاتّفاق القديم لطائفة الييني جري. وفي أثناء الحرب والضّرب كان قد انقسمَ الفيلق، ونُصفت الرؤوس، وسُرقت الأثوابُ والمؤن، وتمّت مجازاة الأشرار الشّكاة الذين جاءوا لمركز الدّولة في هذا الأمر سابقًا، وأصبحت باعثًا على الحوادث غير المأمولة، وصارت سببًا لعزل الوزير الأعظم.

والآن، مثلما لزم هذا الأسلوب «لجركس فرهاد باشا» الذي هو أميرُ أمراء في أرضروم مرّةً ثانية، كان قد فتّشهم، وأصبح المجرمون معْروفين، وعيّن الخاصكي «إبراهيم صوباشي» حارسًا بالأمر الشّريف، نصُّه: «عليك بمجازاتهم بالقسطاس».

وعندما وصلَ لأرضروم أعلم بأنّه «اجتمع أهالي المملكة في جميع غفير، وتمّ التّفتيشُ والتحقيق مع أهالي الشّناعة وباعثي الفتنة، وقُيد الوضيع والشريف والقويّ والضّعيف في سلاسل، وتمّت مجازاةُ أربعة عشر نفرًا من الأشخاص الأعيان، وتمّ قتلُ الجبه جي «عبدي»، والمحتسب «كلابي»، وآخرين؛ بأشدّ العذاب، وتمّ أخذُ أموال كثيرةٍ بدل المجازاة من جميع أهالي المملكة، وأفنوا الأموالَ الكثيرة، وهتكوا العِرْض من أجل خلق النظام والانتظام».

ورويَ أنّه انتشرت خيانةُ وقباحة هذه الطّائفة أيضًا، وطالت مولانا حسام الدين أفندي خطيب جامع مراد پاشا، والذي هو مِن العلماء الصلحاء، وقُبض عليهم واختيرت الأوضاعُ والأطوار غيرُ اللائقة بشأنها، وعلمتُ أنا (سلانيكي) أنّه شخصٌ من أهل التّقوى، وليس هناك نهاية لعلمه وفضله. الحكم لله. في الشهر المرقوم سنه ١٠٠٠هـ/ يوليو١٥٩٢م.

(وفاةُ أشخاصٍ كثيرين في «استانبول» بسبب الطّاعون)

في شوال من سنة ألف هجرية هذه، وفي هذا الشهر، بناءً على استمرار وجود مرض الطّاعون منذُ وقتٍ طويل في هذه المدينة، وفي الأطراف والأكناف، قدّم ساقي الأجل كأسَ الموت من مجلسٍ لمجلس، وبدأ لجعل رعايا الدّولة ثهالى وحيارى، خصوصًا بدأ الصّبايا المدلّلين يبكون، واحترقت أفئدتُهم من مرض الطاعون. إنّ العقول عاجزة وحائرةٌ عن بيان الحالات الواقعة، ومهما كان، بفضله تعالى، نجتْ عائلات كثيرة من القضاءِ المُبْرم، وتمّ عزلُهم عن الثّهالى، ونجا الثّهالى، وكثيرون أيضًا كانوا قد ودّعوا الدّنيا الفانية، وساروا مُتَبخترين إلى روضة الرضوان.

(وفاةُ «محمد بك»)

لمّا عُزل أميرُ اللواء «محمد باشا» شقيق «داماد إبراهيم باشا» من السنجاق أثناء ثورة طاعونِ استانبول، واستقبل ذلك الطّاعون المبارك، الحبيب المسافر للقاء الرحمن، وتواجد «محمد بك» المذكور أيضًا في دفتر ضيافتِه، لبّى الدعوة في أيام الوباء هذه، ورفرفتْ رايةُ عزيمته إلى عالم العقبى، وحضر جميعُ أركان الدّولة

لجنازته، وكان الطّاعونُ قد أخذ ابنة المرحوم وليّ العهد السلطان «محمد خان»، وابنة «هما سلطان». ودُفنتَا في حرم القبر، وحُكيَ بأنّه وَرَثَ أموالًا كثيرة، ورُوي أنّه: «عادت لذرية السّلطان المرحومة» في أواسط ذى القعدة سنة ١٠٠٠هـ [أغسطس ١٥٩٢م].

(وفاةُ رئيس المتفرقة)

عندما تواجدَ «إبراهيم آغا» الذي كان كتخدا الينى جري سابقًا، والذي هو رئيس متفرقة البلاطِ العالي ذات التيمار بزعامةٍ قدرُها ألفان وخمسمائة آقجة، توفّي بسبب الطاعون المبارك؛ وتمّ توزيع معاشِه على ذوي النّصيب. في أواسط ذي القعدة سنة ١٠٠٠هـ/ أغسطس ١٥٩٢م. وقال المرحوم الموماً إليه: «الحمدُ لله عندما رأيت في منامي حضرةَ النّبي موسى عليه السّلام، وطلبت المدد؛ بشّروا قائلين: «لا تخفْ، أصبحت مظهرَ عناية الرحيم، وستختم حياتَك بالإيمان الكامل»، وجعلوني أشاهدُ المقامات العالية». رحمة الله عليه.

(قصةٌ غريبة)

في هذا الشهر، بينما كان أحدُ العمّال ثملًا في المطبخ العامرة، أطلق طلقاتِ الطبنجة بضعَ مرّات على أحدِ العمّال اليولداش، وبينما كان المضروب يقطع دجاجةً في يده أمسك السكين، وغمزَ بها ضاربَ الطبنجة، وبالقضاء الرباني لم يصرخ الحقيرُ المقتول، وبناءً على قتله أصبح الجرمُ جرمَ القاتل، فأمر حضرة السلطان أيضًا بمجازاته. وفي اليوم التالي، ضرب أحدُ (اليولداشلر) العمّال حبلَ القاتل المعْدوم في الموضع الذي صُلب فيه قائلًا: «نفذ أمر السلطان»، وعندما سقط على الأرض وضعَ فوقَه حصير، وفي الحال رفع جثّتَه، ومن أجل دفنه عزم على إمراره من باب الإسطبل إلى «إسكدار»، ووضعه في قارب، وبينما كان قاصدًا الذّهابَ دبّت الحياةُ في الحقير المذكور، ولمّا نجا من المجازاة بالإعدام وعاش، لم يستطع المراكبيّ التجرّؤ على المرور إلى النّاحية الأخرى، وعندما شاعت هذه القصة، أحاطَ أفرادُ المطبخ علمًا، وبدأوا يقولون: «هاي مدد» فني جرم التّعيس، منحه الله تعالى الحياة».

وفي اليوم التالي، أحضروه للدّيوان مرّةً أخرى. وفي الحقيقة لمّا أصبح معلومًا أن قصدَه كان مقترنًا بالحيلة تمّ القصاصُ منه وضُربَت رقبتُه. في أواخر ذي القعدة سنة ١٠٠٠هـ/ ١٥٩٢م.

(مجازاةُ «جعفر باشا» بسبب دناءةِ الجند الموجودين في مهمّة حراسة «تبريز»)

في هذا اليوم السعيدِ لم يعقَد الدّيوان، وفي الوقت الذي كان فيه الهواء لطيفًا، أحضر رجالُ الوزير «جعفر باشا» الموجود في مهمة حراسة «تبريز» العروضَ للدّيوان الهمايوني، وعرضوا وأعلموا بأنّه قال في مضمونها المنيف: «إنّ خدمَ «تبريز» التابعين لكَ خرجوا عن جادّة الإنصاف، وإنّه ليس هناك نهاية لجوْرهم وشناعتهم التي تجاوزتِ الحدّ، وإنّهم يُلحِقون الضررَ والخسائر بعامّة الرعايا تدريجيًّا، ولا يحسنون المعيشةَ مع خدم سدّة السعادة الموجودين هنا، ماذا تقول غير أنواع الجور والظلم؟ وعرضت أنت إحضار جندٍ إنكشارية الباب لمهمة حراسة تبريز».

ولّما أصبح معلومًا يقينًا أنّهم استولوا فجأة متّفقين على مخزن الأسلحة، وأنهم اسْتَحوذوا على جميع الأسلحة والمدافع والبنادق، وأنّ أقصى مرامهم كان القضاءَ على المومأ إليه؛ خرج حضَرةُ الباشا بحُسن الرأي والتدبير إلى قلعة «حومنه» وتباحث معَ القوّاد المعتمدين من أمراء الأكراد الموجودين في الأطراف والنواحي، وجمع الجيش قائلًا: «بناءً على حُسن الاتّفاق يوجد حصر»، وحضر خدمُ تبريز لاستقبال حضرةِ الباشا مكمّلين ومسلّحين، ومن قبْلُ تباحث آغا حاملي البنادق مع الباشا المرقوم وقال إنّه في الوقت الذي أقمتمُ الأفراح، وبعد أنْ أطلقتم بنادقكم؛ لا تستطيعون إيقادَ المشاعل أيضًا، نحن نتباحثُ مع الطائفة المثيرة للفتنة والفساد بين هؤلاء، وسنجازيهم بالقسطاس. وعلى هذا المنوال، قبل المقابلة عيّنوا أربعين شخصًا مِن الأعيان من سفّاكي الدّماء المعاندين المشهورين بباعثي القيل والقال، وبينما كان بعضٌ من هؤلاء موافقين، وبعضُهم متأرجحًا، فبمقتضى مفهوم «أنّ الدّولة في جانب القضاء»؛ أشهروا سيفَ الانتقام على ألفٍ وخمسمائة من الملاعين مريدي الفتنة، السّفاكين. وفي الحال أصبحت طائفةُ الخونة والجبناء طُعمًا للسّيف البراق، وغيرُ النّاجون من

الحرب قرارَهم للفرار، ولم تكنْ هناك قدرةٌ وإمكانية للدخول لقلعة «تبريز» المتشعّبة، وتجوّلها الخائبون والخاسرون مذهولين حيارى، وتمّت مصادرةُ الأموال والمؤن التي استولوا عليها بسفكِ الدّماء من رعايا الدولة، بأكملها لبيت المال، وصُرفت رواتبُ الباقين بحياءٍ وأدب، وبقيتْ رواتب المخذولين المذكورين «محلول «للخزينة العامرة، وأصبحت الحدودُ المنصورة طاهرةً من وجودهم الدّنس، وبسبب طائفة مخْذوليهم الأراذل والأوباش مُحْدثي النعمة؛ تحقّقتْ منفعة عامًا بعد عام قدرُها مائةُ ألف آقجة لخزينة «تبريز»، وعندئذ صدرَ فرمانٌ بالإحسان بالخدمة على نفريْن من الآغوات الذوّاقة. في ذي القعدة سنة ١٠٠٠هـ/ ١٥٩٢م.

وجاءَ بعضُ مُحتالي «تبريز» لمركزِ الدّولة للشّكوى من «جعفر باشا»، وطلبوا الحق، وبدأوا للدّعوى في صورة الحقّ، وجمعوا الأشرارَ جانبهم، وفهِمَ حكّام الديوان أحوالهم، وقالوا لهم: «ألستم أنتُم الذين أنزلتم الشيخَ من المنبر في «تبريز»، وقتلتموه وأحرقتموه؟!». فأُلقي سبعةُ أشخاص من الشّكاة المذكورين في البحر، وتخلّصت الدنيا من الفتنة والفساد.

(مناجاةُ رعايا الدّولة من أجل زوال الطاعون)

في يوم الخميس الثّالث من شهر ذي الحجة، وفي وقت السحر، بموجب الفرمان السّلطاني، حضر عامّةُ الرعايا مع جميع أركانِ الدّولة والعلماء العظام والمشايخ الكِرام من أمام «قاسم باشا» إلى صحراء «ميدان تير» من أجل دفع البلاء وردّ القضاء وجلْب الصّحة والشفاء، واستمرّ وجهُ دعائهم حتّى وصل لتراب المسكنة، ودعوا ورجوا بالسّجداتِ والتأوّهات لبلاط الأحدية وعرش العزّة، وقالوا: «إنّ الحقّ سبحانه وتعالى سيقبلُ أنين وتضرعاتِ عبيده العُصاة واللازمين الاستغفار، بحرمة حبيبه المُصطفى عليه الصّلاة والسلام، ورفعوا أيديهم بالدعاء.

(إبحارُ القيودان باشا بالسفينة الباشدارده)

في هذه الأثناء، جهّز القبطان «جغاله زاده سنان باشا» سفينة الباشدارده العظيمة، وجهّز هو بنفسِه أيضًا سفينةَ «جعفر باشا» المجهّزة والمسلّحة بالـ «يولداشلر»

المُعتمدين، والمرافقة له، وخرجَ من البوغاز خارجًا، وتوجّه قائلًا: «ينبغي أن تكون سفنُ الأكابر هي السفنَ التي تحمل التّركة، والتي تذهب لولاية الكفار من أجل بيعها»، وقال: «أينما حصلت المنفعة، خرجت لهم».

(الغزو الذي قامَ به والي البوسنة في تلك الحدود، والذي هو سببُ الحوادث)

ومرّةً أخرى، في هذه الأثناء، بينما كان أميرُ أمراء البوسنة حضرة «حسن باشا» الذي كانَ من خدّام السلطان حامي العالم سابقًا؛ رئيس مربّي الصقور في الحرم المحترم، ترقّى بوظيفة رئيس مربّي طيور الصّيد، وبينما كان مقبول القول من الخدم ذوي الاحترام، كان قد ترقّى للسّنجاق بطريق ما، وظهرت شجاعتُه ورجولته على الحدود، وأصبح أميرَ أمراء البوسنة. وجاء الخبرُ بأنّ القلعة المحكمة الموجودة في أيدي أعداء الدين على حدود البوسنة والواقعة على ساحل النهر العظيم كانت على أعلى درجةٍ من الحصانة، وبواسطة الـ «يولداشلر» الأكفاء ذوي شعار الشجاعة، وبحُسن الرّأي والتدبير؛ فتح واستولى على القلعةِ المحكمة، واستخلصها من أيدي الكفار الأذلّاء، وفتح كثيرًا من القلاع المجاورة أيضًا، وقام بالغزو العظيم، وقال أهلُ الوقوف مُثنين ومادحين خادمَ الحدود المنصورة القديم: «لو بُنيت قلعةٌ متينة من جديد تعودُ بالمنفعة للممالك الإسلامية، لكانَ قد استولى بهذه الوسيلة على المملكة العظيمة، ولتحقّق الفتح والاستيلاء على الخزائن الموجودة في أيدي أعداء الدين، وفي نفس الأمر، أخبروا قائلين: «لو بذل المقدور كما ينبغي في الحفظ والحراسة، وفتح العساكر والأمراء الشّجعان طريقًا مباشرًا لولاية «بج»؛ لا يحتاج العسكر المنصورة بعدَ هذا للدّوَران من «بودين»، فإنّه سيكون طريقًا أسهلَ وأهونَ بكلّ صورة». في ذي الحجة سنة ١٠٠٠هـ/ سبتمبر١٥٩٢م.

(تجديدُ وظيفة مربّي وليّ العهد حضرة السلطان «محمد» وسائر أركانه)

صدرَ فرمانٌ بعزل «رمضان أفندي» مربّي وليّ العهد المحظوظ واللائق بالتاج والعرش السّلطان «محمد»، وتعيين الشّخص المعروف باسْم «مكه لي جاوش» الذي كانَ نشانجية ودفترداره، والذي شُوهِدَ صدقُه واستقامته، «مربّيًا» بناءً على القانون،

وصدر فرمانٌ بالإحسان على النشانجي بوظيفة الدفترداريّة، وعلى الرئيس بوظيفة النشانجية. في شهر ذي الحجة ١٠٠٠هـ [سبتمبر ١٥٩٢م].

(صعودُ رعايا الدّولة على جبل «علم» للدّعاء من أجل دفع البلاء وجلبِ الصّحة والشفاء)

عندما انتهتِ الأيامُ المعلومات[1]، في أواسط ذي الحجة؛ خرجت الأخبارُ من قبل حضرةِ خليفة وجْهِ الأرض، وبموجب الفرمانِ السّلطاني، نصُّه: «ليصعد عامّةُ العلماء والصّلحاء والفقراء من أهالي المدينة على جبل «علم»، وليناجوا متضرّعين لبلاط الحقّ حتّى يزول الطّاعونُ من المسلمين»؛ أمرروا العلماء الكرام والمشايخ العظام بالسّفن القادرغة لناحية قلعة الأناضولي، وبناءً على مرور أشخاص بلا حدّ وبلا حصْر، لم تفتَح الدّكاكين في المدينة، وسافروا على متْنِها ليلة. وفي سحر اليوم التّالي، قاموا بجماعةٍ عظمى بالدّعاء والثناء راجين ومتأوّهين إلى مقام الحقّ من أجل دفْع البلاء، وبمقتضى قول: {ادْعوني أستجب لكم}؛ عرضوا حاجاتهم على عرش العزّة، وارتفع إلى الملأ الأعلى نداؤهم: «اللّهم تقبّل منّا» بتذلّل وانكسار شديد، واقْتُدي بالصّدقات السلطانية، ولمّا بذل رئيسُ البوستانجية أنواعَ النعم الكثيرة، شكر كثيرًا، وبينما عدّ ثلاثمائة خمسة وعشرين ميتًا خارجين من أبواب المدينة، انخفضت إلى مائةِ شخص، وطفَا الغرقى، وتيسّر الشّفاء للمرضى، وبعونه تعالى، أطلقوا سراح المحْبوسين من أجل قبولِ الأدعية، وقصدوا إصلاحَ قلوبهم، وعفوا عن «جركس حيدر باشا» المحبوس في القلاع السّبع (يدي قله) من قبل، وأمير الإسطبل الصغير «سنان آغا» المحبوس في «يكيحصار»، ومصطفى آغا الذي هو مِن آغوات البلوك، والذي صدرَ فرمانٌ بذهابه إلى سنجاق «غزة»، فأطلقوا سراحهم من أجل إجابة الدعاء. وعندما عُرض بأنّه توفّي أكثرُ من أربعين شخصًا من خدم «مصطفى آغا» المذكور، ولم يكنْ مُمكنًا الذّهاب بأيّ صورة، واختار العزل؛ صدرَ فرمانٌ نصّه: «فليتقاعد». في أواسط ذي الحجة.

---

(١) الأيام المعلومات: اليوم الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر من شهر ذي الحجة، وتسمى أيام التشريق.

(وفاةُ «كيلاري محمد أفندي»)

ابْتُلي محاسبجي الروميلي «كيلاري محمد أفندي» بالمشقّة أيّامًا كثيرة بسبب مرض الطّاعون، ولم يتيسّر له الشّفاء، وعندما رحلَ لدار البقاء صدرَ فرمانٌ بالإحسان على «متولي» السّلطان «بايزيد خان» بالوظيفة مكانَه. وتمّ مصادرةُ أكثر ميراث المرحوم لجانب بيت المال، وأحسن على ورثته بالشيء القليل.

(بدْءُ مجيء أخبار المعركة الواقعة مع الكفار)

في هذه الأثناء، لمّا جاء حضرةُ «حسن باشا» بالكفار طويلي القامة بطبلهم ونفاراتهم مكنسة سناجقهم، مقطوعة رؤوسهم، وبالأحياء منهم الذين أسرهم في غزواته التي قام بها على حدود البوسنة؛ جاء بهم للديوان مكبّلين بالأغلال؛ حدثت كامل البشرى، وأحاطَ كثيرٌ من الموجودين في داخل وخارج الحرم المحترم بالأحياءِ والأموات من أقربائهم والمنسوبين إليهم، وصاروا مسرورين. في ٣٠ ذي الحجة سنة ١٠٠٠هـ/ سبتمبر١٥٩٢م.

وبدأوا للتّجهيز لوسائل الحملة قائلين: «أصبح عقلاءُ العصر وفطناء العالم حيارى بالتّفكير في نتيجة الأمر، وصار الوضْعُ بينهم وبين الكفّار الملاعين مختلًّا ومُضطربًا، ولزم أنْ تصبح الأحوالُ نوعًا آخر من هذا الجانب، وأصبحت سببًا لنقض العهدِ والميثاق الصّارم بينهما منذ وقتٍ طويل».

(مَجيء رئيس البوابين من «ديار بكر»)

في أواخر شهر ذي الحجة، خلص «أحمد آغا» كتخدا البوابين الذي توجه بالرسالة إلى «ديار بكر» خدم «ديوانة إبراهيم باشا» من أيدي أهالي الولاية، أو بمضمون كلام «الصّلح سيدُ الأحكام»؛ وصلَ لتصحيح الأوضاعِ، وجاء، وبعد أنْ أخبر بأمانة الولايات، واستقامة الأمراء، أحضر الدفتردار قائلًا: «توجد مائة وخمسون ألف ذهبية مِن المال المغصوب في كيس، وستأتي». وقال: «الحمد لله تعالى» تحقّق فتح جديد.

وقالوا: «أوّلًا رحل شيخُ العصر المدعو باسم «علاء الدين بك» إلى دار العقبى، وبعدَه، لم يتحمّل «ملك أحمد باشا» أيضًا الزجْرَ والقهر، ولمّا ترك الدنيا، شرب كأس الأجل.

في الحقيقة، كان هذان الملتزمان خبيثَا النّوايا قدْ أداروا أموالَ المقاطعات سنين كثيرة كأمْلاكهم، ولم تبقَ وسيلةٌ وإمكانية لتخليصها من أيديهم بأيّ وسيلة قط. إن تطهير تلكَ المملكة من وجود المذكوريْن الذي دناسته الخباثة، ليس هناك شكٌّ بأنّه فتحٌ جديد. فى التاريخ المرقوم.

(نظم)

بداية الكلام الطيب الذي يصنعه أهل الكمال بثنـــاء ملـــك الملك الله المتعـــــال[1]

(شهرُ محرّم الحرام سنة إحدى وألفٍ من الهجرة النبوية للنبي عليه أفضل التحية)

إنّ وقائع العصر والحوادثَ الديوانية التي قُيّدت وحُرّرت في الزمان الشريف لسلطان الغزاة والمجاهدين الحاكم عالي الشّأن السلطان «مراد خان» خُلدت خلافته إلى انقراض العصر؛ مدوّنةٌ بالدفتر ابتداءً من السنة المرقومة، ودوّنت أيضًا أحوالُ الملك والملّة الواقعة في الممالك الإسلامية، وعلى الحدود المنصورة، والتي ظهرت من رأي وتدبيرِ كلّ أمير أمراء مشهور، ذي شعار الشجاعة، والمملوء بالعدالة، والأمراء ذوي الاقْتدَار، والأمور التي أُعْلمت لمركز الدولة. قُيّدت في تلك الأوراق المبعثرة. وعندما تُذكَر بمرور الأيام وكُرورِ الأعوام، ليتها تكونُ سببًا للدعاء والثناء. ومن الله العصمة والتوفيق».

(١) افتتاح سخن آن به كه كنند اهل كمال بثناى ملـــم خـــداى متعـــــال.

(إرسالُ أمير أمراء الحدود المنصورة «حسن بك»،
الأَسْرَى والرؤوس إلى مركز الدولة)

في أوائل محرم، جاء الأسرى والرّؤوس من «حسن بك» أمير «كوله» المترقي للسنجاق بينما كان أميرُ الإسطبل الصّغير من قبل، وسعى معَ الشّجعان القدامى والأبطال ذوي الشّجاعة في الحدودِ المنصورة صوب قلعة «اكري»، وبعونه تعالى كانت الفرصة والنّصرةُ لغزاة الإسلام، وقاموا بالجهادِ العظيم في سبيل الدين المبين، وأسروا الكفار الجواسيس المَهَرة، والمشهورين، وقيّدوهم في السلاسل، وجيء برؤوسهم، وطبولهم وأعْلامِهم منكوسة، وقدّموهم في الديوان الذي عنوانُه العدالة. ولمّا أصبح سيفُ السّلطان حامي العالم غالبًا، وكُسرت شوكةُ أعداء الدين، أصبحت قلوب المؤمنين مَسْرورة، وباشرَ كلّ شخصٍ الإعدادَ لمهمّات الحملة، ورغبَ في الذّهاب إليها. «اللهم افتحْ لنا أبوابَ الخير».

(خبرُ الخطابِ القادم من حاكمِ المجر للسّفير المقيم في مركز الدولة)

جاءَ خطابٌ بخاتم «القرال» مِن قِبَل حاكم المجر للسّفير المقيم في مركز الدّولة قال في مفهومه: «فلا يجعلون الهدايا والقروش الآتية حتّى الآن من قِبلنا لعتبة الدولة؛ أملَهم، وليستفسروا من أمراءِ أمرائهم وأمرائهم عن سبب نقص العهد، وليعلموا، ومن بعد، مهْما يقترحون، فلا يظنّوا أنّ الاستعداد والتهيؤ في الغفلة والإهمال». «في أوائل محرم سنة١٠٠١»هـ[١٥٩٢م].

(حسب حال الزمان)

بعدَ حملة «سكتوار»، لمّا كان العهدُ والأمان بمساعي الوزير اليقظ المرحوم «محمد باشا» على الحدودِ المنصورة في زمان المرحوم السّلطان «سليم خان» طاب ثراه على استحكام؛ كان أهلُ وعيالُ أهلِ الإسلام هادئي الحال في مهْدِ الراحة. وحاليًا، لما وقع زمامُ الملك والسلطنة في يدِ الجُهلاء، صار مدبّرو ومباشرو مصالح المسلمين غير لائقين، ولا مستقيمين بسوءِ نواياهم، ليجعل الحقُّ سبحانه وتعالى العاقبةَ خيرًا.

(عندما أظهرَ حاكمُ البغدان الخيانة، قُبض عليه وتمّت مجازاته)

قبلَ هذا، وجّهت بناءً على القانون وظيفةُ حاكم البغدان من السدّة التي مدارها السّعادة إلى الكافر المعروف باسم «بتره»، وعندما ذهبَ رئيسُ البوّابين من العتبة العليّة إلى البغدان لتنْصيب الحاكم (ويوداه) المرقوم بدرجة سنجاق، اتّفق الكافر المجذوب مع كثيرٍ من المفسدين الملاعين، ولم يسمحوا للقادمين بدخول المملكة قائلين: «لا نقبل الحاكمَ (ويواده) القادم، أعطيت أنا أيضًا للخزينة العامرة زيادة أكثر مِن جزيته. وبعونه تعالى، بحُسن الرّأي والتدبير تمّ القبضُ على الكافر الذي كان باعثًا على الضّوضاء وسببَ الاضطراب، وفي الحال تمّ تقييدُه بالسلاسل، وعندما جاءَ لمركز الدولة، أُرسل لمكان المجازاة في سوق السمك، وأُعدم، وأصبح باعثًا لعبرة الناس. في أواسط محرم سنة ١٠٠١هـ/ أكتوبر١٥٩٢م.

(خبرُ العروض القادمةِ لمركز الدّولة بخصوصِ دفتردار الشام «محمود أفندي»)

في هذه الأثناء، جاءت العروضُ بخصوص دفتردار الشام «تذكرجي زاده محمود أفندي»، وعندما أعلم قاضي الشّام مولانا أعلمُ العلماء «كوجك مصطفى أفندي «وأمير أمراء الشّام حضرة «خليل باشا» لمركز الدّولة قائلين: «قال الكفر الذي يوجب قتله». ولُخّص العرض، وعُرض على حضرة السّعادة السلطان الذي علمه كالقدر، صدر فرمانٌ نصُّه: «ليستغنى عن صاحب الفضيلة شيخ الإسلام «زكريا أفندي»، وعندئذ أجاب الـ «مفتي أفندي» قائلًا: «لو قتل المذكورُ في ذلك الوقت لكان ذهب، أمّا الآن لو تابَ واستغفر لا يُقتل. «إنّ الموضوع الذي سبب هذه القصة كان إحدى بدع المقاطعة حيث إنّ الدفتردار الذي اعتادَ تحصيلَ الأموال من أجل الخزينة الميرية من البائعين والمشترين بين التّجار المشهورين باسم الدلالية والسمسارية، يسعى لتحصيلها لجانبِ الخزينة الميرية، أمّا قاضي الشام، قال: لا ينبغي تحصيلُها شرعًا، إنّه شيء مُسْتقبح. إنّ السّعي لتحصيلها لجانبِ الخزينة الميرية، أمّا قاضي الميرية قال: إنّ السّعي لهذا النوع نعوذُ بالله يؤدّي إلى سوءِ خاتمة. فهناك خشيةٌ من الكفر، وضياعٌ مِن عدم الإيمان». ولّما قال الدفتردار كلامًا غيرَ لائقٍ وعبثًا؛ عُزل وحُبس في القلعة،

وصدرَ الأمرُ بالإحسان على «محمد أفندي» المترقّي من وظيفة الذواقة، والذي كان دفتردارًا في بغداد سابقًا؛ بالوظيفة مكانه، وصدر فرمانٌ بأن يحقّق أمير الأمراء «خليل باشا» بين الدفتردار والقاضي، وأن يعرضه. في ١٥ محرم سنة إحدى وألف هـ/ أكتوبر ١٥٩٢م.

(إخراجُ رواتب الـ «لذ»[1] وتبديلاتُ بعض الكتاب)

في أواخر محرم، جاء «أوزون أحمد جاوشي»، و«بالقجي زاده مصطفى» المتوجّهان لتحصيل الأموال بموجب الأحكام العاجلة من خزينة الشام وحلب، ولمّا أحضروا مقدارًا من الفلوري من المقاطعات؛ أُخرجت رواتبُ اللذ بمشقّة شديدة، وأُحسن بها. ولمّا عُزل كاتب الييني جري «عالي أفندي»، وعُين كاتب «فودوله» «قرة عمر چلبي» مكانه، أصبح كاتب الييني جري، وصدر الأمرُ بالإحسان على المتفرقة «عبد الرحمن چلبي» ابن الدّفتردار «مصطفى أفندي» بوظيفة كاتب «فودوله»، وعُزل أمين الدفتر السّلطاني «يحيى چلبي»، وأصبح «علي أفندي» أمين الدفتر.

(تحريرُ الجزية على رعايا المملكة)

ومرّة أخرى، في هذه الأثناء، لمْ تُعطَ العلوفات التي يستحقّها الذين يعملون من أفراد البلوك؛ وقفوا على رأسِ الطريق لرئيس الدفتردارية «أمير أفندي»، وتجرأ عليه جندُ الجبه جيه والمدفعية وسائقو عربات المدافع بسفالةٍ مُطيلين اللسان، وبناءً على الحكْمة، تمارض المذكورُ أيضًا يومين من أجل دفع الشّرور والفتنة، ولم يأتِ للديوان، ولم تُعطَ رواتبهم المقابلة لعملهم والواجب إعطاؤها، وبقيت، وبدأت ديون الخزينة العامرة للإخراجاتِ والمصارف الخاصّة بلا حدّ وبلا حصر.

---

(١) لذ: اسم الرواتب التي يتقاضاها جند الييني جرى عن أشهر شوال وذي القعدة وذي الحجة.

(عدمُ كفايةِ إيرادات الخزينة لمصاريفها، وكوْن الإخراجات الخاصّة فوق الحدّ)

لمّا كانت الإتلافاتُ والإسرافات على درجةٍ عالية، كان «أويس پاشا «قد أمر سابقًا بزيادةِ ثمن الخمْر والعرق لرعايا المَمْلكة خمسة عشر آقجة بسبب ضائقة الخزينة في هذا الخصوص، وجعلها مقاطعةً مستقلّة.

ولمّا عرض الرّعايا غير القادرين بأنّهم عاجزونَ عن أعطاء التكاليف المذكورة، خلاصةُ القول، كانوا قد رضوا بالاتّفاق على إلحاقه وضمّه لخراجهم، وقبلوه.

وبناءً على صدور الفرمان نصُّه: «الآن، إيرادُ الخزينة العامرة غيرُ كافٍ عن الإيفاء بسائر التّكاليف والمصاريف، فعندما يصلُ لدرجة الخراج الشّرعي للرعايا حسب الأعلى والأوسط والأدنى؛ فإنّه مشروع أنْ يُحملوا بجزيتهم قدرُها ثلاثين آقجة، قيدت الجزيةُ على الجميع قدرُها خمسٌ وأربعون آقجة، وأُلْحقت لإيراد الخزينة من عام إلى عام. في أواخر محرم سنة ١٠٠١هـ/ أكتوبر١٥٩٢م.

(تبديلُ دفتردار مصر)

في غرّة صفر، لمّا عُزل دفتردارُ الديار المصرية «سيد أحمد أفندي»، وقُبلت هدايا «سنان پاشا» اللائقة من الأمراء المكلّفين بالمحافظة على مصر؛ صدر فرمانٌ بتعيينه ناظر الأموال مكانه.

(توجيهُ وظيفة دفتردار حلب، ووظيفة أمير أمراء حلب)

في أواسط صفر، صدر فرمانٌ بعزل دفتردار حلب، نصُّه: «لم يصبح دفتردار حلب «خيالي زاده عمر أفندي» قادرًا على إرسال الأموال المتعهّد بتحصيلها لمركز الدّولة في زمنٍ قليل ومدّة يسيرة»؛ وبناءً على تحصيل «جركس حيدر پاشا» الذي أُطلق سراحُه من حبس «يدي قله» بوظيفةِ نظارة الأموال وأموال «بقايا» السنين السابقة لإمارة أمراءِ حلب، وإرساله ستمائة ألفِ ذهبية من عام إلى عام؛ أدار المحاسبات، وأصبح متعهّدًا بإحضار مائة وخمسين ذهبيّة للرّواتب في كلِّ ثلاثة أشهر؛ وعندما عُرضت وظيفةُ نظارة الأموال على دفتردار «كريد» الذي كان أسيرًا للكفّار الأذلاء في مالطة سابقًا بشرط أنْ

يصبح دفتردار «حلب»، فبموجب الْتزامه بإمارة الأمراء ووظيفة الدّفتردارية؛ صدر فرمانٌ بالإصلاحات اللائقة في ١٨ صفر سنة ١٠٠٠هـ/ نوفمبر١٥٩٢م.

(تعيينُ مفتي الأنام السابق «بوستان زاده أفندي» صدر الروميلي مرّةً ثانية)

في سلخ شهر صفر، صدر فرمانٌ بعزل صدر الروميلي، أعلم العلماء «مولانا أحمد أفندي»، ونيْل مفتي الأنام السابق «بوستان زاده محمد أفندي» منصب قاضي عسكر الصّدر. وفي يوم السبت، أصبح ميسّرًا جلوسُ الصّدر في الديوان، ونال أهل الديوان الشّرفَ مرّة ثانية بجلوسه معهم.

(مجيء الوزير المكرّم القبطان «جغالة زاده» بالأسطول الهمايوني من البحر ودخوله للميناء)

في اليوم السابع من ربيع الأول سنة١٠٠١هـ/ ديسمبر١٥٩٢م جاء جند الأسطول الهمايوني المكلّفون بمهمّة حماية البحرِ سالمين، ودخلوا للميناء، وجاء بالسفن الباشدارده كلّ من الوزير والقبطان حضرة «جغالة زاده سنان پاشا»، والقبطان العظيم «جعفر پاشا»، «وارنودمي پاشا»، ومع أنّهم كانوا قد ذهبوا من أجل القبض على السّفن التي أبْحرت من الدّيار المصرية لولاية الكفار الأذلاء لبيع التركة ومجازاتهم، إلّا أنّهم مكثوا طويلًا في البحر، ولمّا مرّ الموسم، كان أكثرُ أهل الوقوف في هذه النّواحي قد ظلّوا في هذه النّواحي في بحر الحيرة، وعندما عادوا بالسلامة، حمدوا الله كثيرًا، وشكروا بلا نهاية، وحكوا بأنّه شُوهدت مهارات واستعداداتُ وكفاءات حضرة الـ «قبودان پاشا» في فنّ البحر، وفرق قراصنة الأوجاق القدامى ذوي الحيل، والذين هُم كالذّئاب ذوي الأعين الدامعة، وظهرت، وأصبحت مسلمة ولاقت الاستحسانَ بكلّ صوره.

وقالوا: «يسرون من الطّاعة للسردار الذي لا تتأثّر ذاته، ولا تغترّ بمنصب القباطنة الرّؤساء حتّى ينبغي أن يكون معلومًا الخدمات والمشقّة التي يتحمّلها. فليس هناك مكانٌ لتكليف القادمين بلا استحقاقٍ بالخدمة».

(الإحسانُ بإمارة أمراء ولاية البصرة)

في أوائل شهر ربيع الأول، صدر فرمانٌ بعزل «سنان پاشا» الموجود في خدمة المرحوم «محمد پاشا»، والذي هو أميرُ أمراء ولاية البصرة، وصدر فرمانٌ بالإحسان على «نوح پاشا» المعزول من القدْس، بوظيفة أمير أمراء «سيواس» مع نظارت الأموال، بناءً على هداياه وإصلاحاته اللائقة. في التاريخ المرقوم.

(الإحسانُ بوظيفة دفتردار أرضروم)

تمّ عزلُ دفتردار الأموال في أرضروم القادم من «بودين»، وبناءً على العطايا الكثيرة والمصْروفات الوافرة، أصبح «صاري مصطفى أفندي» الذي عُزل من وظيفة دفتردار طونه، والذي فتّش رئيس الجاويشية؛ دفتردارًا مكانَه في أرضروم مرّة ثانية. في أوائل شهر ربيع الأول سنة إحدى وألف هـ/ ديسمبر ١٩٥٢م.

(الإحسانُ بإمارة أمراء ولاية الموصل)

أُحْسن على «مصطفى آغا» الذي كان كتخدا الوزير الأعظم «سنان پاشا» من قبل، والذي عُيّن رئيس البوّابين مرّتين للسّدة التي مدارها السعادة، وعُزل؛ أحُسن عليه بإمارةِ أمراء ولاية الموصل في أواسط ربيع الأول سنة إحدى وألف (هـ). وأخيرًا، سعى «مصطفى آغا» المذكور بلا فائدة كثيرًا لتبديل إمارة أمراء الموصل لإمارة أخرى، ولم يستطعْ. وفي النهاية صدر فرمانٌ «بتعيين جاوش عليه، وإمراره لآسكدار».

(أحوالُ حاكم مملكة كيلان «خان أحمد» دامتْ معاليه المزيّن بأنواع الفضائل والعلوم معَ حاكم إيران وتوران الشاه عباس، ومجيئه من مملكته إلى مركز الدّولة البعيد)

قبلَ هذا جاءت العروضُ من قبل الوزير «حسن پاشا» الموجود في مهمّة حراسة مملكةِ «شيراون» حيث أعلم فيها بأنّه: «فجأة لّما تدفّق الشاه عباس بالعساكر مثل السّيل الجاري، وجاء نحو حاكم مملكة «كيلان خان أحمد»؛ تفرّق «خان أحمد» عن أهلِه وعياله وماله ومناله، ونجا وخلص مع بعض الأشخاص من أتباعه «الخواص» بصعوبة،

ولم يستطعْ إنقاذ شيء من أمتعته. وجاء، ووصلَ لبلاد شيراون، وإنّ أقصى مرامِه ليلَ نهار هو تغبيرُ الوجْه لعتبة السلطان».

وفي الحال، كان قد صدر فرمانٌ بإرسال الحكم الشريف بمجيء «خان أحمد» مع «حسن پاشا» لمركز الدولة. وبعده، كان قد أُرسل الحكمُ الشّريف مرّةً ثانية، وصدر الأمرُ، نصُّه: «عليك أن تكون في مهمّة حراسة «شيراون» كما كان.

والآن في أواخر ربيع الأوّل، قطع المنازل والمراحل؛ ولمّا تواجد أمير أمراء الروميلي على رأس تجمّع للخروج لاستقباله عند المنزل في «ايزنكميد»، أصدر فرمانٌ بأن يحضرَ رئيس الدفتردارية «أمير أفندي»، وأمير التوقيعات «حمزة پاشا» واليولداشلر المعتمدين من بلوك السلحدارية، ورئيس الجاويشية «سليمان آغا» بالجاويشية المعتمدين؛ إلى «آسكدار». ولم يعقدِ الدّيوانُ يومين، وأُقيمت الضيافة العالية له في «آسكدار»، وقُدّم له جوادٌ بطاقم كامل من جياد الـ«خاص»، وأُمرر بسفينة القبطان الوزير «جغالة زاده سنان پاشا» من آسكدار إلى استانبول، ولمّا ظهر منشرحًا كالقلوب المنيرة، خرج خدمُ القصر وزمرةُ البكتاشيين مملوئين بالعظمة والوقار بالمعازف وآلات الضّرب والحرب، واستقبله آغا الييني جري «محمد آغا»، وآغوات الركاب الهمايوني مكملين ومسلّحين بالزينة والبهاء، وأصبح رعايا استانبول مذهولين أثناء الفرجة، وكان الوزيرُ الأعظم «سياوش پاشا» قد عهد لهذا الفقير قليل الاعتماد (سلانيكي) خدمة ضيافةِ «خان أحمد»، وأمره قائلًا: «عليك ألّا تضيع دقيقة في خدمة الأمور المهمّة للضّيف»، ولمّا تمّ تجهيز إقامته في سراي المرحوم الوزير «يوسف پاشا» الواقع قرب «قرق جشمه»، بعونه تعالى أظهرَ الاهتمامَ في هذا الخصوص الذي يليق بقانون السّلطنة، وبذل المقدور في القيام بالخدمة اللائقة بناءً على ما هو مقيد في الدفاتر القديمة التي صارت محفوظاتنا ومقيّداتنا من أطوار السلف، وفُرشت الحجرات الفاخرة كما ينبغي، وزُيّنت بأنواع الزّهور والرياحين والفواكه، وأُعدت أربعُ موائد من نعم الملوك الـ«خاص» التي على أقلّها اثنا عشر نوعًا من النعم، وعلى أعلاها أربعون نوعًا من النّعم، وقُدّمت في حجرته الـ«خاص» ذاتًا، وأُكرم.

وقُدّم لسائر خدّامه أيضًا ثلاثون مائدة من موائدِ النّعم السلطانية -حيث كان قد وضع على أقلّها تسعةُ أنواع من النّعم، وعلى أعلاها تسعة أنواع من النعم، وأُحسن على أمين المطبخ العامرة «محمد آغا» وعلى الخان المومأ إليه بالخلع الفاخرة، وصدر فرمانٌ بأَنْ تكون المصاريف والحوائج اليومية من المطبخ العامرة. وخصص ثمانية خراف يومية، وعشرة أكيال أرز، وثلاثون وقية سمن صاف، ونصف قنطار عسل وعددٌ خمسة عشر من شمع العسل، وعددُ أربعين بيضة يومية، وأسماك، وسائر أقسام التوابل، وعصير الليمون، والمسك. وبناءً على القانون القديم صدر فرمانٌ بإعطاء علفٍ لحيواناته من الإسطبل العامرة، وأُعطيَ خمسة أشخاص من المطبخ العامرة، ونفران سايس، وأربعة أنفار من أولاد العجم من الخدم السود، وألف وخمسمائة حمل من الحطب، وتمّ تعيين «يوسف جاوش» بجوار هذا الحقير (سلانيكي)، وخمسة عشر شخصًا من جندِ السپاهية والجبه جبه والمدفعية من أفراد البلوك لخدمته. وكان قد بذل الجهد المقدور، وسعى السعي المشكور.

حقيقة، رويَ أنّه كان ضيفًا عزيزَ الوجود، وكان مزيّنًا بأنواع فضائل العلوم، وراويًا للحديث الشريف في المرتبة الخامسة، وكان بلا نظير في علم التفسير، ومنحدرًا من عائلة قديمة شريفة الخصال، وحاكم مملكة كيلان أبًا عن جد، وسنيَّ المذهب، وسيدًا صحيح النسب، وعندما ذكر الأصحاب المختارين، كان يصفهم بأنواع التعظيم، وفي أثناء الحديث معه، عندما ذكر أنّه فُصل من صدر الحكومة التي نشأ وتربى فيها آباؤه وأجدادُه سنين طويلة، بذلت السعي البليغ والجهد الجهيد قدرَ قدرتي لدفع الكدر والسّأم عنه، وكنتُ أقول له: «خاني، صاحب السعادة كلّ مَن التجأ من ملوك الأطراف والأكناف، ومن حكّام الممالك الذين اعتادوا تغبير الوجه للسدة التي مدارها السّعادة، كان أقصى مرامهم التوقيرَ بالإعزاز والإكرام ونيل المرام بلا امتنان الذي لا يخطرُ ببال الضّيوف، والذي هو مِن العادات الكريمة «لآل عثمان» حتى الآن على هذا النحو. وإنّ التفوّق عن فائقي الأقران والجميع بأصناف كرمهم، وإحسانهم، وذيوع الشهرة في الآفاق؛ هي معتاداتهم.

فلا ينبغي أن يأتي الكللُ والسّأم لخاطركم المبارك. إنّه حضرة السلطان حامي العالم، هو سلطان السّلاطين المعظم. جئتم، وسترونه إنْ شاء الله. إنّه مقيّد في كتبنا ودفاترنا؛ الإكرام والاحترام الذي أظهرتموه للسّلاطين والحكام الأجداد العظام والآباء الكرام من العائلة العثمانية من قبل. وخصوصًا كان «كامران ميرزا» شقيق «همايون ميرزا» حاكم الهند والسند و«عسكري ميرزا»، و«آق سلطان» حاكم «بدخشان»، و«مظفر سلطان» حاكم كيلان و«شيراون شاه»، و«ايلقاض ميرزا»، من القادمين لمركز دولة السّلطان «سليمان» عليه الرحمة والغفران، قد أصبح كلّ واحدٍ منهم منظورًا بعين العناية السّلطانية، ونال الاعتبارَ والإكرام فوق الحد.

خلاصةُ القول: ذاع ذكرُ فضائل آل عثمان بالأوصاف الحميدة والأشكال اللائقة، في الآفاق، وأصبحت كتبُ التواريخ مملوءةً بآثارهم الحسنة. وأكرموا أيضًا سلاطين الكفرة من أعداء الدين، وبعد الاستيلاء على ولاية «بودين» بالسيف الذي إسالته النار من حاكم المجر، جاء مؤسّسُ ولاية أردل «بانوش»، ولمّا غبّر الوجه للركاب الهمايوني، قلتُ أنا (سلانيكي): «أُحسن عليه بمملكة المجر وبودين». وعندئذ قال: في تاريخ سنة٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م. ومن قبل، عندما أصبح تغبيرُ «مظفر سلطان» القادم من كيلان أثناءَ حملة «عراقيين»، والذي هو ابن عمّنا، تغبيره الوجه لركاب السلطان «سليمان» عليه الرحمة والغفران، في مصيف «أوجان»؛ مؤكّدًا، وصفه رئيس العسكر السلطاني حضرةُ «إبراهيم پاشا» قائلًا: «سلطاني، كان هذا السّلطان القادم رجلًا صاحب مال، وذا اقتدار، وزيّن نفسه بالزينة والبهاء».

قال السلطان: «فلينبهوا، بقدْر ما كان قادرًا على اللباس والزينة. فليلبس وليتهندم، وعندما يأتي للسّلام، ينبغي أن نتفرّج عليه». وبناءً على فرمانه الهمايوني، عندما جاء «مظفّر سلطان» مملوءًا بالزينة والبهاء ومتظاهرًا، ووقف في موضع السلام؛ شاهده حضرةُ السّلطان عالي المقام. الذي جنده كالأنجم، وقال: «ينبغي عليك أنْ تسأل كم يومًا يكون الطريقُ إلى المملكة التي حكمها هذا الشخص؟ وما طولها وعرضها؟ كم يبلغُ مقدارُ خرابها ومعمورها؟ ما جنس الطائفة التي تسكنها؟ ينبغي أن نعرف»،

وعندما سُئل بناءً على فرمانه، أجاب بصواب على هذا النحو: «طول مملكتنا خمسة أيام سيرًا، وعرضها أربعةُ أيام فقط. وليس هناكَ موضع خرب بها. إنّها معمورة. أنهارُها كثيرة، ومحصولُها الأرز والسمك، ورعاياها جميعًا مسلمون، وأهلُ زهد وصلاح على طاعة وعبادة، ويوجد بها تقريبًا خمسمائة منزل يهود من الكفرة معدودة ومحدودةً، وإنّ عملهم وكسبَهم قاصرٌ على تجارة الهند». وطبقًا لذلك التقدير أصبح معلومًا لدى السّلطان سليمان أنّ هذا الشخص كان ظالمًا حيث أنّ آباءه وأجداده لم يجمعوا هذا القدرَ من الجواهر، وقال السّلطان «سليمان»: «على أيّة حال فليزاول مصلحته. فلا تراه عيني». إنّ هذا الكلام المبارك للسلطان أصبح مشهورًا في مملكتنا».

كان شخصًا باقيًا في المخاطر (المقصود به الضّيف) وذا صحبةٍ طيبة، وصاحبَ فضيلة. لكنْ كلّما ذُكر شاه القزلباش «عباس ميرزا»، كان لا يتوقّفُ عن قوله: «أي كتخدا يكون هو؟». قبل القائدُ الأكرم صلحَه، وجعله ينتسب للآستانة. وعندما قال: «يقولون مهما فعل الآن لنا، ليس له وسيط، ولا يفعل أمرًا مغايرًا للصلح». وكنت أنا الفقير (سلانيكي) أتحدّث إليه معارضًا ومناقشًا. وعندما قلت: «كان ظهور القزلباش ووجودُهم منذ عهد جدّكم «خان أحمد» حيث جاء «شيخ حيدر» وانتسب لدولة «اوزون حسن»، وبعد أن دخلَ لعرق سلطنة «آق قيونلو» ألحقوا بهم- المقصود بـ «آق قيونلوا»- العارَ الشّديد بسبب دناستِهم بالعقيدة الفاسدة، فاقتصّوا متّفقين من (أولاد «شيخ حيدر») ولكنْ كانوا أولاد الشيخ حيدر قد نجوا مع «خواجه علم» و«خواجه كمال» من قلعة «احتمار» بمساعدة «شيخ حيدر»، وهربوا، وصادفوا في مملكة كيلان، عائلة «خان أحمد» فالتجأوا إليهم، وتوفّي «خواجه علي» وتمّت حماية «خواجه كمال» الذي هو أولاد «شيخ صافي»، والذين سيصبح «شاه إسماعيل»، تمّت حمايته في أوجاقكم مدّة طويلة، وتلقّى التربية حتّى بلغَ الرّشد. وكان قد جاء وتجسّس وأجاب زورًا على ذوي الأمر، فصُلب معلقًا. ونجا بالأيمانِ الغِلاظ والشّداد. وعندما بلغ عمر الثانية عشرة، خرج مِن كيلان مع الملاعين الغِلاظ. ذلك الظهور (ظهور القزلباش) الذي استولى على العالم من إحدى النواحي، أنّهم أعداء العلماء والصلحاء وأهل السنة، ويمثّلون خطرًا».

قال الضيف: «كان الخان شخصًا من الأعيان، وعلى تقوى، وعامل بعلمه حيث أنقذه قائلًا: «فلا ننتقم من أوجاقه». وأطلق سراحه. في الحقيقة لم يعرف أنّ المذكور سوف يغدر، ولم يعلمْ بأنّ العاقبة ستكون وخيمة. فهي أسرار القضاء المسكوت عنها». فعندما قلت أنا (سلانيكي) إنّها حقيقة الحال الذي وضحتموه. أمّا البادي أظلم فهي مشكلة». قال الضّيف: «أصبح معلومًا لديّ أنّك شخص متتبّع لأحداث التاريخ. والآنَ تتجاهل أحوالي المؤلمة».

(مَجيء حضرة «خان أحمد» مُرتديًا الخلعة الفاخرة لسدّة السلطنة بناءً على القانون القديم، وتغبيره الوجْه لمقام العرش الذي مصيره العالم)

في اليوم الثّامن من ربيع الآخر سنة إحدى وألف هـ/ يناير١٥٩٣م، استدعى حضرةُ الوزير الأعظم «سياوش پاشا»، هذا الحقير (سلانيكي)، وسلّمه خلعتين فاخرتين سلطانيّتين، وبموجب صدور فرمانٍ نصُّه: «تفضّل السلطان بالإحسان بهاتين الخلْعتين على الضّيف «خان أحمد»، وألبسهما لحضرة الخان. وعليه أن يحضر غدًا للدّيوان الذي عنوانُه العدالة، ويغبّر الوجهَ لمقام عرش السلطنة». قام سلانيكي بإلباسه الخلْعة، وفي اليوم التالي انعقدَ ديوانُ الغلبة (غلبة ديوان)، وطبقًا للقانون القديم جاء «آغا علوفجيان يسار» «شهباز آغا»، ورئيس الجاويشية «جوبان سليمان آغا»، وأحضروا حضرةَ الخان بالإعزاز والإكرام من استراحته للسّدة التي مدارها الدولة. وجهّز الضيف أوانيه الذّهبية الخالصة التي استطاع إحضارها، وكانت تعادل أربعة آلاف وثمانمائة مثقال. وقدّم حمليْن من الحرير الخالص. وفي اليوم كان الأمراء المشهورون في حدود ولاية «بودين» قدْ أرسلوا الكفرة المجرمين والمسلحين طوال القامة مقيّدين في سلاسلَ بأعلامهم المنكوبة وطبْلهم ونفيرهم مع رؤوس الكفار التي أسقطوها من قبل، وجاءوا، وأحْدثوا ضوضاء في الديوان، ولمّا شاهد كلّ واحدٍ مجلس المَهابة، وعظمة السلطنة؛ ملكَه الذهولُ حتّى أنّ حضرة الخان غرق في بحر الحيرة وبكى بشكلٍ لا إرادي. وعندما جاء الوزراءُ أمام باب السعادة وقفوا، وما إن خرج الـ «صدرين أفنديلر» حي دخل الضيف مع حضرات الوزراء العظام،

وغبّر الوجه لمقام العرش الهمايوني، ودعا للسّلطان، فتفضّل حضرةُ خليفة وجه الأرض بالالتفات للخان المذْكور، وقال: «ما حاله»، ولم يدرْ بينهم حديثٌ غيره، ثمّ خرج الضيف خارجًا. وبعد أنْ شاهد أوضاع الدّولة وازدحام ديوان السّلطنة، أحضرناه لاستراحته، وعندئذ دقّ أفراد طائفة الـ «علم مهترلري»، والـ «صولاقلر»، والـ «بيكلر «نفير» النوبة قائلين: عادة تقبيل يد السلطان وصفقوا.

في هذا الوقت انتهزتُ أنا هذا الفقير (سيلانيكي) الفرصةَ، وقلت للضّيف: «يريد رعايا الدّولة أن يعرفوا صفاءَ خاطركم وانطباعكم عن مقابلة حضرة السلطان حامي العالم، أجاب قائلًا: هل يوجد على وجْه الأرض ملك معظّم كهذا الذي هو موضع تقبيل سلاطين العالم مثل السّدة التي هي كالسّدرة، لقد ملكتني السعادة حين قبّلت ذيلَ ثوبه المبارك. (مصرع) «أيها السّلطان، الحمدُ لله أنّني رأيت وجهك»، وبينما كانت الذات الشّريفة للخان أحمد التي وصلت لمقام صدْرِ العزّة بالشرف والنسب والفضل، ترى نفسَها في أعلى قبّة السماء؛ أصبح ممكنًا لها راحة القلب وتسلية الخاطر بنيل العناية والاعتبار. ولمّا كان «خان أحمد» شخصًا من ذوي أهل الفضل ومن ذوي الألباب؛ صار في حالة استغراقٍ فكريّ وحيرة دائمة.

(وقوعُ الأحوال التي بواسطتها استخرج «خان أحمد» دامت معاليه بعضَ الدّرجات بقوته العلمية)

ذاتَ يوم استدعى «خان أحمد» العبدَ الفقير (سلانيكي)، وبينما كان في حالة من السّعادة، بين العديد من العجائب والغرائب مستخرجًا إيّاها من العلوم العربية، وقال: «يلزم أحد أهل العلم والكمال الذي يعلم أحوالَنا المليئة بالأحزان وخاطرنا المفتون؛ فلو ناقشتنا قليلًا عن علومنا التي عرفناها وفهمْناها من أحكام الاتصالات والعلاقات النّاتجة عنْ حركات النجوم، وعن التّبديلات والانقلابات التي تظهر في مرآة العالم. وأخبرَ قائلًا: سوف تحدثُ فتنة عظيمة في الديوان الهمايوني الأسبوع القادم لن تخطرَ ببال أيّ فرد؛ حيث سيقف الجلادُ على الباب بسيفه مجردًا، ويلزم أن يقتل أشخاصًا كثيرة. أوّلًا ينبغي أن يجلس جميعُ الوزراء والدفترداريّة

الآتية أسماؤهم، كُلّ في مكانه: «سنان پاشا»، و«فرهاد پاشا» و«محمد پاشا»، ومن الدفتردارية «إبراهيم» و«برهان» و«محمود»، وأضاف قائلًا: «سيسقط كلّ مِن صاحب الدّولة الجالس على صدرِ الوزارة، والشريف «محمد»، وليأتي مكانه شخصٌ قويّ القلب، صاحب قدرة، وليأتِ آخرون أيضًا، ثمّ قال: اللهُ أعلم. ليس لديّ شكّ في وقوع هذا الأمر لهؤلاء، فليحضروا الآن.

وقد صُرف النظرُ عن طباعة الجزء التّالي من «تاريخ سلانيكي»؛ بسبب تحرير الوقائع التي حدثتْ بعدَ هذا التاريخ (ربيع الآخر ١٠٠١هـ/ يناير١٥٩٣م، تفصيلًا في كتاب «تاريخ نعيما».

وقد اخْتتم طبعُ «تاريخ سلانيكي» هذا- الذي يعتبر من التواريخ التركية المشهورة- في المطبعة العامرة في مقام حضرةِ السّلطان صاحب الرفعة، بإشراف العاجز «لطفي». في أوائل رجب ١٢٨١هـ/ نوفمبر١٨٦٤م.



فهرس الموضوعات



السّيرة الذاتية للباحث:

د. أحمد حنفي عبد الرحيم

- ولد في محافظة سوهاج عام ١٩٦٨م.
- حصل على درجة الليسانس من قسم اللغات الشرقية (تركي) كلية آداب سوهاج- جامعة أسيوط، عام ١٩٩١م.
- عُيِّن معيدًا بقسم اللغات الشرقية- كلية آداب سوهاج في ١٤/ ٤/ ١٩٩٦م
- حصلَ على درجة الماجستير في الآداب من كلية آداب سوهاج في ٢٢/ ٢/ ١٩٩٩م.
- عُيِّن مدرسًا مساعدًا بقسم اللغات الشرقية- كلية آداب سوهاج في ٢٤/ ٣/ ١٩٩٩م.
- حصلَ على درجة الدكتوراه في الآداب من كلية الآداب- جامعة عين شمس في ١١ أغسطس عام ٢٠٠٩م.
- عُيِّن عضوَ هيئة التدريس بقسم اللغات الشرقية كلية الآداب- جامعة سوهاج في ٢٢/ ٢/ ٢٠١٠م.

E. mail: doctor ahmed hanafy@gmail.com

دار البشير للثقافة والعلوم